وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ

نوح وهُود وصالح وإبراهيم ويوسف وأيوب

عليهم السلام

الجزء الأول

حقوق الطبع محفوظة

الطَّبعَة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية او اي جهة حكومية اخرى

دار عمار للنشر والتوزيع

عمّان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري

تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمّان ١١١٩٢ الأردن

dar_ammar@hotmail.com

وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ

نوح وهُود وصالح وإبراهيم ويوسف وأيوب
عليهم السلام
الجزء الأول

الشيخ نافع بن خالد العلواني
المتوفى سنة ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م
رحمه الله

دار عمار

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله، الحمد لله مُسبِّبِ الأسباب، ومُنْزِل الكتاب، سبحانه وتعالى، حفظَ الأرضَ بالجبال من الاضطرابِ، وسَمِعَ خفيَّ النُطق ومهموسَ الخطاب.

نسألك اللهم يا من ذلّتْ له الرقابُ، أن تحفظنا في الحال والمآب، كما نسأَلُك أن تُلهمنا التزودَ قبل حلول التراب.

وصلى الله على محمد عبده ورسوله وعلى الآل والأصحاب.

دراسة قصص الأنبياء هي المعين الصافي لنبع الأديان والشرائع والعقائد، ولهذا خاطب الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ بقوله بعد أن ذكر الأنبياء الثمانية
عشرَ قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ
إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا
هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾
وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام].

ثم ذكرت الآيات الثلاث بعدها قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ
وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن
يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ
ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾
[الأنعام]، أنهم كانوا مهديّين للدين الخالص وإلى الطريق المستقيم في الاعتقادات، والأخلاق، والأعمال والعبادات.

وبعد أن ذكرَ كلَّ ذلك خاطب الله نبيَّه محمداً ﷺ بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ

ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنعام].

والمراد بقوله: ﴿ ذِكْرَىٰ ﴾: هو ذكر التوحيد والبعث والثواب والعقاب، والذكرُ: ضد النسيان.

وقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ ﴾: أي الأنبياء المُتقدمُ ذكرهم هُدوا إلى الطريق المستقيم، والمنهج الحقِّ، وطلب الله من النبي ﷺ أن يقتديَ بهم جميعاً.

ونحن نعلم أنَّ كلَّ واحدٍ من هؤلاء الأنبياء قد تميَّزَ بخَصْلةٍ من الخير مع وجود قدرٍ مُشتركٍ بين الجميع، وهو إخلاص العبودية لله تعالى، والإيمان بالله ووحدانيته في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، كل هؤلاء الأنبياء مُشتركون في الأصول، مع تميُّز كلٍّ منهم بفضيلة معينة، وأنَّ خصال الكمال والشرف كانت مُفرقةً فيهم بأجمعهم:

فسليمان وداوود مثلاً: كانا أصحابَ شكر على النعمة مع القدرةِ على السلطان والمُلك.

وأيوب: كان من أصحاب الصبر على البليَّة.

ويوسف: كان جامعاً لهاتين الخصلتين: الصبر والقدرة على الحُكم.

وموسى: كان صاحب الشريعة القوية، والمعجزات الظاهرة.

وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس: تميزوا بخصلة الزهد.

وإسماعيل: كان صاحب الصدق.

ويونس: كان صاحب تَضَرُّعٍ وهو في بطن الحوت.

ثم جاء الأمر لنبينا ﷺ، بأن يقتديَ بهم جميعاً، وذلك قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾.

قال العلماء: وهذا أمرٌ من الله تعالى لنبينا ﷺ بأن يجمعَ كلَّ خصال التميُّز التي للأنبياء، ولا شك أنه ﷺ قد نفَّذَ ما أمره الله به لأنه معصوم عن المخالفة.

وطالما أنه ﷺ قد جمعَ كلَّ صفات ومزايا الأنبياء، فحُقَّ له أن يكون خاتم الأنبياء، وواجبٌ أن نتخذهُ قدوةً كما أمرنا الله بقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب]: أي قدوةٌ لكم في أخلاقه وأفعاله.

قال الحكيم الترمذي: الأُسوةُ في الرسول ﷺ، والاقتداءُ به، والاتباعُ لسنته، وتركُ مخالفته في قول أو فعل.

نوح

عليه الصلاة والسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

نوح عليه الصلاة والسلام

الحمدلله، الحمد لله الذي تُسَبِّحُه البحار الطوافح والسُّحُبُ السوافح، والأفكار والقرائح، ساتر المذنب في عصيانه ورازق الصالح والطالح.

نحمده سبحانه على تسهيل المصالح، ونشكره على ستر القبائح.

والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله، أفضل غادٍ، وأكرم رائحٍ.

نسألك اللهم أن تَـهَبَ طالحنا لصالحنا، وسامحنا فأنت الحليم المسامح، واغفر لنا ذنوبنا قبل أن تشهد علينا الجوارح، ونَبِّهنا من رقدات الغفلات قبل أن يصيح علينا الصائح، وانفعنا – يامولانا – بما نقول بفضلك فأنت أهل الفضل والمنائح أما بعد..

هو أول أُولي العزم من الرسل، إنه رسول الله «نوح» عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، بل هو أول رسول إلى الأرض، لما روى قتادة عن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال: «أول رسول أُرسل نوح، وأُرسل إلى جميع أهل الأرض».

قال القرطبي: إن نوحاً أُرسل إلى أهل الأرض جميعاً، ولهذا لما كفروا ولم يستجيبوا أُغرق أهل الأرض جميعاً.

قال القاضي عياض: اختُصَّ بعثُ نوح لأهل الأرض كافةً كنبينا محمد ﷺ.

نسبه:

هو «نوح بن لامك»، وعند العرب «نوح بن لمك»، ويمتد نسبه إلى آدم

عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

وأُمه هي «بتنوس ابنة يراكيل».

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران].

هو شيخ المرسلين، وأول رسول بعثه الله عز وجل إلى أهل الأرض بعد آدم.

قال العلماء: ومعنى ﴿ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾: اختارهم وصفَّاهم من الصفات الذميمة وزَيَّنهم بالصفات الحميدة، ولهذا قال المفسرون: إن الله اختار آدم بخمسة أشياء:

أولاً: أنه خلقه بيده، في أحسن صورة بقدرته عز وجل.

ثانياً: أنه علَّمهُ الأسماء كلّها.

ثالثاً: أنه أمر الملائكة بالسجود له.

رابعاً: أنه أسكنه الجنة.

خامساً: أنه جعله أبا البشر.

واختار الله تعالى نوحاً بخمسة أشياء:

أولاً: أنه جعله أبا البشر الثاني بعد آدم لأن الناس كلَّهم غرقوا، وصارت ذريته هم الباقين.

ثانياً: أنه أطال عمره، ويقال: طوبى لمن طال عُمرهُ، وحَسُنَ عملُه.

ثالثاً: استجاب دعاءه على الكافرين، وعلى المؤمنين.

رابعاً: أنه حمله على السفينة.

خامساً: أنه كان أول من نسخ الشرائع، فقد كان قبله يُباح الزواج بالقرابات من المحارم، كالخالات والعمات والأخوات.

واختار إبراهيم بخمسة أشياء:

أولاً: أنه خرج مهاجراً إلى ربه ليهديه.

ثانياً: أنه اتخذه خليلاً.

ثالثاً: أنه أنجاه من النار.

رابعاً: أنه جعله للناس إماماً.

خامساً: أنه ابتلاه بالكلمات فوفَّقهُ الله فأتمَّهنَّ قال تعالى: ﴿ ۞ **وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ** ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة].

تصحيح لخطأ تاريخي:

قال القرطبي في «تفسيره» بعد أن قال: إن نوحاً شيخ المرسلين، وأول رسول بعثه الله إلى الأرض بعد آدم، قال القرطبي: ومن قال: إن إدريس كان قبله فقد وَهِمَ.

وقال ابن العربي في «أحكام القرآن»: ومن قال من المؤرخين: إن إدريس كان قبل نوح فقد وَهِمَ، لأنه اتبع صحف اليهود وكُتُبَ الإسرائيليات، ثم قال ابن العربي: والدليل على ذلك - على هذا الوهم - أنَّ النبي ﷺ ذكر في حديثٍ صحيح الذي روي في إسرائه عليه الصلاة والسلام، أنه لما التقى بآدم وإدريس، قال آدم لمحمد ﷺ: «مرحباً بالنبي الصالح، والابن الصالح»، وقال إدريس لمحمد ﷺ: «مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح»، ولو كان إدريس أباً لنوح على صُلْبِ محمد ﷺ لقال له: مرحباً بالنبي الصالح والابن

الصالح، فلما قال له: «مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح» دلَّ على أنه يجتمع مع النبي ﷺ في أبيهم نوح.

ثم يقول ابن العربي: ولا كلام لمنصفٍ بعد هذا، ويؤيد هذا أن ابن جرير الطبري قال: كان مولد نوح بعد وفاة آدم بمائةٍ وستٍ وعشرين سنة.

وقال أهل الكتاب: كان بين موت آدم ومولد نوح مائةٌ وستٌّ وأربعون سنة.

أولاده:

كان لنوح قبل الطوفان ولدان هلكا جميعاً:

أولهما: يقال له «كنعان»: وهو الذي غرق في الطوفان، والعرب تُسميه «يام».

الثاني: يقال له «عابر»، ومات قبل الطوفان.

ووُلد لنوح بعد الطوفان ثلاثة أولاد: سام، وحام، ويافث.

فقد ورد عن ابن عباس قوله: وُلد لنوحٍ:

سام: وفي ولده بياض وأدمةٌ.

حام: وفي ولده سواد وبياض قليل.

يافث: وفيهم الحمرة والشقرة، وقد ذكر الطبري حديثاً عن الحسن، عن «سمرة بن جندب»، عن النبي ﷺ قال في قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الصافات]، قال: «سام وحام ويافث».

قال سعيد بن المسيب: وَلَدُ نوحٍ ثلاثة، سام وحام ويافث، ووَلَدُ كل واحد من هؤلاء الثلاثةِ ثلاثةً.

فولد سام: العرب وفارس والروم.

ووَلَدُ يافث: الترك والصقالبة، ويأجوج ومأجوج.

ووَلَدُ حام: القبط والسودان والبربر.

وقد ورد في «صحيح البخاري» عن ابن عباس قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرونٍ كلُّهم على الإسلام، أي كلها صالحة، أي كلهم صالحون.

وقال وهب: كلهم مؤمنون، والحديث لا يدل على ألف سنة حصراً لأنه قد يكون العدد أكثر من عشرة قرون، ولكن القرون العشرة كان الناس فيها مؤمنين، وكانوا على الإسلام، ثم جاء قرون بعد العشرة لم يكن الناس على الإسلام في معظمهم، وقد يُرادُ بالقرن الجيل، فيكون عدد السنين أكثر، وقد ذكر ابن حبان في «صحيحه» من حديث أبي أُمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله، أَنبيٌّ كان آدم؟ قال ﷺ: «نعم، نبيٌّ مُكَلَّم»، قال: كم بينه وبين نوح؟ قال ﷺ: «عشرة قرون».

وحديث ابن عباس، وكلام وهب، يَرُدُّ كلٌّ منهما كلام أهل الكتاب، ويُكذب كل كلامٍ يقول: إن أولاد قابيل عبدوا النار.

قال ابن عطية في تفسيره «المحرر الوجيز»: نوح هو أول رسول جاء لإنذار الكافرين بالعذاب والهلاك إذا لم يؤمنوا، فهو أول رسول على هذه الصفة؛ لأن الناس قبله كانوا مُوحِّدين لا يعرفون أصناماً، ولذلك لم يُبعث لهم رسل تُنذرهم وتُخوفهم؛ لأنهم كانوا على الفطرة، وكان «شيث» ابن آدم يأمر الناس بعد وفاة آدم بالفضائل، ويدعوهم إلى مكارم الأخلاق، فهو أولُ رسولٍ مُنذِر، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [نوح].

ويدل على ذلك الحديث المروي في الصحيحين عن أبي هريرة، وهو حديث الشفاعة، وفيه أن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فينظرُهم الناظر، ويُسمعهم الداعي، وتدنو منهم الشمس فيبلغ الناس من الكرب ما لا يطيقون، ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا تنظرون مَنْ يشفع لكم؟ فيأتون آدم و يقولون: أنت آدم أبو البشر، خلقك الله بيده، ألا تشفع لنا؟ فيقول: إن ربي غضب اليوم غضباً، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: أنت أولُ الرسل إلى أهل الأرض وقد سمّاك الله عبداً شكوراً، ألا تشفع لنا؟ فيقول: إن ربي غضب غضباً لم يغضب قبله مثله، نفسي نفسي.. إلخ». متفق عليه.

ويقول الغرناطي صاحب «البحر المحيط»:

نوح أول نبي أُرسل إلى الكافرين، لذلك يُقال له: شيخ المرسلين، ويُقال له: آدم الثاني، وكان يُقال له: «السكن»؛ لأن الناس سكنوا إليه بعد آدم فهو أبوهم.

قال العلماء: كانت سِنُّهُ عندما اختاره الله للرسالة أربعين سنة، فقد ورد عن ابن عباس قال: إن نوحاً عليه السلام بُعثَ وهو ابن أربعين سنة، ولبثَ في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثُرَ الناس.

قال تعالى ذاكراً اصطفاءه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ﴾ [آل عمران].

والاصطفاء: الاختيار للرسالة، أي اخترناه للرسالة فجعلناه صافياً من الأدناس، أي اختيار الأصفى.

وقوله: ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ٣٣﴾: أي على عالمي زمانهم.

وقال الحكيم الترمذي على جميع الخلق كلهم، لأن هؤلاء رُسلٌ وأنبياء، فهم صفوة الخَلقِ، فأما رسولنا محمد ﷺ، فقد تجاوز الاصطفاء، لأنه ﷺ حبيب ورحمة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]. فالرسُل خلقوا للرحمة، ومحمد ﷺ خُلقَ رحمةً، ولذلك صار إماماً للخلق، لَمَّا بعثَهُ الله أمِنَ الخَلْقُ العذابَ إلى نفخ الصور، وسائر الأنبياء لم يصلوا إلى هذه الرتبة، ولذلك لما أراد ﷺ أن يُخبر الناس عن نفسه فماذا قال؟ قال: «إنما أنا رحمةٌ مُهداة»، - الدارمي مرسلاً، و صححه الحاكم، ورُويَ مرفوعاُ - إنه رحمةٌ من الله للخَلْق فهو ﷺ هدية من الله لخلقِهِ.

قال سعيد ابن جبير، عن ابن عباس: كان محمد ﷺ رحمة لجميع الناس، فمن آمن به وصدَّق سُعِدَ، ومن لم يؤمن به سَلِمَ ممّا لحق الأُمم السالفة من الخسف والغرق..إلخ.

قال العلماء: وكلمة ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي كان ﷺ رحمة للعالمين، والعالمين: كل ما سِوى الله عز وجل: فهو ﷺ رحمةٌ لعالم الملائكة، ولعالم الجن، ولعالم الإنس، ولعالم الحيوان والنبات والجماد، فكيف ذلك؟

هو رحمة للملائكة، فجبريل كان يخشى العاقبة، حتى نزل قوله تعالى فيه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ٢١﴾ [التكوير].

فالعِنديةُ هنا: عنديةُ إكرام وتشريف، لا عنديةُ مكان، كما في الأثر: «أنا عند المُنكسِرةِ قلوبُهم» فالمراد بها الإكرام.

ولذلك أنه لما وردت هذه السورة وهذه الآية، قال ﷺ لجبريل: «ذكر

الله قوتك فأخبرني عن شيء من آثارها؟» قال جبريل: رفعتُ مدائنَ قومِ لوط «أو مدائن قوم لوط الأربع» بقوادِمِ جناحي حتى سمع أهلُ السماء نُباحَ الكلب، وصياح الديكة، ثم قلبتُها. وفرق من يكون إلى جانب سرير السلطان من مرتبة ومن يُقدم الماء للوضوء.

وهو ﷺ رحمة للجماد: فقد أمر بإماطة الأذى عن الطريق.

وهو ﷺ رحمة للحيوان: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»، «دخلت امرأة النار في هرة حبستها».

فكل ما جاء به الإسلام على لسان رسوله ﷺ داخل في عناصر الرحمة.

قال العلماء: و كما أن نوحاً كان أول الرسل، كان كذلك من الخمسة أولي العزم، ولذلك قال الله تعالى للرسول محمد ﷺ: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى].

شَرَعَ: بَيَّنَ وأوضح.

قال ابن العربي: كان آدم لم يكن معه إلا بَنُوهُ، فلم تُفرض الفرائض، ولم تُشرع المحرمات، وإنما كان الأمر يقتصر على الأمر بالتقوى والتنبيه على شؤون الحياة والمعاش، وبقي الأمر كذلك حتى جاء نوح، فأوضح أمور الديانات وآدابها، ووضَّح الفرائض والحلال والحرام، ثم قال: ولم يزل الأمر – أي أمر الأديان – يتأكد بالرسل واحداً بعد واحدٍ وشريعةً بعد شريعةٍ، حتى ختمها الله عز وجل بخير المِلل، على لسان أكرم نبي هو نبينا محمد ﷺ، ثم قال: وكأن

المعنى: ووصَّيْناكَ يا محمد و نوحاً ديناً واحداً «في الأصول» التي لا تختلف فيها الشريعة وتطابقت فيها الأديان: وهي التوحيد، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والتقرب إلى الله بالصالحات، والأخلاق الكريمة، وتحريم الكفر، والقتل، والكبائر، والأَذِيَّةِ للخلقِ، والأمر بالابتعاد عن الدناءات، وعن كل ما يخرم المروءات.

وهذا كله شُرِعَ ديناً، وملةً متحدةً لم يختلف عليها الأنبياء.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى]، أي اجعلوه دائماً مستمراً، مستقراً محفوظاً من غير خلاف فيه، فمن الخلق من وفّى، ومنهم من نكثَ به، ومن نكث فإنما ينكثُ على نفسه.

وفي الحديث الذي رواه البخاري من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلّات، دينُنا واحد».

والعَلّاتُ: أولادُ الرجلِ من نِسْوةٍ شتى لأن الرجلَ إذا تزوج امرأة أُخرى على الأُولى يُقال له: «عَلَّ» من هذه.

والعَلَلُ: الشربُ مرةً ثانيةً، لذلك يُقال: «شرب عللاً بعد منهل».

فالأُصول لا تختلف في الأديان جميعاً: من التوحيد، والإيمان بالله، والملائكة، وأصول الدين، وإن اختلفوا في المناهج والشرائع قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة:٤٨].

قال أهل العلم: واقتصر في الآية على ذكر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى لأنهم أولوا العزم من الرسل، ولأنهم أكابر الأنبياء، وأصحاب الشرائع العظيمة، ولأن نوحاً أول رسول إلى الناس، فدينُه هو أساس الديانات قال

تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ ﴾[النساء].

ولأن دين إبراهيم: هو أصل الحنيفية، وانتشر بين العرب بدعوة إسماعيل إليه، وكان العرب عندهم بقايا من دين إبراهيم: في الحج، والخِتان، وقِرى الضيوف، والفتوة...

وأما دين موسى: فلأنه كان أوسع الديانات السابقة في تشريع الأحكام.

وأما دين عيسى: فلأنه الدين الذي سبق دين الإسلام، ولم يكن بينهما دين آخر، وليتضمن التهيئة إلى دعوة اليهود والنصارى إلى الإسلام.

قال «صاحب الكشاف» في قوله تعالى السابق: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى].

كأن الله تعالى يقول: شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث به نوحاً في العهد القديم، وبعث به محمداً ﷺ في العصر الحديث، وبعث به «بالدين الحق» من تَوسط بينهما.

وقد ذكر «أبو القاسم القشيري» في كتاب «التحبير في التذكير»، قال: إنَّ نوحاً كان اسمه «يشكرَ»، ثم غلب عليه اسمُ «نوح».

لكن كيف ذلك ؟

والجواب يأتي على طريقين:

الأول: عن ابن عباس قال: إنما سُميَ نوحُ نوحاً؛ لأنه بقي يدعو قومه

ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً إلى الله، فكانوا كلما ردُّوا عليه بالكفر بكى وارتفع صوتُهُ بالبكاء أسفاً عليهم فسُمِّيَ نوحاً: أي يتألم لردهم دعوته فيبكي.

والنوحُ: البكاء على الميت، وهم موتى في أديانهم .

الثاني: ذكره القشيريُّ في كتابه الذي ذكرناه، أنَّ نوحاً أخطأ مرةً فأكثر البكاء على خطيئته، فقالت الملائكة: يا نوح كم تنوح ؟ فسُمِّيَ بذلك.

ولكن ما كانت خطيئتُهُ ؟

قال أهل العلم: مَرَّ به يوماً كلبٌ قبيحُ المنظر، فقال نوحٌ في نفسه: ما أقبحَهُ، فأوحى الله إليه: اخلُقْ أنت أحسنَ من هذا .

وقال بعض أهل العلم: كانت خطيئته أنه راجع ربَّه بشأن ولده كنعان عند الغرق، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [هود].

هنا يظهر الأدب والتلطف، ولم يقل: لا تخلف وعدك بإنجاء أهلي، فنوحٌ فهم من قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [هود].

فنوحٌ عليه السلام لفرطِ حُزنِهِ على ابنه غَفَلَ وسها عن قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴾.

فجاء الجوابُ والعتابُ، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود].

أيْ: إنه ليس من أهلك الموعود إنجاؤهُم، بل من المستثنين لكفرهم،

وهنا لفتَ الحقُّ سبحانه نوحاً إلى: أنَّ أهلية الأنبياء ليست أهليةَ الدم واللحم، ولكنها أهليةُ المنهج والاتباع.

ألم يقلْ نبينا ﷺ لسلمان الفارسي: «سلمان منا أهل البيت».

وقال علي رضي الله تعالى عنه: ألا وإنَّ وليَّ محمد مَنْ أطاعَ الله وإن بَعُدت لُحمتُهُ، ألا وإنَّ عدوّ محمدٍ من عصا الله وإن قَرُبت لُحمَتُهُ.

وما أجمل قول الآلوسي حين قال: اسمه نوحٌ وكفى.

قال أهل التفسير: وصف الله نوحاً عليه السلام بأنه كان شكوراً، قال تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ ﴾ [الإسراء].

قال ابن عاشور: كان نوح – عليه السلام – مثلاً في كمال النفس، وكانت العرب تعرف ذلك، وكان الحكماء قبل الإسلام يحُثّون الناس على الاقتداء به، ومن شِعر النابغة يمدح سلطاناً:

فألفيتَ الأمانةَ لم تَخُنْها كذلك كان نوحٌ لا يخونُ

قال القرطبي: كان نوح عبداً شكوراً، يشكر الله على نِعَمِهِ، ولا يرى الخير إلا من عنده عز وجل.

وقال قتادة: كان نوحٌ إذا لبس ثوباً قال: «بسم الله»، وإذا نزعه قال: «الحمد لله».

وأخرج الحاكم وصححه عن سلمان الفارسي قال: كان نوح يحمد الله على طعامه، وعلى لباسه، فسُمّي عبداً شكوراً.

وروى مَعْمر عن منصور عن إبراهيم قال: شُكْرُهُ إذا أكلَ سمَّى الله وإذا فرغ من الأكل حَمِدَ الله.

وقال عمران بن سُلَيم: إنما سُمّي نوحٌ من الله عبداً شكوراً، لأنه إذا أكل قال: «الحمد لله الذي أطعمني ولو شاء لأجاعني».

وإذا شرب قال: «الحمد لله الذي سقاني ولو شاء لأظمأني».

وإذا اكتسى قال: «الحمد لله الذي كساني، ولو شاء لأَعْراني».

وإذا احتذى قال: «الحمد لله الذي حذاني ولو شاء لأَحْفاني».

وإذا قضى حاجته قال: «الحمد لله الذي أخرج عني الأذى، ولو شاء لحبسه فيَّ».

وروى بعض أهل التفسير، أنه كان إذا أراد الإفطار، عرض طعامه على من آمن به من هؤلاء الضعفاء، فإن وَجَدَهُ محتاجاً آثره به.

وقال «صاحب التأويلات»: كان نوح عبداً شكوراً؛ لأنه كان يرى الضرَّاء نعمةً، كما يرى السَّراء نعمةً، فكان يشكر الله تعالى في الحالين جميعاً، فلما وصل إلى هذه المرتبة من الشكر زاده الله نِعَماً، وأنجاهُ ومَنْ معه ببركة شكره.

وأخرج عبدالله ابن الإمام أحمد في كتابه «زوائد الزهد»، أن نوحاً كان يُسَمّي الله في أولِ الأكل، ويحمده في آخره.

وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن أنس الجهني أن النبي ﷺ قال: «إنما سمّى الله نوحاً عبداً شكوراً لأنه كان إذا أمسى وأصبح قال: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الروم].

وأخرج ابن عساكر عن قتادة قال: وبُعثَ نوح في الجزيرة العربية وهو أطول الأنبياء عمراً.

قال الحسن البصري: لما أتى ملكُ الموت نوحاً ليقبض روحه قال له: يا نوح كم عشت في الدنيا؟ قال: عشتُ كذا قبل البعثة، وألف سنة إلا خمسين عاماً في قومي، وكذا من السنين بعد الطوفان، قال ملكُ الموت: كيف وجدتَ الدنيا؟ قال نوح: مثل دارٍ لها بابان، دخلتُ من هذا، وخرجتُ من هذا.

وفي حديث عن أنس أن النبي ﷺ قال: «بعث الله نوحاً إلى قومه فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان كذا وكذا، فلما أتاه ملكُ الموت قال: يا نوح، يا أكبر الأنبياء عمراً، ويا طويل العمر، ويا مُجابَ الدعوة، كيف رأيت الدنيا؟ قال نوح: مثل رجل بُني له بيتٌ له بابان، فدخل من واحد، وخرج من الآخر، وفي رواية: دخل من أحدهما، ثم جلس هنيهةً، ثم خرج من الباب الآخر».

قال المؤرخون: كان نوح يسكن تارةً في بيتٍ من الشعر، وتارة في بيت من القصب.

وقد ذكر ابن الوردي قال: إن نوحاً بنى بيتاً من قَصَب، فقيل له: لو بنيت غير هذا؟!! قال: «هذا كثير على من يموت».

وقال أبو المهاجر: لبث نوح في قومه زمناً طويلاً في بيتٍ من الشعر، فقيل له: يا نبي الله: ابنِ بيتاً؟ فقال: أموتُ اليوم أو أموت غداً.

وروى ابن أبي حاتم، وابن عساكر عن قتادة: بُعثَ نوح في الجزيرة العربية، وهو أول نبي عذَّب الله قومه، وقد لقي منهم ما لم يلْقَه نبيٌّ من الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه.

قال الآلوسي: بُعثَ نوح لأهل الأرض جميعاً، وهذا لا يؤثّر في فضل النبي ﷺ لأن نبينا محمداً ﷺ أُرسل للثقلين جميعاً، أي للإنس والجن، وإلى

كل من جاء إلى يوم القيامة.

قال النووي في «التهذيب»: إن نوحاً أطول الأنبياء عمراً، أو هو أطول الناس عمراً، ولم يُسمع عن أحد أنه عاش كما عاش، وكان يقال له: شيخ المرسلين، دقيق الوجه، عظيم العينين، في رأسه طول، طويل اللحية والقامة، جسيماً، واختُلفَ في مكان قبره، قيل قرب مسجد الكوفة، وقيل قرب مدينة الكرك، ويُرجح البعض الأول؛ لأنَّ إقامته كانت بقرب الكوفة.

امتاز بشكره وصبره، ولذلك لما قصَّ الله تعالى على نبينا محمد ﷺ قصة نوح خاطبه في الآية التاسعة والأربعين من[سورة هود] بقوله: ﴿ ...فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩ ﴾ أي عرفتَ عاقبة صبرِ نوح يا محمد، وهو الفوزُ والنصر في الدنيا، وحُسن الثواب في الآخرة، وهذه هي ثمرة التقوى.

بعثة نوح عليه الصلاة والسلام:

ذكرنا أن قروناً مرت بعد آدم كان الناس فيها على التوحيد والإيمان، لا يعرفون أصناماً، ولم يُبعث لهم رُسلٌ تُنذرهم و تُخوفهم لأنهم كانوا على الفطرة، كما قال ابن عطية في «تفسيره».

قال صاحب كتاب «نظرات في أحسن القصص»: ثم بدأ الفساد يدبُّ إلى العقائد، ومالَ الناسُ إلى عِبادةِ الأوثانِ، وانتشرت المعاصي، وفشا اللهو، واشتغل الناس به عن طاعة الله.

كل ذلك كان هو الداعيَ لبعثة رسولٍ، فكان نوح ذلك الرسول ﷺ، والله عز وجل رحمةً منه وفضلاً لا يترك عباده في مهاوي الضلال بل يرحمهم بإرسال الرسُلِ يأمرهم وينهاهم، ويوضح لهم المنهج الذي فيه النجاةُ.

قال ابن كثير: الناس كانوا على مِلّةِ آدم حتى إذا بدأت تَتَفشّى فيهم عبادة

الأصنام بعث إليهم نوحاً.

ولكن، كيف نشأت عبادة الأصنام؟

والجواب: نشأت عبادة الأصنام بسبب تعلُّق النفوس البشرية برجال صالحين، وخطوةٌ بعد خطوةٍ وبالتدريج، وبوسوسة إبليس، انتقل الناس من عبادة الخالق إلى عبادة المخلوق.

وقد ذكر البخاري عن ابن عباس أن: «ودّاً وسواعاً ويغوثَ ويعوقَ ونَسْرا» أسماء رجالٍ صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان بوسوسته إلى قومهم أن انصُبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعبد - أول الأمر - حتى إذا هلك أولئك، وتنسَّخَ العلمُ عُبِدت.

وقال ابن جرير في «تفسيره» لقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [نوح].

كانوا قوماً صالحين، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم، لو صوَّرناهم كان أشوقَ لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوَّروهم، فلما ماتوا، وجاء آخرون ممن لا علمَ عندهم، قالوا: ماهذه الصُور؟ ودخلت وسوسة إبليس في نفوسهم: إنهم كانوا معبودين لآبائكم، فيُرحمون بهم، ويُسقون المطر، فعبدوها، ومن هنا بدأت عبادة الأصنام، ولذلك بعث الله نوحاً نذيراً لهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾ [نوح].

وقال في سورة [الأعراف]: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ

ﭐعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩ ﴾.

قال العلماء: وعندما تسمع «اللام و قد» فاعلمْ أن هذا قَسَم، فكأن الحق يقول «وعِزَّتي وجلالي، لقد أرسلتُ نوحاً»، وهو بهذا يؤكد المُقسَمِ عليه «وهو بعث نوح رسولا».

وقوله ﴿ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ ﴾ أي إلى الرجال خاصة؛ لأن القومَ عادةً هم المواجهون للرسالة، والمرأة مُحتجبةٌ، ولكنها تسمع من أبيها أو أخيها، أو زوجها أو ولدها، ولذلك قالت النساء لنبينا محمد ﷺ: غلَبَنا عليك الرجال، أي لا نجد وسيلة لنقعد معك ونسألَ، فاجعلْ لنا يوماً من أيامك تعظُنا فيه، فَفَعَلَ ﷺ، فالمفروضُ أن تكون المرأة في سترٍ، ثم ينقل لها من ذكرناهم من أب...المنهج فإذا تكلَّم الرسول بدعوته يُقال: «إن الرسول واجه القوم».

وسُمّي الرجال قوماً؛ لأنهم القائمون على الأمر، والقيّمون عليه ولذلك قال الشاعر:

وما أدري ولستُ إخالُ أدري أقومٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ

والمرادُ بقوم هنا: الرجال؛ لأنه جاء بها في مقابلة النساء، وهذا المعنى أكّده القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة [الحجرات]: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ ﴾.

فالنساءُ لا تدخل في القوم؛ فالقومُ هم المواجهون للرسول، ومنهم تأتي المتاعب، ويكون الجحود والإنكار، بل والحرب.

ونلاحظ أنَّ نوحاً دعا قومه، ونبَّههم إلى ثلاثة أُمورٍ:

* عبادة الله فقال: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾.

* وبيَّن لهم أنه ليس هناك إلهٌ سواه: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾.

* وأظهر لهم حرصَهُ وإشفاقَهُ عليهم إذا خالفوا وعصَوا: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾.

فالقضيةُ عَقَديةٌ، إلهٌ واحدٌ مستحقٌّ للعبادة، وليست آلهةً متعددةً، نعبده ونُطيعه في أمره ونهيه سبحانه.

وقضية العذاب إن عَصَوا، إنه عذابُ يومٍ عظيم، إنه يوم القيامة، أو يوم الإغراق، ويكون الله قد أعلَمَهُ وحياً بهذا الإغراق.

وكلمة ﴿أَخَافُ﴾ شديدةٌ؛ لأنَّ الخوفَ مسألةٌ تُتْعِبُ التفكيرَ لكل من يستقبلها ويخافُ أن يلقاها، ولكن من الذي يفزع بهذا الإنذار؟

الطغاة والجبابرة والسادة والأعيان، ووجوه القوم..

لأن الضعفاء و العبيد والعامة هم المظلومون.

قيام نوح عليه الصلاة والسلام بالدعوة:

قام عليه السلام بالدعوة على أكمل وجهٍ، وبكافة الوسائل والأحوال ليلاً ونهاراً: أي دائماً من غير فُتور؛ لأن الزمانَ منحصر في الليل وفي النهار.

وقد ذكر البروسوي رحمه الله تعالى أن نوحاً كان يأتي بابَ أحدهم ليلاً فيقرعُ البابَ، فيقولُ صاحبُ البيتِ: مَنْ بالباب؟ فيقول نبي الله نوح: «أنا نوح قُلْ لا إله إلا الله».

ودعاهم جِهاراً تارةً، وإسراراً تارةً أُخرى، ثم تاراتٍ جهاراً و إسراراً معاً، ثم ذكر عليه الصلاة والسلام جميع الحالات، وتقرأ ذلك في سورة

[نوح]: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ ﴾.

قال «صاحب التحرير و التنوير»: هذا اعتذارٌ من نوح وشكوى إلى الله، وبيَّن أن دعوته لهم كانت مختلفة الحالات في القول، من جهرٍ وإسرارٍ، وقوله: ﴿ دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ﴾، أي دعوةً جهاراً، ثم ذكر أنه جمع بين الجهر والإسرار في الدعوة؛ لأن الجمعَ بين الحالتين «أقوى في الدعوة» من إفراد إحداهما، فقوله: ﴿ أَعْلَنْتُ لَهُمْ ﴾ تأكيدٌ لقوله: ﴿ دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾، فالمعنى: أن نوحاً قال: يا رب، توخّيتُ ما أظنه أشدَّ تأثيراً في قلوبهم من صفات الدعوة، أي جهرت حين يكون الجهرُ أجدى في مجامعِ العامة، وأسررتُ للذين يخافون من كبار قومهم إن سمعوا لدعوتي، وكل ذلك إشارة إلى أنْ يَعُمَّ الناس جميعاً بدعوته.

فماذا كان ردهم على الدعوة ورسولها؟

ذكر الله لنا جانباً من ردّهم على نوح حين دعاهم إلى الله، وإلى التوحيد، وترك عبادة الأصنام، ذكر ذلك في سورة [إبراهيم] قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾:

قال ابن مسعود: عَضُّوا على أيديهم غيظاً من رُسُلِهم، وهذا مثل قوله

تعالى في سورة آل عمران بعد أن نهى المؤمنين أن يتخذوا الكافرين والمنافقين بطانة - أي يُطلعونهم على باطن الأمور التي تُخفى للمصلحة - قال تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ ﴾ [آل عمران]: أي عضوا أصابعهم تغيُّظاً على الرسُلِ، ومنه قولهم:

لو أن سلمى أبصرتْ تخدُّدِي ... ودقـةً في عظم ساقي ويدي

وبُـعـدَ أهـلي وجـفـاء عُـوَّدي ... عَضَّتْ من الوجد بأطرافِ اليدِ

«الهزال».

وقد يُراد من معنى الآية: ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ أي كانوا إذا قال لهم نبيهم إني رسول الله إليكم، أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم بأنْ اسكتْ تكذيباً له، وردّاً لقوله.

وقال ابن عباس: المعنى: لما سمعوا كتاب الله عجبوا منه ووضعوا أيديهم على أفواههم إخفاءً لشدةِ ضحكهم استهزاءً بكلام الرسل - أو كانوا يضعون أيديهم على أفواه الرسل ردّاً لقولهم -.

قال البروسوي: بدأ نوح بالنصح لهم، فردُّوا عليه: إنك ضالٌّ، قال تعالى في سورة [الأعراف]: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٦٠ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢ ﴾.

و ﴿ ٱلْمَلَأُ ﴾: هم السادة و الكُبراءُ الذين جعلوا أنفسهم أضدادَ الأنبياء، وسُمُّوا ملأً؛ لأنهم يَملؤُون صدرَ المجالس، وتمتلئُ الأبصارُ من رؤيتهم، وتتوجه العيونُ في المحافل إليهم.

وقولهم: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ ﴾[الأعراف]، أي نجدُكَ قد ابتعدتَ عن الحق والصواب، لأنك تدعونا إلى خلافِ ما وجدنا عليه آباءنا – وهذا حال الفجّارِ دائماً يروْنَ الأبرار في ضلالة – كما قال ابن كثير.

نقرأ ذلك في قوله تعالى في سورة [المطففين]: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ ﴾، ويأتي رد نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ ﴾ هذه تهمة لنوح عليه السلام، هنا انتبه – ياعبدَالله – إلى جمال الجواب ودقته، أولاً قالوا: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ ﴾.

قال العلماء: كان من المتبادر ومن المتوقع أن يقول نوح رداً عليهم: «ليس في أمري ضلال» ولكنه لم يقل ذلك، وإنما قال: ﴿ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ ﴾ لماذا؟ لأن الضلال أنواع وأجناس يشمل الضلالات الكثيرة، ولكنه يؤكد أنه ليس عنده ولا ضلالةٌ واحدة، والعادة عندما تنفي الأقلَّ يلزمُ منه نفي الأكثر. مثلاً: عندما يقول لك صديق: عندك تمر من تمر المدينة؟ تقول له: ليس عندي ولا تمرةٌ واحدة، وبقولك هذا نفيت الأقَلَّ، وهو نفيٌ للأكثر، فقال: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ ﴾ ولا واحدة، وعندما ينفي نوحٌ عن نفسه أدنى ضلالةٍ فلأنه يعلمُ أنه مُرسلٌ من الله بمنهج والله لا يعطي إلا الهدى، ولذلك قال: ﴿ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ أنا رسولٌ مُبلِّغ عن

الله، والله لا يُعطي إلا الهدى فأنا أبلغكم رسالات ربي، وجاءت بالجمع مع أنَّ رسالة كل نبيٍّ واحدةٌ، لأن نوحاً أوحيَ إليه في أوقاتٍ متطاولةٍ، أو أنَّ الرسالة التي يُبلّغها فيها المعاني المختلفة، من الأوامر والنواهي، والمواعظ والزواجر، والبشائر والنذائر ولذلك جاءت بصيغة الجمع، والأصل عدم الجمع لأن المصدر لا يُجمع، ولذلك قال: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى ﴾ ثم قال: ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾

والنُصح: إخلاص القول والعمل من شوائب الفساد، فالمعنى: تخليص القول أو العمل مما هو ضار أو غير نافع للمنصوح له.

مأخوذٌ من قولك: نصحتُ العسل: إذا خلَّصتهُ من الشمع.

فنوحٌ يقول لهم: كل ما أُريده نجاتكم ولا أغُشكم في قولٍ أو عملٍ.

ثم ختم دعوته بقوله: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي من الأمور الغيبية التي لا تُعلمُ إلا عن طريق الوحي، أو أعلمُ من الله عن عظمته وجلاله ورحمته وعقابه، وإحسانه ما لا تعلمونه أنتم، فأطيعوني.

قال ابن كثير عند هذه الآية: وهذا شأن الرسول أن يكون مُبَلِّغاً فصيحاً ناصحاً، عالماً بالله، لا يُدركه أحدٌ من خلقِ الله في هذه الصفات، كما جاء في صحيح مسلم من حديث جابر أنَّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة، وهم أوفر ما يكون جمعاً: «أيها الناس! إنكم مسؤولون عني، فماذا أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلَّغتَ وأدَّيتَ ونصحتَ، فجعل ﷺ يرفع إصبعه إلى السماء، ويُنكّسُها عليهم ويقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد».

قال العلماء: وهناك صورةٌ أُخرى يعرضها القرآن لقوم نوحٍ في ردِّهم على دعوته، تظهرُ في قوله تعالى حاكياً عن نوحٍ بعد أنْ دعاهم واجتهد في

دعوتهم، كان ردُّهم عليه بأربعة أُمورٍ تظهر في قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾ [نوح]، وهذه الأمور هي:

أولاً: الجعْلُ: ﴿ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾، أي سَدُّوا مسامعهم حتى لا يسمعوا دعوته وحتى يؤْيِسوه من الإجابة لأنهم لا يسمعون قوله.

وكان محمد بن إسحق يقول عند قراءته لهذه الآية: «كان نوح حليماً صبوراً».

ثانياً: التغطّي: ﴿ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ ﴾ أي غطوا وجوههم بأثوابهم حتى لا يَروْه، وهذا تعبيرٌ عن الكره الشديد، لذلك يُقال: «لبسَ فلانٌ ثوبَ العداوة».

ثالثاً: الإصرار: ﴿ وَأَصَرُّواْ ﴾ على ماذا؟

قال العلماء: أصروا على الكفر، فلم يتوبوا منه ولم يؤمنوا.

والإصرار: عقدُ القلب على عدمِ التوبة، والعرب تقول عن الحمار الوحشي إذا نصبَ أُذنيه، وانقَضَّ على العانة يكْدِمُها ويَصْدِمُها، أصرَّ الحمار، وانظر - ياعبدالله - إلى هذا التشبيه حيث شبههم بالحُمُرِ الوحشية المُصِرّةِ على الأذى والذنوب.

رابعاً: الاستكبارُ: وذلك قوله: ﴿ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾ والاستكبار: هو التمادي في الباطل.

قال العلماء: من أصرَّ على المعصية، دفعه هذا الإصرار إلى التمادي في الضلال، حتى يرى قبيحَ أعماله حسناً، حتى يَعْلُوَ ويتكبرَ على الصالحين.

قال التستري: الإصرار على الذنب يُورِثُ النفاقَ، والنفاقُ يورثُ الكفرَ.

وظهر استكبارُ قوم نوح جلياً عندما قالوا لنوح: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود].

قال الزمخشري: استرْذَلوا المؤمنين الصالحين لفقرهم؛ لأنَّ الشريف عندهم مَنْ له مالٌ وجاهٌ.

قال ابن عاشور: كان أتباع نوح من ضُعفاء القوم، ولكنهم من أزكياء النفوسِ، ممن سبق لهم الهدى.

والأراذل: جمعُ «أرْذَل»: أي نفايةُ المجتمع، وهو الخسيس في أعين الناس، ورَذالُ المال: رَديئُهُ، فقوم نوح يترفعون عن مخالطة أمثال هؤلاء الأراذل في نظرهم، الذين لا مال لهم ولا سيادة.

وقوله: ﴿ بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾: يعنون، أنَّ هؤلاء قد غرَّتهم دعوتُكَ - أي الأراذل - فتسرَّعوا في متابعتك، ولو أعادوا النظر والتأمُّلَ لعلموا أنك لا تستحقُ أن تُتَّبَعَ.

وقولهم هذا لنوحٍ - أي هؤلاء آمنوا بك دون تروٍّ ودون تفكير - هو في الواقع أمرٌ يُمدحون به رضي الله تعالى عنهم، ذلك لأن الحقَّ الظاهر لا يحتاج إلى روّية، ولا إمعانِ فكرٍ، بل يجب الانقياد له واتباعه متى ظهر، كما قال ابن كثير، ولهذا قال نبينا محمد ﷺ يمدحُ الصديق أبا بكر: «ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كَبوةٌ غير أبي بكر فإنه لم يتلعْثم».

قال العلماء: ولهذا كانت بيعة الصديق بعد وفاة رسول الله ﷺ سريعة من غير نظرٍ ولا رويةٍ؛ لأنَّ أفضليته رضي الله تعالى عنه، كانت ظاهرةً واضحةً

للجميع، ولهذا قال ﷺ لما أرادَ أن يكتب الكتابَ الذي يريد فيه ذكرَ خلافة الصدّيق، ثم ترك الكتابة ﷺ وقال: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر» مسلم في «صحيحه».

قال العلماء: واستجابة الضعفاء والفقراء للرُسلِ هي عادةٌ واضحةٌ عند كل الرسل، ولذلك لما سأل هرقل أبا سفيان عن دعوة محمد ﷺ قال هرقل لأبي سفيان: هل يتبعُ محمداً أشرافُ الناس أو ضُعفاؤهم؟ قال أبو سفيان: بل ضُعفاؤهم، فقال هرقل: هم أتباعُ الرُسل.

هنا سؤال: لماذا تكون الاستجابة لدعوة الأنبياء في الضعفاء والفقراء؟

والجواب: لأن الكبار والملأ استولى على قلوبهم حبُّ الرئاسة وتعلقوا بها، فهم لا يَرْضون الانقيادَ للغير، والفقير ليس عنده من ذلك شيء، فهو سريع الانقياد سريع الإجابة، وهذا غالب أحوال الدنيا.

ثم مال نوح بعد النصح والموعظة، إلى ترغيبهم بشيءٍ يحبونه، وهو خيراتُ الدنيا، ثم خيراتُ الآخرة.

قال قتادة: علمَ نوح عليه السلام أن قومه أهل حرصٍ على الدنيا فقال لهم: هلموا إلى طاعة الله سبحانه، واستغفروه، فإن في طاعته عز وجل إدراكُ خيريْ الدنيا والآخرة، قال تعالى على لسان نوح: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح].

هنا سؤال هام، وهو: أن نوحاً أمرهم بعبادة الله وطاعته وتوحيده فما فائدة الاستغفار؟

والجواب: أنه لما أمرهم بالتوحيد والطاعة قالوا له: إن كان الدين الذي

نحن عليه حقاً فلماذا تأمُرُنا بتركه؟ وإن كان دينُنَا الذي نحن عليه باطلاً، فكيف يقبلُنا بعد أن عصيناه وكفرنا به؟

فقال نوح: إنكم وإن كنتم قد عصيتموه، ثم استغفرتموه من تلك الذنوب بالإيمان والإخلاص، ثم تُبْتُم منها يُعجل لكم الخيرات المتعلقة قلوبكم بها، قال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح].

قال العلماء: والاستغفار يمحو الذنوب، فمن حديث حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «الاستغفار ممحاةٌ للذنوب».

وقال بكر بن عبد الله: إن أكثر الناس ذنوباً، أقلُّهم استغفاراً.

قال الأوزاعي: خرج الناس يستسقون، فقام فيهم «بلال بن سعد» فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: اللهم إنا سمعناك تقول: ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ [التوبة٩١]، ونحن أقررنا بالإساءة، فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا، اللهم اغفر لنا وارحمنا واسقنا، ثم رفع يديه، ورفع الناس أيديهم فسُقُوا.

وورد عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه خرج يستسقي فما زاد على الاستغفار، فقالوا له: ما رأيناك استسقيت، قال: لقد استسقيتُ بمجاديح السماء.

المجداحُ: هي كواكب مخصوصة كان العرب يستسقون بها في الجاهلية، فأراد عمر أن يُبيّنَ لهم أنَّ السُّقْيا الصحيحة إنما تكون بالاستغفار يتأول قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ

إِسۡرَارٗا ٩ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ ﴾ [نوح].

ولا تكون السقيا بالأنواءِ والكواكبِ، والنوءُ: ميل الكوكب للغروب كانت العرب تزعمُ أنها تُمطَرُ به.

وكان عليٌّ رضي الله عنه يقول: ما ألهمَ الله عبداً الاستغفار إلا أراد بذلك أن يُنجيه؛ لأن الاستغفار اعترافٌ بالذنب، وانكسارٌ لله، وانكسار العاصي أفضل من صولة المطيع، وفي بعض الآثار يقول الربُ عزَّ وجل: «إن أحبَّ عبادي إليَّ، المتحابون بحبي، المعلقةُ قلوبهم بالمساجد، والمستغفرون بالأسحار».

وروى الربيع بن صُبيح: أن رجلاً شكا إلى الحسن البصري جدبَ الأرض، فقال له: استغفر الله.

وأتاه رجلٌ فشكا إليه قلة الذرية فقال له الحسن: استغفر الله.

وأتاه ثالثٌ فشكا له الفقر فقال له الحسن: استغفر الله.

وأتاه رابعٌ فشكا إليه ضعف المحصول في بستانه فقال له الحسن: استغفر الله.

فقال له الربيع بن صبيح: أتاك رجالٌ يسألونك أبواباً، ويشْكون أنواعاً، فأمرتهم كلَّهم بالاستغفار، فما ذلك؟

قال الحسن: ما أتيتُ بشيء من عندي، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢ ﴾ [نوح].

فالله غافرٌ: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ﴾ [غافر]: يمحو هذه السيئة من دفتر أعمالك.

والله غفورٌ: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾ [البروج]: يمسحها عند الملائكة.

والله غفَّارٌ: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه]، يُنسيك ذنبك.

وقد كان من دعاء بعض العرب: «أسألك الغفيرة: أي السَّتْرَ، والناقة الغزيرة، وعزةً في العشيرة فإنها عليك يسيرة».

- ياعبد الله - استغفره فإنه غفور، يغفر مرة ومرة ومرة، ولكن قد تقتضي الحكمة أن يفضح وأن يُعاقب.

جيء لعمر بسارق، فقال السارق: إنها أول مرة يا أمير المؤمنين، - وعمر عالم بالله ومغفرته - فقال للسارق: كذبت، إن الله لا يفضح المذنب من أول مرة، فظهرت أنها السرقة الثامنة لهذا السارق، والله غفور، ولكن إذا ألفَ العبد الغلطَ وصار الغلطُ قاعدةً في سلوكه واستشرى، فعندئذ يفضحه ويؤدبه.

باخرة فرنسية رست في ميناء أفريقي، تسلل إليها تسعة من الزنوج واختبؤوا بين الآلات، والباخرة في عُرْضِ البحر، وعَلِمَ الرُبانُ بهم، فاستدرجهم واحداً واحداً وقتل ثمانية وألقاهم في البحر، واستطاع واحدٌ من التسعة أن يختبئَ في مكانٍ لم يعثروا عليه، وعندما رست السفينة في ميناء آخر هرب وأخبر الشرطة، فحوكموا في فرنسا، فحُكمَ القبطان بالمؤبد والبحارة بعشرين سنة، والذي نجا أنجاه الله لكشفِ المجرمين ويُعاقبهم.

فالشاهد: أنَّ من يصرُّ على المعصية ويستمر ولا يبالي يفضحه الله ويُعاقبه، ولا يكون ذلك من أول مرة.

قال المؤرخون: لما بلغّ عُمْرُ نوح مائتي سنة، وهو مواظب على دعوة

الناس إلى التوحيد، وكان خبر دعوته لا يصل إلى الملوك إلا قليلاً، بعدها تولى المُلْكَ على قوم نوح مَلِكٌ متشدّد في عبادة الأوثان اسمه «الدرمشيل» فجمع الناس على عبادة الأصنام، فاشتدَّ نوحٌ في الدعوة إلى التوحيد مقابل ذلك، فكان يدور على الناس في مجالسهم، وفي أسواقهم، وهياكلهم، يدعوهم إلى الله، وكان الناس يُخفون ذلك عن ملكهم، ويزجرون نوحاً ويُهدّدونه، ويُهوّلون عليه، وابتعد الناس عن نوح خوفاً من بطش هذا الملك الجبار، وتسابق الناس لنقل خبر نوح إلى هذا المَلِكِ، أحضر الملكُ نوحاً، وانتهره، ثم هدّده إنْ هو عاد إلى الدعوة إلى الله وتوحيده، ثم سجنه سجناً ليس بالطويل، ثم أطلق سراحه ومنعه من الدعوة.

كان القوم يعبدون أصناماً متعددة، وكان لكل صنم عيد خاص به في وقتٍ من أوقات السنة: يحضرون عند الصنم، ويذبحون له، ويطوفون به. ثم صار وقت عيد الصنم «يغوثَ» وكان هذا العيد بعد خروج نوح من السجن.

اجتمع الناس إلى الصنم من كل مكان، فأتاهم نوح وهم مجتمعون، ووقف في وسْطهم وناداهم: «أن قولوا لا إله إلا الله»، فوضعوا أصابعهم في آذانهم، وأدخلوا رؤوسهم تحت ثيابهم، وسقطت الأصنام عن كراسيّها عندما قال نوح: «لا إله إلا الله» فتهاوت، فوثبوا عليه عند ذلك وضربوه، وشجّوه حتى سقط على وجهه وسحبوه إلى قصر الملك، حتى أدخلوه عليه.

نوح في مجلس الملك:

كان مجلس الملك مزخرفاً بأنواع الألوان، وبدائع المقاصير والأصباغ، وكان مفروشاً برفيع الحرير، وفي صدر المجلس سرير مُصفحٌ بالذهب منظومٌ بالجوهر، فلما وقف نوح بين يدي الملك - الدرمشيل - قال لنوح: ألم

أَنْهكَ عن التعرض لآلهتنا وأُمورها، ألم أنهك عن الدعوة، وزاد أمرُك حتى سَجَّدْتَ الآلهة، وألقيتها عن كراسيِّها، ومواضع شرفها وعزِّها، مَنْ علَّمك ذلك؟ ومن أين وصل إليك؟

قال نوح وهو مخضوبٌ بدمه: لو كانت هذه آلهة لما سقطت، فاتق الله يا درمشيل، ولا تُشرك بالله شيئا فإنه يراك، فاستشاط الملك غضباً وقال: كيف تُخاطبني بهذا الخطاب؟! ثم أمر بحبسه إلى العيد الثاني الذي سيأتي للصنم يغوث، حيث قرر أن يذبح نوحاً قُرباناً للصنم المذكور في يوم العيد التالي، ثم أمر الملك أن تُعادَ الأصنام إلى كراسيِّها.

قال المؤرخ المسعودي: بعد أن ذكر سجن نوح إلى العيد التالي لصنمهم حتى يُذبح قُرباناً للصنم، قال: ولكن الله الحافظ لرسله وأنبيائه أنقذ نوحاً، وكيف كان ذلك؟

قال المؤرخون: إن الملك قد رأى رؤيا في شأن نوح أفزعته، فأمر بإخراجه من السجن، وتركه حراً طليقاً، وقال للناس: دعوه فإنه مجنون.

وقد ذكر الله عز وجل هذه التهمة لنوح من قِبَلِ الملك الدرمشيل في موضعين من كتابه الكريم: قال عز وجل في سورة [المؤمنون]: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

وقال عز وجل في سورة [القمر]: ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ ﴾.

وقولهم: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾: أي هو رجل مُتَلبِّسٌ بشيء من الجنون.

والجنون: هو الذي يعمل ما يَخطرُ على باله دون أن يَعْرض أعماله على

العقل، لأن الجنون سِترُ العقل الذي يُسيطر على حركة الإنسان في الحياة فيسيرُ حسبَ تقنيناتها.

أما المجنون فيعمل ما يروق له، لذلك كان من العدل الإلهي في خلقه ألا نؤاخذ المجنون في تصرفاته حينما يعتدي على أحد بالسَّبِّ أو الشتم، فلا نملك إلا التبسم له ثم ندعو الله بالعافية.

قال العلماء: والعجيب أن التهمة بالجنون تأتي على لسان المكذبين للرسل في كل زمان ومكان، ألم يُتهم رسولنا محمد ﷺ بهذه التهمة بقوله تعالى: ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم]، فكيف يكون ذو الخُلق مجنوناً؟ ولو كان مجنوناً، فلماذا استأمنوه على ودائعهم، وسمَّوه الصادقَ.

ولذلك قال ابن عاشور: ولما كان واقع نوح يُخالف هذه التهمة، أوهموا قومهم أنَّ به جنوناً خفيفاً لا تبدو آثاره الآن واضحة، فهو ليس برسول، ثم فَرَّعوا على ذلك الحُكم - أي فيه جنون خفيف - أن أمروا قومهم بالانتظار فسينكشف أمرُهُ لكم وستعلمون أنَّ كلامه لا يُعتدُّ به وذلك قولهم: ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٢٥ ﴾ [المؤمنون]، أي انتظروا واتركوه وشأنه فربما عاد إلى صوابه، وترك ما هو عليه من تلقاء نفسه إذا رآنا منصرفين عنه.

قال العلماء: وفي هذه الآية إشارة إلى أن كل داعٍ إلى الله لا بُدَّ وأن يُضطهد من قِبَلِ أعداء الرسل.

يؤيد هذا المعنى قوله تعالى في سورة [القمر]: ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ ﴾.

والخطاب هنا للنبي ﷺ أي: قبل قومك يا محمد، وهذا تسليةٌ له ﷺ

فهي شَنشنةُ أهلِ الضلال ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾ [فاطر].

وتكرار التكذيب يدل على أنهم كان تكذيبهم الأول بالوحدانية، وكان تكذيبهم الثاني بالرسالة.

وفي قوله عز وجل: ﴿ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا ﴾ ([القمر].

فيه إشارة إلى أنه لا أشرفَ من العبودية لله عزَّ وجل، ولذلك أضافَ العبوديةَ لنونِ العظمةِ ﴿ عَبْدَنَا ﴾، فهو تفخيمٌ لمحِلّ نوحٍ، ورفعٌ لمقامه، وتشنيعٌ لمن كذَّبه.

وقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ ﴾ [القمر]، مجنونٌ: أي تقول ما لا يَقبلُه عاقل.

وقوله: ﴿ وَٱزْدُجِرَ ﴾: أي زَجرٌ عن التبليغِ بأنواعِ الأذيةِ.

والمرادُ أنهم نَهَوْهُ عن دعوى الرسالةِ بغلْظةٍ، وبكلِ أنواعِ الأذى، آذَوْهُ بالسخريةِ تقرأُ ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ ﴾ [هود ٣٨].

وهَدَّدُوه بالرجم قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الشعراء].

قال البروسوي: زجروه عن التبليغ بأنواعِ الأذية، مِثل الشتم، والضرب، والخنق، والوعيد بالرجم، وكانوا يطردونه ويقولون له: اغرُب، وتَنحَّ، ووراءَك...

ثم يقولُ البروسوي رحمه الله تعالى: وفي هذا إشارة إلى أنَّ كلَّ داعٍ حقٍّ لا بُدَّ وأن يُكذَّب لكثرة أهلِ البطلان، وغلبةِ أهلِ الأهواءِ والبدعِ والطغيانِ،

وذلك في كل عصرٍ وزمانٍ.

قال العلماء: ثم عمَد نوحٌ إلى تخويفهم، وإلى لفْتِ نظرِهم إلى عظمةِ الله، فَهُمْ لا يُقدِّرون عظمةَ الله تعالى، فقال في سورة [نوح]: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾.

وقوله: ﴿ لَا تَرْجُونَ ﴾ أي لا تُبالون بعظمةِ الله تعالى، أو لا تعلمون، أو لا تَرَون.

وقد ورد عن ابن عباس أنَّ «نافع بن الأزرق» رأسَ الخوارج سأله عن معنى ﴿ لَا تَرْجُونَ ﴾، فقال: إن معناها هنا: الخوفُ، ثم استدل بقول أبي ذؤيب الهذلي:

إذا لسعَتْه النحلُ لم يَرْجُ لسعَها   وحالَفَها في بيتِ نوبٍ عواسلُ

أي لم يخفْ لسعها، واستمرَّ على جني العسل، والمعنى: أنكُم لا تخافون عظمةَ الله.

قال الحسن البصري: كان نوحٌ يقولُ لهم: مالكم لا تُؤَدّونَ لله حقاً ولا تشكرونَ له نعمةً: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾، أي: ما لكم لا تخشَون منه عقاباً، ولا ترجُون منه ثواباً بتوقيركم إياه.

وقوله: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾ أي وإنكم لتعلمونَ أنه عزَّ وجلَّ خلقكم وقَدَّرَكم حالاً بعد حال، وطوراً بعد طور، من طورِ النطفةِ إلى طورِ الجنين، إلى طورِ خروجه طفلاً، إلى طورِ الصِّبا، إلى طورِ بلوغِ الأشدِّ، إلى طورِ الشيخوخة، وطُرُوِّ الموت على الحياة، وطورِ البلى على الأجساد بعد الموت، كل ذلك والذاتُ واحدةٌ ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾ أي هو عز وجل، فهو دليلٌ على تمكنِه عزَّ وجلَّ وقدرتِه، والتقصير في توقير من هذا شأنه، وهذه

قدرتُهُ لا يَصْدُرُ عن عاقلٍ والمرادُ بـ«الأطوار هنا»، هو ما يحصل في الأزمان والمرات من أحوال مختلفةٍ، فهو تعدُّدٌ في أنواعِ الحالات كقول النابغة:

فإن أفاقَ لقدْ طالت عِمايَتُهُ والمرءُ يُخلق طوراً بعد أطوار

قال العلماء: وبعد أنْ نبَّههم إلى قُدرةِ الله في أنفسهم ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ﴾.

أرشدهم إلى التفكر في العوالم وما خَلَقَ فيها من العجائب الشاهدة على الخالق العليم القدير فقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦﴾ [نوح]، كالقباب، بعضها أعلى من بعض.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ﴾ أي في السماء الدنيا، وهي بعض السموات، والعرب تقول: «أتاني بنو تميم، وأتيت بني تميم»، والمراد بعضهم «زيد في المدينة» لأن «في» تدل على وقوع الشيء بين جماعته.

أو لوقوع المَحْويِّ، في حاوية مثل الوعاء، ومثال حديث الشفاعة، «وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها».

ومنه قول النميري:

تضوَّعَ مِسْكاً بطنُ نَعْمانَ أن مَشَتْ به زينبٌ في نِسْوةٍ خَفِرات

قال ابن عاشور: والإخبار عن القمر بأنه «نور»؛ لأن القمر يُنيرُ ضوءُه الأرض إنارةً مفيدةً بخلاف غيره من نجوم الليل، ثم إن نوره مكتسبٌ من غيره وليس من ذاته؛ لأن القمر مظلمٌ، ويضيء بانعكاس الشمس عليه، فالشمس نورها ذاتيٌّ ولذلك قال: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦﴾.

والسراج: المصباح الزاهر نوره الذي يوقد بفتيلةٍ في الزيت يُضيء التهاباً، وجُعلت الشمس سراجاً لأنها ملتهبةٌ وأنوارُها ذاتية فيها، صادرةٌ عنها إلى

الأرض وإلى القمر مثل أنوار السراج تملأ البيت، وتُلْمِعُ أواني الفضة وغيرها مما في البيت من الأشياء المقابلة.

وجمعُهُ بين الشمس والقمر في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح]، استدلالٌ على عظمته، وامتنانٌ بالنعم.

قال العلماء: وقد ثبتَ بالنص أنَّ الكواكب زينة السماء قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [الملك].

والمصباح دون السقف، ولهذا من الممكن الوصول إلى القمر، أما السماء فلا تُخترق لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء].

قال العلماء: وهناك فرقٌ بين سقفٍ من صنع البشر يعتمد على أعمدةٍ ودعائم، وسقفٍ من صنع الخالق العظيم، سقفٍ يُغطّي الأرض كلها، ومحفوظٍ بلا أعمدة.

وقوله: ﴿مَّحْفُوظًا﴾ في بِنيةٍ تكوينيةٍ محكمةٍ، ولا يُحفظ إلا الشيءُ النفيس.

ولكن، من أي شيءٍ محفوظة؟

والجواب: محفوظةٌ من أن تمور، محفوظةٌ أن تقع على الأرض إلا بإذنه، قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج].

محفوظة من استراقِ السمع: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ

ﭐلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ [الحجر].

لأن الشياطين كانوا يسترقون السمع «استمع في خفية» لبعض الوحي الذي أُنزلَ على الرسل السابقين لمحمد ﷺ، ويُضيفون عليها مائة كذبةٍ، ولذلك وردَ في «البخاري» من حديث عائشة قالت: سأل ناسٌ النبي ﷺ عن الكُهّان، فقال ﷺ: «إنهم ليسوا بشيء»، فقالوا: يا رسول الله، إنهم يُحدّثون بالشيء يكونُ حقاً، فقال ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنيُّ فيُقَرْقِرُها في أُذنِ وليّهِ كقرقرةِ الدجاجة، فيخلطونَ معها أكثرُ من مائة كذبة».

فلما بُعثَ محمد ﷺ مُنِعَ كُلُّ هذا بأمر الله تعالى، قال تعالى: يقول لنا في كتابه ما قاله الشياطين عن حفظ السماء: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ﴿٩﴾﴾ [الجن].

ثم يقول تعالى بعد أن بيّن أنَّ السماء سقف محفوظ قال: ﴿وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء]، وهذا إشارة إلى أنَّ السماء لها آياتها الخاصة، الشمس، القمر، النجوم، الأفلاك.

يقول علماء الفلك: إنَّ من كواكب السماء ما لم يصلنا ضوؤه منذ خلق الله الأرض إلى الآن، مع أنَّ سرعة الضوء «٣٠٠» ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية.

من هنا تفهم قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات].

قال المفسرون: ثم واصل نوحٌ عرض عظمةِ الله وقدرتِهِ، وأنه هو الخالق المُحْيِي المُمِيت.

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾ ﴾ [نوح].

قال المفسرون: ثم واصل نوح تذكيرهم، فبعد أن استدَلَّ على عظمة الله بخلقِ السمواتِ، أعقبهُ بذكرِ أعجبِ أحوالِ الأرضِ، وهو حال الموت والإقبارِ، وأعلمهم بأنَّ بعد الموت والقبر حياةً أُخرى، وأعلمهم بأنَّ الإنسان كالنبات مخلوقٌ من عناصر الأرض، ولذلك أتى بلفظ ﴿ أَنۢبَتَكُم ﴾ للتشابه بين إنشاء الإنسان وإنبات النبات من حيث إن كليهما تكوينٌ، كما قال تعالى عن مريم: ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا ﴾ [آل عمران٣٦]، أي أنشأها، والعرب تقول للرجل عندما يدعون له: زرعكَ الله للخير.

وقد تكون الإشارة بهذه الآية إلى خلق أصل الإنسان وهو «آدم»، قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ﴾ [آل عمران٥٩].

وقوله: ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا ﴾ [نوح]، فمن كان قادراً على الابتداء، فهو قادرٌ على الإعادة.

وقوله: ﴿ وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾ ﴾ [نوح]، أَكَّدَ الفعل بالمصدر «إخراجاً»، أي ستخرجون منها مرة أُخرى للحساب، وهذا واقع لا محالة ولا شكَّ فيه، وأكده بالمصدر لردِّ إنكارهم للبعثِ.

ثم واصل ذكره لنِعم الله عليهم استدلالاً على عظمة الله، وامتناناً بنعمه عزَّ وجلَّ فقال: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴿٢٠﴾ ﴾ [نوح]، انظر إلى كلمة «لكم» أي جعل الأرض كالبساط لا تُوجِعُ أرجلَ الماشين ولا تقضُّ جُنوبَ المضطجعين، وليس المراد أنَّ حجمها كالبساط، وإنما الغاية تأتي في قوله تعالى ﴿ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴾ فسطح

الأرض مُسْتوٍ مع كُرويتها تَصلُحُ للسير والحرث والزرع، وفيه إشارةٌ إلى كل هذه النعمِ، وبخاصةٍ نعمةُ السير فيها لأنه قضيةٌ مشتركة بين الناس وكلهم يستفيدون من السير فيها.

و«السُّبُل»: الطرق، أي تتخذوا لأنفسكم سبلاً من الأرض تهتدون بها في أسفاركم.

و«الفِجاج»: الطريقُ الواسع، وغالباً ما يكون بين جبلين لأنه يكون أوسعَ من الطريق المعتاد.

قال العلماء: مكثَ فيهم نوحٌ ألف سنةٍ إلا خمسين عاماً يُبيّن لهم الدعوة، وكان يرجو الأبناء بعد الآباء، فازدادوا عصياناً، فعدَّدَ عليه الصلاة والسلام قبائِحهم فقال ما ذكره القرآن الكريم:

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [نوح].

﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [نوح]، فهم:

أولاً: عصاةٌ: لأنهم لم يستجيبوا لدعوة نـوح رغمَ طول المدة وعصوه: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ ﴾.

قال ابن عباس: رجا نوح عليه السلام، الأبناء بعد الآباء، فيأتي إليهم الولد بعد الولد حتى بلغوا سبعة قرون، ثم دعا عليهم بعد أن يَئِسَ منهم.

ثانياً: اتَّبَعوا رؤساءهم، لِـمَا عند هؤلاء الرؤساءِ من المال والجاه والأولاد، لا لأنَّ هؤلاء الرؤساءَ على الحق، فصارت هذه الأموال، وهؤلاء الأولاد طريقَ خسارةٍ لهم، فكانوا «كمن يأكل لقمةً مسمومةً»، فلما اتَّبعوا مَنْ

أبطرتهم النعمةُ صاروا سواءً معهم في الخسارة: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١﴾ [نوح]، لأنهم استعملوها في تأييد الفساد.

ثالثاً: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح] أي مكراً عظيماً وكبيراً للغاية كما قال الآلوسي.

قال المفسرون: وإنما كان هذا المكر بتحريشِ سُفهائهم وسَفَلتهم على أذيَّةِ نوح وقتله وبصدِّهم الناسَ عن طريق الدعوة بالحِيَلِ لقتل نوح.

وبادّعائهم أنَّ لله الصاحبةَ والولد، وهذا شركٌ، ولما كان الشركُ أكبر الكبائر قال الله فيه: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢﴾ [نوح]، أي المبالغة في الكِبَرِ.

وقد ذكر الآلوسي أنَّ أعرابياً سمعَ من رسول الله ﷺ هذه الآية، فقال: ما أفصحَ ربَّكَ يا محمد.

وهذه الصيغة من صيغ المبالغة القليلة في العربية وتعني أنه: كبير جداً، مثل طُوَّال: أي طويل جداً.

و: عُجَّابٌ: أي عجيب جداً، وجُمَّال: أي جميل جداً، وهي لغة يمانية ومنه:

بيضاءُ تصطادُ القلوبَ وتَسْتَبي ... بالحُسنِ قلب المسلم القُراء(١)

ومنه:

والمرءُ يُلحِقُهُ بفِتيان الندى ... خُلقُ الكريم وليس بالوضاء(٢)

ثم قال الملأ للأتباع: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣﴾ [نوح]، وهذه أصنام قوم نوح.

---

(١) القُراء: كثير القراءة.

(٢) الوضاء: الجمال.

وقد روى البخاري عن ابن عباس أنَّ «ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر»، أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا وسوس الشيطان لقومهم أن انْصِبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسمُّوها بأسمائهم، ففَعَلوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلك أُولئك وتنسَّخَ العلمُ عُبِدت.

وقد ذكر بعض المؤرخين، أنه كان لقوم نوح أصنام كثيرة جمعَها قول زعمائهم: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ ﴾، ثم خَصّوا بالذِّكْرِ أعظمها، وهي هذه الخمسة، فيكون ذكرها من باب عطف الخاص على العام للاهتمام، مثلُ قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [البقرة].

والمؤرخون يذكرون كذلك، أنَّ هذه الخمسة كانت أكبرَ أصنامهم، وكان حولها ألفٌ وسبعمائة صنم آخر، لها بيوت مبنية من الرخام الملون، كل بيتٍ طوله ألف ذراع، وعرضه قريبٌ من طوله، ولهذه الأصنام كراسيٌّ من ذهب، ولها خُدامٌ وحُرّاسٌ ليلاً ونهاراً.

وهذه البيوت الكبيرة كانوا يجتمعون فيها أيامَ أعياد هذه الأصنام، ويرتكبون فيها الموبقات.

وقد ذكر الآلوسي في حاشية «تفسيره»، أنَّ الأفرنجَ أخرجوا في حدود سنة ألف ومائتين وستين للهجرة أصناماً وتماثيلَ من أرض الموصل، لها آلاف السنين، ثم يقول: فلا تغفل.

هنا سؤال: كيف انتقلت عبادة هذه الأوثان من قوم نوح إلى قبائل العرب؟

قال ابن عاشور: إن أصنامَ قوم نوح جرفها الطوفان، وخَلَصَ البشرُ من

الإشراك بعد الطوفان، ولكنَّ أسماءها بقيت معروفةً محفوظةً عند الذين نَجَوْا مع نوح من المؤمنين، فكانوا إذا أرادوا أن يَعِظوا أبناءهم يذكرون ما حَلَّ بأسلافهم من جرّاءِ عبادة هذه الأصنام، فبقيت هذه الأسماء يتناقلها العرب الأقدمون في أحاديثهم وأخبارهم، حتى جاء «عمرو بن لحيٍّ الخزاعي» الذي أعاد للعرب عبادة الأصنام، فسمَّى لهم الأصنام بتلك الأسماء، وبغيرها.

وقد أخرج ابن المنذر وغيره عن «أبي عثمان النهدي» أنه قال: رأيت «يغوث»، وكان من رصاص يُحملُ على جمل «أحردَ»: أي جمل يخبط بيديه إذا مشى، ويسيرون معه ولا يُهيّجونه حتى يكونَ هو الذي يبركُ، فإذا بركَ نزلوا وقالوا: قد رضي لكم المنزلَ، فيضربون عليه بناءً وينزلون حوله، وكان على صورة أسد، وكان لقبيلة «مراد» و«عُظيف» في الجوف، عند سبأ.

قال ابن عاشور: وكان «لهمدان» صنم اسمه «يعوق» على صورة فرس:

يريش الله في الدنيا ويُبري ولا يُبري يعوق ولا يريش

وكان «لحميرولذي الكلاع» منهم صنم اسمه «نسر» على صورة النسر من الطير، وهذا مرويّ في البخاري عن ابن عباس.

وكان في دومة الجندل، وهي بلاد قبائل «كلب» صنم اسمه «وُدّ أو وَدّ» وله لغتان للعرب منهم من يضمُ الواو وهي قراءة أبي جعفر ونافع، والباقي قرؤوا بفتح الواو، وكان من صُفْر ورصاص.

وكان «لهُذيل» صنم اسمه «سُواع» بساحل البحر، ثم عطف على قوله: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴿٢٢﴾ ﴾ [نوح]، فقال: ﴿ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ ﴾، أي الرؤساء بقولهم: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ ﴾، ثم دعا عليهم بقوله: ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ﴿٢٤﴾ ﴾، أي: خُسراناً وعذاباً وليس ضلالاً عن طرق الحق، مثل قوله

تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر ٤٧].

قال العلماء: ثم طلب الملأُ من قوم نوح، أن يطرد المؤمنين، لأن هؤلاء في نظرهم هم الأراذلُ كما مرَّ معنا: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ ﴾ [هود]، وعندها يجتمعون إلى نوح ويسمعون له، وقالوا كذلك ما قصَّهُ الله علينا في سورة [الشعراء]: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾، يقصدون أصحابَ الحرفِ والفقراء، ويأتي الجواب منه عليه الصلاة والسلام: لن أفعل هذا، فما دام الحساب على ربي عز وجل، وهؤلاء يريدون الإيمان فلا بُدَّ أن يأخذوا جزاءهم وافياً، ولذلك لن أطردهم، وهذا ما ذكره القرآن الكريم على لسان نوح في سورة [الشعراء]: ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ ﴾.

فالله لم يُرسلني لأُخصَّ الأغنياء بالدعوة دون الفقراء في مجلسي، وإنما أرسلني لأُبلغكم ما أُرسلت به، فمن أطاعني سُعِدَ وإن كان فقيراً.

وقال في سورة [هود]: قال نوح لهم: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

فالرسول لا يستطيع أن يطرد إنساناً من حظيرة الإيمان لأنه فقير لأن اليقين الإيماني لا علاقة له بالثروة أو الجاه، أو الفقر والحاجة.

هنا نقف عند قول نوح: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ ﴾ [هود ٢٩]، وعند قوله في [الشعراء]: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾، دليل على أن العمل الذي يقوم به يستحق أجراً، وأن نوحاً

غير زاهد في هذا الأجر، بل يريده ولكن يريد نوح أن يكون تقويم عمله بمقياس الله، لا بمقياس من ينتفع بعمله في الميزان البشري.

وقد ذكر أحد المفسرين المعاصرين أنه كان مسافراً في الجزائر، وأشار إلى السيارة رجلٌ مُسِنٌّ عليه علامات الصلاح في طريق صحراوي ليركب، قال الشيخ فوقفنا له، عندها اقترب هذا الرجل من السائق وقال: يا هذا «على كم» يعني الأُجرة كم تأخذون على نقلي معكم، وكان الذي يسوق هو محافظ البلد، فقال للراكب: «نوصِلُكَ لله» فقال الرجل العجوز الراكب: «غلّيتها يا شيخ»، نعم، لأنَّ الأجر إنْ كان على الله فهو غالٍ: «ألا إنَّ سلعةَ الله غالية».

قال الرازي: طلبوا من نوح طرد المؤمنين لفقرهم، فكان جوابه عليه السلام: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾، والله هو العالم بالقلوب وأنا لا أطرد أحداً ثم نسبهم إلى الجهل فقال: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩﴾ [هود]، أي تجهلون مهمتي، وأني مسؤول أمام ربي.

ثم يوضح لهم أنه إن طردَ هؤلاء الفقراء، وجاء الحساب يوم القيامة فما هو موقفي؟ هل أحدٌ ينصرني، ومن يستطيع أن يقف أمام الله؟

وذلك قوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾ [هود].

وقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾، أي لا تغفلوا عن هذه الحقائق، وتنسوا ما يجب أن تتذكروه.

وهذا الموقف يتكرر مع الرسل، فهذا نبينا محمد ﷺ جاءه الملأ من قريش، فوجدوا عنده بعض المؤمنين المستضعفين: خباب، وبلال، وسلمان، وعمار، وصهيب، وابن مسعود.

فقالوا: يا محمد، رضيتَ بهؤلاء من قومك؟ أَنحنُ نصير تَبَعاً لهؤلاء؟

قال أهل العلم: كأنهم يقولون: يا محمد، إنك قد اكتفيت بهؤلاء الضعفاء وتركتنا نحن الأقوياء، ولن نجلس معك إلا أن تُبعد هؤلاء عن مجلسك فنجلس نحن، فقال النبي ﷺ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١٤﴾ [الشعراء].

وهناك رواية تقول: إن بعض أهل الكفر حاولوا أن يعرضوا موقفاً وسطاً على رسول الله ﷺ، فقالوا: إذا نحن جئنا إليك فأَقِمْهُم من عندك لنجلس معك، فإذا قمنا من عندك، فاجعلهم يجلسون.

قال بعض أهل التفسير: فكأن النبي ﷺ مالَ إلى الأخذ بهذا الرأي، وشاور عمر بن الخطاب بذلك، فقال عمر: لو فعلت حتى ننظر ما يريدون؟ فطالب الأثرياء من قريش أن يكون هذا التعهد كتابياً.

أحضر القلم والقرطاس والدواة، وإذا بالوحي ينزل قبل الكتابة: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٢﴾ [الأنعام]، فرمى النبي ﷺ بالصحيفة وامتنع عن ذلك.

وكان النبي ﷺ قبل هذه الواقعة يجلس مع المستضعفين، وإنْ أحبَّ ﷺ أن يقومَ من المجلس قام، فأراد الله عز وجل أن يزيد من إكرام هؤلاء الضعفاء، فجاء أمرٌ إلهي آخر بعد الأمر بعدم الاستجابة لزعماء قريش، جاء الأمر الثاني وهو: «ألا يقومَ رسولُ الله ﷺ من مجلسه مع المستضعفين حتى يقوموا هم».

قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا

﴿قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ [الكهف].

وعندما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «الحمد لله الذي جعل في أُمتي مَنْ أمرني أن أَصبر نفسي معهم».

قال سلمان الفارسي، وخباب بن الأرتّ: فينا نزلت، فكان ﷺ يقعدُ معنا، ويدنو منا حتى تمسَّ ركبتُنا ركبتَه، وترك ﷺ القيام عنا إلى أن نقومَ نحن، فكنا نعرف ذلك ونعجلُهُ القيام - أي كانوا يقومون أولاً من مجلس رسول الله ﷺ -.

وقولهم لنوح: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾[هود]، دليل على استكبار جليّ، وهذا إصرارٌ على التمادي في الضلالة والباطل والإصرار على المعصية يدفع صاحبه إلى التمادي في الضلال حتى يرى قبيح أعماله حسناً فيعلو ويتكبر على الصالحين.

وغالباً ما يكون أتباع الرسل من الضعفاء، ولذلك لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان، هل يتْبعُ محمداً أشرافُ القوم أم ضعفاؤُهم؟

قال أبو سفيان: بل ضُعفاؤهم، فقال هرقل: هم أتباعُ الرسل، ولكن لماذا تكونُ الاستجابة لدعوة الرسل من الضعفاء والفقراء؟

والجواب: لاستيلاء الرئاسة على قلوب الأشراف، وتعلُقِهم بها، ولأنهم لا يرضَون الانقياد للغير، والفقير ليس عنده من ذلك شيء، فهو سريع الانقياد، سريع الاستجابة، وهذا غالب أحوال الدنيا.

وقولهم: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾، أي أنَّ هؤلاء الضعفاءَ اتبعوك بسرعة دون تفكير ودون روية، فهم يذُمُّون مَنِ اتَّبعَ الرسول بسرعة.

قال العلماء: وهذا في الحقيقة أمرٌ يحمدون عليه ولا يُذَمّون؛ لأن الحق

الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا إلى فكر بل يجب الانقياد له، واتباعه متى ظهر - كما قال ابن كثير - والحقيقة أن كل رسول إنما يأتي في زمن فسادٍ، وبعض الناس ينتفع بهذا الفساد فيطغَون في الأرض، ويأتي الرسول ثورةً على هذا الفساد، وعلى هذا الطغيان؛ لذلك يتمسك المستضعفون بدعوة الرسول ويفرحون، وتَلتفُّ قلوبهم حوله.

أما المنتفعون بهذا الفساد فيقولون: إن أتباعك هم أراذلنا، فالمنتفعون بالفساد، والكفرة من قوم نوح قد حكموا على الضعاف المؤمنين بأنهم أراذل، حكموا عليهم بالمقاييس الهابطة، لا بالمقاييس الصحيحة، لأننا نقول لهم: لو امتنع هؤلاء الذين سميتموهم أراذلَ عن خدمتكم لذقتم الأمرّين، فلو امتنع النجار عن صنع الأثاث لما كانت هناك بيوت مؤثثةٌ، وكذلك الطاهي، و البنّاء، وهكذا فالكون محتاج إلى من يملك الثروة، ومحتاج إلى الضعاف الذين يعطون الخير من عملهم وجهدهم وإنتاجهم، ولولاهم لما كانت لكم سيادةٌ، فهم من تتمة السيادة، بل إنَّ سيادة الثري أو سيادة صاحب الجاه إنما تأتي لمجهودات من تقولون عنهم أراذل.

اشتداد البلاء على نوح:

يذكر المؤرخون، أن الملك «الدرمشيل» استدعى نوحاً إلى مجلسه وجرى بينه وبين نوح نقاشٌ، ثم أمر بحبسه، ثم رأى الملك رؤيا بشأن نوح أفزعته فأمر بإطلاقه وقال: دعوه فإنه مجنون.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩﴾ [القمر].

ثم مات الملك «الدرمشيل»، وتولى بعده ولده «نوبين» وكان أشد ظلماً وجبروتاً من أبيه، فقال لنوح: إن كنت مجنوناً نداويك، وإن كنت فقيراً نواسيكَ، وإن كنت مديوناً قضينا دينك، فقال نوح: ليس بي شيء من هذا،

فتضاعف البلاءُ عليه واشتد الإيذاء، واشتد نوح مقابل ذلك في الدعوة.

ويشاءُ الله أن يموت الملك «نوبين» وتولّى بعده «طغروس» وكان طاغية، أمر الناسَ أن يضعوا على أسطح منازلهم حجارةً فإذا مرَّ بهم نوح رموه بها.

قال المفسرون: عندها أعلم الله نبيه نوحاً أنه لن يؤمن من قومك بعد الآن أحدٌ، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود].

وقد أخرج إسحق بن بشير، وابن عساكر، عن ابن عباس قال: إن نوحاً كان يُضرَبُ، ثم يُلَفُّ في لبدٍ فيُلقى في بيته يرون أنه قد مات، ثم إذا به يخرج إليهم فيدعوهم.

واتفق أن جاءه رجل ومعه ابنه، وكان الوالد مُسِناً كبيراً يتوكأ على عصاً، فقال الرجل لابنه: انظر هذا الشيخ - وأشار إلى نوح - لا يغُرَّنَّك!! فقال الولد: يا أبت أمكني من العصا، فأخذ الولد العصا وضربَ نوحاً فشجّه وسالت الدماء من رأسه، فقال ﷺ: «رب قد ترى ما يفعل بي عبادك، فإن يك لك فيهم حاجة فاهدهم وإن يكن غير ذلك فصبِّرني حتى تحكم أنت، وأنت خير الحاكمين»، فأوحى الله إليه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود ٣٦].

و«إلا» هنا ليست للاستثناء، ولكن بمعنى «غير» مثل قوله تعالى في سورة [الأنبياء٢٢]: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

إذ لو كانت بمعنى «إلا» لكان المعنى سبحانه سيكون ضمن آلهة آخرين وهذا فاسد.

ومما جاءت «إلا» فيه بمعنى «غير» قول الشاعر:

وكلُّ أخٍ مُفارقُهُ أخوه　　　　لعمرُ أبيك إلا الفرقدان

أي كلُّ أخ، غير الفرقدين، مُفارقُه أخوه.

«فإلا» وما بعدها صفة لكل، إذن ختم الله المسألة: ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾.

وهذا تبرير لاجتراء نوح على الدعاء عليهم كما سيأتي معنا.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [هود].

والابتئاس: حزنٌ مع استكانةٍ، ومنه:

ما يَقْسِمُ الله أقْبلْ غيرَ مبتئسٍ　　　　منه وأَقعد كريماً ناعمَ البال

قال العلماء: ويدلك على عظيم طُغيانهم وظلمهم لنوح ومن معه ما ذكره الله تعالى في سورة [النجم] فقال: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ يعني قوم هود، ﴿ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾ أي قوم صالح.

ثم قال: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النجم].

قال القاسمي: كانوا أشد في كفرهم، وأعظم في طغيانهم وعصيانهم من الذين أُهلكوا بعدهم، لردِّهم لدعوةِ نوحٍ مع طول مدتِهِ بينهم، وقد حكى الخازن في «تفسيره» قال: حكى ابن إسحقَ قال: كان قوم نوح يبسطون نوحاً فيخنقونه حتى يُغشى عليه، فإذا أفاق قال: «اللهم اغفر لقومي لأنهم لا يعلمون»، حتى تمادوا وهو ينتظر الجيل بعد الجيل، فلا يأتي قرن إلا وهو أنحسُ ممن قبلهم.

قال القرطبي في قوله تعالى عن قوم نوح: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ ﴾.[النجم]

قال: كان الرجل يأخذ بيد ولده فيذهب به إلى نوح فيقول لولده: احذر هذا فإنه كذاب، وإن أبي قد مشى بي إليه كما مشيتُ بك، وقال لي: مثل ما قُلتُ لك، فيموت الكبير على الكفر، وينشأ الصغير على وصية أبيه، وكُرْهِهِ لنوح، ثم صمموا على قتله.

قال صاحب كتاب: «إرشاد العقل السليم»: إنهم - قاتلهم الله - صمموا على القتل، وقالوا له آخر الأمر: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء].

قال الحسن البصري: توعَّدوه بالقتل.

وقال قتادة: قالوا: نرميك بالحجارة حتى تموت.

وقال البروسوي: قالوا: سنقتلك أقبح قتلة.

قال الرازي: خوَّفوه القتل بالحجارة، فحصل له اليأس من فلاحهم فدعا عليهم بما ذكره الله لنا في سورة [الشعراء]: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

قال النسفي: ليس قولُ نوح: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ ليس إخباراً لله بالتكذيب لعلمه أنه عَزَّ وجلَّ عالم الغيب و الشهادة، ولكنه أراد بأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك، فأنا سأدعو عليهم انتصاراً لوحيك ورسالتك.

وقوله: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الشعراء]

الفَتاحَةُ: الحكومة، و الفتّاحُ: الحاكم؛ لأنه يفتح المُسْتغلَق، والمعنى: يا رب احكم بيننا بما يستحقُّهُ كلُّ منا، وجميل ما أشار إليه البروسوي في معنى ذلك فقال: المعنى: «اللهم افتح باباً من أبواب فضلك على مستحقيه، وافتح

باباً من أبواب عدلك على مستحقيه».

والمراد به، إنزالُ العقوبة عليهم؛ لأنه قال بعدها: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٨﴾.

قال في كتاب «البداية و النهاية في التاريخ»: كانت سجايا قوم نوح تتمثل في أمرين اثنين:

الكفر الغليظ، والعناد البالغ، حتى إنهم في الآخرة يُنكرون مجيءَ نوحٍ إليهم رسولا.

فقد ورد في البخاري من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء نوح عليه السلام وأُمته، فيقول الله عز وجل لنوح: هل بلغت؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول تعالى لأُمةِ نوحٍ: هل بلّغكم نوح؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نذير، فيقول الربُ سبحانه لنوح: مَنْ يشهد لك؟ فيقول نوح: محمدٌ و أُمته، فتشهد أُمة محمد أنه قد بلَّغ نوحٌ قومه» وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البقرة١٤٣].

ثم اشتدَّ التحدي: قال العلماء: كان كلٌ من الفريقين مُصِرّاً على مواقِفِهِ، نوح في استمراره على الدعوة، واستمرارٌ من قومه على الكفر والعناد، ثم تَحدَّوه قائلين: إذا كنت في دعوتك صادقاً، فأتنا بالعذاب.

ويأتي الجواب وحياً في سورة [هود]: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣٢﴾.

والجدالُ: هو قول كلام يقابل كلاماً آخر، فَهُما طرفان، وقصدُ كلِ طرفٍ من المتكلّمَيْن أن يُزحزح الطرفَ الآخر عن موقفه، وإذا علمنا المدة الطويلة

التي مكثها نوح بينهم، أدركنا أن جدالهم معه أخذ وقتاً طويلاً، ولذلك قالوا: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾، ولا بد هنا من التمييز بين الجدال و المراء:

فالجدال مطلوبٌ لنصل إلى حق شرطَ أن يكون جدلاً حسناً لا إيذاء فيه، لذلك قال تعالى في سورة [النحل ١٢٥]: ﴿ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾.

أما المِراء: فهو الجدالُ بعد ظهور الحق، فهو نوعٌ من الاعتراض والطعن في قول مَنْ أمامك بعد ظهور الحق وأنه معه.

وكلمة «مِراء» مأخوذة من «مرى الضّرْعَ»: أي مسح ضرع الناقة أو الشاة لتدِرَّ اللبن، ففي أول الحلب يكون الضرع ممتلئاً فينزلُ اللبن بشدةٍ، وبعد أن ينتهي حلبُ الضرع يظلُّ الحالبُ ممسكاً بحلمات الشاة، يحاول أن يستحلبَ ما بقي من اللبن، فبعد ظهور اللبن الكثير لم يبقَ شيءٌ في الحلمات، ولذلك قالوا: المراءُ ما بعد ظهور الحق.

قال المفسرون: بعد أنْ ملُّوا من جدال نوح طلبوا أن يَنزل بهم العذابُ الذي أنذرهم به، وكانوا قد استبطؤوا هذا العذاب لطول مُكثِ نوحٍ بينهم، ولذلك قالوا: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

قالوا هذا القول لنوح في مسألة لا يملكها هو، وهي الإتيانُ بالعذاب أو رفعُهُ، بل هي مِلكٌ لله سبحانه وتعالى وحده، ولذلك نبَّههم نوح إلى هذا قال: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [هود].

فالحق سبحانه هو الذي يُقدِّرُ للعذاب أواناً، ويُقدّرلكلِ تعذيبٍ ميلاداً، ولا يعجلُ سبحانه لعجلةِ العباد، فلكل أجلٍ كتاب.

ثم هم لن يُفلتوا منه عز وجل، وليس هناك من قوة تمنع مشيئته سبحانه.

عندها أوحى الله لنوح ما ذكره سبحانه في سورة [هود]: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قال ابن عباس: كانوا قُرابة الثمانين معهم نساؤهم.

ثم قال تعالى: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود].

وكلمة: «الفلك» تعني السفينة، وهذه اللفظة: «الفلك» تطلق على المذكر والمؤنث، والمفرد والجمع، قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [الشعراء]، جعله مفرداً مذكراً.

وقال في [النحل ١٤]: ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾، جعل الفلك جمعاً ووصفه بقوله: «مواخر» أي السفن.

وهكذا علمَ نوحٌ أنَّ صُنع السفينة مرتبطٌ بنوعٍ من العذاب: ﴿ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

قال المفسرون: عندها اتَّجه نوح إلى ربه داعياً على الكافرين من قومه، وذلك كما ورد في سورة نوح، وبعد أن يئس من اهتدائهم كما أعلمه ربه: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾ [نوح]، ويدلُ هذا الدعاء على معرفته عليه السلام بهم بسبب المخالطة الطويلة حيث عاش بينهم قُرابة عشرة قرون.

وقوله: ﴿ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾: أي إلا مَنْ يصيرُ فاجراً كفاراً بعد بلوغه. ثم طلب المغفرة لنفسه أولاً، ثم لأقرب الناس إليه، وهما والداه:

الأب «لَمَكْ» والأم «شمخاء»، ثم عمَّم أهله وذويه المؤمنين فدخل في ذلك أولاده وأحفاده وأزواجهم، يدل على ذلك قوله عليه السلام: ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا ﴾ [نوح ٢٨]، وهو الدخول المتكرر الملازم، ومنه سميت بطانة المرء: دخيلته، ودخلته، ثم عَمَّ المؤمنين والمؤمنات، ثم عاد بالدعاء على الكافرين فقال: ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾: أي هلاكاً.

وقد روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه كان إذا قرأ القرآن بالليل فمرَّ بآيةٍ يريد أن يبيّن فيها شيئاً يقول: يا عكرمة ذَكِّرني هذه الآية غداً، فقرأ ذات ليلة هذه الآية: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ ﴾: منزلي أو مسجدي أو سفينتي.

فقال لي: يا عكرمة، ذكّرني بها غداً، فلما جاء الغد ذكّرتُهُ بها، فقال ابن عباس: إن نوحاً دعا بهلاك الكافرين، ودعا للمؤمنين بالمغفرة، وقد استجاب الله دعاءه في الكافرين فهلكوا، وكذلك استجاب دعاءه للمؤمنين، فيغفر الله للمؤمنين وللمؤمنات بدعائه.

وذكر النسفي في تفسيره المسمى «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، أن ابن عباس قال: دعا نوح بدعوتين، إحداهما للمؤمنين بالمغفرة، وأُخرى على الكافرين بالهلاك - التبار - فهلكوا، وقد أُجيبت دعوته في حق الكفار بالتبار، فمن المستحيل ألّا تُستجابَ دعوتَه في حق المؤمنين.

ولقد رأيتُ لصاحب «التحرير والتنوير»، المفسر ابن عاشور لفتةً جميلةً في كلام نوح، إذ يقول: «في كلام نوح دلالة على أن المصلحين يهتمون بإصلاح جيلهم الحاضر، ويؤسسون لإصلاح الأجيال الآتية، إذ الأجيالُ كلها سواءٌ في نظرهم، من هنا نرى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، أخذ من قوله تعالى في سورة الحشر، حيث بينت الآيات توزيع فيءِ «بني النضير»، وأوضح

أنه: ﴿ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا ﴾، ﴿ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ ﴾ [الحشر ٨]، ثم قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠ ﴾ [الحشر].

أخذ عمر من الآية دليلاً على إبقاء أرضِ سوادِ العراق غير مقسومةٍ على الجيش الذي فتح العراق، بل جعلها خراجاً للمسلمين جميعاً، لهم فيها حقٌّ، ولذلك لما قرأ عمر قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠ ﴾ [التوبة].

قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ قوله تعالى من [سورة الأنفال ٤١]: ﴿ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾، ثم قال: هذه الآية لهؤلاء.

ثم قرأ: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧ ﴾ [الحشر]، ثم قال: ﴿ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ ﴾ حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠ ﴾ [الحشر].

ثم قال: استوعبت هذه الآية المسلمين عامةً، فليس أحدٌ إلا له فيها حقٌّ، ثم قال: لئن عشتُ ليأتينَّ الراعي - وهو يُسيِّرُ حُمُرَهُ - نصيبَهُ، لم يعرقْ فيها جبينُهُ، وهكذا يحرصُ المصلحون على إصلاح جيلهم، وعلى التأسيس

لإصلاح الأجيال الآتية، كما دعا نوح، وكما فعل عمر رضي الله تعالى عنه.

إذن دعا نوح بهلاك الكافرين، تأتي الاستجابة الربانية سريعاً قال تعالى:
﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ
﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ
﴿٨٢﴾ ﴾ [الصافات].

قال المفسرون: إن كلمة ﴿ نَادَىٰنَا ﴾ تَدُلُّ على أنَ نوحاً عليه السلام قد استنفذ كل وسائله في دعوة قومه فلم تُفلح، فلجأ إلى الله؛ لأنه وحده عز وجل القادر على كشف غُمته.

ويأتي الجواب: ﴿ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾، لأن نوحاً عليه السلام كان نِعمَ الداعي، فلا بُدَّ أن يُقابلَ بـ ﴿ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

هنا نلاحظ أن الجواب كان بالجمع: ﴿ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾، ولم يقل: فلنِعمَ المجيب، لماذا؟ لأن الحق سبحانه يجيبه بجنوده في الأرض من الماء والهواء والملائكة.. ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر ٣١].

وقوله: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾([الصافات]: من الغرق.

والكربُ: هو المكروه الذي لا تستطيع دفعه عن نفسك، ولا يستطيعُ من حولك دفعه عنك حين تستغيث بهم، لكن إذا كان لك حيلةٌ في النجاة فلا يُسمى كَرْباً.

ووصفُ الكرْبِ بأنه عظيمٌ يدل على أنه لا يستطيع دفعه أحد، فالماء ينهمر من السماء، والأرض تتفجر به، ويُغطي قمم الجبال، فأين المفرُّ؟

والماء: هو من أجل نِعَم الحياة الموهوبة للبشر، لكن إذا أراد الله جعله نقمةً وعذاباً، فهو قادر، ألم يُنجِ الله موسى بالماء؟

ألم يُهلك فرعون بنفس الماء؟.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ٧٧﴾ [الصافات]، حيث أهلك أعداءهم.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ٧٨﴾ [الصافات]: أي جعلنا الناس يُثنون عليه أُمةً بعد أُمةٍ.

وقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ٧٩﴾ [الصافات]، فالناس حين يسمعون قصته مع قومه طوالَ هذه السنين يقولون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ أي أعطِهِ السلامة والسلامَ يا رب.

قال ابن الجوزي: أي تركناه يُصلَّى عليه إلى يوم القيامة.

فائدةٌ: ورد عن سعيد بن المسيب أنه قال: من قال حين يُمسي ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ٧٩﴾ [الصافات] لم تلدغه عقرب، ذكر هذا صاحب «التمهيد» أبو عمر، لكن في «الموطأ» من حديث أبي هريرة أنَّ رجلاً من «أَسْلَمَ» – اسم قبيلة – قال: ما نمتُ الليلة يا رسول الله، فقال ﷺ: «من أي شيء؟» قال الرجل: لدغتني عقرب، فقال الرسول ﷺ: «أما لو أنك قُلتَ حين أمسيتَ أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضركَ».

ومن حديث خولة بنت حكيم أن النبي ﷺ قال: «من نزل منزلاً فليقل، أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، فإنه لن يضره شيءٌ حتى يرتحل».

أمرُ الله لنوحٍ بصنع السفينة:

قال ابن كثير: لما يئس نوح من صلاحهم، وبعد أن آذوه بكل طُرق

الإيذاء القولية و الفعلية دعا عليهم دعوةً غضبَ الله عليهم، فلبى الله دعوته، وأجابَ طلبه.

قال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأنبياء].

وفي سورة [المؤمنون]: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

وفي سورة [القمر]: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾.

قال ابن كثير: اجتمع عليهم، خطاياهم، ودعوة نبيّهم، عندها أمره الله بصنع السفينة بعد أن قال نوح: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ ﴾. جاء بعدها: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المؤمنون].

والعرب تُعبر بالعين الواحدة عن العناية، وبالأعين عن المبالغة فيها، قال الله تعالى لموسى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه]، وقال لمحمد ﷺ: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الطور].

قال الشاعر:

وإذا العنايةُ لاحظتكَ عيونُها   نَمْ فالمخاوفُ كلهن أمانُ

قال ابن كثير: أمره ربه بصنع السفينة، ونَبَّهه إلى أمر عظيم وهو:

أنه إذا جاء أمر الله، وحَلَّ بهم العذاب، فاحذر أنْ يرِقَّ قلبُكَ لعذابهم، واحذر أن تطلب رفع العذاب عنهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود]، لأنه هناك فرق بين الإخبار بالعذاب، وعند رؤيتهم يعذبون.

ولذلك ورد في الأثر: «ليس الخبرُ كالمعاينة» أخرجه أحمد.

من هنا كان عندنا:

علمُ اليقين: وهو التصديق التام بالسمع.

عينُ اليقين: وهو معاينةٌ بعد سماع، أو شهودٌ بعد خَبَر.

وحقُّ اليقين: وهو المباشرة بالحواس، ومثال ذلك «الجنة».

وقال الخازن عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾ أي ولو كان فيهم ولدك «يام» الذي هو كنعان، أو فيهم زوجتك «واعلة» أو «والعة».

وقوله: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾.

الفلكُ: السفينة، ولفظةُ الفلكِ تقع للمذكر والمؤنث والمفرد والجمع.

قال تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١١٩﴾ [الشعراء]، جاءت مفرداً مذكراً.

وقال في سورة [النحل ١٤]: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ جعل الفلكَ جمعاً ووصفه بقوله: ﴿مَوَاخِرَ﴾، وسميت فلكاً لدورانها في الماء بسهولة.

وقوله: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ أي بأمرنا وبمرأىً منا لصنعتِكَ لها، فإن توقَفْتَ لأيّةِ عقبةٍ، فسوف نُلهِمُكَ بها تواجه به العقبة.

قال المفسرون: كان نوحٌ لا يعلمُ عن صناعةِ السفن شيئاً، فجاء جبريل فعلَّمَهُ، فقد أخرج إسحق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس، أن الله أوحى إليه: أن اجعل: رأسَها كرأسِ الديك، وجؤجُؤها كجؤجؤ الطائر، وذيلها

كذيل الديك، واجعل لها أبواباً في جوانبها، وسُدَّها بدُسرٍ، وأن يطليَها بالقار، ولم يكن في الأرض قارٌ، فَفُجِرت له عين قارٍ في مكان صناعتها يغلي غلياناً حتى طلاها.

قال العلماء: عَمِلَ السفينةَ بتوجيه جبريل، فكانت وراثةً للعالمين.

قال المؤرخ المسعودي وغيره: كانت السفينة على هيئة الدجاجة.

قال الخازن: لما بدأ نوح بعمل السفينة انشغل عن قومه ليقوم بتهيئةِ لوازمها.

قال المسعودي: بدأ نوح يُعِدُّ لعمل السفينة من خشب الساج والمسامير.

قال تعالى في سورة [القمر]: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾.

قال الثوري: كانت السفينة من خشب الساج، وأُمِرَ أن يَطلي ظاهرها وباطنها بالقار.

وقوله تعالى: ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾.

والألواح: الأخشاب العريضة يسهلُ فكُّها وتركيبها.

والدُّسُر: جمع دسار، والدَّسْرُ: هو الدفع الشديد بالقهر، ومنه يُقال: دَسَرَهُ بالرمح.

ولما سُئِلَ النبي ﷺ: أفي العنبر زكاة؟ قال ﷺ: «ليس في العنبر زكاة إنما هو شيء يدسُرُهُ البحر».

والدِّسارُ: حبل من ليف تُشدُّ به ألواح السفينة، وقيل المسمار، والراجح أن نوحاً ربط الألواح الخشبية بالحبال المجدولة، وقد فعل هذا أحد مكتشفي

أمريكا حديثاً حيث صنع سفينة من نبات «البردي» ثم ربطها بالحبال المجدولة القوية، وهكذا فعل نوح حيث ربط ألواح الخشب بالحبال المجدولة وأحكم الربط بحيث لا يتسربُ الماء.

قال العلماء: وفي عصرنا تُصنع البراميل الخشبية، وتُربط بإطارٍ قوي، وعندما يوضع فيها أي سائل، فالخشبُ يتشرب هذا السائل ويتمدد الخشب ليسد المسامَّ فلا يخرج السائل من البرميل، لأن الخشب هو المادة الوحيدة التي تتمدد بالبرودة عكس المواد الأخرى، ولذلك نشاهد النجار الحاذق يصنع الأبواب الخشبية والأثاث في الفصول المعتدلة بحيث لا ينكمش الخشب في الصيف، ولا يتمدد في الشتاء.

وقوله تعالى: ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾.

أي فعلنا ذلك جزاءً وأجراً وثواباً لنوح؛ لأنه كان نعمةً لقومه فكفروا بهذه النعمة، ولذلك رُوي: أن رجلاً قال لهارون الرشيد: الحمد لله عليك، قال الرشيد: ما معنى ذلك؟ قال: أنت نعمةٌ يا أمير المؤمنين حَمِدْتُ الله عليها.

ثم انتبه – يا عبد الله – إلى دقة التعبير في قوله تعالى: ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾، أي كان هذا ثواباً وجزاءً على صبره عليهم، وعلى كفرهم به، وليس ثواباً على إيمانه وشكره لله لأنَّ ثواب إيمانه وشكره سيثابُ عليه يوم القيامة فهو ثوابٌ باقٍ.

وصف السفينة:

ذكر بعض المفسرين أقوالاً في طول السفينة وعرضها، وكذلك ذكر ذلك المؤرخون، وذكروا طبقاتها، ولم يثبت ذلك في دليل صحيح من كتاب أو سنة، ورحم الله المفسر أبا حيان حين قال: ذكر المفسرون أنها سفينة عظيمة

وكفى.

وقال الرازي: اعلم أن هذه المباحث – أي في طول السفينة وعرضها – لا تعجبني؛ لأنها أمورٌ لا حاجة لمعرفتها البتةَ، ولا يتعلقُ بمعرفة هذه الأمور فائدة أصلاً.

سخريَة قوم نوح عليه السلام من صنعه للسفينة:

وبدأ بِصُنعِ السفينة:

أشار القرآن إلى سخريتهم من عمله عليه السلام في سورة [هود ٣٨]: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

قال مقاتل: سألوه ماذا تصنع؟

قال: أصنع بيتاً يمشي على الماء؟!!

فعجبوا كيف يمشي البيتُ على الماء؟!!

قال ابن عطية: استجهلوه وسخروا منه؛ إما لأنهم لم يعرفوا السفُنَ قبل ذلك؛ وإما لأنهم رأوه يصنعها في مكانٍ لا ماء فيه – في الموصل أو البقاع –.

ورحم الله الآلوسي إذ قال: لا قطْعَ عندنا أنهم كانوا لا يعرفون السفن، ولا أنهم يعرفونها، ولكنَّ كُتُبَ الأوائل – من المؤرخين – ذكرتْ أن نوحاً أولُ من عَمِلَ السفينة.

إذن صاوروا يتساءلون: كيف تصنعُ السفينة من الموصل إلى البحر؟

ولو علموا ما علمه نوح من أنَّ الماء هو الذي يأتي ليحمل السفينة، وليست هي التي تذهب إلى الماء لما سألوا هذا السؤال.

قال ابن كثير: كانوا يسخرون منه استبعاداً لوقوع ما تَوعَّدهم به من العذاب.

ماذا كان ردُّه على استهزائهم؟

كان ردُّه ما ورد في سورة [هود]: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

والسخرية: استجهالٌ مع استهزاءٍ، أو تعجُّبٌ باحتقارٍ واستحماقٍ.

وقد ذكر صاحب كتاب «روح البيان» نماذج من سخريتهم به عليه السلام فقال: كان الملأُ من قومه إذا مرُّوا عليه وهو يصنع السفينة يتضاحكون ويقولون: يا نوح صِرْتَ نجاراً بعد أن كنتَ نبياً، ويقولون: كنت تزعُمُ قبل اليوم أنك نبيٌ مرسل، فكيف أصبحتَ اليوم نجاراً، أزهدتَ في النبوة؟ أم رغبتَ في النجارة؟!!

وقال أحمد جاد المولى في كتابه «قصص الأنبياء»: يا نوح: أتجعل للماء إكافاً فأين الماء؟ ويقولون: ما بالُ سفينتك تصنعُها بعيدةً عن الأنهار و البحار؟

أَأعددتَ الثيران لجرِّها، أم كلَّفتَ الهواء بحملها؟

قال العلماء: فإن قال قائلٌ: ماذا كان ردُّ نوح على سخريتهم؟

نقول: ويردُّ نوح على سخريتهم بقوله: قال: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

قال ابن عاشور: وسخريَتُهُم منه، لكونهم حملوا فعله على العبث، أو لأنهم لما أنذرهم الغرق وطالت مدةُ مُكْثِهِ بينهم ولم يَرَوا ذلك حملوا عمله على العبث، أما سخريتُهُ منهم، أي من الكافرين، فمن سَفَهِهِم وجهلهم بالله وصفاته، فالسخريتان مقترنتان في الزمن، ولكن بينهما بون شاسع في السبب،

فكأنَّ نوحاً يعني بقوله: ﴿ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي: إنا نسخر منكم في المستقبل عندما يصيبكم الغرق في الدنيا والحريق في الآخرة، وإنْ تَستجهلونا فيما نصنعُ من الفلك، فإنا نستجهلكم فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله عز وجل.

بعض الطرائف والغرائب في قصة نوح:

من ذلك ما ذكره صاحب كتاب «حياة الحيوان»: أنَّ أول من اتخذ الكلب للحراسة «نوح» قال: وذلك عندما بدأ نوح بصنع السفينة، كان قومُهُ يأتون ليلاً فيخربون ما يفعله في النهار.

فقال نوح: يا رب: إنكَ أمرتني أن أصنع الفلك، وأنا أقوم بالصناعة أياماً، فيجيؤون بالليل فيفسدون كلَ ما عملتُ، فمتى يتمُّ لي ما أمرتني به، فقد طال عليَّ أمري؟

فأوحى الله إليه: يا نوح اتخذ كلباً يحرسك، فاتخذ نوح كلباً، فإذا جاء قومُهُ ليفسدوا عليه ليلاً ما فعله في النهار فينتبه الكلب فينبحهم فيقوم نوحٌ ويثبُ عليهم بالهراوة حتى تم له الأمر.

وقال الكسائي: كان القوم إذا جاء الليل يلقون بالنار على خشب السفينة فلم تُؤثرْ فيها النار فيقولون: هذا من سحر نوحٍ.

فوائد:

قال العلماء: في كثير من آيات القرآن الكريم أدلةٌ على جواز ركوبِ البحر مطلقاً: لعبادةٍ: كالحج و الجهاد، أو لتجارة وسفر، وإلى هذا تشير الآياتُ في سورة [يس]: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ ﴾، أي سفينة نوح، والسفن في حدِّ ذاتها آية من آيات الله أجراها الله تعالى على يد

نوح ليَعْلَمَ الناسُ صناعة السفن، ثم تُطورها العقولُ بعد ذلك ويخترعون من جنسها أنواعاً أُخرى، من زوارق ومراكب وغواصات، ولذلك قال بعدها: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [يس].

كل ذلك آية من الله لنا: لنستدل بها على عظمة الله وقدرته ورحمته، وهي آية لهم - للكفرة - تدعوهم إلى الإيمان بالله سبحانه، ولذلك لما سُئِلَ عليٌّ رضي الله تعالى عنه: أعرفتَ ربَّكَ بمحمدٍ، أم عرفتَ محمداً بربك؟ فقال: «عرفتُ ربي بربي، وجاء محمدٌ فبلَّغني مُراد ربي مني».

وكذلك قال تعالى في سورة المؤمنون بعد أن ذكر الدواب التي تحملُنا في البر وننتفعُ منها وبها فقال: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [المؤمنون]، وثنى بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾، أي فكما هيأتُ لكم المطايا في الأرض اليابسة أعددتُ لكم ما تركبونه في المساحات الواسعة الشاسعة من البحار.

قال العلماء: هذه الآياتُ و أمثالُها دليلٌ على جواز ركوب البحر، وقد ورد في السُنَةِ أنَّ رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنا نركبُ البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، أفنتوضأُ من ماء البحر؟ فقال ﷺ: «هو الطَّهورُ ماؤه الحِلُّ ميتتُه».

وفي حديث أنس بن مالك من قصة «أم حرام» دليل على جواز ركوب البحر للرجال و النساء.

قال العلماء: إن النبي ﷺ أمرَ المستطيعَ بالحج نساءً كانوا أو رجالاً، ولم يَخُصَّ براً أو بحراً.

وقال ابن العربي الأندلسي: ومما يدل على جواز ركوب البحر أنَّ الله

تعالى ضرب البحر وسط المعمورة، وجعل الخلقَ في العدوتين - الشاطئين - وقسَّمَ المنافع بين الجهتين فلا يوصَلُ إلى جَلَبها إلا بركوب البحر لها، فسهَّلَ الله سبيل البحر بالفُلكِ.

وأما ما نُقِلَ عن عمر بن الخطاب من النهي عن ركوب البحر، فذلك - كما قال القرطبي - محمولٌ على الاحتياط، وعلى عدم الإجبار لأنَّ العرب في صحرائهم لم يكونوا قد ألفوا البحر، ثم إن الناس في ركوب البحر قد تختلفُ أحوالهم، فهذا يسهلُ عليه وهذا يشقُ عليه، إلا أنَّ العلماء قالوا: إن البحر إذا أرْتَجَ لم يجز ركوبه بوجهٍ من الوجوه، وكذلك إذا كان الأغلبُ عدمَ السلامة.

وقالوا: ثم إن الناس ينتفعون بتجارة البحار، ويربحون بالحَمْل والجَلَبِ وبالصيد، وقد امتنَّ الله علينا بما في البحر من الخيرات.

وقد ذكر القرطبي: أنَّ أحد الملاحدة سأل مرةً فقال: إن الله يقول في كتابكم: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام ٣٨]، فأين ذكر التوابل والبهارات المصلحةِ للطعام، مثل الفلفل والملح وغيرها؟ فقيل له: إن الله تعالى يقول في ذكر نِعَمِهِ علينا في سورة [البقرة]: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

وهل تحمل الفلكُ إلا ما ينفعُ الناس من الملح والمعادن والتوابل وغيرها، فسكت.

وهكذا يتعرضُ الرسلُ ومَنْ على طريقهم للمشاقِّ والصعوباتِ لأنهم أصحابُ غاياتٍ حميدةٍ.

والغاياتُ الحميدة في خبايا الأسباب الشائكة الصعبة: «حُفَّتِ الجنة بالمكاره».

والغاياتُ الدنيئة في خبايا الأسباب المشتهاة: «وحُفَّتِ النار بالشهوات».

علامةُ مبدأ الطوفان:

قال أهل التفسير: جعل الله علامةً لنوحٍ، إذا رآها، فعليه أن يركب السفينة هو ومَنْ معه لأنَّ الطوفان عند رؤيتها سيبدأ، قال تعالى في سورة [هود]: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠ ﴾، ففورانُ التنور هو العلامةُ لبدءِ الطوفان، وللركوب في السفينة، ولكن ما هو هذا التنور؟

والجواب عند الأكثرين من أهل التفسير: أنه تنور الخبز المعروف.

قال الحسن ومجاهد: كان تنوراً لآدم وحواء تخبز فيه، ثم صار لنوح، وكان من الحجارة، فالعلامة خروج الماء من غير مكانه، لأن التنور عادةً يُبنى في مكانٍ مرتفعٍ، وهو مكان لإشعال النار فهو أبعدُ مكانٍ عن الماء عادةً، قال أُمية بن أبي الصلت:

فارَ تنورُهم وجاشَ بماءٍ　　　صار فوق الجبال حتى علاها

ومن المفسرين من قال وهم قلةٌ: إن معنى قوله تعالى: ﴿ وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ أي اشتدَّ غضبُ الله تعالى عليهم، فهو مجازٌ كقول العرب:

«بلغ السيلُ الزُّبى، وامتلأ الصاعُ، وفاضتِ الكأسُ، وتفاقمَ الأمرُ».

ومنهم من قال: إن ذلك من قبيل التمثيل لاشتداد الحال كما تقول: «حَمِيَ الوطيس».

وابن كثير عليه رحمة الله أجادَ حين قال في تفسير الآية: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾. قال: الراجح عندي قول ابن عباس: إن التنور وجه الأرض، والمعنى: صارت الأرضُ عيوناً تفور بالماء حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار، صارت تفور ماءً.

ثم قال ابن كثير: هذا قول جمهور السلف، وعلماءُ الخلف، وما سواها غريب.

وقوله تعالى: ﴿ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾.

قرأ حفصٌ كلمة: ﴿ كُلٍّ ﴾ بالتنوين، وقرأ الجمهور بالإضافة ﴿ مِن كُلِّ زَوجَينِ ثنَينِ ﴾ والمعنى واحد، وفي قراءة التنوين يكون هذا التنوين عوضاً عن مضافٍ إليه، والتقدير: من كلِّ المخلوقات، لأن التنوينَ يفيدُ العموم، فهو أمرٌ لنوحٍ أن يحملَ في السفينة من كل شيءٍ تطلبه حياة الناجين من جميع أصناف النباتات و الحيوانات.

وقال بعض المفسرين: حتى الخنزيرَ كان ضمنَ ما حملهُ نوح؛ لأنَّ له مهمةً.

وقوله: ﴿ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾: المفردُ «زوج»، والزوج: ما له مُشاكِلٌ من نوعه، فالذكر: زوجٌ، والأنثى: زوجٌ، والعربُ تقول في كل اثنين لا يَستغني أحدُهما عن الآخر «هما زوجان»، وتُسمي كلَّ واحدٍ منهما زوجاً، فيقال: له زوجا نعلٍ، وعنده زوجا حمام، ويُقالُ للمرأة: هي زوجُ الرجل، وللرجل: هو زوجها.

قال الحسن: لم يحملْ نوح في السفينة إلا ما يَلِدُ ويَبيضُ، أما البعوض والذباب والديدان التي يكون تكاثُرها في الطين فلم يحمل منها شيئاً، وقد

روى ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم عن أبيه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لما حملَ نوحٌ في السفينة من كل زوجين اثنين، قال أصحابُهُ: وكيف نطمئِن، أو كيف تطمئن المواشي، ومعنا الأسد؟ فأُنزل عليه الحمّى، فكانت أول حمّى نزلت على الأرض».

والمعلوم عند علماء الحيوان أنَّ الحُمّى من الأمراض الملازمة للأسود.

قال ابن كثير: وهذا الحديث مرسلٌ، والمرسلُ ما سقط من إسناده من بعد التابعي.

وقد ذكر البروسوي: أنه ورد في بعض الآثار، أن نوحاً قال: يا ربِّ: كيف تأتلفُ هذه الحيوانات؟ فأوحى الله إليه: إن الذي ألقى العداوة بينها قادرٌ على رفعها.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ أي: واحمل أهلك، أياً كان نوعهم وعددهم، لكن الأهلية هنا، هل هي أهلية نسب، أم أهلية عقيدة؟

الأهلية هنا أهليةُ إيمان واتباع بدليل، أن الله تعالى قال في سورة هود ما قاله نوح: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [هود]، فنوحٌ عنده مبرّرٌ في طلبه النجاة لولده؛ لأن الحق سبحانه أمره أن يحمل في السفينة من كلٍّ زوجين اثنين، وكذلك أهله، فأراد نوح طلب النجاة لولده لأنه من أهله، فقال عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

وانتبه - ياعبد الله - إلى تذيل الآية، ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ فهو إيمانٌ من نوح أنه عز وجل لا يُخطئ في حكمه؛ لأن الابنَ قد غرق فلا بُدَّ أن يكونَ ذلك الغرق لحكمةٍ.

ومع ذلك لفت الربُّ سبحانه نظر نبيّه نوح إلى أنَّ أهلية الأنبياء هي أهلية الاتباع والمنهج وليست أهليةَ اللحم والدم كما قال علماء التفسير.

فإذا قاس نوح ابنه على هذا القانون الرباني، فلن يجد ولده كنعان ابناً له ولذلك قال تعالى لنوح: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود].

قال البروسوي: إنه ليس من أهلك الذين يشملهم الوعد بالإنجاء لخروجه منهم بالاستثناء لأنه لا علاقة بين المؤمن والكافر، فمدارُ الأهلية القرابةُ الدينية.

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة: «إنه ابنه غير أنه خالفه في العمل»، فلا فائدة في نسبٍ من غير علم وعمل، وفي فخرٍ بمجرد الآباء، ولذلك قال النبي ﷺ: «يا بني هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم، وتأتوني بأنسابكم»، فالغرض من قوله ﷺ هذا تقبيح الافتخار عنده ﷺ بالأنساب حين يأتي الناس بالأعمال، ولذلك قال الشاعر:

وما ينفعُ الأصل من هاشمٍ إذا كانت النفسُ من باهلة[1]

وقوله تعالى لنوح: ﴿ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ ﴾، أي لا تطلب مطلباً لا تعلم يقيناً أنَّ حصوله صوابٌ وموافقٌ للحكمة.

فالنهي هنا نَهْيُ تنزيه، لأنه سأل أمراً لا يعلم إجابته، فهو نهي لومٍ وعتابٍ حيث لم يتبين من ربه جواز ذلك كما قال ابن عاشور.

وقوله: ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾، أي أعظكَ موعظةً أن تُقْدم على شيء قبل التثبت.

---

(١) باهلة: قبيلة معروفة بالدناءة لأنهم كانوا يأكلون نقيَّ عظام الميتة.

فهو طلبٌ من نوح هنا أن يفكر جيداً قبل أن يسأل، فلا غبار على الأنبياء حين يربيهم ربهم، كما قال الشعراوي.

قال الزمخشري: عوتِبَ نوح لأنه اشتبَهَ عليه ما يجبُ ألا يشتبه، وأولو العزم يحاسبون على التقصير، وحسناتُ الأبرار سيئاتُ المقربين.

قال الرازي: إن أُمة نوحٍ كانت ثلاثة أقسام:

كافرٌ يُظهر كفره، ومؤمن يُعلن إيمانه، ومنافقون.

وكان حكم المؤمنين النجاةُ، وحكم الكافرين الغرق، أما أهل النفاق فبقي حكمُهُم مخفيّاً، وكان ابن نوح منهم، ولم يكن نوح كاشفاً لأمر ولده، ولا عارفاً ببواطنه فبقي معتقداً ظاهر حاله، فسأل الله بناءً على ذلك، فكان جوابه عز وجل: «إنه في علمي من الذين سبق عليه القول، وأنك يا نوح لا علمَ لك بذلك»، ولذلك قال الله له: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾، أي أن يقع منك في المستقبل مثل هذا التقصير في معرفة حقيقة ولدك كما قال ابن المنيّر.

فاجتهد نوح فأخطأ، وهذا من باب الخطأ في الاجتهاد.

فلما قال له ربه: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ﴾، أسرع نوحٌ في الاستجابة وطلب المغفرة لما مضى منه، وطلبَ التوفيق فيما يأتي من حياته فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود].

قال العلماء: وحمل نوح من أمرهُ الله بحملهم من أهله ومن آمن معه، وذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ

﴿ ... ﴾ (٤٠) [هود].

قال ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً الرجال والنساء، منهم أولاده الثلاثة: «سام، حام، يافث» وزوجاتهم وزوجة كنعان الذي غرق، والذي وصفه ابن كثير بقوله: «انخذل إذ انعزل، وما عدل إذ عدل».

ثم يُعلِّم الله نوحاً دعاءً يقوله عند ركوبه هو ومن معه وذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٢٩) ﴾ [المؤمنون].

هنا درس لنا نتعلم منه أنَّ المؤمن يجب أن يستقبل نِعَمَ الله عليه بالحمد وبألا تُنسيه النعمةُ جلالَ المُنعم، فعند استقرار أمرك على السفينة واطمئنانك فبادر بالحمد.

قال ابن كثير: أمرهُ الله بالحمد على ما سخَّر له من هذه السفينة فنجا بها، وأقرَّ عينه ممن خالفه، وهذا كقوله تعالى في سورة [الزخرف]: ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤) ﴾.

وقوله: ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ ﴾ هنا بمعنى التذكر بالفكر، لا الذكر باللسان، فإنَّ تذكرَ النعمة في حال التلبُّسِ بمنافعها، عند الاستواء على ظهرها، أوقعُ في النفس، وأدعى للشكر عليها، وأبعدُ عن الذهول عنها، ثم علَّمهم صيغة شكرٍ بألسنتهم وهي قوله: ﴿ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ (١٣) ﴾.

كما لقنهم صيغة الحمد في الفاتحة، وصيغة الدعاء في آخر البقرة، وأمرَ نوحاً في بحثنا أن يقول: «الحمد لله» عند استوائهم على ظهر السفينة، ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المؤمنون].

والثناء على الله بكلمة: «الحمد لله» أكبرُ من النعمة ذاتها.

فقد ورد عن الحسن أنه قال: «ما من نعمةٍ إلا والحمد أفضل منها».

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا قال العبد الحمد لله، قال الرب: صدق عبدي، الحمد لي».

وفي «نوادر الأُصول» من حديث أنس بن مالك بسند فيه لين أنه ﷺ قال: «لو أنَّ الدنيا كلها بحذافيرها بيد رجل من أُمتي، ثم قال: الحمد لله، لكانت الحمد لله أفضل من ذلك».

قال أبو عبيد: إنما كانت أفضل من الدنيا، لأن الدنيا فانيةٌ، والكلمة باقيةٌ.

ولذلك كانت «الحمد لله» من الباقيات الصالحات في قوله تعالى: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف]، لماذا؟

والجواب: لأن المال والبنين لن يَدخُلا معك القبر، ولن يحمياكَ من العذاب، ولن ينفعك إلا الباقيات الصالحات.

قال أهل التفسير: وطالما قال الله: ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ﴾ فمعنى ذلك أن ما قبلها لم يكن من الباقيات، بل هو زائل بزوال الدنيا، ثم وصفها الله عز وجل: ﴿ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾، ليميزها عن الباقيات السيئات التي تُخلِّدُ صاحبها في النار.

وفي الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «استكثروا

من الباقيات الصالحات؛ التكبير، والتحميد، والتهليل، والتسبيح».

وفي «سنن ابن ماجة» من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ حدثهم: أن عبداً من عباد الله دعا فقال: «يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، ولعظيم سلطانك، فَعَضَلتْ بالمَلَكَيْن - أي لم يتضح لهما فحواها - فلم يدريا كيف يكتبانها، فقالا: ربَّنا إن عبدك قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها؟ فقال عز وجل: وهو أعلم بما قال عبدُهُ: ماذا قال عبدي؟ قالوا: يا رب إنه قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فقال عز وجل: اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيَهُ بها».

وفي الصحيحين والترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

ومن حديث أنس بن مالك قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: علمني خيراً، فقال ﷺ: «قل سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر». قال: وعقدَ بيده أربعاً، ثم ذهب الأعرابي وقال: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، و الله أكبر»، ثم رجع فلما رآه النبي ﷺ تبسم وقال: «تفكَّر البائسُ»، ثم قال: يارسول الله: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، و الله أكبر»، هذا كلُّهُ لله، فما لي؟ فقال ﷺ: «إذا قلت سبحان الله، قال الله: صدقت، وإذا قلتَ لا إله إلا الله، قال الله: صدقت، وإذا قلت: الحمد لله، قال الله: صدقت، وإذا قلت: الله أكبر، قال الله: صدقت»، ثم قال ﷺ للأعرابي: «فتقول: اللهم اغفر لي، فيقول الله: قد فعلت، وتقول: اللهم ارحمني، فيقول الله: قد فعلت، وتقول: اللهم ارزقني، فيقول الله: قد فعلت»، قال: فعقد الأعرابي سبعاً في يده.

رواه البيهقي وفي المسند، وابن أبي الدنيا، وفي سنن النسائي من حديث أبي هريرة.

وروى الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم. من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «خذوا جُنَّتَكُم»، قالوا: يا رسول الله عدوٌّ حضر؟ قال ﷺ: «لا، ولكن جُنتكُم من النار، قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإنهن يأتِين يوم القيامة مجنَّباتٍ[1] ومُعقِّباتٍ، وهُنَّ الباقياتُ الصالحاتُ».

قال ابن كثير: وهكذا يؤمر بالدعاء في ابتداء كل أمر بأن يكون هذا الأمر على الخير والبركة في ابتدائه، وأن تكون عاقبته محمودة، كما قال تعالى معلماً رسوله محمداً ﷺ في [سورة الإسراء]: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ ﴾، والمعنى كما قال القرطبي: يا رب: أصلح لي وِردي وصدري في كل الأمور، من سفرٍ وأعمال، ومقادير.

ثم قال القرطبي: ولما أوصى الله نبيَّه نوحاً أن يذكر الله عند الركوب وعند الاستواء وذلك كما مرَّ معنا في سورة [المؤمنون]: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾، قام نوح بما أُمرَ به من الدعاء، واستجاب لوصيةِ ربه، وامتثل لأمره، فقال لمن معه: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

مَجراها: أي سَمُّوا الله وقت إجرائِها، ووقت إرسائِها.

---

(١) مجنَّباتٍ: مقدَّمات أمامكم، ومعقِّباتٍ من خلْفكم.

وكان نوح إذا أراد أن تجري قال: «بسم الله، فجرت».

وإذا أراد أن ترسُوَ قال: «بسم الله، فَرَسَتْ».

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٤١﴾، غفورٌ لمن آمن منهم، رحيمٌ حيث نجاهم.

والآن نستعرض معاً ما ذكره بعض المؤرخين في ذلك، بعد أن استعرضنا أقوال المفسرين.

يروي المسعودي المؤرخ يقول:

ذكر أهل التواريخ أنَّ ملكَ قومِ نوحٍ، لما وصله خبرُ إتمام السفينةِ وأنَّ نوحاً ينقُلُ الأزوادَ إليها، وقد أخبرته حاشيتُهُ بذلك، فقال: أين الماء في هذا المكان الذي يحملُ السفينة كما يدَّعي نوح؟

ثم إنه ركبَ مع حاشيته وأتباعه وسار إلى مكان السفينة وقد عزمَ على إحراقها، ولما وصل إلى مكانها نادى نوحاً، وكان في داخلها، فخرج إليه، فقال الملك لنوح: أين الماء الذي سيحمل هذا البيت؟

قال نوح: هو يأتيك من مقامِك هذا، أي الآن يأتيك الخبر عن ذلك.

قال الملك: وهذا أعجبُ، أن تقول هذا الكلامَ وأنت في أرضٍ يَبَسٍ، فأين الماءُ، ثم قال لنوح متغطرساً: إنزلْ منها أنت ومن معك، وإلا أحرقتُكُم أجمعين؟!

فأجابه نوحٌ بلهجةِ الواثقِ بالله، وبنصر الله: ما أكثَرَ اغترارك بالله تعالى، ويحكَ، عجّلْ بالإيمان، واخلعْ الأندادَ التي جعلْتَها لله عز وجلَّ تَسْلمُ وتَرشُد، وإلا فالعذابُ بين يديك، «أي قريب جداً».

قال المؤرخون: وبينما هما يتحاوران، إذ جاءت كوكبةٌ من جند الملك يقولون: إنَّ الماء نبعَ من تنور البيت بكثرةٍ كاثرةٍ.

قال الملك: وما عسى أن يكونَ الماء قد نبع من التنور؟

عندها قال نوح له: ويحك، هذه علامة السَّخَط، وكذلك أوحى إليَّ ربي، وهذا إشارة إلى قوله تعالى لنوح في [سورة المؤمنون]: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٢٧ ﴾.

ثم قال نوح: وآية ذلك أن تَتَخَلَّل الأرضُ من جميعها، فأزل فرسَكَ من مكانه فإن الماء ينبعُ من تحت قوائمه.

قال المؤرخون: فأزال الملك فرسه عن موضعه فإذا الماء ينبع من تحت قوائمه، فانتقل الملك إلى مكانٍ آخر، فكان الأمر كذلك.

قال المؤرخون: ثم جاءت الرسلُ إلى الملك، أنَّ الماء كثُرَ في بيته وأن أهله يهددون، فرجع إلى بيته ليحمل أهله إلى المعاقل، فإذا الصخور تنحطُّ، وانفتحت أبواب السماء، فساروا لا يدرون إلى أين يتوجهون، وقالوا: كان الماءُ النابعُ من الأرض مُنتِناً وحارّاً، وفي سورة القمر تُشير الآيات إلى نبع الأرض وانهمار السماء كما ذكر المؤرخون، قال تعالى مُخَوِّفاً لقريش ومُسَلِّياً للنبي ﷺ: ﴿ ۞كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ ﴾ [القمر].

قال العلماء: كما ذكر ابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لم تُمطر السماء قبل ذلك اليوم إلا من السحاب، وفُتحت أبواب السماء من غير

سحابِ ذلك اليوم.

وقوله: ﴿ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾، الهَمْرُ: الصبُّ، يُقال، هَمَرَ الماء، وهَمَرَ الدَّمع: إذا صبَّه، و الهَمْرةُ: الدفقةُ من المطر، والهَمّارُ: السحاب السيّالُ.

قال الشاعر:

أعينيَّ جُودا بالدموع الهوامر   على خير بادٍ من مَعَدٍّ وحاضر

وقال امرؤ القيس يصف غيثاً:

راح تُمْرِيه[١] الصَّبا[٢] ثم انتحى   فيه شُؤبوبُ جنوبٍ مُنهمر

قال الزمخشري: ﴿ مُّنْهَمِرٍ ﴾: أي منصَب في تتابع وكثرة لم ينقطع أربعين يوماً.

وقوله: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾، أي جعلنا الأرض كُلها عيوناً متفجرةً.

قال صاحب «زاد المسير»: جاءهم الماء من فوقهم أربعين يوماً، وفُجِّرت الأرض من تحتهم أربعين يوماً.

وقوله: ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القمر]، وفي قراءة: (فالتقى الماءان)، أي الماءُ السماويُّ، والماءُ الأرضي؛ لأنهما نوعان، كما تقول: عندي تمران، وتُريد: ضربان من التمر: بَرَنيٌّ ومَعْقِليٌّ، ومنه قول الشاعر:

لنا إبلانِ فيهما ما علمتُمُ   فعن أيهما ما شئتُمُ فتنكبوا

قوله: ﴿ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾، أي حالٍ قد قدَّرها الله سبحانه وتعالى

---

(١) تمُريه: تستدره.

(٢) الصَّبا: ريح تهب عندما يستوي الليل والنهار من جهة المشرق، ويُقابلها الدَّبُور، وهي ريحٌ تهب من جهة المغرب.

في اللوح المحفوظ أن يكون هلاكُهم بالطوفان، ولذلك قال محمد بن كعب: «كانت الأقواتُ قبل الأجساد، وكان القدر قبل البلاء»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾.

وقال قتادة: قضى الله عليهم في أمِّ الكتاب إذا كفروا أن يُغْرَقوا.

قال العلماء: امتثل نوح لأمر ربه وركب السفينة ومن معه مبتدئين بسم الله عز وجل.

لهذا قال المفسرون: تُستحبُ التسمية في ابتداءِ كل أمر، وعند ركوب السفينة و الدابة، لما روى الطبراني عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «أمانٌ أُمتي من الغرق إذا ركبوا في الفلك: بسم الله الملكِ». ثم يقرأ الآية من سورة [الزمر]: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

وروى مروان بن سالم عن طلحة بن عبيد الله بن كريز عن الحسين بن علي عن النبي ﷺ قال: «أمانٌ لأُمتي من الغرق إذا ركبوا في الفلك: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾» [الزمر].

قال القرطبي وغيره: وفي هذه الآية: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود]، دليلٌ على أنَّ البسملة تُذكر عند ابتداء كل فعل، كالأكل والشرب والنحر، وركوب البحر والطهارة والجماع وغير ذلك.

قال عطاء: هذه الآية أمرٌ بذكر الله على الشراب والذبح وكل مطعومٍ.

قال تعالى في سورة [الأنعام]: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ١١٨﴾.

وقال في [هود]: ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ٤١﴾.

وقال ﷺ: «أَغلقْ بابك واذكر اسمَ الله، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله وخَمِّرْ إناءك، واذكر اسمَ الله، وأَوْكِ سقاءَك، واذكر اسم الله عليه».

وقال عليه الصلاة والسلام: «لو أنَّ أحدكم إذا أرادَ أن يأتيَ أهله قال: بسم الله، اللهم جَنِّبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقَدَّر بينهما ولدٌ في ذلك لم يَضُرَّهُ شيطانٌ أبداً».

وقال ﷺ لعمر بن أبي سلمة: «ياغلام سمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكل مما يليك».

وفي الحديث: «إن الشيطان ليستحلُّ الطعام ألا يُذكر اسمُ الله عليه».

ولما شكا إليه عثمان بن أبي العاص وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له النبي ﷺ: «ضع يدك على الذي تألَّمَ من جسدك وقل: بسم الله ثلاثاً، وقل سبعَ مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجدُ وأُحاذر» صحيح.

وروى ابن ماجة والترمذي عنه ﷺ قال: «ستر ما بين الجن وعورات بني آدم إذا دخل الكنيفَ أن يقول: بسم الله».

وعند الدارقطني من حديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ «إذا مَسَّ طَهوره سمّى الله تعالى ثم يفرغ الماء على يديه».

والطَّهور: ما يُتطهَّرُ به، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ٤٨﴾ [الفرقان].

قال الرازي: إنَّ في الذكر تعليقَ القلب بالله، وربطَ الهمةِ بفضله تبارك وتعالى.

وقال القرطبي: هذا تعليمٌ - أي البسملة - في ابتداء كل أمرٍ، تعليمٌ من الله لعباده ليذكروا اسمه عند افتتاح كل عمل حتى يكون العمل على بركة الله تعالى.

قال أهل اللغة:

وكلمة بَسْملة: أي بسم الله، تقول: بَسْمَلَ الرجل: إذا قال: بسم الله.

ومثله: حَوْقَلَ الرجل إذا قال: لا حولَ ولا قوة إلا بالله.

وهلل الرجل: إذا قال: لا إله إلا الله.

وسَبْحلَ الرجل: إذا قال: سبحان الله.

وحَمْدَلَ الرجل: إذا قال: الحمد لله.

وحَيْعَلَ الرجل: إذا قال: حي على الصلاة.

وحَيْفلَ الرجل: إذا قال: حي على الفلاح.

وجعفلَ الرجل: إذا قال لآخر: جُعِلْتُ فداك.

وطبقلَ الرجل: إذا قال لآخر: أطال الله بقاءك.

ودمعزَ الرجل: إذا قال لآخر: أدام الله عزك.

ثم تُذيل الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾: أي للذنوب والخطايا؛ لأن العبدَ لاينفكُّ عن ذنبٍ.

قال الرازي: ختم الآية بهذا القول: إذ لعل بعضهم أصابهُ العجبُ عند الركوب في السفينة، فأُفهم نوحٌ أنَّ الإنسان محتاجٌ إلى عون الله وفضله في كل

الظروف والأحوال.

ثم ماذا يملك الإنسان من أمر الفلك في اللجةِ الطاغية بَلْهَ الطوفانِ إن لم تكن معه قوة الله ورحمته؟!!

قال المفسرون: وجرت السفينة على وجه الماء الذي طبَّقَ الأرض حتى طغى على رؤوس الجبال، قال تعالى في سورة [هود]: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾، وأصل الموج: الاضطرابُ.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ [الكهف].

قال صاحب «المنار»: ومن عرف ما يحدث في البحار العظيمة من الأمواج عندما تُهيّجُها الرياح الشديدة، رأى أن هذا التشبيهَ غير بعيد، ثم قال: ووصفَ لي بعضُهم سفره في المحيط الهندي في زمن رياح الصيف التي يُسمونها الموسمية قال: كنت أرى السفينة تهبط بنا في غورٍ عميقٍ، كوادٍ سحيق ونرى البحر من جانبيه كجبلين عظيمين يكادُ أن يُطبقا عليها، وإذا بها قد اندفعت إلى أعلى الموج كأنها فوق جبلٍ شاهقٍ تريد أن تنقضَّ منه، والملاحون يربطون أنفسهم بالحبال على ظهرها وجوانبها لئلا يجرفهم ما يفيض من الموج عليها.

قال القرطبي عند تفسيره لهذه الآية:﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾: أي موج كالجبال من كثرة الماء مع شدة الريح، الريح العاصف.

وقال البروسوي: أي أحاطت الأمواج بالسفينة من كل جانب فهي في داخل الموج، أمواجٌ جمعت بين طُغيان الماء والريح العاصف.

والذي ينظر في الآيات القرآنية التي تصف البحر يدرك أنَّ هذا الكتاب وحيٌ من الله عز وجل.

ويذكر الشيخ رشيد رضا في كتابه «تفسير المنار»: أنَّ بارجاً – أي رُباناً – من رَبابين البواخر الكبرى التي تمخر عُبابَ البحار بين إنجلترا والهند رأى نسخةً من القرآن الكريم مترجمةً، ووقعت عينه على الآيات التالية من سورة [يونس]: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

انتبه إلى قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾، أي أتاهم موج البحر من جميع الجوانب والنواحي بتأثير الريح، التي هي أنواعٌ: منها ما يهبُ من ناحية واحدة، كالرياح الأربع.

ومنها النكباءُ: وهي المنحرفة التي تقع بين ريحين مختلفتين.

ومنها المتناوِحَةُ: وهي التي تهب من جميع النواحي.

ومنها الإعصار: وهي التي تدور فتكون عموديةً فيرتفع بها ما يدور عليه من التراب والحصى من الأرض، والماء من سطح البحر بما عليه من سمك وغيره، ثم يلقى في مكانٍ آخر.

قرأ الربانُ ترجمة هذه الآية فأدهشته بلاغةُ الوصف لطغيان البحر، وما تفعله الرياح الموسمية العاتية بالبواخر والبوارج العظيمة في المحيط الهندي في فصل الصيف، فبدأ يتأملُ سائر الآيات القرآنية التي تتكلم عن البحر، وتتكلم عن السفن الكبرى التي وُجدت حديثاً ولم يكن لها وجودٌ في عصر النبي ﷺ.

فوقف عند قوله تعالى في سورة [الرحمن]: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

ووقف عند قوله تعالى في سورة [الشورى] ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ ﴾.

الجوارِ: جمع جارية، والأعلام: جمع علم، والعلم: الجبل.

وسُميت السفينة جاريةً؛ لأنها تجري في البحر، وتُسمى الشابَّةُ من النساء جاريةً؛ لأنه يجري في وجهها ماء الشباب.

والأعلام: الجبال، وكل شيء مرتفع عند العرب يسمى علماً، ومنه قول الخنساء:

وإنَّ صخراً لَتأتَمُّ الهُداةُ به　　　كأنه عَلَمٌ في رأسه نار

ووقف هذا الربان الإنجليزي عند قوله تعالى كذلك: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الرحمن]، واستعرض آيات أُخرى تتكلم عن اللؤلؤ والمرجان وعن اللحم الطري المستخرج من البحار حلوها ومالحها.

قال رشيد رضا رحمه الله:

أطال هذا الإنجليزي التفكرَ في الآيات التي أمامه، فتعمَّد أن يتعرف على بعض المسلمين في الهند، فلما التقى ببعضهم سألهم: أتعلمون أن نبيكم سافر في البحار؟

قالوا: لا، إنه لم يُرْوَ عنه ﷺ أنه سافر في البحر قطُّ.

فقال عندها: إنَّ ما في هذا الكتاب هو وحيٌ من الله تعالى لهذا النبي العظيم، ومن أجمل ما فيه آياتُ التوحيد والتشريع والتهذيب، وهو أكملُ مما في التوراة والإنجيل، وينسجمُ مع العقل، ثم أسلم على بصيرةٍ وبقي زمناً طويلاً يتعبد بما يفهمه من الترجمة القرآنية، حتى أُتيح له أن يتركَ عملهُ في البحار، فأقام في مصر، وتعلَّمَ العربية، وعاشر فُضلاءَ المصريين وعلماءهم وسمى نفسه: «مستر عبد الله براون».

ثم يقول صاحب «المنار»: وأنا قد أدركتُهُ وعرفتُهُ.

قال العلماء: جعل الله لنا في قصة السفينة ونجاة رُكابها تذكرةً وعبرةً وعظةً، ومنَّ الله علينا بهذا الإنجاء، لأننا كنا محْمولين نُطفاً في أصلابهم، ولذلك قال تعالى في سورة [الحاقة]: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

قال الرازي: إن وجهَ الذكرى في قصة السفينة، أن نجاة نوح ومن معه وغرق غيرهم، يدل على قدرة الله، ونفاذ مشيئته، ونهاية حكمته، وشدةِ قهره، ولذلك قال: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾، أي عبرةً ودلالةً على قدرته سبحانه، وليكون ذلك باعثاً على الشكر، وعظةً لهم من أسواءِ الكفر، وليُخبر بها من عَلِمَها قوماً لم يعلموها فتعِيَها أسماعُهم.

والوعي: العلمُ بالمسموعات، أي: لتعلمَ خبرها أُذنٌ موصوفةٌ بالوعي، من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظهُ، بتذكُّرِهِ، و التفكر فيه، وألا تُضيّعَهُ بترك العمل به.

والوعيُ: أن تحفظ العلمَ، ولذلك جاء في بعض الآثار: «لا خيرَ في العيش إلا لعالمٍ ناطقٍ، ومستمعٍ واعٍ».

إذن: وعَى: حفظ الشيء أو العلمَ في نفسه.

أما: أوعى: فهو حفظ الشيء في الغير، تقول: أوعيتُ المتاعَ في الوعاءِ.

ولهذا قال النبي ﷺ لأسماء بنت الصديق: «لا توعي فيوعيَ الله عليك، ارضخي ما استطعت».

ومنه قول الشاعر:

الخيرُ يبقى وإن طال الزمانُ به   والشرُ أخبثُ ما أوعيتَ من زاد

هنا سؤال: قد يقول قائل: لماذا أفردَ كلمة الأُذن؟ ولم يقل آذان؟

والجواب: لِقِلَّةِ الواعين المتذكّرين، وللدلالة على أنَّ الأُذن الواحدة إذا وعت عن الله، وعقلت مُرادَ الله فقامت به، فهي السواد الأعظم عند الله، وهي المحبوبة، وغيرها لا يعبأُ الله به ولو ملأ ما بين السماء والأرض.

لذلك نقل الآلوسي قول قتادة في قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

قال: الواعية: هي التي عقلت عن الله، وانتفعتْ بما سمعتْ من كتاب الله تعالى.

ولذلك جاء في بعض الآثار: «أفلحَ من جعلَ الله له قلباً واعياً».

وقد روى الطبري عن مكحول، وهو حديث مرسلٌ: أن النبي ﷺ قال لعلي عند نزول هذه الآية: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾، «أنت مِمَّنْ وَعَى».

قال مكحول: فكان عليٌ يقول: ما سمعت من رسول الله شيئاً قط إلا حفظتُهُ.

وورد عن أبي هريرة أنه قيل له: إنك تُكثر رواية الحديث، وغيرك لا يروي مثلكَ، فقلت: إن المهاجرين والأنصار كان شُغلهم في أموالهم، وكنت

امرأً ألزمُ رسول الله ﷺ وأقنعُ بقُوْتي، فقال عليه الصلاة والسلام يوماً من الأيام: «إنه لن يبسُطَ أحدٌ ثوبه حتى أقضي مقالتي، ثم يجمعُ إليه ثوبه إلا وعى ما أقول»، فبسطتُ نَمِرَةً عليَّ حتى إذا قضى مقالته جمعتُها إلى صدري، فما نسيتُ من مقالته عليه السلام شيئاً.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾، تعريضٌ بالمشركين الذين لم يَتَّعِظُوا بخبر الطوفان و السفينة التي نجا بها المؤمنون، وتلقوا قصة الطوفان تلقِّيَ القصص الفكاهية، كما قال ابن عاشور.

ما جرى لنوح مع ولده «يام»:

نوح وولده «يام» ويسميه أهل الكتاب «كنعان».

ذكر الله ذلك في سورة [هود]: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

استعمل لغة التصغير بحيثُ جعله كالولد الصغير في كونه محلَّ الرحمة والشفقة.

قال صاحب «المنار»: كان نداء نوح لولده عند ركوب السفينة وقبل جريانها.

وقوله: ﴿ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ ﴾، أي كان الولد في مكان عُزلة وانفراد عن أهله وعن الكفار، ولما عزلَ نفسه عن المؤمنين وعن الكافرين احتاج إلى هذا النداء.

وقوله: ﴿ ٱرْكَب مَّعَنَا ﴾، أي مع أهلك ووالدك ومع الناجين، ولا تكن ممن قُضيَ عليهم بالهلاك، وفي قول نوح لولده: ﴿ ٱرْكَب مَّعَنَا ﴾، دعوة متكررةٌ للإيمان عن طريق العرض والتحذير؟

ماذا كان جواب الولد؟

كان الجوابُ ما ذكره الله عنه في سورة [هود]: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ﴾، أي سألجأُ إلى جبلٍ عالٍ يحفظُني من الماء أن يصل إليَّ فلا أغرقُ.

قال ابن عاشور: وكان قوله هذا قبل أن يبلغَ الماء أعالي الجبال، وقوله هذا ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ﴾، ظناً منه أن هذا الماء كالسيول المعتادة التي يُتقى منها بالصعود إلى الرُّبى.

ولذلك أجابه والده: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ﴾.

أي: لا شيء في هذا اليوم العصيب يعصم أحداً من أمر الله الذي قضاهُ، فليست القضية قضية ماء يرتفع بكثرة المطر كالمعتاد، فيتقي الإنسان الحازم ضُرَّهُ بالأخذ بالأسباب، وإنما هو أمر انتقامٍ عامٍ من الأشرار الذين أشركوا بالله، وظلموا عباد الله.

فلا عاصمَ من أمر الله إلا الله تعالى، والتقدير: لا فرار من الله إلا إلى الله، وهذا يُشبه قول نبينا ﷺ في دعائه: «اللهم أعوذُ بكَ منكَ»، قال الرازي: وهذا في غاية الحُسن.

قال صاحب «المنار»: كان الماء يرتفع في أثناء المحاورة، حتى انتهت المحاورة بين الوالد وولده بموجةٍ أخذت الولد مع فرسه، ولم يعلم نوح غرقه إلا بعد ذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾، أي غرق وغرقَ معه من توعَّدهُ بالغرق، وهذا إيجاز بديع.

نهاية الطوفان:

ثم يصدر النداء من عالم الغيب يُخاطب الأرض والسماء بالأمر التكويني،

الذي يسجد له العقلاءُ وغير العقلاءِ: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ ﴾ [هود ٤٤]، أي ابلعي ماءك كله الذي عليك أو الذي تفجر من باطنك، - إن صح أنَّ ماء السماء صار بحاراً - كما قال صاحب «المنار».

وهذا تعبيرٌ دقيق يدلنا على دخول الماء في باطنها بسرعةٍ كسرعةِ ازدرادِ البالع لما يبلعُهُ، وهذا يدل كما قال المحققون: على سرعة جفاف الأرض، كان بعملٍ أرضي عاجل كزلازل وانشقاقاتٍ في الأرض، ولم يكن جفاف الماء بأمرٍ تدريجي كحرارة الشمس أو الرياح.

من هنا يروي المفسرون: أن أعرابياً لما سمعَ هذا القول: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ ﴾، قال: هذا كلامُ القادرين.

ثم جاء النداء للسماء: ﴿ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾، أي كُفي عن الإمطار، فامتثل الأمر في الحال، وما هو إلا أن قيل: «كن فكان».

وقوله تعالى: ﴿ وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ ﴾، أي غار في الأرض ونضبَ بابتلاعها له نُضوباً، والمراد به، نضوب ماء الطوفان، أما ما عداه من الأنهار والوديان والبحار والعيون.

ومادةُ غاضَ: تُستعمل لازمةً، أي لا تحتاج إلى مفعول به مثل: غاض الماء، وتُستعمل متعديةً، مثل: أغاضَ الله ماء البئر، أو أغاضَ ماءه، أو: غاضَهُ، وغَيَّضَهُ.

ثم قال: ﴿ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ﴾ [هود].

وقوله: ﴿ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ﴾ أي الوعد من الله لنوح بنجاته ومن معه وإهلاك الظالمين.

والاستواء: الاستقرار.

والجودي: جبل بين العراق وأرمينيا، يُقال له اليوم «أراراط».

وهناك حكمة في إرسائها على الجبل، ذلك أن جانب الجبل أمكن لاستقرار السفينة عند نزول الركاب منها، لأنه عند نزول الركاب والأحمال تَخِفُّ السفينة، وقد تميل، فإذا مالت استندت إلى جانب الجبل، كما قال ابن عاشور.

وقوله: ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾، وهذا مِنْ كلام نوح ومَنْ معه؛ لأنه جارٍ مجرى الدعاء، بمعنى: هلاكاً وسحقاً لهم، وهو مفعولٌ مطلق.

هنا نشير إلى فائدةٍ لغوية في كلمة ﴿ بُعْدًا ﴾:

بُعْداً: مصدرُ بَعُدَ: الذي هو البعدُ الحقيقي ضد القُرب، يُقالُ: بَعُدَ، يَبْعُدُ، بُعْداً، وهي عكس القرب، والآخر- بَعِدَ: يَبْعِدُ، بَعَداً، وهذا يكون بمعنى الهلاك، فإذا كان من فُقِدَ مكروهاً كما في الآية فيكون معنى «بُعْداً» كناية عن التحقير.

هنا لا بد أن نقف عند هذه الآية وقفةً لنرى ماذا قال فيها أهل البلاغة:

قال «صاحب المنار»: قرر علماء البلاغة أنَّ هذه الآية: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

أحاطت بالبلاغة من جميع جوانبها اللفظية والمعنوية التي وُضِعت لشرحها الفنون الثلاثة «المعاني - البيان - البديع».

فألفاظُها: جاريةٌ على قوانين اللغة، سليمةٌ عن التنافر، بعيدةٌ عن البشاعة، كالماء في السلاسة، وكالعسل في الحلاوة، وكالنسيم في الرقة.

ولله در هذا القرآن ماذا جمعت آياتُهُ:

وعلى تَفنُّنِ واصفيه بحُسْنِهِ يفنى الزمانُ وفيه ما لم يُوصَفِ

وقد روى المؤرخون:

أنَّ كفار قريش قصدوا أن يعارضوا القرآن، فعكفوا على لباب البُرِّ، ولحوم الضأن، وسُلافِ الخمر أربعين يوماً لتَصْفو أذهانهم، فلما أخذوا في معارضته وسمعوا هذه الآية، وقفوا وقال بعضهم لبعض: هذا الكلام لا يشبه كلامَ المخلوقين، فتركوا معارضة القرآن وتفرقوا.

ويُروى عن ابن المقفع، وكان كما قال المؤرخون: أفصح أهلِ زمانِهِ، أراد أن يُعارض القرآن، فنظمَ كلاماً وجعلهُ مفصَّلاً، وسماهُ سواراً، فاجتاز يوماً بصبي يقرؤها في مكتب بصوتٍ جميلٍ مؤثرٍ، فرجع ومحا ما عملَ وقال: أشهد أن هذا لا يُعارضُ أبداً، وما هو من كلام البشر.

قال «صاحب المنار»: والتعبير عن هذه النهاية بالدعاء على الظالمين: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾، وهذا الدعاء يُمثلُ عدةَ معانٍ لعل شرَّها الطرد من رحمة الله تعالى، فهذا الدعاء يُمثلُ لك هؤلاء الظالمين من قوم نوح بصورة تمثال من الخزي واللعن والرجس لا ترى مثلهُ في أمثالهم من أقوام الأنبياء مع ما تراهُ من علو أُسلوبها وإحداثها الرعبَ في القلوب كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة].

والحكمة: المبالغات في عقاب الظالمين والمجرمين الغابرين، إنما هي إنذارٌ

لأمثالهم من الحاضرين، وقد ذكر القرآن في سورة [القمر] عقوبة كل قوم، وكرر معها الآيـة: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾، ومع ذلك الظَّلَمَةُ غافلون في كل زمان.

واسمع معي إلى قول المعري وقد ضجَّ من ظُلم الظلمَةِ فقال:

والأرضُ للطوفانِ مشتاقةٌ لعلها من درنٍ تغتسلُ

ويقول «صاحب المنار»: رحم الله أبا العلاء فكيف لو رأى زماننا، وهذا يُشبه قول عائشة رضي الله عنها حين أنشدت قول لبيد:

ذهبَ الذين يُعاشُ في أكنافهم وبقيتُ في خلفٍ كجلدِ الأجربِ

قلتُ: رحم الله لبيداً فكيف لو رأى زماننا هذا.

ثم يأمر الله عز وجل نبيه نوحاً أن ينزل من السفينة مع من معه من المؤمنين، ليباشر مهمته الإيمانية في أرض فيها مقومات الحياة، قال تعالى: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [هود].

قال أهل العلم: لما عاتبَ الله نوحاً حين سأله نجاة ولده، ثم اعتذر نوح عن ذلك بقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾، أتمَّ الله المحاورة بخطاب يُسكِنُ جأشَ نوح ويُطمئنه: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾.

والهبوط: النزول من السفينة، أو من جبل الجودي الذي استوت عليه.

والسلام: هنا التحية، أو لفظة يخاطب بها عند الوداع، كما في قول لبيد:

فقوما فقولا بالذي قد عَلِمْتُما ... ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شَعَرْ

إلى الحول ثم اسمُ السلام عليكما ... ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذر

وأصل السلام: السلامةُ، وكان يُستعمل عند اللقاء إيذاناً وإعلاماً بأن المُلاقي لا يضمرُ سوءاً للآخر، ثم شاع هذا اللفظ واستُعمل قولاً عند اللقاء للإكرام، ولذلك نهى النبي ﷺ الذين قالوا: «السلام على الله»، فقوله تعالى: ﴿ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ ﴾، نظير قوله تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحجر]، فالسلامُ هنا التحية، لا السلامةُ لأنَّ كلمة ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ دالة على السلامةِ، وكانت توكيداً، والتوكيد هنا خلاف الأصل، وقوله: ﴿ مِّنَّا ﴾ أي بسلامٍ ناشئٍ منا، من عظمتنا ورحمتنا الربانية، فهو تحيةٌ وسلامة من فتن المشركين الظالمين، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يس].

وهذا التأكيد: ﴿ مِّنَّا ﴾ أي من عندنا يُراد به الزيادةُ في الإكرام، فهو أشدُّ في المبالغة من الذي لا تُذكر فيه: (مِّن).

وهنا: نريد أن نقف قليلاً عند كلمة: ﴿ مِّنَّا ﴾ : هذا التعبير يدلُّنا على أنَّ الأنبياء ومَنْ على طريقهم يفرحون بالنعمة مِنْ حيث أنها مِنَ الحق سبحانه.

أما العوامُ فيفرحون بالنعمة مِنْ حيث كونها نعمةً فقط.

وليتوضح لك هذا المعنى - يا عبد الله - أضرب لك مثالاً حِسّياً:

لو أنَّ ملكاً خرج في سفر، وأهدى إلى أحد أتباعه حصاناً، فيمكن لهذا الرجل أن يفرح بالحصان من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: لكونِ هذا الحصان مالاً.

الوجه الثاني: لكونه يدل على أن الملك يُحبه ويُكرمه، ويهتم به.

الوجه الثالث: أنَّ الرجل سيركب هذا الحصان في خدمة الملك، ويتحمل المشاقَّ لينال مرتبة القربِ أكثر.

وهكذا شأن الأنبياء والصديقين، ولذلك قال العلماء: «الشكر رؤية المنعمِ لا رؤية النعمةِ»، فشكر النعمةِ أن تعملَ بها وفْقَ رغبة المنعمِ، ولهذا قالوا:

أفادتكم النعماءُ مني ثلاثةً   يدي ولساني والضميرَ المُحَجَّبا

فاللسانُ: يعترف بالنعمة.

وبالقلب: يكونُ القصدُ في فعل الخير.

والجوارح: تنقادُ وتُطيع.

وقوله تعالى: ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾ [هود].

والبركاتُ: الخيراتُ الناميةُ، والنعمُ الثابتة، والبركةُ: مشتقَّةٌ من قولهم: بركَ البعير: إذا ثبتَ وأقامَ، ومنه يُقال للمكان الذي يُحبس فيه الماء ويثبت «البِرْكَةُ».

والمقصود بالبركة هنا: ثبوتُ الخير الإلهي في الشيء كثبوتِ الماء في البِركةِ.

وقد روى الحسن عن ابن عباس في معنى ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ قال: أي تكاثَر خيره وعطاؤه، كما تعني التعظيمَ والتمجيدَ له سبحانه.

قال ابن عاشور: حصل بهذه الآية تكريمُهم، وتأمينُهم، والإنعامُ عليهم.

قال الرازي: كان نوحٌ خائفاً بعد غرق الأرض أن لا يبقى عليها شيءٌ

يُنتفعُ به فطمأَنَهُ ربه سبحانه، فزال خوفه.

ثم بيَّن الله عز وجل لنوح، أن هذا التكريم والتأمين والإنعام سيكون عليك وعلى من معك من أهلك والمؤمنين، وذلك قوله تعالى: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [هود].

فهذا الكلام بشارةٌ لنوح ومن معه بأنه سيجعل منهم أمماً وذرياتٍ يكونون محلَّ كرامته وبركاته سبحانه، ثم قال: ﴿ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾.

أي وسيكون منهم - أي ممن معك - أممٌ على خلاف الأولين الصالحين.

قال الرازي: بيَّن الله تعالى أنَّ الأُممَ الناشئة ممن مع نوح قسمان:

الأول: أهل الإيمان، وهؤلاء تنالُهم السلامة والبركة.

والثاني: أُممٌ تكونُ من نسلٍ ممن مع نوح تطرأُ عليهم الغفلةُ ويُغويهم الشيطان فيسلكون سُبلَ الشرك والظلم والبغي.

ولذلك قال تعالى: ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾، فهي جملة مستأنفةٌ، أي أممٌ سنمتعهم بالأرزاق، والسَّعَةِ في العيش، فسينالون نصيباً من متاع الدنيا ثم يمسُهم العذاب الشديد في الآخرة لكفرهم وشركهم.

قال أهل التفسير: دخل في هذه السلامة والبركة كلُّ مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، ودخل في المتاعِ ثم العذاب كلُّ كافر وكافرةٍ إلى يوم القيامة - كما قال محمد بن كعب.

قال أهل التربية: دلَّ هذا الخطابُ: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾.

دلَّ على هوانِ الدنيا على الله عز وجل، ولكن: ما هو الدليل على هذا؟

قال العلماء: إن الله تعالى لما ذكر فريق المؤمنين، لم يذكر أنه يُعطيهم من الدنيا أو لا يُعطيهم، ولما ذكر الكافرين ذكر أنه سيعطيهم من الدنيا وهذا دليلٌ على هوان الدنيا على الله عز وجل، ولذلك أخرج الترمذي بسند صحيح عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً جرعة ماء».

وقال الإمام يحيى بن معاذ الرازي: هذا قدْرُ الدنيا عند الله وهو مالكُها، فما ينبغي أن يكون قدرُها عندكَ وهي ليست لك.

وقد أدرك سحرة فرعون هذه الحقيقة عندما آمنوا، فقالوا: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢﴾ [طه].

وقد ضرب النبي ﷺ أمثلة كثيرة، من ذلك ما ورد في زيادات ولد الإمام أحمد عن أُبي بن كعب أن النبي ﷺ قال: «إنَّ مطعمَ ابن آدم جُعِلَ مثلاً للدنيا، فإنه وإن قَزَّحَهُ - بالبهارات -، ومَلَّحَهُ، فانظر إلى أي شيء يكون».

وثبتَ في «معجم الطبراني» من حديث سلمان الفارسي، أنَّ قوماً جاؤوا إلى النبي ﷺ قال لهم: «ألكم طعامٌ؟»، قالوا: نعم، قال ﷺ: «ألكم شرابٌ؟»، قالوا: نعم، قال ﷺ: «أتبرِّدونه؟»، قالوا: نعم، قال ﷺ: «أَتُصفّونه؟»، قالوا: نعم، فقال ﷺ: «إن الله جعل طعام ابن آدم وشرابه مثلاً للدنيا، يقوم أحدكم خلف حائطه ليقضي حاجته فيضع يده على أنفه».

ولما جاء رجل إلى الحسن البصري وقال له: يا شيخ: إن أكلتُ كثيراً أُتْخمت، وإن أكلتُ قليلاً جعت؟!!

فقال الحسن: أيها الرجل: هذه الدار لا تصلح لك فتش عن دارٍ غيرها.

ولما عاتب الله المتخلفين عن الجهاد ماذا قال؟ قال: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة]، لهذا كان الحسن البصري يُكثر من ترداد هذا البيت:

أحلامُ نومٍ، أو كظلٍّ زائلٍ إنَّ اللبيبَ بمثلها لا يُخدعُ

وصدق من قال:

إن لله عــبــاداً فُـطَـنـا طَلَّقُوا الدنيـا وعافوا الفِتنا
نظـروا فيهـا فلـما علمـوا أنهـا ليسـت لحـيٍّ وطنـا
جعلوهـا لُجّـةً واتخـذوا صالـحَ الأعمال فيهـا كفنا

من هنا فهِمَ مؤمنُ آل فرعون هذه الحقيقة، فقال لقومه حين دعاهم للإيمان: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر].

ينبغي للمؤمن أن تكون له غاية يريد أن يحققها، ويُشترط في الغاية التي تُخدم ويُسعى لها، ألا يكون بعدها غاية أُخرى، فإن كان بعدها غاية أُخرى، فليست بغاية بل هي مرحلةٌ موصلة للغاية، - الطالب إعدادي، ثانوي -، فالشيء ما دام بعده شيء فليس بغاية، بل الغاية هي التي ليس لها بَعْدُ.

فهذا الرجل المؤمن فهم الغاية فقال لقومه: «الدنيا متاع وليست غاية، إنما الغاية الحقيقية هي الآخرة»، كما قال المفسرون، وما أجمل قولَ «عبد الله بن المعتز» وهو يُشير إلى مرحلية الدنيا حيث سيأتيكَ الموت الذي تتوقعه وتنتظره فقال: «الموت سهمٌ أُرسل عليك، وهو في الطريق إليك، وعمرك بقدرِ سفره إليك»، فالعاقل ينظر إلى الغاية، ولا ينظر إلى ما تحت قدميه فقط.

لذلك حرصَ النبي ﷺ أن يُرغِّبَكَ في الغاية التي ليس بعدها بَعْدُ حتى لا تشغلك المرحلة الدنيويةُ عن الغاية الكبرى وهي دار القرار، فقال ﷺ كما في صحيح مسلم من حديث «المستورد بن شداد» أنه ﷺ قال: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إِصْبَعه في اليَمِّ، فلينظرْ بمَ يرجع».

وقد ذكر الآلوسي عن أبي الشيخ أن الحسن البصري عندما قرأ هذه الآية: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾ [هود]، قال: ما زال الله سبحانه يحفظنا ويذكرنا من حيث لا نذكر أنفسنا، كلما خُلقت أمةٌ خُلقنا في أصلاب من ينجو بلطفه حتى جعلنا في خير أمة أُخرجت للناس.

أين كان الهبوط؟

كان الهبوط من السفينة، ومن الجبل المعروف بجبل الجودي، وقد أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ [هود].

هبط نوح ومن معه في مكان يسمى «الثمانون» على نهر دجلة قريب من الموصل، وكان ذلك في عاشوراء، فصامه نوح شكراً لله تعالى.

قال صاحب «معجم البلدان» لما تكلم عن كلمة «ثمانون» قال: هي بُليدة عند جبل الجودي قرب جزيرة ابن عمر التغلبي قرب الموصل، كان أول من نزل ذلك المكان نوح عليه السلام لما خرج من السفينة ومعه ثمانون إنساناً، فبنوا لهم مساكن في هذا الموقع فأقاموا فيه فسُمي الموقع بهم «ثمانون».

ثم قال صاحب «معجم البلدان»: ومن هذه البلدة كان عمر بن ثابت الضريري الثمانيني صاحب التصانيف الكثيرة، أخذ علمه عن ابن جني في اللغة ومات سنة ٤٨١ هـ.

وقد روى ابن كثير أثراً عن «علباء بن أحمر» عن عكرمة، عن ابن عباس، - وسكت ابن كثير عن الأثر - قال: بعث نوح الغراب ليرتاد له الأرض، فرأى الغرابُ جيفة فوقع عليها.

وذكر أبو الليث في «تفسيره»، كما ذكر صاحب كتاب «حياة الحيوان» قال: انشغل الغراب بجيفة فلم يرجع بسرعة إلى نوح، ولذلك يقال في أمثال العرب للرجل البطيء: «أَبطأُ من غراب نوح»، فدعا نوح على الغراب بالخوف، فهو حذر دائماً.

والعرب تتشاءم من اسم الغراب، لأنه يُؤْذن اسمه بالغُربة والفُرقة، واسخرجوا من هذا التشاؤم من الغراب عبارة: «غُرابُ البَين»؛ لأنه بانَ عن نوح وفارقه.

قال «صاحب المنار»: ثم تأتي نهاية قصة نوح بعد قوله تعالى: ﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ﴾، وذلك في الآية التي بعدها: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة هود].

وقوله: ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى قصة نوح المفصلة هذا التفصيل البديع، فهي من أنباء الغيب الماضية لا يعلمها أحد قبل نزول القرآن إلا علماً بسيطاً، وهو أنه كان هناك نبي، وكان في زمنه طوفان.

وهذه الآية الخاتمة لقصة نوح، اشتملت على **ثلاثة أمور**:

الامتنان، والصبر، والتسلية.

* الامتنان ففي قوله تعالى: ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ ﴾.

* والموعظة - الصبر - وهي في قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ ۖ ﴾.

* التسلية ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩﴾.

ملاحظة:

نريد أن نلفتَ نظركم إلى لطيفة في الآية وهي: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾ [هود].

إننا نلاحظ أنَّ حرف «الميم» تكرر في هذه الآية «١٦ مرة» مع غايةِ الخفةِ على اللسان، ولم نشعر بثقل ذلك، ثم انظر إلى تكرار حرف «الراء» في بيت الشعر التالي، ثم لاحظ ثقله على اللسان:

وقبر حربٍ بمكانٍ قفرٍ ... وليس قُربَ قبرِ حربٍ قبرُ

قال الآلوسي بعدها: ولله عز وجَلَّ شأنَ التنزيل والقرآن ما أكثر عجائبهُ ولطائفهُ.

هل كان الطوفان عامَّاً؟

قال ابن كثير: وقد أجمعَ أهل الأديان، الناقلون عن رُسل الرحمن، مع ما تواتر عند الناس في سائر الأزمان، على وقوع الطوفان، وأنه عمَّ جميعَ البلاد، ولم يبقَ أحدٌ من كفرةِ العباد استجابةً لدعوة نبيّه المؤيد المعصوم، وتنفيذاً لما سبق في القدر المحتوم.

وقد ذكر صاحب «المنار» خلاصة فتوى للشيخ محمد عبده - وكان مفتياً للديار المصرية - وكانت هذه الفتوى جواباً لسؤال كان مرسلاً من الشيخ عبد الله القدومي، خادم العلم الشريف بمدينة نابلس - فلسطين - إلى الشيخ محمد عبده، والسؤال كان برسالة مؤرخة في ٤ شوال ١٣١٧ هـ، يستفهم فيه عن هذا الموضوع، فكان جواب الشيخ محمد عبده ما يلي:

إن أهل الكتاب وعلماء الأُمة الإسلامية قالوا: أن الطوفان كان عاماً لكل الأرض، ووافقهم على ذلك كثيرون من علماء طبقات الأرض.

وقال آخرون: إن الطوفان كان في البقعة التي كان فيها قوم نوح، ولم يكن في الأرض غيرهم، وبقيت ذرية نوح بعد ذلك، والله أعلم.

قصة الطوفان عند الأمم:

وحتى ندركَ دقة التفصيل والصدق في قرآننا الكريم سنذكر نبذةً مختصرةً عن قصة الطوفان عند الهنود الوثنيين، وكذلك ما ورد في التوراة.

الطوفان في التوارة: قالوا: ثم انفجرت في يوم كذا طاقات السماء، وانفجرت ينابيع الأرض، ثم تكاثرت المياه وتعاظمت حتى غطت الجبال كلها، ودخل في السفينة نوح وأهله وأولاده ومن معه من الدواب، ثم ارتفع الماء فوق الجبال بمقدار خمسة عشر ذراعاً، فمات كل جسد يدب، وبعد مائة وخمسين يوماً نقصت المياه، وجفت الأرض، وكلَّمَ الله نوحاً قائلاً له: اخرج من الفلك أنت ومن معك من كل ذي جسد والطيور والبهائم، وكل ما دبَّ على الأرض لتنمو وتكثر.

فلم تذكر التوراة رسالة نوح، وكفر قومه، وغرق ولده، ولكن ذُكِرَ أنَّ سبب الطوفان غضب الله على البشر لفسادهم وظلمهم.

الطوفان عند الكلدانيين: قالوا: كان في الأرض جيل من الجبارين طغوا وأكثروا الفساد فعاقبهم الله بالطوفان.

قال المؤرخون: وهذه الرواية عن الكلدانيين عن ألواحٍ من الآجرعثر عليها بعض الإنجليز، وهي مكتوبة باللغة المسمارية، في عصرِ الملك «آشور بانيبال» سنة ٦٦٠ ق.م، وهذه الكتابة منقولة عن كتابةٍ قديمة أُخرى من

القرن السابع عشر قبل المسيح أو قبل ذلك، وهذه الرواية أقدم مما في «سفر التكوين».

وسفر التكوين: هو السفر الأول من الأسفار التي يُسمونها «التوراة».

وسفر التكوين مقسم إلى فصول: الأول: بيان الخلق، آدم وحواء، والثاني: غرس الجنة، والثالث: معصية آدم، والرابع: تكاثر البشر من آدم وحواء، والخامس: مواليد آدم إلى نوح...وهكذا.

وسفر التكوين: ليس من التوراة المنزلة على موسى عليه السلام لأنَّ الأسفار كُتبت بعد غزو بابل سنة ٥٣٦ ق.م، فهي ليست موثوقة ولكنها أثر تاريخي.

الطوفان عند اليونان:

أورد خبر الطوفان «أفلاطون» قال: إن كهنة المصريين قالوا «لسولون» أحد حكماء اليونان: إن السماء أرسلت طوفاناً غيَّر وجه الأرض، فهلك البشر، ولم يبقَ للجيل الجديد شيء من آثار مَنْ قبله ومعارفهم، وذكروا نجاة أُناس.

الطوفان عند الفرس:

قالوا: إن طوفاناً عمَّ الأرض وأغرق الله البشر لشرورهم، وهذا الإله هو «أهريمان» إله الشر، وقالوا: إن هذا الطوفان فار أولاً من تنور العجوز «زول كوفه».

أما الفرس الوثنيون، فقد أنكروا كون الطوفان عاماً، بل حصروه بإقليم العراق، وانتهى إلى حدود كردستان.

الطوفان عند الوثنيين الهنود:

فاسمع إلى مافيه من خرافات تضحك.

ففي كتاب «تاريخ الأدب الهندي»، وهو كتاب مخطوط لم يُطبع، وهذا الكتاب مختص بالثقافة الوثنية للهند، والمؤلف هو: «أبو النصر أحمد الحسيني البهوبالي الهندي»[1] قال: وفي كتب الهند القديمة عن قصة الطوفان وضحاياه: أنه بينما كان «مانو» وهو شخصية مقدسة عندهم إليه تُنسب «المانوية»، يغسل يديه في النهر جاءت سمكة وكلمته وطلبت منه أن ينقذها من طوفان سيحصل في المستقبل ويُغرق المخلوقات جميعاً، قالوا: فأخذ «مانو» السمكة، ووضعها في علبة زجاجية، فأخذت تكبر، فلما كبرت أخبرته بوقت الطوفان، وأشارت عليه بصنع سفينة، ثم صنع «مانو» السفينة، وكبرت السمكة جداً ونزلت إلى البحر وربط «مانو» السفينة بأحد قرني السمكة وسحبت السمكة السفينة إلى الشمال- إلى الشمال - حتى زال الطوفان، فربط «مانو» السفينة في شجرة ونزل وحيداً على الأرض.

- ياعبد الله -

في مقارنة ما سمعناه ورأيناه من الكتب السابقة في قصة نوح، مع القرآن الكريم تُدرك أنَّ ما استعرضناه عن الكتب السابقة مختَلَقٌ لا أصل له، وأنَّ الله حفظ كتابه من العبث ومن التحريف الذي أصاب الكتب السابقة، وفيما بين أيدينا يُغنينا عن كل ما رود من الأخبار في كتب الآخرين وفلسفاتهم، وإنما أردنا فقط إيرادَ ذلك لتُدرك الفارق - يا عبد الله -.

قال العلماء: وبعد تمام قصة الطوفان يقول الله تعالى مخاطباً نبينا محمداً

---

(١) صفحة ٤٢، ٤٣

ﷺ: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩﴾ [هود].

قال أبو الليث في «تفسيره»: أي اصبر يا محمد على مشاقِّ الرسالة، فإن آذوْك وكذبوك فعليك بالصبر كما صبر نوح.

وفي سورة الأحقاف يخاطب الله تعالى نبيَّه محمداً آمراً له بالصبر على المشاقِّ كذلك فيقول: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف ٣٥].

وأُولو العزم من الرسل خمسة، ونوح منهم، وقد جمعهم الشاعر بقوله:

أولو العزم نوحٌ، والخليلُ المُمَجَّدُ

وموسى وعيسى والحبيب محمدُ

قال العلماء: والأنبياء جميعاً اتَّصفوا بهذا الخُلُق، خُلُقِ الصبر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٤﴾ [الأنعام].

فإن كان الرسل السابقون قد كُذبوا وصبروا، وهم رسُلٌ لقومهم، أو لأمةٍ خاصة، ولزمنٍ خاصٍّ، فكيف بك يا محمد وأنت خاتم الرسل وللناس كافة وللعصور كافة، فعليك أن تتحمل هذا يا محمد، والخطاب تسلية للنبيﷺ.

وفي ابتلاء الرسل، وتعرُّضهم للمكاره إفهامٌ للخلق أنَّ الدنيا دار اختبار لا دار مُقامٍ.

فآدم: نزل به ما نزل من الحزن حين أُخرجَ من الجنة، ثم ذاقَ الثُّكلَ بهابيل.

ونوح: أوذي، وضرب، وسجن، وشُجَّ، ثم غرق ولده.

وإبراهيم: بذل جهداً ضخماً في دعوة أبيه إلى التوحيد، فهدَّده والده

بالرجم، ثم تعرَّض للحرق، ثم أُمِرَ بذبح ولده فصبر.

وموسى: لاقى من فرعون ما لاقى.

وعيسى: عانى من قَذْفِ أمه، واضطهاد بني إسرائيل له حتى ائتمروا على قتله، فنجاه الله بصبره.

ولوط: رأينا ما جرى له مع قومه، فصبر حتى أتاه نصر الله.

وشعيب: خطيبُ الأنبياء لاقى من قومه ما لاقى وهم قُطَّاعُ طرق وهكذا مَنْ بَعْدهم إلى نبيِّنا محمد ﷺ، ولذلك قال الله له: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾، من هنا قال الشافعي: المؤمن مُبْتَلى، والكافر مبتلى، والعاقبة للتقوى.

والعاقبة للمؤمن في الدنيا بالنصر أو الشهادة، وفي الآخرة الفوز بالجنة والرضوان.

قال العلماء: ومما يجلُبُ الصبر، أن تعلم أنك عبدٌ مملوكٌ، وأنَّ الذي أصابك وقع برضى السيد، فعلى العبد أن يرضى بما يرضى له مولاه سبحانه فهو يُكرمه بذلك.

إصبر لكل مصيبةٍ وتجلَّدِ ... واعلم بأنَّ المرءَ غيرُ مخلَّدِ
فإذا ذكرتَ مصيبةً تسلو بها ... فاذكر مُصابكَ بالنبيِّ محمد

بعض أخبار نوح عليه السلام:

ذكر ابن كثير، أنَّ الله تعالى قال في نوح مُثنياً عليه، ومُمْتَناً على بني إسرائيل بنجاة آبائهم الذين كانوا مع نوح: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء].

قال أهل العلم: الشكورُ، الدائبُ على الشكرِ، والمُداومُ عليه، وهو الذي يحمدُ الله في أمره كلِّه، في طعامه، وشرابه، ولباسه وغير ذلك.

وفي صحيح مسلم، من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلةَ، فيحمده عليها، أو يشربَ الشَّرْبةَ فيحمده عليها»، ولكن الظاهر أنَّ الشكور أعمُّ من هذا المعنى، ولذلك قال ابن كثير:

الشكور: هو الذي يعمل بجميع الطاعات، القلبية، والقولية، والعملية، فإنَّ الشُكرَ يكون بهذا وبهذا وبهذا.

قال الشاعر:

أَفادتكمُ النعماءُ مني ثلاثةً   يدي ولساني والضميرَ المُحَجَّبا

ومن جميل ما قاله أحد العلماء المعاصرين في نوح:

قال: حقَّقَ نوحٌ العبودية لله عز وجل في نفسه، ومن أجمل مظاهر العبودية الشكرُ؛ لأنَّ مَنْ حَقَّقَ العبودية لله تعالى في نفسه، فقد حقَّق الهدف الذي خلقه الله من أجله، وتلا قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات].

وعندما يتحقق العبدُ بصفةِ العبودية لله تعالى، فالله يكفيهِ وينصُرُه، قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر٣٦].

لذلك كان نوح كثيرَ الشكر، كثير الصيام؛ فكوفئ بالنجاة في الدنيا، وبالفوز في الآخرة.

ذكر صوم نوح عليه السلام:

أخرج ابن ماجة من حديث عبد الله بن عمرو يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «صام نوح الدهرَ، إلا يوم عيد الفطر، ويوم عيد الأضحى».

وعند الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «صام نوح الدهر، إلا يوم الأضحى ويوم الفطر، وصام داوود نصف الدهر، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر، صام الدهر وأفطر الدهر».

ذكر حج نوح عليه السلام:

أخرج الحافظ أبو يعلى من حديث عكرمة عن ابن عباس قال: حجَّ رسول الله ﷺ فلما أتى واديَ «عُسفان» قال: «يا أبا بكر: أيُّ وادٍ هذا؟» قال الصديق: وادي عُسفان، قال ﷺ: «لقد مرَّ بهذا الوادي نوح وهود وإبراهيم على بُكرانٍ لهم حُمْرٍ خُطمُهُم الليفُ، أُزُرُهم العَباءُ، وأرديتُهم النِّمارُ، يحجّون البيت العتيق» الحديث غريب.

وروى ابن الجوزي في كتابه «مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن» عن عروة بن الزبير أنَّ نوحاً عليه السلام حج البيت قبل الغرق.

وذكرها صاحب كتاب «سبل الهدى والرشاد» للصالحي، والذي حققه الدكتور «مصطفى عبد الواحد» ذلك والله أعلم.

ذكر وصية نوح عليه السلام لولده:

أخرج الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: كُنّا عند رسول الله ﷺ، فجاء رجل من أهل البادية عليه جُبَّةُ «سِيجان» جمع ساجٍ، وهو الطيلسانُ الأخضر، مَزرورةٌ بالديباج، فقال النبي ﷺ: «إنَّ صاحبكم يريد أن يضعَ كلَّ فارسٍ ابن فارسٍ، ورفْعَ كلّ راعٍ ابن راعٍ»، قال

الراوي: فأخذ الرسول ﷺ بمجامع جُبَّتِهِ وقال: «ألا أرى عليك لباسَ مَنْ لا يعقلُ»؟!! ثم قال ﷺ: «إن نبيَّ الله نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاصٌّ عليك الوصية: آمُرُكَ باثنتين و أنهاكَ عن اثنتين:

آمُرُكَ بلا إله إلا الله، فإنَّ السموات السبع، والأرضين السبعَ لو وضعت في كِفَّةٍ، ووضعت لا إله إلا الله في كفةٍ، رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو كانت حَلَقَةً لقصَمتْهُنَّ حتى تخلُصَ إلى الله.

وآمرك بسبحان الله وبحمده، فإنَّ بها صلاة كلِّ شيء، وبها يُرزق الخلق.

وأنهاكَ عن الشرك و الكِبْرِ».

قيل: يا رسول الله، هذا الشرك قد عرفناه، فما الكِبْرُ؟ هل أن يكون لأحدنا نعلان حسنتانِ، لهما شِراكان حسنان؟

فقال النبي ﷺ: «لا».

قال: هو أن يكون له حُلَّةٌ يلبَسُها؟

فقال ﷺ: «لا».

قال: هو أن يكون له دابةٌ يركبها؟

فقال ﷺ: «لا».

قال: هو أن يكون لأحدنا أصحابٌ يجلسون إليه؟

فقال ﷺ: «لا».

قيل يا رسول الله فما الكِبْرُ؟

قال ﷺ: «سَفَهُ الحقِّ، وغَمْطُ الناس»، وفي رواية: «بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناس» حديث صحيح.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُخبركم بوصيةِ نوحٍ لابنه؟» قالوا: بلى، قال ﷺ: «أوصى نوح ابنه فقال له: يا بني أوصيك باثنتينٍ، وأنهاك عن اثنتين...»، ثم ذكر الحديث السابق، الحاكم والبزار وقال صحيح الإسناد.

قال ابن كثير: والظاهر أنَّ الحديث الثاني عن عبد الله بن عمرو بن العاص لا عن ابن عمر.

قال العلماء: معنى: «بَطَرُ الحق»: أي رَدُّهُ ودفْعُهُ، حيث أنَّ المتكَبر تكبَّرعلى الحق ورفضه وهو عالمٌ به، سواء كان هذا الحق من حقوق الله أو من حقوق العباد.

ومعنى: «غَمْطُ الناس» أو غَمصُ الناس: أي احتقارُهم وتَنَقُّصُهُم بقولٍ أو فعلٍ، وهذا ينشأُ عن العُجْبِ بالنفس.

ذكر وفاة نوح عليه السلام:

ذكر الدكتور «محمد سيد الوكيل» في كتابه «نظرات في أحسن القصص» أثراً عن ابن عباس: أنَّ نوحاً عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين عاماً، ومكث في قومه يدعوهم إلى الله تسعمائة وخمسين عاماً، وبُعِثَ وله أربعمائة وثمانون عاماً، فإن صحَّ الأثر عن ابن عباس فيكون عمره عند وفاته ألفاً وسبعمائة وثمانين عاماً، والله أعلم.

أين دُفن نوح عليه السلام:

ذكر ابن جرير الطبري، و تابَعَهُ الأزرقي في «تاريخ مكة» أنَّ قبره بمكة.

وذكر بعض المتأخرين من المؤرخين أنه دُفنَ ببلدة تُعرف «بـكَرَكِ نوح»، وهي البلدةُ المعروفة في الأردن «الكرك»، وهي تبعد عن القدس بمائة وثمانية وأربعين كيلاً - أي كيلو متراً - وعند المكان الآن مسجد، وقد رجَّحَ ابن كثير الرواية الأولى، وأنه دُفنَ في الحرم، وهذه الرواية أقوى وأثبت من قول المتأخرين.

قال ابن تيمية: وأما ما يُقال عن القبر الموجود في سفح الكرك، أنه قبر نوح، فهو باطل محالٌ رغمَ شُهرتِهِ، ولم يقل أحدٌ ممن له علمٌ ومعرفةٌ: أنَّ هذا قبر نوح، ولا قبر أحدٍ من الأنبياء أو الصالحين.

وقد ورد عن بعض التابعين أنه دُفن في الحرم.

فقد روى «عبد الرحمن بن سابط» مُرسلاً أنَّ نوحاً دُفِنَ في الحرم، وهذا هو الأصح، لأنَّ الأنبياء الذين دَعَوْا على أقوامهم كانوا يأتون آخر عمرِهم إلى مكة لتكون وفاتهم فيها.

قال المؤرخون: وقام على تجهيز نوح عند وفاته أولادُهُ، فغسَّلوه وكفَّنوه، وصلّوا عليه ودفنوه، إلى هنا انتهت قصة نوح.

ثم نَعِظُ أنفسنا فنقول: - يا عبد الله - إنما نستعرض قَصَصَ الأنبياء للفكرة، ونشرح أحوالهم للعبرة فاحذر الغفلة، إذ كيف تصِحُّ الفكرةُ لقلبٍ غافل، وكيف تقع العِبْرة لعقلٍ ذاهلٍ. وكيف يحصل الفهم لِلُبٍّ عاطل.

عجباً لمفرطٍ والأيامُ قلائلُ ... ولمائلٍ إلى ركنٍ مائلِ

لقد خاب الغافلون، وفاز المتقون، ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس].

يا عبد الله - صَحِّحْ عملك وفقَ سُنَّتِهِ ﷺ حتى لا يُرَدَّ عليك، فكم عمل رُدَّ على عامله، وكم أمل رجع بالخيبة على آمله، وكم عاملٍ أنهكَ نفسه في إتعاب مفاصله، فهبتْ عليه ريح الشقاء لتبديد حاصله، لقد نوديَ على المطرودين ولكنهم لا يسمعون: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس].

يا عبد الله - انظر بعين فكرك وعقلك، هل تجد سبيلاً لخلاص مثلك مع إقامتهِ على فعلك، أين اعتبارُك بذهابِ أسلافكَ، أين فكرك في فراق أُلّافِكَ؟

فمتى – ياعبد الله – تترك قبيحَ فِعالك؟

رحم الله من قال:

قــل لــلــمــفــرِّطِ يستعدْ   مــا مــن وُرود المــوت بُــدٌّ
قــد أخــلــقَ الــدهــرُ الشبابَ   ومـــا مـــضى لا يُـــستردّ
أو مــا يخــافُ أخــو المعاصي   مــن لــه الــبــطــشُ الأشــدّ
يــومــاً يُــعــايــنُ مــوقــفــاً   فــيــه خــطــوبٌ لا تحــدّ
يختــالُ في ثــوبِ النعيمِ   ودونـــــه قـــبرٌ ولحــد
والــعُــمــر يــقــصُرُ كــل يــومٍ   ثـــم في الآمـــــالِ مَــدّ

قال بنان: دخلت على «ابن العَرْجي» وهو في بيتٍ مملوءً كُتُباً، فقلت اختصر لي مافي الكتب بكلمتين.

فقال: ليكن همُّكَ مجموعاً فيما يُرضي الله عز وجل، فإن اعترضك شيءٌ فتُبْ من وقتك.

وورد عن عمرو بن العاص أنه قال لابنه حين مرضِ موته: يا بني: ليتني أجد رجلاً عاقلاً يصفُ لي ما يجدُ عند نزول الموت به؟!!

فقال ولده: يا أبتاه قد نزل بك الموت فَصِفْ لي ما تجد؟

قال عمرو: يا بني، كأنَّ جنبيَّ في تختٍ، وكأنَّ غُصنَ شوكٍ يخرج من قدميَّ إلى هامتي، وكأني أتنفسُ من سَمِّ إبرةٍ، ثم مدَّ يده وقال: اللهم لا قويَّ فأنتصر، ولا بريء فأعتذر، اللهم إني مُقِرٌّ، مذنبٌ، مستغفرٌ، ثم توفي رحمه الله تعالى.

فاستعدَ – يا عبد الله – فالموت آت :

نُحْ على نَفْسِكَ يا مسكينُ إنْ كنتَ تنوحُ
لتَموتَنَّ ولو عُمِّرْتَ ما عُمِّرَ نوحُ

هُود

عليه الصلاة والسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

هود عليه الصلاة والسلام

الحمد لله، الحمد لله الغفور الودود، الكريم المقصود، القديم الوجود، العميم الجود، العليم الذي يرى جريان الماء بالجلمود، أباد بسطوته قوم نوحٍ، وأهلك عاداً قوم هود.

نحمده سبحانه، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نفوز بها في اليوم الموعود.

ونشهد أن محمداً عبده ورسوله صاحب الحوض المورود.

صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسانٍ إلى يوم الوُرود، أما بعد:

إلى من بُعِثَ هود عليه السلام؟

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحقاف].

وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [هود].

عادٌ: هو اسم قبيلة سُميت باسم أبيها كما يُقال لبني هاشم: هاشمٌ، ولبني تميم: تميمٌ.

واعلم يا – عبد الله –: أنَّ «عاداً» لم تُذكر في كتابٍ من الكتب المقدسة المُنْزَلَة إلا في القرآن الكريم، وليس في يد أحد علمٌ عنهم يوثَقُ به إلا في كتاب ربنا عز وجل.

وقد ذكر القرآن الكريم: مساكنهم، وأحوالهم، وجَسامَةَ أبدانهم، وقوتَهم، وما كانوا فيه من رَغَدِ العيش وسَعَتِهِ ونُعومَتِهِ.

وذكر عُتوَّهم في الكفر، واستمساكَهم بعبادة الأوثان، ثم ذكر ظلمَهُم وفسادَهم في الأرض، وبيَّن ما بذل هودٌ من جَهد في سبيل إرشادهم وهدايتهم.

وكيف كان ردُّهم على هودٍ بالاستهزاء والسخرية والعناد، حتى تأذَّنَ الله بهلاكهم.

ثم اعلم يا – عبد الله –: أنَّ ما أَتيتُ به من الأخبار عنهم التي لم تردْ في القرآن الكريم لا تبلغُ حدَّ القطع، وإنما هي أخبارُ أهل العلم، وبعض المؤرخين.

نسبه:

و«هود»: هو هود بن عبد الله، بن رباح، بن الخلود، بن عوص، بن إرمَ، بن سام، بن نوح، و«إرم»: اسم قبيلة كذلك، وإرم جدُ عاد.

والمعنى: «عادُ إرم»، هي عادٌ الأولى، فالمتقدمون من قبيلة عادٍ سُمّوا: عاداً الأولى.

قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ ﴾ [النجم].

والمتأخرون من قبيلة عاد، سُمّوا: عاداً الآخرةَ، أو عاداً فقط.

قال ابن قيس الرُّقَياتي:

مجداً تليداً بناهُ أوَّلُهُم   أدرَكَ عاداً وقبلهُ إرمُ

وهؤلاء: أي قبيلة عاد، هم أولُ من عبدَ الأوثان بعد الطوفان، ويدل على ذلك قوله تعالى على لسان هود يدعوهم إلى التوحيد أولاً: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف].

ثم ذكَّرهم بنعمة الله عليهم فقال: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأعراف].

أي اذكروا الوقت الذي ظهرت فيه خلافتكم لقوم نوح في تعمير الأرض والهيمنة على الأُمم، فإن تذكر النعمةِ يوجبُ الشكر.

قال المؤرخون والمفسرون: وقوله تعالى: ﴿ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾، أي أنهم خَلَفوا قومَ نوح، فعادٌ أولُ أُمةٍ اضطلعتْ بالحضارة بعد الطوفان، وكان بنو نوحٍ قد تكاثروا وانتشروا في الأرض، في أرمينية، والموصل، والعراق، وبلاد العرب.

وكانوا أُمماً كثيرة، وكانت عادٌ عِظَمَ تلك الأُمم، وأصحابَ السيادة على سائر تلك الأمم، وكانت عاد تُعَدُّ أكثرَ من عشرة قبائل منهم: يرْفدٌ، زمْلٌ، صَدٌّ، العُبود، زمرُ، صُمود، جاهد..

يقول قائلهم:

أتأمُرنا لنتركَ آل رفدٍ   وزَمْلٍ وآلَ صدٍّ والعبودِ

وليس المُراد أنهم خلفوا قومَ نوح في ديارهم؛ لأنَّ منازل عادٍ غيرُ منازلِ قومِ نوح عند المؤرخين.

وهذا التذكير بالآية ﴿وَاذْكُرُوٓاْ﴾ من الذُّكر لا من الذِّكر، تصريحٌ بالنعمةِ، وتعريضٌ بالإنذار والوعيد بأن قومَ نوح قد أُبيدوا لشركهم، فمن اتَّبَعَهُم في صنيعهم يوشكُ أن يحلَّ به عذابٌ أيضاً.

قال الرازي في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ إنما ذكَّرهم بنعمةِ الله عليهم؛ لأنَّ تذكرَ النِعَمِ يوجبُ المحبة والألفةَ وزوال العداوة.

فذكَّرهم هودٌ بأن الله أورَثَهم الديار والمنافعَ والأموال بعد هلاكِ قوم نوح.

ويؤيد أنهم جاؤوا بعد هلاك قوم نوح قوله تعالى في [سورة المؤمنون] بعد أن ذَكَرَ هلاك قوم نوح: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾، أي قوماً آخرين، وهم عاد قومُ هود على الصحيح، ولا خلافَ أنَّ عاداً قبل ثمود؛ لأنَّ صالحاً لما جاء إلى ثمودَ ذكَّرهم بنِعَمِ الله قائلاً لهم: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف ٧٤]، وكانت عادٌ بحضرموت.

الظرف الزماني لهود وقومه:

يذكر الدكتور «حسن عيسى» المدرس في جامعة قطر، ناقلاً عن «التاريخ الجغرافي للقرآن الكريم»: أنَّ عصر عادٍ يبدأ في حدود سنة ٢٢٠٠ ق.م.

فهم قبل موسى الذي كان عهدُهُ سنة ١٥٠٠ ق.م، وكانت عادٌ قد زالت عند مجيء موسى عليه السلام.

فعادٌ قديمةٌ، والعربُ عندما يذكرون عاداً في أشعارهم أو خُطبهم، يعنون أنَّ هذا المذكور قديمٌ، وأنه مجهولُ الأصل، كقول أبي العلاء:

صاحِ هذي قبورَنا تملأُ الرَّحبَ فأين القبورُ من عهد عاد

وعلماءُ الآثار لما يكتشفون شيئاً من القديم يُسَمُّونَه «بالعاديات»، لهذا السبب، كما يُسَمّون كل شيء قديم وثمينٍ «عادياً أو عاديات» نسبةً إليهم.

و«عادٌ»: من قبائل العرب البائدة، و«هود»:عربي، وورد ذلك في حديث أبي ذر الذي أخرجه ابن حِبان في صحيحه أنه ﷺ عندما عدَّ الأنبياء والمرسلين قال: «منهم أربعةٌ من العرب، هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر».

أرضهم وموطنهم:

أكثر المفسرين والمؤرخين، بل عامَّتُهم، أنَّ موطنَ عادٍ كان في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية وبالتحديد في «الأحقاف»، قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾ [الأحقاف ٢١].

والأحقافُ: جمعُ حِقْفٍ، وهو الرّملُ العظيم المستطيل المعوجُّ.

قال ابن اسحق: الأحقافُ: رملٌ ما بين عُمانَ إلى حضرموت، وهو وادٍ بين عُمانَ وأرضِ مَهَرَةَ، بينهما وبين عُمانَ مسيرةُ شهرٍ، وبينها وبين حضرموتَ مسيرةُ شهرٍ كذلك.

وقال قتادة: الأحقاف رمالٌ مشرفةٌ على البحر بالشَّحَرِ من أرضِ اليمن.

وضَبَطَها صاحبُ «معجم البلدان»: «بالشِّحْرِ»، وقال: وهي من أرض اليمن ما بين عدن وعُمان، وهو على البحر، وإليه يُنسبُ العنبر الشَّحْرِيُّ، لأنه موجودٌ في سواحله.

قال المفسرون: ويشهد بصحةِ ذلك ما رواه أبو المنذر هشام بن محمد عن السجستاني عن مُرَّةَ الأَيْلي عن الإصبغ بن نُباتة قال: إنا لجلوسٌ يوماً عند علي أيامَ خلافةِ أبي بكر الصديق إذْ أَقبَلَ رجلٌ من حضرموت، لم أَرَ رجلاً قطُّ أنكرَ منه - أي كان دميم الشكل - فاستشرفهُ الناس، وراعَهُم منظرُهُ.

أقبل الرجل مسرعاً حتى وقفَ علينا وسلَّمَ، وجثا، وكلَّمَ أدنى القوم منه مجلساً، وقال: من عميدُكم؟ فأشاروا إلى عليٍّ رضي الله تعالى عنه وقالوا: هذا ابن عمِ رسول الله ﷺ، وعالمُ الناس، والمأخوذُ عنه.

فقام الرجل إليه وقال شعراً:

إسمعْ كلامي هداك الله من هاد ... وافْرُجْ بعلمِكَ عن ذي غُلَّةٍ صادي
جابَ التنائفَ من وادي سُكاك إلى ... ذاتِ الأماحِلِ من بطحاءِ أجيادِ
تلُفُّه الدِمنةُ البَوْغاءُ معتمداً ... إلى السَّداد وتعليمٍ بإرشادِ
سمعتُ بالدينِ دينِ الحق جاء به ... محمدٌ، وهو قرمُ الحاضرِ البادي
فجئتُ منتقلاً من دينِ باغيةٍ ... ومن عبادةِ أوثانٍ وأندادِ
ومن ذبائحِ أعيادٍ مُغلِّلةٍ ... نسيكُها غائبٌ ذو لوثةٍ عادي
فادلُلْ على القصدِ، واجلُ الريبَ عن خَلَدي ... بشرعةٍ ذاتِ إيضاحٍ وإرشادِ
والمُمْ بفضلٍ -هداكَ الله- عن شعثي ... وأَهدني إنكَ المشهورُ في النادي
إن الهداية في الإسلامِ نائبةٌ ... عن العمى، والتُقى من خير أزوادِ
وليسَ يُفْرجُ ريبَ الكفرِ عن خلدٍ ... أَفَظَّهُ الجهلُ إلا حيةُ الوادي

التنائف: المفاوز، الدمنةُ البوغاءُ: التراب الرخو، قرم: السيد، حيةُ

الوادي: الأسد.

قال: فأعجبَ شعرُهُ علياً رضي الله عنه، وأعجبَ الجالسين، فقال له علي: لله درُّكَ من رجل، ما أرصَنَ شعرَكَ !! ممن أنت؟ فقال الرجل: من حضرموت، فسُرَّ علي، وشرحَ له الإسلام، فأسلم على يديه، ثم أتى به إلى الصّديق فأسمَعَهُ الشعرَ فأعجَبَهُ.

ثم إن علياً استضافه، ثم سأله بعد أيام، والناسُ جلوسٌ يتحدثون: أعالمٌ أنت بحضرموت؟ قال الرجل: إذا جهلتُها لم أعرفْ غيرها !! قال له علي: أتعرفُ الأحقافَ؟ قال الرجل: كأنكَ تسأل عن قبر هود؟ قال علي: نعم، لله درُّكَ ما أخطأت !!

قال الرجل: خرجتُ وأنا في عُنفوانِ شبيبتي في أُغيلمةٍ من الحيِّ، ونحن نريد أن نأتيَ قبرهُ لبعدِ صيته، وكثرةِ من يذكره فينا، فسرْنا في بلاد الأحقاف أياماً، حتى انتهينا إلى كثيبٍ أحمر فيه كهوفٌ كثيرة، ومعنا رجلٌ دليل عالمٌ بالموضع، فمضى الرجل بنا إلى كهفٍ منها فدخلناه، ومشينا به طويلاً، فانتهينا إلى حجرين قد أُطبق أحدهُما على الآخر، وفيه خِلَلٌ يدخل الرجل النحيف متجانفاً، فدخلتُهُ، فرأيتُ رجلاً على سرير طويل الوجه كثَّ اللحية، آدمَ، وقد يَبس على سريره، فإذا مَسَسْتَ شيئاً من بدنه أصبتَهُ صليباً لم يتغيرْ، ورأيتُ عند رأسه مكتوباً بالعربية: «أنا هود النبي الذي أسِفْتُ على عاد بكفرها وما كان لأمرِ الله من مَرَدٍّ».

قال علي: هكذا سمعتُ من أبي القاسم ﷺ.

قال «صاحب لسان العرب»: والأحقاف رمالٌ بظاهر بلاد اليمن كانت عادٌ تنزِلُ ذلك المكان، وقلنا: إن الأحقاف: هي الكثبان من الرمل المستطيلة المُعْوَجَّةُ.

وفي الحديث: إنَّ النبي ﷺ: مرَّ هو وأصحابُهُ وهم محرمون بظبيٍ حاقِفٍ في ظل شجرة، حاقف: أي نائم منحنياً، من هنا إذا كان الرجل منحنياً قيل له حِقْفٌ.

والأحقافُ: يَحُدُّها من الشمال: الربعُ الخالي، وفي شرقها: عُمان، وموضعهم اليوم رمالٌ ليس فيها أنيس، بعد ذلك العمران والنعيم.

ولم يتعرَّض أحدٌ من الباحثين من أوربا أو غيرها للكشف عن آثارهم، ولو فعل المنقِّبون هذا لوجدوا مدينةً عظيمةً مطمورةً في الرمال.

وقد حاول رجل حضرمي اسمه «عبدالله بن عمر بن يحيى العلوي» مع جماعة من الحضارمة الحفر في تلك الأماكن، وعثروا على بعض الأواني المرمرية عليها كتاباتٌ بالخط المسماري، ثم تركوا التنقيب لأنَّ البدوَ هناك ضايقوهم بكثرة طلب المال منهم.

وذكر صاحب كتاب «صفة جزيرة العرب» - وهو محقق تاريخي -: أنَّ قبر هود عليه السلام في الكثيبِ الأحمر في كهفٍ مشرفٍ على أسفل الوادي المسمى «وادي الأحقاف». وأهل حضرموت يزورونه هم وأهلُ مَهَرَةَ، ومَهَرَةُ مكانٌ بينه وبين عُمان نحو شهر، وكذلك بينه وبين حضرموت مسيرة شهر.

وقال المحقق: لا يزال القبر معروفاً.

ويذكر صاحب كتاب «أدوار التاريخ الحضرمي» في الصفحتين ٣٣-٣٤ وهوامشهما، والمؤلف هو: «محمد بن أحمد بن عمر الشاطري»: أنَّ هوداً عليه السلام مات بحضرموت، وأصبح وجود القبر متواتراً هناك.

ثم قال: وكانت تُقام سوقٌ سنويةٌ في الجاهلية في شهر شعبان في المنطقة

التي بها قبر هود بشرق حضرموت قرب بئرٍ معروف باسم: «بير برهوت».

وبعد الإسلام تردَّدَ الحضارمة إلى الموقع كلما خطر لهم زيارة القبر، وفي القرن التاسع الهجري في شهر شعبان صارت تجري زيارة عامة للقبر، وبُنيتْ بيوت مؤقتةٌ تُسكن أيام الزيارة، وكانوا يعقدون في يومين من أيام الزيارة مجالسَ وعظ حول القبر، وقراءاتٍ قرآنيةٍ في الصباح والمساء، وتُقام مهرجاناتٌ شعبيةٌ لأهل كل مدينة عندما يصلون إلى مدخل شعبِ هود، وكذلك عند مغادرتهم، وقد انقطعت بحمد الله هذه الأمور، وكل ذلك بدعٌ لا أساس لها في الشرع.

أما بئر برهوت: فهي كما وصفها المستشرقون: كهف عظيم عميق مظلم، ذو تعاريج وتقاطيع، يبلغ طوله مائة وعشرين قدماً، - ١٢٠ قدماً -، وعرضه ٤٥٠ أربعمائة وخمسين قدماً، وعمقه ٦٠٠ ستمائة قدم.

وقال الدكتور: «حسن عيسى عبد الظاهر»: بئر برهوت: هو عبارة عن مغارةٍ واسعةٍ في ثلث الجبل، بها صخور غير ثابتةٍ، وفيها منافذُ بعضُها إذا دُخلتْ أوصلت إلى مُتسعٍ فسيحٍ فيه حفرٌ كثيرةٌ ممتلئةٌ برمادٍ كبريتي بمسافة خمسين خطوة إلى جهة الغَرب مع تعاريج، لا تُدْخَلُ إلا زحفاً على البطن، وفي بعضها روائح كبريتية.

والمغارة واسعةٌ جداً إلى حيث لا يُعْلَمُ، وسقفها مسودٌّ يترشَّحُ بالمومياء الجَبلية السوداء، من كتاب: «أدوار التاريخ الحضرمي».

وقال الشيخ «عبد الوهاب النجار»: في كتابه «قصص الأنبياء»: إن أهل حضرموت يقولون: إن هوداً سكن حضرموت بعد هلاك عاد إلى أن مات، ودُفن في شرقي بلادهم على نحو مرحلتين من مدينة «تَرْيَمَ»، وهي أقرب وادٍ إلى بئر برهوت.

قال صاحب «معجم البلدان»: تَرْيَمُ: إحدى مُدن حضرموت، ومِنْ مُدنهم المهمة، مع مدينة أُخرى اسمها «شبام».

بعثةُ نبي الله هود عليه السلام إلى عاد:

اصطفى الله هوداً وأرسله إلى عاد، ووصفهُ بأنه أخوهم، قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحقاف].

ووصفت السنةُ هوداً بهذا الوصف كذلك، ففي حديث أخرجة ابن ماجة في سننه عن ابن عباس، أن النبي ﷺ وصف هوداً بأنه أخو عادٍ، فقال ﷺ مُعَلِّماً أصحابه أنَّ الإنسان إذا بدأ بالدعاء فلْيدعُ لنفسه أولاً، ثم يدعو إلى الغير، قال ﷺ: «يرحمنا الله وأخا عادٍ»، ولكن ما معنى هذه الأُخوة؟

قال العلماء: كان هود أخاهم في القرابة و النسب؛ لأنَّ هوداً كان من قبيلة عاد، والعرب تُطلق كلمة «الأخ» على كل قريب فيقولون:

يا أخا العرب، ويا أخا تميم، ويا أخا سُليم، والمراد بذلك: أيُّ رجلٍ منهم، وواحدٍ منهم.

وقد يُطلقُ «الأخ» على الصاحب، والعرب تُسمي صاحبَ القوم «أخا القوم»، ومن ذلك قولهم:

أخا الحـرب لبّاساً إليها جلالها
وليس بـولّاج الخوالف أعقلا

ضروب بنصل السّيف سوق سمانها

إذا عدموا زادا فإنّك عاقر

والقرآن الكريم استعمل ذلك فقال في المبذرين: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإسراء].

فجعل الله المبذرَ والشيطان في صفةٍ واحدة.

فالمبذرُ صرفَ المال في غير وجه الحلال، فأسرفَ حيثُ تجاوز حدَّ الحلال إلى الحرام، والشيطان أسرفَ في المعصية، فلم يكتفِ بأنْ عصى بذاته بل عدّى المعصية إلى غيره، فزيّنَ المعصية لغيره، وأغواهُ بها.

والسنة النبوية استعملت الأخَ بمعنى الصاحب، ففي مسند أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي من حديث «زياد بن الحارث الصُّدائي» قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أخا صُداء أَذِّنْ»، قال: فأذَّنتُ، وذلك حين أضاء الفجرُ، فلما توضأ رسول الله ﷺ قام إلى الصلاة أرادَ بلال أن يُقيم، فقال ﷺ: «يُقيمُ أخو صُداءَ، فإنَّ مَنْ أذَّنَ فهو يُقيمُ».

وكلمة: «أخ»: تُجمع على إخوة وإخوان، وكلمة: «إخوة»: تدل على إخوة النسب: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يوسف]. وتدل على أُخوّة التقوى والإيمان: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات].

أما «إخوان»: فتدل على قوم اجتمعوا على مبدأ واحد، خيراً: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران]، أو اجتمعوا على شر ومنه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإسراء].

قال صاحب تفسير «البحر المحيط»: كان هود أخاهم بالنسب، وكان تاجراً، جميل الصورة، أشبه الخلقِ بآدم، بعثهُ الله إلى قومه، قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف].

وكلمة «أخ» تُشعرك - ياعبد الله - بأمورٍ كثيرة، فهو من جنسهم، ومن لغتهم، ويعرفون عنه كل شيء، كل ذلك يُعطي إشارات - كما قال العلماء - على الأُنس بهذا الرسول، فهو ليس أجنبياً عنهم، بل هو واحدٌ منهم، هو هود.

ملاحظة يجب أن ننتبه إليها وهي:

أنَّ القرآن وصف هوداً بأنه أخٌ لقومه عاد، ولم يوصف نوح بذلك، فلماذا؟

والجواب: إنَّ الناسَ في زمن نوح لم يكونوا قد انقسموا إلى شعوبٍ وقبائل، لأن نظامَ القبائل ما حدث إلا بعد الطوفان.

قال المفسرون: بيّنَ لهم هودٌ أنه مُرسلٌ إليهم، وأنه واحدٌ منهم، فعرَّفهم بنفسه وبرسالته وذلك قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الشعراء].

وبيّن لهم أنه مُبلِّغٌ لهم رسالة السماء فقال: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأعراف].

وقال: ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الشعراء].

والتقوى تستلزم أمرين:

أولاً: تعظيمُ الخالقِ الذي خلقكم وأعطاكم، وعادٌ بكفرِها فقدت تعظيم

الخالقِ.

ثانياً: تستلزمُ التقوى الإحسان إلى الخلق، وعادٌ بسلوكها الظالم ابتعدت وانحرفت عن الإحسان للخلقِ، ولذلك قال لهم هود: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الشعراء].

قال العلماء: ترك الله لنا العدَّ؛ لأننا نعرفُ ما أمدَّنا به جيداً، فما من آلة عندك إلا وتحتها نعمةٌ أو نِعَمٌ، فالعينُ ترى، والأذنُ تسمع، والأنفُ يشم، واللسانُ يتكلم، فعُدّوا أنتم نِعَمَ الله، واشهدوا على أنفسكم.

ثم فصَّلَ فقال: ﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [الشعراء]، ولما فصَّلَ بدأ بذكر «الأنعام» لأنها أعظم نعمةٍ على أهل ذلك البلد، حيث منها أقواتُهم ولباسُهم، وعليها أسفارُهم.

وعطفَ عليها البنين؛ لأنهم نعمةٌ عظيمةٌ، لأنها أُنسُهم وعونُهم على أسبابِ الحياة، وبقاءُ ذكرِهم بعدَهم، وكثرةُ أُمَّتهم.

ثم عطفَ عليها الجناتِ والعيونَ؛ لأنها بها رفاهيتُهم، واتساعُ رزقهم، وعيشُ أنعامهم، ثم قال: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾، أي إذا لم تتقوا.

ثم بيَّن لهم بعد تكرار دعوتهم إلى التوحيد، أنه لا يريد أجراً على ذلك، قال تعالى حاكياً عن هود قوله لهم: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [هود].

وقال: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

[الشعراء].

قال العلماء في تفسيرهم لهاتين الآيتين: يقول هود: أنا لا أطلب جُعلاً، ولستُ بطامعٍ في أموالكم في دعوتي لكم، وهكذا يجب أن يكون الدعاةُ إلى الله على طريق الأنبياء.

وقال العلماء: ما من رسول إلا خاطب قومه بمثل هذا الخطاب: ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الشعراء].

والغاية من هذا القول، إبعادُ التهمة حتى لا يظنوا الطمعَ في الداعي بما في أيديهم، ثم لتكون النصيحة خالصةً، فإن النصيحة لا تنفع إلا إذا كانت خالصةً لله، وغير مشوبةٍ بالطمع في أمر من أمور الدنيا.

وقد روى أهل المواعظ، عن بعض أهل العلم من المشايخ: أنه كان له «سنّور»، وكان يمرُّ كل يوم على جارٍ له لحّام، يعطيه شيئاً من الغدد أو العظام أو الأعصاب لهذا السنّور.

وفي يوم من الأيام رأى الشيخ على هذا القصاب منكراً، فدخل الشيخ بيته وقال لزوجه: أعطني كيساً، فأعطتْه، فوضع فيه السنّورَ وأخرجه إلى مكانٍ بعيد، وسرَّحَهُ هناك حتى لا يعود إلى البيت، ثم جاء إلى اللحام ونصحهُ بأن يجتنب هذا المنكرَ الذي رآه عليه، فغضب اللحام منه، وقال له: لن أُعطيَكَ شيئاً لسنَّورك بعد اليوم؟!! فقال الشيخ: يا هذا والله ما نصحتُك واحتسبتُ عليك إلا بعد إخراج السنَّور من بيتي وقطعِ الطمعِ منك حتى يكون نُصحي خالصاً لوجه الله تعالى.

وقلوب الأنبياء مُطهّرةٌ، ومَنْ على طريقهم من الدعاةِ، مُطهَّرةٌ قلوبهم كذلك، فهم يريدون بدعوتهم تكثيرَ أهل التوحيد، وإخلاص الدعوة لله

تعالى، لا لمنفعةٍ دنيوية، فإن الآخرة خيرٌ وأبقى، لذلك فإن الذي يبتغي بدعوته منافعَ الدنيا فهو جاهل، ولذلك قالوا في الأمثال: «أجهل من داعي ثمانين من الضأن»، ولهذا المثل قصة ذكرها ابن خالويه فقال: هو رجل قضى للنبي ﷺ حاجة، فأراد النبي ﷺ أن يكافئه، فقال له: «ائتني بالمدينة»، فأتاه الرجل، فقال له النبي ﷺ: «أيهما أحبُّ إليك ثمانون من الضأن، أو أدعوَ الله أن يجعلك معي في الجنة؟» فقال الرجل: بل ثمانون من الضأن؟!!، فقال ﷺ: «أعطوه إياها»، ثم قال ﷺ: «إنَّ صاحبة موسى كانت أعقل منك».

وقصة عجوز موسى، رواها المؤرخون، ملخصها أنَّ موسى أراد أن ينقل جثمان يوسف عليه السلام إلى فلسطين ليدفن عند آبائه، وكان مكان القبر مجهولاً تعرفه عجوزٌ مسنة، فدعاها موسى وطلب منها أن تدلَّه على القبر فدلَّتهُ، فأراد موسى أن يُكافئها فقال لها: أيُهما أحبُ إليك، أن أسألَ الله تعالى لتكوني معي في الجنة، أو مائة من الغنم؟ قالت: الجنة والله، ولذلك قال النبي ﷺ: «إن صاحبة موسى كانت أعقل منك».

من هنا لم يقبل علماء السلف أُجرةً على الوعظِ والإمامةِ والخطابةِ والتأذين لكمال محافظتهم على دينهم، ومن جميل قول بعض أهل العلم:

إن مقام الدعوة إلى الله يقتضي الإجارة، فإنه ما من نبي دعا إلى الله إلا قال: ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾، فأثبتَ أجراً على الدعوة، ولكنه اختار أن يكون أجرُهُ من الخالق لا من المخلوقين، البروسوي ٦/ ٩٦.

قال أهل العلم: دعاهم إلى الله، ثم ذكَّرهم بعظيم مِنَّةِ الله عليهم بأن زادهم بَسْطَةً في الخَلْقِ، قال تعالى حاكياً لنا قول هود لهم: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ [الأعراف]، ليأخذوا العبرة من قوم نوح، لأن قوم نوح هم أول من عُذِّبوا حين كفروا، وجاء هود إلى

عاد بعد ذلك، ثم ذكَّرهم بنعَم الله عليهم فقال: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ﴾ البَسْطَةُ: الزيادة في القوى الجِبلِّيَةِ.

قال ابن عاشور: أي زادهم قوةً في عقولهم وأجسامهم، فَخَلَقَهُمْ عُقلاءَ، أصحاءَ، وقد اشتهر عند العرب نسبةُ العقول الراجحة إلى عادٍ، كما نَسَبُوا كمالَ قُوى الأجسام إليهم.

قال النابغة:

أحلامُ عادٍ وأجسامٌ مطهرةٌ ... من المَعَقَّةِ والآفاتِ والإثمِ

وقال ودَّاك المازني:

وأحلامُ عادٍ لا يخافُ جليسُهم ... ولو نَطَقَ العُوّارُ غَرْبَ لِسانِ

قال المؤرخون: كانوا أقوياء، قلَّ من يمرضُ فيهم، وقلَّ أن تُشاهَدَ فيهم جنازة، واستعملوا قوتهم في الظلم والبطش، كما استعملوا نِعَمَ الله في العبث، وفي بعض التفاسير مبالغاتٌ في ذكر قوتهم لا أصلَ لها، وإنما هي أخبار إسرائيلية،وكل ما ورد في آثار المسلمين، «أنَّ الرجل منهم يحمل المصراعين من الحجارة لو اجتمع عليه عدة رجال من هذه الأمة لم يُطيقوه»، رواه شهر بن حوشب عن أبي هريرة.

وورد عن أبي هريرة قوله: إنَّ الواحد منهم ليَغمز الأرضَ برجله، فتدخلُ فيها.

قال العلماء: هذه القوة دفعتهم للاستكبار والظلم، وقد بيَّن القرآن الكريم ذلك: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا

﴿قُوَّةً﴾ [فصلت١٥].

والاستكبار: المبالغة في الكبر، وهو التعاظمُ واحتقارُ الناس، وخصَّ القرآن من مساوئهم «الاستكبار»؛ لأن تكبُّرَهم هو الذي صَرَفهم عن اتباع الرسول، وعن توقع العذاب.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ قال ابن عاشور: هذه العبارة لزيادة تشنيع استكبارهم؛ فإن الاستكبار لا يكون بحقٍّ، إذ لا مُبَرِّرَ للكبْر بوجه من الوجوه؛ لأن جميع الأمور المغريات بالكبْر من العلم والمال والسلطان والقوة لا تجعل الإنسان خالياً من النقص، وليس للضعيف الناقص حقٌّ في الكبْر، ولذلك كان الكبْر من خصائص الله تعالى.

وهم قد اغترّوا بقوة أجسادهم، وعزة أُمتهم، وادَّعوْا أنهم لا يغلبُهُم أحد، وهذا معنى قولهم: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

فقولهم هذا هو سببُ استكبارهم؛ لأنه أورثهم الاستخفاف بغيرهم، فلما جاءهم هود يُنكر عليهم الشرك والطغيان والكبْرَ، عظُمَ عليهم ذلك؛ لأنهم اعتادوا الكبْرَ والظلمَ، فكذَّبوا رسولهم.

يروي المؤرخون: أن هوداً توجه إليهم مرةً في يوم عيدٍ لهم، ومُلوكُهُم على أسرّة الذهب، يتوسَّطهم الملك «الجُلْيانُ» أو «الجُلْيجان» على سرير من ذهب، وعلى رأسه تاجٌ مرصّعٌ بالجواهر، فدخل هود عليهم وناداهم بصوت مرتفع: «ياقوم اعبدوا الله ربي وربَّكم، ما لكم من إله غيره، وهذه الأصنام التي تعبدونها ستكون سبب هلاكِكم، كما أهلكت قوم نوح».

فلتفتَ الجليجانُ وقال لهود: يا هود، أتظن أنك بكلامك هذا تُخيفنا، أما تعرفُ كثرة جُموعنا، وشدَّة بأسنا، وعظيمَ قوتنا، أتظن أن تغلبنا بكلامك

وأنت تعلم أنَّ كل يوم وليلة يولد لنا ألف مولود أو أكثر.

قال القرطبي في قولهم: ﴿ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾: اغتروا بأجسامهم وقوتهم حين تهدَّدهُم هود بالعذاب وقالوا: ﴿ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾، نحن قادرون على دفع العذاب بقوتنا، وما أدركوا أنَّ قوتهم وقدرتهم إنما كانت بإقدار الله لهم، ولذلك ردَّ عليهم بقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [فصلت].

أي هل عمُوا أن الله الذي خلقهم هو أشدُّ منهم قوةً، إذ كل قوة لهم مصدرها الله، فهو خالقهم وواهب القوة لهم، فقوتُهُم ليست ذاتيةً ولكنها موهوبةً من الله، فإن أحدهم يُخلق وهو لا يقدر على شيء.

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً ﴾ أي له كمالُ القدرةِ، التي لها تأثيرها وتعلُّقُها بالممكنات على وَفق إرادته سبحانه لا يستعصي على تعلقِ قدرتهِ شيءٌ ممكنٌ، وكمال غناه عن التأثرِ للغير.

عندما رأى هود تَعَنُّتَهم واستكبارهم وبَّخهم فقال: ﴿ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعۡبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ ﴾ [الشعراء].

قال العلماء: رأى هود منهم إعراضاً عن الفكر في أمر الآخرة، وانصرفوا للشُّغل بأمور دنياهم، ورأى إشراكاً مع الله في إلهيته، وانصرافاً عن عبادته سبحانه وهو الذي خلقهم وأمدَّهم وزادهم في القوة على الأمم، فانصرفت همَمُهُم إلى التفاخر والتعاظم واللهو، وطال عليهم الأمدُ، وتفَنَّنوا في إرضاء الهوى، وأقبلوا على الملذاتِ، واشتدَّ غرورهم بأنفسهم فأضاعوا الجانِبَ الأهمَّ للإنسان وهو جانب تزكية النفس، وتركوا إرضاء الله لحبِّ الرئاسة، فعبدوا الأصنام، واستخفّوا بالرحمن، ورأوا الناصحين لهم حمقى.

وبَّخهم هود، وخصَّ توبيخه لهم بأمور ثلاثة:

الأول: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾، قال ابن عباس: الريع: المرتفعُ من الأرض.

قال: كانوا يبنون بكل مكانٍ مرتفعٍ بناءً عالياً يعبثون فيه بمن يَمُرُّ في الطريق إلى هود، وكانوا يبنون الأبنية التي هي آيةٌ في الفنِّ المعماري، لا ليسكنوا فيها وإنما ليتباهَوا من بناؤُه أعلى، وكأنَّ التباهي بالعلو.

وفي مصر يقولون: كم ريعٍ بناؤك، أي كم ارتفاعه.

وهذا توجيهٌ من هود لإنفاق المال فيما هو ضروريٌ ونافعٌ، لا للتفاخر الذي لا نفعَ فيه، إذ كيف يبني الإنسان البناء الضخم ولا يسكنه. وقد يجعلونها أبراجاً للحمام فقط، وكانوا يفعلون ذلك تفاخُراً بغناهم.

الثاني: والأمر الثاني الذي خصَّ هود توبيخهم من أجله فهو قوله: ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾، إنكارٌ لما هم فيه من الترف والتبذير، ظناً منهم أنَّ هذه الأبنية والقصور ستحميهم من الموت وتجعلهم خالدين.

فهنا المقامُ مقامُ وعظٍ لهم.

الثالث: فهو قوله: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾، وعظهم على شدّتهم على الخلق في العقوبة.

والجبارُ: هو القتّالُ بغيرِ حقٍ، والمتسلطُ العاتي، والإفراطُ في الأذى.

قال الرازي: وحاصِلُ الأمر في هذه الأمور الثلاثة:

الأول: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾، يدل على حُبِّ العلوِّ.

الثاني: ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾، يدل على حُبِّ البقاء.

الثالث: وهو الجبارية ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾، تدل على حُبِّ الانفراد بالعلو.

فأحَبُّوا العلوَ، وبقاء العلوِّ، والانفراد بالعلوِ، وهذه صفةُ الإلهية، وهي لا تحصلُ للعبد، فدلَّ ذلك على أنَّ حُبَّ الدنيا قد استولى عليهم، بحيث خرجوا عن حدِّ العبودية وحاموا حول الربوبية.

ولذلك قالوا: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾.

عندها قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [فصلت].

ماذا كان جوابهم على وعظ هود لهم، وتوبيخه إياهم؟

والجواب: كان جوابهم ما ذكره الله حاكياً قولهم: ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الشعراء].

كان جوابُهُم تيئيساً من أنْ يقبلوا إرشاده، فجعلوا وعظَهُ وعدم وعظِهِ سواءً، أي لن نستجيب لك أوعظتَ أم لم تعظ، فنحن لن نستجيب لوعظِك في الحال ولا في الاستقبال.

والوعظُ: زجرٌ مقترنٌ بتخويفٍ، وكلامٌ يُليّنُ القلبَ بذكر الوعد والوعيد.

والوعظُ: لا يكون إلا لمن علمَ حُكماً ثم تركه، فيأتي الواعظُ ليذكّره به، فالوعظُ مرحلةٌ ثانية بعد العلم، وقولهم هذا: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا ﴾، اعترافٌ منهم أنهم علِموا المطلوب منهم، ثم تركوه وغفلوا عنه، ثم مدحوا أنفسهم فيما هم

عليه من العادات والأخلاقِ، فهي عاداتُ أسلافهم، وآبائهم، وهم قدوةٌ لهم، ولن يقبلوا من أحدٍ لوماً على ما هم فيه فقالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧﴾.

وقولهم هذا يشبهُ قول أمثالهم لرسلهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠﴾ [إبراهيم].

وهكذا يُعلن الكفرةُ أنهم يُفضِّلون أن يكونوا أهل تقليد لآبائهم، ولو فكروا لعلموا أن التقليدَ لو شاعَ في الأمم لما ارتقى أحدٌ عن آبائه وأجداده.

ثم جاء ردُّهم على هود حين قال لهم: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣٥﴾، فقالوا: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨﴾، على ما نحن عليه من الأعمال والعادات.

قال المفسرون: ثم أغلظوا له القول، وبخاصةٍ الملأُ منهم، وذكرَ القرآنُ ذلك فقال: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦﴾ [الأعراف].

والسفاهةُ: سخافةُ العقل، أي السخافةُ تحيطُ بك من كل جانب لأنك لم تثبتْ على دين آبائك وأجدادك، بل قمت تدعو إلى دينٍ جديد تحتقرُ فيه الأولياء الصالحين الذين اتخذتْ الأمةُ لهم تماثيلَ لتخليد ذِكْرِهم، والتقرُّبِ إلى الله تعالى بشفاعتهم.

قال ابن عباس: كانوا أصحاب أوثان يعبدونها، ثم قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦﴾، أي في دعوى الرسالةِ.

ثم جاء الردُّ من هود عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي

﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٦٧ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨﴾ [الأعراف].

يا قوم ليس بي ما تَصِفُون، ولكني رسولٌ من ربِّ العالمين، والله أعلم حيث يجعل رسالته، ثم بيَّن وظيفته فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾، وأنا بذلك ناصحٌ لكم أريد بذلك الخير لكم، وأنا أمينٌ على وحي الله تعالى، فأنا لا أكذبُ عليكم، فكيف أكذبُ على ربي، وهذا معنى قوله: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ٦٨﴾.

قال ابن عاشور: الأمانة من أعزِّ أوصاف البشر، وهي من أخلاقِ المسلمين، وفي الحديث: «لا إيمان لمن لا أمانة له».

فذكر الإيمانَ في موضع الأمانةِ، والكذبُ من الخيانةِ، والصدقُ من الأمانة؛ لأن الكذبَ هو الخبر بأمرٍ غير واقع في صورةٍ توهمُ السامعَ أنه واقعٌ، وذلك خيانة للسامع، والصدق عكسُهُ.

قال العلماء: وفي ردِّ هود عليهم بمنتهى الحلم، وتركِ مقابلتهم بمثل ما يقولون دليل على حُسنِ أخلاق الأنبياء مع علمهم أن أعداءَهم أسفهُ الناس، وفي ذلك تعليمٌ من الله لعباده كيف يُخاطبون السفهاء، وكيف يصبرون عليهم وعلى أذاهم.

قال العلماء: ثم زاد استكبارُهم وزادَ عُتُوُّهُم، فكان: الدعاء الذي بعده البلاء: وذلك عندما تحدَّوه أن يأتيَ بالعذاب وقد قصَّ الله علينا قولهم: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠﴾ [الأعراف].

انظر - يا عبد الله - إلى هذا المنطقِ المعوجِّ، يرى أحدُهم الصنَم الذي

يعبُدُهُ، إذا اشتدتْ الريح يتحرك، وربما سقط على وجهه وتنكسرُ رقبتُهُ، فيذهبُ إلى الحداد أو النحاتِ ليُعيدَ تركيب رأس الصنم، فكيفَ يُعبد مثلُ هذا؟ ومع ذلك قالوا لهود: «لن نذرَ ما كان يعبدُ آباؤنا وإن كان إلهُك ينذرُنا بعذابٍ فأْتنا به إن كنتَ صادقاً».

وذلك قولهم: ﴿ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠ ﴾.

قال العلماء: وبهذا توضح لدينا أنه لا أملَ في إقناعهم بالدعوة إلى الإيمان، عندها كان الدعاءُ الذي أعقبهُ البلاءُ، بعد أن أفهمهم بأن الله تعالى غضبَ عليهم، وذلك قوله تعالى حاكياً ما قاله هود: ﴿ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١ ﴾ [الأعراف].

وقعَ: أي وَجَبَ، يُقال: وقعَ الحكمُ أو القولُ، أي وجبَ وقُدِّرَ.

والرجسُ: أي العذاب، والرجسُ: هو كل مستقذرٍ حسيٍ أو معنويٍ.

والغضبُ: هو الطردُ واللعنُ.

قال الآلوسي: وفي هذا الكلام من ذكرِ الرجسِ، ثم الغضبِ إشارةٌ إلى حالهم في الأولى - الدنيا - وفي الأُخرى.

الانهيارُ، وسببُ هذا الانهيارِ:

قال العلماء: كانت عادٌ أهلَ حضارةٍ مبكرةٍ، ثم انحرفتْ عن قيم السماء ورسالته التي دعاهم إليها هودٌ، فانهارتْ هذه الحضارة المبكرةُ المتينةُ في أيام، ولكن ما سببُ هذا الانهيار؟

نقول: إنَّ المقومَ الأول لأية حضارة هو «ارتباطها بالإيمان هدفاً وسلوكاً».

وهذا الارتباط هو الذي يُصحح لها الأخطاءَ، ويُنيرُ لها الطريقَ، وهو الذي يكبحُ من شرورهم، واسمع معي إلى خطاباتِ هود لهم، إذ بيَّنَ لهم فيها: تعطيلهم لعقولهم وكفرهم، وسلوكهم المنحرف.

اقرأ قوله تعالى: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [هود].

لقد عطَّلوا عقولهم، ونبَّههُم هود إلى هذا، ثم كفروا، وذلك ما ذكرته الآية من سورة [الأعراف]: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾، أي أفلا تتركونَ الكفرَ والشركَ وتعودون إلى التوحيد.

ثم نبَّههُم إلى السلوك المنحرف بقوله: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [هود].

قال أهل العلم: ولم يقل لهم هود: ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ إلا مِنْ بعدِ ما طمَّ فسادُهم، أي كثُرَ وانتشر وغمرَ.

قال العلماء: ووسط هذه الموجات المتعاقبة من: تعطيل العقل، والكفر، والسلوكِ المنحرف كان هلاكُهم يَكْمُنُ.

نُذُرُ الهلاك:

نقرؤها في عدة آيات من كتاب الله على لسان هود: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحقاف].

﴿ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأعراف].

أي انتظروا نزول العذاب الذي طلبتموه بقولكم: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾.

إني معكم من المنتظرين، ولكنني موقنٌ وأنتم مرتابون، وجادٌّ وأنتم هازلون، وأنَّ الرجسَ آتٍ لا محالة، لأنَّ المخبرَ هو الله، ولا توجد قوة ثانية تُغيّرُ مراداتِ الله في أن تكون أو لا تكون.

قال العلماء: وتوالت الأيام، ثم جاءت العواقبُ تترى.

وكان أولُ العذاب «حبس المطر»، وطال احتباسُهُ.

قال الخازن في «تفسيره»: لما تجبَّروا أمسكَ الله عنهم المطر حتى جُهدوا.

وقال ابن كثير: كان أولَ ما ابتدأهم العذابُ، أنهم كانوا مُمْحِلين، مُسْنِتين، فطلبوا السُّقيا، ومعنى مُسْنِتين: أي أصابهم الجدبُ، يُقال: أسنتوا: إذا أجْدَبوا، والسَّنَة: الجدبُ.

وفي الحديث أنه ﷺ قال: «اللهم أعني على مُضَرَ بالسَّنَة».

والمَحْلُ: الجفاف.

وكان عمر لا يُجيز نكاح «عام سَنَةٍ»، أي عام قحطٍ ويقول: «لعل الضيق يحملُهم على أن يُنكِحوا غير الأكفاء».

وقال محمد بن إسحق: لما أصَرُّوا على الكفر بالله تعالى، حَبَسَ عنهم القطْرَ ثلاثَ سنين حتى جُهدوا، وكان ذلك إنذاراً بقُربِ حلول العذاب عليهم.

وكان هودٌ أثناء انحباسِ المطر لا يقطعُ وعظهُ وتذكيرهُ، ويحثُّهم على التوبة والرجوع إلى الله ويقول لهم: إن فعلتم ذلك كشفَ الله عنكم الجدبَ، وجاءكم المطر، وإلى هذا أشارت الآية: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ

مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ [هود].

نلاحظ أنه بدأهم بطلبِ الاستغفار: وهو طلبُ المغفرة من الشركِ، ثم يتوبون إليه؛ لأن التوبة لا تصِحُّ إلا بعد الإيمان، والمعنى: اطلبوا الإيمان أولاً، فهو يَجُبُّ ما قبله، ثم أتبعوه بالطاعةِ فالتخليةُ قبل التحليةِ.

ونلاحظ أنَّ هوداً رغَّبهم بالمطر على الخصوص، والسبب، أنهم كانوا أصحابَ بساتينَ وزروعٍ، ولذلك رغَّبهم بالمطر المدرارِ، وهو المطر المتتابعُ وقت الحاجة إليه، ثم قال: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾، يزدكم قوةً روحيةً إلى قوتكم المادية. أو يَزِدْكُم إنْ تركتم الشركَ قوةً على قوة، بكثرةِ العدد، وصِحَّةِ الأجسام، وكثرةِ الأرزاقِ، لأنَّ كل ذلك يجعلكم أُمَّةً قويةً تستغنون عن الأُمم الأُخرى، وتكونُ الأُمَمُ بحاجة إليكم.

قال ابن عاشور: جعل جزاءهم على الاستغفار والتوبة إمدادهم بالمطر، لأنهم كانوا كما قلنا أهل زروعٍ وكروم، وكانوا يجعلون السِّدادَ لخزن المطر.

ثم قال: والظاهر أنَّ الله أمسكَ عنهم المطر سنين فتناقصَ رزقُهم ونسلُهُم جزاءً على شِرْكهم، فوعدهم هودٌ إن آمنوا، بكلِّ هذه الخيرات، وبخاصّةٍ كانت ديارُهم واسعةً من حضرموت إلى الأحقاف مُدُناً وقِباباً.

هنا، قد يقول قائل: ما علاقة الاستغفار بهذه المسألة الكونية؟

قالوا: إنَّ للكون مالكاً، لكلِّ ما فيه «من جماد وحيوان ونبات»، وهو الله القادرُ أن يُخرج الأشياء عن طبيعتها، فقد تأتي غيومٌ وتحسبُ أنها ممطرةٌ، لكنَّ الحقَّ قد يأمُرها فلا تُمطر، مثل ما قالوا عندما رأوا السحاب، ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَا﴾، فكانَ عذاباً، ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف]، إذن لا تَتَّكِلْ على السبب، بل اتكل على مالك الأسباب، إن شاء

فعل ما يشاء، وهو على كل شيء قدير، ولذلك قال: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢ ﴾ [هود].

والمدرارُ: هو المطر المتتابع وقتَ الحاجة، وليس فيه ضرر وقد ذكر البروسوي في تفسيره المسمى «روح البيان»: أنَّ «الحسنَ بن علي» وفدَ على معاوية يوماً، فلما خرج الحسنُ بعد اللقاء تبعهُ بعضُ حُجّابِ معاوية، فقال له: يا سيدي، إني رجلٌ ذو مال، ولا يولد لي، فعلِّمني شيئاً لعلَّ الله يرزقني ولداً؟ فقال الحسن بن علي: عليك بالاستغفار.

قال: فكان الرجل يُكثر الاستغفار، حتى ربما استغفر في اليوم أكثر من سبعمائة مرة، فحملت زوجتُهُ سنين متتابعةً حتى صار له عشرٌ من الأولاد أو أكثرُ.

وبلغ الخبر معاوية، فاستدعى الحاجب، وقال له: هلّا سألتهُ مِمَّ؟ أي ما الدليل على ذلك، أي الاستغفار وسيلةٌ للكثرة.

وبعد مدةٍ طويلة وفَدَ الحسن مرةً أُخرى على معاوية، فتقدَّم الحاجبُ وعرَّفه على نفسه، يا سيدي أنا الذي سألتُكَ.

ولكن، بارك الله فيك، مِمَّ ذلك؟

فقال الحسن رضي الله تعالى عنه: ألم تسمع قول هود لقومه: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ ﴾ [هود]. والأولاد قوة مع المال.

قال محمد بن إسحق بن يسار: لما أصرَّ قوم هود على الكفر بالله عز وجل، أمسكَ عنهم القَطر ثلاث سنين حتى جَهِدَهم ذلك، عندما أدركوا أنَّ مفاتيح

القطْرِ بيد من لا بُدَّ من التضرعِ إليه، «وهو الله»، فطلبوا السُّقيا منه.

ولكن: كيف كان ذلك؟

ذكر ابن كثير في كتابه «قصص الأنبياء»، كما ذكر الخازن في تفسيره، قال: كان من عادةِ الناس في ذلك الزمان، إذا جَهدهم أمرٌ يطلبون من الله الفرج، وطريقتُهم في هذا الطلب، أن يرسلوا وفداً منهم إلى مكان البيت الحرام – الحرم المكي – وكان معروفاً عندهم، وعند أهل ذلك الزمان، وكان البيتُ بيدِ العماليق، مقيمون عنده وحوله.

والعماليقُ: من سلالة «عمليقٍ بن لاوُذٍ بن سام بن نوح»، وكان سيدُ العماليق رجلٍ يُقال له: «معاوية بن بكر»، وكانت عادٌ أخواله، لأنَّ أُمَّه منهم واسمها «جلَّهذة ابنة الخيبريّ».

بعثت عادٌ وفداً كبيراً إلى البيت الحرام يُقارب السبعين رجلاً ليسْتَسْقوا لهم عند الحرم.

كان في الوفد مؤمن واحدٌ آمن بهودٍ وكتمَ إيمانه، اسمُهُ: «مرثد بن سعد بن عفير»، أو ابن سعيد.

قال المؤرخون: بدأ الوفد بزيارة ملك العماليق «معاوية بن بكر» وكان خارج الحرم، فأقاموا عنده شهراً، فأكرمهم لكونهم أخواله، فأتحفَهم بأطايب الطعام، وباتوا يشربون الخمور، وتُغنيهم مغنيتان اسمُهُما: «الجرادتان»، وهما قَيْنتان لمعاوية بن بكر أمير العماليق.

قال المؤرخون: لما عاشوا في ظل ذلك، من طعام وشراب وغناء، نسوا قومهم وطال مقامُهم فمكثوا عنده شهراً.

كان الحاكم يعلمُ سبب مجيئهم وهو الاستسقاء لقومهم لأنَّ قومهم في

شدةٍ، واستحيى أن يأمُرهم بالانصراف لحاجتهم وفي نفس الوقت أخذتهُ شفقةٌ على أخواله فهم في جَدْبٍ وقلة ماء ينتظرون نتائجَ السُّقيا، فكان يقول: هلكَ أخوالي، والله ما أدري ماذا أفعل.

استشار مَنْ حوله، فأشاروا عليه أن يعملَ شِعراً ويدفعُهُ إلى الجاريتين، ويأمُرهما بالغناء بهذا الشعر. فعملَ أبياتاً من الشعر ودفعها إلى المغنيتين لتقوما بالتنفيذ، وكان كبير وفد عاد الآتي إلى الحرم للاستسقاء اسمه: «قيلُ بن عنزٍ».

أُحضرَ الطعام فأكلوا، وشُربت الخمور، وقامت المغنيتان بالغناء بالشعر الذي أُعطي لهما، والذي فيه تعريضٌ بالانصراف إلى قومهم، للاستسقاء، وأداء المهمة، والعودة إلى الديار، ومن هذا الشعر:

ألا يا قَيْلُ ويحكَ قم فهيْنم	لعلَّ الله يُصبحُنا غماما
فيسقي أرضَ عادٍ إنَّ عاداً	قد أمسوا لا يُبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو	به الشيخ الكبيرَ ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير	فقد أمست نساؤهم أيامى
وإنَّ الوحشَ يأتيهم جهاراً	ولا يخشى لعاديٍّ سهاما
وأنتم ههنا في ما اشتهيتُم	نهارُكم وليلكم التماما
فقُبِّحَ وفدُكم من وفدِ قوم	ولا لُقّوا التحية والسلاما

قال الراوي: عند ذلك تنبَّهَ القوم، فنهضوا إلى الحرم، ودعوا لقومهم.

قال صاحب كتاب «نظرات في أحسن القصص»: لما نهضوا للاستسقاء في الحرم قال لهم: «مرثد بن سعد بن عفير» وكان من المؤمنين بهود وهو يكتم إيمانهُ: إنكم والله لا تُسقَوْنَ بدعائكم، ولكن إن أطعتم نبيَّكم، وأَنَبْتُم إلى

الله سُقيتم، فانكشفَ أمرُهُ وأعلنَ إيمانه، فلما ذهبوا للدعاء، انفردَ «مرثد» في البيت وهو يقول: «اللهم لا تُشركني في دعائهم».

وقال لهم: إنكم والله لا تُسقونَ بدعائكم، ولكن إن أطعتم نبيكم، وأنبتم إلى ربكم سُقيتم، فأظهرَ إسلامه وقال:

عصت عادٌ رسولهم فأمسوا عِطاشاً ماتَبُلُّهم السماءْ
لهم صنمٌ يُقالُ له صمودٌ يُقابلُهُ صداء والهَباءْ
فَبَصَّرنا الرسولُ سبيلَ رُشد فأبصرْنا الهدى وجلا العَماءْ
وإنَّ إلَه هودٍ هو إلهي على الله التَّوكُلُ والرجاءْ

وهكذا كانت قصةُ هذا الوفد من عاد إلى الحرم طلباً للاستسقاء.

وقفَ زعيمُ الوفدِ «قَيْلُ» في مرتفعاتِ مَهَرَ وقال: إني لم أجئ لمريضٍ فأُداويه، ولا لأسيرٍ فأُفاديه، اللهم فاسقِ عاداً ما كانت تسقيه، فجاءهم السحابُ الأسودُ الذي كان فيه هلاكُهم.

قال أبو وائل: فكانت العرب إذا بعثوا وافداً إلى حاجة يقولون له: «لا تكنْ كوافدِ عادٍ».

وقد روى الإمام أحمد في مسنده حديثاً يُشير إلى قصةِ وفدِ عادٍ، والحديث مرويٌّ عن الحارث بن يزيد البكري قال: خرجتُ أشكو العلاءَ بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فمررتُ «بالرَّبَذَةِ»، وهي من قرى المدينة، فيها قبر أبي ذر الغفاري، فإذا عجوزٌ منقطعٌ بها، فقالت لي: يا عبد الله، إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مُوصِلي إليه؟ قال: فحملتُها إلى المدينة، والمسجدُ غاصٌّ بأهله وإذا رايةٌ سوداءُ تخفقُ، وبلال متلقدٌ السيف بين يدي رسول الله ﷺ، فقلتُ: ما شأنُ الناس؟ قالوا: يريدُ أن يبعثَ عمرو بن العاص وجهاً.

قال: فدخل رسول الله ﷺ بعد أن فرغ إلى منزله، فاستأذنتُ عليه فأذن لي، فدخلت وقعدتُ، فقال لي رسول الله ﷺ «هل كان بينكم وبين تميم شيءٌ؟»

قلت: نعم يا رسول الله !! وكانت الدَّبَرَةُ عليهم، أي الهزيمة، وقد مررتُ «بالربذةِ» يا رسول الله بعجوز تريد المجيء إليك، فسألتني أن أحملها معي فحملتُها، وها هي بالباب، وأذنَ لها رسول الله ﷺ فدخلت وجلست.

يقول الحارث، ثم قلتُ للنبي ﷺ يا رسول الله: اجعل بيننا وبين تميم الدهنا حاجزاً؟

فحميتْ العجوز واستوفزَتْ، وقالت: يا رسول الله: فأينَ تضطرُّ مُضَرَّكَ؟

قال الحارث: قلتُ ما قال الأول: معزى حملَتْ حتفاً.

ثم قلتُ لها: وحملتُكِ تكونينَ عليَّ خصماً !! أعوذ بالله أن أكون كوافدِ عادٍ !! فقال رسول الله ﷺ: «وما وافدُ عادٍ؟»

قلتُ: يا رسول الله، على الخبيرِ سَقَطْتَ !!

وكان ﷺ بسؤاله لي: «وما وافد عاد؟» يستطعمُني الحديث وهو أعلمُ بالحديث مني، ثم قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا «قيلاً» وافداً يستسقي لهم، فنزلَ الوفد على «بكر بن معاوية» أو «معاوية بن بكر»، فسقاهم الخمر، وغنتهم الجرادتان شهراً، ثم استَسْقوا لقومهم، فكان هلاكُهم في هذا الاستسقاء، ولذلك ذهبت مثلاً «لا تكن كوافد عادٍ».

قال العلماء: وجاءهم السحابُ بعد طلبِ السُقيا من جهة وادٍ من أوديتهم يُقال له «المغيث»، وقيل «المُعْتِب»، فلما رأوه استبشروا وقالوا مستهزئين بهودٍ الذي كان قد هدَّدَهُم بالعذاب: هذا الذي كان هود يعدُنا، وهو الغيثُ،

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحقاف].

والعارضُ: هو السحاب الذي يعترض جوَّ السماء، وفي الأُفق كأنه الجبل:

يا من يرى عارضاً قد بِتُّ أرمُقُهُ كأنَّ البرقُ في حافاتِهِ الشُّعَلُ[1]

ومستقبلَ أوديتهم: أي سائراً نحو أوديتهم.

والأوديةُ: جمع وادٍ، وهذا الجمعُ نادرٌ مثلَ: نادٍ و أنديةٍ، بل هو على غير قياس؛ لأنَّ جمعَ وادٍ: «أوْداء»، وهو الانفراجُ بين جبلين. أما هنا فالجمع على أوديةٍ فله معنى آخر، وهو منازل القوم غالباً، مثل نادٍ وأنديةٍ، وذلك للدلالة على كثرة منازلهم وانتشارها.

لما حصل بين سعد بن معاذ بمكة من جدال مع أبي جهل، ورفع سعد صوته، قال له أُمية: لا ترفع صوتك على أبي الحكم سيد أهل الوادي.

وقولهم ممطرُنا: تدلُّك على شدةِ حاجتهم للماء والسقيا.

ويروي الطبري عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ ﴾.

قال: ذُكر لنا أنهم لما رأوا ذلك السحاب قالوا: كذبَ هودٌ، كذب هود، فلما خرج نبيُّ الله هود وشامَه «استطلعهُ ورآه»:

نَشيمُ بُرُوقَ المُزْنِ أيـنَ مَصابُهُ ولا شيء يشفي منك يا ابنةَ عفزرا

قال ما ذُكِرَ في ختام الآية: ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحقاف].

قال العلماء: ونلاحظ أنَّ فِعْلَ القول في الآية محذوفٌ، يعني لم يَقُلِ القرآنُ

---

(١) الأعشى.

«قال»، ﴿ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ ﴾.

وحذفُ فعل «قال» تمثيلٌ للقائل كالحاضر وقتَ نزول العذاب، فهو قد عَلِمَ غرورهم وكفرهم، فنطقَ بهذا الكلام ترويعاً لهم، فهو استحضارٌ للحالة العجيبة التي ستمرُّ بهم، وهذا يُسمى في الكلام البليغ: «التخيّل»، وهذا مثل قول «مالك بن الريب»:

دعاني الهوى من أهل وُدّي وجِيرتي ... بـذي الشَّـيِّطين فالتفـتُ ورائيـا

فتخيَّـلَ داعيـاً يدعـوه فالتفـت، وهـذا يـدل عـلى الـكلام البليـغ المؤثـر.

قال العلماء: من هنا كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح خاف، ففي صحيح مسلم من حديث عائشة قال: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخيرَ ما فيها وخير ما أُرسلتْ به، وأعوذ بك من شرها، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أُرسلتْ به».

قالت عائشة: وإذا غيَّمت السماء تغيَّرَ لونُهُ، وخرج ودخل وأقبَلَ وأدبرَ، فإذا أمطرتْ سُرِّيَ عنه، فعرفت عائشة ذلك فيه، فسألتْهُ فقال ﷺ: «لعلَهُ يا عائشة كما قال قومُ هود ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ ﴾.

وفي الصحيحين عن عائشة قالت: ما رأيتُ رسول الله ﷺ ضاحكاً حتى أرى منه لَهواتِهِ، إنما كان يبتسمُ، وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرِفَ ذلك في وجهه.

قلتُ: يا رسول الله، الناسُ إذا رأوا الغيمَ فرحوا أن يكونَ فيه المطر، وأراكَ إذا رأيتهُ عُرِفَ في وجهك، فقال ﷺ: «يا عائشة، وما يُؤَمِنُني أن يكون فيه عذابٌ، وقد رأى قوم هود العذاب فقالوا: ﴿ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ ﴾».

ثم تابع هود وصف الريح فقال: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف ٢٥]، أي كلَّ شيء أراد الله تدميره من ناس أو شجر أو ديارٍ أوحيوانٍ أو نباتٍ؛ لأنه سبحانه لم يُرد تدمير الجبال أو تدمير العالم.

وقوله: ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾، حالٌ من الضمير في (تُدمِّرُ)، لتُبيِّنَ لنا أنه كان تدميراً عجيباً بسبب أمر ربها، فالباءُ للسببية.

وماذا كانت النتيجة؟

قال تعالى بعدها بنفس الآية: ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحقاف].

و﴿ فَأَصْبَحُوا ﴾ هنا بمعنى صاروا، وليس المرادُ أنهم دُمِّروا ليلاً، لأنهم دُمِّروا أياماً وليالِيَ، فبعضُهم هلكَ في الصباح، وبعضُهم هلكَ مساءً أو ليلاً، «فأصبحَ» هنا من أخوات صار.

وقوله: ﴿ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ ﴾، المرادُ بالمساكن هنا، آثارُها وبقاياها وأنقاضُها بعد أن قلعَ الريحُ معظمها.

ثم ختمت الآية بتهديدٍ لمشركي مكة، ومشركي قريش، وإنذارٍ بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

أي كما عاقبنا عاداً بكفرهم بالله من العقاب الدنيوي العاجل فأهلكناهم، كذلك نجزي كل من تمادى في الكفر والغيِّ من خلْقِنا.

وفي سورة الذاريات وصف القرآن هذه الريح بأنها عقيم قال: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الذاريات]، وصف الريح بوصفين: العُقمُ، والإضرارُ الشديدُ.

الريح العقيم: هي الريح التي لا منفعةَ فيها من إلقاحِ شجرٍ، أو إنشاء

مطرٍ، والعربُ يكرهون العُقمَ في مواشيهم.

فصار المعنى: إنها ريحٌ كالناقة العقيم، لا تُثمر نسلاً ولا درّاً.

والرّميمُ: الشيء المفتَّتُ البالي، ومنه قول جرير يرثي ولده:

تركتني حين كفَّ الدهرُ من بصري وإذ بقيتُ كعظمِ الرِّمةِ[1] البالي

قال الخازن وابن كثير: أول من أبصرَ البلاءَ امرأة يُقال لها «مَهْدٌ»، لما رأت السحابَ من بعيدٍ صرخت صرخةً مدويةً ثم صُعقت – أغمي عليها – فلما أفاقت قالوا: ماذا رأيتِ؟ قالت: رأيتُ ريحاً فيها شبهُ النار أمامها رجالٌ يقودونها.

وذكر الآلوسي وابن كثير عن ابن عباس: أنَّ أولَ ما عرفوا أنه عذابٌ، لما رأوا أغنامهم ورُعاتهم ودوابَّهم التي كانت في الصحراء تتطلبُ شيئاً تقتاتُ به، رأوها تطيرُ بها ريحٌ بين السماء والأرض مثل الريش، وتقتلعُ الرجل من الأرض فترفعُهُ إلى عَنان السماء، ثم تُنكسهُ على أمِّ رأسه فتشدخَهُ فيبقى بدناً بلا رأسٍ، وذلك قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠ ﴾ [القمر].

وقوله ﴿ صَرْصَرًا ﴾: هي الريحُ الشديدةُ العَصُوف في بردٍ، أي لصوتها صريرٌ.

وقال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ۝١٦ ﴾ [فصلت].

---

(١) الرِّمةِ: هي العظام البالية، جمعُها رِمَمٌ، ورِمامٌ.

وقال عز وجل: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ ﴾ [الحاقة].

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ ﴾ [القمر] أي ابتدأ العذابُ في يوم نحسٍ عليهم ثم استمر هذا النحسُ سبعَ ليالٍ وثمانية أيام.

والريح: قوة دائبةُ العمل وفقَ النظام الكوني الذي قدَّره الله تعالى، وهو سبحانه الذي يُسلطها حين يُسلطها للتدمير، وهي ماضيةٌ في طريقها الكوني تعمل وَفق الناموس المرسوم.

قال العلماء: والريح الصرصر لها ثلاث خصائص:

الأولى: شديدةُ الهبوب، تنزعُ نزعاً، وهو ردٌّ على قولهم: ﴿ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾.

وقد روى ابن إسحق قال: لما هاجت الريحُ قام نفرٌ من عادٍ وهم سبعةٌ منهم ستةٌ كانوا من أشدِّ عادٍ وأجسمِها فيهم: عمرو بن الحُلَيّ، والحارث بن شداد، والهلقام، وابنا تَيْقَنٍ، والخلجانُ، فأدلجوا العيالَ في شعبٍ بين جبلين، ثم اصطفوا على باب الشعب ليردُّوا الريح عمّن بالشِّعب من العيال، وأخذوا بأيدي بعضهم، فأخذت الريح تخفِقُهم رجلاً رجلاً، فقالت امرأة من عاد:

ذهبَ الدهرُ بعمروِ بـــن حليٍّ والهنيات
ثـم بالحـارث والهِلْـــ قامِ طـلاعِ الثنيات
والـذي سـدَّ علينـا الر يح أيـامَ البليّات

وقد حدَّث البيروتي عن ابن عياش عن محمد بن إسحق قال: لما هبت الريح قام سبعةٌ من عاد قالوا: نردُّ الريح، فأتوا فَمَ الشِّعْب، فوقفوا فيه،

فجعلت الريح تهُبُّ، فتدخُلُ تحتَ الواحد فتقتلعُهُ من الأرض فترمي به على رأسه فتندقُّ رقبتُهُ ففعلت ذلك بستةٍ منهم، وتركتهم كما قال تعالى: ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [القمر]، وبقيَ «الخلجانُ»، فأتى هوداً فقال: ياهود، ماهذا الذي أرى في السحاب كهيئةِ البَخاتي؟

قال هود: تلك الملائكة، قال «الخلجان»: ما لي إن أسلمتُ؟

قال: تسلمُ، قال: أيُقيدني ربي من هؤلاء إن أسلمتُ؟

فقال هودٌ: ويلكَ، أرأيتَ ملكاً يُقيد جنوده؟

فقال الخلجان: وعِزتِهِ لو فعل ما رضيتُ، ثم مال إلى جانب الجبل، فأخذَ بركنٍ منه يريد أن يهُزَّه، ثم جعل يقول:

لم يبقَ إلا الخلجانُ نفسُهُ   يا لك من يومٍ دهاني أمسُهُ
بثابتِ الوطءِ شديدٌ وطسُهُ   لو لم يجئني جئتُهُ أجُسُّهُ

قال ابن إسحق: ثم ألحقتهُ الريح بأصحابه، ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

و﴿ أَعْجَازُ ﴾: أُصول النخل المقطوعة التي تُقلع من منابتها لموتها إذ تزولُ فروعها، ويتحاتُّ ورقُها، فلا تبقى إلا الجذوع الأصلية، فلذلك سُميت أعجازاً، والعجُز: أسفل الشيء.

و﴿ مُّنقَعِرٍ ﴾: يُقال: قَعَرَ البئرَ: إذا بلغَ قعرَهُ بالحفرِ، أي كأنهم أصول نخل قُعِّرت دواخِلُهُ.

قال ابن عاشور: وفي ذلك إشارة إلى أنَّ الريح صرعتهم صرعاً، تفلَّقت منه بطونهم، وتطايرت أمعاؤهم، وأفئدتهم، فصاروا جثثاً فُرَّغاً، وهذا تفظيعٌ

لحالهم وتخويفٌ لمن يراهم.

الثانية: الريح الصرصر: أنها ذاتُ بردٍ شديد محرقٍ - أي يلسعُ لسعاً - مأخوذ من الصِرِّ وهو البرد الشديد، ومنه قول حاتم الطائي لغلامه:

أوقــدْ فــإنَّ الليلَ ليلُ قَرُّ   والـريـحُ يا واقـدُ ريـحٌ صِرُّ
عــلَّ يــرى نــارك مــن يمرُّ   إن جلبت ضيفاً فأنت حرُّ

وقال عطاء: الصِرُّ: بردٌ وجليد، وهو يَحرِق الزروع كما يُحرَقُ الشيء بالنار، ومنه قوله تعالى: ﴿ **مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ١١٧ ﴾ [آل عمران].

فالكافر مهما أنفق من مال في مؤسساتٍ، أو في أعمال خير، وهو لوحدانية الله جاحدٌ، ولمحمدٍ ﷺ مُكذبٌ، فإن ذلك لا ينفعُهُ، ومثلُهُ كمثلِ قومٍ زرعوا زرعاً تأملوا نفعهُ وثمرتَهُ، فجاءته ريح عاصفٌ فيها بردٌ شديدٌ فأهلكتهُ.

الثالثة: أنها مصوتَةٌ يُسمعُ لهبوبها صوتٌ شديد، وهذا الوصف «الصرصر» مأخوذ من «الصَرَّةِ» وهي الصيحةُ القويةُ المزعجةُ، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٍ ﴾ [الذاريات ٢٩] امرأةُ إبراهيم لما بُشِّرت بالحمل صاحت متعجبةً لأنها عجوز عقيم، ومنه صرَّ الباب: إذا صوَّت، وصريرُ القلم كذلك.

نقف عند قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت ١٦]. وعند قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ١٩ ﴾ [القمر]، أي في يوم شُؤْم مستمر، ومستمرٌّ: صفة لنحس لا ليوم، أي نحسٍ دائم حتى أبادهم، أو استمر بهم البلاء حتى وافَوْا جهنم.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ ﴾، أي نكداتٍ مشؤومات.

هنا لا بد أن نشير إلى معتقد باطل، وهو أنَّ كثيراً من الناس يتشاءمون من يوم الأربعاء حتى من بعض طلبة العلم، وقالوا: إن البلاء على عاد كان يوم الأربعاء، وانتهى يوم الأربعاء، فهو يومُ شؤم، وبعض الناس لا يُسافرون يوم الأربعاء ولا يتزوجون ظانين أنه يوم شؤم على جميع الخلق، وفي كل الأزمنةِ، حتى أنَّ بعضهم كره عيادة المريض يوم الأربعاء وقالوا:

لم يُؤْتَ في الأربعا مريضٌ   إلا دفناه في الخميسِ

قال صاحب «أضواء البيان» رحمه الله تعالى: وهذا لا أصلَ له، ولا مُعَوَّلَ عليه، ولا يلتفت إليه من عنده علمٌ.

ثم قال رحمه الله: إنَّ نحسَ ذلك اليوم مستمر على عادٍ فقط الذين أهلكهم الله فيه حيث اتصل بعذابهم في ذلك اليوم عذابُ البرزخ بعد موتهم، ثم بعد البرزخِ الآخرة، فهو يوم بلاء مستمر على عاد وحدهم، أما غيرهم فلا يُؤاخذون بذنوب عادٍ؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ٣٨ ﴾ [النجم]، وقد استشهد القائلون بشؤم يوم الأربعاء بأحاديث واهية، من ذلك ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس أنه ﷺ قال: «آخرُ أربُعاء في الشهر يوم نحس مستمر»، والحديث كذبٌ على رسول الله ﷺ كما جزمَ ابن الجوزي.

وقال السخاوي: كلُ طُرقِهِ واهية.

وقال ابن رجب: الحديث لا يصحُ، ورفعُه غير متفقٍ عليه.

وقال الآلوسي: وأخذ بهذا الحديث كثير من الناس فتطيروا به، وذلك مما

لا ينبغي؛ لأنَّ الحديث في سنده: «مسلمةُ بن السلط» وهو متروك.

قال صاحب «أضواء البيان»: وكل ما ورد من هذه الروايات ضعيف، وما صحَّ منها فمعناه أنه يوم شؤم ونحس على أولئك الكفرة والعصاة، ثم قال: والحاصل أن النحس والشؤم إنما مَنْشَؤُه وسببُهُ الكفرُ والمعاصي.

ومن الآثار الضعيفة التي احتج بها من قال: بأنَّ يوم الأربعاء يوم شؤم، ما ورد في كتاب «الفردوس»، أنَّ النبي ﷺ قال: «لولا أن تُكرَهَ أُمتي لأمرتُها أن لا يُسافروا يوم الأربعاء، وأحبُ الأيام إليَّ الشخوص يوم الخميس».

قال الآلوسي: وهذا الحديث غير صحيح، ومن ذلك ما ورد أنه ﷺ قال:«يوم السبت يوم مَكْرٍ وخديعة، ويوم الأحد يوم غرس وبناء، ويوم الإثنين يوم سفر، ويوم الثلاثاء يوم حديد وبأس، ويوم الأربعاء لا أخذ ولا عطاء، ويوم الخميس يوم طلب الحوائج والدخول على السلطان، ويوم الجمعة يوم خطبة ونكاح».

قال السخاوي: وهذا الحديث ضعيف، وهناك من يقول: لا تُقصُّ الأظافر يوم الأربعاء؛ لأن ذلك يُسبب البرص، وأن الجذام والبرص لا يبدوان إلا يوم الأربعاء، وكل ذلك لا أصل له، ورحم الله المناوي حين نقل عن البحر فقال: التطيُّرُ من فعلِ الجاهلية، ثم قال: والحاصل: إنَّ توقي يوم الأربعاء على جهة التطيُّرِ، وظنُّ المنجمين حرامٌ شديد التحريم، إذ الأيام كلها لله تعالى لا تضر ولا تنفع بذاتها، ثم قال: ومن تطيَّرَ حاقت به نُحوسَتُهُ، ومن أيقنَ بأنه لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل، لم يؤثر فيه شيء من ذلك.

ويقول الآلوسي: ويكفي في هذا الباب - أي إبطال التشاؤم بيوم الأربعاء- أنَّ حادثةَ عادٍ استوعبت أيام الأسبوع كلها، قال تعالى:﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة ٧]، فإذا كانت النحوسةُ

لذلك فقل لي: أيُّ يوم من أيام الأسبوع خلا منها؟

قال العلماء: وكما أنَّ التشاؤم والنُحوسة في الأيام باطلٌ ولا يصحُّ منه شيء، كذلك لا يجوز تخصيص كل يوم من أيام الأسبوع بعمل.

وقد روى الحافظ الدمياطي أبياتاً نسبها إلى عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه وهي:

فنعم اليوم يوم السبت حقاً ... لصيدٍ إنْ أردتَ بلا امتراءِ
وفي الأحد البناءُ لأنَّ فيه ... تبدّى الله في خلقِ السماءِ
وفي الإثنين إنْ سافرت فيه ... ستر جعُ بالنجاحِ وبالثراءِ
ومن يُردِ الحجامةَ فالثلاثا ... ففي ساعاته هَرْقُ الدماءِ
وإن شربَ امرؤٌ يوماً دواءً ... فنعمَ اليومُ يومُ الأربُعاءِ
وفي يومِ الخميس قضاءُ حاجٍ ... فإن الله يأذنُ بالقضاءِ
وفي الجمعاتِ تزويجٌ وعرسٌ ... ولذاتُ الرجالِ مع النساءِ
وهذا العلمُ لا يدريه إلا ... نبيٌ أو وصيُّ الأنبياء

قال أهل التحقيق: وهذه الأبيات لا تصحُّ عن عليٍّ كما قال الآلوسي وغيره.

قال العلماء: وأصل التشاؤمِ مأخوذٌ من عادات الجاهلية في «الطيرةِ وزجر الطير»، ذلك أن الكثير من أهل الجاهلية كان إذا أراد الحاجة من سفر، أتى الطير في وكرها وعُشِّها فنفَّرها، فإذا أخذت ذاتَ اليمين مضى لحاجته، ويُسمى هذا «السانِحَ» عندهم. وإذا أخذت الطير ذات الشمال رجع عن حاجته، وهذا هو «البارحُ» عندهم، ولهذا كانوا إذا دَعَوْا للمسافر قالوا:

«على الطائر الميمون».

قال المدائني: سألتُ «رؤبة بن العجاج» قلتُ: ما السانحُ؟

قال: ما ولّاكَ ميامِنَهُ، قلتُ: فما البارحُ؟

قال: ما ولّاكَ مياسِرَهُ.

فإذا جاء من أمامِكَ، فهو الناطِحُ أو النطيحُ.

والذي يجيء من خلفك هو القاعِدُ، أو القعيدُ.

من هنا، نهى النبي ﷺ عن هذا بقوله: «أقرّوا الطير في مَكِناتِها، أو مَكُناتِها»، أي في مواضعها.

قال القرطبي: ثم كثُرَ استعمال التطيُّرِ والطيرَةِ لكل من تشاءم.

وكانوا يتشاءمون بالظباءِ كذلك إذا مضت سانحة أو بارحة.

قال أهل العلم: والأعاجمُ فيهم صفةُ التطيّر والتشاؤم، ولهم تشاؤماتٌ عجيبة، كان بعضُهم يتطير إذا رأى صبياً يذهبُ إلى المعلم بالغداةِ، ويتيمَّنون إذا رأوا صبياً يرجع إلى بيتهِ من عند المعلم، وكانوا يتشاءمون من رؤية السَّقاءِ على ظهره القربةَ من الماءِ مملوءة ومشدودة.

وكانوا يتيمَّنون إذا رأوْا السَّقاءَ وعلى ظهره القربةَ فارغةً مفتوحةً، وكانوا يتشاءمون بالحمّال المُثْقَل، والدابةِ الموقّرَةَ، ويتيمَّنون بالحمّال الفارغ، والدابة الفارغة.

وبعضهم كان يتشاءمُ من صوت البوم، وكل ذلك لا أصل له.

فقد رويَ أنَّ «طاووس اليماني» خرج مع صاحب له في السفر، فصاح غراب، فقال الرجل: خيرٌ خير، فقال طاووس: ويحك، وأيَّ خير عند هذا؟

والله لا تصحبُني.

ومن جميل ما يروى في التطير والتشاؤم، أنَّ حكيماً فيلسوفاً سمع صوت مغنٍ مرةً، وكان سيئ الصوت، فقال هذا الفيلسوف: يزعمُ الكُهانُ أنَّ صوت البوم يدلُّ على موتِ الإنسانِ، فإن كان هذا صحيحاً فإنَّ صوت هذا المغني يدلُّ على موتِ البومة.

وقال عكرمة وعنده ابن عباس: كنت عند ابن عمر فمرَّ طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خيرٌ خير.. فقال ابن عباس: ما عند هذا خيرٌ ولا شرٌ، وإنما اختُصَّ الغرابُ غالباً بالتشاؤم، به أخذاً من الاغترابِ، فقال: غرابُ البين، لأنه بانَ عن نوحٍ ولم يرجع لَمَّا وجَّهه لمعرفةِ الماء.

قال العلماء: أسرعَ ابن عباس بالإنكار عليه حتى لا يعتقد أنَّ له تأثيراً في الخير أو الشر، من هنا: نهى الإسلام عن التطيُّر: قال تعالى يقُصُ علينا خبر تطيُّر بني إسرائيل بموسى عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [الأعراف].

كانوا إذا جاءتهم النِعَمُ من صحةٍ وخصْبٍ ورخاء ورفاهية، لا يرونَ أنَّ هذه النعم من الله، وإنما يروْنَ أنهم لفضلِهم أهلٌ لهذه النعم.

وهذا – كما قال ابن عاشور – لغرورهم.

وإن تُصبهم سيئةٌ من جَدْبٍ أومرض كانوا يتشاءمون بموسى وأصحابه ويقولون ما أصابتْنا هذه المصيبة إلا بشؤمِكم.

ويأتي كلام الحق ليبيِّن لهم، أنَّ ما أصابهم من خير أو شر ليس من قِبَلِ موسى ومن معه، بل هو من عند ربِّ موسى، المالكِ للكونِ كلِّه.

وكل ذلك واقع بتقديره ومشيئتهِ، وهنا لا بدَّ من شيء من البيان، فنقول ما قاله علماؤنا:

قالوا: إن أحداث الحياة نوعان:

نوعٌ لك فيه مدخلٌ: كالتلميذ الذي لا يُذاكر دروسه فيرسب، أو شخص لا يُحسن قيادة السيارة، فيُصاب أو يُصيب غيره بضرر، فهذا غريمُ نفسه.

ونوع يقع على الإنسان ولا دخلَ له فيها، يقع الحدثُ بشكلٍ قهريٍّ وهي أحداثٌ قدريَّةٌ تنزل بالإنسان لحكمةٍ لا يعرفها الإنسان، لكون الإنسان ينظر إلى السطحيات، ولا ينظر إلى العواقب والنهايات كالتلميذ الذكيِّ في صفِّه، وعلاماتُهُ جيدة دائماً، ولكن يوم الامتحان أصابه صداع جعله لا يُحسن الأجوبة ورسب، فهذه مصيبة وحدثٌ لا دخل له فيه، فالمؤمن يقول: الولد لم يقصّرْ، وهذا أمر من الله، والله حكيم لا عبَثَ في أفعاله ولا بُدَّ أن يكونَ رسوبه لحكمةٍ، وقد تكون الحكمةُ خافيةً عن العبد وتظهر له فيما بعد، وما أدرانا أن الله أراد له الرسوب هذا العام لأنه لم يكن يستطيع الحصول على المجموع الذي يُدخله الكلية التي يريدها، ثم يدرس في العام التالي، ويتيسر أمره، ويجمع مجموعاً يؤهلُهُ لدخول الكلية التي يريد، فيقول: الحمد لله لقد أراد الله لي خيراً في عدم نجاحي في السنة السابقة لأنه سيكون مجموعي قليلاً، لا يؤهلني لدخولي كلية الهندسة مثلاً.

إذاً فالمقادير التي تجري على الناس بدون دخل لهم فيها، فلله سبحانه فيها حكمةٌ، وهنا يقال: «ألا إنما طائركم عند الله».

أما إذا كان للإنسان دخل فيما يجري له من الحوادث فيقال: طائرُكَ من عندك.

نذم زماننا والعيبُ فينا ولو نطَقَ الزمانُ إذاً هَجَانا

وشؤمُك من نفسك وعصيانك، كما قال علماؤنا، وقالوا: ولهذا قال رسُل المسيح لأهل القرية وهي «أنطاكية»، وكان سُكانها من اليهود واليونان، فكذبوا رُسُلَ المسيح وآذوهم بالضرب والسجن عندما دعوهم إلى الدين الحق، وكان من جملةِ ما قالوه للرسل قالوا: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ ﴾ [يس].

وكان الجواب من الرسل: ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ ﴾، أي شؤمكم من كفركم وتكذيبكم ولذلك حبسَ الله عنكم المطر.

لذلك نهى الإسلام عن التطيُّرِ والتشاؤم، ففي الصحيح من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: «لا عدوى، ولا طِيَرة، ولا هامةَ، ولا صَفرَ».

كان أهل الجاهلية يتشاءمون بصفرٍ يقولون: هذا شهر مشؤوم، فأبطلَ ذلك النبي ﷺ.

وعند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أنه ﷺ قال: «من ردَّتهُ الطيرةُ عن حاجته فقد أشرك»، قالوا: وما كفارة ذلك؟ قال ﷺ: «أن يقول، اللهم لا خير إلا خيرُك، ولا طيرَ إلا طيرُك».

وحدُّ الطيرةِ المنهي عنها: أنها ما يحمل الإنسان على المضي فيما أراد، أو يمنعه من المضي في ذلك، وتكون: بالمسموع أو المرئي، ولذلك قال ﷺ في حديث الفضل بن عباس: «إنما الطيرةُ ما أمضاكَ أو ردَّكَ».

أما «الفأل» وهو الكلمة الطيبة فقد كان ﷺ يُعجبه الفأْلُ، ففي حديث أنس أنه ﷺ قال: «لا عدوى ولا طيرةَ، ويعجبني الفأْلُ»، قالوا: وما الفأْلُ؟

قال ﷺ: «الكلمة الطيبة».

وعند مسلم: الكلمة الصالحةُ يسمعُها أحدُكم.

والفأْل: نوع بشارةٍ يُسَرُّ بها الإنسان ولا يعتمد عليها بخلافِ الطيرةِ.

قال الخطابي: الفألُ إنما هو من طريق حُسْنِ الظنِّ بالله تعالى، والطيرةُ: هي الاتكالُ على شيء سوى الله سبحانه.

قال الأصمعي: سألتُ ابن عون عن الفأل فقال: هو أن يكون الإنسان مريضاً فيسمعُ يا سالم، أو يَضيعُ له شيء فيسمعُ: يا واجدُ.

وهذا معنى حديثه ﷺ حين سُئل عن الفأل فقال: «الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم».

وأخرج الترمذي، وقال: حديث صحيح غريب.

أنه ﷺ كان يحبُّ أن يسمعَ يا راشد، يا نجيح.

ويذكر البروسوي في «تفسيره»[1]: تساقطت النجوم في أيام بعض الأُمراء، فخاف من ذلك، وأحضر المنجمين فما أجابوا بشيء، وكان جميل الشاعر موجوداً فأنشد:

هذي النجوم تساقطتْ　　　لرجومِ أعداءِ الأمير

فتفاءل الأمير بقوله، وأمر له بصلةٍ حسنةٍ.

ومن جميل كلام ابن القيم في الفأل: ليس في الفألِ ومحبتهِ شرك، لأنَّ الفألَ كشفٌ للفطرةِ الإنسانيةِ وأنها تميل إلى ما يُلائمها، والله جعل في غرائز الإنسان الإعجاب بسماعِ الأسماء الحسنة، وجعل الارتياح والسرور باسْمِ النجاح، والفلاح والظفر والفوز ونحوها، فإذا سمعت الأسماعُ أضدادَ هذه

---

(١) ج٣ ص٢١٩

الكلمات انقبضت عما عزمتْ عليه فأورثت له ضرراً في الدنيا، ونقصاً في الإيمان، ومقارفةً للشركِ أحياناً.

والخلاصة: أنَّ الطيرةَ لا تدفعُ ضراً ولا تجلبُ نفعاً، ونحن مأمورون بما أمرنا به النبي ﷺ، فما ورد عند أبي داوود بسند صحيح عن «عروة بن عامر» أو «عقبة بن عامر»، أنَّ الطيرةَ ذُكرت عند رسول الله ﷺ فقال: «أحسنُها الفألُ، ولا تردُّ مسلماً، فإذا رأى أحدُكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفعُ السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك، وهذا هو التوحيد الصافي».

معلومات عن الريح المُهلِكَةِ:

هناك إعصارٌ يسمى «تورنادو» أو ما يُسمى بالإعصار «القمعي»، أو «الدوامي»، وهذا معروف في أمريكا والإتحاد السوفيتي وفي جنوب إستراليا، ويكون دورانُه باتجاه عقارب الساعة أو عكسها، ويُعرف في أمريكا باسم «الإعصار الحلزوني»، ويكون عرض الإعصار «٣٠٠-٤٠٠» ياردة.

ويتألف أحياناً من مجموعاتٍ، وتكون مسافة تحرك الإعصار الواحد من عدةِ أميال إلى «٥٠ ميلاً»، إلى «٣٠٠ ميل»، وسرعةُ الرياح داخل الدوامة من «١٠٠ إلى ٥٠٠ ميل» في الساعة، أي من «١٦٠ - ٨٠٠ كم»، أما ارتفاع الأعاصير فيكون عادة «١٥ إلى ٣٠ متر» فوق سطح الأرض، وقد يمتد ارتفاع الإعصار إلى «٢٥٠٠٠ ألف قدم»، أي «٧٦٢٠ م»، ويكون قبله وبعده بَرَدٌ أو أمطارٌ، ويمكن سماعُ هدير الإعصار على بعدِ - ٤٠ كم- وحدوثه نهاراً أكثر من حدوثهِ ليلاً، فنسألُ الله السلامة.

أما قوله تعالى: ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة].

الحسومُ: المتواصلةُ والمستأصلةُ، وتُسمى أيام العجوز، وهي آخر الشتاء وعجزُهُ، وسُميت بالعجوز؛ لأنَّ عجوزاً من عاد توارت في سربٍ فانتزعتها الريح في اليوم الثامن كما ذكر ذلك الرازي، والله أعلم.

وذكر صاحب «الكشاف»، وصاحب «البحر المحيط»، أن أسماءَ هذه الأيام:

الصِنُّ، والصَّنْبرُ، والوَبْرُ، والآمرُ، والمؤْتَمِرُ، المعلِّلُ، ومُطفِئ الجمر، أو «مكفئ الظَعن»، جمع ظعينةٍ وهي الهودج سواء كان فيها نساءٌ أم لا، قال الشاعر:

كُسِعَ الشتاءُ بسبعةٍ غُبر ... أيامِ شَهْلَتنا من الشهرِ
فإذا انقَضَتْ أيامُها ومَضَتْ ... صِنٌّ وصَّنْبرٌ مع الوبْر
وبآمرٍ وأخيه مؤتمر ... ومعلِّل وبمطفِئ الجمر
ذهب الشتاءُ مُولِّيًا عجِلاً ... وأتتك واقدةٌ من النجر «الحر»

قال الزمخشري: سُميت حسوماً لأنها حسمت كلَ خير، واستأصلت كلَّ بركة، أو متتابعةَ هبوبِ الرياح ما خَفَتَتْ عليهم ساعة حتى أتت عليهم.

فصار المعنى: أنه سبحانه سخرها عليهم للاستئصال، ومنه قول «عبد العزيز الكلابي»:

فَفَرَّقَ بين بنيهِم زمانٌ ... تتابعَ فيه أعوامٌ حسومُ

أي قاطعةً لأبواب الخير، ومتواصلةً. وهكذا كانت نهايتُهم. ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة].

وقد ذكر المسعودي شعراً نسبه إلى «فهد بن سعد» حيث قال في هلاك

عاد:

دعــاهــم خـيـفـةً لله هــودٌ   فما نفعَ النذيرُ ولا أجابوا
فلـما أن أبَــوْا إلا عُـتُــوَّاً   أصـابهـم ببغيهم الـعـذابُ

قال العلماء: وهكذا كانت نتيجة من كفر، وهي الاستئصال: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ٨﴾، أي من نفسٍ باقية.

ماذا كانت عاقبة هود ومن آمن معه؟

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ٥٨﴾ [هود]، كانوا بين ٣ – ٤ آلاف ما بين رجل وامرأة.

قال الخازن في «تفسيره»: اعتزل هود والمؤمنون معه في حظيرة ما يُصيبهم من الريح إلا ما يُليِّنُ الجلد، وتلذُّه النفس.

هنا سؤال: حين تأتي ريحٌ صرصرٌ، أو صيحةٌ طاغية، فهذا العذابُ من الخارج، وطالما هذا العذاب من الخارج عنهم، وبقوةٍ كونيةٍ صادرةٍ بتوجيه الله عز وجل، فهي قد تعمُّ الجميعَ، المكذبينَ لهودٍ، والمصدقين به وبرسالته، فكيف تذهبُ الصيحةُ للأولين، وتترك الصادقين؟

والجواب كما قال علماؤنا: إنها قدرةُ التقديرِ، لا قوةُ التدميرِ، لأنَّ الصيحةَ أو الريح موجهةٌ، مثلُها مثلُ حجارةِ سجيلِ التي رَمَتْها الطيرُ الأبابيلُ على جيش أبرهةَ، مع نجاة جنود قريش بنفس الحجارة.

قال العلماء: وهذا من أسرار عظمةِ الله سبحانه، فهو يأخذُ بشيءٍ واحدٍ، ولكنه يُنجي المؤمن ويُعذب الكافر، فلا يوجد ناموسٌ يحكمُ الكونَ، بدون قدرةٍ مسيطرةٍ عليه.

وقد فطنَ المتنبي لهذا السرِّ الإلهي، فقد ذكر في شعره حقيقةً علميةً مشاهدةً تحملُ العقلَ البشريَّ على الإيمان بتوحيد قدرته سبحانه وذلك حين قال:

تُسَوِّدُ الشمسُ منا بيضَ أوجُهِنا وما تُسَوِّدُ بيضَ العَيْنِ واللِّمَمِ

وكان حالُهُما في الحكمِ واحدةً لو احتكمْنا من الدنيا إلى حكمِ

فالشمسُ تُسمِّرُ البَشَرَةَ البيضاءَ ولكنها لا تُسوِّدُ الشيبَ أو بياض العين، وكذلك لو تركْتَ شيئاً أسودَ في الشمس فترةً لوجدْته يميلُ إلى الأبيض، ويحدثُ ذلك رغمَ أنَّ الفاعلَ واحدٌ، لكن القابلَ مختلف، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [هود].

كيف نجوا؟ ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾، والرحمةُ هنا: ألا يمسَّ الداءُ الإنسانَ من أول الأمر، أما الشفاءُ فيكونُ معالجاً للداء بعد وقوعه: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء ٨٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ ﴾، وهو عذابُ الآخرة لكونه لا نهاية له – كما قال المفسرون – فالنجاةُ الأولى للمؤمنين، من الريح الصرصر، من الصيحةِ الطاغيةِ.

والنجاةُ الثانية من عذاب الآخرة الغليظ.

قال العلماء: ثم تَبِعَتْهُم اللعناتُ، قال عز وجل: ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾[هود].

قال المفسرون: الزمان بالنسبة للخلقِ ثلاثةُ أقسام:

الحياة الأولى تنتهي بالموت.

والزمن الثاني من الموت إلى قيام الساعة «وهو البرزخ».

والزمن الثالث: ساعة يبعثون.

والحياة الأولى فيها العمل.

وحياة البرزخ فيها عرض الجزاء، مجرد العرض ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ [غافر ٤٦].

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أنه ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثكَ الله يوم القيامة»، وهذا في حدِّ ذاته عذابٌ كما قال الشعراوي.

ونلاحظ تكرار ﴿ أَلَا ﴾ مع الدعاء عليهم ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ٦٠ ﴾، لماذا التكرار؟

قال العلماء: هو تهويل لأمرهم، وتفظيعٌ له، حتى لا يرقَّ قلبُ السامعِ لهم؛ لأنك حين تسمع جريمتهم: ﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ﴾، تنفعلُ وتطلبُ أشدَّ العقوبات لهم، ولا تكتفي بلعنهم مرةً واحدةً بل تلعنُهم مرة أُخرى.

هنا سؤال: لماذا دعا عليهم بعد هلاكهم؟ ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾.

قال الزمخشري: معناه على أنهم كانوا مستأهلين لهذا البلاء ولهذا الدعاءِ عليهم بالهلاك: ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ٦٠ ﴾ [هود].

صالح

عليه الصلاة والسلام

صالح عليه الصلاة والسلام

الحمد لله، الحمد لله الذي مهَّدَ لطالبيه سبيلاً واضحاً، سبحانه وتعالى، فكم ابْتَعَثَ للناس نبياً مرشداً ناصحاً، فأرسل آدمَ غادياً على بنيه بالتعليم ورائحاً، فخلفه إدريس ثم شيثٌ، وجاء نوح نائحاً، وأمر هوداً بهداية عادٍ فلم يزلْ مكادِحاً، ثم أرسلَ إلى ثمود أخاهم صالحا.

نحمده سبحانه وتعالى ونشكره ما بَدَاْ برقٌ لائحا، ونصلي ونُسلم على محمد عبده ورسوله ما دام الفلكُ سابحاً وعلى آله وصحبه، وعلى كل من سار على طريقهم لامحاً أما بعد:

قال صاحب كتاب «نظرات في أحسن القصص»:

كانت بعثةُ صالحٍ بعد أن انتهتْ مُهِمَّةُ هود مع قومه عاد، وبعد إهلاكهم بريحٍ صرصرٍ عاتية.

قال المفسرون: وثمود قامت بعد «عاد»، فَنَمَتْ واتسعت حضارتُها، وكانوا موحِّدين أوَّل أمرهم، لكونهم اتعظوا بما حلَّ «بعاد».

ثم طالت مُدَّتُهُم، ونَعِمَ عيشُهم، فعتَوا ونسوا نعمةَ الله، وعبدوا الأصنام التي عبدتْها «عاد»، لأنَّ ثمود وعاد أبناءُ نسبٍ واحدٍ، لأنهم يلتقون مع عاد في «إِرَمَ»، فيُشْبِه أن تكون عقائدهم متماثلةً.

قال الأستاذ «أحمد بهجت» في كتابه «أنبياء الله»: ومرَّت بعد عادٍ أجيالٌ وُلِدَ رجال، ومات رجال، وجاءت بعد قوم هود، قوم ثمود، وكانت تعبد الأصنام كذلك فأرسل الله لهم صالحاً.

من هو نبي الله صالح؟

هو صالح بن عُبيل – أو عبيد – بن ماسح، أو ماشج.

ينتهي نسبه إلى نوح، وهو من قبيلة مشهورة اسمها «ثمود»، وثمود: اسم الجد الأعلى للقبيلة، وثمود من العرب العاربة.

والعربُ العاربةُ: هم الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام، وهم كُثُرٌ، منهم: عاد، وثمود، ومَدْيَنُ، وجُرهم، وقحطان.

وهناك العرب المستعربةُ: وهم الذين كانوا بعد إسماعيل ومن نسله وإسماعيل هو أول من تكلَّم العربية الفصحى أخذها من جُرهم، وكان تاريخهم قبل موسى عليه السلام، لأنَّ موسى لمَّا دعا قومه إلى الله تعالى، حذَّرهم مصيراً كمصير من سبقهم من الأُمم إذا كفروا ونقرأ هذا في كتاب الله عز وجل في [سورة إبراهيم]: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾.

وقوله: ﴿ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾، أي لا يعلم عددهم إلا الله.

قال ابن عباس: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يُعرفون.

قال ابن إسحق: لمَّا أهلكَ الله قوم عادٍ بالريح عمَّرت ثمود بلادهم، واتَّخذوا من الجبال بيوتاً مُجوَّفةً بالنحت، وجعلوا على تلك البيوت أبواب الخشب وصفَّحوها بالحديد.

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ

ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأعراف].

مساكن ثمود:

كانت مساكن ثمود في الحِجر، وسماهم القرآن «أصحاب الحِجرِ»، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الحجر].

وقال تعالى: ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الشعراء]، أي حاذقين نشيطين بَطِرين.

قال الآلوسي: ورد عن ابن عباس قال: اتخذوا بيوتاً في الجبال لطول أعمارهم.

وقال القرطبي: نحتوا الجبال لسكنهم، إذ كانوا أولَ أمرهم يبنون بيوتهم من المِدرَ - الطين - فتَخْرَبُ قبل موت الواحد منهم، فنحتوا الجبال لشدَّةِ قوتهم، وليكونوا آمنين من اللصوص ومن العدو.

قال العلماء: استدلَ بعض السلف على جواز البناء الجميل الرفيع كالقصور وغيرها.

وقالوا: إنَّ الله تعالى يقول: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف ٣٢]، كما قال ابن عطية.

وذُكِرَ لمحمد بن سيرين، أنَّ ولداً له بنى داراً وأنفقَ عليها المال الكثير، فقال محمد: ما أرى بأساً أن يبنيَ الرجل بناءً ينفعُهُ.

وفي الحديث الذي أخرجه الترمذي أنَّ النبي ﷺ قال: «إن الله يحب أن يرى أثرَ نعمتِهِ على عبده».

وكان عمر يقول: إذا وسَّعَ الله عليكم فأوسِعوا.

وكان يُروى عن «علي بن الحسين بن علي» شيخ الإمام مالك: أنه كان يلبسُ كساءَ الخزِّ بخمسين ديناراً يلبسُهُ في الشتاء، فإذا جاء الصيف تصدَّقَ به، أو باعه وتصدَّق بثمنه. وكان يلبسُ في الصيف ثوبين من أثواب مصر مُمَشَّقَيْنِ أحمرين، قال جابر: كنا نلبس المُمَشَّقَ بالإحرام، ويقول: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف ٣٢].

قال أبو العالية: كان المسلمون إذا تزاوَروا تجمَّلوا.

وورد عن تميم الداري: أنه اشترى حُلةً بألف درهم كان يُصلي فيها، وكان ثوبُ الإمام أحمد يُشترى له بدينار ذهب.

قال القرطبي: وأين هذا ممن يرغبُ عن اللباس الغالي، ويُفضِّلُ الخشن كالصوف، ثم يقول: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف ٢٦]، ثم يقول القرطبي: هيهات، هل هؤلاء الذين ذكرناهم تركوا لباس التقوى؟ والله هم أهل التقوى.

قال خالد بن شَوْذَب: شهدتُ الحسن البصري، وأتاهُ «فرقدُ السبخيُّ»، فأخذَ الحسنُ بكِسائه وقال: يا فُريقدُ، يا ابن أم فريقدِ، إنَّ البرَّ ليس في هذا الكساءِ، إنما البرُّ ما وَقَرَ في الصدر، وصدَّقهُ العمل.

ودخل أبو محمد «ابن أخي معروف الكرخي» على أبي الحسن بن يسار، وعليه جُبَّةُ صوف، فقال أبو الحسن: يا أبا محمد: صوَّفْتَ قلبك أو جسمك؟

صوِّفْ قلبك، والبس الفُوهي والقُوهي: أي المُلَوَّن والأبيض.

قال ابن الجوزي: أنا أكره لبس المرقعات للأمور التالية: لأنها ليست من لُبس السلف، والسلفُ إذا رقَّعوا رقَّعوا لفقرِهم ولأنَّ لبسَ المرقعاتِ

يتضمن ادعاءَ الفقر، والمسلم مأمور أن يُظهر نِعَمَ الله عليه.

وفيها إظهارٌ للزُّهدِ، وقد أُمرنا بستره.

إذاً كانت مساكنهم - ثمود - في الحِجر: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الحجر].

والحِجر: اسم ديار ثمود كما قال «ياقوت الحموي في معجمه»، في مكان يُقال له «وادي القرى»، بين المدينة المنورة والشام.

وقال ابن كثير: كانت ثمود من العرب العاربة يسكنون الحِجرَ الذي بين تبوك والحجاز.

وقال الأصطخري: الحِجر، قرية من وادي القرى، وبه كانت منازل ثمود، ثم قال الأصطخري: وقد شاهدتُها بيوتاً مثل بيوتنا في أضعاف الجبال، وتُسمى تلك الجبال «الأثالث».

ثم قال: وهي جبالٌ إذا رآها الرائي من بعيد ظنها مُتصلةً، فإذا توسَّطها رأى كل قطعةٍ منها قائمة بنفسها، لا يصعَدُها أحد إلا بمشقَّةٍ شديدةٍ.

ثم قال: وبها بئر ثمود التي قال الله تعالى فيها وفي الناقة: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء].

قال أبو المنذر: سُمي وادي القرى لكثرة القرى فيه، فهو من أوَّله إلى آخره قرىً منظومةٌ وفيها آثارٌ ظاهرةٌ إلى الآن، ولكنها خرابٌ، ومياهُها جارية لا ينتفع منها أحد.

وقال السُّكوتي: وادي القرى، والحِجر، والجنابُ منازلُ «قُضاعةَ، وعُذْرةَ، وبَليٍّ»، وهي بين الشام والمدينة المنورة يمُرُّ بها الحجاج الآتون من الشام، ولذلك ذكرها جميل بُثينة فقال:

أقول لداعي الحُبِّ والحِجرُ بيننا   ووادي القرى لبَّيكَ لما دَعانيا
فما أحدثَ النأيُ المفرِّقُ بيننا   سُلُواً ولا طولَ اجتماعٍ تَقاليا

ثم قال السُّكوتي: وهذه الأماكن كانت قديماً منازل عاد وثمود، وبها أهلكهم الله، وآثارُها باقية إلى الآن، ثم نزل بعدهم اليهود وأساحوا عيونها، وغرسوا نخلها، واستخرجوا كظائمها.

قال المؤرخون: وفتح النبي ﷺ وادي القرى سنة سبع عُنوةً في شهرِ جُمادى الآخرة، وغَنِمَ المسلمون منها مغانمَ كثيرة وتركَ النخلَ والأرضَ بيد اليهود، وعاملهم على نحوِ ما عامل به أهل خيبر.

وكان فتحُ وادي القرى بعد فتح خيبر، دعا أهلها للإسلام، ثم حاربوه، وقاتلوه، ففتحها ﷺ عنوةً.

ومن شعر القاضي «عبد الباقي بن أبي الحصين أبو يعلى»:

إذا غبْتَ عن ناظري لم يكدْ   يمرُّ به وأبيكَ الكرى
فيؤلمني أنني لا أرا   كَ إذا ما طلبتُكَ فيمن أرى
وكيف وداري بأرضِ الشآم   ودارُكَ أرضٌ بوادي القُرى
وبعدُ فلي أملٌ في اللقاءِ   لأني وإياكَ فوقَ الثرى

ومن شعر جميل:

ألا ليت شعري هل أبيتَنَّ ليلةً   بوادي القُرى إني إذاً لسعيدُ
وهل أَرَيَنْ جُملاً به وهي أيِّمٌ   وما رَثَّ من حبلِ الوصالِ جديدُ

قال «أصحاب المغازي»: إن النبي ﷺ مرَّ بوادي الحِجر من أرض ثمود

عام تبوك سنة ٩ هـ، فقد أخرج الإمام أحمد من حديث ابن عمر أنه ﷺ مرَّ بالحِجر وهو في طريقه إلى تبوك، نزل مع أصحابه الحِجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناسُ من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها، ونصبوا القدور باللحم، فأمرهم ﷺ فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل ﷺ بهم حتى نزل على البئر التي كانت تشربُ منه الناقة، ونهاهم أن يدخلوا في منازل الذين عُذِّبوا، وقال ﷺ: «إني أخشى أن يُصيبكم مثلَ ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم»، وفي رواية، أنه ﷺ لما مرَّ بمنازلهم قنَّعَ رأسه، وأسرع راحلته، ونهى عن دخول منازلهم إلا باكين أو مُتَباكين.

وأخرج الإمام أحمد من حديث عمرو بن سعد قال: لما كانت غزوة تبوك تسارعَ الناس إلى أهل الحِجر يدخلون عليهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى: الصلاة جامعة.

قال عمرو: فأتيتُ النبي ﷺ وهو ممسكٌ بعيره وهو يقول: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم»، فناداهُ رجلٌ: نعجبُ منهم يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «أفلا أُنبئكم بأعجبَ من ذلك؟! رجل من أنفسكم يُنبئكم بما كان قبلكم، وما هو كائنٌ بعدكم، فاستقيموا وسدِّدوا فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً، وسيأتي قومٌ لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً».

قال العلماء: خشيَ رسول الله ﷺ على أصحابه أن يمروا على تلك الديار غير مُتَّعظين بما أصابَ أهلها، فنبَّه ﷺ على أنَّ الإنسان لا ينبغي له السُّكنى في أماكن الظلمةِ مخافةَ أن يَسْرِقَ من طِباعهم وعاداتهم ولو كانت خاليةً؛ لأنَّ آثارهم تُذكرك بأحوالهم، وربما أورثت قسوةً وجبروتاً، وقديماً قالوا:

تلك آثارُنا تدل علينا ... فانظروا بعدنا إلى الآثارِ

قال أهل السيرة: وحصل في الحِجر حادثٌ يدلُّ على آيةٍ من آيات نبوتِهِ

ﷺ، وذلك أنه ﷺ لما نزل الناسُ واستَقَوْا من آبار ثمود نهاهم النبي ﷺ وقال: «لا تشربوا من مائها شيئاً، ولا تتوضؤوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبلَ، ولا تأكلوا منه شيئاً، ولا يخرجن أحدٌ منكم الليلَ إلا ومعه صاحبٌ له»، ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله ﷺ إلا رجلين من بني ساعدة.

خرج أحدُهما لحاجته مخالفاً أمر رسول الله ﷺ بعدم الخروج وحده، فصرعتْهُ الجن في طريقه، وخرج الآخرُ في طلب بعير له مخالفاً أمر رسول الله ﷺ، فاحتملتْهُ الريحُ حتى ألقتْهُ في جبال طيء، فأُخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: «ألم أنهكم أنْ يخرجَ منكم أحدٌ إلا ومعه صاحبه؟».

ثم دعا للذي أُصيب بخنقِ الجن فشُفيَ، وأما الآخر الذي وقع في جبال طيء، فإن طيئاً أهدته لرسول الله ﷺ بعد عودته من الغزوة إلى المدينة، فكانت هذه آيةٌ من آيات نبوته ﷺ.

وروي أنَّ معاوية مرَّ بوادي القُرى فتلا قوله تعالى حاكياً عن صالح ماذا قال لقومه: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾ [الشعراء]، ثم قال معاوية: هذه الآية نزلت في أهل هذه البلدة، وهي بلاد ثمود لكن أين العيونُ؟

فقال له رجل: صدق الله أَتحبُ أن أستخرجَ لك العيون؟

قال معاوية: نعم، فاستخرج الرجل لمعاوية ثمانين عيناً، فقال معاوية: الله أصدقُ من معاوية.

قال الأستاذ عبد الوهاب النجار في كتابه «قصص القرآن»: إن مدائن

صالح – وهي الحِجر الذي ذكرناه – ظاهرةٌ اليوم، ثم قال: وقد زارها بعض أصدقائي، ودخل بيت الملك، وهو بيتٌ ذو حُجرات عديدةٍ به ساحة كبيرةٌ، وهو منقور في الصخر، والمكانُ الذي كانت تسكُنه ثمود يُعرف اليوم باسم «فج الناقة».

ويقول المسعودي: ورِمَمُهم باقية، وآثارهم باديةٌ في طريقِ مَنْ وَرَدَ من الشام وهي مُصاقبةٌ – أي قريبة – من خليج العقبة كما قال الصابوني.

يا – عبد الله – انتبه إلى قول نبينا محمد ﷺ لما مرَّ على ديارهم ماذا قال: قال: «لا تدخلوا على هؤلاء المُعَذَّبين إلا أن تكونوا باكين أو متباكين».

فاعتبروا عبادَ الله بهؤلاء الهالكين.

وانظروا سوءَ تدبير الخاسرين، لا بالناقة اعتبَروا ولا لتعويضهم اللَّبن شكروا.

وعَتَوْا عن النعم وبطروا، وعَمُوا عن كَرَمِ الله فما نظروا، وأُوْعِدوْا بالعذاب فما حذروا.

كلما رأوا آية من الآيات كفروا.

الطبعُ الخبيثُ لا يتغيرُ، والمُقَدَّرُ ضلالُهُ لا يزالُ يَتَجَبَّرُ.

خرجت إليهم ناقةٌ من أحسنِ النَّعَمِ.

ودرَّ لبنُها لهم فتواترت النِعَمُ.

فكفروا وما شكروا فأقبلت عليهم البلايا والنِّقَمْ.

يا – عبد الله – :

أيها السكرانُ بالآمال ... قد حان الرحيل

ومشيبُ الرأسِ والفودين للـــلـــمـــوتِ دلـيــل
فانتبـه مـن رقـدةِ الغفلـةِ فــالـــعـــمـــرُ قـلـيـل
واطـرح سـوفَ وحتـى فـهُـما داءٌ دخـيـل

فاحذر يا – عبد الله – كفرانَ النعم فتقع تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العاديات].

واحذر يا – عبد الله – نسيانَ النِعَم، فتكون ممن ظلمَ نفسه.

ومن جميل قول الوراق:

يـا أيهـا الظـالمُ في فعلـهِ والظلـمُ مـردودٌ عـلى مـن ظلمْ
إلى متى أنـتَ، وحتـى متـى تشـكو المصيباتِ وتنسـى النِّعمْ

واحذر يا – عبد الله – أن يُبطركَ غنىً، أو أن يذُلُّكَ فقرٌ.

وما أجمل قول ابن جرير الطبري:

خُلُقـانِ لا أرضى طريقهُـما بطـرُ الغنـى ومذلَّـةُ الفقـر
فـإذا اغتنيـتَ فـلا تكـنْ بطـراً وإذا افتقـرت فَتِـهْ عـلى الدهـر

وعظمتك وعزَّكَ ونجاحك أن تكون مع الله، ولذلك قالوا:

من أحب الله عاش.

ومن مال إلى غيره طاش.

والأحمق يروحُ ويغدوا في لاش.

والعاقلُ عن خواطر نفسه فيّاش.

البدء بدعوتهم إلى الإيمان بالله، وترك الأوثان:

ذكر الكتاب الكريمُ دعوة صالح لهم في عدة سور: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف ٧٣].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النمل ٤٥].

قال أبو السعود في تفسيره المسمى: «إرشاد العقلِ السليم، إلى مزايا الكتاب الكريم»: بدأ صالح بتذكيرهم بنِعَم الله عليهم ونُصْحِهم فقال ما ذكره الله: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [هود].

قوله: ﴿ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾: بخلقِ أبيكم آدم من الأرض.

قوله: ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾: أي طلب منكم تعميرَ هذه الأرض.

قال العلماء: إذا رأيت الفعل فيه «الألف والسين والتاء» فاعلم أنه للطلب، كقولهم: اسْتَحْمَلْتُهُ: أي طلبتُ منه حُملاناً، من هنا تعلم - يا عبد الله - الخطأ الشائع في تسمية البلاد التي تحتل بلاداً أُخرى «دول الاستعمار»، لأنهم لو كانوا دول استعمارٍ لرغبوا في عِمارةِ الأرض، ولكنهم في الحقيقة كانوا يُخربون في الأرض؛ ولذلك كان يجب أن تُسمى - كما قال علماؤنا -: دول الاستخراب.

قال العلماء: واستعمار الأرض يتطلبُ أمرين:

الأول: أن يُبقي الناسُ الأمر الصالح على صلاحه، «مصادر المياه».

الثاني: أو يزيدوه صلاحاً: نقل الماء إلى البيوت، أو زراعة الأرض البور.

فقوله: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾: أي أمركم بعمارةِ ما تحتاجون إليه فيها من مساكن وغرس، وحفرٍ للسواقي وغير ذلك، أو فوَّضَ لكم عمارتها، هذا المعنى الثاني.

قال الآلوسي رحمه الله تعالى في تفسيره: استُدِلَّ بهذه الآية على أنَّ عِمارةَ الأرض واجبةٌ لهذا الطلب، ولكن العلماء قسَّموا العِمارة إلى أنواع، منها:

ماهو واجبٌ: كعِمارة القناطر والجسور، والمساجد الجامعة في البلد.

وماهو مندوب: كعِمارة المساجد في الأحياء والمدارس والرباطات.

وماهو مباح: كعِمارة المنازل، وقد تَجِبُ كالبيوت التي تحمي من الحرّ والقرّ.

وما هو حرام: كعِمارة الحانات، وأماكن الفساد، أو ما بُنيَ بمالٍ حرام، كأبنية كثير من الظلمةِ، أو ما بُنيَ للمباهاةِ.

قال البروسوي: كان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار، وغرس الأشجار، وطالت أعمارهم مع ما كان في بعضهم من عَسْفٍ على الرعية، فسأل نبيٌّ من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تعميرهم، فأوحى إليه: «إنهم عَمَروا بلادي، فعاش فيها عبادي».

وورد عن معاوية رضي الله تعالى عنه أنه أخذَ في إحياء الأرض في آخر عمره، فقيل له: لم ذلك؟ فقال: ما حملني على ذلك إلا قول القائل:

ليس الفتى بفتىً لا يُستضاءُ به[1] ولا يكون له في الأرضِ آثارُ

ويُواصل صالح دعوته بعد أن ذكَّرهم بنعم الله عليهم، قال تعالى يقصُّ

---

(١) يُستضاءُ به: حسن الرأي والهداية.

علينا ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [النمل].

لا بُدَّ أنه مُرسلٌ إليهم بشيءٍ فما هو؟

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

والعبادة تكليفٌ بأمورٍ يجب أن تفعلها؛ لأنَّ فيه صلاحَ المجتمعات.

وأمورٌ يجب أن تتركها؛ لأنَّ فيها فسادَ المجتمعات.

فماذا كانت النتيجة؟

﴿فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾.

قال مجاهد وغيره: مؤمنون، وكافرون، وكان بينهم جدالٌ ومشاحنةٌ، بدأت بسؤال طرحه الكافرون على المؤمنين استهزاءً، والقصد منه التشكيك في دعوى صالح أولاً، واختباراً لصلابة إيمان هؤلاء المؤمنين.

فما هو السؤال: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأعراف ٧٥].

سألوهم هذا السؤال على سبيل الاستنكار والصدِّ لهم عن الإسلام، فماذا كان جواب المؤمنين المستضعفين لهؤلاء العُتاةِ الظلمةِ الذين أرادوا إرهاب هؤلاء المؤمنين؟

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾، فالمشركون سألوا المؤمنين عن العلمِ بإرساله، فكان الجواب: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

فقرر هؤلاء المؤمنون أنَّ إرسالَه أمرٌ معلومٌ مكشوفٌ مسلَّمٌ لا جدال فيه

ولا ريب لوضوحه وإنارته، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به، فنخبركُم أنّا به مؤمنون، عندها ردَّ الكافرون بقولهم: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦﴾ [الأعراف]، وصياغةُ جوابهم بالجملةِ الإسمية دالٌّ على تَصَلُّبِهم في كفرهم وثباتِهم عليه، لأن الجُملة الإسمية تدل على التأكيد.

قال العلماء: وجواب المؤمنين ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ٧٥﴾، هو أسلوب يُسمى في الأجوبةِ «بأُسلوب الحكيم»، وهو: إجابةُ السائل بجوابٍ لا يترقَّبُهُ، مثل ما لو كنتَ تاجراً، وسألكَ رجل: كم رأس مالك؟ فقلت له: «إني أمينٌ، وثقة الناس بي كبيرة»: إشعاراً بأنَّ هاتين الصفتين أجلَبُ للربح، وقيل لشيخٍ هرمٍ: كم سِنُّك؟ قال: إني أنعمُ بالعافية.

وسأل رجل بلالاً – وكان آتياً من جهة حلبةِ السباق – مَنْ سَبَقَ؟

فقال بلال: سَبَقَ المقرَّبون، قال الرجل: إنما أسألك عن الخيل، قال بلال: وأنا أُجيبك عن الخير.

ومن ذلك: أنَّ الحُطيئة كان يرعى غنماً، وبيده عصاً، فمرَّ به رجل، فقال له: يا راعي الغنم ما عندك؟ قال الحطيئةُ: عجْراءُ من سَلَمٍ – أي عصاً كثيرة العُقَدِ من شجر السَلَمِ.

فقال الرجل: إني ضيفٌ، قال الحُطيئةُ: للضيفان أعْدَدْتُها.

ومن ذلك أنَّ ولداً سأل أباه عن الروح والنفس، والولد صغير، فقال الوالد:

جاءني ابني يوماً وكنتُ أراهُ لِيَ ريحانةً ومصدرَ أُنسِ
قال: ما الروح؟ قلتُ: إنكَ روحي قال: ما النفسُ؟ قلتُ: إنك نفسي

ومن أمثلة القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ ﴾ [البقرة ١٨٩].

فالسؤال هنا عن حقيقة الأهلةِ: لِمَ تبدو صغيرةً ثم تزدادُ حتى تتكاملَ بنورها، ثم تصغر حتى لا تُرى.

ولما كانت هذه القضية من قضايا علم الفلك، وفهمُها صعبٌ في عصرٍ لم تتوفر فيه الحقائق العلمية، فعدل القرآن عن الإجابة عليها إلى بيان أنها وسائلُ للتوقيت في العبادات والمعاملات.

قال العلماء في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأعراف].

ذمَّ الله الكفار هنا من وجهين:

الأول: استكبارهم وجحودهم للحق: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الأعراف ٧٥].

الثاني: استضعافهم لمن كان عليهم أن يُكرموهم وهم المؤمنون.

ومدحَ الله المؤمنين من وجهين: ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

الأول: ثباتُهم على الحق.

الثاني: إظهارهُم للحق مع ضعفهم.

ما هو ردُّ ثمود على نبيّ الله صالح بعد أن دعاهم إلى الله:

ذكر الله ردَّهم على صالح فقال: ﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ [هود].

أي: يا صالح كنا نرى فيك أمارات الرُّشدِ، وكنتَ مَرْجوّاً عندنا لخصالِ السيادةِ، وحمايةِ العشيرةِ، ونُصرةِ آلهتهم، فلما سمعنا منك هذا القول انقطعَ أملُنا منك، وخابَ رجاؤنا فيك.

قال ابن عباس في قولهم: ﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ ﴾: أي فاضلاً خيّراً نُقدِّمُكَ على جميعنا.

وقولهم: ﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾ ﴾.

الشكُّ: استواء الطرفين: النفي والإثبات، فهم شكّوا في دعوة صالح إلى عبادة إله واحدٍ، ثم إنَّ خصال الخير في صالح جعلتْهم يتردَّدون في صحةِ ديانتهم هم، فوقعوا في الشك.

قال العلماء: ثم أعاد صالحٌ تذكيرهم فقال بعد أن ذكَّرهم بنِعَم الله عليهم: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الشعراء].

يفسدون: بالمعاصي ففسدوا وأفسدوا، ولا يصلحون: فتركوا الصلاح والإصلاح.

قال الآلوسي في قوله: ﴿ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾، هم كُبراؤهم في الضلال والإفسادِ، وكانوا تسعةً من زعمائهم ومفسديهم، لذلك قال صالح: ﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾، وكانت ثمودُ تغلبُ عليهم اللذائذ الحسّيّةُ: المأكول والمشروب والمركوب، والمزارعُ، والمساكن.

بينما كانت عاد - كما مر معنا - تغلب عليها اللذائذُ الخياليةُ: الاستعلاءُ، الخلود، التفرُّد بالعظمةِ، التجبُّرُ..

بعد هذا النصح لقومه كان ردُّهم عليه ما ذكره ربنا في [سورة الشعراء]:

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ ﴾، أي من الذين سُحروا كثيراً حتى غلبَ على عقلك، فإنك لا تدري ما تقول حين دعوْتنا إلى عبادةِ إلهٍ واحد وتركِ ما سواه، ثم طالبوه بمعجزة.

طلبهم للمعجزة الدالة على صدقه في دعواه:

قال تعالى: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤ ﴾[الشعراء]. أي بشرٌ مثلنا، تأكل الطعام، وتشرب الشراب، فلا أنت ربٌّ ولا ملكٌ فنخضعَ لك ونطيعكَ، فإن كنت صادقاً في قولك فَأْتِنا بعلامةٍ قويةٍ ودلالةٍ صادقةٍ على أنك نبيٌّ مرسل.

قال العلماء: وأسرعَ الحق سبحانه في إجابة طلبهم المعجزةَ ليُقيمَ الحُجَّةَ عليهم فقال: ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥ ﴾ [الشعراء].

قال الآلوسي: طلبوا منه ناقة عشراءَ تلدُ سقباً عظيماً - السقبُ: ولد الناقة -، اقترحوا هم المعجزةَ التي يُريدونها، طلبوا من صالح بأن تُخْرِجَ لهم من صخرةٍ صمّاء عيَّنوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردةٌ في ناحية الحِجر، يُقال لها: «الكاتبةُ»: ناقةٌ عشراءُ - أي في شهرها العاشر - تمَخَضُ.

قال المفسرون: جلس صالح يتذكر، فأتاهُ جبريل فقال له: «صلِّ ركعتين وسَلْ ربك». فقام صالح إلى قومه، وأخذ عليهم العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى طلبهم ليؤمِنُنَّ بصالح ولَيَتَّبِعُنَّهُ، فلما أعطَوهُ على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح إلى صلاته ودعا الله تعالى، فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة: جوفاءَ، وبَرْاءَ، يتحركُ جنينُها بين جنبيها، وبركتْ بين أيديهم، ونتجتْ سقباً عظيماً، عندها قال لهم صالح عليه السلام: ﴿ قَالَ

﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥ ﴾ [الشعراء].

قال ابن كثير: لما رأوْها شاهدوا منظراً هائلاً، وقُدرةً باهرةً، ودليلاً قاطعاً، وبُرهاناً ساطعاً، فآمن بصالح الكثير من قومه، ولكن الأكثرين أصروا على الكفر، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩ ﴾ [الإسراء]، أي آية مبصرةً واضحةً بينةً على صِدْقِ صالح: ﴿ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ ﴾: أي كذبوا بها وعقروها، فظلموا بذلك أنفسهم، وعرَّضوها لعذاب الإبادة فأبادهم الله بالصيحةِ وهم ظالمون.

وقوله: ﴿ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩ ﴾: أي نرسل الآيات مع الرسلِ لتخويفِ الناس عاقبة الكفرِ لعلَّهم يخافون فيُطيعون؛ لأنَّ سُنَّةَ الله أنَّ الأُمم إذا طلبوا الآياتِ ثم كذَّبوا بها بعد نزولها أنهم يُعذَّبون أو يُسْتأصلون، كما قال تعالى حاكياً عن الحواريين لما طلبوا معجزة المائدة، ثم أجابهم إلى طلبهم فقال: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥ ﴾ [المائدة].

وجاء ذكر الناقة في سورة القمر: ﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ٢٣ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ٢٤ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ٢٥ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ٢٦ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ٢٧ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ٢٨ ﴾ [القمر].

وقولهم: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ٢٤ ﴾.

أي كيف نتَّبعُ واحداً منا هو مِنْ آحادِ الناسِ ليس عظيماً، ونحن جماعةٌ كثيرون، قالوا ذلك حسداً أنْ يكونَ أحدُ الناسِ يَفْضُلهم وما علِموا أنَّ الفضلَ بيد الله يؤتيه من يشاء، ويُفيضُ نورَ الهدى على مَنْ رَضِيَهُ، فإنْ رضينا

به فنحن ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ٢٤﴾، والضلال: البعدُ عن الصواب.

والسُّعُر: الجنون.

قال ابن عباس: يُقال: ناقة مسعورةٌ: كأنها من شدَّة نشاطِها مجنونة.

قال الشاعر:

كأنَّ بها سُعراً إذا السفْرُ هزَّها ... ذميلٌ وإيقاعٌ من السّير مُتْعِبُ

ثم قالوا: أَأُنزِلَ عليه الوحي من بيننا كُلنا، وفينا مَنْ هو أحقُّ منه بالنبوة؟

لا، بل هو متكبرٌ بَطِرٌ، حَمَلَهُ بطَرُهُ وكِبرُهُ وحبُّهُ التعظمَ أن ادَّعى ذلك، فردَّ الله عليهم بقوله سبحانه: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ٢٦﴾، عند نزول العذاب بهم.

وقد روى أبو الزبير عن جابر قال: لما نزلنا الحِجر مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قال ﷺ: «يا أيها الناس لا تسألوا في هذه الآيات، هؤلاء قومُ صالح سألوا نبيهم أن يبعث لهم ناقةً، فبعثَ الله عز وجل إليهم الناقةَ، فكانت تَرِدُ من ذلك الفجِّ فتشربُ ماءهم يوم وِرْدِها، ويحلبون منها مثل الذي كانوا يشربون يومَ غِبّها».

قال القرطبي: وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ٢٨﴾.

أي يَحضُرُهُ من هو له.

قال مقاتل: الناقةُ تحضُر الماءَ يوم وِرْدِها، وتغيبُ عنهم يومَ وِرْدِهم.

وقال مجاهد: إنَّ ثمودَ يحضرون الماء يوم غيابها فيشربون، ويحضرونَ اللبن يوم وُرودِها فيحلبون.

قال المؤرخون: بدأَ عدد المؤمنين يزدادُ، وأسلم رجل من كبار ثمود اسمه «جُندع بن عمرو بن محلاة»، وصار قائد المؤمنين.

ومال إلى الإسلام أحدُ زعماء ثمود الكبار واسمه «شهاب بن خليفة»، فاجتمعَ الملأُ من ثمود وكان منهم: «الحُباب»: كبير سَدنة الأوثان، وآخر اسمه: «ربابُ بن صِعر»: وهو كاهنهم، وأحد كبار زعماء ثمود وهو «ذُؤابُ بن عمرو»، واجتمعوا مع شهاب بن خليفة الذي مالَ إلى الإسلام بدعوةِ «جندع بن عمرو بن محلاة»، فعادَ شهابٌ إلى الكفر بعد أن مالَ إلى الإسلام بتأثير هؤلاء الملأ من قومه، فقال رجل من المسلمين اسمه «مَهرِشُ بن غَنَمَة» شعراً قال:

وكانت عُصبةٌ من آل عمروٍ ... إلى ديـن النبي دَعَــوْا شهابا
عـزيـزَ ثـمـودَ كلِّهم جميعاً ... فهمَّ بـأن يُجيـبَ ولـو أجابا
لأصبحَ صالحٌ فينا عزيزاً ... وما عدلوا بصاحبهم ذُؤابـا
ولكنَ الـغُـواةَ من آل حجرٍ ... تولَّوا بعدَ رُشدهم ذبابا - شؤم

وهكذا كانت الناقة معجزةً من وجوه ثلاثة:

الأول: معجزةٌ لأنها خرجت من صخرة.

الثاني: شربُها لماءِ أُمةٍ أمرٌ عجيب.

الثالث: حَلْبُهُم منها بمقدارِ شِرْبها.

قال أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي صاحب «الكشاف»: إذا كان يوم شِربها وضعتْ رأسها في البئر فما ترفعُهُ حتى تشربَ كلَّ ماءٍ فيها، ثم تتفجَّجُ: أي تُفْرِجُ رجليها، فيحتلبون ما شاؤوا حتى تمتلئ أَوانيهم فيشربون ويدَّخرون.

قال أبو موسى الأشعري: أتيتُ أرضَ ثمود فذرعتُ مصدرَ الناقة فوجدتُهُ ستين ذراعاً.

تفجُّرُ العداوة:

طلبوا المعجزة: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الشعراء].

وعيَّنوا الآية، ﴿ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الشعراء].

وحَذَّرهم من المساسِ بها أو إيذائها: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ ﴾ [هود].

أقامت الناقة بينهم، واستمر الوضعُ سلمياً لفترةٍ، بدأ فيها عدد المؤمنين يزداد لما رأوْا من هذه المعجزة، ولكن هذا الواقع لم يُرْضِ كبارَ الكفرةِ الذين رأوْا أنَّ الأمرَ إذا بقيَ على ذلك فستكون الزعامةُ لنبي الله صالح، وسيزداد المؤمنون زيادةً تُهدد مركزهم وزعاماتِهم فقرَّروا عقرَ الناقة لقطعِ سيل الإيمان المتدفق.

قال البغوي في «تفسيره معالم التنزيل»: كانت الناقة تُصيِّفُ إذا جاء الحرُّ بظهر الوادي، فتهربُ منها مواشيهم من البقر والغنم والإبل فتهبطُ إلى بطن الوادي، فإذا كان الشتاء نزلت إلى بطن الوادي فتهربُ المواشي إلى ظهر الوادي، والجوُّ بارد، فأضرَّ ذلك بمواشيهم، فصَعُبَ ذلك عليهم، فعَتَوْا عن أمر ربهم، وحملهم ذلك على عقر الناقة، فأجمعوا على عقرها.

قال البغوي: وكانت امرأتان من ثمود يُقال للاولى «عنيزة بنت غنم بن

مجلز» تُكنى بأم غنم، كانت عجوزاً مسنَّةً، وذات مالٍ كثير من إبل وبقر وغنم، ولها بنات حِسانٌ، وامرأة أُخرى يُقال لها: «صدوفٌ أو صَدَقَةٌ بنت المحيا بن دهر»، وكان الوادي يُقال له: «وادي المحيا»، وكانت صدوفُ جميلة ذاتَ ثروة طائلة من المواشي، كانت المرأتان من أشدِّ الناس عداوة لصالح، وكانتا تُحبانِ عقرَ الناقة لما حصلَ لمواشيهما، فَتَحَيَّلتا في عقر الناقة، ولكن كيفَ؟

دعت صدوفُ رجلاً من ثمود يُقال له: «الحُباب» لعقر الناقة، وعرضت عليه نفسها إن فعل ذلك، فأبى عليها. فدعت ابن عم لها يُقال له: «مصدع بن مهرج بن المحيّا»، وجعلت له نفسها على أن يعقرَ الناقة، وكانت من أحسن الناس وجهاً، وأكثرهم مالاً، فأجابها لذلك، وكانت قبل ذلك زوجة لرجل هو ابن خالٍ لها اسمه «صُنتم بن هراوةَ بن سعد بن الغطريف» من بني هُليّل، وكان قد أسلم مع صالح، ففارقتهُ من بعد مناهرةٍ بينهما.

أما المرأة الأولى وهي «عنيزة بنت غـنـم» فدعت رجلاً اسمه «قُدارُ بن سالف» من آل قُرح، كان أحمرَ أزرقَ قصيراً، يقولون إنه ولد زانية من رجل اسمُهُ «صهياد»، ولمْ يكن سالفُ والده، ولكن تربى عنده ونُسب إليه.

دعت عُنيزةُ قِداراً، وعرضت عليه أن تزوجه أي بنت يختارُها من بناتها الأربع، فرضي بذلك.

وفي البخاري عند تفسيره سورة «الشمس» عن عبد الله بن زَمْعَةَ أنه سمعَ النبي ﷺ يخطبُ، وذكر الناقة والذي عقرها، فقال ﷺ عند قوله تعالى: ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ ﴾ [الشمس]، «انبعثَ لها رجلٌ عزيزٌ[(١)] عارمٌ[(٢)] منيعٌ[(٣)]

---

(١) عزيزٌ: قليل مثله.

(٢) عارمٌ: صعب كثير الشرَّ.

(٣) منيعٌ: يمنعُهُ رهطُهُ، مثل أبي زمعةَ كان ذا مكانة محميّاً من قومه.

في قومه مثلُ أبي زمعة».

قال المفسرون: التقى هذان الشقيَّان، وسعيا في قومهما ليجدا من يشاركُهُما في ذلك العمل، وهو عقر الناقة، فاستجاب لهم سبعة آخرون، فصار المجموع تسعة وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل]، قام هؤلاءِ الرهطُ، بجولةٍ في مدينةِ الحِجر وما حولها، وحسَّنوا للناس عقرَ الناقة، فأجابوهم وطاوعوهم على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

لماذا قال: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾؟

والجواب: لأن الإنسان قد يُفسد في شيء ويُصلح في آخَر.

مثل الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، أما هؤلاء، فكانوا أهل فسادٍ محضٍ لا يعرفون الصلاحَ، فإنْ رأَوْا صلاحاً عمدوا إليه فأفسدوه، فكأنهم مُصرّون على الفساد والإفساد، وللإفساد قومٌ ينتفعون به، لذلك يُدافعُ هؤلاء عن الفساد، ويُعارضون المصلحين الذين يُصلحون فَيُعَطّلون على أهل الفساد منافِعَهم من هذا الفساد.

لذلك قال أحد المفسرين المعاصرين: إن صاحب الدين والخُلُقِ والمبادئِ - في أي مصلحةٍ - تراه مكروهاً من هذه الفئة التي تنتفع من الفساد، يتتبَّعونه بالهمزِ واللمزِ والهُزْءِ، ويقولون عنه - حَنبَليٌّ - ولذلك لم يقف في وجه الرُسُلِ إلا هذه الطوائف المنتفعة بالفساد.

عقر الناقة:

قال ابن جرير والبغوي: وانطلقوا يرصدون الناقة حين صَدَرَتْ عن

الماء فكَمِنَ لها «قُدار» في أصلِ صخرة على طريقها، وكمن لها «مصدع» في طريق آخر، فمرتْ على مصدع أولاً فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها، وخرجت أم غنم «عُنيزة» ومعها ابنتها وكانت من أحسن الناس، ثم أمرت الأم ابنتها فأسفرت لقدارٍ، ثم ذَمَرَتْهُ فشدَّ على الناقة بالسيف فكشفَ عُرقوبها فخرّتْ ورغت رُغاءةً واحدةً تُحذِّرُ سَقْبَها، ثم طعن في لبَّتِها فنحرها، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القمر].

وقوله: ﴿ فَٱرْتَقِبْهُمْ ﴾: أي ارتقب أحوالاً ستحصل لهم مع الناقة.

وقوله: ﴿ وَٱصْطَبِرْ ﴾: الاصطبارُ: الصبرُ القوي الذي لا يعتريه مللٌ ولا ضجرٌ، أي اصبر على أذاهم ولا تيأس من النصر.

وقوله: ﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾، وهو «قُدار بن سالف»، ويُعرف عند العرب بأحمر عاد؛ لأنَّ ثموداً إخوة لعاد، ومنه قول زهير في وصف الحروب والتنفير منها:

فتُنْتِجُ لكم غلمانَ أشأمَ كلُّهم   كأحمرِ عادٍ ثم تُرْضعُ فتَفْطِمِ

وقوله: ﴿ فَتَعَاطَىٰ ﴾: أي تناول، وصيغة التفاعل: تعاطى: تفاعلَ، تدلك على تردُّدِهم في الإقدام على قتل الناقة، فكان كل واحد يُحجم عن مباشرة القتل كأنه يُعطي ما بيده إلى غيره حتى أخذ قُدارُ ذلك.

وقوله: ﴿ فَعَقَرَ ﴾: عطفَ بالفاءِ للدلالة على سُرعة فعلهِ لما دَعَوْهُ له.

والعقر: أصله ضرب البعير بالسيف على عراقيبه ليسقط إلى الأرض جاثياً فيتمكن الناحرُ من نحره، قال أبو طالب:

ضَروبٌ بنصلِ السيفِ سوقَ سمانِها
إذا عَـدمـوا زاداً فإنك عاقرُ

قال القرطبي: والعرب تُسمي الجزار «قُداراً» تشبيهاً «بقدار بن سالف» مشؤوم آل ثمود، ومنه قول المهلهل:

إنـا لنـضربُ بالسـيوفِ رؤوسَـهم
ضربَ القُدارِ[1] نقيعَةَ [2] القُدّام [3]

قال البغوي: بعد ما نحرها «قُدارُ»، خرج أهل البلدة واقتسموا لحمها وطبخوه، وفرَّ سقبُها - ولدها - حتى أتى جبلاً منيفاً يُقال له: «صِنْوٌ» أو «قارة».

وأتى صالح، فقال له الناس: أدرك الناقة فقد عُقرت، فأقبلَ، وخرج الناس يتلَقَّونه ويعتذرون إليه: يا نبي الله، إنما عقرها فلان ولا ذنبَ لنا، فقال صالح: انظروا، هل تدركون فصيلها، فإن أدركتموه فعسى أن يُرفَعَ عنكم العذاب.

قال ابن إسحق: اتَّبَعَ السَّقْبَ أربعةُ نفر من التسعةِ الذين تآمروا على عقر الناقة، وفيهم مصدع بن مهرج، وأخوه ذابٌ، فرماهُ مصدعٌ بسهم فانتظمَ قلبه، ثم جرَّ برجله فأنزلوه عن الجبل واقتسموا لحمه مع ما بقي من لحم أمه.

وصل صالح إلى مكان السقب قبل ذبحه، فلما رآه الفصيل من بعيد بكى وسالت دموعه، ثم رغا ثلاثاً، عندها قال لهم صالح: انتهكتم حرمة الله، فأبشروا بعذاب الله ونقمته، ثم قال صالح: رغا الفصيلُ ثلاثَ رغواتٍ،

---

(١) القُدار: الجزار.

(٢) نقيعة: ما يُنحر للضيف.

(٣) القُدّام: القادمون من السفر.

لكلِ رغوةٍ يوم، وأبشروا بعذاب الله، قالوا وهم يستهزؤون: ومتى يا صالح ذلك؟ وما آية ذلك؟

قال المفسرون: وهكذا عقروا الناقة، وظلموا، وتحَدَّوا صالحاً أن يأتيهم بالعذاب، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأعراف].

وهكذا كان من عقرَ الناقة أشقى الأولين.

كما في حديث علي رضي الله تعالى عنه فيما رواه الضحاك عنه أنَّ النبي ﷺ قال لعلي: «أتدري من أشقى الأولين؟»، قلتُ: الله ورسوله أعلم، فقال ﷺ: «عاقر الناقة»، ثم قال ﷺ لعلي: «أتدري من أشقى الآخِرين؟»، قلتُ الله ورسوله أعلم، فقال ﷺ: «قاتِلُكَ».

وأخرج ابن أبي حاتم من حديث عمّار، أنه ﷺ قال لعلي: «ألا أحدثُكَ بأشقى الناس؟»، قال علي: بلى يا رسول الله، قال ﷺ: «رجُلان: أحدُهما أُحيمرُ ثمود الذي عقرَ الناقة والذي يضربُكَ يا عليُ على هذا - يعني رأسه - حتى تبتلَّ منه هذه - يعني لحيته -».

قال العلماء: وقد استحقَّ قوم صالح - وهم ثمود - العذاب من عدة وجوه، تقرؤها - ياعبد الله - في سورة [الأعراف]: ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

فجمعوا في قولهم هذا أنواع الكفر البليغ:

أولاً: خالفوا الله ورسوله، فعقروا الناقة التي كانت آية لهم مع طلب صالح منهم ألا يَمسُّوها بسوء، فخالفوا شرطَهُ كذلك مع تحذيره لهم بعذابٍ عظيمِ إن هم آذَوْا الناقة، وقد مرَّ معنا ذلك حين قال لهم صالح: ﴿ هَـٰذِهِۦ

نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ﴾[الشعراء].

ثانياً: ومن كفرهم أنهم كذَّبوا صالحاً مع قيام الدلائل الواضحة على نُبُوَّتِهِ وصدقه، ولكنَّ ضلالهم حملهم على رفض الحق، واستبعادِ العذاب، مع أنه عليه السلام نبَّهَهُم إن هم تعرَّضوا للناقة أن يكون العذاب بعد إيذائها قريباً، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ ﴾ [هود].

ولما حَصَلَ المسُّ فِعْلاً وحصل التّحدّي منهم لصالح أن يأتي بالعذاب، جاء الجواب: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾ [هود].

قال المؤرخون: كانت أسماء الأيام عندهم: الأحد: أولُ، الإثنين: أَهْوَنُ، الثلاثاء: أدبار، الأربعاء: جُبار، الخميس: مؤنس، الجمعة: العَروبة، السبت: شِيار.

وكانوا قد عقروا الناقة يوم الأربعاء، فوعَدَهم صالح العذاب يوم الأحد«أولُ»، وإنما وعدهم ثلاثة أيام لأنَّ الفصيل رغا ثلاثاً.

قال البغوي: لمّا قال لهم صالح هذا القول، قال التسعةُ الذين أفسدوا وعقروا الناقة: هَلُمَّ فلنقتلْ صالحاً، فإن كان صادقاً عجَّلناه قبلنا، وإن كان كاذباً، ألحقناه بناقته وشفينا نُفوسنا منه.

وقد ذكر الله لنا في كتابه الكريم هذه المؤامرة فقال: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ

وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟
مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ۗ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟
يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النمل].

والأرض: أرض ثمود، فالتعريف للعهد.

وقوله: ﴿ تَقَاسَمُوا۟ ﴾: فعل أمر، أي قال بعضهم: تقاسموا، والقائل يريد شمولَ نفسه معهم إذ لا يأمرهم بذلك إلا وهو شريكٌ لهم في المُقْسَمِ عليه بدليل قوله: ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ ﴾.

والقسمُ بالله يدل على أنهم كانوا يعترفون بالله، ولكن يُشركون به آلهتهم.

وقولهم: ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ ﴾: التبييتُ والبياتُ: مُباغَتَةُ العدو ليلاً.

وعكسه: التصبيحُ، وهو الغارة في الصباح، وكان شأن الغارات عند العرب أن تكون في الصباح، ولذلك يقول مَنْ يُنذر قوماً بحلول العدوّ: «يا صباحاهُ».

قال ابن عاشور: والمقصود بقولهم: ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ ﴾: أي يُغيرون على بيته ليلاً فيقتلونه وأهله غدراً من حيث لا يُعرف قاتله ثم يُنكرون أن يكونوا هم قتلوهم ولا شَهِدوا مقتَلَهم، ثم قالوا: ونؤكد لأقاربهم صدقنا وذلك قولهم: ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾، ولا شك أن قولهم هذا فيه غدرٌ وغيلة، ولذلك لما رُويَ أنه: أشار بعض وزراء الإسكندر عليه بالبَياتِ - الغدر بالعدو ليلاً - قال: ليس من آيين[1] الملوك استراقُ الظَفَر.

---

(١) آيين: عادة وبهاء.

ماذا كانت نتيجة هؤلاء المتآمرين التسعة؟

والجواب في قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥١ ﴾ [النمل].

وقوله: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكۡرٗا ﴾.

أي: التبييتُ الخفيُّ لإرادةِ السّوء بصالح وبالمؤمنين، فعاملهم الله بنقيضِ ما عزموا عليه، وعاملهم بالسوء الذي بيَّتوه لصالح.

وكان لهذا المكر عاقبة سيئةٌ، وهي الدمار، وهذا الدمار وقع على مرحلتين:

الأولى: تدمير الرَّهط التسعة: ﴿ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ ﴾، فالهاءُ تعود على الرَّهط التسعة، ثم كان التدمير **الثاني** لجميع القوم.

قال أهل العلم: تعاهد التسعة على قتل صالح وأهله، فأتَوْه ليلاً ليُبَيِّتوه فَدَفعتهم الملائكة بالحجارة.

قال ابن عباس: أرسل الله الملائكة تلك الليلة، فامتلأت بهم دار صالح فأتى التسعة وسيوفهم في أيديهم، فرضختهم الملائكة بالحجارة، فكانوا يرَوْنَ الحجارة، ولا يرونَ مَنْ يرمي، فهلكَ التسعة بعذابٍ مفردٍ عن قومهم، ثم كانت الدمدمةُ على الباقين بعد ثلاثٍ.

قال ابن إسحق: بعد هلاك التسعة برجم الملائكة لهم، استبطأهم أهلهم وأصحابهم، فأتى القوم منزل صالحٍ، فوجدوا الأشقياء وقد رُضِخوا، فقالوا لصالح: أنت قتلتهم، وحَمَلوا عليه ليقتلوه، فوقفت عشيرته دونه بالسلاح وقالوا لهم: والله لا تقتلونه أبداً، وقد وعدكم العذاب بعد ثلاثٍ، فإن كان صادقاً فلا تزيدوا ربكم عليكم غضباً، وإن كان كاذباً فأنتم من وراءِ ما

تريدون، فانصرفوا عنهم ليلتهم ينتظرون الأيامَ الثلاثة.

نزول العذاب:

قال المفسرون وعلى رأسهم ابن كثير: أصبحت ثمود يوم الخميس وهو - اليوم الأول من أيام الانتظار - ووجوههم مصفرةٌ كما أنذرهم صالح.

قال ابن الجوزي: لما رأوا اصفرار وجوههم صاحوا وبكوا، وعرفوا أنه العذاب، ثم تنادوا: ألا قد مضى يوم من الأجل، ثم أصبحوا اليوم الثاني من أيام التأجيلِ وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرةٌ فضجّوا وبكوا ونادوا مساءً: ألا قد مضى يومانِ من الأجل.

ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع المُشارِ إليه في قوله تعالى ووجوههم مسودة: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾ [هود].

وقوله: ﴿ تَمَتَّعُوا۟ ﴾: أي بِنِعم الله قبل عذابكم؛ لأنَّ الميتَ لا يتمتع بشيء.

وقوله: ﴿ فِى دَارِكُمْ ﴾: أي في بلدكم، ولو أرادَ المنزلَ لقال: في دوركم. والعرب تقول: نحن من عرب الدار، أي من عرب البلد.

أصبحوا في اليوم الثالث، وكان يوم السبت، ووجوههم مسودةٌ، كأنما طُليت بالقارِ كما قال ابن الجوزي، فلما أمْسَوا نادَوْا: ألا قد مضى الأجل.

فلما كانت صبيحةُ الأحد، قالوا: قد حضركم الموت، ثم قاموا: فتحنَّطوا، وتأهَّبوا، وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنقمةِ، لا يدرون كيف ولا مِنْ أين؟!!

قال ابن كثير: فلما أشرقت الشمس من يوم الأحد جاءتهم: صيحةٌ من السماء من فوقهم.

ورجفةٌ من أسفل منهم، قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الحجر].

﴿ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الذاريات].

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [فصلت].

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأعراف].

هنا نلاحظ أن القرآن الكريم عبَّر عن عذابهم تارة بالصيحةِ: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الحجر]، وتارةً بالصاعقة: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾، وتارةً بالرجفةِ: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾، وأصل الرجفة: حركة مع صوت ومنه قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ ﴾ [النازعات].

وتارة يُعبرُ القرآنُ الكريم عن عذابهم بالطاغية قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾ [الحاقة]، وكلها تُعبّرُ عن دَهْمِ حدثٍ ضخم مُفاجئ لا يُمكن الفكاكُ منه.

قال العلماء: الصاعقة تُحدثُ صوتاً عظيماً، فهي الصيحةُ.

وقد تكون مصحوبةً بزلزال أو رجفةٍ ترتجف القلوب من وقعِها فهي الرجفةُ.

وقد تكون في مكان ويطغى تأثيرُها على مكانٍ آخر فهي الطاغيةُ.

قال مقاتل: لما أصبحوا في اليوم الرابع – يوم الأحد – وارتفعت الشمس

ولم يأتهم العذابُ ظنوا أنهم قد رُحِموا، فخرجوا من حُفَرٍ حفروها لأنفسهم يدعوا بعضهم بعضاً، وإذا بالزلزلة تأتي مع أصوات الصواعق.

قال ابن كثير: لما كان اليوم الرابع أتتهم صيحةٌ فيها صوتُ كل صاعقةٍ.

قال مقاتل في قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل] قال: أول يوم من العذاب خرجَ في أبدانهم خُرَّاجٌ كحبةِ الحمص: احمرَّ ثم اصفرَّ ثم اسودَّ، ثم فقعت تلكَ الخُراجاتُ، ثم جاءتهم الصيحةُ.

قال ابن عباس في هذه الآية: أجد آية في كتاب الله عز وجل أنَّ الظلمَ يخربُ البيوت، ثم تلا: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾.

وفي التوراة: «يا ابن آدم لا تظلم، يَخْرَبْ بيتك».

انتبه – يا عبد الله – ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾.

فاضت الأرواحُ، وزهقت النفوسُ، وسكنت الحركاتُ، وخشعت الأصواتُ، حقَّتِ الحقائقِ، فأصبحوا في دارهم جاثمين: جُثثاً لا أرواح فيها، ولا حِراكَ بها، وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾: هذا تعريضٌ بمشركي مكة إنْ لم تتعظوا بقوم صالح فأنتم لا تعلمون.

قال المؤرخون: لم يبقَ في ديارهم أحدٌ حياً إلا جاريةً واحدةً كانت مقعدةً وهي «كلبةُ بنتُ السُّلْق»، وتُعرف بـ «الذُّرَيْعَةُ»، كانت شديدة العداوة لصالح، شديدة الكفر لدين الله، فلما رأت العذابَ أُطلقت رجلاها، فقامت تسعى كأسرعِ ما يكون، فأتت على حيٍّ بعيد من أحياءِ العرب «بني قُرح»، فأخبرتهم بما رأت، وبما حلَّ بقومها، ثم استسقتهم ماءً فلما شربت ماتت لفورها، قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ

﴿جَٰثِمِينَ ۝٦٧ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ۝٦٨﴾ [هود].

وقوله: ﴿جَٰثِمِينَ﴾: أي ماتوا ميتةً على أبشعِ منظر لميت، مُلْقَوْنَ على رُكبهم وعلى جباهِهم بلا حركة.

وقوله: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾: أي كأن لم تكن موجودة، وكأن لم يُقيموا فيها؛ لأنها صارت حصيداً.

وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡ﴾: هذا سبب العذاب، أي ستروا وجوده، فهو اعترافٌ بوجوده ولكن لم يؤمنوا.

﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾ أي طرداً من رحمة الله وهم مستحقون لذلك.

قال البغوي في تفسيره «معالم التنزيل»: أهلك الله تعالى من تحت أديم السماء منهم في مشارق الأرض ومغاربها إلا رجلاً واحداً يُقال له: «أبو رُغال»، وهو أبو ثقيف، كان في حرم الله، فمنعةُ حرمُ الله من عذاب الله، فلما خرج أصابه ما أصابَ قومه فدفن.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده من حديث جابر قال: لما مرَّ النبي ﷺ بالحِجْر حدَّثنا حديثاً، وكان مما قال ﷺ: «... فعقروها – أي الناقة – فأخذتهم صيحةٌ أهْمَدَ الله عز وجل مَنْ كان تحت أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله عز وجل»، قال الناس: من هو يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «هو أبو رُغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه» رواه الإمام أحمد مختصراً، وذكره الطبري في تفسيره وصححه الحاكم.

وذكر عبد الرزاق في «مصنفه» عن إسماعيل بن أمية، أنَّ النبي ﷺ مرَّ بقبر أبي رُغال فقال: «أتدرون من هذا؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال

ﷺ: «هذا قبر أبي رُغال، رجلٌ من ثمود، كان في حرم الله، فمنعهُ حرمُ الله من عذاب الله، فلما خرج أصابه ما أصابَ قومه، فدفنَ ههنا، ودُفنَ معه غُصْنٌ من ذهب، فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم، فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن».

قال الزهري: أبو رُغال هو أبو ثقيف.

هذا مُرسَلٌ: وهو أن يقول التابعي: قال رسول الله ﷺ.

وجاء الحديث مُتصِلاً عند ابن إسحق عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ حين خرجنا من الطائف، فمررنا بقبرٍ، فقال ﷺ: «إن هذا قبر أبي رُغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، كان بهذا الحرمِ يدفعُ عنهم، فلما خرج منه أصابته النقمةُ التي أصابت قومه في هذا المكان فدُفن فيه، وآيةُ ذلك أنه دُفنَ معه غصنٌ من ذهب، إن أنتم نبشتموه عنه أصبتموه معه، فابتدره الناسُ فاستخرجوا منه الغصن»، رواه أبو داوود، وقال الحافظ المزني: هذا حديث حسن عزيز، والعزيز: هو الحديث الذي اشترك اثنان أو ثلاثة في روايته عن الشيخ، فإن رواه عنه جماعة سُمّي مشهوراً.

وسُمّيَ عزيزاً لِقِلّتِهِ ونُدْرَتِهِ من قولهم: عزَّ، يعِزُّ، أي قلَّ وندرَ، أو من قولهم: عزَّ، يَعَزُّ، إذا قويَ بمجيئه من طريق آخر.

كان العذاب استئصالاً لم ينجُ منهم صغير ولا كبير، ولا بعيد ولا قريب، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس].

وقوله: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ﴾: أي أطبقَ عليهم العذاب من كل جانب، كما تحكي لنا العبارة صوتَ الهدّةِ، فالدمدمةُ: هلاكٌ باستئصال، أي أطبقَ الدمارُ عليهم من كل جانب، وهي كلمةٌ أصلها حبشي، ثم عرَّبها العرب

فصارت عربية، والعرب تقول: ناقة مدمومة: أي مُغشاة بالشحم.

وقوله: ﴿ فَسَوَّىٰهَا ﴾: سوى مساكنهم على قبورهم، أو سواهم فلم يُفلت أحد.

وقوله: ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾: أي لا يخافُ عاقبةَ إهلاكهم، كما يخافُ سائر المعاقبين من الولاة والسلاطين؛ لأنَّ الله لا يفعلُ ولا يُعاقب إلا بحق، وكل مَنْ فعل بحق، أو عاقبَ بحقٍ فإنه لا يُبالي بعاقبة ما صنع.

وهكذا انتهوا إلى الصورة التي صورها القرآن الكريم في [سورة القمر]: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ٣١ ﴾.

انتبه – يا عبد الله – إلى قوله تعالى: ﴿ وَٰحِدَةً ﴾، لتعلم أنَّ هذه الكلمة صفةٌ لصيحة، لتدلَّنا على أنها صاعقة واحدة خارقة للعادة نزلت عليهم، أهلكت أصحاب الحِجر كافة.

وقوله: ﴿ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴾: الهشيم هنا المُراد به ما جفَّ من أغصانِ العِضاةِ، وهو شجر كبير له شوك مفردُها: عَضِهَةٌ، وعَضاهَةٌ. وعظيم الكلأِ، كانوا يتخذون منه حظائر لحفظ أغنامهم، ولذلك أُضيف الهشيم إلى المحتظر، وهو الذي يبني الحظير ويعملها، فهو يجمع الهشيم ويُلقيه على الأرض قبل أن يُسَيَّجَ، ولذلك قال: ﴿ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴾، ولم يقل: كهشيم الحظيرة؛ لأنَّ المقصودَ بالتشبيه حالة الهشيم قبل أن يُصَفَّفَ، وقبل أن تُتَّخَذَ منه الحظيرة، كما قال ابن عاشور.

وتشبيههم بالهشيم لكونهم يابسين كالموتى الذين ماتوا من زمانٍ، أو لانضمام بعضهم فوق بعض كما يجمع الحاطبُ الحطبَ يُصفِّفُهُ فوق بعضه منتظراً حضور مَنْ يشتري.

ترى جيفَ المِطيّ بجانِبَيْهِ كأنَّ عظامَها خشبُ الهشيم

قال «صاحب اللباب»: ويُحتمل أن يكون المعنى: أنهم سيكونون في الجحيم، أي كانوا كالحطب اليابس المهيأِ للوقيد، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنبياء].

وكقوله في [سورة الجن]: ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾.

والقاسط: اسم فاعل من قَسَطَ - يقسِطُ - قَسْطاً، بفتح القاف، وقُسُوطاً بضم القاف، وهو مَنْ ظلمَ نفسه بالإشراك، أما قَسَطَ - يقسِطُ - قِسْطاً، بكسر القاف، فمعناه العدل، ولذلك لما جاء الحجاج للعالم الجليل «سعيد بن جبير» ليقتُله، قال له: ما تقول فيَّ؟ قال سعيد: قاسِطٌ عادلٌ، فقال القوم: ما أحسنَ ما قال!! ظنوا أنه وصفَ الحجاج بالعدل، فقال الحجاج: يا جهلة، إنه سمَّاني ظالماً مشركاً، وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الجن].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام]: يتركون عبادته إلى غيره.

قال أهل التفسير: وبعد أن فاضت الأرواحُ، وسكنت الحركاتُ، وخشعت الأصواتُ، وأصبحوا جُثثاً لا أرواحَ فيها ولا حَراك، التفتَ نبي الله صالح إليهم وإلى ديارهم مُخاطباً حزيناً لكونهم لم يستجيبوا لدعوة الحقِ، ولم يُعمِلوا عقولهم فقال: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأعراف].

تولى عنهم، إثرَ ما شاهدَ ما جرى عليهم من الهلاك.

﴿ وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ ﴾ - أي وقت الدعوة بالترغيب والترهيب - والنصيحةُ منيحةٌ تدرأُ الفضيحة.

﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩ ﴾: الآمرين بالهدى لاستملاءِ الهوى، لأنَّ شأنكم كان الاستهزاءُ بمن نصحكم؛ لأنَّ قول الناصح ثقيل، والحقُّ مرٌّ، وهما يُفيدانِ البُغضةَ كما قال الشاعر:

وكم سُقتُ في آثارِكُم من نصيحةٍ   وقد يستفيدُ البُغْضَةَ المُتَنَصِّحُ

وهذا الموقف من صالح يُشبه موقف نبينا محمد ﷺ كما ثبت في الصحيحين أنه ﷺ بعد أن ظهرَ على أهل بدر، أقام هناك ثلاثاً، ثم أمر براحلته فَشُدَّت بعد ثلاثٍ من آخر الليل ركبها ﷺ ثم سار حتى وقفَ على القُليبِ، قُليب بدر فجعل يقول: «يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، ويا فلان، يا فلان: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدتُ ما وعدني ربي حقاً»، فقال له عمر: يا رسول الله، ما تُكلم من أقوام قد جَيَّفوا؟ فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم ولكنهم لا يُجيبون».

قال ابن كثير: وفي كتب السيرة أنه ﷺ قال لهم: «بئسَ عشيرة النبي كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فبئسَ عشيرة النبي كنتم لنبيكم»، فلم تنتفعوا بذلك لأنكم لا تحبون الحقَّ، ولا تتبعون ناصحاً، ولهذا قال: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩ ﴾.

قال الضحاك: خرج صالح بأربعةِ آلاف مؤمن بَنَوْا مدينة يُقال لها «حاضورا»، وهم الذين نجوا مع صالح، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ

ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ [هود].

وقال: ﴿ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النمل].

وقال: ﴿ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [فصلت].

وأخرج أبو الشيخ عن وهب قال: إن صالحاً لما نجا هو والذين معه قال: يا قومِ هذه دارٌ قد سخطَ الله تعالى عليها وعلى أهلها فاظْعنوا والْحَقوا بحرم الله تعالى وأمْنِهِ، فأهَلُّوا من ساعتهم بالحج وانطلقوا حتى وردوا مكة فلم يزالوا بها حتى ماتوا، فتلك قبورهم في غربيّ مكة.

وفي حديث أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما مرَّ رسول الله ﷺ بوادي «عُسفان» حين حجَّ قال ﷺ: «يا أبا بكر: أيُّ وادٍ هذا؟»، قال: هذا وادي عُسفان، قال ﷺ: «لقد مرَّ به هود وصالح عليهما السلام على بكراتٍ خُطُمُهنَّ اللّيفُ، أُزُرُهم العباءُ، وأرديتُهم النِّمارُ، يُلبّونَ يحجونَ البيتَ العتيق» حديث غريب.

ولكن المحققين من أهل العلم يقولون: إنه توفي بمكة وهو ابن ثمانٍ وخمسين سنة، ثم يقول الآلوسي: ولعل هذا القول هو المُعوَّلُ عليه.

الموعظةُ:

بماذا أُخذوا؟ ما سبب هلاكهم؟

والجواب: الذنوب والمعاصي، من ظلم، وكسبٍ حرام وفساد وغير ذلك.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ ﴾ [الشمس]

قال الآلوسي: وقوله: ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾: أي بسبب ذنبهم، والتصريح بذلك مع دلالة الفاء ﴿فَدَمۡدَمَ﴾ للإنذارِ بعاقبة الذنوب ليعتبر به كل مذنب، وما أجمل قول ابن الجوزي في «صيد الخاطر»: إنَّ ما يجري في الدنيا، فكلُّ ظالمٍ معاقبٌ في العاجلِ على ظلمه قبل الآجل، وكذلك كل مذنبٍ ذنباً، وهذا معنى قوله عز وجل: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣﴾ [النساء].

قال الحسن: هذه الآية لمن أراد الله هوانه، أما من أراد الله كرامته فإنه يتجاوز عن سيئاته، قال عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾ [الأحقاف].

والمعنى: أنَّ القضية ليست قضيةَ أماني يا أيها المؤمنون، ولكنَّ المسألة مسألةُ عملٍ، لأنَّ انتسابكم للإسلام لا يفيد دون عمل وطاعة واستقامة.

قال ابن الجوزي: وربما رأى العاصي سلامة بدنٍ، وسلامة مالٍ – أي بعد فعل الذنب – فظنَّ أن لا عقوبة على حدِّ قول القائل:

إذا لم يُغبّرْ حائطٌ عند وقعِهِ   فليس له بعدَ السقوطِ غُبارُ

وغفلتُهُ عما عوقبَ به عقوبةٌ، فالمعصية بعد المعصية عقاب، والحسنةُ بعد الحسنةِ ثواب، وقد يكون العقابُ الذي يغفلُ عنه المذنبُ مادياً، لكن الله يُمهلُ فاعله؛ لأنَّ أفعال الباري تقوم على العدلِ، وتقوم على أنَّ الجزاء بالمرصاد للجاني ولو تأخّرَ إلى حين، واسمع معي إلى قصة: روى عبد الرحمن بن أبي ليلي عن معاذ بن جبل بإسناد حسنٍ قال: كان في بني إسرائيل رجل عقيم لا يولد له، فكان يخرج من بيته، فإذا رأى غُلاماً من غلمان بني إسرائيل عليه حُليّ، يخدعه حتى يُدخله بيته، فيقتلهُ ويُلقيه في مطمورة له.

وكانت له امرأة مسلمة صالحة تنهاه عن ذلك وتقول له: إني أُحذّرك النقمة من الله عز وجل، فكان يقول: لو أنَّ الله أخذني عن شيء أخذني في يوم كذا وكذا، فتقول: أُحذركَ النقمةَ، فيُكرر قوله: لو أنَّ الله أخذني لأخذني في يوم كذا وكذا، فتقول له: إذا امتلأ صاعُكَ أَخَذَكَ.

قال الرواة – وهو البيهقي في «شرح شعب الإيمان»– : ولقي هذا المذنب مرةً غلامين أخوين عليهما حُلي، فأدخلهما وقتلهما، وطرحهما في المطمورة، ويخرج أبوهما لطلبهما بعد فقدهما، وسعى سعياً حثيثاً فلم يجد خبراً لهما، فأتى نبياً من أنبياء بني إسرائيل فذكر له قصة ولديه، فقال له النبي: هل كان لهما حاجة يلعبان بها؟ قال الوالد: نعم، جَرْو، قال: ائتني به، فأخذه ثم وضع ذلك النبي خاتمه بين عيني الجروِ، ثم خلّى سبيله.

فسار الجرو إلى بيت القاتل، ووقفَ على المطمورة التي قُبِرَ فيها الولدان، فنُبشت بأمر الوالي، وأُخرجت الجثثُ، وحُكم عليه بالقتل مصلوباً، وعند التنفيذ جاءت زوجته الصالحة وقالت له عندما رُفِعَ للصّلب: ألم أُحذرْك؟ ألا وإنَّ صاعك قد امتلأ اليوم.

قال العلماء: وربما كان العقاب العاجل معنوياً، كما قال بعض أحبار بني إسرائيل: يا رب كم أعصيك ولا تُعاقبني؟

فقيل له: كم أُعاقبكَ ولا تدري، أليسَ قد حرمتُك لذة مناجاتي؟

فرُبَّ شخص أطلق بصره في حرام فحُرمَ اعتبار بصيرته.

ورُبَّ شخص أطلق لسانه في حرام فحُرمَ صفاء قلبه.

ورُبَّ شخص آثرَ شُبهةً في مطعمه فأظلمَ سرّه، وحُرمَ قيامَ الليل وحلاوة المناجاة.

وعلى العكس يجدُ المتقي حُسنَ الجزاء على التقوى عاجلاً، كما في حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ في الحديث القدسي يقول الله عز وجل: «النظرةُ إلى المرأة سهمٌ مسمومٌ من سهام الشيطان، من تركه ابتغاء مرضاتي آتيتهُ إيماناً يجدُ حلاوته في قلبه».

وهكذا شأن الصالحين.

حُكيَ عن بعض مشايخ السلف، أنه اشترى جارية في شبابه، قال: فلما ملكتُها مالت نفسي إليها، فما زلت أسأل الفقهاء لعل واحداً منهم يُرخصُ لي، فكلهم قال: لا يجوز النظر إليها بشهوة ولا لمسها ولا معاشرتها إلا بعد حيضها.

قال: فسألتُها، فأخبرتني أنها اشتُريت وهي حائض، فقلت في نفسي: قرُبَ الأمر، فسألتُ الفقهاء فقالوا: هذه الحيضة لا تُحسب، فلا بد أن تحيضَ وهي في مُلكِكَ.

قال: فقلتُ لنفسي وهي شديدة الميل لقوة الرغبة فيها، وتمكُنِ القدرة، وقربِ المصاحبة: ما تقولين؟

فقالت: الإيمان بالصبر على الجمر شئت أم أبيتَ.

قال: فصبرتُ إلى أن حانَ ذلك فأثابني الله تعالى على ذلك الصبر نيلُ ما هو أعلى منها وأرفع.

فإذا تأخرت العقوبة فلا تغترَّ – يا عبد الله – فالجزاء قد يتأخر وعليك أن تترصد وقوع الجزاء.

قال ابن سيرين – محمد من عُبَّاد البصرة وعلمائها توفي سنة ١١٠ هـ –: عَيَّرْتُ رجلاً فقلت: يا مفلس، فأفلستُ بعد كذا وكذا سنة .

وقال ابن الجلاء: رآني شيخٌ لي وأنا أنظر إلى أمردَ، فقال: ما هذا؟ لتجدن

غِبَّها، فنسيتُ القرآن بعد كذا وكذا..

وعلى العكس من هذا، مَنْ عملَ الخير وصحح النية فلينتظر ثوابها الحسنَ وإن امتدَّت المدةُ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف].

فاحذر - يا عبد الله - الذنوب ولا تستصغرْها، فلا تسمحْ نفسُك بذنبٍ وتقول: إنه بسيط، وقد يقدحُ هذا الذنب في الأصول كما قال ابن الجوزي، كاستعارة طلاب العلم جزءاً لا يردُّونه.

وكقصدِ الدخول على من يأكل ليؤكلَ معه.

والتسامحِ بغيبة إنسانٍ تكرهُهُ أو تُعاديه التذاذاً بالطَّعن بِعِرْضِهِ استصغاراً لهذه الذنوب، وكفتوى من لا يعلم لئلا يُقال هو جاهل.

وهذه الأمور على صغرها قد تَحُطُّ صاحبها من مرتبة المتميزين والمحترمين.

وقد يُقال له بلسان الحق: يا مَنْ أئتُمن على أمرٍ يسير فخانَ.

قال بعض السلف: تسامحتُ بلقمةٍ فتناولتُها فأنا منذ أربعين سنة إلى خَلْفٍ.

فاحذر - يا عبد الله - ظُلمَ نفسك بالمخالفات، واحذر ظلمَ غيرك بأكل الحقوق، وفتش دخلكَ وخرجَكَ، من أين وإلى أين، لنكون على حذر بعيداً عن الغفلة.

حدَّثَ «عثمان بن زفر» قال: خرج سليمان بن عبد الملك، ومعه عمر بن عبد العزيز إلى صيد أو نزهة، فلما قضيا شأنهما، اطَّلَع على عسكره - عسكر سليمان - فأُعجبَ سليمان بذلك، فقال لعمر: يا أبا حفص: ما ترى؟ قال: أرى دنيا يأكلُ بعضُها بعضاً، وأنت المسؤول عنها، فسكت سليمان عنه ثم انتهى مسيرهُما إلى فسطاط، فطار غراب وفي مخالبه لقمةٌ قد حملها الغراب

من الفِسطاط، ثم نَعَبَ الغراب.

قال سليمان لعمر: ما يقول يا عمر؟ قال عمر: ما أدري.

قال سليمان: ظُنَّ يا عمر، قال عمر: أراه يقول: من أين جاءت؟ وأين يذهبُ بها؟ قال سليمان: ما أعجبك؟ قال عمر: أعجبُ مني مَنْ عرفَ الله وعصاه، ومن عرفَ الشيطان فأطاعه، فسكت سليمان.

وما أجمل قول الوراق:

ألا أيها المستطرفُ الذنبَ جاهلاً   هو الله لا تخفى عليه السرائرُ
فإن كنتَ لم تعرفْهُ حين عصيتَهُ   فإن الذي لا يعرفُ الله كافرُ
وإن كنت من علمٍ ومعرفةٍ به   عصيتَ فأنت المستهينُ المجاهِرُ
فأيةُ حاليكَ اعتقدتَ فإنه   عليمٌ بما تُطوى عليه الضمائِرُ

فتيقظ - يا عبد الله - فالمتيقظونَ ينتبهون للإشارات حتى من كلام العوام، فقد ذكر ابن عقيل عن أحد شيوخه الكبارِ أنه سمعَ امرأة تنشُدُ:

غسلتُ له طولَ الليلِ   فركتُ له طولَ النهار
خرجَ يُعاينُ غيري   زلق وقع في الطين

فأخذ الشيخ إشارة من كلامها معناها: يا عبدي: إني حسَّنتُ خلقَكَ وأصلحتُ شأنَكَ، وقوَّمْتُ بُنيتكَ، فأقبلتَ على غيري، فانظر عواقبَ خلافك لي.

فاحرص في دنياك على سلامة دينك، ولا يهمك ولا يضرك ما فاتك منها بعد ذلك.

قال موسى بن طريف:

إذا أبقت الدنيا على المرءِ دينهُ   فما فاتهُ منها فليس بضائر

إبراهيم

عليه الصلاة والسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

إبراهيم عليه الصلاة والسلام

بسم الله، والحمد لله القوي المتين، والقاهر الظاهر المبين، لا يعزُبُ عن سمعه أقلُّ الأنين، ولا يخفى على بصره حركات الجنين، سبحانه وتعالى قصَّ علينا قصة إبراهيم أبي الأنبياء جميعاً والمرسلين، فقال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنبياء].

نحمده حمدَ الشاكرين، ونسأله معونة الصابرين، ونصلي ونسلم على محمد عبده ورسوله النبي الأمي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

كلامنا اليوم عن أبي الأنبياء «إبراهيم» فكلُّ نبي جاء من بعده كان من نسله، فهو أبو الأنبياء الأكبر من بعد نوح، وإبراهيم هو الاسم العلمُ لخليل الرحمن، فهو: إبراهيم بن آزر بن ناحور.

قال صاحب كتاب «أيسر التفاسير»: كان لوالد إبراهيم اسمٌ آخر هو «تارح» فيكون كيعقوب له اسم آخر، وهو «إسرائيل».

وقال الطبري: اسمه «آزر»، و«تارح»، فأحدهما اسم والآخر لقب.

والراجح الذي عليه المحققون أن اسم أبيه «آزر»، لورودِ صريح القرآن به، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام].

وورد في السنة الصحيحة أنَّ اسمه «آزر»، ففي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترةٌ وغبرةٌ، فيقول إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب: إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون،

وأي خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقول الربُّ عز وجل: «إني حرّمتُ الجنة على الكافرين»، ثم يقال: يا إبراهيم انظر ما تحت رجليك، فينظر فإذا بذيخٍ متلطخ - الذكر من الضباع -، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار».

وفي حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ليأخذنَّ رجلٌ بيد أبيه يوم القيامة، فيُقْطِعُهُ النار»، قال: فكان أصحاب النبي ﷺ يرون أنه أبو إبراهيم.

قال المحققون: والغريبُ أنَّ بعض المفسرين قالوا: إنَّ اسمَ عمه لأمه «آزر»، والعم كالأب، والذي دفعهم إلى القول أنَّ «آزر» اسم عمه أنهم أرادوا أن يُنزهوا «إبراهيم أبا الأنبياء» أن يكون من أب مشرك؟!! مع أنَّ الأمر لا يُخلُّ بمقام إبراهيم، ولا يُنقص من قدره، فإنَّ الهداية بيد الله تعالى، وكفى بثناء الله عليه بقوله عز وجل: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١ ﴾ [مريم]، وذكر إبراهيم هنا تسليةٌ للنبي ﷺ على ما لقي من مشركي قومه لمشابهةِ حالهم بحال قوم إبراهيم، وما لاقى منهم.

إبراهيم الذي كان يُساوي في مواهبه أُمةً كاملة: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ ﴾ [النحل].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴾، وكلمة «صِدّيق»: تعني المبالغةَ في الصدق، أي قد بلغ الغايةَ في تصديقِ ما يأتي من الله تعالى، فهو يُطيعُ ويُذعن للتكليف ولا يُناقش، ولا يصدُّه عن تنفيذ أمر الله صادٌّ، مثل مبادرته إلى محاولة ذبح ولده حين أمر الله بذلك وحياً في الرؤيا.

فصِدّيق: صيغة مبالغة، فهو إذن الذي بلغَ الغاية القصوى في تصديق الحقّ، والعرب تستعمل هذه الصيغة لبيان ذلك، فيقولون: الملك الضّليل - لأنه لم يهتدِ إلى طريق يسترجع فيه مُلكَ أبيه - وهو لقب امرئ القيس،

ويقولون: رجلٌ مسّيك، أي شحيحٌ، ويقولون: طعامٌ حرّيف، الطعام الذي يلذع اللسان، ويقولون: دليلٌ خِرّيت، وهو الدليل الماهر كأنه يخرِتُ المجاهلَ ببصره، أي يثقبها.

ومن هنا سُميَ أبو بكر: «الصدّيق»؛ لأنه يُصدق كلما جاء به الرسول ﷺ، ووصف الله عز وجل مريم بأنها «صديقةٌ» فقال: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ﴾ [المائدة ٧٥]، فهي صِدّيقة لأنها صدَّقتْ بقول المَلَكِ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩﴾ [مريم]، فوثقت بهذه البشارةِ، ولذلك لما أشارت إلى المولود «عيسى» كانت على ثقة كاملةٍ أنه سينطق ويتكلم.

والصدّيق قد يكون غير نبي – كما في أبي بكر ومريم وأم موسى التي لم تُناقش الإلهام الرباني الذي ألهمها – ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧﴾ [القصص].

أما في إبراهيم عليه السلام، فقد جمع الله له الصدّيقيةَ التي هي صفةٌ ذاتيةٌ إشراقيةٌ من الله، مع النبوة التي هي عطاءٌ يأتي من الخالق ليُحمِّلَ النبيَّ مسؤولية الدعوة إلى الحق: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١﴾ [مريم].

مولد إبراهيم:

بعض المؤرخين والأخباريين يقولون: إن إبراهيم ولد في غوطة دمشق في قرية يُقال لها «برزة»، وهذا الكلام غير صحيح.

قال ابن كثير: المكان الموجود في قرية «برزة» هو مقام له، أقام به فترة

عندما جاء مُعيناً لابن أخيه لوط في ردِّ مالٍ سُرِقَ للوط.

ثم قال: إنَّ أكثرَ أهل التاريخ والسير والتفسير، قالوا: إنه ولد «ببابل».

قال ابن عساكر في «تاريخه»: والصحيح أنه ولد ببلد يُقال لها «كوثى»، من أرض بابل.

قال ياقوت: وبابل: بلاد كبيرة، بعض أجزائها الكوفة، والحلَّة، وإلى بابل يُنسب السحر والخمر، قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ﴾ [البقرة ١٠٢]، كما أن الشعراءَ إذا أرادوا مدح الخمر قالوا إنه من بابل، ومن ذلك قولهم:

بابليةٌ أمُّها العنبُ

وبابلُ في أرض العراق إذن، ويُقال لها الآن أرض السواد، وكانت ولادة إبراهيم في بلدة «كوثى» من بابل في عهد الملك «النمرود بن كنعان بن كوش».

قال المؤرخون: وهناك ثلاثة أماكن تُسمى بـ «كوثى»:

الأول: اسم مكان في مكة، ويُعرف الآن بمنزل «بني عبد الدار»، لذلك يقول الشاعر:

لعن الله منزلاً بطنَ كوثى ورماه بالفقر والإمعار
لستِ كوثى العراقِ أعني ولكن كوثة الدار دار عبد الدار

الثاني: كوثى: اسم نهرٍ في العراق يُعرف بنهر كوثى، حفره «كوثى» جدُّ إبراهيم عليه السلام، وأخذه فرعاً من الفرات فسُمّي باسمه.

الثالث: وهوالمكان الذي نحن بصدده، وهو بلدٌ بأرض بابل من أرض

العراق في السواد، وهي التي ولد فيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وهذه البلدة افتتحها المسلمون في السنة العاشرة من الهجرة بقيادة «سعد ابن أبي وقاص»، وقاتل المسلمون أهلها قتالاً شديداً، وقد قال في ذلك شاعر من المسلمين كان مع سعد بن أبي وقاص في تلك المعركة، حيث قال:

لقينا بكوثى شهريار نقودُهُ   عَشِيَّة كوثى والأسنةُ جائرة
وليس بها إلا النساء وفُلُّهم   عشيةَ رحنا والعناهيجُ حاضرة
أتيناهم في عقر كوثى بجمعِنا   كأنَّ لنا عيناً إلى القوم ناظرة

والنسبة إلى كوثى: كوثي، تقول: رجل كوثي أي من بلد كوثى، ولكن المستعمل في النسبة: كوثاني، وهو خلاف القياس، ولكنه هو المستعمل.

قال المؤرخون: ولد إبراهيم بعد أن بلغ والده من العمر خمساً وسبعين سنة، وإبراهيم هو الابن الأكبر لآزر، حيث ولد له بعد إبراهيم اثنان «ناصور، وهاران»، ثم جاء لهاران ولد سماه «لوطا»، فلوطٌ ابن أخي إبراهيم، فإبراهيم عمه، وأهل الكتاب يقولون إن إبراهيم الولد الأوسط لآزر، ولكن الصحيح الأول، ومعنى إبراهيم بالسريانية: «أب راحم»، «فتح الباري ج ٦ ص٣٨٩».

لقب إبراهيم:

قال عكرمة: كان إبراهيم يُلقَّبُ بأبِ الضيفان؛ لكثرة ضيوفه، ثم قال: وكان لقصره أربعة أبواب؛ لئلا يفوته أخذُ الضيف.

وذكر ابن جرير عن السدي قال: كان إبراهيم كثير الطعام يُطعم الناس ويُضيّفهم، وكان يذبح الشاءَ والنَعَمَ لضيوفه، وقد ذكر الله تعالى لنا في كتابه طرفاً من كرمه عندما مرَّ عليه الملأ من الملائكة الذين أُرسلوا لإهلاكِ قوم

لوط: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧ ﴾ [الذاريات].

وقوله: ﴿ ضَيۡفِ ﴾: هي لفظ مفرد يُطلق على المفرد والمثنى والمجموع، إناثاً أو ذكوراً.

وقوله: ﴿ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾: لأنهم مكرمون عند الله بالعصمة، فهم هنا الملائكة، فهم معصومون ومؤيدون، ومُصطفَون ليكونوا سُفراءَ بين الأنبياء، ولذلك قال تعالى فيهم: ﴿ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ ﴾ [الأنبياء]، وهم مكرمون عند إبراهيم بالخدمة حيث خدمَهم بنفسه مع طلاقة الوجه، وتعجيل الطعام، ثم إنَّ ضيفَ الكريم لا يكون إلا كريماً، ولذلك قال بعض الحكماء: «لا عار للرجل ولو كان سلطاناً أن يخدمَ ضيفه وأباه ومعلِّمه».

وقد ذكر ابن الجوزي: أنَّ إبراهيم كان لا يأكل إلا مع ضيف، فكان كما يقول المؤرخون: هو أول من أضافَ الضيفَ، وأول من ثَرَدَ الثريد لهم، وأخذ العرب هذه العادة وهذه المكرمة من إسماعيل عليه السلام ابن إبراهيم الذي عُرفَ بالجود كأبيه، والعرب تقول:

بأَبِهِ اقتدى عديٌّ بالكرم ... ومَنْ يُشابه أباه فما ظلم

كما ذكر ابن الجوزي خبراً مروياً عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «يا جبريل لِمَ اتخذ الله إبراهيم خليلاً؟»، فقال جبريل: «لإطعام الطعام».

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبيد بن عمير قال: كان إبراهيم يُضيف الناس، فخرج يوماً يلتمسُ أحداً يُضيفه، فلم يجد أحداً، فرجع إلى داره، فرأى في

مجلسه رجلاً قائماً، فقال له: يا عبد الله من أدخلك داري بغير إذني؟ قال: دخلتُ بإذنِ ربها؟!! قال إبراهيم: ومن أنت؟ قال: أنا ملكُ الموت، أرسلني ربي إلى عبدٍ من عباده أُبَشِّرُهُ بأنَّ الله اتّخذه خليلاً، قال إبراهيم: من هو؟ فوالله إن أخبرتني به، ثم كان في أقصى الأرض من البلاد لأتيتُهُ ثم لا أبرحُ جاراً له حتى يُفرقَ الموت بيننا !! قال الملكُ: ذلك العبدُ أنت، قال إبراهيم: أنا؟ قال الملكُ: نعم، قال إبراهيم: فَبِمَ اتخذني ربي خليلاً؟ قال الملكُ: إنك تُعطي الناس ولا تسألهم شيئاً.

وحدَّثَ إسحق بن يسار قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً، ألقى الله في قلبه الوجلَ، حتى ليُسمعَ لقلبه خفقانٌ، وهكذا كانت صفةُ نبيّنا محمداً ﷺ، إذ كان ليُسمَعُ لصدره أزيزٌ كأزيزِ المرجل بالغليان من البكاء، كما كان النبي ﷺ يُشبه إبراهيم في جمال الهيئة والشكل، ففي حديث رواه ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «أما إبراهيم فأشبهُ الناس به صاحبكم..»، وعن أبي هريرة أنه ﷺ قال: «أنا أشبهُ ولده - أي ولد إبراهيم - به» رواه عبد الرزاق في «مُصنَّفِهِ».

قال العلماء: وهو مع كرمه ﷺ اختارهُ بخمسه أشياءَ كما ذكر القرطبي:

١ - **فهو أبو الأنبياء**، قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [العنكبوت].

وقوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ ﴾، هذه الهبة كانت بعد الهبة الأولى وهي «إسماعيل»، إذ ولد قبل «إسحق» من هاجر، أما إسحق فهو من سارة، ثم جاء لإسحق يعقوب.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾، فكافةُ الأنبياء بعده من ذريته، ولذلك قالوا: كان شجرةَ الأنبياء، وجعل الله الكتاب فيهم أيضاً،

فالتوراة على موسى أُنزلت، والزبور على داوود، والإنجيل على عيسى، وهم من ذرية إبراهيم، والقرآن أُنزل على محمد ﷺ وهو من ذرية إسماعيل بن إبراهيم:

نِعَمُ الإله على العباد كثيرة وأَجَلُّهن نجابةُ الأولاد

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾: بإعطاء الولد مع كون امرأته سارة عاقراً، فهو ولد في غير أوانه، ثم أعطاهُ المال، وطيب الأرزاق في دار هجرته في بلاد الشام بعد أن غادر العراق، ثم استمرار النبوة في ولده، ورزقه الثناء الحسن من أهل الأديان جميعاً، والصلاة عليه إلى آخر الدهر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾(: أي في عداد الكاملين الذين لهم الدرجاتُ العلا، «روى سفيان عن حميد بن قيس» قال: أمر سعيد بن جبير إنساناً أن يسأل عكرمة عن قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾، فقال عكرمة: كل أهل الأديان والملل تدَّعيه، وتقول: إنه منا، فقال سعيد بن جبير: صدق.

٢- واتخذه الله خليلاً.

٣- وأنجاه من النار.

٤- وجعله للناس إماماً.

٥- وابتلاه بكلمات - تكاليف - فأتمّهنَّ.

قال العلماء: مع كون إبراهيم خليل الله تعالى، فقد كان وليّاً لسيدنا محمد ﷺ، فقد أخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود أنَّ النبي ﷺ قال: «لكُلِّ نبيٍّ ولاةٌ، وإنَّ وليّي منهم أبي وخليل ربي إبراهيم»، ثم قرأ النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران].

قال ابن عباس: قال رؤساءُ اليهود: والله يا محمد لقد علمتَ أننا أولى الناس بإبراهيم ودينه منك ومن غيرك، فإنه كان يهودياً، وما بك إلا الحسدَ، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران].

فالمعنى: إنَّ أحقَّ الناس، وأصدق الناس بادعائه أنه على دين إبراهيم، أولئك الذين اتبعوه في زمانه، ومحمد ﷺ والذين آمنوا معه كذلك؛ لأنه جاء موافقاً لشرع إبراهيم في الأُصول.

ذكر شيء عن مولده:

أخرج ابن عساكر قال: قال ابن إسحق: كان من قصة إبراهيم أنَّ «النمرود»، لما أحكم أمرَ مُلكه، أُخبرَ عن طريق رؤيا فسرها له علماء بلاده ومملكته، أنَّ مولوداً يولد في هذا العام، يُنازعه في مُلكه، ويكون سَلْبُ هذا المُلك على يديه، فأمر النمرود بقتل كل ذكر يولد في هذا العام.

قال ابن إسحق: ثم استدعى النمرود ستةً من خيار قومه وعُظمائهم، وأوكَلَ إلى كل واحد منهم عملاً مُهمّاً يقوم به، فكانوا كالوزراء له، وكان من بينهم «آزر» أبو إبراهيم، وكان يُعرف عندها بـ «تارخ».

جمعهم النمرود وخاطبهم قائلاً: إنكم خيار قومي ورؤساؤهم، ولم أزل منذ أسستُ مملكتي أختاركم وأُجَرِّبكم، فما رأيتُ منكم إلا قوةً وفضلاً على سواكم، وهذا الذي دعاني إلى أن أستوزركم وأستعينَ بكم.

ثم عيَّنَ النمرود الأعمال المهمة في الدولة، وقسَّمَ هذه الأعمال عليهم

بالقرعة، فكان من لطفِ الله تعالى بإبراهيم، أن جاءت قسمةُ والده آزر على تولي شؤون الدين، وتولي شأنَ الآلهة التي يعبُدها الناس، فلا يعبدُ أحدٌ من أهل المملكة صنماً إلا إذا كان عليه طابعُ وخاتمُ آزر أبي إبراهيم، حتى لو كان ذلك الصنم للملكِ نفسه، ثم بعد أن قسَّم الأعمال والوزارات خاطبهم قائلاً: إني عزمتُ وقررتُ ألا يُعبدَ إلا إلهي، ولا سُنَّةَ إلا سُنَّتي، وعلى أنَّ العامةَ خَولي وعبيدي، أحكمُ فيهم برأيي ومحبتي، ولا يخافون غيري، وأنَّ الناس يدٌ واحدة على عدوهم، ثم قال: وقد بلغني أنه يولد مولودٌ في هذا الزمان يُكابرني، ويخلعُ مِلَّتي، وأنا وأنتم وجميعُ أهلِ مملكتي كنفسٍ واحدة في طلبه - أي طلب هذا المولود - وهلاكه، فمن ظَفِرَ به، فله عليَّ ما احتكَمَ وما تمنى.

قال أهل التاريخ: فلما حملت بإبراهيم أُمُّهُ، وتُسمى «أميلا» أو «أيونا»، وكانت مؤمنة تكتم إيمانها، قالت لزوجها آزر: وددتُ أني ألدُ غُلاماً، ثم نحمله أنا وأنت، ونضعُهُ بين يدي الملك، ونتولى ذبحه نحن أمامه، وتُظهرُ سخطك على المولود، فإذا رأى الملك منك ذلك، ازددْتَ رفعةً في عينه، ومكانةً عنده، ثم قالت: وجدير بنا أن نفعل ذلك - أي أن نقتل الولد أمامه - لأنَّ الملك النمرود يستحق ذلك؛ لكثرة إحسانه إلينا.

قال ابن إسحق: وكان هذا الحديث من أم إبراهيم إلى زوجها حيلةً ومكيدةً خدعت بها زوجها، بينما قررت في نفسها إن كان مولودها ذكراً أن تُخفيهُ، وتدَّعي أنها جاءت بسقطٍ، وأنها دفنتهُ.

قال ابن إسحق: ولما اقترب الشهر التاسع، قالت لزوجها: إني خفتُ من حملي هذا خوفاً لم أخفهُ من قبل، وقد خشيتُ أن تكونَ فيه منيتي، لذلك لي إليك حاجة؟

قال الزوج: وما هي؟ قالت: أن تعتكفَ عند الصنم الأعظم، وتشفعَ لي عنده بالسلامة، ويكونَ بيني وبينك رسولٌ، فإذا كانت السلامةُ بلغتك، فرجعتَ إلى أهلك محموداً، وعزمت هي إن كان المولود ذكراً أن تجعل له نفقاً صغيراً في قصرها تضعُهُ فيه، وعند عودة الزوج تُخبره أنها قد ولدت ذكراً ميتاً، وكانت عند زوجها مصدقةً أمينةً لا يتهمُها.

قال ابن الجوزي: كان النمرود إذا سمعَ بامرأة حامل قد قاربت الوضع حبسها عنده حتى تلد، فإن كان ذكراً قتله.

وقال الصاوي: عزل النمرود النساء عن الرجال، وجعل لكل عشرة بيوت حارساً، فإذا جاء وقت حيض المرأة سمحوا لها بالذهاب إلى بيتها، فإن طهُرت حبسوها.

وكان حملُ أمّ إبراهيم به، بتقديرٍ ربّانيّ، ذلك أنَّ الملكَ لزمتْهُ حاجةٌ، فأرسلَ آزر فيها، وأخذ عليه العهد ألا يُقاربَ زوجته، ولكنَّ الزوج غلبتْهُ نفسُهُ فواقعَ زوجته، فحصل الحمل بإبراهيم عليه الصلاة والسلام.

قال العلماء: كان النمرود جباراً من الجبابرة، تُخشى سُطوتُهُ، فهو أول من صلبَ، وأول من قطع الأيدي والأرجل.

وقال قتادة: النمرود أول من تجبَّرَ، وهو صاحب الصرحِ ببابل، وكان مولعاً بالصيد.

وقال في «البحر المحيط»: مَلَكَ مؤمنان وكافران: فالمؤمنان: سليمان عليه السلام، وذو القرنين، والكافران: النمرود، وبختنصر.

قال ابن عساكر: فلما حَضَرَ شهرُها، قالت لزوجها ما قررناه.

قال: وكانت تريد أن تلدَ وزوجها غائب؛ لتدّعيَ عند عودته أنَّ الولدَ

جاء ميتاً ودفناه.

قال المؤرخون: فانطلق زوجها، واعتكفَ عند الصنم الأكبر أربعين يوماً أو تزيد، وولدَ إبراهيم في غيبة الوالد بأيام، وقامت الزوجة بإنشاءِ سربٍ له، وتم لها ما أرادت لُطفاً من الله تعالى بإبراهيم، ثم أرسلت الرسول إلى زوجها تُخبره بما تُعاني من الألم، حتى إذا تمَّ لها كل شيء، وجاء زوجها، أخبرتْه أنها ولدتْ غُلاماً به عاهة شديدة، ثم مات، واستحيتُ أن تُطلعَ الناسَ عليه، فكتمت أمره من أجل ذلك حتى قبرتهُ، فصدَّقها، ثم جعلت تختلفُ على الصبي، وكانت تأخذ لبناً من بعض صديقاتها النسوة اللائي ذُبحَ أبناؤهن، فتَسْتَحْلِبُ منهنَّ، وتُؤجره إيجاراً، وبقي الأمر على ذلك حولين، فعاش الغلام عيشاً حسناً، وكان سريع النمو.

قال القرطبي ناقلاً عن الضحاك: قال: جُعِلَ إبراهيم بعد ولادته في سَرَبٍ، وجُعِلَ رزقُهُ في أطرافِ أصابعه، فكان يمصُّها، ونما في سنة ما ينمو غيره في ثلاث.

قال ابن عساكر: فلما بلغَ ثلاثَ عشرة سنة أخرجتهُ من السَّرَبِ إلى البيت، فلم يشعر أبوه إلا وهذا الفتى في بيته قادراً!! فقال لامرأته: من هذا الغلام الذي أخطأهُ الذبح، وهمَّ أن يبطشَ به، فقالت: على رِسلك حتى أُخبرك، إنه ولدك وقصته كذا وكذا.

قال الزوج: وما حملكِ على ذلك؟ وما المخرج؟ قالت: المخرج عندي، والحلُ أعرضُهُ عليك، وهو حلٌّ تزدادُ فيه مكانتُك عند الملك، قال: وهو؟ قالت: ننتظر حتى يدركَ، فإن لاحظنا منه عداوةً للملك ولدينه سلَّمناه له، وقلنا له: هذا عدوك فدونك ذلك فاقتله، وارحم الناس وأولادهم، فقد أفنيتَ ذريتَهم، وإن لم يظهر منه عداءٌ للملك وللأصنام فَلِمَ نقتل ولدنا؟!!

قال ابن إسحق: فألقى الله في قلب زوجها قبول ما قالت، وقال: لقد قلت الصواب، وألقى الله الرحمة في قلبه تُجاهَ ولده إبراهيم، فكان يُحبه، ويهتم به، ويقول لأمه ارفقي به، ولا تُعَرّضيه لشيء من أمر الملك، فهذا الغلام حدث.

وقد ذكر ابن الجوزي في تفسيره ناقلاً عن رواية لابن عباس قال فيها: إنَّ الليلة التي ولد فيها إبراهيم، خرجت به أمه ليلاً فوضعته في سَرَبٍ من مجرى نهرٍ جاف، فيه نباتُ «الحلفاء»، وأخبرت أباه بذلك، وعلم الأَبُ بالمولود وكتم الأمر مع زوجته.

وذكر القرطبي في تفسيره، كما ذكر غيره: أنه لما خرج من السَرَبِ الذي خُبّئ فيه في البيت، وهو ابن ثلاثَ عشرة سنة، قال لأمه: من ربي؟ قالت: أنا، قال: ومن ربك؟ قالت: أبوك، قال: فمن رب أبي؟ قالت: النمرود، قال: ومن رب النمرود؟ قالت: اسكت، فسكت، وعلمت بذلك أنه هو الغلام المطلوب للملك ليقتله، وأنه هو الذي سيحطم أصنامهم وآلهتهم في المستقبل، فأخبرت أباه، فالتقى به، وأعاد إبراهيم الأسئلة، فأعاد له الجواب، فلما وصل إلى سؤاله: من رب النمرود؟ قال الوالد: اسكت، ولطمه، ثم أوصى أمه قائلاً لها ارفقي بابنك، فإنه غلامٌ حديث السن، لم يجتمع له رأيه ولا عقله.

قال ابن عساكر: وكان ذلك تربُّصٌ من الأب، رجاء أن يحدُثَ حادث يكون لإبراهيم فيه عافيةٌ وسلامة؛ وذلك لما شعر الأب برحمةٍ نحو ولده إبراهيم.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنعام].

قال: خُبِّئ إبراهيم من جبارٍ من الجبابرة في سَرَبٍ، فلما خرج أراهُ ملكوت السموات و الأرض.

قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي وكما أرينا إبراهيم الحقَّ في أمر أبيه وقومه، وهو أنهم كانوا على ضلالٍ بيّن في عبادتهم للأصنام، كنا نريَهُ المرةَ بعد المرةِ ملكوتَ السموات والأرض، على هذه الطريقة التي يَعرف بها الحق، فهي رؤيةٌ بصرية، تتبَعُها رؤية البصيرة العقلية.

ونلاحظ أن الآية جاءت بالفعل المضارع ﴿ نُرِيٓ ﴾، ولم تقل «أريناه»، لاستحضار صورةٍ ماضية تتجدَّدُ وتتكرر بتجدُّدِ رؤية آياته عز وجل في ذلك الملكوت العظيم.

وقوله: ﴿ مَلَكُوتَ ﴾ مصدر ملكَ، مِلكْ، زيدت فيه الواو والتاء للمبالغة في الصفة، ومعناه: المِلك العظيم القوي الشديد، ومثلها: الرغبوتُ، والرحموتُ، والرهبوتُ.

والمعنى: نكشف لإبراهيم دلائل مخلوقاتنا، أو عظمةَ سلطاننا كشفاً يطلعُهُ على حقائقها، ومعرفة أن لا خالق ولا متصرف فيما كشفنا له سوانا.

وقوله: ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ بوحدانية الله وبقدرته عز وجل حِسّاً وخبراً، وبكونه نبياً ورسولاً، وأريناه ذلك ليعرف سُنتنا في خلقنا وآياتنا الدالة على ربوبيتنا وألوهيتنا.

قال السدي: أقيم على صخرة، وفتحت له السموات والأرض، فنظر إلى ملك الله حتى رأى منزله من الجنة.

وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام رشيداً قبل أن يُنبَّأ، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنبياء].

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل مبعثه، فقد وفقناه للنظر والاستدلال، وقال صاحب «صفوة البيان» - الشيخ مخلوف» المعنى: آتينا إبراهيم رشدَهُ من قبل استنبائه ترشيحاً لمنصب النبوة والدعوة إلى الحق، كما هو حالنا في من اصطفيناه لذلك من عبادنا. لأنَّ النبوةَ لا تكون إلا على رأس الأربعين، - عدا عيسى ويحيى -، وقيل عيسى فقط، ونلاحظ إضافة «الرشدِ» إلى ضمير يعود على إبراهيم، والغاية من ذلك: التنبيه على أنه كان على رشدٍ عظيم يليقُ به، وفعلاً كان رشدُ إبراهيم مضربَ الأمثال عند العرب وعند غيرهم، وزاده تفخيماً قوله تعالى: ﴿ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾، أي علمنا من سريرته صفاتٍ قد رضيناها، فاستحق بها أن نتخذه خليلاً.

وقال صاحب البحر في قوله تعالى: ﴿ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾، أي علمنا منه أحوالاً عجيبة وأسراراً بديعة، وأنه أهلٌ لما آتنياه، وهذا المعنى كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام ١٢٤].

بيئة إبراهيم:

قال العلماء: نشأ إبراهيم في أرض بابل، وكان قومه أهل أوثان، وفي إنجيل «برنابا» أنَّ والده كان نجاراً ينحت الأصنام ثم يبيعُها، وقد ذكر بعض أهل التفسير أنَّ «آزر» كان يرسل ولده إبراهيم ليبيع هذه الأصنام، فكان يُنادي عليها ويقول: من يشتري شيئاً يَضُرُّه ولا ينفعه، فعرف الناس عداوته للأصنام منذ صغره.

وقد ذكر صاحب كتاب «قصة الحضارة» واسمه «ول ديورانت» في المجلد الثاني ص ٢١١ وما بعدها: أنه كان لأهل بابل كثيرٌ من الأصنام، ثم قال: كان لكل مدينة ربٌّ يحميها، وكان للمقاطعات وللقرى آلهة صغرى تعبدها وتُخلص لها، وكانوا يعتقدون أن هذه الآلهة الصغرى تخضع للإله

الأكبر، ثم قال «ديورانت»: عدَّدوا الأوثان واعتبروا الآلهة الصغرى صوراً أو أوصافاً للآلهة الكبرى، وأصبح «مَرْدُك» إله بابل الأكبر، هو أعظم الآلهة البابلية.

ثم قال «ديورنت»: وكان الملوك في بابل يشعرون بشدةِ حاجتهم إلى غُفران الآلهة، فأقاموا لها الهياكل، وفرشوا لها الأثاث، وقدموا لها الطعام والنبيذ.

قال الدكتور «طبارة» في كتابه «مع الأنبياء»: في هذه البيئة التي يسيطر عليها تعدد الآلهة، أعطى الله الرُشدَ لإبراهيم، فعرفَ بالوحي وبالفكر الصائب أنَّ الله واحدٌ، وأنَّ قومه في ضلال، ولذلك نلاحظ تعدُّدَ مواقف إبراهيم مع قومه، فقد جادل والده تارةً، وجادل قومه تارةً، وجادل النمرود تارةً ثالثة، وفعل مراراً عديدةً ما أغضبهم، وهو تكسير الأصنام، وشَتْمِها، والحطِّ من مكانتها، فحاولوا إحراقه، فنجاه الله، ثم هاجر، واسمع معي إلى تعدُّدِ مواقفه، فقد أشار القرآن إليها في سورة الصافات بعد أن أثنى الله في السورة على نوح بقوله عز وجل: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الصافات]، وقال: ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ ﴾، أي ممن تابعه في الدين والمنهاج، وكان بين نوح وإبراهيم ٢٦٤٠ عاماً، ثم قال تعالى: ﴿ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الصافات].

وقوله تعالى: ﴿ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴾: أي سليم من الشبهات، ومن الشهوات، أي أقبل على توحيد الله بقلبٍ خالص من الشوائب، باقٍ على الفطرة، منكرٍ على من غيَّر وبدَّل، ناصحٍ للخلق إخلاصاً لله عز وجل.

وقد ورد عن هشام بن عروة قال: كان أبي يقول لنا: يا بَنِيَّ لا تكونوا لعَّانين، ألم تروا إلى إبراهيم لم يلعن شيئاً قط، فقال الله فيه: ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾، أي: أتريدون بطريق الكذب آلهةً دون الله، حيث جعلتموها آلهة بألسنتكم وهي أحجار وأصنام. وقوله: ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، أي ماذا يفعل الله بكم إن اتخذتم إلهاً غيره؟ هل يترككم بلا عقاب؟

والعالمين: هو كل ما سوى الله، وسمّوا عالماً لأنهم عَلَمٌ على الله، أي دليل عليه عز وجل.

وقال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الشعراء].

قال العلماء: انتبه إلى قوله: ﴿ عَدُوٌّ لِّىٓ ﴾، ولم يقل: عدو لكم؛ لماذا؟

قالوا: لأنه أبلغَ في النصحِ لهم، حيث أقامهم مقام نفسه، ويشبه هذا قول الشافعي لشخصٍ أساء إليه فقال له الشافعي: «لو كنتُ بحيثُ أنتَ لاحتجتُ إلى أدبٍ». وكقول ذلك الرجل الذي رأى ناساً يتحدثون في الحِجرِ فقال لهم: ما هو بيتي ولا بيتكم.

قد يقول قائل: كيف وصف الأصنام بالعداوة وهي لا تعقل؟

والجواب: أنَّ المعنى، هم عدوّ لي يوم القيامة إن عبدتهم في الدنيا وذلك

كقوله تعالى: ﴿ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم]، تماماً كمن يعبد المال في الدنيا، ويرى فيه العزة والقوة، وهو لا يدري أنَّ هذا المال سيكون وبالاً عليه في الآخرة، وللمال عُبّاد، كما قال الشاعر:

وللمال قومٌ إنْ بدا المالُ قائلاً أنا المالُ قال القومُ إياكَ نعبدُ

أما كيف يكون المال نكالاً عليهم؟

فنقرأه في قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التوبة].

وقال عز وجل في هذا الموضوع في [سورة مريم]: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ ﴾.

قال العلماء: كان إبراهيم في دعوته لأبيه مثالاً للولد البار بأبيه، لم يقسُ، ولم يُعنف، وخاطبه بأحسن عبارة، وألطفِ إشارة فقال له: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ ﴾ [مريم].

وقوله: ﴿ وَلِيّٗا ﴾: أي قريناً له في النار إن مُتَّ على الكفر.

وقوله: ﴿ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ ﴾: أي أن الشيطان هو الذي يُسَوّل عبادة الصنم أو الشمس أو الحجر، فطاعتك له في المعصية عبادةٌ له.

هنا ملاحظة: وهي أننا نلاحظ أن كل دعائه كان لأبيه؛ إلا في [سورة إبراهيم]: ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾،

وكان دعاؤه له قبل أن يثبُتَ عنده أنه عدو لله كما سيأتي معنا، إذن كان دعاؤه لأبيه.

قال الحسن: بلغني أنَّ أمه كانت مسلمة موحدة على دينه؛ ولذلك لم يذكرها إلا مرة واحدة: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ ﴾.

ونقرأ في [سورة الأنبياء]: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

قال الصاوي في قوله تعالى: ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴾.

قال: هي صورٌ مصنوعة من رخام، أو نحاس، أو خشب، وكانت اثنين وسبعين صنماً، من ذهب وفضة وحديد ونحاس. وكان كبيرها مُكللٌ بالجوهر، وفي عينيه ياقوتتان تتقدان – تُضيئان – ليلاً.

ونقرأ في [سورة العنكبوت]: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ﴾ – بالنصب عطفاً على نوح، أي وأرسلنا إبراهيم – ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾، أي تُميزون بين الخير والشر.

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ ﴾، والإفك أسوأ الكذب.

قال العلماء: وهكذا أوضحَ إبراهيم في دعوته لأبيه ولقومه، وللملكِ – كما سيمر معنا – بُطلان عبادة الأصنام التي لم يزل إلى الآن يعبدها الملايين من البشر جهلاً وكذبا، ولقد تفطنَ الإمبرطور الياباني «هديوشي» إلى هذه الحقيقة التي دعا إليها إبراهيم والأنبياء، فقد أقام هذا الإمبرطور تمثالاً ضخماً

لبوذا في اليابان سنة ١٥٩٦م، وعند انتهاء البناء، جاءت زلزلة أصابت المدينة التي فيها الصنم فخرَّ الصنم على وجهه هشيماً، فلما رآه الإمبرطور مُهشماً أخذ سهماً ورماه عن قوسه بازدراء، وقال له – للصنم –: لقد أُقِمْتَ هنا وكلفتني النفقات الضخمة، وها أنت لم تستطع حتى حماية معبدك.

كما ذكر ذلك «ديورانت» صاحب كتاب «قصة الحضارة»[1]، هنا نقول: ماذا كان ردُّ الوالد على إبراهيم؟

كان الجواب ما ذكره الله تعالى في [سورة مريم]: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾، أي هل ستتركها إلى ملةٍ أُخرى.

وقوله: ﴿ مَلِيًّا ﴾، أي ابتعد عني مدة طويلة من الزمن، ولذلك يقال للّيل والنهار «المَلوان».

وقوله: ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ أي لأُظهرنَّ أمرك ولأدلَنَّ عليك، ولأرجمنك بالحجارة حتى الموت، أو كناية عن التعذيب الشديد، فقد كانت هذه طريقتهم في العذاب.

بماذا أجاب إبراهيم أباه، على هذا التهديد بالقتل؟

أجاب إبراهيم جواباً لم يخرجه عن أدب الحوار، والدعوة بالحكمة، فقال: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ [مريم].

وقوله: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ﴾ ليس سلامَ تحية، وإنما سلام متاركةٍ، وذلك

---

(١) ص ١٣٣

كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان].

والمعنى: أَمَنَةٌ لك مني، قال النقاش: حليمٌ خاطب سفيهاً.

قال العلماء: وقد استغفر إبراهيم لأبيه كما وعده، طمعاً في إيمانه، وقد ذكر الله لنا هذا الاستغفار لأبيه في [سورة الشعراء]: ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ ﴾، ولكنه لما رأى إصرار أبيه على الكفر، تبرأ منه، وقطع صِلته به، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة].

قال العلماء: وهذا درس بليغ لأصحاب عقيدة التوحيد، ليقتدوا بالرسل الكرام في متانة العقيدة، والصبر على تكاليفها: قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة ٤].

قال صاحب «التحرير» في قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ قال: إبراهيم عليه السلام مَثَلٌ في اليقين بالله، والغضب له، عرف ذلك العرب واليهود والنصارى من الأمم، وشاع بين الأمم، ولعله بلغ الهند، والمراد بـ ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ لوط وسارة، ولم يكن لإبراهيم أبناء.

قال ابن الأثير في كتابه «الكامل»: كان إبراهيم يقول عندما يعرض الأصنام التي يصنعها أبوه للبيع: «من يشتري شيئا يضره ولا ينفعه»، وكان ينطلق بها إلى نهر قريب، فيصوّب رؤوسها فيه ويقول: اشربي، اشربي، حتى انتشر هذا في قومه، ولكنه لم يصل إلى النمرود.

وقال «صاحب البدائع في الوقائع»: كان إبراهيم إذا دفع له أبوه الأصنام ليبيعها، يربطها بحبل ويجرُّها من أرجلها ويسحبها خلفه ويقول: من يشتري ما يضره، فكانت الناس تنظر إليه ولا تجرؤ على نهيه لمكانة أبيه عند الملك النمرود.

قال «صاحب الكامل»: ثم بدأ إبراهيم بالدعوة إلى التوحيد، فقال لأبيه: قل لا إله إلا الله، قال صاحب «البدائع»: فلم يُجِبْهُ الوالد، ثم دعا قومه، فقالوا له: مَنْ تعبدُ أنت؟

قال إبراهيم: أعبد رب العالمين، قالوا: النمرود؟ قال إبراهيم: بل أعبد الذي خلقني فهو يهدين، فذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء].

قال العلماء: وجدير بنا أن نقف عند الضمير المنفصل ﴿ هُوَ ﴾ الذي جاء للتوكيد، فأكد الله نسبةَ أمورٍ أربعة إليه عز وجل، لماذا أكد هذه المسائل الأربعة التي هي:

الهداية والإطعام والسقيا والشفاء؟

لأنَّ هذه المسائل قد يَدّعيها غيره عز وجل، فالبعض قد يقول: الطبيب شفاني، وقد يظن البعض أنَّ الأب هو الرازق لأنه الجالب، وقد يدّعي الهداية واضِعو بعض النظم كالشيوعية والاشتراكية والرأسمالية وكلها تدّعي أنها لصالح البشر، وأنه طرق هدايتهم لذلك أكد الله تعالى لنفسه هذه المسألة ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾، فالهداية لا تكون إلا من الله، وفي شرعته عز وجل، أما في المسائل التي لا يدعيها أحد، فيأتي الفعل دون توكيد، ولذلك

جاءت الآية بعدها: ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء].

يقول بعض المؤرخين هنا: إنَّ آزر والد إبراهيم، خاف من الافتضاح، فأتى إلى الملك النمرود فأخبره عن وضع ولده إبراهيم.

وقال للملك: ها هو أمامك، فافعلْ به شئت، وإنه وُلِدَ في غير داري، وما أعلم به إلى الآن، ولم يهوّل له الأمر.

فقال النمرود: عليَّ به، فأُحضر إليه، فأمر به إلى السجن وأن يُحضر إليه في الغد، فلما كان الغد صباحاً، جلس النمرود في مجلسه وقد زُيّنَ واصطفَّ الجنود، والأصنامُ قائمة، ودخل إبراهيم عليه، فنظر يميناً وشمالاً ثم صرخ: يا قوم ما تعبدون؟ قال «صاحب البدائع»: فذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الشعراء]، ثم دعاه النمرود للدخول في دينهم، وألانَ الكلام له، وقد أُعجبَ بكلام إبراهيم، ثم قال النمرود لوالد إبراهيم: خذ ولدك معك، فما ينبغي لمثلي أن يتعجَّلَ بعقوبة إنسان جاهل لا يدري ما يقول، فخذه وحذره بأسي لكي يرجع عما هو فيه.

قال المؤرخون: ثم طُوي الأمر فترة من الزمن ومرت الأيام والسنون، وقد بيَّتَ إبراهيم أمراً، فما هو هذا الأمر؟

قال العلماء:

بيَّتَ تحطيم الأصنام، ومناقشة القوم:

قال المؤرخون: أدرك إبراهيم أنَّ الحجة اللفظية، - وإن كانت واضحة - فإنها لا تُجدي مع هؤلاء، فأراد أن يُقرنَ الحجةَ اللفظية بأمر محسوس مَرْئيٍّ، أراد أن يُشرك أبصار الناس مع بصائرهم، وحواسَّهم مع قلوبهم لعلهم يرجعون إلى الحق، ويعرفون تفاهة ما هم فيه من عبادة الأصنام.

ولكن كيف السبيل؟ لقد رسمه، ثم نفذه، فتعالوا ننظر ماذا فعل؟

أقسم على تحطيمها، لماذا؟

قال صاحب كتاب «مع الأنبياء»: والتحطيم طريقة عملية لإقامة الحجة على قومه؛ لأن البرهان العملي له وقعٌ كبير في النفس، أشد من تأثير الوعظ والإرشاد، ثم أقبل على التنفيذ.

اختيار الوقت لهذا العمل:

قال ابن مسعود: كان لقومه عيدٌ كبير، هو يوم في كل عام، يخرجون فيه إلى خارج المدينة، ولا يتركون فيها أحداً، يقضون بعده عدة أيام في اللهو والعبث، فقال له أبوه حين حلَّ العيد: لو خرجتَ معنا إلى عيدنا، أعجبك ديننا، ولأدخلت السرور على قلبك، فرفض إبراهيم؛ لأنه عزم على أمرٍ يحتاج إلى خلوة، وهو كسر الأصنام، ثم قال لهم كلاماً هو حق في واقع الأمر، ولكنهم فهموا منه أنه مريض على مقتضى ما يعتقدونه، لما دعوه إلى الخروجَ، فماذا قال لهم؟ وبماذا أجابهم على طلبهم منه الخروج إلى مُعيَّدهم؟

كان الجواب ما ذكره الله تعالى في [سورة الصافات]: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

قال قتادة: العرب تقول لمن تفكر في أمر: نظر في النجوم، والمعنى عنده: أنه نظر إلى السماء متفكراً بشيء يُلهيهم به، أو يتخذه حجة حتى يبقى ولا يخرج، ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾، أي مريض لا يمكنني الخروج معكم.

قال الحسن: لما كفوه الخروج معهم تفكر فيما يعمل، فعلم أنَّ كل حيٍّ سيسقمُ، فقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾، أي سأسقمُ؛ لأن اسم الفاعل صالحٌ للزمان الحاضر، وللمستقبل، تقول: إني حاضر الآن، وإني حاضر غداً،

وقوله: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴾ أي ليريهم أنه يعتمد عليها، ويستدل بها على شيء؛ لأنهم كانوا مُنجِّمين، والحقيقة: أن ذلك كان إيهاماً لهم أنه يعتمد عليها، وهذا نوع من التورية يُقال له: التورية بالفعل، لأن التورية إما قولية: كقوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾، تصلح للحاضر والمستقبل، وإما فعلية: وهي أن يُرِيَ الإنسان غيره أنه ينظر شيئاً، وهو لا يريده، أو هو معرضٌ عن شيء، وهو في الواقع يريده، مثل أن يتحدث اثنان إلى جانبك، فتأخذ كتاباً، وتُظهرلهما أنك مشغول عنهما بالكتاب، وأنت في الواقع تنتبه إليهما.

قال الزمخشري: والذي قاله إبراهيم ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ من معاريض الكلام ولقد نوى به، أنَّ من في عنقه الموت سقيم، ومنه المثل: «كفى بالسلامة داء».

وقال لبيد كما روى صاحب «الكامل» المبرد:

فدعوت ربي بالسلامة جاهداً ليصحني فإذا السلامة داء

ومات رجل فجأة، فالتف عليه الناس وقالوا: مات وهو صحيح، فقال أعرابي كان يقف إلى جانبهم: «أصحيح من الموت في عنقه».

قال ابن عطية في تفسيره: وقوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أي سقيم النفس من عبادتكم للأصنام.

وقوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾: أي أدبروا عنه خوفاً أن يكون مرضه الطاعون فيعديهم فهربوا وتركوه.

قال ابن كثير: عرَّضَ إبراهيم لهم في الكلام فقال ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾، حتى توصل إلى مقصوده، وهو تحطيم الأصنام.

قال العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى: الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق، والكذب جميعاً، فالكذب فيه

حرام، فإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق، فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحاً، وواجب إن كان ذلك المقصود واجباً.

قال البروسوي في تفسيره: ومن الناس من يُجوِّز الكذب على الزوجة لإرضائها، وفي الحرب، وفي الإصلاح بين الناس، ثم قال: والصحيح أنَّ الكذب في نفسه قبيح، والقبيح في نفسه لا يكون حسناً، ولكنه يجوز بتأويل، وفي معاريض الكلام، لا بالتصريح، ثم ضرب رحمه الله مثلاً فقال: لو أن رجلاً لا يحب زوجته، فقال لها: إني أحبك، وهو يبغضها، كان هذا كذباً محضاً لا رخصة فيه، ولكن لو قال لها: كيف لا أحبك وأنت حلالي وزوجتي صحبتك كذا وكذا سنة.

وكذلك كان ﷺ إذا أراد السير نحو اليمين للقاء العدو، سأل عن منازل اليسار ليُشبِّهَ على العدو من أي جهة يأتيه، وقد ذكر البخاري في «الأدب المفرد» حديثاً حسَّنه الحافظ العراقي، عن عمران بن الحصين قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب».

ولذلك لما هاجر الرسول ﷺ، ومعه الصديق، كان أبو بكر إذا سُئل من هذا الذي معك؟ يقول: هادٍ يهديني الطريق.

ومن ذلك ما حصل لعبد الله بن رواحة، أن زوجته رأته مع جارية وقد دخل بيتها، فغارت وقالت: في بيتي وعلى فراشي، ثم قالت: لا أتركك حتى تقرأ القرآن، فقال:

وفينا رسولُ الله يتلو كتابه ... إذا انشقَّ مشهورٌ من الصبحِ لامعُ

يبيتُ يُجافي جنبهُ عن فراشه ... إذا استثقلت بالكافرين المضاجعُ

فقالت: آمنت بالله، وكذّبتُ بصري، ثم أتى إلى رسول الله ﷺ وقصَّ

عليه ذلك، فضحك رسول الله ﷺ وأعجبه ما قال.

وروى الحكيم الترمذي عن ابن عباس، وعن ابن مسعود، أن أبا إبراهيم قال له: إن لنا عيداً، لو خرجت معنا لأعجبك ديننا، فلما كان يوم العيد خرجوا، وخرج إبراهيم معهم، فلما كان ببعض الطريق، ألقى بنفسه وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، فتركوه ومضوا.

فلما مضوا قال ما قصَّهُ الله علينا في [سورة الأنبياء]: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

قال قتادة ومجاهد: إنما قال إبراهيم ذلك في سرٍّ من قومه، لم يسمعْه إلا رجل واحد وهو الذي أفشى السرَّ، وقيل: سمعهُ المتخلفون الضعفاءُ، وروى ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال: خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم، فأرادوه على الخروج، فاضطجع على ظهره وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وأخذ ينظر إلى السماء، فلما خرجوا أقبل على آلهتهم فكسَّرها.

قال البروسوي: رُوي أنَّ آزر والد إبراهيم، بدأ يوم العيد فدخل بيت الأصنام مع قومه فسجدوا لها، ثم وضعوا أمامها طعاماً وخبزاً مما حملوه معهم وقالوا: بعد رجوعنا من العيد نمرُّ فنأكل هذه الأطعمة بعد أن تكون الآلهة قد باركتها، فلما خرج أبوه وقومه من بيت الأصنام إلى العيد، مال إليها إبراهيم، ثم قال مستهزئاً بها: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الصافات]، ثم بدأ بتحطيمها بقوة، تقرأ ذلك بقوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات]، والروغان: السرعة على وجه لا يشعر به أحد، قائلاً على سبيل السخرية ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾، أي ذهب مسرعاً مستخفياً، فوجدها في بهوٍ كبيرٍ، وقد وضعوا أمامها ألوان الأطعمة، فهشَّمها

وهو يسخر منها ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾، ومع السخرية فيها إلزامٌ لمن يعبدُها أنَّ أصنامكم لا تستحق العبادة؛ لا لأنها مستغنية عن الطعام والشراب، ولكن لكونها لا تعقل ولا تعلم، ثم تابع إبراهيم كلامه قائلاً: ﴿ مَا لَكُمْ لَا نَنطِقُونَ ﴾، خاطب الأصنام مخاطبة العقلاء، تنزُّلاً مع أصحابها الذين يُنزلونها منزلة العقلاء، ولذلك لم يقل: «ما لكن»، بل قال: ﴿ مَا لَكُمْ لَا نَنطِقُونَ ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾، وخصَّ الضرب باليمين لأنه أقوى، والضرب بها أشدُّ.

قال ابن كثير: نزل عليها باليد اليمنى؛ لأنها أسرع وأبطش وأقهر، وكان فيها قَدوم، ثم هشَّمها جميعها إلا أكبرَ الأصنام فتركه وعلَّق الفأس فيه، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنبياء].

قال أبو عبيدة: جذاذاً أي مستأصَلين، أي لم يبقَ منهم شيء.

ومنه قول جرير:

بني المهلبِ جَذَّ الله دابرهم   وأمسَوا رماداً فلا أصلٌ ولا طرف

أي لم يبق منهم شيء، وقيل جُذاذاً: فُتاتاً صغيرة، ومنهم قولهم:

جَذَّذَ الأصنام في محرابها   ذاكَ في الله العليّ المقتدر

وقوله: ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ ﴾: أي استثنى الكبير في المكانة عندهم، أو في الجثة.

وقوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾: أي فيسألونه: مَنْ كسرها، فيظهرُ عجزُه وتقوم الحجةُ عليهم.

قال ابن كثير: وضع القدوم في يد الصنم الكبير؛ ليشير بذلك إلى أنه غارَ

أن تُعبد معه هذه الألهةُ الصغيرةُ.

وقال الرازي: دخل إبراهيم البهو فوجد أكثر من سبعين صنماً فهشَّمها، وجعل الفأس في عنق الكبير.

هنا سؤال: لمَ كسَّرها وهي لا تعقل؟

والجواب: أنَّ عُبّاد الأصنام كانوا ينسبون لها النفع لعابديها، وكانوا يعتقدون أنَّ مَنْ استخفَّ بها، أو أساء إليها ناله ضررٌ، وأصابه سوء، ففعل ذلك إبراهيم ليكشف لهم سوءَ مُعتقدهم، فحطَّمها ولم يُصَبْ عليه السلام بسوء.

قال ابن الجوزي: لما رجع القوم من عيدهم إلى بيت الأصنام، ورأوا ما حدث بآلهتهم صاحوا منكرين: مَنْ فعل هذا؟ أي من فعل هذا الفعل الفظيع الشنيع، إنه شديد الظلم؛ لأنه تجرّأ على الآلهة وذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنبياء]، عندها قال الرجل الذي سمع إبراهيم يقول: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنبياء]، قال ذلك الرجل ما ذكره الله تعالى في الآية: ﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنبياء].

وقوله: ﴿ يَذْكُرُهُمْ ﴾: أي يَعيبهم ويَسُبُّهم، والذكرُ من الصديق ثناءٌ، والذكرُ من العدو ذمٌّ، ولذلك يقال للعدو: لئن ذكرتني لَتَنْدَمَنَّ - أي بالسوء - وهذا الفتى يسمى إبراهيم، فلعله هو الذي فعل ذلك وقد سبَّهم من قبلُ.

قال العلماء: ووصل الخبر إلى النمرود وحاشيته، فقالوا بينهم ما قصَّه الله علينا: ﴿ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنبياء]، يشهدون بماذا؟

قال العلماء: لعل أحدهم يشهد أمام الناس بتصريح إبراهيم حين قال: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ﴾ أو لعل أحداً يشهد أنه رآه يكسرها لئلا نأخذَه ونعاقبَه بلا بيّنة، أو يشهدون عقابه بعد ثبوت الأمر عليه، فلا يجرؤ أحد على فعل ما فعله.

وعند هذه الآية التفت الشيخ البروسوي في تفسيره «روح البيان» لفتةً طيبة: كل حاكم يحكم على متهم بالجناية من غير بيّنة، فهو أسوأ من النمرود وقومه، ثم قال البروسوي: وفي الآية إشارة إلى أن في الكفار مَنْ لا يحكم على جانٍ إلا ببيّنةٍ.

وقال القرطبي: كره قومه – أي قوم إبراهيم – أن يأخذوه إلا ببيّنة، ثم قال: وفي ذلك دليل على أنه لا يؤاخذ أحدٌ بدعوى أحدٍ – أي إن لم يكن هناك بيّنة – ثم قال: وهو شرعنا، أي نحن المسلمين.

قال العلماء: ثم أَتَوا بإبراهيم وسألوه، وكان بينه وبينهم حوار، قصّه الله علينا في [سورة الأنبياء]: ﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ
٥٩ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ٦٠ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ٦١ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ٦٢ قَالَ بَلْ
فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ
أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا
هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ
شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٦٧
قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ٦٨ ﴾.

قال العلماء: طلبوا منه الاعتراف ليعاقبوه، فظهر منه قول جعل الأمر ينقلب عليهم حتى تمنوا الخلاص منه. فقال: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ

هَٰذَا ﴾، قال هذا القول من أجل أن يقولوا: إنهم لا ينطقون، فيقول لهم عندئذ: فلمَ تعبدوهم إذاً؟ فتقوم له الحجةُ والغلبةُ عليهم من أنفسهم وبقولهم، ولذلك قال العلماء: يجوز فرض الباطل مع الخصم، حتى يرجع إلى الحق من ذات نفسه؛ لأنه أقطعُ للشبهة، وأقوى وأقرب في الحجة.

وقوله: ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾، علَّقَ فعل الكبير بِنُطْقِ الآخرين لِيُنبِّهَ على فساد اعتقادهم، كأنه عليه السلام قال: الكبير هو الفاعل إن نطق هؤلاء، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل.

قال القرطبي: وفي ضمن هذا الكلام اعتراف من إبراهيم أنه هو الفاعل.

ومثال ذلك كما قال الزمخشري: مَثَلُ رجلٍ جميلِ الخط، رشيقِ الكتابة، مشهورٍ بذلك، وله صديق أُميٌّ لا يُحسن الخطَّ، ولا يقدرُ إلا على خرمشةٍ فاسدة، فقال لصديقه وقد كَتَبَ لوحةً جميلة بخطٍ رائع: أأنت كتبتَ هذا؟ فقلت له: بل كتبته أنت فكان جوابك هذا له تقريراً لك وإثباتاً، مع الاستهزاء به، وليس نفياً عنك وإثباتَ الكتابةِ لصديقك الأُمي، لأن إثبات الفعل للعاجز منكما أنتما الاثنين استهزاء بالعاجز وإثباتٌ للقادر.

قال العلماء: لما أقام إبراهيم الحجة عليهم، وألقمهم الحجر، وأخذ بمخانقهم رجعوا إلى أنفسهم، وعادوا إلى عقولهم، ونطقوا بالحق فقالوا لبعضهم: أنتم الظالمون على الحقيقة بعبادتكم هذه الأصنام، وأنتم تعلمون أنها لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تتكلم، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾، أي رجع بعضهم إلى بعض رجوع من انقطعت حجته، وتفطَّن لصحةِ حجةِ خصمه، أو يكون المعنى: رجع كل واحد منهم إلى نفسه متفكراً بما قاله إبراهيم ليجد شيئاً يَرُدُّ به عليه، فلما لم يجدوا جواباً على قول إبراهيم ألقوا اللوم على أنفسهم، وقال بعضهم

لبعض: ﴿ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

لكن هذه الصحوة – كما قال العلماء – ستكون على حسابهم وخسارتهم بها ستكون كبيرة، فهذه الصحوة ستُفقدهم سلطتَهم الزمنية التي يعيشون في ظلها، وينتفعون من ورائها بما يُهدى للأصنام، ولذلك سرعان ما تراجعوا وعادوا على أعقابهم بعد أن تذكَّروا ما ستجره عليهم هذه الصحوةُ، وهذه الاستجابة للحق، ولذلك قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنبياء].

قال ابن عباس: أدركهم الشقاء فعادوا إلى كفرهم.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: بعد أنْ اعترفوا بحجة إبراهيم رجعوا إلى المكابرة والانتصار للأصنام، فقالوا لإبراهيم: أنت تعلم أن هذه الأصنام لا تنطق، ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾، فما مرادك من قولك ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾، إلا التنصُّل من جريمتك.

قال العلماء: لما قالوا لإبراهيم: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾، ألقمهم حجراً ثانياً، وأدلى لهم بالحجة الدامغة فقال: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنبياء].

وقوله: ﴿ أُفٍّ ﴾: كلمة إذا قالها إنسان علمنا أنه متضجر، وتنوينها يسمى «تنوين التنكير»، والمراد منه أنه ضجرٌ قويٌّ منكم ومن أصنامكم التي تعبدونها من دون الله، فقوله: ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ ﴾ لبيان المتأفَّفِ منه: أي هم وأصنامهم.

قال العلماء: لما غلبهم إبراهيم بالحجة القاهرة، لم يجدوا مخرجاً إلا بإهلاكه

فكان جوابهم ما ذكره الله تعالى في [سورة الأنبياء]: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

قال صاحب «أيسر التفاسير»: بعد أن أعيتهم الحجة، وانقطعوا ببيان اللسان، لاذوا إلى قوة السِّنان، وهذا شأن من كتب الله عليه الخسران.

قال الزمخشري: أجمعوا على إهلاك إبراهيم، ثم قال: وهذا شأن المُبطِل إذا افتُضِحَ باطله، وأفحمتْهُ الحجة الصادقة، لم يكن أحد أبغض إليه من المُحِقِّ، ولم يبقَ له ملجأ إلا مناصبة صاحب الحق العداء، كما فعلت قريش برسول الله ﷺ.

قال ابن كثير: لما غُلِبوا في المناظرة مع إبراهيم، ولم يبقَ لهم حُجَّة عَدلوا إلى القوة لينصروا باطلهم وسفههم، ثم ذكر ما قاله النمرود وقومه وجنده، وهو قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الصافات].

قال الآلوسي في تفسيره: أمروا بالتحريق؛ لأن النار أشد العقوبات، ولذلك ورد في بعض الآثار، لا يُعذب بالنار إلا خالقها، وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: تلوتُ قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنبياء]، على عبد الله بن عمرفقال: أتدري يا مجاهد من الذي أشار بتحريق إبراهيم؟ قلت: لا، قال: رجل من أعراب فارس اسمه «هيزر، أو هينون»، ونلاحظ أنَّ الآية أسندت الأمر بإحراق إبراهيم إلى الجميع: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ ﴾، لأنهم أشاروا على النمرود بإحراقه، ثم أمر النمرود بالإحراق؛ لأنَّ الأمر بإتلاف النفوس لا يملكه إلا ولاة الأمور.

وذكر ابن عطية في تفسيره: أنَّ الله خسف بالذي أشار بالتحريق على الملك، خسف به الأرض، فهو يتجلجلُ فيها إلى يوم القيامة.

قال الطبري: وهذا الذي جاء به الحديث الشريف: «بينا رجل يمشي في حُلّةٍ له، يتبختر فيها، فخُسفَ به، فهو يتجلجلُ فيها إلى يوم القيامة».

وذكر ابن الجوزي في «زاد المسير»: أنهم حبسوا إبراهيم أولاً، ثم بَنَوْا له «حَيْراً»، والحير: هو ما يشبه الحظيرة في مكان منخفض بجوار جبل مرتفع، في منطقة كوثى من أرض بابل، وكان طول الحير ستون ذراعاً، ثم نادى منادي الملك: أيها الناس احتطبوا لإبراهيم، ولا يتخلَّفن عن ذلك صغير ولا كبير، فمن تخلَّف أُلقي في تلك النار، ففعلوا ذلك أربعين يوماً، وقال ابن إسحق: جمعوا الحطب شهراً، ثم أوقدوا النار.

قال البغوي: وكان الرجل يوصي بشراء الحطب، وإلقائه فيها، وكانت المرأة تغزلُ، وتشتري بأُجرةِ غزلها الحطب، وتُلقيه في المكان احتساباً.

قال ابن الأثير: وكانت المرأة تنذر إن حصلت على ما تريد أن تحتطب لنار إبراهيم.

وذكر البروسوي: أن المرأة إذا مرضت كانت تقول: إن عافاني الله لأجمعن حطباً لنار إبراهيم، ثم ذكر قصة في هذا الموضوع وهي: أنَّ عجوزاً نذرت أن تحمل حطباً إلى نار إبراهيم، فحملت حزمةً، فاعترضها مَلَك وهي تمشي إلى موضع النار، فسألها: أين تذهبين أيتها العجوز؟ قالت: أُريد نار إبراهيم!! فقال المَلكُ: «طوّل الله طريقك، وقصَّر خُطاكِ»، فماتت قبل وصولها إلى المكان.

قال ابن إسحق: جمعوا حطباً مدة شهر، ثم أشعلوه، حتى اشتدت حرارةُ النار، بحيث أنَّ الطائر ليمرُ بجنباتها فيحترقُ.

قال ابن الجوزي: لما امتلأت الحظيرة بالحطب حيث وازى الحطب رأس

الجدار سدُّوا أبوابها، وقذفوا فيها النار، فارتفع لهيبها، حتى أنَّ الطائر ليمرُّ بها فيحترق من شدتها.

والدليل على شدة حرّها؛ أنهم لما أرادوا إلقاء إبراهيم فيها لم يستطيعوا الاقترابَ منها لقوة لَفْحها، فصنعوا له المنجنيق ليُلقوه في النار من بعيد، لذلك قال الزجاج: كل نار بعضها فوق بعض فهي جحيم﴿ قَالُوا۟ ٱبۡنُوا۟ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾.

قال ابن الجوزي: ثم رفعوا إبراهيم إلى الجبل الذي عليه القاعدة المرتفعة ومن فوق القاعدة المنجنيقُ، كل ذلك لعدم استطاعتهم الدُّنُوَّ منها.

وروى أبو يعلى عن أبي هريرة أنَّ إبراهيم لما رُفِعَ على رأس البنيان ليُلقى في النار، رفع رأسه إلى السماء فقال: «اللهم أنت الواحد في السماء، وأنا الواحد في الأرض، ليس أحدٌ يعبدك غيري، حسبي الله ونِعم الوكيل».

قال ابن كثير: لما بَدَؤوا يُقيّدونه لإلقائه في النار قال: «لا إله إلا أنت سبحانك، رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك».

ولما أُلقي في النار قال: «حسبي الله ونعم الوكيل».

قال العلماء: وهذه العبارة آخر كلامه.

وروى البخاري عن ابن عباس أنه قال: «حسبُنا الله ونِعم الوكيل»، قالها إبراهيم حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قيل له﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُوا۟ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُوا۟ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾[آل عمران].

وأخرج ابن مردويه من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: «إذا وقعتم في

الأمر العظيم فقولوا حسبنا الله ونعم الوكيل» غريب - وهو ما يرويه راوٍ واحد -.

وأخرج ابن أبي الدنيا من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: إنَّ النبي ﷺ كان إذا اشتدَّ غمُّه مسح بيده على رأسه ولحيته، ثم تنفس الصُّعداء، وقال: «حسبي الله ونِعم الوكيل».

وأخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس أن النبي ﷺ قال: «حسبي الله ونِعم الوكيل أمانُ كلِّ خائف»، وحسبنا: مأخوذ من الإحساب: أي الكفاية: ومنه:

فتملأُ بيتنا إقطاً وسمناً وحَسْبُكَ من غنىً شِبعٌ وَرِيُّ

وذكر القرطبي وغيره: أنه لما أُلقي إبراهيم في النار ضَجَّت الملائكة والسموات والأرض إلا الثقلين، ضجةً واحدة، وقالوا: «ربنا: إبراهيم ليس غيره يعبدك في الأرض، فأْذَنْ لنا أن ننصُرَهُ»، فقال تعالى: «إن استغاث بشيء منكم فأغيثوه، فقد أذنتُ بذلك، وإن لم يدعُ غيري، فأنا أعلم به، وأنا وليه».

وذكر عبدالله المزني، أن الله عز وجل قال: «خليلي، وليس لي في الأرض خليلٌ غيره، وأنا الله ليس له إلهٌ غيري».

وقال مقاتل: أولُ من اتخذ المنجنيق النمرود، فلما وُضِع إبراهيم فيه وقد خلعوا ثيابه، وشدّوا وثاقه، ضجت السموات والأرض كلٌّ يقول: «يا رب عبدك إبراهيم»، فأوحى الله إليهم: «إنَّ إبراهيم عبدي، وإياي عَبَدَ، وفي حُبّي أُوذي، إن دعاني أجبته، وإن استنصركم فانصروه».

وورد عن ابن عباس، وعن سعيد بن جبير القولُ: إنَّ مَلَكَ المطر كان يقول: «متى أُومَر»، أي حتى أُطفئ النار، قال: فكان أمر الله أسرع حيث قال: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء].

قال أبي بن كعب: رَمَوْهُ من شاسع، فقال الله تعالى: ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾ [النساء]، الوكيل: تأتي بمعنى الكافي والمانع.

قال ابن عباس: لو لم يقُلِ الله عز وجل ﴿ وَسَلَـٰمًا ﴾ بعد قوله: ﴿ بَرْدًا ﴾ لآذى إبراهيم بردُها.

وقال أبو العالية: ولو لم يقل الله ﴿ بَرْدًا وَسَلَـٰمًا ﴾، لكان بردُها أشدَّ من حرّها، ولو لم يقل ﴿ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾؛ لكان بردها باقياً إلى الأبد.

وورد عن علي بن أبي طالب قوله: «لو لم يُتْبع بردها سلاماً؛ لمات إبراهيم من بردها».

وذكر القرطبي أقوال بعض العلماء حيث قالوا: جعل الله فيها برداً يرفعُ حرَّها، وحراً يرفعُ بردَها، فصارت سلاماً عليه.

قال قتادة وكعب: لم تحرق النار من إبراهيم إلا وَثاقه.

وذكر الآلوسي في تفسيره، أنَّ جبريل قال لإبراهيم: إنَّ ربك يقول: «أما علمتَ أنَّ النارَ لا تَضُرُّ أحبابي».

وذكر البروسوي: أن الله تعالى خلق في جسم إبراهيم خاصيّةً تمنعُ تأثير النار فيه، وذلك كخزنةِ النار، وكما رُكِّبَ في بِنيةِ النعامةِ أنها لو ابتلعت قطعَ حديد محمّى لا يضرها ذلك.

قال السدّي: أخذت الملائكة بضَبْعَي إبراهيم فأجلسوه على الأرض فإذا عين من ماءٍ عذبٍ، ووردٌ أحمر، ونرجسٌ، وصار إبراهيم في مَيْلِ الحفرة، والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول إليه، ولا هو يخرج إليهم.

قال ابن إسحق: وبعث الله له ملكاً يؤنسه على هيئته، كما بُعِثَ له قميص من حرير الجنة وطِنْفِسَةٌ، فأُلبسَ القميص، وجلس على الطِنْفِسَةِ وجلس المَلَكُ يُحدثه ويؤنسه.

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: إن أحسنَ كلمة قالها آزر أبو إبراهيم حين رأى ولده على تلك الحالِ من السلامة: «نِعْمَ الربُّ ربك يا إبراهيم».

ويروي البروسوي في تفسيره: أنهم لما رَأَوْهُ سالماً، ولم يحترقْ إلا وثاقه قال هاران والد لوط: إن النار لا تُحرقه؛ لأنه سَحَرَ النار، فطارت شرارة من النار إلى لحية هذا القائل فأحرقتها.

ويذكر ابن الجوزي: أنَّ آزر والدَ إبراهيم أتى النمرود بعد أيام، وطلب منه الإذن بإخراج رُفاة إبراهيم.

يقول ابن عباس: إنَّ أمَّ إبراهيم رأت رؤيا بعد إلقاء ولدها في النار، رأتهُ جالساً، وحوله روضة خضراء، وأنها قالت لزوجها - أي في الرؤيا - انظر كيف أفلجَ الله حُجةَ ولدي فلم تَضُرَّه النار.

قال ابن الجوزي: فانطلقوا جميعاً ومعهم الناس، فأُمِرَ بنقْب الحائط، وإذا إبراهيم في روضة تهتزُّ، وثيابه تندى، وعليه القميصُ، وتحته الطِّنْفِسَةُ، فناداه النمرود: يا إبراهيم: إن إلهك الذي بَلَغَتْ قدرتُهُ هذا، لكبيرٌ، هل تستطيع أن تخرج؟

قال إبراهيم: نعم، فقام يمشي حتى خرج، فقال النمرود: إني مقربٌ إلى إلهك قرباناً لما رأيتُ من قدرته التي صنع بك؟!! إني ذابح له أربعة آلاف بقرة، فقال إبراهيم: إنه لا يقبل منك ما دمتَ على دينك، ولكن إن رجعت

عما أنت عليه إلى التوحيد وعبدت الله وحده، قبل منك ذلك، فقال النمرود: لا أستطيع تركَ مُلكي ولكني سافعلُ، فذبح البقر وكفَّ عن إبراهيم.

قال ابن كثير: يذكرون أنَّ جبريل كان يمسحُ العرق عن وجه إبراهيم، فلم يصبْه من النار شيء إلا التعرقُ.

ويروي ابن عساكر في «تاريخه» عن عكرمة، أنَّ أمَّ إبراهيمَ لما أتتْ إليه ورأتْهُ قالت له: يا بني: إني أُريد أن أجيء إليك، فاسأَل ربك أن يُنجيني من حرِّ النار حولك، فقال إبراهيم عليه السلام: نعم، فأقبلت إليه لا يضُرها شيء حتى عانقته وقبلته.

وقد روى ابن كثير في كتابه «قصص الأنبياء» هذا الخبر مطولاً فقال: إن أمَّ إبراهيم كانت تقول بعد أن أُلقي ولدها في النار: كان ولدي يقول: إن لي ربّاً يمنعُني، وإني مطلعةٌ على النار أرى ولدي – أي ماذا جرى له – هل تحقق ما كان يقوله: إن لي ربّاً يمنعني.

قال: فأشرفتْ على النار، فرأتْ ولدها على حالةٍ حسنةٍ فنادته، فلما رآها قال لها: يا أُمّاه ألا ترَيْنَ ما صنع الله بي؟

فقالت: يا بني: لولا خوفي من النار لأتيتُك، فقال إبراهيم: انزلي وتعالي، فقالت: يا بني: ادعُ الله ربك أن يجعل لي طريقاً، فدعا ربه، فنزلتْ واقتربتْ من النار، فقالت: إني أخاف، قال إبراهيم: هل تجدين من حرّها شيئاً؟ قالت: لا، ثم سارت حتى إذا دَنَتْ منه ضمته إلى صدرها، وجعلتْ تُقبّلهُ، ثم طلب منها الرجوع فرجعت، فلما وصلت إلى مكان الخروج وأرادت أن تنزل، التفتتْ إلى ولدها إبراهيم وقالت: «إبراهيم ابني، عليك السلام يا ولدي»، وذهبت.

وورد عن المنهال بن عمرو أنه قال: بلغني أن إبراهيم مكثَ في النار كذا وكذا يوماً، وأنه عليه السلام قال: «ما كنت أياماً ولياليَ أطيبَ عيشاً إذ كنت فيها، ووددْتُ أنَّ عيشي وحياتي كلها مثل إذ كنتُ فيها».

وهكذا نجاه الله، وجعل النار عليه برداً وسلاماً، ورحم الله ابن عطاء حيث قال: سلامة إبراهيم من النار بسلامة صدره. حيث وصفه الله تعالى بقوله: ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الصافات]، سليم من الشرك، سليم من الآفات كلها، فسلامتُهُ من النار من سلامة قلبه.

قال ابن كثير: أرادوا أنْ ينتصروا فخُذلوا، وأرادوا أنْ يرتفعوا فاتَّضَعُوا، وأرادوا أن يَغْلبوا فغُلِبوا، قال الله تعالى: ﴿ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الصافات]، وقال: ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء].

والمراد بالكيد: تدبيرٌ خَفِيٌّ للعدو حتى لا يشعر بما يُدبَّر له؛ لأنه إن شعر بما يُدَبَّر له فقد يحتاط، والكيد قد يكون لصالح الإنسان، وقد يكون ضده، ففي قوله تعالى في [سورة يوسف ٧٦]: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ أي لصالحه.

فلم يقل: كدنا يوسف، إنما قال: ﴿ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾، والكيد دليلٌ على ضعف وعدم قدرة على المواجهة، فالذي يتآمر على غيره خُفية، لم يفعل ذلك إلا لعدم القدرة على المواجهة لذلك جاء في أقوال الحكماء: «أعوذ بالله من قبضة الضعيف، فإني قويٌّ على قبضة القوي». لأنَّ الضعيف إذا تمكن من فرصةٍ فإنه لا يَدَعُها؛ لأنه لا يضمنها في وقت آخر، أما القوي فواثق من قوته يستطيع أن يصل إلى خصمه متى أراد، ولذلك قال الشاعر:

وضعيفةٍ، فإذا أصابت فرصةً ... قتلتْ، كذلك قُدرةُ الضعفاءِ

لذلك استدلوا على ضعف النساء بقوله تعالى في [سورة يوسف]: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨﴾، وما دام كيدهن عظيم، فضعفهن عظيم، أو حتى أعظم كما قال بعض المفسرين.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠﴾ [الأنبياء]، وقد كانت خسارتهُم في مسألة حرق إبراهيم كبيرةً، فهم أولاً خسروا؛ لأن إبراهيم لم يُصَبْ بسوء، على الرُّغم من إلقائه بالنار، ثم ناصبوا إبراهيم العداء فعاقبهم الله تعالى هنا بما أصاب النمرود، وسيُجازَوْن يوم القيامة على فعلهم بأنواع العذاب، فأي خُسرانٍ أشدُّ من هذا؟ فهم لم يحصلوا على ما يريدون، ثم خسروا الآخرة والعياذ بالله تعالى.

كلمة عن دويبة «الوزغ»، وهو حيوان له علاقة بقصة حرق إبراهيم.

قال أهل اللغة: الوَزَغَة: هي دويبة تُعرف بسامِّ أبرصَ، جمعها وزغٌ، وأوزاغٌ، ووزغان، وهي دابةٌ تُطاعم الحيات وتُقاربها.

قال أهل المعرفة بالحيوان: ربما كرعت الوزغة من المرق أو اللبن ثم تمجّه في الإناء، فينال الناس بذلك مكروهٌ كبيرٌ من حيث لا يعلمون، ولذلك جاء الأمر من النبي ﷺ بقتله كما سيأتي معنا، ولذلك كان «يحيى بن يعمر» يقول: لأن أقتل كذا وكذا وزغة أحبُّ إليَّ من أن أُعتق رقبة.

قال المؤرخون: كان السجّانون يَصْنعونَ من الأوزاغ سموماً شديدةً أقوى من سم «نبتة البيش»، يتخلصون بهذه السموم من المسجونين المعادين للملوك دون قتل ظاهر.

والطريقة المتبعة في ذلك، هي أن يأتوا ببعض الأوزاغ ويدخلوها في قارورة ثم يصبّوا عليها من الزيت ما يغمرها، ويضعونها في الشمس أربعين

يوماً حتى تختلط بالزيت، وتصير شيئاً آخر، فإذا مسح السجين منه على رغيف مسحةً قليلةً فأكل منه مات، وربما قتل الرغيف الواحد عشرةً من المسجونين.

ويقول الجرواني: إن الوزغ يختال الذباب، أي يصطاده صيداً حسناً.

وقال الجاحظ: وتخرج الوزغة والعنكبوت، فيصيدان الذبابَ بأحسن تدبير، وقد يُقطع ذنب الوزغة من ثُلُثِها الأسفل فتعيش إن سلمت من الذرّ فلم يلحقها، ويكون سم الأوزاغ أسرع في القتل من سم البيش، وبخاصة عندما تكبر الأوزاغ وتهرم.

قال علماء الحيوان: إنَّ بين الأوزاغ وبين الحيات مودةً إنها تَساقى السمَّ وتَزاقُّ، كما بين العقارب والخنافس مودةٌ، ويكره الوزغ الزعفران، وتموت السنانير من أكل الأوزاغ.

لماذا أمر النبي ﷺ بقتله؟

أخرج الإمام أحمد عن سُمامَةَ قالت: دخلت على عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، فرأيتُ في بيتها رمحاً موضوعاً، فقلت: يا أم المؤمنين: ما تصنعين بهذا الرمح؟ قالت: هذا لهذه الأوزاغ نقتلهن به، فإنَّ رسول الله ﷺ حدثنا أن إبراهيم حين أُلقي في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تُطفئ عليه النار غير الوزغ، كان ينفخ عليه، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله.

وأخرج البخاري في صحيحه من حديث أم شريك أن النبي ﷺ، أمر بقتل الوزغ وقال: «كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام».

وقال كعب وقتادة والزهري: ولم تبق دابة يومئذ إلا أطفأت عن إبراهيم النار، إلا الوزغ، فإنها كانت تنفخ عليه، فلذلك أمر رسول الله ﷺ بقتلها،

وسمّاها الفُويسِقة.

وورد عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال: إن الأوزاغ كانت تنفخ عليه النار وكانت من أحسن الدواب، فلُعِنَتْ، فصارت مذمومةً، فمن قتل منها شيئاً أُجِرَ.

وذكر ابن عساكر في تاريخه: أنه قيل لابن عباس بعد أن كُفَّ بصره: هذا وزغ، فقال: أرشدوني إليه، فأرشدوه إليه، فضربه ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل وزغة كُتبت له عشر حسنات، وحُطَّ عنه عشر سيئات، ورُفِعَ عشرَ درجات»، فقيل يا رسول الله: ما له؟ فقال ﷺ: «إنه أعان على قتل إبراهيم حين أوقدت عليه النار»، وفي الحديث عن عائشة: أنه لما احترق بيت المقدس كانت الأوزاغ تنفخه.

المناظرة بين النمرود، وبين إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

وقد قصَّ الله علينا هذه المناظرة في كتابه الكريم في [سورة البقرة] قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ للنبي ﷺ ولأمته من بعده، ومعنى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هنا: ألم تعلم؛ لأن النبي ﷺ لم يرَ هذه الحادثة وهذه المناظرة بعينه، ولكنَّ الإخبار عندما يكون من الله تعالى، فهو صدقٌ ويقينٌ، فكأنَّ المخاطَبَ عاين ذلك ورآه، وهذا كقوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الفيل].

والرسول ﷺ ولِدَ عام الفيل، فلم يَرَ الحادثة، فالله تعالى يقول له: ألم تعلم، أي: اعلم علماً يقينياً قطعياً هذا الأمر كأنك تراه بعينك، ونلاحظ أنَّ الآيات لم تُصرح باسم هذا المجادل الذي آتاه الله المُلكَ، والسبب في ذلك أن التشخيص غير ضروري ليبقى الأمر شائعاً في كل زمان ومكان، إذ قد يحدث مثله مع غير إبراهيم، ثم إنَّ عدم ذكر اسم الذي جادل إبراهيم فيه احتقارٌ له، وإظهارٌ لقبح فعله وهو الكفر، ولكن المؤرخين والمفسرين قالوا: إنه ملكٌ واسمه «النمرود».

قال الصاوي: هو النمرود الذي حملت به أمه من زنىً خوفاً على مُلكِ أبيه من الضياع، حيث كان أبوه عقيماً، وهو أول من وضع التاج على رأسه وكلَّلهُ بالأحجار الثمينة، وتجبَّر في الأرض وادّعى الربوبية، وهو صاحب الصرح ببابل.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ ءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾، أي الذي حمله على التكبر والبطر إيتاء المُلكِ، فحاجَّ إبراهيم في ربه، وهذا أقبح وجوه الكفر لأنه وضع الكفرَ مكان الشكر، وكان الجدير به أن يشكر ربه على إيتائه المُلكَ، ولكنه لغروره عكس الأمر، فجعل المعاداة بدل الموالاة، وهو الذي بدأ في المحاجّة لإبراهيم عليه السلام.

قصة هذه المناظرة وسببها:

ذكر الصاوي أن هذه المناظرة كانت بعد خروج إبراهيم من النار.

وقد ورى عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم، أنَّ النمرود كان يحتكر الطعام، وكان الناس يفدون إليه للميرة، فإذا دخلوا عليه سجدوا له، فدخل إبراهيم يمتارُ فلم يسجد له، فقال: ما لك لا تسجد لي؟ قال إبراهيم: أنا لا أسجد إلا لربي، فقال له النمرود: من ربك؟ قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى

يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾، وكان النمرود أحياناً يسأل الناس الذين يأتون لطلب القمح: مَنْ ربكم؟ فيقولون: أنت، فيقول: أعطوهم، وكان إبراهيم مِنْ جملة مَنْ وَفَدَ، فقال له: من ربك؟ قال إبراهيم: ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾، وجرت هذه المناظرة، فلم يُعطَ إبراهيم من القمح شيئاً، ومنعه الميرة، فرجع إبراهيم إلى أهله دون شيء، فمرَّ على كثيبِ رملٍ أحمر كالدقيق، فقال في نفسه: لو ملأت هاتين الغرارتين من هذا، فإذا دخلت فرح الصبيان حتى أنظر إليهم، فأخذ من الرمل تطييباً لقلبِ أهله.

قال المفسرون: فلما بلغ منزله فرح الصبيان، وصاروا يلعبون فوق الغرارتين، ونام هو من التعب، فقالت امرأته: لو صنعت له طعاماً يجده حاضراً إذا انتبه من نومه، ثم فتحت إحدى الغرارتين فوجدت أحسن ما يكون من الحُوَّاري.

والحُوَّاري: لباب الدقيق وأجوده وأخلصه، فلما استيقظ من منامه، وضعت زوجته الطعام بين يديه فقال: من أين هذا؟ فقالت: من الذي أتيتنا به، فعلم إبراهيم أن الله يسَّر لهم ذلك، فأكثر الحمد والثناء على الله.

قال الربيع: أجاب النمرود إبراهيم بقوله: ﴿ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ ﴾، فأحضر رجلين محكوماً عليهما بالموت، فقتل أحدَهما، وأرسل الآخر، ثم قال: قد أَحْيَيْتُ هذا وأمتُّ هذا، ثم كان بعدها ردُّ إبراهيم سريعاً حيث قال ما قصَّهُ الله علينا: ﴿ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ ﴾ [البقرة ٢٥٨]، عندها بُهِتَ الذي كفر وذلك قوله تعالى: ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ﴾.

قال أبو السعود في تفسيره: لم يَرُدَّ إبراهيم على قول النمرود ﴿ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ ﴾؛ لأن بُطلانها واضح؛ لأنه جواب تمويهٍ وتضليلٍ وحماقةٍ، ولذلك

أتى إبراهيم بمثلٍ لا يستطيعُ النمرود اللعين أن يُضلل فيه أو أنْ يُمَوِّه.

قال العلماء: أما قول النمرود: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾، فهو حماقة وسفاهة لأنَّ الإحياء هو خلقُ الحياة في المعدوم، وإخراجه إلى الوجود، وليس الإحياءُ عفواً عن إنسان وإعداماً لآخر.

وانتقال إبراهيم إلى المثل الثاني، وهو قوله: ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾، ليس عجزاً عن إقامة الحجة على النمرود في المثل الأول: ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، إذ باستطاعة إبراهيم أنْ يقول له عبارة تُقيم الحجة عليه وتُخْرِسُه، باستطاعة إبراهيم أن يقول له: أحْيِ ما أمتَّ إن كنت صادقاً، ولكن إبراهيم انتقل إلى التحدي الثاني لقطع المناظرة والمُحاجّةِ، وليس عجزاً عن نُصرةِ الحجةِ الأولى وقوتها.

قال العلماء: يُستدل في هذه المناظرة التي جرتْ بين النمرود وإبراهيم على جواز المناظرة عموماً لإظهار الحقِّ، وهذا في القرآن والسنة كثيرٌ، فمن ذلك أنه لما جاء وفد نصارى نجران إلى المدينة والتقى هذا الوفد باليهود في مجلس النبي ﷺ ولِـمَـا بين الفريقين من العداوات السابقة تماروا، وتجادلوا في المجلس، فادعت اليهود أنَّ الجنة لا يدخلها إلا من كان يهودياً، وادعت النصارى أن الجنة لا يدخلها إلا من كان نصرانياً، وقد ذكر الله تعالى ذلك في [سورة البقرة ١١١]: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡ﴾، فردَّ الله عليه قولهم وأبطل دعواهم فقال مُطالباً بالبرهان والدليل: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢﴾ [البقرة]، قال الرازي: دلَّت على أنَّ المدّعي نفياً أو إثباتاً، فلا بُدَّ له من الدليل والبرهان، والبرهان: هو الدليل

الذي يوقع اليقين.

قال المزني – صاحب الشافعي –: ومِنْ حقِّ المناظرة أن يُرادَ بها وجه الله تعالى، وأن يُقبل منها ما تَبَيَّنَ.

وقال العلماء: لا تصح المناظرة، ولا يظهر الحق بين المُتناظرين حتى يكونوا متقاربين أو مستويين في مرتبة واحدة من الدين والعقل والإنصاف والفهم، وإلا فهو مِرَاءٌ ومكابرة.

الهجرة من العراق إلى بلاد الشام، ثم إلى مصر، ثم العودة إلى الأرض المقدسة:

قال ابن كثير: لما سلَّمَ الله إبراهيم من النار، أخرجه الله من بين أظهرهم مُهاجراً إلى الشام، إلى الأرض المقدسة.

وقال صاحب «البحر» في تفسيره: لما سلَّمهُ الله من النار عَزَمَ على مفارقة قومه إلى أرضٍ يعبدُ الله فيها ولا يُشوش عليه أحد، فذلك في قوله تعالى في [سورة الصافات]: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ ﴾، أي إني مهاجر إلى بلدٍ أعبد فيه ربي، وأعصمُ فيه ديني.

قال الرازي: في هذا دليل على أنَّ الموضع الذي تَكثُر فيه الأعداء، تجبُ مهاجَرَتُهُ؛ وذلك لأنَّ إبراهيم عليه السلام مع ما خصَّهُ الله تعالى به من أعظم أنواع النصرة، لما أحسَّ من قومه العداوة الشديدة، هاجر فَلَأَنْ يجبُ على غيره أولى.

واستعمال السين ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ للتنفيس عما هو فيه، مع قرب وقوعه.

قال قتادة: كان إبراهيم بأرض العراق، فأنجاه الله إلى الشام، وهي الأرض التي ينزل بها المسيح، وبها يُهلك الدجال، قال عز وجل: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنبياء]، والأرض المباركة

هنا، بلاد الشام، وبركتُها بكثرة الأنبياء، وإنزال الشرائع التي هي طريق السعادتين، وبكثرة النِعَمِ والخصْبِ والثمار وطيبِ العيش.

قال قتادة: هاجر إبراهيم من كوثى إلى أرض حرّان، ثم إلى الشام ومعه لوط ابن أخيه، ومعه زوجه ساره.

قال البروسوي: إن إبراهيم هاجر هجرتين، من كوثى في أرض بابل في العراق إلى حرّان، ثم من حرّان إلى الشام، ولكل نبي هجرة واحدة.

وحرّان: مدينة قديمة من أرض الجزيرة بين الرّها ورأس العين.

قال صاحب «دائرة المعارف الإسلامية»: استوطن فيها إبراهيم مدة، وهي مدينة لا تزال معروفةً بموقعها في الشمال الشرقي من بلاد ما بين النهرين، متاخمة للحدود السورية التركية، داخل حدود تركيا على بُعد أربعين كيلاً جنوب شرقي «أورفة» وعلى بعد ٨٠ كيلاً من مصب نهر «بُليخ» على نهر الفرات، وكانت مركزاً هاماً للطرق التجارية بين العراق وسوريا وفلسطين، وكانت مركزاً لعبادة القمر «الإله سين»، ولذلك سوف نرى أنَّ إبراهيم ناقشهم في معبوداتهم من الكواكب والقمر.

قال المؤرخون: «وحرّان»: هي المدينة التي توجه إليها إبراهيم بعد خروجه من بابل، ثم ذهب منها إلى أرض الشام.

قال صاحب «معجم البلدان»: وحرّان على طريق الشام الموصل، بينها وبين الرقة يومان، وكانت حران منازل الصابئة وهم الحرّانيون.

وقد حدّث الشاعر ابن النبيه قال: مررتُ على الملكِ الأشرف بن العادل بن أيوب في يوم شديد الحرارة بظاهر حرّان على مقابرها، ولها حجارة كأنها الرجال القيام، فقال لي الملك الأشرف:

يا ابن النبيه: بأي شيء تُشبه هذه؟ فقلتُ مرتجلاً:

هـــواءُ حـــرّانِـكــم غليظ مــكــدّرٌ مــفــرط الحـــرارة
كـــأنَّ أجــداثــهـــا جحيم وقــودهــا الــنــاس والحــجـارة

قال ابن ميمون، وقد مرَّ على حرّان: وفيها كانت وفاة «محمد بن علي بن عبد الله بن العباس»، وكان «مروان بن محمد» الخليفة الأموي قد حبسه فيها حتى مات، فقال الشاعر ابن ميمون:

قد كنتُ أحسبني جَلْداً فضعضعني قبرٌ بحرّان فيه عصمةُ الدين

قال ابن كثير: لما هَجَر إبراهيم قومه في الله، وهاجر من بين أظهرهم ومعه زوجه «سارة» وكانت عاقراً لا يولد لها، ولم يكن لديه ولد، ومعه ابن أخيه لوط، أكرمه الله حين ترك بلاده وأقاربه بأنْ وهبه الله الذرية الصالحة، وجعل في ذريته الكتابَ والنبوةَ، وحين دعا إبراهيم ربَّه طالباً الولد الصالح، قال تعالى يذكر دعوته: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصافات]، أي ولداً من الصالحين، ثم قال تعالى بعدها: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾، فجاءت الفاءُ لتدلَّ على السببية والترتيب، أي بسبب دعائه بشَّرناه.

قال عبد الرحمن بن أسلم: طلب إبراهيم ولداً بقوله: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾، فأعطاه الله إسحق، وزاده يعقوب، قال تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾ [الأنبياء]، قال ابن أسلم: وزاده الله بعد إسحق يعقوب، وهو ولد إسحق، فكان يعقوب نافلةً، أي زيادة، وهي ولد الولد.

قال العلماء: أما إسماعيل فكان قد وِلِدَ قبل إسحق من الجارية هاجر.

هنا نلاحظ أنَّ إسماعيل لم يُذكر مع أنه جاء قبل إسحق: ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ ﴾، لماذا؟

والجواب كما قال العلماء: أنَّ المقام هنا مقام امتنان؛ لكن إسحق ولِدَ من امرأة عجوز كبيرة لا تلد، أما إسماعيل فكان من هاجر، هي في سنٍ تلد فيه.

قال الغرناطي في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الصافات]، يقول: اشتملت هذه البشارة على أمور: منها ذكورية المولود، وبلوغه سنّ الحلم، ثم قال: وأي حلم أعظم من أن يَعرض عليه أبوه الذبح فيقول: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات].

قال ابن كثير: أقام إبراهيم «بحرّان»، وهي مدينة يعبد أهلها الكواكب السبعة، وكذلك كان أهل الجزيرة وأهل الشام على هذه العقيدة الضالة – أي عبادة الكواكب والقمر – يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة، ومما يؤكد صحة ذلك، أنه كان على كل باب من أبواب دمشق القديمة السبعة «هيكلٌ لكوكبٍ» وكانوا يعملون لها أعياداً وقرابين.

قال الصاوي في كتابه «النبوة والأنبياء»: والذين عمَّروا دمشق كانوا على دين عبادة الكواكب، يستقبلون القطب الشمالي، ويقومون للعبادة لها بأنواع الفعال والمقال.

قال صاحب كتاب «قصص القرآن» جاد المولى: لما استقر إبراهيم في حرّان، في هجرته الأولى، تاركاً وطنه وقومه، علَّهُ يجد في غير وطنه وقومه آذاناً تسمع إليه، ولكن سُرعان ما تبيَّن له أن القوم – في حرّان – يعبدون الكواكب، وأراد أن يرشدهم إلى فساد اعتقادهم، فاختارسبيل العقل، وطريق الحجة، حتى إذا تبيَّنوا الحقَّ، أصغَوا إليه.

قال الأستاذ «أحمد بهجت» في كتابه «أنبياء الله»: قال: كانت الوثنيات على عهد إبراهيم ثلاثاً، وكان الناس يتنقلون بينها من واحدة إلى وثنية أخرى، وكانت **الأولى**: وثنية الأصنام والتماثيل، وكانت **الثانية**: وثنية عبادة الكواكب، أما الوثنية **الثالثة**: فكانت عبادة الملوك، وقد رأينا أنَّ إبراهيم هاجم وثنية الأصنام، وحطم تلك المعبودات، وقد مرَّ معنا ذلك في [سورة الأنبياء] وغيرها: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾، ثم هاجم الوثنية الثانية - وهي عبادة الملوك - وبيّن أن السلاطين عبادٌ لله عز وجل مخلوقون له، وقد مرَّ معنا ذلك في قول إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، ثم هجم على الوثنية الثالثة وهي وثنية الكواكب وعبادة القمر، كما هاجم عُبّادها، ويؤكد ذلك ما ذكره «طبارة».

قال الدكتور «طبارة» صاحب كتاب «مع الأنبياء»: أظهرت الدراسات التاريخية أنه في الزمن الذي عاش فيه إبراهيم كان بعض الناس يؤلهون الشمس، وبعضهم القمر والكواكب، وكان إبراهيم لا يترك فرصةً إلا ويُحاور ويُجادل لبيان بُطلان هذه المعبودات وعبادتهن، وكان يوضح أن المعبود بحقٍّ، هو الله وحده تبارك وتعالى، وسنذكر موقفاً من هذه المواقف، ومناظرة من هذه المناظرات جرت له في حرّان - كما ذكر المؤرخون والمفسرون - كما ذكر ذلك ابن كثير أيضاً.

قال الأستاذ «جاد المولى» في «قصص القرآن»: اتبع إبراهيم طريقاً في الحوار حكيماً، ومنهجاً في الكلام قوياً، فهو لم يُعلن مخالفتهم، ولم يُحقّر معبوداتهم، بل أظهر أنه يُحاكيهم في معتقدهم، لأن ذلك أدعى إلى أن يستمعوا منه، ويقبلوا قوله، واستعمل هذا الأسلوب حتى يكسب ثقتهم، وحتى لا ينفروا منه.

قال صاحب كتاب «نظرات في أحسن القصص» محمد الوكيل: خرج إبراهيم من بابل، فنزل حرّان، فأقام فيها ما شاء الله أن يُقيم، فوجد أهلها يعبدون الكواكب، فناظرهم في عبادتها، وكان من شأنه ما قصّه الله علينا في [سورة الأنعام]: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

قال المهايميّ: لما رأى إبراهيم عالم الملكوت، والمقصود بملكوت السماء والأرض، هو دلائل مخلوقات الله، وعظمةُ مُلكه تبارك وتعالى التي تدل على أنه لا خالق غيره، ولا متصرف فيما كشف لإبراهيم إلا هو عز وجل، وأيقن بالتالي أنه لا يصلح شيء منها أن يكون إلهاً، عندها أراد الردَّ على قومه الذين يعتقدون إلهية القمر أو الكواكب؛ لأنَّ إبراهيم أصبح من الموقنين في معرفة الله وصفاته.

قال الزمخشري: أراد إبراهيم أن يُنبههم على الخطأ في دينهم، وأن يُرشدهم إلى الاستدلال الصحيح، ويُعرفهم أنَّ لا شيء من هذه الأجرام والكواكب يصحُّ أن يكون إلهاً لأنها مُحْدَثةٌ، وأن وراءها صانعاً صنعها، ومدبّراً دبّر طلوعها وأُفولها، وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ ﴾ [الأنعام ٧٦]، أي أظلم عليه إظلاماً، أي كما أنه كان سائراً مع فريق من قومه يُشاهدون الكواكب،

يدل على ذلك قوله تعالى حاكياً عن إبراهيم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨﴾ [الأنعام ٧٨].

وقوله: ﴿كَوۡكَبٗاۖ﴾، يطلق على النجم الذي يأخذ نوره من غيره.

وقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾: وهو من إبراهيم استدراجٌ لإقامة الحجة عليهم ببطلان ما يعبدون، وهذا عند أهل العلم جائز، وذلك بأن يوافق المناظرُ على قول الخصم حتى لا يجعله يعترض عليه أو يُشاغب، ثم يهجم عليه بالحجة فيُبطله، وهذا يشبه ما فعل أحد الحكماء حين نزل بجزيرة يعبد أهلها صنماً، فأظهر لهم احترامه للصنم، فأكرموه وقدّموه، وصاروا يعملون بمشورته، ثم دهم الجزيرة عدوٌّ، فجمعهم الملك للمشاورة، فقال هذا الحكيم: ندعو إلهنا - الصنم - الذي نعبده ليكشفَ ما بنا !!! فاجتمعوا يدعونه، فلم ينفعْهم بشيء، فقال لهم الحكيم: ههنا إله ندعوه فيستجيب، وعرَّفهم على الله تعالى، فدعوه، فصرف عنهم ما كانوا يخافون، وأسلموا جميعاً، فلو قال لهم هذا الحكيم من أول الأمر: إنكم أهل ضلال، إنكم كذابون، أو سبَّهم لما اهتموا به، ولا سمعوا له، وكذلك فعل إبراهيم، استعمل ما يُسمى في المجادلة بـ «مجاراة الخصم» ليستميل آذانهم، ويأخذ بقلوبهم إلى الحق.

ونحن قد نجد أمثلة لذلك في حياتنا، فقد تجد إنساناً عنده ابنة في سن الزواج، وجاءها خاطب وهذا الخاطب قصير جداً، والبنت طويلة ما شاء الله، وجاء الخاطب يطلب رؤيتها، فلما رأته ولاحظت قِصَرَهُ، قالت لأمها: هذا خطيبي؟!! وهذا القول منها، استنكار منها أن يكون هذا القصير جداً خاطباً لها، وحين قال إبراهيم: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾، معناه إنكارٌ أن يكون هذا الكوكب، أو ذلك القمر، أو تلك الشمس، هي الرّبُّ، وهو إنكارٌ خفيٌّ. وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾، يُقال: أفل النجم أُفولاً، والأفول: هو غيابُ

الكوكب وراء الأفق بسبب الدورة اليومية للكرة الأرضية، والأفولُ خاصٌّ بالكواكب النيّرة، يُقال: أفل النجم، وأفلت الشمس، إذا غربت وراء الأُفق بالدورية اليومية للأرض، ولا يُقال للشمس إذا احتجبت بسحاب أفلت.

وقوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾، أي لا أرضى بالآفلين إلهاً، أو لا أريد الآفل إلهاً، وإطلاقُ المحبة على الإرادة شائع في كلام العرب، قال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾ [التوبة]، أي يريدون أن يتطهروا، وهو ثناء على أهل قباء لجمعهم بين الاستجمار والاستنجاء مبالغةً في التطهر.

ووجه استدلال إبراهيم لأنَّ من يأفل لا يصلح أن يكون إلهاً، ذلك لأنَّ الأُفول مغيبٌ وابتعادٌ عن الناس، وشأن الإله أن يكون دائم المراقبة لتدبير عباده، فلما أفل النجم كان في حالة أفوله محجوباً عن الاطلاع على الناس كما قال ابن عاشور في تفسيره رحمه الله تعالى.

قال صاحب كتاب «مع الأنبياء»: لما أرخى الليل سدوله، وإبراهيم مع جماعة من القوم يتحدثون، لمحَ إبراهيم أحد الكواكب السيارة التي كان القوم يعبدونها، وهي: القمر، عطارد، الزهرة، الشمس، المشتري، المريخ وزحل يلمع، فقال إبراهيم على مسمع من الحاضرين: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾، مجاراةً لهم، فلما أفلَ قال إبراهيم: إني لا أومن بمعبودٍ يظهر ثم يغيب.

قال العلماء: لأنَّ المغيب نقصٌ، وتحوُّلٌ من حال إلى حال، وهذا التحول يدل على الحدوث وأنه مخلوق.

قال العلماء: وهناك تأويل آخر قوي في قول إبراهيم عن الكواكب: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾، على تقدير: هذا ربي بزعمكم، وله نظائر في اللغة العربية، ففي

القرآن الكريم نجد ذلك عند قوله تعالى: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان]، كان أبو جهل يقول: ما بين جبلي مكة أعزُّ ولا أكرم مني، وكان يضع الزبدَ والتمر بين يدي أولاده ويقول لهم: تزقموا، هذا هو الزّقوم الذي يهددنا به محمد ﷺ. فكان الجواب: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ ﴾ - لأبي جهل وأمثاله - ﴿ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان]، أي: إنك أنت العزيز الكريم عند نفسك كما كنت تقول، أو عند قومك، ومن ذلك قوله تعالى في [سورة طه] عندما وبَّخَ موسى السامريَّ لاتخاذه العجل إلهاً عند غيبة موسى، وبَّخَهُ موسى قائلاً له بعد أن حطَّمَ موسى العجل المعبود: ﴿ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ﴾، أي الذي زَعمْتَهُ إلهاً: ﴿ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [طه]، وكذلك ورد في الأثر أن النبي ﷺ كان يقول: «يا إله الآلهة»، أي الآلهة المزعومة عندهم.

وقوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ ﴾، والتقدير: فطلعَ القمرُ، فلما رآه بازغاً قال: هذا ربي، وهذا يقتضي أنَّ القمر طلعَ بعد أُفول الكوكب، والظاهر أنَّ إبراهيم عليه السلام اختار لُمحاجّة قومه الوقت الذي يَغرُبُ فيه الكوكبُ، ويطلعُ القمر بقرب ذلك، وأنه كان آخر الليل ليعقبهما طلوع الشمس.

وقوله: ﴿ بَازِغٗا ﴾، أي في بدء شروقه.

وسُمّي القمر قمراً لبياضه، وليلة قمراءُ، أي مضيئة، والأقمر: الأبيض، ثم يغيب القمر، فيقول إبراهيم مُعرِّضاً بضلال مَنْ يعبد هذه الكواكب، وذلك قوله: ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ

﴿...﴾ (٧٧) [الأنعام].

قال الزمخشري: قرر إبراهيم في هذا الكلام أمرين: **الأول**: أنَّ من اتخذ القمر إلهاً فهو ضال، ونظير القمر الكواكب، **والثاني**: أنَّ الهداية بتوفيق الله ولطفه، وقوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾، أي إنْ لم يُثبتني على الهداية؛ لأنه عليه السلام كان مهتدياً، ومثل ذلك نقرأه كل يوم في [سورة الفاتحة]: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾، أي ثَبِّتْنا على الهداية.

قال العلماء: والذي شجعه على التعريض بأنهم ضالّون، هو إصغاؤُهم له في المرة الأولى عند غياب الكوكب وأُفوله، وقبولُهم لقوله، وبذلك أدخل الشكّ في معتقدهم بهذا التعريض.

وتلمس دقة التعبير في قول إبراهيم: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ (٧٧)﴾، فلم يقل: لأكونن ضالاً، ليُشير بذلك إلى أن في الناس قوماً ضالين، ويعني بذلك قومه.

ثم تأتي الجولة الثالثة، وعندها يُصرّحُ بالبراءة منهم، ويُوبّخهم على شركهم وذلك حين تمت الحُجّةُ وظهر الحق، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)﴾ [الأنعام].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾: أي في الصباح بعد أن أفَلَ القمر، وذلك في إحدى الليالي التي يغربُ فيها القمر قُبيلَ طلوع الشمس؛ لأن هذا الاستدلال كان كله قد وقع في مجلس واحد كما قال ابن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره.

وقوله للشمس: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، باسم الإشارة المذكَّر، ولم يقل هذه مع أن

الشمس تجري مجرى المؤنث، لأنه قصد معنى الخبر، فكأنه قال: هذا الجرمُ الذي تدعونه الشمس ربي، أو لأنه رأى ضوء الشمس فقال: هذا ربي، ولم يَرَ عينها، ومنه قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ ﴾[يونس ٥]، ثم إن الشمس ليس فيها علامة التأنيث فجاز فيها استعمال المذكر والمؤنث.

وقوله: ﴿ هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ ﴾، أي أكبر الكواكب جُرماً، وأكثر إضاءةً، فهو أولى بالربوبية.

وقوله تعالى :﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ ﴾- صادعاً بالحق - ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ ﴾، أي بريء من شرككم، فلا تحاولوا معي أن أوافقكم على ضلالكم؛ لأنه لما انتفى استحقاق الإلهية من أعظم الكواكب التي عبدوها وهو «الشمس» فقد انتفى عما دونها بالأحرى، وهم كانوا كمشركي العرب، أشركوا مع الله غيره..

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: كان تفنيده لألوهية الشمس، ختامَ جولته مع عبدةِ الكواكب، حيث رماهم بالشرك، وتبرأ من شركهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ ﴾.

المحاجَّة والتخويف:

قال العلماء: بعد سماعهم هذا الكلام منه، أرادوا صرفه عن التوحيد، وخوّفوه بطش آلهتهم، ومسَّهم إياه بسوء، وهذا يشبه ما حكاه الله تعالى عن قوم هود: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ ﴾ [هود ٥٤]، والمراد بذلك الجنون؛ لأنه أبطل ألوهية أصنامهم، ودعاهم إلى التوحيد.

ولكن إبراهيم لم يعبأ بهم فقال: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ

عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنعام].

قال المفسرون: كان الغرض مِنْ محاجهم صرف إبراهيم عن دينه الحنيف، بعد أن أثبت بطلان معتقداتهم في الكواكب، ولكن مسالة الإيمان قد حُسمت عند إبراهيم فهي لا تقبل المناقشة، ولذلك قال: ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ ﴾، ثم يعلنُ بلهجة قوية: ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ ﴾، وهذا يدل على أنهم هدّدوه وخوّفوه بأنَّ آلهتهم قد يمسّوه بسوء، من بَرَصٍ أو مرض لأنه آذاها وتَنقَّصَها، ولذلك نفى خوفه من كواكبهم التي تأفل سواء كانت شمساً أو قمراً أو نجماً أم صنماً لأنها لا تضر ولا تنفع، والضرُّ والنّفعُ من صنع الله وحده عز وجل، ثم استثنى إبراهيم بقوله: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ ﴾.

يعني: انتبهوا يا قوم، فحين يريد الله أن يوقع على إنسان صخرة أو كوكباً، فليس الكوكب هو الذي أسقط نفسه، وليست الصخرة هي التي صنعت وقوعها، إنما الفاعل هو الله: ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[الأنعام ٨٠]، فهناك فرقٌ بين فعل يقع من فاعل، وفعل يقع من آلةٍ فاعلها غير تلك الآلة، ولذلك ذكر إبراهيم أنَّ خوفه الحقيقي هو من الله وحده: ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ ﴾ [الأنعام ٨٠].

ثم وضّح لهم القضية قائلا: إن كنتم لا تخافون الله القادرَ على ضُرِّكم ونفعكم، أفتنتظرون مني أن أخافَ آلهتكم التي لا تضر ولا تنفع؟

حكّموا عقولكم، ولا تتّبعوا أهواءكم، وأجيبوا فأيُّ الفريقين؟ نحن أم

أنتم أحقُّ بالأمن والأمان، وعدم الخوف إلا من الواحد سبحانه.

ويأتي الجواب من الله سبحانه ليُفحم المعاندين فقال بعد الآيتين السابقتين: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢ ﴾ [الأنعام]، أي قد حكم الله وفصل بين الفريقين فقال: إن الذين أمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بشرك، فأولئك لهم الأمن في الدارين، فالظلم هنا: الشرك، لما ورد في الصحيح من حديث ابن مسعود، أنه لما نزلت: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢ ﴾ شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: يا رسول الله: وأيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال ﷺ: «ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ١٣ ﴾» [لقمان]، ولكن قرأها عمر – أي الآية – ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢ ﴾ [الأنعام]، عَظمتْ عليه، فسأل أُبيّاً عنها، فقال أُبيّ: إنه الشرك يا أمير المؤمنين، فسُرِّيَ عن عمر رضي الله تعالى عنه.

وقوله تعالى: ﴿ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾، المهتدي: هو من يعرف الغاية التي يسعى إليها والوسيلة التي توصله إلى هذه الغاية، فالهداية: هي الطريق الموصل إلى الغاية، فإذا حدث خلل لك في ملكات النفس، فالجأْ لإصلاح هذا العطب إلى من صنع لك هذه الملكات وخلقها «وهو الله»، كما يقول الشعراوي، كما تُردُّ الآلة التي أصابها العطب لصانعها، ولذلك نرى كثيراً من البشر لا يعرفون غايتهم من وجودهم فيقولون على لسان الشاعر:

ألا مَنْ يُريني غايتي قبل مذهبي ... ومِنْ أين للغاياتِ بعد المذاهب

يقول الشعراوي: نجيبه بقولنا: من خلقك أوضحَ لك الغاية.

متابعة الهجرة إلى الشام، ثم الذهاب إلى مصر:

قال المؤرخون: انطلق إبراهيم نحو الشام، معه ابن أخيه لوط، ومعه زوجه «سارة»، ابنة عمه «هاران الأكبر» الذي تُنسب إليه حرّان، وهو عم إبراهيم، تزوجها إبراهيم في بابل، وقد آمنت بدعوة إبراهيم مع قلةٍ آمنوا معه في قومه، وخرجت مع زوجها فراراً بدينها.

وقد ذكر أهل الكتاب، كما نقل ذلك ابن كثير في تاريخه: أنه لما قدم إبراهيم من حرّان إلى الشام، أوحى الله إليه، حين وصوله إليها: «إني جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك»، فابتنى إبراهيم مذبحاً شكراً لله على هذه النعمة، وضرب قُبَّتَهُ عند وصوله شرق بيت المقدس.

ويذكر المؤرخون أنه رحل بعد ذلك إلى مصر، وقالوا: إن سبب رحلته إلى مصر، هو ما حلَّ في بلاد الشام من القحط، وكان هذا الجدب والقحط عاماً، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً.

قال الأستاذ الشلبي في كتابه «حياة إبراهيم»: مكثَ إبراهيم في بلاد الشام ما شاء الله، ثم حدثَ قحطٌ، فرحل إبراهيم مع سارة زوجه، وابن أخيه لوط إلى مصر ويرجّح الشلبي، أنَّ كل واحد من إبراهيم ولوط سكن في ناحية من مصر.

قال جاد المولى في «قصص القرآن»: وهبط إبراهيم مصر مع زوجه سارة حين كان المسيطر عليها أحد ملوك العرب العماليق الذين استبدوا بالمُلك حيناً من الدهر، وكان الرومان يسمّون ملوك العماليق: «هكسوس، ملوك الرعاة»، وكان هذا الملك فرعون مصر، واسمه «سنان».

قال الشلبي: وفي مصر، حدث لإبراهيم حادث مؤسف مع أحد

جبابرتها، فما هو هذا الحادث؟

بلاء الجَمال:

قال الشلبي: كما كان جمال يوسف سبباً في بلائه، كذلك كان جمالُ سارة سبباً في بلائها، وسارة جدة يوسف، كان مصدرُ بلاء سارة بهذا الحادث المؤسف، هو الملك نفسه الذي يطلب الناس منه الحماية؛ لأنَّ الحاكم هو ملحُ البلد، به تصلح الأمور، كما يَصلح الطعام بالملح، وهذا بلاء شديد، ولذلك قالوا: «شر البلاد بلادٌ لا أمانَ بها».

كان مصدر البلاء لسارة الملك نفسه، وكان مصدر البلاء ليوسف امرأة العزيز، وكما استعصم يوسف وأبى وعلا ولجأ إلى الله، كذلك استعصمت سارةُ وأبت ولجأت إلى الله فحفظها الله، وهنا تظهر قيمة الجمال حين تصحبه العِفَّةُ، وصانه صاحبه، وإلا فما قيمة جمالٍ يصبح مرتعاً لكل قاصدٍ، وجميل قول القائل:

سأترك حبكم من غير بُغضٍ   وذاك لكثرة الورَّادِ فيه
إذا وقع الذباب على إناءٍ   رفعتُ يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنبُ الأسودُ ورودَ ماءٍ   إذا كان الكلاب ولَغْنَ فيه

قال جاد المولى في «قصص القرآن»: كانت سارة ذات جمالٍ باهرٍ، فوشى بها أحد بطانة السوء إلى الملك، وأغراهُ بجمالها، وحبَّبَ إليه الاستَّحواذ عليها، فصادفت تلك المقالة والوشاية رغبةً في نفس الملك، فدعا إبراهيم إليه، وسأله عما يربطها به من سبب أو نسب أو قرابة؟ ففطن إبراهيم إلى هدف الجبار وإلى مقصده من هذا السؤال، وخاف إنْ قال له هي زوجتي أن يقتلوه ليتخلّصوا منه، وليستأثر بها الجبار الخبيث من بعده.

فقال إبراهيم: هي أختي، والأخت تكون في النسب والدين والإنسانية، ففهم الملك من كلام إبراهيم، أن سارة ليست بذات زوجٍ، فأمر أن يذهبوا بها إلى قصره، وأن تُساق إلى مخدعه.

أما إبراهيم فرجع مسرعاً إليها، وأخبرها بالقصة، وطلب منها أن تقول كما قال، ثم أسلمها لعين الله تحرسُها.

قال الشلبي في «حياة إبراهيم»: كان لهذا الجبار قوادون يصطادون النساء، ويأتونه بأخبارهن، وجاؤوا إليه مرةً يُهرعون قائلين: هاهي امرأة دخلت أرضك لم يُرَ أجملُ منها.

هاهي زوج إبراهيم سارة تُحمل إلى القصر، ولا يستطيع إبراهيم دفعاً عنها، وليس بيده حيلة، ويُقبل الملكُ في حَليه وحليته وزينته، فماذا يفعلُ إبراهيم؟

أحسَّ إبراهيم أنْ لا ملجأ من الله إلا إليه، أليسَ هو خليل الله، فلماذا لا يلتجئ إلى خليله؟!! ويلتجئُ إبراهيم إلى الله، فقام يُصلي ويجأربالدعاء، هذا من جهته، فماذا فعلت هي من جهتها؟

قال المؤرخون: قامت إلى الوضوء والصلاة، ثم اشتدت في الدعاء، وكان من دُعائها: «اللهم إن كنتَ تعلم أني آمنتُ بك وبرسولك، وأحصنتُ فرجي إلا على زوجي، فلا تُسلط عليَّ الكافر».

قال المفسرون: فلما دنا منها غُطَّ : أي كُبِسِ كأنه كاد يختنقُ.

وقد أخرج الإمام أحمد من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، اثنتان منهنَّ في ذات الله، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقوله للجبار الذي أرادَ أخذ

سارة: هي أُختي، وهي الثالثة».

قال أبو هريرة: ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك، أو جبار من الجبابرة، فقيل: دخل إبراهيم الليلة بامرأةٍ من أحسن الناس، قال: فأرسل إليه الملكُ الجبار: من هذه التي معك؟ قال: أُختي، قال: فأرسل بها، قال: فأرسل بها إليه، وقال: لا تُكذّبي قولي فإني أخبرته أنَّكِ أُختي، وما على الأرض مؤمن غيري وغيرك، فلما دخلت عليه قام إليها، فأقبلت تتوضأ وتُصلي تدعو بالدعاء الذي مرَّ معنا: «اللهم إن كنتَ تعلم أني آمنتُ بك وبرسولك، وأحصنتُ فرجي إلا على زوجي، فلا تُسلط عليَّ الكافر»، قال: فغُطَّ حتى ركضَ برجله.

قال أبو هريرة: إنَّ سارة قالت عندما غُطَّ: "اللهم إن يَمتْ يُقَل: هي قتلتْه"، قال: فأُرسلَ، قال: ثم قام إليها الثانية، فأعادت الدعاء، قال: فَغُطَّ حتى ركضَ برجله، قال أبو هريرة: فأعادت القول: "اللهم إن يَمُتْ يُقل هي قَتلتْهُ"، فأُرسلَ، ثم حاول الثالثة أو الرابعة، كلَّ مرةٍ يُغَطُّ، فقال الملكُ عندها: ما أرسلتم إليَّ إلا شيطاناً، أرجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر.

قال أبو هريرة: فرجعت، فقالت لإبراهيم: أشعرت أنَّ الله ردَّ كيد الكافرين، وأخدمَ وليدةً، وفي رواية: إن الله ردَّ الفاجر وأخدمَ جارية.

وفي رواية عند البزار من حديث أبي هريرة: أن الملكَ لما أراد أن يدنو منها أُخِذَ، عندها قال الملكُ لها عندما أخِذَ: ادعي الله لي، ولا أضُركِ، فدعت له فأُرسلَ، وعندما حاول في المرات التالية أُخذَ مثل الأولى أو أشدَّ، عندها دعا أدنى حشمه إليه وقال: إنك لم تأتني بإنسان، ولكن أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر، فعادت سالمةً وإبراهيم قائمٌ يُصلي، فلما أحسَّ بها انصرفَ، فقال: مهيم؟ فقالت: كفى الله كيد الظالم، وأخدمني هاجر.

وفي رواية البخاري: فأتتْهُ، أي أتت سارة إلى إبراهيم بعد سلامتها وهو قائمٌ يُصلي، فأومأ بيده: مهيم؟ فقالت: ردَّ الله الكافر، أو الفاجر في نحره وأخدمَ هاجر، قال أبو هريرة: فتلك أُمكم يا بني ماء السماء، رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داوود.

ومعنى "يا بني ماء السماء" أي: يا أيها العرب؛ لأنهم يعيشون على المطر، و"هاجر" هي أمُّ إسماعيل أبي العرب، ومعنى "مهيم": ما الخبر؟

قال ابن كثير: وقول إبراهيم في الحديث: "هي أُختي": أي في دين الله، وقوله: "ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك": يعني زوجين مؤمنين، وإلا فقد كان لوط معهم وهو نبيٌّ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

قال ابن كثير: وكان إبراهيم منذ ذهبَ بسارة إلى الملكِ قام يُصلي ويدعو الله أن يدفعَ عن أهله السوء، وكذلك فعلت هي، صلوات الله وسلامه عليهما، فَعَصَمها الله وأصانها لعصمةِ عبده ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام.

وفي "تاريخ ابن عساكر" من حديث أبي هريرة أنَّ إبراهيم قال لها: إنَّ هذا الجبار سألني عنك، فأخبرته أنك أُختي في الإسلام، وسألني أن أُرسلَكِ إليه، فاذهبي فإنَّ الله سيمنَعْهُ منكِ، قال: فذهبت إليه مع رُسله، ولما أدخلها وحاول مدَّ يده إليها حُبِسَ عنها، فقال لها: ادعي إلهك الذي تعبُدين أن يُطْلِقَني ولا أعودُ لما تكرهين، فعاودَ مدَّ يده فحُبِسَ، فقال لمن جاء بها: أخرجها عني فإنها ليست إنسيةً، إنما جئتني بشيطانةٍ، ثم أخدمها هاجر، فرجعت إلى إبراهيم فاستوهبها منها، فوهبتْها له.

قال محمد بن سيرين: وهي أُمكم يا بني ماء السماء.

قال ابن كثير: ورأيتُ في بعض الآثار أنَّ الله تعالى كشفَ الحجابَ فيما بين إبراهيم وبين زوجه سارة، فكان مُشاهداً لها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه، وكان مُشاهداً لها وهي عند الملكِ، ورأى كيف عصمها الله منه ليكون ذلك أطيبَ لقلب إبراهيم، وأقرَّ لعينه، وأشدَّ لطمأنينته، فإنه كان متعلقاً بها لدينها ولقرابتها منه ولحُسنها، فإنه قد قيل فيها: "إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها، رضي الله تعالى عنها وأرضاها"، ثم قال ابن كثير: وعندما لجأت إلى الصلاة والدعاء عصمها الله تعالى إكراماً لخليله، ومن هنا تُدرك سرَّ قوله تعالى في [سورة البقرة]: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

تُلاحظ – يا عبد الله – أنَّ الآية قالت: ﴿ وَإِنَّهَا ﴾ وسياقُ النص كان يقتضي أن يُقالَ: وإنهما: الصبر والصلاة، فأيُهما المقصود منهما؟

والجواب كما قال المفسرون: إنه عندما يأتي أمران منضمان إلى بعضهما، ولا تستقيمُ الأمور إلا بالأمرين معاً، فعندها يكون الأمران علاجاً واحداً، وهذا واردٌ في القرآن كثيراً كما في قوله تعالى في [سورة الجمعة ١١]: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ﴾.

كان المفروض من السياق أن يُقال: انفضوا إليهما، ولكن لما كان اللهو والتجارة عمل واحد، وهو شغل المؤمن عن العبادة والذكر، ولذلك قال: ﴿ ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾، وقد يكون المقصود الصلاة؛ لأنها تحتاج إلى الصبر، فيكون الصبر ضمنها، فاكتفى النص بعودة الضمير عليها وحدها، ومن ذلك قوله تعالى في [سورة التوبة]: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾، فقال: ﴿ يُرْضُوهُ ﴾ ولم يقل يرضوهما؛ لأنَّ الله ورسوله يلتقيان على حقٍّ واحد.

من هنا تدرك – يا عبد الله – سرَّ قوله تعالى في [سورة البقرة]: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾.

وهكذا كان دأبُ نبينا محمد ﷺ، فقد أخرج أحمد وأبو داوود من حديث حذيفة ابن اليمان أنَّ النبي ﷺ كان إذا حزبَهُ أمرٌ فزعَ إلى الصلاة.

وروي عن عبد الله بن عباس أنه نُعِيَ إليه أخوه «قُثَمٌ»، وهو في سفر فاسترجع، ثم تنحى عن الطريق، فأناخَ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥ ﴾ [البقرة].

ويروي ابن بطوطة، الرحالةُ المعروف: أنه كان في إحدى رحلاته قد تردَّد على أمير من الأمراء كثيراً، ثم إنَّ الملكَ غضِبَ على هذا الأمير فجأةً وقتله، ثم أمر بقتل كل مَنْ زاره أو دخل عليه، وكان ابن بطوطة من جملة من دخل عليه وزاره كثيراً، قال ابن بطوطة: فما شككتُ أني مقتول، فلجأتُ إلى الدعاء والذكر، فذكرتُ الله في يوم واحد ثلاثين ألف مرة، أقول: «حسبي الله ونعم الوكيل». ففرَّج الله عني في يومها، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥ ﴾ [البقرة]: أي استعينوا على ما يستقبلكم من أنواع البلاء، وعلى أعمال الآخرة بالصبر والصلاة، كما قال البغوي عليه رحمة الله.

وورد عن علي أنه قال: لقد رأيتُنا يوم بدر، ما فينا إلا نائمٌ غيرَ رسول الله ﷺ يُصلي ويدعو حتى أصبح.

وروى ابن جرير الطبري أن النبي ﷺ مرَّ بأبي هريرة وهو منبطح على بطنه فقال له: «أشكم درد؟»، أي: أيؤلمك بطنك؟ قال أبو هريرة: نعم، قال ﷺ: «قم فصلِّ فإن الصلاة شفاء».

قال سُنَيْد عن حجاج عن ابن جريج في قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ٤٥ ﴾ قال: إنهما معونتان على رحمة الله تعالى.

قال صاحب كتاب «قصص القرآن» جاد المولى؛ مصوراً محنة إبراهيم ثم نجاته: هل ترى محنةً أشدَّ، وفتنةً أعظم من ذلك، رجلٌ غريب يَفِدُ إلى بلدٍ، يسعى فيه لجلب الرزق، فتُسلب منه زوجه، ويُفرقُ بينه وبينها؟ ثم قال: ولكن الله الذي نجّى إبراهيم من النار وسعيرها، حفظه مرةً أخرى من وصمة العار، ونجّاه من الظلم والعدوان.

قال المؤرخون: ثم أقام إبراهيم بمصر، وادعَ النفس، ليّن العريكة، دؤوباً على العمل، فكثُرَ ماله ونمت أنعامه، وارتفع ذكره، ولكن القوم حسدوه على هذه النِعَمِ التي أنعم الله بها عليه، ولَمَسَ منهم إبراهيم ميلاً إلى الأذى، فأزمعَ الرحيل، وعاد إلى فلسطين، تلك الأرض المقدسة التي اتخذها قبل مجيئه إلى مصر موطناً.

قال ابن كثير: رجع إبراهيم من مصر إلى الأرض المقدسة التي كان فيها، ومعه أنعام وعبيد، ومال جزيل، ومعه هاجر القبطية، وكان معه ابن أخيه لوط، فأمره إبراهيم أن يسكن أرض الغور، المعروف «بغور زغر» فنزل لوط بمدينة «سدوم»، وهي أكبر مدن تلك البلاد في ذلك الزمان، وكان أهلها أشراراً فجاراً، كفاراً، وكان لوط يتنقل بينها وبين «عامورا» في شرق الأردن، مكان البحر الميت.

قال المؤرخون: سدوم، وعامورا: من مدائن قوم لوط.

وسدوم: على وزن فعول: هو الندم مع غمّ، وكان فيها قاضٍ يُضربُ المثلُ بظلمه، فيقال: «أظلم من قاضي سدوم».

وحدّثوا أنه كان من ظلمه وجوره أنه حكم على أنه إذا ارتكبوا الفاحشة من أحدٍ أخذ منه أربعة دراهم، قال ابن دَراك العبدي:

وإني إن قَطَعْتُ حبال قيسٍ ... وحالفتُ المزونَ على تميمِ
لأعظم فجرةً من أبي رغالٍ ... وأجورُ في الحكومةِ من سدومِ

وقد ذكر أمية بن أبي السلط سدوم في شعره فقال:

ثم لوط أخو سدومَ أتاها ... إذ أتاها برُشدها وهداها
راودوه عن ضيفه ثم قالوا ... قد نهيناك أن تُقيمَ قُراها
عرضَ الشيخ عند ذاك بناتٍ ... كظباءٍ بأجرعٍ ترعاها
غضب القوم عند ذاك وقالوا ... أيها الشيخ خطةٌ نأباها
أجمعَ القوم أمرهم وعجوزٌ ... خَيَّبَ الله سعيها ورجاها
أرسل الله عند ذاك عذاباً ... جعل الأرض سفلها أعلاها
ورماها بحاصبٍ ثم طينٍ ... ذي حروف مسوّمٌ إذ رماها

قال المؤرخون: استقرَّ لوط في سدوم، واستقر إبراهيم بعد عودته من مصر في فلسطين في بلدة تدعى «شكين»، وهي نابلس الآن، أقام مع قلةٍ ممن آمن معه، وكان إبراهيم يتحرك نحو الجنوب داعياً الناس إلى الله تعالى.

قال ابن كثير: أوحى الله إلى إبراهيم وأمره، أن يمدَّ بصره شمالاً وجنوباً، وشرقاً وغرباً، وبشَّره بأنَّ هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخَلفِكَ إلى آخر الدهر، وستكثر ذريتُكَ بعدد التراب.

قال ابن كثير: وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة، وكانت أعمَّ في أمة نبينا محمد ﷺ، ويؤيد ذلك ما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنَّ الله زوى لي

الأرض، فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ُملكُ أمتي ما زوى لي منها».

ابتلاء جديد:

قال المؤرخون: لم يكد لوط يستقر بأمواله ونَعَمِهِ، حتى طمعَ فيه بعض الجبارين، فهاجموه وأسروه، وأخذوا أمواله ونعَمَهُ، ويصل الخبر إلى إبراهيم عليه السلام بما حصل للوط، فتبع إبراهيم هؤلاء المعتدين ومعه «٣١٨» ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً، وحاربهم وقتل منهم الكثير، واستطاع أن يفكَ أسر لوط، وأن يسترجع نعَمَهُ و أموالَهُ، وتابع إبراهيم سيره للقضاء على فلول المعتدين الهاربين حتى وصل إلى شمال دمشق، وعسكر بظاهرها عند مدينة يقال لها «بَرْزَةَ» وهي من قرى الغوطة كما ذكر «معجم البلدان».

وفي برزة مقام يسمى «مقام إبراهيم» يظن الناس أنه سُمّيَ بذلك لأنَّ إبراهيم أقام هناك، والصحيح أنَّ إبراهيم وقف فيه مدة قصيرة بجيشه الصغير عندما سار خلف المعتدين الذين اعتدوا على لوط، واستراح فيه لمدة قصيرة.

قال ابن كثير: رجع إبراهيم إلى فلسطين منصوراً، فتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس وأُمراؤهم مُعظِّمين له ومكرمين، واستقر هناك صلوات الله وسلامه عليه.

ولادة إسماعيل:

قال العلماء: كانت سارة زوج إبراهيم عقيماً لا تلد، وإبراهيم سأل ربه أن يرزقه ذرية طيبةً صالحة، وهذه الدعوة من إبراهيم ذكرها القرآن في [سورة الصافات] حاكياً لنا دعوة إبراهيم: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

قال أبو السعود في تفسيره لهذه الآية: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾، أي استجبنا دعاءه، وبشرناه بغلام يكون حليماً في كبره، جمع الله له في الآية ثلاث بشارات: أنه غلام، وأنه سيكبر؛ لأنَّ الصغير لا يوصف بأنه حليم، وبأنه يكون حليماً، وأي حلم أعظم من صبره على الذبح، وجمهور المفسرين على أنَّ هذا الغلام المبشّر به أولاً هو إسماعيل؛ لأن الله تعالى قال بعد تمام قصة الذبيح: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الصافات]، فدلّ على أنَّ الذبيح هو إسماعيل، وأنه كان بكرَ أبيه إبراهيم، وأولَ ولده، وكان عُمْرُ إبراهيم عند ولادة إسماعيل ستاً وثمانين سنة، وقد ذكر القرآن الكريم كيف أنَّ إبراهيم عليه السلام حَمَدَ الله تعالى على مجيء الولد له وهو كبير مُسِنٌّ، ذكر ذلك في [سورة إبراهيم]: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

وقوله: ﴿ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ ﴾: أي على كبر سني وسنِ امرأتي.

قال القاسمي: وهب لي على الكِبَرِ إسماعيل وإسحق ليقوما مقامي في الدعوة إلى الحنيفية.

قال الزمخشري: وإنما ذكر حال الكبر: ﴿ عَلَى ٱلْكِبَرِ ﴾؛ لأنَّ المِنَّةَ بهبةِ الولد فيها أعظم، حيث أنَّ الولادة وقعت في سن اليأس، والظفرُ بالحاجة بعد اليأس منها، من أجلِّ النِعم وأحلاها في نفس الظافر، وكانت ولادة إسحق بعد ولادة إسماعيل بثلاث عشرة سنة، والمؤرخون يقولون: إن إسماعيل ولدَ وعمر إبراهيم ست وثمانون سنة، وعندما ولد إسحق كان عمره تسعاً وتسعين سنة، عن ابن عباس أن إبراهيم ولد له إسماعيل وعمره تسعٌ وتسعون، ولما ولد إسحقُ كان عمره مائة واثنتي عشرة سنة.

قال صاحب كتاب «مع الأنبياء»: كانت نفسُ إبراهيم ترغب في الولد،

لذلك ألحَّ في دعائه أن يهب الله له ولداً صالحاً: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾، وشعرت سارة برغبةِ زوجها في الولد، فقالت له: إنَّ الربَّ حرمني الولدَ، فأرى أن تدخل بجاريتي «هاجر» لعل الله يرزقك ولداً منها، فكان منها إسماعيل، وكان عمر سارة في حينها سبعين سنة.

قال القرطبي: دلت الآية: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ ﴾ وغيرها على أنَّ طلب الولد سنةٌ من سنن المرسلين، ألا ترى إلى زكريا حين طلب الولد قال تعالى مخبراً عنه: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨ ﴾ [آل عمران]، كما دلَّ على ذلك قوله تعالى في [سورة الرعد ٣٨]: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾، والبخاري في «صحيحه» ترجم باباً على هذا الموضوع فقال: «باب طلب الولد» كما ذكر القرطبي.

وقد ثبتَ أنَّ النبي ﷺ قال لأبي طلحة لما مات ولده: «أَعرَّستم الليلة؟»، قال أبو طلحة: نعم، فقال ﷺ: «اللهم بارك لهما في غابر ليلتهما»، قال سفيان - كما ذكر البخاري - فقال رجل من الأنصار: فرأيتُ تسعة أولاد لأبي طلحة كلهم قد قرؤوا القرآن.

كما ترجم البخاري: «باب الدعاء بكثرة الولد»، وفيه حديث أم سُليم أنها قالت: يا رسول الله: خادمك أنس ادعُ الله له، فقال ﷺ: «اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما أعطيته».

قال أهل التفسير: سُرَّتْ سارة أول الأمر بمجيء الولد من هاجر، ولكن الغيرة سُرعان ما دبّت إلى قلبها، فلم تَعُدْ تعرفُ الهدوء.

قال صاحب كتاب «قصص القرآن»: ولم تعد سارة تُطيق النظر إلى وجه

المولود، ولا إلى أمه هاجر، ولذلك طلبت من إبراهيم أن يُبعدهما عنها إلى أي مكانٍ شاء، وكان قد أمره الله بطاعتها؛ لأمرٍ قدَّره الله وقضاه.

قال الصاوي: سألت سارة إبراهيم بالله أن يُخرجَ هاجر وولدها من عندها، وقالت له - كما يقول صاحب كتاب «نظرات في أحسن القصص»- غَيِّبْها عن وجهي، لا تُساكنُني في بلدٍ، فأمره الله تعالى وحياً أن يُخرجها إلى مكة.

قال ابن كثير: قال أهل الكتاب: لما ولد إسماعيل، أوحى الله إلى إبراهيم يُبشّره بإسحق من سارة، فخرَّ لله ساجداً.

وقد ذكر الشيخ أبو محمد ابن أبي يزيد في كتابه «النوادر»: أنَّ سارة غضبت على هاجر مرة، فأقسمت أن تقطع من لحمها ثلاث قطع، فأمرها إبراهيم الخليل: أن تثقب أُذُنَيْها، وأن تخفضها فَتَبَرَّ بقسمها.

قال السهيلي: فكانت هاجر أول من اختُتِنَ من النساء، وأول من ثُقبت أُذنها منهن، وأول من طولت ذيلها.

روى البخاري عن ابن عباس: أن أول من اتخذت «المِنْطَق» من النساء هي هاجر أم إسماعيل لِتُعَفِّيَ أثرها على سارة.

والمِنْطق: هو أن تلبس المرأة ثوبها، ثم تَشُدَّ وسطها بشيءٍ وترفع وسْطَ ثوبها وتُرسله إلى الأسفل عند معاناة الأشغال.

قال صاحب كتاب «نظرات في أحسن القصص»: فوجئ إبراهيم بطلب سارة: «غَيِّبْها عن وجهي» وأدرك ما فيها من غيرة، ووقف أمام هذا الطلب حائراً لا يدري ماذا يفعل، ولكن الله عز وجل لم يتركه حائراً، فأوحى إليه أن يذهب بهاجر وولدها إلى مكة.

هجرة إبراهيم بولده إسماعيل، وأمه هاجر إلى مكة:

قال صاحب كتاب «البحر المحيط»: لما ولدت هاجر إسماعيل، غارت منها سارة، وطلبت من زوجها إبراهيم أن يذهب بها حيث شاء - كما مر معنا - ركب إبراهيم البراق ومعه هاجر والطفل الرضيع إسماعيل، فجاء في يوم واحد من الشام إلى مكة، فنزل، وترك ابنه وأمتَهُ هاجرهنالك، ثم ركب عائداً من يومه ذلك، وهذا كلُّه بوحي من الله تعالى.

وقد روى البخاري من حديث ابن عباس قال: جاء إبراهيم بهاجر وبابنها إسماعيل - وهي تُرضعه - حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق مكان زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحدٌ، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم قفّى إبراهيم منطلقاً، فتبعتْهُ أمُّ إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس، ولا شيءٌ؟ قالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يُضيِّعنا ثم رجعتْ، ثم انطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنيةِ حيث لا يرونه، استقبل البيت ودعا بهذه الدعوات، وكان البيت في حينها مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، دعا فقال ما قصَّهُ الله علينا في [سورة إبراهيم]: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾.

قال الشعراوي في قوله تعالى: ﴿غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾: لا أمل في زراعة هذا المكان بمجهودٍ إنساني، فليس من سبيل إلى الرزق فيه إلا بعطاءٍ رباني.

قال المفسرون: والمكان كان باختيار الله، ولم يكن عن بحثٍ من إبراهيم

عليه السلام، ولذلك قال: ﴿ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ﴾، وهذا يعني أنَّ إبراهيم رضي بهذا التكليف، ثم قام بتنفيذه برغبةٍ وحبٍ فنالَ بذلك أجرين – كما قال العلماء – ثواب القيام بالتكليف، وثواب حُبِّ التكليف.

يروي الأدباء حكاية عن الأصمعي – واسمه عبد الملك بن قريب الباهلي – كان راوية العرب، ولد في البصرة ١٢٢ هـ، وتوفي فيها ٢١٦ هـ أنه قابل رجلاً عند البيت الحرام، وكان هذا الرجل يدعو ويقول: "اللهم إني قد عَصَيتُكَ، ولكني أُحبُّ مَنْ يُطيعُكَ، فاجعلها قُربةً لي".

فقال الأصمعي: إن الله لا بُدَّ أن يغفر لهذا الرجل لِحُسْنِ مسألته، ذلك أنه رجلٌ قد فرحَ بحبِّ التكليف ولو لم يَقُمْ به، بل يقوم به غيره، وهذا يُسعده، فإبراهيم جاء إلى هناك ليُنفذ التكليفَ الربانيَّ، ثم استمع إلى الرضا من هاجر بهذا التكليف عندما علمتْ أنه من الله، حين قالت: إذن لن يُضيعنا.

قال العلماء: – البخاري – رجعت أم إسماعيل إلى الولد تُرضعُهُ وتشربُ من ذلك الماء الذي في السقاء، حتى إذا نفذَ الماء عطشتْ وعطشَ ابنها، وجعلتْ تنظر إليه يتلوّى – أو قال ابن عباس: يتلبَّط – أي يتمرغُ، فانطلقتْ كراهيةَ أن تنظر إليه، فوجدتْ الصفا أقربَ جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الواديَ تنظر هل ترى أحداً، فلم تَرَ أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادي رفعت طَرَفَ درعها، ثم سعت سَعْيَ الإنسان المجهود حتى جاوزت الواديَ، ثم أتت المروةَ، فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحداً، فلم تَرَ أحداَ، فعلت ذلك سبعَ مراتٍ.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما»، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: «صَهٍ» تريد نفسها، ثم تسمَّعَتْ، فسمِعتْ أيضاً، فقالت عندها: «قد أسمَعْتَ إن كان عندك غواثٌ»، فإذا هي بالمَلَكِ

عند موقع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلتْ تحوضُهُ، وتقول بيدها - حكاية لفعلها - هكذا، وجعلت تغرفُ من الماء في سقائها، وهو يغورُ بعدما تَغْرُفُ.

قال ابن عباس: يرحم الله أم إسماعيل، لو تركتْ زمزم، أو قال: لو لم تغرفْ من الماء لكانت زمزمُ عيناً معيناً.

قال: فشربتْ وأرضعتْ ولدها، فقال لها المَلَكُ: لا تخافي الضيعة فإن ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضيع أهله.

وذكر البخاري حديث ابن عباس بطوله.

وفي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما كان بين إبراهيم وبين أهله - سارة - ما كان، خرج إبراهيم بإسماعيل وأمه ومعه شِنةٌ فيها ماء، فجعلتْ أم إسماعيل تشرب من الشِنَّةِ فيدِرُّ لبنها على صبيِّها حتى قدمَ مكة، فوضعها عند دوحة، ثم رجع إبراهيم إلى سارة - أهله -، فاتبعته أم إسماعيل حتى بلغوا «كُداء»، فنادته من ورائه: يا إبراهيم إلى مَنْ تتركنا؟ قال: إلى الله، قالت: رضيتُ بالله، فرجعتْ تشربُ من الشِنَّةِ، ويدِرُّ لبنُها على صبيِّها حتى فَنِيَ الماء، قالت: لو ذهبتُ فنظرتُ لعلي أُحِسُّ أحداً، فذهبتْ فصعدتِ الصفا فلم تُحِسَّ أحداً، فلما بلغت الواديَ سعت، ثم أتت المروة وفعلت ذلك سبعاً ثم قالت: لو ذهبتُ فنظرتُ ما فعله الصبي، فذهبت فنظرت إليه، فإذا هو على حاله كأنه يَنْشَغُ للموت، فلم تُقِرَّها نفسُها، فقالت: لو رجعتُ، فنظرتُ فإذا هي بصوتٍ فقالت: «أغثْ إنْ كان عندك خيرٌ»، فإذا جبريل قد غَمَزَ بعقبه الأرض فانبثق الماء، فدُهشت أم إسماعيل، فجعلت تحفر، فقال ﷺ: «لو تركتْه لكان الماء ظاهراً».

قال أهل التاريخ: جلست هاجر وولدها على زمزم في عريش لهما ويشاء

الله أن يُحقق دعوة إبراهيم حين دعا فقال: ﴿ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧ ﴾ [إبراهيم].

وقوله: ﴿ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾، أي تُسرع وتطير شوقاً إليه، فهل تميل القلوب إلى البيت؟

نزول جرهمَ في الحرم:

ذكر الأزرقي في كتابه «أخبار مكة المشرفة» عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أخرج الله ماء زمزم لأم إسماعيل، وبينما هي على ذلك الماء، إذْ مرَّ ركبٌ - قافلة - من جُرهم، وجرهمُ من قبائل اليمن التي تسير نحو الشمال، وكانوا قافلين من الشام في الطريق السفلي، وكانوا قريبين من المكان الذي فيه هاجر، فرأوا الطيور تحوم، فسأل بعضُهم بعضاً: إنَّ من عادةِ الطير أنْ يُحلق في مكانٍ فيه ماء، فهل علمتم أنَّ في هذا الوادي ماءً؟ قالوا: لا، ما كان في هذا الوادي ماء ولا أنيس.

قال ابن عباس: فأرسلوا جَرِيَّيْن - أي رسولين - لهم أو وارِدَيهم حتى أتيا أم إسماعيل، فكلماها، ثم رجعا إلى ركبهما فأخبراهم بمكانها، قال: فرجعت القافلةُ كلُّها حتى حَيَّوها فردت عليهم، وقالوا: لمن هذا الماء؟ قالت هاجر: هو لي، قالوا: أتأذنين لنا أن ننزل معك عليه؟ قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء !!! قالوا: نعم، وضربوا خيامهم قريباً منها، قال ابن عباس، قال ﷺ: «فألفى ذلك أمَّ إسماعيل وهي تحب الأنسَ فنزلوا، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم»، والمعنى أنَّ هذا الحي من جرهم وجدوا أمَّ إسماعيل تحب الأنسَ، أو المعنى: أنَّ الاستئذان من جرهُم بالنزول، أوجدَ حالةً من الأُنس عند هاجر.

قال الأزرقي: وسكنوا تحت الدوح، واعترشوا عليها العُرُشَ فكانت

معهم هي وابنُها.

قال بعض المؤرخين: كانوا يقدمون لها الحليب، ويأخذون من الماء، وذكر ذلك الآلوسي في تفسيره حيث قال: قالوا لهاجر أشركينا في مائِك نُشْرِكْكِ في ألباننا، ففعلت، وهكذا استجاب الله تعالى لدعاء إبراهيم: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم ٣٧]، فتحقق هذا بنزول جرهم، وهل تحقق الشطر الثاني من الدعاء وهو: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾؟

الجواب: نعم، وأنقل إليك في هذا الموضوع كلام الرحالة ابن بطوطة حيث قال: ومكة كما أخبر الله تعالى عنها في كتابه العزيز، حاكياً عن دعاء نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، فكل طُرفةٍ تُجْلَبُ إليها، وثمراتُ كل شيء تُجبى إليها، ولقد أكلتُ بها من الفواكه والعنب والتين والخوخ، والرطب ما لا نظير له في الدنيا.

ثم قال ابن بطوطة: وكذلك البطيخ المجلوبُ إلى البيت لا يُماثِلُهُ سواهُ طيباً وحلاوةً، واللحوم بها سمانٌ، ولذيذاتُ الطعوم، وكلُّ ما يُفتَقَدُ من البلدان مجتمعٌ هناك، وتُجلب لها الخضر والفواكه من الطائف، ووادي نخلة، وبطنِ مُرٍّ، عطفاً من الله بسكانِ حَرَمْهِ الأمين، ومُجاوري بيته العتيق.

قال صاحب كتاب «مكة والمدينة» أحمد إبراهيم الشريف: كانت القوافل تَرِدُ على هاجر وابنها في رحلاتها، فينالا من العيش ما يكفيهما.

قال الآلوسي، رحمه الله تعالى: إنه ليجتمعُ في مكة المكرمة البواكيرُ والفواكه المختلفة الأزمانِ من الربيعية، والخريفية، والصيفية في يوم واحد.

قال رشيد رضا في كتابه «رحلات رشيد رضا»[1]، قال: قال ابن جبير، الرحالة الأندلسي ذاكراً ما وجد في مكة من الثمرات وذلك سنة ٥٧٩ هـ، قال: أما الأرزاقُ والفواكه، وسائر الطيبات، فكنا نظن أنَّ الأندلسَ اختُصَّتْ بذلك على سائر البلاد حتى حللنا في هذه البلاد المباركة مكة، فوجدناها تغُصُّ بالنعم والفواكه، كالتين، والعنب، والرمان، والسفرجل، والخوخ، والأترج، والجوز، والمُقل - وهو ثمر الدّوم وهو النَّبق أو يشبهه.

ثم يقول ابنُ جبير: ومِنْ أعجب ما رأينا من فواكهها البطيخُ و السفرجلُ، وكلُّ فواكهها عجيبٌ، لكنَّ البطيخ له خاصيةٌ عجيبةٌ برائحته العَبِقَة التي تشبه أعطر الروائح، فإنَّ ريحَه يسبِقُكَ فتنشغلُ برائحته عن أكله، فإذا أكلته ظننت أنه سُكَّرٌ مذاب أو جنى النحل باللباب، ونحن نقرأ في [سورة القصص] تحقُّق دعوة إبراهيم، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧ ﴾.

قال البروسوي في قوله تعالى: ﴿ يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾، أي ألوان الثمرات من كل جانب، كمصر والشام، واليمن والعراق، لا ترى شرقيَّ الفواكه ولا غربيها مجتمعةً إلا في مكة لدعاء إبراهيم عليه السلام.

قال الشعراوي: وكل هذا قبل ظهور البترول وغيره من الثمرات، وكلمة: ﴿ يُجۡبَىٰٓ ﴾: تدل على أنَّ أمر هذا الرزق القادم لمكة كأنه مفروضٌ من الله، ﴿ رِّزۡقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾، فأنت قد تكون من الطائف، فتجد أفخم أنواع الرمان والعنب، وتحاول أن تشتريه، فيقول لك المسؤول: يا أخي هذا يخص مكة المكرمة، وإن أردت منه فاذهب إلى هناك. ثم يقول الشعراوي: وتجد

(١) ص ١٤٤

في عبارة ﴿ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ ما يثير الدهشة والعجب، فأنت ترى في مكة بالفعل ثمرات كل شيء من زراعةٍ وصناعةٍ.

كان الحُجَّاجُ في القديم إذا أرادوا أن يؤدُّوا فريضة الحج أخذوا معهم الإبرة والخيط وملح الطعام، وبعد الاكتشافات صرنا نذهب إلى هناك ونأتي بكماليات الحياة، مع ما مَنَّ الله على سكانه من نعمة الأمن ﴿ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [القصص ٥٧].

وقوله: ﴿ حَرَمًا ءَامِنٗا ﴾، أي ذا أمن، يأمن فيه كلُّ خائف حتى الطير من كواسِرِها، والوحش من جوارحها، حتى أنَّ سيل الحِلّ لا يدخل الحرم بل إذا وصل إليه عَدَلَ عنه، كما يقول صاحب «نظم الدرر» البقاعي.

قال المؤرخون: وكان الناس في الجاهلية إذا ظُلم أحدهم، يذهب إلى الحرم، فيجتهد في الدعاء على ظالمه.

وفي سيرة أبي الربيع بن سالم الكُلاعي: أنَّ رجلاً من كنانة ابن هذيل ظلمَ ابن عمٍ له، فخوَّفه بالدعاء في الحرم، فقال: هذه ناقتي فلانة، اركبها، فاذهب إلى الحرم، فاجتهد في الدعاء.

فجاء الرجل المظلوم الحرمَ في الشهر الحرام فقال: «اللهم إني أدعوك جاهداً مضطراً على ابن عمي فلانٍ تَرْميه بداءٍ لا دواء له»، ثم انصرف، فوجد ابن عمه قد أُصيب ببطنه فصار مثلَ الزِقِّ، فما زال ينتفخ حتى تمزق.

ويُروى أنَّ عمر بن الخطاب سأل رجلاً من بني سُليم عن ذهاب بصره، فقال: يا أمير المؤمنين، كنا بني ضبعاءَ عشرةً، وكان لنا ابن عم، فكنا نظلمُهُ، فكان يُذكرنا بالله وبالرحم فلا نكُفُّ، فانتهى إلى الحرم في الأشهر الحُرم، فجعل يرفع يديه يقول:

لاهُمَّ أدعوكَ دعاءً جاهداً اقتل بني الضبعاء إلا واحدا

ثم اضرب الرَجل ودعه قاعداً أعمى إذا ما قيد يُعنى القائدا

قال: ثم مات إخوتي التسعة يا أمير المؤمنين في تسعة أشهر في كل شهر يموتُ واحدٌ، وبقيتُ أنا فعميتُ، ورماني الله عز وجل في رجلي، فليس يلائمني قائدٌ، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: «سبحان الله، إن هذا لهو العجبُ، جعل الله هذا في الجاهلية إذ لا دين، حرمةً حرَّمها وشرَّفها ليبتعد الناسُ عن انتهاك ما حرّم مخافة تعجيل العقوبة، فلما جاء الدين - الإسلام - صار الموعدُ الساعة، ويستجيب الله لمن شاء، فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين».

ماء زمزم:

قال القرطبي: لما أراد الله تأسيس الحال، وتمهيدَ المقام، وخَطَّ الموضعَ للبيتِ المكرَّمِ، والبلدِ المُحرَّم، أرسل المَلَكَ فبحثَ عن الماء، وأقامَه مقام الغذاء، وقد ورد في الصحيح أنَّ أبا ذر رضي الله تعالى عنه اكتفى بماء زمزم ثلاثين بين يوم وليلة، قال أبو ذر: ما كان لي طعام إلا ماء زمزم، فسمنتُ حتى تكسَّرت عُكني، وما أجد على كبدي سَخْفَةَ جوع - رقة الجوع وهُزاله.

وفي صحيح مسلم من حديث ابن عباس مرفوعاً: «ماء زمزم طعام طُعْمٍ»، أي تُشبع شاربها، وزاد الطيالسي: «وشفاء سُقْمٍ».

وروى الدارقطني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ماء زمزم لما شُربَ له، إن شربته تستشفي به شفاك الله، وإن شربته لشبعك، أشبعك الله، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه، وهي هزمة جبريل - أي ضربته برجله فنبع - وسقيا الله إسماعيل».

وروى عكرمة قال: كان ابن عباس إذا شرب من زمزم قال: «اللهم إني

أسألك علماً نافعاً، ورزقاً واسعاً، وشفاءً من كل داء».

وقال ابن العربي عليه رحمة الله تعالى: وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمن صَحَّتْ نيته، وسَلِمتْ طَوِيَّتُه، ولم يكن به مُكذباً، ولا يشربه مجرِّباً، فإن الله مع المتوكلين، وهو يفضحُ المجرّبين.

وقال أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي: حدثني أبي، قال: دخلتُ الطوافَ في ليلة ظلماء، فأخذني من البول ما شغلني فجعلت أعتصرُ، - أي أحبسه وأمنعه - حتى آذاني، وخِفتُ إن خرجتُ من المسجد أن أطأ بعضَ تلك الأقدام، وذلك أيام الحج، فذكرتُ هذا الحديث، فدخلتُ زمزم، فتضلَّعتُ منه فذهب عني إلى الصباح.

وقد روى ابن ماجة أن النبي ﷺ قال: «أن آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم».

وورد أن ابن عباس قال لرجل: تضلّعْ منها، وروى الخبر السابق.

قال صاحب كتاب «مراصد الاطلاع، في أسماء الأمكنة و البقاع»: وتطاول على زمزم الأثرُ، وطوتها السيولُ، فأُتي عبد المطلب في المنام، فأُمر بحفرها، ودُلَّ على موضعها، ووجد فيها غزالين من ذهب وأسيافاً، فضرب الغزالين صفائح على باب الكعبة.

أسماء زمزم:

لزمزم أسماء عدة، منها: المضنونهُ، زمزم، زُمازم، وزُمِّزُمُ، والشُبّاعة، وهزمةُ جبريل، وهزمة المَلَك، الرّواء، شرابُ الأبرار، طعامُ الأبرار، طعامُ طُعمٍ، شفاء سُقْم، ركضة جبريل..

قال الهمذاني: كان ذرعُ زمزم من أعلاها إلى أسفلها ستين ذراعاً، وفي

قعرها ثلاثون عيناً، وكانت بعض عيونها باتجاه الركن الأسود، وأبي قبيس، والصفا والمروة، ثم قَلَّ ماؤُها سنة ٢٢٣ - ٢٢٤ هـ، فحفر فيها محمد بن الضحاك تسعة أذرع فزاد ماؤها، وكثرت بالأمطار.

وسُميت «زمزم» لأن هاجر زمَّتها، وأحاطتها بالتراب، كما قال الشاعر:

وجعلتْ تبني له الصفائحا ... لو تركته كان ماءً سافحا

وقيل: سُميت زمزم؛ لأنَّ «سابور» ملكَ الفرس لما قصد البيت أشرف عليه، ووقف على زمزم، وتلا أدعية وصلواتٍ، ويقال لأدعية الفرس، زمازمُ الفرس، قال الشاعر:

زمزَمت الفرسُ على زمزم ... وذاك في سالفها الأقدم

وكان آخر من قصد البيت من ملوك الفرس، وتلا أدعية عند بئر زمزم، «ساسان بن بابك»، وقصد هذا الملك البيت مراراً، وفي كل مرة كان يزمزم عند البئر، - أي يدعو - ولهذا السبب افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام، افتخر بهذه الزيارات التي قام بها الملك «ساسان بن بابك» إلى البيت الحرام فقال:

ومازلنا نحج البيتَ قِدْماً ... ونُلقي بالأباطح آمنينا
وساسانُ بن بابك سار حتى ... أتى البيتَ العتيق بأصيدينا
وطاف به، وزمزمَ عند بئرٍ ... لإسماعيل تروي الشاربينا

قصة الذبيح:

قال المؤرخون: كان إبراهيم يزور هاجر وولدها غِبّاً - أي قليلاً - ليطمئن عن أحوالهم، وكان يُحب إسماعيل حباً عجيباً؛ لما يرى فيه من أنوار

النبوة من صغره، كما يقول صاحب كتاب «حياة إبراهيم»، ثم قال: وترعرع الغلام حتى بلغ مبلغ السعي، أي البلوغ والاحتلام، وكان حينها ابن ثلاث عشرة سنة، أُمِرَ بذبحه وحياً في المنام.

قال أهل التحقيق: إن الذي أُمِرَ إبراهيمُ بذبحه هو «إسماعيل».

وقال أهل الكتاب: إن الذبيح إسحق، وهو قولٌ باطل؛ لأنَّ إسحق لم يأت مكة، ولذلك ورد عن الأصمعي أنه قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح مَنْ هو؟ فقال: يا أصمعي أين ذهب عقلك؟ ومتى كان إسحق بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة فبنى البيت مع أبيه و المِنْحَر، وسُئل أبو سعيد الضرير من هو الذبيح؟ فقال:

إن الذبيح - هُديتَ إسماعيلُ - نطق الكتاب بذاك والتنزيل
شرفٌ به خصَّ الإلهُ نَبِيَّنا وأتى به التفسير والتأويل
إنْ كنتَ أمَّتَهُ فلا تُنكر له شرفاً به قد خصَّه التفضيلُ

ثم إن الله تعالى وصف إسماعيل في كتابه بالصبر، فقال في [سورة الأنبياء]: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

قال العلماء: وذلك لصبره على الذبح، ورضاه بذلك، كما وصفه بأنه كان صادق الوعد، وذلك في [سورة مريم]: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾، ووُصف بهذا الوصف؛ لأنه وعد أباه مِنْ نفسه الصبر على الذبح، واليهود يزعمون أنَّ الذبيح هو «إسحق»، ففي «سِفر التكوين» يقول: «قال الرب لإبراهيم، خذ ابنكَ وحيدكَ الذي تحبه، إسحق، واذهب إلى أرض موريه».

قال ابن كثير: لفظة إسحق هنا مقحمة، لأن إسحق ليس الوحيد وليس

البكر، وإنما حملَ اليهودَ على ذلك حسدُهم للعرب، فإنَّ إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز، ومنهم رسول الله محمد ﷺ، «وإسحق والد يعقوب» – وهو إسرائيل – الذي ينتسبون إليه، فأرادوا أن يَجُرّوا هذا الشرفَ إليهم فحرَّفوا كلام الله وزادوا فيه، وهم قوم بُهْتٌ، ولم يعترفوا بأن الفضلَ بيد الله يؤتيه من يشاء.

وأخرج الطبري عن ابن عباس أنه قال: المُفْدى إسماعيل، وزعمت اليهود أنه إسحق، وكذبت يهود.

وذكر محمد بن كعب أن عمر بن عبد العزيز، لما كان خليفةً بالشام وأُثيرت قضية الذبيح أيهما، أرسل عمر إلى رجل من علماء اليهود كان قد أسلم وحسُنَ إسلامه، قال: فسأله عمر بن عبد العزيز: أي ابني إبراهيم أُمرَ بذبحه؟ فقال الرجل: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن اليهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على الفضل الذي ذكره لإسماعيل لصبره على أمر الله، فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحق، لأنه أبوهم.

قال ابن القيم: وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومَنْ بعدهم، وأما القول بأنه إسحق فهو باطل من عشرين وجهاً، ذكر ذلك في كتابه «زاد المعاد».

وقال ابن تيمية: إنَّ القول بأنَّ إسحق هو الذبيح، هو قولٌ مُتَلقّىً من أهل الكتاب، مع أنه باطل بنصِّ كتابهم، فإنَّ في كتابهم: «إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه – بكره – وفي لفظٍ – وحيده – ولا يشكُّ أحدٌ من المسلمين ومن أهل الكتاب أن إسماعيل هو بكرُهُ».

ثم إن الظاهر من النص القرآني أن الذبيح إسماعيل؛ لأن الله تعالى بعد أن ذكر قصة الذبيح في [سورة الصافات] حيث قال: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡىَ

قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾، بعد أن ذكر كل هذا عن الذبيح قال بعدها: ﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الصافات].

قال المفضل: وقوله تعالى: ﴿ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾ ﴾، أي من ذرية إسماعيل وإسحق، ولا يختلف أحد بأن إسماعيل كان أكبر من إسحق بثلاثَ عشرةَ سنة.

الرؤيا:

قال ابن كثير: لما شبَّ إسماعيل، وصار يسعى في مصالحه كأبيه، رأى إبراهيم في منامه أنه يُؤمر بذبح ولده هذا.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ ﴾، قال الصاوي: أي ترعرع وصار يمشي مع أبيه، عندها رأى إبراهيم في منامه كأنَّ قائلاً يقول له: «إن الله يأمرُكَ بذبح ولدك»، كما قال صاحب كتاب "حياة إبراهيم" عليه الصلاة والسلام.

وقد ورد في حديث مرفوع عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «رؤيا الأنبياء وحي»، وهذا حقٌّ وصحيح؛ لأن الله تعالى قال في حق نبينا محمد ﷺ في [سورة الفتح]: ﴿ لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ

تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

وقال تعالى في حق يوسف: ﴿ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف].

وقال هنا في حق إبراهيم: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾ [الصافات ١٠٢].

قال العلماء: والمقصود من جعل رؤيا الأنبياء حق ووحي للتدليل على كمالهم، وأنهم صادقون في كل أحوالهم؛ ذلك لأنَّ للإنسان حالتين، إما حال يقظة، وإما حال منام، فإذا تحقق الصدق في الحالين، كان ذلك دليلاً عظيماً على صدقهم في كل أحوالهم الأُخرى.

ولما قيل لعمرو بن العاص: إنَّ أُناساً يقولون: إنَّ النبي تنام عينه ولا ينام قلبه !! قال عمرو: سمعت عبيد بن عمير يقول: إن رؤيا الأنبياء وحي، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الصافات].

قد يقول قائل: ولماذا كان التكليف بالذبح مناماً لا يقظة؟

والجواب كما ذكره الدكتور الشلبي حين قال: والسرُّ في أنَّ الأمر كان مناماً لا يقظةً ليدل التنفيذ على تمام الإخلاص، وليدل كذلك على أنَّ حالتي الأنبياء يقظة ومناماً سواءٌ في الصدق، ولما كان هذا التكليف في غايةِ المشقةِ والصعوبة على الطرفين: الذابح والمذبوح، ورد الأمر أولاً في النوم.. مرةً ومرةً ومرةً.. حتى لا يهجُمَ هذا التكليفُ الشاقُّ على المُكلفِ دفعةً واحدةً، فيكون أشدَّ في المشقة، ولذلك جاء متدرِّجاً.

قال الرازي في تفسيره: ومنامات الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه على ثلاثة أقسام:

- منها ما يقع على وَفْقِ الرؤيا كقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح]، فوقع ذلك بعينه.
- ومنها ما يقع على الضد من ذلك، كما في حقِّ إبراهيم: فإنه رأى الذبح، وكان الحاصلُ الفداء.
- ومنها ما يقع على نوع من التأويل والمناسبة، كما في رؤيا يوسف، فالكواكب إخوته، والشمسُ أُمه أو خالته، والقمر أبوه.

قال الصاوي في قوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات].

قال: هذا إشارةٌ إلى أنَّ الرؤيا التي رآها إبراهيم كانت يوم التروية «وهو اليوم الثامن من ذي الحجة»، حيث رأى في منامه قائلاً يقول له: إن الله يأمرك أن تذبح ولدكَ، قال: فلما أصبحَ، تَروَّى وفكّر في نفسه: أمن الله هذا الأمر؟ ثم رأى في اليوم الثاني مثل ذلك، وفي الليلة الثالثة مِثْلَ ذلك، فقال عندها: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾.

قال الصاوي: ولذلك سُمِّيَ اليوم الأول - أي الثامن من ذي الحجة - يوم التروية، واليوم التالي يوم عرفة - أي عرف أنَّ الأمر من الله -، وسُمي الثالث: يوم النحر، أي أُمِرْتُ بالذبح، ولذلك جاء بالمُضارعِ: ﴿أَذْبَحُكَ﴾.

لماذا كان الأمر بالذبح؟

قال القاسمي: إن الله تعالى أجرى العادة البشريَّة أنَّ بكرَ الأولاد أحبُّ إلى الوالدين ممن بعده، وإبراهيم لما سأل ربه الولد، ووهبه له، وجاء إسماعيل، تعلّقَتْ شعبة من قلبه بمحبته، والله عز وجل، قد اتخذ إبراهيم خليلاً، والخُلَّةُ منصبٌ عظيم يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يُشاركه أحدٌ فيها، فلما أخذت محبةُ الولد إسماعيل شعبةً من قلب الوالد، جاءت غيرةُ الخُلّةِ تنتزعها مِنْ قلب الخليل، فأمره الجليل بذبح المحبوب، فلما أقدمَ على ذبحه، وكانت محبة الله عند إبراهيم أعظمَ من محبةِ الولد، خَلَصَتِ الخُلّةُ من شوائب المشاركة، فلم يبقَ في الذبح مصلحةٌ، ولذلك قال تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ١٠٧﴾ [الصافات].

قال ابن كثير في تفسيره: وهذا اختبارٌ وابتلاءٌ من الله عز وجل لخليله إبراهيم أن يذبح ولده العزيزَ الذي جاءه على كِبَرٍ. بعد أن قال إبراهيم لولده ما قال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾، قال الزجاج: أي ماذا تُريكَ نفسكَ من الرأي وماذا تُشير؟

قال العلماء: وإنما عرض على ولده إسماعيل الأمر؛ لأن ذلك أطيبُ لقلبه وأهونُ عليه من أنْ يأخُذَهُ قهراً، ويذبحه قسراً.

هنا يأتي سؤال: لِمَ شاوره في أمرٍ هو حتْمٌ من الله؟

والجواب: إنه لم يشاورْه ليأخذ برأيه، ويرجع إلى قوله، وإنما ليثبتَ قلبَه، ويوطّن نفسه على الصبر، فلما أجابه بأحسنِ جوابٍ: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾، أي العَرِيقينَ في الصبر، البالغين فيه حدَّ النهاية، ولذلك قال عز وجل فيه يمدحُ صبره وصدقه: ﴿كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾.

قال هذا الجواب: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾، ولسانُ حاله يقول:

ولو بيدِ الحبيبِ سُقيتُ سُمّاً   لكان السُّمُّ من يده يَطيبُ

ولمّا كان جواب إسماعيل ما كان: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات].

قال إبراهيم بعد أنْ اطمأنَّ إلى هذا الجواب: «نِعمَ العونُ أنت يا بني على طاعةِ الله».

قال الآلوسي: إنما شاوره – مع أنَّ الأمر محتومٌ – ليُصبِّرَ نفسه على الذبح فيكون أهونَ عليه، وليكتسِبَ الأجر بالانقياد والطاعة لأمر الله قبل نزوله، ولتكون سُنّةً في المشاورة، ولذلك قالوا: «لو شاور آدم الملائكة في الأكل من الشجرة لما حصل له ما حصل».

قال العلماء: هذا الحوار بين الوالد وولده لم يكنْ طويلاً، ولم يكنْ كلاماً كثيراً، ولم يشهدْه أحدٌ من الناس.

كان أقصرَ حوار، لأنه من جوامع الكلم التي لا يستطيعها إلا الأنبياء، وكان أخطر حوار، لأنَّ نور النبوة هو الذي يبرز في الإثنين، لأنَّ المُضحى به هو الولد.

وكان أكبرَ حوار؛ لأنَّ فيه من المعاني ما لا يعلمُهُ إلا الله، ومن الأسرار كذلك، ثم إنَّ الحوار تمَّ في وحدةٍ وخلوةٍ بينهما، ليجتمع للإثنين شرفُ الإخلاص الظاهر، مع شرف الإخلاص الباطن الذي تحقق بالتسليم لأمر الله من الجانبين.

﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾، كان الجواب:

﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ ﴾.

قال العلماء: وإنما أتى إسماعيل بالاستثناء - ﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾- تبرُّكاً بذكر الله تعالى، وإشارةً إلى أنه لا قوة على الطاعة إلا بمعونة الله، ولا صرْفَ عن المعصية إلا بحفظ الله تعالى، لذلك قال ابن كثير في جواب الولد: ﴿ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ ﴾، قال: هذا الجواب في غاية الصواب والطاعة لله عز وجل أولاً، ثم لوالده إبراهيم ثانياً، والحقيقة التي لا شك فيها في هذا المقام، أنَّ هذا الحوار لا يستطيعه أحدٌ سواهما: نبيٌّ مرسلٌ، وولدٌ مُهَيَّأ للنبوة والرسالة.

فلو أنَّ أباً غير إبراهيم، قال لولده: يا بني تعال لأذبحك، لرماه الابن بالجنون، وقد يُسارع الولد لقتل أبيه، ولقال الناس: إنه محقٌّ، إنه يدافعُ عن نفسه، والدفاع عن النفس مشروع. ولكن إسماعيل لم يفعلْ شيئاً من هذا، بل وقَّرَ الوالدَ، وعظَّمهُ، ولم يقل له: أنت مجنون، ولا أنت مخبول، وإنما قال: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ ﴾، إنها النبوة تتكلمُ في كليهما.

قال الآلوسي: لما كانت رؤيا الأنبياء حقّاً، وأنَّ مثلَ هذا - ذبح الولد - لا يُقدمون عليه إلا بأمرٍ، أخبر الوالد ولده بها، فعلمَ الولد أنها - الرؤيا - من الله، لعلمه بمكانة أبيه، وأنه من الذين لا سبيل للشيطان عليهم في المنام، أو في اليقظة، فاستجاب.

ولما قال الأب: يا بني، على سبيل الترحم.

قال الولد: يا أبت، على سبيل التوقير والتعظيم، ثم يأتي قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧ ﴾ [الصافات].

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا ﴾ وفي قراءة ابن عباس وابن مسعود وعلي: «فَلَمَّآ سَلّما»۞ وقرئ: «استسلما»، والمعنى واحد، أي استسلم الأب والابن لطاعة الله، فسلَّمَ الذبيحُ نفسَه، وسلَّمَ إبراهيم ولدَه، وفي قراءةِ «فَلَمَّآ سَلّما»، أي فوضا أمرَهما إلى الله، أو سَمَّى إبراهيمُ وكَبَّر للذبح، وتَشَهَّدَ الولد للموت.

وقوله تعالى: ﴿ وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴾، أي صرعه على عنقهِ وخدِّه، والجبين أحد جانبي الجبهة، فللوجه فوق الصدغ جبينان عن يمين الجبهة وشمالها، قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴾، قال الولد عندها: يا أبتِ اشدُدْ رباطي، كي لا أضطربَ، فينتضحَ عليك دمي، وفي رواية، فينقصَ من أجري، وتراه أمي فتحزنُ.

قال صاحب "التأويلات النجمية" كما ينقل البروسوي في تفسيره: ومِنْ دقة النظر في رعاية آداب العبودية، في حفظ حق الربوبية في هذه القصة، أنَّ إسماعيل طلب من أبيه أن يَشُدَّ يديه ورجليه حتى لا يضطربَ، إذا مسّه ألَمُ الذبحِ، ثم لما همَّ الوالد بالذبح، عَدَلَ عن هذا الطلب وقال لوالده: افتح القيدَ عني فإني أخشى أن أُعاتَبَ «أي من الله» فيقال لي: أمشدودُ اليدين يُطيعني مَنْ أُحِب؟

عندها قال إبراهيم لولده: نِعْمَ العون أنت يا بني على أمر الله.

قال القاسمي: وفي قصة الذبيح والذبح هذه روايات ضعيفة كثيرة، ولعل أصحها ما أورده الإمام أحمد عن ابن عباس موقوفاً، قال: إنَّ جبريل ذهب بإبراهيم إلى جمرة العقبة، فعمدَ له الشيطان فرماهُ بسبعِ حصيات فساخَ.

ثم أتى الجمرةَ الوسطى فعرضَ له الشيطانُ فرماه بسبعِ حصيات فساخ.

ثم عرض له عند الجمرة الآخرة، فرماه بسبع حصيات فساخ.

ثم مضى إبراهيم لأمر الله، وذهب إبليس، ومن هنا شُرِعَ رمي الجمرات في الحج، فهو من واجبات الحج، يجب بتركِهِ الفِديةُ باتفاق الأئمة.

قال العلماء: لما أراد إبراهيم أن يذبحه، وأخذ الشفرةَ نودي من خلفه: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥﴾ [الصافات].

قال القرطبي: أي يا إبراهيم لم يكن المرادُ الذبح، وإنما المرادُ أن تَرُدَّ شُعبةَ قلبك إلينا، فلما رُدَّ قلبك بالكُلّية، رددنا ولدَك إليك.

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥﴾، أي حصل المقصود من اختبارِك، وبذلك تكونُ قد قدَّمْت ولدَك للقربان، كما سمحْت ببدنِك في سبيل الله للنيران، وكما بذلتَ مالك من قبل للضِّيفان، ولذلك قال الله عز وجل بعدها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾، أي الاختبار الذي يتميز به المخلصون.

وقال كعب: إنَّ الشيطان قال: «إن لم أَفتِن آلَ إبراهيمَ عند هذا الأمر – أي الأمر بالذبح – لا أَفتِنُ منهم أحداً أبداً»، وكان إبراهيم يُخاطب عدوَّ الله إبليس قائلاً: «والله لأمضِيَنَّ لأمر ربي يا عدو الله»، ثم انْظُرْ بعد ذلك إلى عظمة هذا البلاء، وكيف صبر عليه الثلاثةُ، الأبُ والأمُّ والولد، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾.

قال الحريري: البلاء على ثلاثة أوجه:

- البلاء على المخالفين: نَقمٌ وعقوباتٌ.
- البلاء على السابقين: تمحيصٌ وكفاراتٌ.
- البلاء على الأولياء والصديقين: نوع من الاختبارات.

وبعد كل هذا جاء الفداء: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ١٠٧ ﴾.

وقد ذكر البروسوي أثراً لا أدري مدى صحته قال: وفي الخبر أن نبيناﷺ سأل جبريل مرةً، هل تُصيبك مشقةٌ عند نزولك من السماء؟ فقال جبريل: لا، إلا في أربعة مواضع مرَّتْ عليَّ:

الأول: حين أُلقيَ إبراهيم في النار، كنت تحت العرش، فجاءني الأمر: أدرك عبدي، فأدركته، هل من حاجة..

الثاني: حين وَضَعَ إبراهيم السكين على حَلْقِ إسماعيل كنت تحت العرش، فقال تعالى: أَدركْ عبدي، فأدركته طرفة عين، فقلبتُ السكينَ.

الثالث: حين شَجَّكَ الكفار، وكسروا رُباعيَّتكَ يوم أُحدٍ، فقال الله: أدركْ دمَ عبدي، فإنه لو سقط من دمه على الأرض قطرةٌ ما أخرجتُ منها نباتاً ولا شجراً، فقبضْتُ دمكَ بكفي، ثم رميتُه في الهواء.

الرابع: حين أُلقي يوسف في الجب، قال الله تعالى: أدركْ عبدي، فأدركته قبل أن يصل إلى قعر الجب، ورفعتُ حجراً من قعر البئر فأجلستُهُ عليه.

وقوله تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ١٠٧ ﴾، أي ضخم الجثة سمين، وهو عظيم القدر لكونه رعى في الجنة، ولكونه من الله تعالى هبةً، وكُوِّنَ تكويناً لا نسلاً، وعيداً، والمشهور عند العلماء، أنه كبشٌ أبيض، أعينُ، أقرنُ، رآه مربوطاً بشجرة في جبل ثبير.

قال ابن عباس: هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن، له ثُغاء فذبحه، قال مجاهد: ذبحه بمنىً.

قال ابن عباس: وما زلنا نتتبع هذه الصفات من الكباش في الأضاحي.

قال ابن كثير: وفي الكبش أخبار إسرائيلية كثيرة، وما في القرآن كفاية.

وأخرج الإمام أحمد، عن امرأة من بني سُليم قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة، وسألت المرأة عثمان هذا، لماذا دعاكَ رسول الله ﷺ؟ فقال عثمان: قال لي رسول الله ﷺ: «إني رأيتُ قرني الكبش حين دخلتُ البيتَ، فنسيتُ أن آمرك أن تُخمِّرهما، فخمِّرْهما، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المُصلي».

قال ابن عباس: إن رأس الكبش لم يزلْ معلَّقاً في ميزاب الكعبة حتى يَبِسَ.

وقد ذكر الصاوي أنه لما ذبح الكبش، قال جبريل: «الله أكبر الله أكبر الله أكبر»، فقال الذبيح: «لا إله إلا الله والله أكبر»، فقال إبراهيم: «الله أكبر ولله الحمد»، فصار ذلك سُنةً تُقال.

وورد عن علي، كما ذكر القرطبي، أنَّ إبراهيم لما ذبح الكبش قال: يا بني: اليوم قد وُهبتَ لي.

قال العلماء: لما بذلَ إبراهيم جهده في التنفيذ، وأعدَّ المقدمات، وعزمَ على الفعل، وبذلك يكون قد صدّق الرؤيا، فلم يبقَ إلا صورة اللحم والدم، وهذا يتحقق بالكبش الذي هو لحمٌ ودمٌ،وقديماً قالوا:

لسانُ الفتى نِصْفٌ، ونصفٌ فؤاده   فلم يبق إلا صورة اللحمِ والدمِ

ثم جاء الختام: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ١٠٥﴾، وهذا هو السبب في رفع الشدة والكرب عنهم، إنهم كانوا من المحسنين.

والإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإنْ لم تكن تراهُ فإنه يراكَ، فإن كنت محسناً، أجابَ دعاءك لأنك تدعو بلسانٍ ذاكرٍ، شاكرٍ، وقلبٍ طاهرٍ حاضرٍ، وعندها لا يردُّ الله لك حاجةً ـ قال سهل: ما أظهر عبدٌ فقْره وحاجته إلى الله

تعالى في وقت الدعاء في نازلة تَنزِلُ به إلا قال الله تعالى لملائكته: «لولا أنه لا يحتمل كلامي لأجبتُه لبيك».

وورد عن موسى أنه مرَّ برجل يدعو ويتضرعُ، فقال موسى: «إلهي لو كانت حاجته بيدي قضيتها، فأوحى الله إليه لا أقبل دعوة عبد قلبُه عند غيري».

وحكي عن بعض البُلْه وهو في طوف الوداع، أن رجلاً مازحهُ: هل أخذت من الله ورقة براءتك من النار؟ قال الأبلهُ: لا، وهل أخذ الناس ذلك؟ قال: نعم، فصار يبكي، ودخل الحجرَ، وتعلق بأستار الكعبة يبكي ويدعو طالباً كتاب عتقه من النار، وحاول الناس أن يفهموه، وإذا بورقة تسقط من الميزاب فيها براءته من النار، واجتمع الناس عليه وعليها وكانت من علاماتها أنها تُقرأ من كل ناحية على السواء، فعَلِمَ الناس أنها من الله.

إنَّ الله عز وجل رفع الشدَّة والكربَ عن إبراهيم وولده وعن الأم؛ لكونهم محسنين وذلك قوله تعالى: ﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ ﴾ [الصافات]، ونلمس من الآيات دروساً وتوجيهاتٍ للعاملين، من ذلك:

أن الله تبارك وتعالى يُري عباده لطفهُ بعد شدَّته، وجبرهُ بعد كسره، ونرى أنَّ عاقبة الصبر تُنتج الخير الكثير، فهاجَرُ وزوجها وولدها حين صبروا على البُعد والغربةِ والتسليم للذبح نالوا الخير العظيم، ولعل من أهم هذه الخيرات: أن جعل الله آثارهما، وموطئَ أقدامهما مناسك لعباده المؤمنين، ومتعبداتٍ لهم إلى يوم القيامة، كما قال القاسمي في تفسيره.

وتدل الآيات على سُنَّةٍ من سنن الله عز وجل، وهي أنَّ الصدق والإخلاص في تنفيذ أوامر الله عز وجل من شأنها أن ترفع العبدَ وتوصله

إلى الفوز.

فحين صبر بنو إسرائيل على ابتلائهم بيد فرعون، يذبح أبناءهم، كانت المكافاة العظمى بعد ذلك، نقرأ ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص].

وكذلك حين قتل الخَضِرُ الغلام، وكان ذلك ابتلاءً لأبويه، وصبرا على ذلك أبدلهما ربُّهما خيراً منه، مع جزيل ثواب الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف].

مكافأة إبراهيم على صبره على هذا البلاء العظيم:

وكذلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام، حين صبر على هذا البلاء العظيم الذي ليس له نظيرٌ، كافأه الله تعالى، بما ورد في كتاب الله عز وجل: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الصافات].

كانت **المكافأة الأولى** بالفِداء، حيوان يذبح بدلَ ولده، وسلَّم الله له الولد.

والمكافأة الثانية: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾، أي أمانٌ في الدنيا والآخرة، ولا عَجَبَ، فهذا جزاءُ مَنْ أَحْسَنَ.

وجزاءُ مَنْ صدق وصبر وأخلص، ولذلك كررت الآية جزاء الإحسان فقالت: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

ثم تأتي **المكافأة الثالثة:** ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾، أي جعلنا له ذِكْراً

خالداً، وشرفاً مستمرّاً، يتغنّى به الأولون والآخرون.

ثم تأتي **المكافأة الرابعة**، بأن جعله الله إماماً، كل ذلك بصبره على البلاء.

واسمع معي إلى هذا في قوله عز وجل: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ﴾ [البقرة].

الكلماتُ: الشرائعُ، أي بأوامرَ ونواهٍ، وللمفسرين أقاويل في هذه الأوامر والنواهي، ولعلَّ أقربَ الأقوالِ، أنه اختُبر بالإسلام فأسلمَ لرب العالمين، وابتلاه بالهجرة فهاجر إلى الشام، وابتلي بالنار فصبر عليها، ثم بالختان فصبر عليه، ثم ابتلي بذبح ولده فسلَّم واحْتَسَبَ، ولذلك مدحهُ الله عز وجل بحُسْنِ التوفية والتنفيذ، وقال عز وجل: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾[النجم].

وقوله تعالى: ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ﴾، أي قدوةً لمن بعدك، والإمام اسم لمن يؤتَمَّ به، ولذلك لم يُبْعَثْ بعده نبي إلا كان مأموراً باتباع ملته، وكان من ذريته، قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ [العنكبوت ٢٧].

قال القاسمي: وفي هذه الآية أَتَمُّ ترغيبٍ في التخلق بالوفاء.

قال العلماء: ثم تأتي إبراهيمَ بشارة أُخرى، لم يكنْ ينتظرها، ولم يحسِبْ لها حساباً، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الصافات]، فإسحق كان بُشرى، وكان مكافأة، فأولُ الأمر طلبَ إبراهيمُ من الله الولدَ، حين دعا فقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾، فجاءت البشارة بإسماعيل: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾، فحين كُلِّفَ بذبحه فاستجاب ثَبَتَ أنَّ إبراهيم لا ينشغلُ عن الله عز وجل لا بولدٍ ولا بغيره،

فكافأه بعد إسماعيل الحليم بغلام عليم، بشرتهُ الملائكة بإسحق حين زاروه وهو لا يعرفهم، فخافَ أوَّلَ الأمر حين قدَّمَ الطعام فلم يأكلوه: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٢٨﴾ [الذاريات]، - وهو إسحق -.

كان إبراهيم يظن أنَّ إسماعيل لن يأتي بعده ولدٌ، فلما نجح في الاختبار بالذبح جاءته المكافآتُ، لذلك سنرى دهشة إبراهيم واستغرابه حين بُشِّرَ بإسحق؛ لظنه أنه لن يكون له ولدٌ سوى إسماعيل.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: الوقتُ يقتربُ من الظهيرة، وإبراهيم أقامَ خيمةً له، يُفكر في إسماعيل، وكيف أنَّ الله تعالى مَنَّ عليه بالفداء. في هذه اللحظة، تُلقى حصاةٌ أمام إبراهيم، فيرفعُ رأسه، فإذا بثلاثةِ رجالٍ يُبادرونه بالتحية، وكان ذلك في أرض فلسطين، ونقرأ في [سورة الحجر]: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾، أي خائفون، قال إبراهيم ذلك، بعد تقديم الطعام لهم فلم يأكلوا، وحُقَّ له أن يَوْجَل؛ لأنهم دخلوا عليه فجأة وليس معهم دواب تحملهم، ولا يُرى عليهم أثرُ السفر، وقد ذكرت [سورة هود] ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾.

وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ

ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر].

كان الضيوف ملائكة ثلاثة كما قال ابن عباس: «جبريل وميكائيل وإسرافيل»، كانت لهم مهمة مزدوجةٌ: إهلاكُ قومِ لوطٍ، وبشارةُ إبراهيم بإسحق، مرّوا على إبراهيم وهم في طريقهم لإنزال العذاب بقوم لوط.

قال العلماء: جاء بعجل سمين مشويٍّ على الحجارة الرقيقة المحمّاةِ، يقطُرُ الدُّهْنُ منه بعد الشواء، وكانت الضيافة عجلاً؛ لأنَّ البقرَ أكثرُ أموالِ إبراهيم عليه السلام، وتعجيلُ الضيافة الميسرة من الأدب الإسلامي، ومنْ مكارم الأخلاق، لقوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرمْ ضيفه»، ومن الأدب الطيّب تجاه ربِّ البيت، المبادرة من الضيف بقبول ما قدَّم، ولذلك لما قبض الضيوف عند إبراهيم أيديَهم ولم يأكلوا خاف إبراهيم؛ لأن العادة عندهم أنَّ الضيف إذا لم يأكلْ ظَنُّوا به شراً، كما خاف بعد أن علمَ أنهم ملائكة أن يكونوا قد أُمروا بأمرٍ بالنسبة لقومه عليه الصلاة والسلام.

وقد روي أنهم قالوا عندما قدَّمَ لهم إبراهيم الطعام: «نحن لا نأكل طعاماً إلا بثمنٍ» !! فقال إبراهيم: إنَّ له ثمناً، قالوا: وما هو؟ قال: تُسَمّون الله في أوله، وتَحمدونه في آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل وقال: «حُقَّ لهذا أن يتخذهُ الربُّ خليلاً».

ومن آداب الضيافة أن يُلاحظ ربُّ البيت ضيفه، هل يأكل أم لا، ولكن يكون ذلك بمسارقة النظر، فقد روي أنَّ أعرابياً أكل مع سليمان بن عبد الملك، فرأى سليمان في لقمة الأعرابي شعرة، فقال الخليفة للأعرابي: أَزِلِ الشعرة عن لقمتِك، فقال الأعرابي: أتنظر إليَّ نظر مَنْ يرى الشعرة في لقمةٍ؟!! والله لا أكلتُ لك طعاماً، وخرج وهو يقول:

وَلَلْموتُ خيرٌ من زيارة باخِلٍ يُلاحظُ أطرافَ الأكيلِ على عمدِ

وقوله تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ ﴾ [هود ٧١]، أي قائمةٌ خلف الستر تسمعُ محاورتهم، وقيل: قائمةٌ تُصلي، فسُرَّتْ وضحكت لسرور إبراهيم بأنَّ هؤلاء الملائكة لم يأتوا لعذاب قومه، كما سُرَّتْ لأن سارة قالت قَبْلَ مجيءِ الملائكة إليه: ألا تضم ابن أخيك - لوط - إلى كنفِكَ هنا؛ لأنَّ قومه يوشكُ أن يعُمَّهم الله بالعذاب، فكان سرورُها لكون فراسَتِها تحققت وتنبهت لهذه المسألة.

وقد نقل ابن الجوزي: أن جبريل لما ضحكت قال لها: أبشري أيتها الضاحكة بولدٍ اسمه إسحق، ومن وراء إسحق يعقوب، فهما بشارتان: بشارة بإسحق، وبشارة بأنها تعيش حتى ترى ولدَ الولد.

قال ابن عباس: كان عمرُ سارة وقتها ثمانية وتسعين عاماً، وإبراهيم في المائة من عمره، لذلك كان العجبُ من الزوجين: أفي مثل هذا السن تكون ولادةٌ؟!! لذلك قالت كما في [سورة هود]: ﴿ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ ﴾.

وكذلك كان إبراهيم مستغرباً من حصول الولد في مثل سِنّه، وسنّ زوجته مع العقم، ولذلك قال جواباً لبشارة الملائكة حين قالوا له: ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٥٣﴾ ﴾، قال إبراهيم: ﴿ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾، فكان جواب الملائكة: ﴿ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾، فكان ردُّ إبراهيم حازماً حين قال: ﴿ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾، أي: إنما استبعدْتُ الولد لكبر سني لا لقنوطي من رحمة الله.

ووردت هذه البشارة في [سورة الذاريات]: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾.

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾، قال: سمّاهم مكرمين، لخدمةِ إبراهيم لهم بنفسه؛ ولأنهم مكرمون عند الله بالتأييد والعصمة، والسفارة بين الله وأنبيائه.

قال عبد الوهاب، قال لي علي بن عياض: عندي هريسة، فما رأيك فيها؟ قلت: ما أحسن رأيي فيها، قال: امض بنا، فدخلتُ الدار، فنادى الغلام، فإذا هو غائب، فما راعني إلا هو ومعه القُمْقُمَةُ والطستُ، وعلى عاتقه المنديل، فقلتُ: إنا لله وإنا إليه راجعون، لو علمتُ أنَّ الأمر هكذا يا أبا الحسن، يعني ما دخلتُ؟!! فقال: هوّنْ عليك فإنك عندنا مكرم، والمُكرم إنما يُخدم بالنفس، انظر إلى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

قال العلماء: لا عارَ على الرجل – ولو كان سلطاناً – أن يخدم ضيفه وأباه ومعلمه.

قال صاحب كتاب «مع الأنبياء»: سُرَّت سارة بالبشارة، وسُرَّ إبراهيم، وجاشت نفسُه بمشاعر قلبية، أدرك بها عظيم نِعَمِ الله عليه فخرَّ ساجداً لله، ثم طمأنته الملائكة أنهم ذاهبون لمعاقبة قوم لوط.

عودة إلى إسماعيل:

قال المفسرون: بعد حادثة الفداء لإسماعيل، ترك إبراهيم الولد وأمه،

وكان عمر إسماعيل وقتها في الثالثة عشرة. ثم شبَّ الغلام، واستقام عودُه، واختلط بالقوم حوله «جُرْهم» وأخذ العربية عنهم.

قال البخاري: وشبَّ الغلام، فلما أدركَ زَوَّجُوه امرأةً منهم.

قال ابن إسحق: خطبها إسماعيل إلى أبيها، فزوجها منه، ثم عاجلت المنية الوالدة «هاجر» أم إسماعيل، قال البخاري: وماتت أم إسماعيل.

قال صاحب كتاب «حياة إبراهيم»: وماتت هاجر بعد أن أدَّتْ دورها وتركت إسماعيل رجلاً له زوجة.

قال عطاء: ماتت أم إسماعيل، فقدِمَ إبراهيم إلى مكة بعد موتها، وعاشت تسعين سنة، ودفنها ولدها في الحِجْر، وكان اسمها «عمارة بنت سعيد بن أسامة».

قال الأزرقي: توفيت أم إسماعيل، وأكثرُ طعامهم الصيد، يخرجون من الحرم، ويخرج مع جُرْهم إسماعيل فيصيد.

إبراهيم وزوجة إسماعيل:

قال جاد المولى في كتابه «قصص القرآن»: ولم يكن إبراهيم ينسى وديعته في مكة، فكان يتردد على المكان يُطالع أهله ووديعته، وكان تردُّدُه قبل زواج إسماعيل كثيراً، فلما تزوج إسماعيل قَلَّ مجيءُ الوالد إليه، ويأتي مرة لزيارة وديعته، فلم يجد إسماعيل ووجد امرأته، وكانت لا تعرف أنه والده، فسألها عن إسماعيل فقالت: خرج يبتغي لنا، كما ذكر البخاري، ثم سألها عن عيشهم، فقالت: نحن في شِدَّةٍ وضِيق، وشكت إليه سوء الحال.

قال الدكتور الشلبي: سأل إبراهيم زوجة إسماعيل الأولى عن الطعام، فقالت: أما الطعام فلا طعام، وأما الشاءُ فلا تحلب إلا الشخب، وأما الماء

فعلى ما ترى من الغِلَظ - الخشونة -.

هذا الذي قالته يدل على أنها امرأة متشائمة، وفي الأمثال يُقال: «رجلان أحدهما شاكر، أي متفائل، والآخر كافر، أي متشائم»، فإذا رأيا كوب ماء قد امتلأ نصفه قال الأول المتفائل: إنه مملوء إلى نصفه، وقال الآخر المتشائم: الكوب نصفه فارغ، فهذه المرأة نظرت إلى الجانب الفارغ في الكوب، فهي لم تذكر نعمة الزوج إسماعيل، من طِيبِ خُلُقٍ، وجمال شباب، وسعيه في الصيد والكسب، ولذلك أدرك إبراهيم عليه السلام، أنها تَتَسخط على القضاء، وأنها لا تصلحُ زوجاً لولده، ثم هي لم تسأله مَنْ أنت، ولم تعرضْ عليه حتى الضيافة، فمشى إبراهيم عليه السلام وقال: إذا جاء إسماعيل فقولي له: فليغيِّرْ عتبة بابه فإني لم أرضها له، فلما عاد إسماعيل كلمته بذلك، فقال: أنت عَتَبَةَ داري، وذاك أبي، وقد أمرني بطلاقك، اذهبي إلى أهلك.

قال البخاري: فطلقها، وتزوج غيرها منهم، أي من جرهم.

قال الأزرقي: قال ابن عباس: ثم مكث إبراهيم ما شاء الله أن يمكث في فلسطين، ثم رجع إلى مكة يتفقد وديعته، فوجد إسماعيل غائباً كما في المرة الأولى، ووجد امرأته الثانية، فوقف فسلَّم فردت واستنزلتْه وعرضت عليه الطعام والماء، فقال إبراهيم: ما طعامكم، وما شرابكم؟ قالت: اللحم والماء، قال: هل من حَبٍّ أو غيره من الطعام؟ قالت: لا، قال إبراهيم داعياً: «اللهم باركْ لهم في طعامهم وشرابهم»، وفي رواية: «باركَ اللهُ لكم في اللحم والماء».

قال ابن عباس: فقال النبي ﷺ: «بركة بدعوة إبراهيم».

قال ابن عباس: لو وجد عندها يومئذ حباً لدعا لهم بالبركة فيه فكانت أرضاً ذات زرع.

ثم سألها عن حالهم، فقالت: نحن بخير وسَعَة، وأَثْنَتْ على الله وشكرتْهُ، فقال لها إبراهيم بعد أن سُرَّ حين رآها راضية شاكرة، وأمرها إذا جاء إسماعيل أن تقول له: قد جاء بعدك شيخٌ، فقال: إني وجدتُ عتبة بابك صالحةً فأقرِرها، وقفل إبراهيم راجعاً إلى أهله.

ويرجع إسماعيل، وتُخبره زوجه بذلك، فقال: هذا أبي وقد أمرني أن أحتفظ بك، وألا أُفارِقَكِ، فلازمها إسماعيل طول حياته، وكانت أمَّ أولاده.

ثم غاب إبراهيم فترةً أُخرى، ثم عاد إلى مكة، وهي المرة الثالثة التي يُطالعُ بها تَرِكَتَهُ بعد زواج إسماعيل، عاد، ولكن لأمرٍ جلل عظيم، فما هو هذا الأمر؟

حدَّث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لبثَ إبراهيم ما شاء الله، ثم جاء في زيارة ثالثة إلى مكة لتفقُّد وديعته إسماعيل، فوجده قاعداً تحت الدوحة التي بناحية بئر زمزم يبري نَبْلاً له، فكان لقاء وكان بكاء.

قال معمر: وسمعت من يقول: «بكيا حتى أجابتهما الطير»، ذكر ذلك الأزرقي في كتاب «أخبار مكة»(١).

قال المؤرخون: لما رأيا بعضَهما، قام إسماعيل إليه، فصنع كما يصنع الوالد بالولد، والولدُ بالوالد، ثم قعدَ معه.

قال صاحب كتاب «مع الأنبياء»: وبعد أن طاب المقام لإبراهيم بلقاء ولده، قال له: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر!! فقال إسماعيل: فأطعْ ربك فيما أمرك، قال إبراهيم: يا بني: أمرني ربي أن أبني بيتاً، قال إسماعيل: وأين؟ قال ابن عباس: فأشار إبراهيم إلى أكمةٍ مرتفعة على ما حولها، عليها رضراض

---

(١) ج ١ ص ٣٦.

من حصباء، يأتيها السيل من نواحيها، ولا يركبها، والرضراض: الحصى الصغير، أو فتات الحصى.

وفي حديث ابن عباس عند البخاري، قال: ثم بدا لإبراهيم أن يطَّلعَ على تَركَتِهِ، فجاء - من فلسطين إلى مكة - فوجد إسماعيل من وراء زمزم يُصلح نبلاً له، فقال: يا إسماعيل، إن ربك عز وجل أمرني أن أبني له بيتاً، فقال إسماعيل: أطعْ ربك عز وجل، قال: إن الله أمرني أن تُعينني عليه، فقال: إذن أفعل، قال: فقام إبراهيم يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة]، قال: حتى ارتفع البناء، وضَعُفَ الشيخ عن نقل الحجارة، فقام على حجرِ المقام، فجعل إسماعيل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧﴾.

قال: فذلك قوله تعالى في [سورة البقرة]: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٢٩﴾.

قال الغرناطي في تفسيره: رجلان اثنان، عجوز وشاب يبنيان الكعبة وحدهما وهو مجهود شاقٌّ، ومع ذلك كانا يخافان عدم القبول.

كانت الدعوة الأولى سؤال الله أن يتقبل منهما عملهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧﴾.

أما الدعوة الثانية فكانت طلب الزيادة في الإخلاص والخضوع لله عز وجل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

وكانت الدعوة الثالثة، طلبَ معرفة أماكن العبادة وأوقاتها في الحج، وهي المناسك: ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾، أي كل ما شرعْتَهُ لنا من العبادات، حتى نقوم بها في الوقت الذي تريدُ، وفي المكان الذي تريدُ، والكيفية التي تريد، وهذا المعنى يشمل أفعال الحج وغيرها.

ثم تأتي الدعوة الرابعة، وهي طلب التوبة مما فرط من تقصير؛ لأن العبد مهما اجتهد في الطاعة، فقد يُقصر على سبيل السهو والنسيان، وتشمل هذه الدعوة مَنْ عصا مِنْ ذريتهما: ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

قال العلماء: قد يقول قائل: الأنبياء معصومون، فكيف يقول إبراهيم: ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ ﴾؟

والجواب: أنهما طلبا دوام التثبيت، لا أن لهما ذنباً، ولكنَّ المحققين قالوا: إنَّ إبراهيم وإسماعيل لما عرفا المناسك، وبنيا البيت أرادا أنْ يُبّينا للناس أن تلك المواضع، وذلك الموقف هي مكان التنصُّل من الذنوب، وأماكنُ طلبِ التوبة.

قال العلماء: توبة العوام: الندم على الذنب وعدم العودة.

وتوبة الخَواصّ: الرجوع عن خواطر السوء.

وتوبة خَواصِّ الخواص: لرفع الدرجات، لأنَّ التقصير في الصالحات يُعد عند هؤلاء من الذنوب.

ثم تأتي الدعوة الأخيرة لأهل الحرم، وهي قول إبراهيم الذي حكاه الله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة].

قال ابن كثير: وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قَدَرَ الله عز وجل

السابقَ في تعيين محمد ﷺ رسولاً للعرب ولغير العرب، وقد ثبتَ هذا فيما أخرجه الإمام أحمد من حديث العرباض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتمُ النبيينَ، وإنَّ آدم لمنجدلٌ في طينته، وسأُنبئُكم بأول ذلك: دعوةُ أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأتْ، وكذلك أمهاتُ النبيينَ يَرَيْنَ».

قال الربيع: لما دعا إبراهيم بهذا الدعاء: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩ ﴾ [البقرة].

قيل له: استُجيب لك، وسيكون آخر الزمان.

وقال أبو أمامة: قلت: يا رسول الله: ما كان أول بدْءِ أمرك؟ قال ﷺ: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بي، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام».

وقوله: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾، الكتاب: القرآن، والحكمةَ: العلم والفقه.

قال ابن زيد: كُلُّ حكمةٍ وَعَظتْكَ، ودَعتْكَ إلى مكرمة، أو نهتْكَ عن قبيح، فهي حكمةٌ، وقوله: ﴿ وَيُزَكِّيهِمۡۚ ﴾، أي يُطهرهم من دنس الشرك، ومِنْ فنون المعاصي.

إذاً، فأول مَنْ نوَّهَ بذكر نبيينا محمد ﷺ إبراهيم في هذه الآية: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ ﴾، ثم أفصح باسمه عيسى عليه الصلاة والسلام حين قال ما قصَّه الله علينا: ﴿ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ ﴾ [الصف ٦].

كما رأت أم نبينا ﷺ في منامها حين حملت به نوراً خرج منها أضاءت له قصور الشام، وقصَّتْه على قومها، واشتهر ذلك، وخَصَّ النبيُّ ذكر الشام في الحديث؛ لأن الشام ستكون في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، كما في البخاري: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يَضُرُّهم من خالفهم»، ثم قال ﷺ: «وهم بالشام».

قال العلماء: ولذلك فنحن مأمورون أن نصلِّي على إبراهيم كما نصلي على محمد ﷺ؛ لأنَّ إبراهيم دعا لمحمد ﷺ بقوله: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾[البقرة]

فلما وجبَ للخليل إبراهيم على حبيبنا محمد حقُّ دعائِه له، قضى الله حقَّهُ عنه بأن أجرى ذكرهُ على ألسنة أحبَّته - أحبة محمد - إلى يوم القيامة، ثم إنَّ إبراهيم سأل ربه أن يَدَعَ له ذِكْراً حسناً بعد موته، فقال: ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الشعراء]، يعني: يا رب أبقِ لي ذكراً حسناً في أمة محمد ﷺ، فأجاب الله دعاءه، وقرن ذكره بذكر حبيبه محمد ﷺ، ثم إن إبراهيم كان أبا المِلَّة: ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾، ومحمد كان أبا الرحمة: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾، وقال ﷺ: «إنما أنا مثل الوالد».

فلما وجبَ لكلِّ واحدٍ منهما حقُّ الأبوية من جهةٍ، قرن الله بين ذكرهما في الصلاة والثناء: «اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم..».

مقام إبراهيم:

والآن يجب أن نشير إلى مقام إبراهيم الذي ذكره الله تعالى في [سورة البقرة] وأمرنا أن نتخذ منه مكاناً للصلاة: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ

وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾.

ما المراد بالمقام؟

والجواب: أنَّ المراد بالمقام: الحَرَمُ كله: هذا قولٌ وهو منقول عن ابن عباس، وقولٌ: الحجُّ كله مقام إبراهيم، والقول الثالث: قال سعيد بن جبير وهو الحَجَرُ الذي قام عليه إبراهيم حين ارتفع البناء، فإسماعيل يحمل على عاتقه الحجارة وإبراهيم يبني، وهو قد وقف على الحَجَرِ، ويُرجِّحُ أكثر المفسرين هذا القول، لما ورد عن ابن زيد قال: قال النبي ﷺ: «أين ترون أن نصلي». فقال عمر: إلى المقام، فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾.

ويؤيده ما في صحيح مسلم من حديث جابر الطويل، وفيه أنَّ النبي ﷺ لما رأى البيت استلم الركنَ فرمَلَ ثلاثاً، ومشى أربعاً، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم، فقرأ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾، فصلى ركعتين قرأ فيهما: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

وقال صاحب «المنار» في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾، أي ادْعُوا فالدعاء مستجاب، وخرَّجَ أبو نُعيم من حديث جابر قال: نظر النبي ﷺ إلى رجل بين الباب والمقام، وهو يدعو ويقول: اللهم اغفر لفلان، فقال له النبي ﷺ: «ما هذا؟»، فقال: رجلٌ استودعني أن أدعوَ له في هذا المقام؛ فقال النبي ﷺ: «ارجع فقد غُفِرَ لصاحبك».

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى من [سورة آل عمران ٩٧]: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾.

قال ابن كثير: الآيات البينات: أنه مِنْ بناء الخليل أبي الأنبياء، ومقام

إبراهيم: الحَجَر الذي وقف عليه إبراهيمُ قائماً لما ارتفع البناء، فوضع له ولده هذا الحجر المشهورَ ليرتفع عليه، وهو الحجر الذي يُصلي عنده الأئمة.

وقد كان هذا الحجر ملصقاً بحائط الكعبة، وبقي ذلك من قديم الزمان حتى أيام عمر بن الخطاب، فأخّرهُ عن البيت قليلاً حتى لا يُشوّش الطائفون على المصلّين عنده، ووافقه الصحابة على ذلك.

وقد أخرج البيهقي بسنده إلى عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان المقام في زمن النبي ﷺ وزمان أبي بكر مُلتصقاً بالبيت، ثم أخَّرهُ عمر بن الخطاب.

وقال سفيان بن عيينة – وهو إمام المكيين – في زمانه: كان المقام من سَقْع البيت على عهد رسول الله ﷺ، فحوَّله عمر، وذهب السيل به بعد تحويل عمر له عن موضعه، فردَّهُ عمر إليه.

وذكر الشيخ عمر المكي الهاشمي في كتاب «إتحاف الورى في أخبار أم القرى»: قال: في سنة ١٧ للهجرة جاء سيل عظيم، يُعرف بسيل «أم نَهْشَل»، من أعلى مكة من طريق الرَّدْم، فدخل المسجد الحرام، واقتلع مقام إبراهيم من موضعه، وذهب إلى أسفل مكة، وكان سيلاً هائلاً، وممن ذهب به السيل امرأة اسمها «أم نهشل بنت عبيدة بن سعد بن العاص بن أمية»، فماتت ووجدت في أسفل مكة، فكُتبَ بذلك إلى عمر بن الخطاب وهو بالمدينة، فهاله ذلك وركب فَزِعاً إلى مكة، فدخلها بعمرة في شهر رمضان، فوقف عند مكان المقام وقال: «أنشُدُ اللهَ عبداً عنده علمٌ في هذا المقام»، أنشُدُ الله: أي أسأل به عز وجل.

فقام المطلب بن أبي وداعة السَّهمي رضي الله تعالى عنه وقال: أنا يا أمير المؤمنين عندي بذلك علم، قد كنتُ أخشى عليه مثل هذا الأمر، فأخذتُ

قدره من موضعه إلى باب الحِجْر، ومن موضعه إلى زمزم بمقاط – حبل قوي مفتول جيداً – وهو عندي في البيت.

فقال عمر: اجلس عندي، وأرسل من يأتيك بها، فجيء بالحبل، وقيسَ، ووضعَ حجر المقام في هذا المحل الذي هو فيه الآن، وأُحكمَ ذلك، واستمر إلى الآن.

قال ابن كثير: وكان إبراهيم، لما فرغ من بناء البيت، وضعه إلى جدار الكعبة، أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك، ولهذا أُمرنا بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف، وناسبَ أن يكون عند مقام إبراهيم، حيث انتهى بناء الكعبة فيه، كما فعل رسول الله ﷺ فإنه لما قَدِمَ مكة طاف بالبيت سبعاً، ثم جعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين.

قال القاسمي في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾. قال: في ذلك تنويهٌ بِعِظَمِ الصلاة فيه، وأنه مقامُ الأب الأكبر للأنبياء كافة، فهو جدير أن يُحترم، وفي هذا الاتخاذ من مقام إبراهيم مصلى تنصيصٌ على أنَّ ذلك أمرٌ رباني، وليس بتشريع بشر، وذلك تمهيدٌ لاستقباله بالمستقبل، وفيه ردٌّ على اليهود الذين جادلوا في ذلك، وقد روى البخاري ومسلم وغيرهما، أن عمر بن الخطاب قال: يا رسول الله: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت الآية: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾.

قال ابن كثير: وقد كانت آثار قدمي إبراهيم باقيةً في الصخرة إلى أول الإسلام، قال أبو طالب:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل

ثم قال ابن كثير: يعني أن رجله الكريمة غاصت في الصخرة، فصارت

على قدر قدمه حافيةً لا منتعلةً، قال أنس: رأيتُ في المقام أثر أصابعه وعقبه، وأخمص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم، قال قتادة: إنما أُمروا أن يُصلوا عنده، ولم يؤمروا بمسحه.

طلب إبراهيم من ربه أن يرى كيفية إحياء الموتى:

قصّ الله عز وجل علينا هذا الطلب في[سورة البقرة] وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾

قال البغوي في «تفسيره»، قال الحسن وقتادة والضحاك، وعطاء، وابن جريج: كان هناك سببٌ لهذا لطلب من إبراهيم، ذلك أنَّ إبراهيم مرَّ على دابة ميتة بساحل البحر، تأكل منها دوابُّ البر، ودواب البحر، فإذا كان مدُّ البحر، جاءت الحيتان ودواب البحر فأكلت منها، فإذا أجزر البحر ورجع، جاءت السباع فأكلت منها، فلما رأى إبراهيم هذا المشهد، أخده العجب فقال: يا ربّ، قد علمتُ أنك لتجمعنَّها من بطون السباع، وحواصل الطير، وأجواف دوابّ البحر، فأرني كيف تحييها لأُعاين فأزداد يقيناً..

نقول: هل هذا السؤال يدل على شك إبراهيم؟

والجواب: حاشا وكلاَّ، لأنَّ إبراهيم كما قال صاحب «الانتصاف»: قال: كيف تحيي الموتى؟ فسأل عن كيفية الإحياء، ولم يسأل هل تحيي الموتى، وهذا يشبه قولك: كيف حكم زيد بين المتخاصمين؟ فأنت تسأل عن كيفيةِ حكمِ زيدٍ بينهما لا عن ثبوته، لأنه ثابتٌ عندك.

قال صاحب «كتاب مع الأنبياء»: طلب إبراهيمُ صورةً من صور اليقين،

فسأل ربه: كيف تُحيي، ولم يسأل هل تحيي، ولذلك ثبت عنه ﷺ قوله: «ليس الخبرُ كالمعاينة».

قال القاسمي في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ ﴾ [البقرة ٢٦٠]، قال إبراهيم جواباً عن ذلك: آمنتُ يا ربّ، ولكني سألتُ لأزداد بصيرةً وسكونَ قلبٍ برؤية الإحياء، فوقَ سكون القلبِ بالوحي، فإنَّ تزايدَ الأدلةِ، أزيدُ لليقين، ولذلك قالوا:

ولكن للعِيان لطيفُ معنىً له سأل المشاهدةَ الخليلُ

قال البغوي في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ ﴾، أي بقوةِ الحجةِ، فإذا سُئِلْتُ هل عاينت الإحياء من ربك؟ فأقول نعم.

قال الغرناطي: قال «النصراباذي»: حَنَّ الخليل إلى صُنْعِ خليله، فحملَه الشوقُ على قول: ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ ﴾.

وقال القشيري: أراد إبراهيم أن يُكلمَ ربَّهُ، فاستجلب خطاب الرب بقوله: ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ ﴾، فقال الحق عز وجلّ: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ ﴾، قال إبراهيم: بلى آمنتُ، ولكن اشتقْتُ إلى قولك: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ ﴾، فإني بقولك هذا: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ ﴾، يطمئن قلبي.

ثم قال القشيري: والمُحِبُّ حريصٌ دائماً، ويجتهدُ دائماً، أن يسمع خطابَ مَنْ يُحِبّ عن أي طريق أمكنهُ.

قال الصاوي: لمّا قال للنمرود: ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾، قال النمرود: هل رأيتَ هذا بعينك، عندها انتقل إبراهيم إلى الحجة الثانية: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾، وعندها اشتهى إبراهيم المعاينةَ لتقوى حجتهُ إذا سُئل في ذلك.

ومثال ذلك: إنَّ الإنسان منا يؤمنُ بالحج وببيت الله تعالى، وبالرسول، ولكنه مع ذلك يتلهفُ ويتشوقُ ليرى ذلك عِياناً.

وذكر ابن عساكر أنَّ أبا بكر الخطيب، روى عن ابن عباس مرفوعاً، أنه لما أراد الله أن يتخذ إبراهيم خليلاً أخبر الملائكة بذلك، فقال ملَكُ الموت: رب ائذن لي أن أُبشره، فأنا الذي أقبضُ روحه، فسمح الله له بأن يُبشره.

قال ابن عباس: لما بُشِّرَ إبراهيم بأنَّ الله اتخذه خليلاً، كان عنده ثلاثمائة عبدٍ فأعتقهم، وأسلموا، فكانوا يقاتلون معه بالعِصِيِّ، فهم أول موالي قاتلوا مع مولاهم.

وورد عن سعيد بن جبير: أنه لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً، طلب ملكُ الموت من ربه، أن يتولى بشارة إبراهيم بذلك، فأذن الله تعالى له، فأتى المَلكُ إبراهيم ولم يكن في المجلس، فجلس المَلكُ مكان إبراهيم، وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام غيوراً جداً، إذا خرج أغلق الأبواب، فلما رجع ووجد في مجلسه رجلاً، استشاط غضباً، وهمَّ أن يأخذه، وقال: مَنْ أذن لك بدخول داري؟ قال المَلكُ: أذن لي ربُّ الدار !! فعرف إبراهيم أنه مَلَكٌ، فقال: ما حاجتُك؟ قال المَلكُ: جئتُك مبشراً لك بأنَّ الله اتخذك خليلاً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال للمَلكِ: وما علامة ذلك؟ قال: «يستجيب الله دعاءك»، عندها قال إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

قال السعدي في تفسيره: تيقَّنَ إبراهيم بخبر السماء: «إن الله يحيي الموتى»، ولكنه أحبَّ أن يُشاهد ذلك عِياناً ليحصل له مرتبةُ عين اليقين بعد علم اليقين.

قال صاحب «تفسير المنار»: وما أبلَدَ أذهان مَنْ فهم من هذه الآية: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، أنَّ إبراهيم كان مُضطرباً في اعتقاده، أو شاكّاً

بالبعث؛ لأنه ورد عن النبي ﷺ في الصحيحين أنه قال: «نحن أولى بالشك من إبراهيم، إذ قال رَبِّ أرني كيف تحي الموتى»، فمعناه: لو أنَّ إبراهيم كان شاكاً لكنا نحن أحق به، ونحن لا نشُكُّ، فإبراهيم أحرى أن لا يشكَّ.

ومن جميل بعض ما قاله حُذّاق التفسير: قال: كأن الله تعالى بقوله لإبراهيم: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾، أراد أن يُنطق إبراهيم بقوله: «بلى أمنت»، ليدفع عن خليله ذلك الاحتمالَ اللفظي في العبارة الأولى: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، ليكون إيمانه مُخْلَصاً، أما معنى قول إبراهيم: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾، أي ليزول عن قلبي التفكير في كيفية الإحياء؛ لأني إذا شاهدتُها سكن قلبي في التصورات الْمُتَخيَّلة للكيفية، ويقنت عندي بالتصوير المشاهد.

ثناء الله تعالى، وثناء رسوله محمد ﷺ على إبراهيم الخليل:

قال الله تعالى مُثْنِياً على إبراهيم: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة ١٢٤].

قال العلماء: المعنى: اذكر يا محمد لهؤلاء - بني إسرائيل - كيف وفّى إبراهيمُ بكل ما كُلِّفَ به، لعلهم يتخذونه قدوةً فيقبلون الحق، ويتركون الباطل، أي يا أيها اليهود اذكروا بلاء الله لأبيكم إبراهيم فأتمَّ كلَّ ما اختبره به، فلماذا لا تثبتون على الحق كثباته عليه السلام.

قال القاسمي: وهذه الكلمات هي:

- ابتلاؤه بالإسلام: فأسلم لرب العالمين.
- ابتلاه بالهجرة: فهاجر.
- ابتلاه بالنار: فصبر عليها.
- ابتلاه بذبح ولده: فسلَّمَ وأجاب.

قال ابن عباس: ما ابتلى الله أحداً بهذه الكلمات، فقام بها كلها، إلا إبراهيمُ، فكتبَ الله له البراءة، فقال الله مُثنياً عليه: ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧ ﴾ **وهي الصفة الأولى: الإتمام هي التوفيةُ.**

قال أبو بكر الوراق: لما قال له ربه: ﴿ أَسۡلِمۡۖ ﴾، قال: ﴿ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١ ﴾، فابتلاه بعدها في ماله وجسده وولده، فوجده وافياً بذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧ ﴾ [النجم].

قال الحسن: عَمِلَ بما أُمِرَ به، وبلَّغ رسالاتِ ربه، وقد أثنى عليه الله عز وجل كذلك في أكثر من موضع، فقال في [سورة النحل]: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ ﴾ **وهذه الصفة الثانية والثالثة.**

قال ابن كثير: قانتاً: أي خاشعاً مطيعاً في جميع حالاته. وحنيفاً: أي مخلصاً على بصيرةٍ.

قال القرطبي: رجلٌ أمةٌ: أي جامعٌ لفضائل الخير، ويُقال: رجلٌ أمةٌ: إذا كان يُقتدى به في الخير.

وقد ورد عن مالك قال: بلغني أنَّ عبد الله بن مسعود قال: يرحم الله معاذاً، كان أمةً قانتاً، فقيل له: يا ابن مسعود: إنما وصف الله إبراهيم عليه السلام بذلك، فقال ابن مسعود: إنَّ الأمة هو الذي يُعلّم الناس الخير، وإنَّ القانتَ هو المطيع، ثم قال الله تعالى مواصلاً ثناءه على إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢ ﴾ [النحل].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ ﴾: ظاهراً وباطناً، قال البروسوي: وفيه ردٌّ على كفار قريش الذين قالوا: نحن على ملّة أبينا إبراهيم،

لذلك ورد في البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ، لما دخل في البيت الحرام ورأى الصورَ في الكعبة، لم يدخل حتى مُحِيَتْ، وكانت هذه الصورُ تُمثِّل: إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام، فقال ﷺ: «قاتلهم الله، إن استقسما بالأزلام قطُّ»، وفي ذلك ردٌّ على اليهود والنصارى الذين يدعون أنهم على ملة إبراهيم.

والصفة الرابعة: قال تعالى: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾، وهي التي وصف الله بها إبراهيم أي صارفاً نِعَمَ الله فيما يُرضي الله تعالى.

والصفة الخامسة: ﴿ ٱجْتَبَىٰهُ ﴾: أي اصطفاه ربُّه لرسالته وخُلَّته لأنه أحبَّ الله تعالى أكثر من كل شيء، فتخلل حُبُّ الله قلبَه فلم يبق لغيره في قلبه مكانٌ، فكان خليلَ الرحمن.

والصفة السادسة: ﴿ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، الذي هو دين الحق والإسلامُ، ثم **تأتي الصفة السابعة**: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾، وهي الثناء الحسن والذكر الجميل من جميع أهل الأديان الإلهية الأصل.

والثامنة: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾، الذين قال الله فيهم في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلب بشر».

قال صاحب «أيسر التفاسير»: وهي منزلة من أشرف المنازل وأسماها، ثم انتبه معي - يا عبد الله - إلى ختام الثناء من الله على إبراهيم حين خاطب محمداً ﷺ على جلالة قدره عليه الصلاة والسلام، ورفعةِ مكانته أنْ يتبعَ ملة إبراهيم حنيفاً فقال: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النحل]، هذا هو إبراهيم فمن أحقُّ بالنسبة إليه، المشركون؟ لا، اليهود؟ لا، النصارى؟ لا، المسلمون وحدهم هم أحقُّ

بالنسبة إليه، كما يقول صاحب «أيسر التفاسير».

وقد ثبت في صحيح مسلم، أن النبي ﷺ قال: «سأقوم مقاماً يرغب الخلقُ كلهم حتى إبراهيم»، ففي هذا الحديث ثناءٌ من نبيِّنا ﷺ، ومدحٌ لإبراهيم، وأنه أفضل الخلائق بعده في الدنيا، ويوم يُكشف عن ساق.

وفي البخاري من حديث ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يُعَوِّذُ الحسن والحسين فيقول: «أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»، ثم يقول لهما ﷺ: «إن أباكما كان يُعَوِّذُ بهما إسماعيل وإسحق».

وفي مسند أحمد من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: «إن الكريم ابن الكريم، ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن».

قصر إبراهيم في الجنة:

أخرج البزار من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة قصراً من لؤلؤة ليس فيه فَصْمٌ، ولا وَهْيٌ، أعده الله تعالى لخليله إبراهيم عليه السلام نُزُلاً».

قال ابن كثير: لولا عِلَّةُ الوقفِ فيه، لكان على شرط الشيخين، والموقوف: ما أُضيفَ للصحابي من قولٍ أو فعل أو تقرير.

صفة إبراهيم عليه السلام:

أخرج البخاري من حديث ابن عباس قال: قال ﷺ: «أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم»، يعني ﷺ نفسه.

وفاته عليه الصلاة والسلام:

قال المؤرخون: ماتت زوجه سارة قبله بقرية يُقال لها «حبرون» وهي الخليل اليوم، من أرض فلسطين، وكان عمرها «١٢٧» مائة وسبعة وعشرون عاماً، فحزن عليها ورثاها، كما ذكر أهل الكتاب، واشترى مغارة من رجل من بني «حيْث» اسمه «عقرون بن صخر» بأربعمائة مثقال، ودفن فيها زوجه سارة، ثم مرض عليه السلام، مات وعمره «١٧٥» سنة، ودفن في المغارة نفسها في حبرون إلى جانب زوجه سارة.

وثبت في الصحيح، أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، اختتن وهو ابن ثمانين سنة، ولم يذكر كم عاش، وإنما ذكر عمره المؤرخون وأهل الكتاب.

وقال الواسطي: إنَّ سعيد بن المسيب روى عن أبي هريرة قوله: «إن إبراهيم أول من تَسَرْوَلَ، وأول من فرَقَ، وأول من استحدَّ، وأول من اختتن، وأول من قرى الضيف، وأول من شابَ».

قال ابن كثير: وهذا موقوف له حكم المرفوع.

وفي رواية عن سعيد بن المسيب قال: كان إبراهيم أول من استضاف، وأول من اختتن، وأول من قَصَّ الشارب، وأول من رأى الشيب، فقال: يا رب ما هذا؟ فقال الله تعالى: وقار، فقال إبراهيم: يا رب زِدْني وقاراً – وهذا الأثر رواه الإمام مالك في الموطأ –، وأول من استحدّ – حلق العانة –، وأول من لبسَ السراويل، وأول من فرقَ – ذكره ابن كثير في «البداية والنهاية»[1] .

قال ابن كثير: وقبر إبراهيم، وقبر ولده إسحق، وقبر يعقوب في المربعة التي بناها سليمان بن داوود ببلد «حبرون» وهي بلد «الخليل» اليوم، وتُعرف

(١) ج ١ ص ١٧٥ .

المغارة بمغارة «المكفيلة».

وحبرون: القرية التي دُفن فيها إبراهيم، كما قال صاحب «معجم البلدان».

وقد أوحى الله إلى سليمان بن داوود «أنْ ابنِ على قبر خليلي حَيْراً»، فبنى الحيرَ فوق المغارة.

قال ابن كثير: وهذا - أي كون إبراهيم مدفون في الخليل - متلقّىً بالتواتر أمةً بعد أمةٍ، وجيلاً بعد جيل، ومن زمن بني إسرائيل أن قبره عليه السلام بالمربعة تحقيقاً، ثم يقول ابن كثير: فينبغي أن تراعى تلك المحلةُ، وأن تُجلَّ أن يُداس على أرجائها خشية أن يكون قبر الخليل، أو أحد أولاده تحت أرجائها. - «البداية و النهاية»[1] .

وقد روى ابن عساكر بسنده إلى وهب، أنه وُجِدَ في المقبرة عند إبراهيم حجر كُتِبَ عليه:

أَلْهــى جَـهـولاً أملُـه   يـمـوتُ مـن جَـا أجلُه
ومـن دنـا مـن حتفه   لم تُـغـنِ عنـه حِيلُـه
كـيـف يـبـقـى آخـرٌ   قـد مـاتَ عـنـه أولـه
والمـرءُ لا يصحبه   في الـقـبر إلا عمله

أولاده وزوجاته:

قال المؤرخون: تزوج إبراهيم أربع نساء، وخَلَّفَ ثلاثة عشر ولداً: «سارة» ولدت إسحق، «هاجر» وهي أم إسماعيل، دفنت في الحِجر، ثم

---

(١) ج ١ ص ١٧٥ .

«قنطورا» من فلسطين، جاءت له بستة أولاد: مدان، مدين، يقشان، زمران، شوخ، نشق، ثم تزوج امرأة من مكة اسمها «حجون بنت أهيب»، فولدت له خمسة: كيسان، سورج، أهيم، لوطان، نافس.

كان إسماعيل بكره فأنزله أرض الحجاز.

ثم أنزل إسحق بالشام، وفرَّق باقي أولاده في البلاد، فقالوا لأبيهم: يا أبانا، أنزلت إسحق معك، وإسماعيل بقربك، وأمرتنا بالغربة؟!! فقال: بذلك أُمرتُ.

ثم علمهم أسماء الله الحسنى، فكانوا يدعون ويستسقون بها، ومات وعمره «١٧٥ سنة».

وكان ذلك سنة ٢٧١٩ قبل هجرة النبي ﷺ.

يوسف

عليه الصلاة والسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

يوسف عليه الصلاة والسلام

الحمد لله، الحمد لله أحسن الخالقين، وأكرم الرازقين، سبحانه وتعالى حَفِظَ يوسف لما مَلَكَ هواه في ميدان السابقين، واعترف إخوته له بالفضل حين قالوا: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يوسف]، وصلى الله وسلم على محمد عبده ورسوله أشرف الذاكرين، وعلى آله وصحبه الغُرِّ الميامين، وعلى من دعا بدعوته إلى يوم الدين، أما بعد:

فيوسف عليه السلام من الرُسل الذين يجب الإيمان بهم تفضيلاً، هو يوسف بن يعقوب - ويعقوب هو إسرائيل - بن إسحق بن إبراهيم، وقد ثَبَتَ في الصحيح أنَّ النبي ﷺ أثنى عليه فقال: «إنَّ الكريمَ ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم»، صلوات الله عليهم جميعاً، وقال ﷺ: «إنَّ الكريمَ ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، يوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله، ابن إسحق نبي الله، ابن إبراهيم خليل الله».

فهو من ذُرية إبراهيم، ومن سُلالة النبوة، ومن أشهر أنبياء بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [غافر ٣٤].

ويعقوب: هو إسرائيل، الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل، وسُمِّيَ «بإسرائيل»؛ لأنه ارتحل من فلسطين إلى العراق بناءً على نصيحة أمه بأن يتزوج من بنات خاله في العراق، وألا يتزوج من بنات كنعان، ونتيجة خلافٍ مع أخيه «عيصو»، واسم خاله «لابان بن بتويل بن ناهور»، فكان في سفره إلى العراق يسير في الليل، ويستريح في النهار، فوصل إلى خاله، وأقام عنده

مُدَّةً، ثم رجع، وكان سيره بالليل كذلك، ويستريح في النهار، ولما كان أول من سار بالليل سُمِّيَ عند الله «إسرائيل».

قال المؤرخون: وفي أثناء سفره إلى خاله في العراق، وبعد سيرٍ قليل نام في الطريق، ووضع تحت رأسه حجراً، فرأى في نومه ذلك مِعراجاً منصوباً إلى السماء، والملائكة يصعدون وينزلون، وخاطبه الرب بقوله: «إني سأُبارك عليك، وأُكثِرُ ذُرِّيتك، وأجعلُ لك هذه الأرض، ولِعَقِبكَ من بعدك»، فلما استيقظ من نومه، فَرِحَ بهذه الرؤيا، ونَذَرَ لئن رجع إلى أهله سالماً ليبنِيَنَّ في هذا الموضع معبداً لله عز وجل، وأن يجعل عُشْرَ ما يرزقه الله تعالى صدقة، ثم عَمَدَ إلى حجر ثابت في المكان وصَبَغَهُ بدُهنٍ، وعَلَّمَهُ كي يتعرف عليه فيما بعد عند رجوعه، وسُمِّيَ ذلك الموضع «بيت إيل»، أي بيت الله، وهو موضع بيت المقدس اليوم حيث بناه يعقوب بعد عودته من العراق.

وصول يعقوب إلى حرَّان وزواجه:

وصل يعقوب إلى حرَّان، وهي مدينة على طريق الموصل والشام، والروم.

قال صاحب «معجم البلدان»: سُمِّيت هذه المدينة باسم «هاران» أخي إبراهيم عليه السلام، لأنه أولُ مَنْ بناها، فعُرِّبت فقيل لها «حرَّان»، من الحرّ، وقد حدَّثَ «ابن النبيه»، الشاعر المصري قال: مررتُ على الملك الأشرف بن العادل بن أيوب في يوم شديد الحر بظاهر حرَّان على مقابرها ولها أهدافٌ طِوال على حجارة كأنها الرجالُ القيام، فقال لي الملك الأشرف: بأي شيء تُشبّه هذه؟ فقُلتُ ارتجالاً:

هواء حرانِكم غليظٌ مُكَدِّرٌ مُفْرطُ الحرارة
كأنَّ أجداثها جحيمٌ وقودُها الناسُ والحجارة

قال المؤرخون: وصل يعقوب إلى حرَّان، وهناك تزوج من ابنة خاله الكُبرى «ليّا»، وولدت له ستة أولاد ذكور، وبنتاً سمَّتها «دينا»، ثم تزوج ابنة خاله الصُغرى «راحيل» أخت «ليّا»، وولدت له بعد عقمِ سنواتٍ يوسف الصديق عليه السلام في حرَّان، ثم ولدت له «بنيامين» في أرض فلسطين بعد رجوعه إليها من حرَّان.

بعد انقضاء سنوات طويلة في حرَّان أوحى الله إلى يعقوب أن يعود إلى بلاد أبيه وقومه، فاستأذن خالهُ بالعودة إلى أرض فلسطين مع أولاده الأحَدَ عشر، حيث لم يكن بنيامين قد وُلِدَ، فأذِنَ له خالهُ وأعطاه الكثير من الغنم، فعاد يعقوب إلى منزل أبيه، وأثناء عودته بأهله وأمواله مرَّ على «أورشليم» – قرية شخيم – فاشترى فيها مزرعة من «شخيم بن جمور» بمائة شاة، وضربَ هُناك خيمةً، وبنى مذبحاً، ثم بنى بيتاً للعبادة بأمر الله عز وجل وهو: بيت المقدس اليوم، الذي جَدَّدَ بناءه بعد ذلك سليمان بن داوود، وكان ذلك في المكان الذي مَرَّ عليه حين قصدَ حرَّان عند الصخرة التي دهنها بالدُّهن الأحمر – علَّمها –.

ثم جاء يعقوب إلى أبيه إسحق، فأقامَ عنده في قرية «حبرون» من أرض كنعان، حيث كان يسكن إبراهيم عليه السلام، ثم مَرِضَ إسحق ومات عن مائة وثمانين سنة، ودُفِنَ مع أبيه إبراهيم في المغارة التي اشتراها.

ويوسف: اسمٌ عبراني، ومعناه بالعربية: «زيادةُ، أو يزيدُ».

قال علماء اللغة: وفي الحقيقة، هذه ألفاظٌ عربية، ولكنَّ لغة العرب مُتسِعَةٌ قد تخفى على الأكابر، فقد خَفِيَ على ابن عباس معنى كلمة «فاطر»، ولهذا قال الشافعي: لا يُحيط باللغة إلا نبي.

وقد اختارت أمه «راحيل» هذا الاسم – يوسف –، لأنه تأخر حملُها بعد

الزواج سنوات، وحَزِنت حيث كانت ضرائِرُها يلدْن، فلما حملت بيوسف بعد سنين من الزواج واستجاب الله دُعاءها في طلب الولد سَمَّتْهُ «يوسف» وقالت: يزيدُني به ربي ولداً آخر، فجاء بعده بنيامين.

ومعنى بنيامين: الألم أو الوجع، لأنَّ أمه تألمت كثيراً عند وِلادته، ثم كانت الوفاة في مُدة النِفاس، فدفنها زوجها يعقوب في «أفراث»، وهي بيت لحم، مكان مهدِ عيسى عليه الصلاة والسلام.

وقد ذكر صاحب «الروض المعطار»، وصاحب «مُعجم البلدان»، أنه لما أسلم تميم الداري، وكان قبل إسلامه راهبَ أهلِ عصره، وعابِدَ أهلِ فلسطين، أتى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله: إنَّ الله مُظهِرُكَ على الأرض كُلِّها، فهب لي قريتي من بيت لحم، قال ﷺ: «هي لك»، وكتبَ له بها، فلما جاءت خلافة عمر بن الخطاب، وفتحَ الشام، جاء «تميم» بكتاب رسول الله ﷺ، فقال له عمر: أنا شاهِدُكَ، فأعطاهُ إيّاها، فهي بيد أهلِ بيته إلى اليوم، وكان «تميم الداري» عابداً قبل إسلامه، وعابداً بعد أن أَسلم، كان كثير التهجد، قام ليلة بآية واحدة حتى أصبح وهو قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية]، واسم القرية التي أعطاها عمربن الخطاب لتميم الداري «عينون» وهي قريبة من بيت المقدس، ومات تميم في قرية من فلسطين، وقبره فيها، واسمها: «بيت جبرين».

قال المؤرخون: لما ماتت «راحيل» أم يوسف، وأم بنيامين، وضع يعقوب على قبرها حجراً، وهي الحجارة المعروفة بقبر راحيل إلى اليوم.

وقد ذكر الدكتور «الصباحي عوض الله» في كتابه، أنَّ جبريل بَشَّرَ يعقوب بولادة يوسف، فلما رآه يعقوب فرح به، وكان لا يملُّ النظر إليه، وذبحَ عند

ولادته ألف رأس من الغنم، ووزعها على الفقراء قُرباناً لله تعالى.

قصة يوسف في القرآن الكريم:

سُمِّيت سورة يوسف باسمه عليه السلام لأنَّ معظم قصته مذكورٌ فيها، ومُعظم ما فيها قصتُهُ، وإذا أمعنتَ النظر في سورة يوسف تُلاحظ أمرين:

الأول: أنها جاءت بعد سورة هود، التي كان في خِتامها قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ - السورة - ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود]، وقصة يوسف من أنباء الرسل.

الثاني: أنَّ قصته في القرآن لم تأتِ مُكررةً كما كُرِّرت قصص غيره من الأنبياء.

هنا يأتي سؤال: لماذا لم تُكرر قصة يوسف كغيرها؟

والجواب كما قال القرطبي: إنَّ أقاصيصَ الأنبياء في القرآن الكريم جاءت مُكررةً بمعنى واحد، ولكن في وجوه مُختلفة، وبألفاظٍ مُتباينةٍ، وذكر الله قصة يوسف ولم يُكررها، فلم يقدر مُخالفٌ على مُعارضة المُكرر ولا على مُعارضة غير المُكرر، والإعجازُ واضح للمُتأملِ في النوعين، وصدق الله العظيم: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِۗ ﴾ [يوسف ١١١].

نزول سورة يوسف:

هي سورة مكية، نزلت في مكة، وهذا هو الصحيح الذي لا يُلتفت لغيره، نزلت بعد سورة هود، وقبل سورة الحِجر، وهي السورة الثالثة والخمسون في ترتيب نزول السُّوَر على قول الجمهور.

وقد ذكر ابن حجر في كتاب «الإصابة» في ترجمة رافع بن مالك الزُرقي:

أنَّ أبا رافع بن مالك أولُ من قَدِمَ المدينة بسورة «يوسف» بعد أن بايعَ النبي ﷺ.

وسبب نُزولها: أنَّ كُفار مكة أمَرَتْهم اليهود أن يسألوا رسول الله ﷺ عن السبب الذي أحَلَّ بني إسرائيل بمصر، فنزلت.

وورد عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قوله: أنَّ القرآن أُنزل على رسول الله ﷺ زماناً، فتلاهُ عليهم، فقالوا: يا رسول الله: لو قصصتَ علينا، فنزلت، كما ذكر ذلك صاحب تفسير «البحر المحيط».

وذكر الآلوسي وغيره أنها نزلت لتسلية النبي ﷺ، ولتخفيف آلامه، فقد نزلت سورة هود قبلها وفيها قصص الأنبياء وما لاقوه، ثم سورة يوسف وما لاقاهُ من أذى الأقارب والأباعد، فكأنَّ الله عز وجل يقول لنبيه ﷺ: «لا تحزن يا محمد من إيذاء قومك، ومن الضيق الذي تشعر به، فإنَّ بعد الشِدة فرجاً، وبعد العُسر يُسراً، انظر إلى أخيك يوسف كم من البلايا عَرضتْ له، وكم من الشدائد والمِحن نزل به: محنةُ الحسد، ومحنةُ رميه في الجُب، ومحنةُ تعلُّقِ المرأة به، ثم محنَةُ السجن، ثم انظر إليه بعد الفرج، نُقِلَ من السجن إلى القصر وأصبحَ عزيز مصر، ومَلَّكَهُ الله خزائنها، فكان السيدَ المُطاع، والعزيز المُكرم، وهكذا أفعل بأوليائي، ومن صَبرَ على بلائي».

قال العلماء: وقد كان نُزولُها على رسول الله ﷺ في الفترة التي فَقَدَ فيها رسول الله ﷺ زوجه خديجة، وعمه أبا طالب، وبوفاتِهما لاقى ﷺ ما لاقاهُ من صنوف الشِّدَّةِ والبلاء، فكان في نُزولها تسلية له ﷺ لما فيها من الفوائد والعِبر، ولذلك قال ابن القيم: إنَّ في قصة يوسف أكثر من ألف فائدة، ولذلك كانت جديرة بقول الله عز وجل: ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾

[يوسف].

قوله تعالى: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾: أي قَصَصُ القرآن أحسنُ من قَصَصِ غيره من جهة حُسْنِ نظمه، وإعجاز أُسلوبه، وبما يتضمنه من العِبَرِ والحِكَم، وسُمِّيت الحِكايةُ قَصَصاً؛ لأنَّ الذي يَقُصُّ الحديث يذكر وقائع القِصَةِ شيئاً فشيئاً.

وقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾: والسبب في كون القصة أحسن القَصَصِ، لأنها واردةٌ من العليم الحكيم فهو عز وجل يوحي ما يَعلم أنه أحسنُ نفعاً للسامعين في أبدع الألفاظ والتراكيب، فيحصل منه غذاءٌ للعقل والروح، وابتهاجُ النفس والذوق مما لا تأتي به عقول البشر، كما قال ابن عاشور عليه رحمة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾: أي لأنك قبل الوحي لم يسبق لك عِلْمٌ بها، ولا طَرَقَ سمعكَ طرفٌ منها، ولم تخطر ببالك، لأنك أُمِّيٌّ لا تقرأ ولا تكتب، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾.

قال العلماء: والتعبير بالغفلة عن عدم العلم إجلالٌ لرسول الله ﷺ، أي أنك يا محمد لم تكن ممن يعرفون قصة يوسف؛ لأنك لم تجلس إلى مُعلم يرويها لك، ولم تكن تقرأ فتُطالِعَها في كتاب، فهي ضربٌ من الإعجاز أن يُنزَّلَ عليك هذا البيانُ للقصة بتفاصيلها كدليل عَمَلي على أنَّ مَنْ عَلَّمَكَ ذلك هو الله بالوحي.

هنا يأتي سؤال: لماذا كانت قصة يوسف أحسَنَ القَصَصِ؟

قال الرازي في تفسيره: هذه القصةُ بالغةٌ حَدَّ الإعجاز، فأنت ترى هذه

القصةَ قد وردت في كتب التاريخ بشكلٍ لا يُشبه ما ذكره الله عز وجل في كتابه.

ثم قال رحمه الله تعالى: وفيها من الفوائد والعجائب والعِبَرِ الشيء الكثير، ومن ذلك: أنه لا رادَّ لقضاء الله عز وجل إذا أرادَ أمراً أو خيراً لأحد.

ودلت على أنَّ الحسد سببٌ للخذلان والنُقصان.

ودلت على أنَّ الصبرَ مفتاح الفرج كما في حق يعقوب ويوسف.

وقال الآلوسي رحمه الله تعالى: هي أحسنُ القَصَصِ لاشتمالها على: حاسدٍ ومحسود، مالك ومملوك، وعاشق ومعشوق، وشاهد ومشهود، وحبس وإطلاق، وخصب وجدب، وذنب وعفو، وفراق ووصال، وسقم وصحة، وحِلٍّ وارتحال، وعزٍّ وذُلٍّ، وفيها أنَّ التدبير إنما يكون بالعقل، وبه يصلح أمْرُ المعاش.

وقال القرطبي: سُمِّيت هذه السورة أحسنَ القَصَصِ من بين سائر الأقاصيصِ: لِعَفوِ يوسف عن إخوته، وصبره على أذاهم، كما أنَّ فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة، والجن والإنس، والأنعام والطير، وسِيَرِ الملوك والعبيد، والتجارة، والرجال والنساء وحِيَلِهنَّ وكيدِهنَّ، ولأنَّ أشخاص القصة جميعاً انتهوا إلى السعادة، فقد قيل: إنَّ الملكَ أسلم على يد يوسف، والمرأة تابت وصَلَحتْ، وكذلك أبوه وإخوته ويوسف، فكان أمر الجميع إلى خير.

وقد أشار صاحب كتاب «أنبياء الله» إلى أنها كانت أحسن القَصَصِ لأنها: تمشي بخط واحد من البداية إلى النهاية، ويَشُدُّكَ فيها إحساسٌ عميق بقهر الله، ونفاذ أحكامه رُغم وقوفِ البشر ضدها، ولذلك لا عجبَ أنْ تجد

في ثنايا السورة والقصة قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف].

وتكلَّمَ صاحب كتاب «حياة يوسف» عن السبب في كونها أحسن القَصَصِ فقال: هي أحسن القَصَصِ لأنها مملوءةٌ بالعواطف: فيها أخطر عاطفة بشرية، عاطفة الحب: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ ﴾ [يوسف ٣٠].

ثم قال: لقد أوتي يوسفُ حُسْنَيَيْن: حُسْنَ الظاهر، وحُسْنَ الباطن، وافتُتِنَ النِسوةُ أولاً بالحُسنِ الظاهر، وغابَ عنهُنَّ الحُسنُ الباطن الذي أوتيه الأنبياء ومن على طريقهم، فلما تبيَّنَ لهُنَّ الجمالُ الباطني كان قولهُنَّ: ﴿ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴿٣١﴾ ﴾ [يوسف]، وأدركنَ أنَّ في الرجال جمالاً باطناً غير الذي يُركِّزْنَ عليه أبصارَهُنَّ، وهذه العاطفةُ تستهوي الناس.

ثم قال: في القصة: غرائزُ الحسد، كيف فعل الإخوةُ الأشقاءُ بأخٍ لهم من أبيهم، حسدٌ جعلهم يفكرون حتى بالقتل: ﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا ﴾ [يوسف ٩].

فيها عاطفة الأبوة العظيمة: ﴿ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ [يوسف ٨].

فيها خُلُقُ الصبر الجميل، تلمَسُهُ في قول يعقوب: ﴿ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف]. وقال: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يوسف].

فيها ظُلمَةُ الشهوة، والإقدام على المعصية: ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا

عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ ﴾ [يوسف ٢٣].

وفيها نور النبوة والعفة: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ ﴾ [يوسف].

فيها صورةٌ مؤلمة لعقوق الأبناء، ولمن هذا العقوق؟ لأبٍ هو نبيٌّ، قال تعالى حاكياً عنهم: ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨ ﴾ [يوسف]، وقولهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ٩٥ ﴾ [يوسف].

فيها تظهر معادن الأنبياء في قوله: ﴿ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ ﴾ [يوسف ٩٢]، وفي قوله: ﴿ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩ ﴾ [يوسف].

وفيها الخاتمة السعيدة لمن اتقى وصبر، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠ ﴾ [يوسف].

والخُلاصة: إنَّ قصة يوسف أحسنُ القَصَصِ كما ذكرنا، ولما فيها من سردٍ تاريخي مُعجب مُعجز، ولذلك سُمِّيت أحسنَ القَصَصِ، ومع ما تحتويه من آيات ودلائل على نبوةِ محمد ﷺ وصدقه، وأنَّ القرآن وحيٌ من الله، لأنه جاء بِعِلْمٍ في هذه السورة لا يعلَمُهُ إلا أحبار أهل الكتاب، دون علمه ﷺ بقراءةٍ ولا كتابة، وهذا من المُعجزات، ولذلك قال تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧ ﴾ [يوسف].

وقوله تعالى: ﴿ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾: أي لمن يسأل ولمن لا يسأل، وحَسُنَ الحذف لدلالة قوة الكلام عليه، كقوله تعالى: ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ ﴾ [النحل ٨١]: أي والقرَّ.

قال ابن عاشور: ومثلُ هذا التعبير: ﴿ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾، يُستعمل في

كلام العرب للتشويق والحثِّ على تَطَلُّبِ الخبر والقصةِ، كقول طُرفة:

سائِلوا عنّا الذي يَعرِفُنا بِقُوانا يومَ تَحلاقِ اللِّمَم

وكقول السموأل:

سلي إن جهلتِ الناسَ عنا وعنهُمُ فليسَ سواءً عالمٌ وجَهولُ

التمهيد لنبوة يوسف بالرؤيا الصادقة:

في يوم من الأيام، تنفَّسَ صُبْحُهُ، ورَفَّت الشمس بأجنحتها على الوجودِ، هَبَّ يوسف من نومه على حُلم عذب جميل، ثم أسرع إلى أبيه مُشرقَ الوجه، مُنْبَسِطَ الأسارير، قال: يا أبتِ، إني رأيتُ ليلة أمس رؤيا جميلة، ولكن هذه الرؤيا مع جمالها، أخافت يوسف لصِغره حيث رأى شيئاً لم يدرِ إلى ماذا يُشير، ولذلك قال النيسابوري: انتبه يوسف من منامه فزعاً، فالتزمه أبوه يعقوب وضمه إلى صدره، وقَبَّله بين عينيه وقال له: يا حبيب أبيه ماذا رأيتَ؟ قال يوسف: كأنَّ أبواب السماء قد فُتِحت، وأشرقَ منها نورٌ استنارت منه النجوم، وزخرت البحار، وسبَّحت الأسماك، ورأيتُ كأني أُلبِسْتُ رداءً أشرقت من نوره الأرض، وكأن مفاتيحها أُلقيت بين يدي، وعندها رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً انقضت من السماء، ومعها الشمس والقمر، فخَرّوا ساجدين بين يدي، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف].

ورأى هنا: المقصود منها: الرؤيا المنامية، ومصدَرُها: الرؤيا.

أما رأى البصرية فمصدرُها الرؤيةُ، ولذلك عابَ أهل اللغة على المتنبي قوله:

مضى الليلُ والفضلُ الذي لك لا يمضي ورؤياكَ أحلى في العيون من الغمضِ

ونُلاحظ في الآية تكرارُ فعل رأيتُ، بقوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾، والحقيقة أنَّ الفعل الثاني ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ ليس تكراراً، بل هو كلامٌ جديد مُستأنف، وُضِعَ لجواب مُقدَّر من يعقوب، كأنه قال له بعد قوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾، قال: كيف رأيتها؟ فقال يوسف مُجيباً له: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

والسجود هنا: سجود تكريم وتحية، كما سجدت الملائكة لآدم، ولم يتعرضْ أحد من المُفسرين لهذا السجود كيف هو، ولكن المَهايمي قال: لعله تحريكُ جانبها الأعلى إلى الأسفل.

قال ابن عباس وقتادة: الكواكب إخوته، والشمس والقمر أبواه أو خالته، لأنَّ أمه كانت قد ماتت، والخالة بمنزلة الأم.

أدركَ يعقوب أنها رؤيا صادقةٌ، تُظهر ما تَوَسَّمَهُ أبوه فيه من خير، فقال له: يا بني إنها بُشرى بما سَيَخُصُّك به الله من علم، وما سيحبوكَ به من نعمةٍ يُتِمها عليك كما أَتمَّها على أبويك إبراهيم وإسحق من قبل، ولكن يا بني لا تقصُصْ رؤياك على إخوتك؛ لأنك تعرف غيرتهم مما أَخُصّكَ به وأخاك بنيامين من رعايةٍ، ولو أنك حدَّثتهم برؤياك فإنك تُثيرُ كامِنَ كراهيتهم، فيُدبِّروا لك كيداً، وما أسرع أن يَشُدَّ الشيطان أزرهم، ويشحذ في الشر عزائمهم، يُشيرُ إلى هذا قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف].

كان يوسف إذ ذاك غُلاماً يافعاً تركته أمه «راحيل» وأخاه بنيامين وهما أشَدُّ ما يكونان حاجةً إلى صدرها العطوف، ولهذا آثرَهُما يعقوب بمزيد من حنانٍ وعطف، ثم جاءت هذه الرؤيا لتُضاعف هذا الحب والحنان، ولاحظَ

إخوةُ يوسف ذلك، رغمَ تَحَوُّطِ يعقوب في كتمان هذا الحب، ولكن الحبَّ لا يخفى كما قال الشاعر:

دلائل العِشقِ لا تخفى على أحدٍ   كحاملِ المسك لا يخلو من العَبَقِ

ونُحب هنا أن نتكلم بشيء مختصر عن الرؤى، فإنها أمرٌ يجهلُ أحواله الكثيرون.

قال القرطبي: هذه الآيةُ أصلٌ في ألّا تُقَصَّ الرؤيا إلا على شفيق أو ناصح، ولا تقُصَّها إلا على من يُحسن التأويل، ويُؤكد هذا حديث الترمذي المروي عن «أبي رُزين العُقيلي»، أنَّ النبي ﷺ قال: «الرؤيا جزء من أربعين جزءاً من النبوة، والرؤيا مُعلقةٌ برجل طائر ما لم يُحدِّثْ بها صاحبها، فإذا حدَّثَ بها وقعت، فلا تُحدثوا بها إلا عاقلاً أو مُحباً، أو ناصحا» والحديث حسن صحيح.

وسُئِلَ الإمام مالك: أيُعبر الرؤيا أيُّ أحد؟ فقال: أبالنبوة يُلعب، لا يُعَبِّرُ الرؤيا إلا من يُحسِنُها، فإن رأى خيراً أخبرَ به، وإن رأى مكروهاً فليقل خيراً أو ليصمت، قيل: فهل يُعبِّرُها على الخير، والأمر فيها على المكروه؟ فقال الإمام مالك: لا، ثم قال: الرؤيا جزء من النبوة، فلا يُتَلاعب بالنبوة.

وروى البخاري من حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يبقَ من النبوة إلا المُبشرات»، قالوا: وما المُبشرات يا رسول الله؟ قال: «الرؤيا الصالحة».

وقال القرطبي: الرؤيا الصالحة قد تكون مُبَشِّرةً، وقد تكون مُنْذِرَةً من قِبَلِ الله عز وجل لا تُسِرُّ رائيها، وإنما تكون رحمةً من الله بالمؤمن ليستَعِدَّ للبلاء قبل وقوعه، فإن أدرك تأوَّلها بنفسه، وإلا سأل عنها مَنْ له أهليةُ ذلك،

وقد رأى الإمام الشافعي وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حنبل تدل على أنه سيق في محنة، فكتب له الشافعي رحمه الله تعالى بذلك ليستعد لهذه المحنة، وهذا الابتلاء.

وفي البخاري من حديث أبي سلمة قال: لقد كنت أرى الرؤيا فَتُمرضُني، حتى سمعتُ أبا قتادة يقول: وأنا كنت أرى الرؤيا فَتُمرِضُني حتى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا الحسنةُ من الله، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يُحدِّث بها إلا من يُحب، وإذا رأى ما يكره فليتعوَّذْ بالله من شرها، وليتفُلْ ثلاث مرات ولا يُحدِّثْ بها أحداً فإنها لن تضره».

قال العلماء: جعل الله الاستعاذة منها مما يرفعُ أذاها؛ ولهذا قال أبو قتادة: إني كنت لأرى الرؤيا هي أثقل عليَّ من الجبل، فلما سمعتُ بهذا الحديث كنت لا أَعُدُّها شيئاً.

وعند الإمام مسلم في رواية عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهُها، فليبصق عن يساره ثلاثاً، وليتعوذ بالله من الشيطان ثلاثاً، ولْيتحول عن جنبه الذي كان عليه».

وفي حديث لأبي هريرة أنَّ النبي ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم ما يكره، فليقم فليُصلِّ».

قال العلماء: على الرائي أن يفعلَ الجميع، والصلاة تجمع كل هذا؛ لأنه من قام إلى الصلاة، تَحوَّلَ عن جنبه، وإذا توضأ وتمضمض تَفَلَ وبصق، وإذا صلى تَعوَّذ وتَضرَّع أن يكفيَهُ شرَّها، وهوفي حالٍ هي أقرب الأحوال إلى الإجابة، وذلك السَحَر من الليل.

قال الآلوسي: ولا نُدركُ وجه دفع التعوذِ والتفل شرَّ المكروه من الرؤيا،

وجعلهُ سبباً للسلامة، كما لا نُدرك كيف يدفع الله البلاء بالصدقة.

والحُكماء قالوا: إنَّ الرؤيا المخوفةَ الرديئةَ يظهر تعبيرُها عن قريب.

والرؤيا الجيدة المُبشرة يظهر تعبيرُها وتأويلُها بعد حين.

قالوا: والحِكمةُ من ذلك، أنَّ رحمة الله تقتضي ألا يحصل الإعلام بوصول الشر إلا عند قُرب وقوعه حتى يكون الهم والحزن قصير الأمد، وأما الإعلام بالخير فإنه يحصل مُتقدماً على ظهوره بزمن طويل حتى يكون السرور أطولَ وأتم.

وقد استخلص العلماء من هذه الآية حِكماً جميلة منها:

أنه يُباح أن يُحذّرَ المسلم أخاه المسلم ممن يخاف عليه، ولا يكون هذا التحذير داخلاً في معنى الغيبة لأنَّ يعقوب حذَّرَ يوسف أن يَقُصَّ رؤياه على إخوته خوفَ حسدهم له، كما فيها ما يدل على جواز ترك إظهار النِعمة عند من يُعرف منه الحسد.

قال بعض المفسرين اليمانيين: قال الحاكم: يجب في بعض الأحيان إخفاءُ فضيلةٍ تَحَرُّزاً من الحسود، وهذا يدخل في قولنا: «إنَّ الحسنَ إذا كان سبباً للقبيح قَبُحَ»، ومن ذلك قول زين العابدين:

إني لأكتُمُ من علمي جواهِرَهُ كي لا يرى الحقَّ ذو جهلٍ فَيَفْتَتِنا

قال العلماء: ونلمس في الآية أمرين واضحين:

أولاً: أدبُ يوسف عليه السلام مع أبيه حين خاطبه بلفظ: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ﴾، ففي هذا الخطاب إشارةٌ إلى طواعية يوسف وبرِّه لأبيه، وهو لا يزال في الثانية عشرة من عُمُرِهِ.

وثانياً: شَفَقَةُ الوالد ولهذا كان جوابه لولده بنفس الجو المليء بالرحمة والشفقة والعطف: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾.

فلفظَةُ: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾، أي يا صغيري، فَصَغَّرَهُ لصغر سنه، ولِعُذوبة المُصَغَّرِ ولا عجب، فحبُّ الصغير مركوزٌ في الفِطَرِ الإنسانية، فاستعملَ لغة التحبُّبِ وهي التصغير، وكان يعقوب يُحب يوسف وبنيامين لصِغَرِهما، ولموت أمِّهما، ولِما شاهد من مخايل النبوة في يوسف، وهذا السبب أهم من الصِغَرِ، وإن كان الصِغَرُ من أسباب محبة الأبوين لولدهما الصغير، فقد قيل لابنة الحسن: أيُّ بنيك أحبُّ إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبرَ، والمريض حتى يشفى، والمُسافر حتى يعودَ، ورحم الله الشيخ الجَزيري حين صَوَّرَ محبةَ الصغير في قصيدة أرسلها إلى أولاده وهو في السجن، حيث كان وزيراً فسُجن، واسمه «أبو مروان عبد الملك بن إدريس»، فقال في رسالته:

وصغيرُكم عبد العزيز فإنني ... أطوي لِفُرقَتِهِ جوىً لم يَصْغُرِ
ذاك المُقدَّمُ في الفؤاد وإنْ غدا ... كفؤاً لكم في المُنتمى والعُنصُرِ
إنَّ البنانَ الخمسَ أكفاءٌ معاً ... والحُلْيُ دون جميعِها للخُنصَرِ
إذا الفتى فقد الشبابَ سما له ... حب البنينَ ولا كحُبِّ الأصغَرِ

قد يقول قائل: ماذا أدرك يعقوب من الرؤيا حتى أَمَرَهُ بكتمانها؟

والجواب: أنَّ يعقوب – وهو نبي الله – رأى فيها ما يدل على أنَّ يوسف سيُمكّن له في الأرض، هذا من جهة المُلك والسُلطان، أما من جهة جوهر الرؤيا فقد دلت على أنَّ يوسف هو المُرشح ليحمل ميراث النبوة: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف]، ومعنى ذلك أن يوسف قد اجتمع له في

شخصيته، جمال الظاهر، فقد أُعطِيَ شطر الحُسنِ، وجمال الباطن بالنبوة المُرتقبة، وأيُّ جمال بعد جمال النبوة خَلْقاً وخُلُقاً، فيوسف طفل ظهرت فيه روعة الامتياز، اختصه الله بشيء، وصَنَعَهُ على عينه، طفلٌ كان طاهراً لم يرتكب جريمة، ولكن الحاسدين يرونَ مُجرَّد النِعْمَةِ على غيرهم جريمة، وأدرك يعقوب هذا، ولذلك قال لولده يوسف ناصحاً: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ [يوسف ٥].

ثم إنَّ يعقوب يعلم أنَّ العداوة قائمة أصلاً بين الشيطان والإنسان، وأنَّ الشيطان يجتهد ليوقع العبد في المعصية؛ ولذلك قال يعقوب كما ذكر ربُّنا في السورة: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾، أي ظاهِرُ العداوة، فسوف يجتهد في الوسوسة لإخوتك ليعملوا على إيذائك وضُرِّكَ.

وقد نقل الغرناطي أنَّ يعقوب بعد أن رأى يوسف تلك الرؤيا، كان يَضُمُّ يوسف إلى صدره كل ساعة، ولا يصبر عليه، وكأنَّ قلبه حدَّثه بقرب الفِراق.

كيف عَلِمَ إخوة يوسف بالرؤيا:

ذكر صاحب كتاب «حياة الأنبياء»، كما ذكر الثعلبي أنَّ زوجة يعقوب كانت تسمعُ الرؤيا، فأوصاها الزوج أن تكتم ذلك وألا تُخبِرَ أحداً بها ولو كان أولادها، ولكنَّ صدرها لم يسع هذا السر، فلما جاء أولادها مساءً من مراعيهم أخبرتهم.

قال النيسابوري: فانتفخت أوداجهم، واقشعرت جلودهم غضباً من يوسف، وقالوا لأمهم، ما عَنَى بالشمس إلا الوالد، ولا بالقمر إلا أنت، وبالكواكب إلا نحن، إن ابن راحيل يُريد أن يتملَّكَ علينا فيقول: أنتم عبيدي، وأنا سيدكم؛ ولهذا قال العلماء: «لا تأمنَنَّ قارئاً على صحيفة، ولا رجلاً على امرأة، ولا امرأةً على سر».

ولكن ما الذي جعلهم يغضبون بسرعة وهي رؤيا منامية؟

والجواب: إنَّ الذي دفعهم إلى هذا الغضب كونُ يوسف قد رأى قبلها رؤيا ضايقتهم ولكن سكتوا عنها، فلما جاءت الرؤيا الثانية انفجر غضبُهم، وقد ذكر أبو حيان الأندلسي الغرناطي صاحب «تفسير البحر المحيط»، هذه الرؤيا مُختصرة فقال: رأى يوسف وهو إذ ذاك صبي ابن سبع أنَّ إحدى عشرة عصاً طِوالاً غُرست في الأرض على هيئة الدارة، وإذا عصاً صغيرةٌ تَثِبُ عليها وتقتلعُها وتغلِبُها، وفي رواية أُخرى لهذه الرؤيا، أنَّ عصا يوسف كانت مغروسةً في وسط الدارةِ، فأثمرت عصاه وتدلت أغصانٌ منها ولم تُثمر بقيةُ العصيّ، ثم هبت ريحٌ فاقتلعت عِصِيَّ إخوته من أُصولها وألقتها في البحر وثَبَتَ غُصن يوسف في الأرض، فلما قام يوسف قَصَّ رؤياه على الجميع ومنهم إخوته فقالوا: عجباً يا ابن راحيل ! فشقَّ عليهم وحسدوه بعض الحسد، فلما رأى الرؤيا الثانية ووصلتهم انفجرَ غضبُهم وقالوا: إن ابن راحيل يُريد أن يتمَلَّكَ علينا، وما رضيَ أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه كما مرَّ معنا، وعندها برزَ حسدُهم، وظهرت غيرتُهم، حيث دفعهم ذلك إلى سوء الأدب مع والدهم وتقرأ ذلك في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ [يوسف].

الحسد والمؤامرة:

اجتمع ليوسف الرؤيا الأولى التي أزعجتهم، ثم الرؤيا الثانية التي أغضبتهم، ثم جاءت زيادة محبة الوالد ليوسف وأخيه، فَحَمَلَهم ذلك على الحسد والتآمُرِ، لأنهم تأذوا من هذا الحب للصغيرين وهم كبار يقومون بمصالح الأُسرة، ثم هم عُصبَةٌ أقوياء يدفعون المفاسِدَ، ولذلك خطَّؤوا

أباهم في هذا التفضيل فقالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾، أي هو مُخطئ قد سار في غير الطريق الصحيح لتفضيله المَفضولَ على الأفضل، ولإيثاره الأخوين في المحبة على الباقي.

قال القرطبي: لم يقصِدوا ضلال الدين في قولهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾، إذ لو أرادوا ذلك لكانوا كُفاراً وإنما أرادوا أنه لا يُحسن التدبير، وهكذا حَمَلَهم الحسد على اتهام والدهم بالخطأ في الرأي، والحيفِ في المحبة، وقد سُئِلَ الحسن البصري: أيُحسدُ المؤمن؟ فقال للسائل: أنسيتَ حسدَ أولاد يعقوب، ولذلك قيل في الأمثال: «الأب جلابٌ، والأخُ سلابٌ»، ثم جلسوا للمُؤامرة سراً، واجتمعوا ليُقرروا كيف يكون الخلاص من يوسف، عرضَ بعضهم فكرة القتل لأنه أحسم للأمر، وعرض آخرون فكرة طرحهِ في أرضٍ بعيدة عن أبيه، وقالوا: لنرى بعد ذلك ما يكون من أحلامه، قالوا ذلك سُخريةً واستهزاءً، قال تعالى: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ [يوسف].

ونُلاحظ في الآية أنَّ كلمة ﴿أَرْضًا﴾ جاءت مُنكَّرَةً، والمعنى أنها أرضٌ مجهولة بعيدة عن العِمران لا يهتدي فيها العودة إلى أبيه، فيهلِكَ.

وما أجملَ قول صاحب كتاب تفسير «روح البيان»، البروسوي المُتوفى سنة ١١٣٧ هـ حين يقول في هذه الآية: وفيه - أي في التغريب - إشارةٌ إلى أنَّ التغريبَ يُساوي القتل، ثم يقول رحمه الله تعالى: فسلاطين الزمان كأنهم قاتلون العلماء لا سِيَّما المشايخ منهم بتغريبهم وإقصائهم إلى البلاد البعيدة، وتفريقهم من أولادهم وتلامذتهم، وذلك من غير سبب موجب غالباً، ثم يقول: أصلحنا الله وإياهم.

ويقول الآلوسي في تفسيره المُسمى «روح المعاني» في هذه الآية: اقتلوه،

أو غَرِّبوه، فإنَّ التغريبَ كالقتل في حصول الُمراد مع سلامة الإثم من القتل، ثم قال رحمه الله تعالى: ولعمري لقد ذكروا أمرين مُرَّين، فإنَّ الغُربَةَ كُربة أيَّةُ كُربة، وما أحسنَ قول القائل:

حَسَّنُوا القول وقالوا غُرْبَةً　　　إنما الغُربَةُ للأحرارِ ذبْحُ

قال الرازي يعزو ما ظهر منهم من مُقترحات سيئة إلى الحسد فقال: والحسد من أُمَّهات الكبائر، إذ أقدموا على الكذب، وعلى تضييعِ أخٍ صالح، وتركوا الأبَ في حُزن مُستمر لحسَدهم.

قال ابن إسحق كما ذكر القاسمي في تفسيره: لقد اجتمعوا على أمرٍ عظيم من قطيعة الرحِم، وعقوق الوالد، وقِلَّةِ الرأفة بالصغير، الذي لا ذنبَ له، وبالشيخ الكبير الفاني ذي الفضل والحق والحُرمة، والده، ثم بيَّنوا العِلَّةَ في إقدامهم على هذا العمل بقولهم: ﴿ يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴾، أي إذا فَقَدَ والِدُنا يوسف مالَ بالمحبة إلينا، لخُلوِّ الديار ممن يشغله عنكم، أو يُشاركَكم في عطفه وحُبِّه، وذِكرُ الوجه هنا لتصوير معنى الإقبال عليهم، لأنَّ الرجل إذا أقبل على الشيء أقبلَ بوجهه؛ لأنَّ الوجه هو الذي تَتِمُّ به المواجهةُ والابتسام والحنان، وهو ما تظهر عليه الانفعالاتُ، وهذا كقول "نعامة" حين أحبَّتهُ أمه بعد أن قُتِلَ إخوته، وكانت لا تُحبه لفعله فقال: "الشكلُ أرامَها" أي عَطَفَها عليَّ.

وقولهم: ﴿ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴾: أي بعد الذنب، أو بعد إنهاء أمر يوسف بقتلٍ أو طرحٍ.

﴿ صَٰلِحِينَ ﴾ أي: تائبين إلى الله عما جنيتُم، فيكون صلاحُكم فداءً عن معصية قتله، أو طرحه، ومن الممكن أن يكونوا قد قصدوا بالصلاح، صلاحُ أُمور دنياهم بميلِ وجهِ أبيهم إليهم، والأول أرجح لأنهم قصدوا

أنهم بعد تنفيذ ما قَرَّروه يُصلحون أمور دينهم بتوبة يتوبون فيها إلى الله كما ذكر الكلبي، فالمقصود هنا صلاحُ الدين، ونلمَسُ من الآية أنهم يُقَدِّرون قيمةَ الصلاحِ، ويعرفون أنَّ الذي فكروا فيه غير مقبول بموازين الصلاح؛ لذلك قالوا: إنهم سيتوبون بعد ذلك، ولكن: ما الذي أدراهم أنهم سوف يعيشون إلى أن يتوبوا؟ كما قال الشعراوي رحمه الله تعالى، لأنهم بقولهم: إننا سنتوبُ بعد ذلك، نسوا أمراً مهماً، وهو أنَّ شأنَ الموت قد أُبْهِمَ حتى لا يُقدم أحدٌ على معصية أو كبيرة.

قال صاحب تفسير «المنار» في قوله تعالى: ﴿ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴾، أي بعد تنفيذ الجريمة صالحين: أي تائبين إلى الله من هذه الجريمة، مُصلحين لأعمالكم بما يُكَفِّرُ إثمها، وعدم فعلِ مِثْلِها، فيرضى عنكم أبوكم، ويرضى عنكم ربكم.

ثم قال صاحب المنار: وهكذا يُزَيِّنُ الشيطان للمؤمن المُتدين معصية الله تعالى، ولا يزالُ ينزَغُ له ويُسوِّل، ويَعِدُ ويُمنّي ويُؤوّل حتى يُرَجِّحَ داعِيَ الإيمان، أو يُجيبَ داعِيَ الشيطان، وهذا الذي غَلَبَ على إخوة يوسف فكان، ولكن بعد رأفةٍ مُخفِفَةٍ لحُكم الانتقام، وهو مُقتضى الحِكمةِ التي أرادها الله.

هنا أمر ينبغي أن يتنبَّهَ المؤمن له، نلمَسُهُ في قولهم: ﴿ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴾، هذا الأمر سنعرضه في صورة سؤال، فنقول:

هل يجوز للإنسان المؤمن أن يُهيئ التوبة قبل المعصية؟

نقول: ورد عن بعض الحُكماء قولهم: إنَّ المؤمن يُهيئ التوبة قبل المعصية، فما المقصود بذلك؟

والجواب: إنَّ معنى هذه المقولة أن يُصَمّم المؤمن التوبة على ما يصدر عنه

من الزلاتِ سهواً بحسب غَلَبَةِ البشرية عليه، وإلا فلا معنى لتلويث لباسٍ طاهر ثم تطهيره، ورُبَّ ملسوع يموت قبل أن يصل الدواء إليه، فأكل السُم على الظن أنَّ الدواء يدفع مَضَرَّتَهُ ليس من ديدن أهل القلب السليم، والعقل المستقيم، كما قال البروسوي في كتابه «روح البيان».

الاتفاق على رميه في البئر:

ثم انبرى أحدهم، وكان أحسنُهم بيوسف رأياً، وكان اسمه «رؤوبين»، وهو بكر يعقوب على الراجح، وقال قولاً صريحاً ورضِيَ به الباقون: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ١٠﴾ [يوسف].

لا تقتلوا يوسف فإنَّ القتل عظيم لكونه من غير جُرم، ولا تطرحوه أرضاً لأنه في حكم القتل، ولكن ألقوه في غيابةِ الجُبِّ: أي في قعره وغوره، وما أظلمَ منه من أسفله، سُمِّيَ بذلك لغيبته عن عين الناظر، ولهذا يُقال للقبر: غيابَةٌ، وكلُّ ما غيَّبَ شيئاً فهو غَيابَةٌ، قال «المُنَخّل السعدي»:

إذا أنا يوماً غيَّبَتْني غيابَتي ... فسيروا بِسيري في العشيرةِ والأهلِ

وقوله: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾.

نُلاحظ أنهم عرَّفوا الجُبَّ وعَيَّنوه: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾: فهو جُبٌّ مُعَيَّنٌ، لماذا؟

لأنَّ القوافل كانت تمر عليه، وتَرِدُهُ للشُرب، فإذا وَرَدوهُ وجدوا الغلام فيكون أمره للسلامة أقرب، وإلقاؤه فيه أبعَدَ عن الهلاك.

ونشعُرُ من كلمة ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ أنه شيء يُؤخذ على وجه الصيانة من الضياعِ والتلف.

قال سعدي المفتي: وإنما أشار عليهم بهذا الرأي؛ لأنه أوجه من آرائهم، فإنَّ مَنْ يلتقطه يحمله إلى موضعٍ بعيد، ويحصل المقصود بدون تحركِهم حركةً تكشفُ أمرهم.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾: أي برأيي ومشورتي، وأرى أن تكتفوا بذلك فقط للخلاص منه.

وقد خَتَمَ البروسوي في تفسيره لهذه الآية بقوله: فانظر – رحمك الله – إلى هؤلاء الإخوان الذين أرحمُهم له، لا يرضى إلا بإلقاء يوسف في أسفل الجُب، ثم يقول: وهكذا إخوانُ هذا الزمان وأبناؤه فإن ألسِنتهم دائرةٌ بكل شر، ساكتَةٌ عن كل خير.

قال الإمام مالك: وتدل الآية على أنَّ يوسف كان صغيراً عندما طُرِحَ في الجُبِّ؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾، دلَّ على ذلك لأنه لا يُلتقط إلا الصغير.

التنفيذ، وكيف بدأ:

قال العلماء: وبعد أنْ استقرَّ رأيُهم على اقتراح أخيهم الأكبر بدؤوا بالتنفيذ.

كان البدء باقتراح أحدهم بالذهاب إلى والدهم والطلب منه أن يُرسِلَ يوسف معهم ليلعب، فردَّ أحدُهم هذا الاقتراح قائلاً: إنَّ أباكم لا يأمنُكُم عليه، ولكن اذهبوا والعبوا أمام يوسف فيشتاق إلى اللعب فيكون هو الطالبُ لذلك، فقاموا فلعبوا أمامه، وتمازحوا، فقال لهم يوسف: هكذا تعلبون في مراعيكم؟ قالوا: نعم، فاشتاق إلى اللعب فكان هو الطالِبَ، فأخذوه، وانطلقوا به إلى أبيهم يعقوب، فقال يوسف: اطلبوا منه أن يُرسِلني معكم.

قال النيسابوري: وكانوا إذا أرادوا حاجة من أبيهم وقفوا صفاً واحداً،

فجاؤوه يومها ومعهم يوسف، فوقفوا صفاً واحداً، فقال يعقوب: ما حاجتكم؟ قالوا: ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾، خاطبوه بلفظ ﴿ يَـٰٓأَبَانَا ﴾ تحريكاً لسلسلةِ النسب بينهم وبينه، وتذكيراً لرابطة الأخوة بينهم وبين يوسف، ليكون ذلك سبباً لاستنزالِهِ عن رأيه، فكأنهم قالوا: أيُّ عُذرٍ لك في الخوف على يوسف مع أنك أبونا ونحن إخوته، كما قال صاحب «روح البيان».

قال الرازي في تفسيره لهذه الآية: ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾، كلامُهم هذا يدلُّ على أنَّ يعقوب كان يخاف منهم على يوسف؛ ولذلك أظهروا المحبة ليوسف وقالوا ليعقوب: ما الذي حدث لك حتى لا تأمَنَّا على يوسف، ونحن نريد له الخير ونحبُّه.

قال القرطبي: ونشعر من الآية أنهم طلبوا من أبيهم أن يسمحَ لهم أن يُخرجوا يوسف معهم قبل هذه المرة، فأبى.

قال القاسمي: وفي الآية دليل على أنَّ الأبَ أحَسَّ منهم أموراً جعلتهُ لا يأمنُهم عليه، ولا يتورَّعون عن إيذائه، ثم تابعوا كلامهم: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

وكلمة ﴿ غَدًا ﴾: ظرف زمان يدل على الغُدوَةِ أو البُكرَةِ، وهي الوقت ما بين الفجر وصلاة الصبح، كما قال «النضر بن شُميل».

والرَّتْعُ: الأكل والشرب كيف شاء، والسَّعي والنشاط حيثُ يوجد الماء والخُضرة، ومنه قول الخنساء في بُكائها على صخر أخيها:

ترتعُ ما رَتَعْت حتى إذا ادَّكَرتْ　　　فإنما هي إقبالٌ وإدبارُ

والمعنى: أرسله معنا غداً إلى البادية، فيأكل ما لذَّ وطاب، ويلعب

بالاستباق والتناضلِ، والمقصود هنا باللعب: اللعب المُباح الذي لا حرجَ فيه لأجل انشراح الصدر؛ ولذلك لم يُنكر يعقوب عليهم القول باللعب، والدليل كذلك في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يوسف].

وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال لجابر عندما تزوج ثيباً: «فهلا بكراً تُلاعِبُها وتُلاعِبُك»، وورد عن علي رضي الله تعالى عنه قوله: لا بأس بفُكاهةٍ يخرج بها الإنسان من حدِّ العبوس.

وورد عن ابن عباس قوله: كان في النبي ﷺ دُعابةٌ.

وعن أنس قال: كان النبي ﷺ من أَفْكهِ الناس.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ كان يدلعُ لسانه للحسن بن علي، فيرى الصبي حُمرةَ لسانه ﷺ فيَهَشُّ إليه.

وكان عبد الله بن جعفر نزل مرةً في خيمة أعرابية عجوز في الصحراء وعندها دجاجة قد اعتنت بتربيتها، فذبحتها له وقالت له بعد أن جاءته بها: يا أبا جعفر، هذه دجاجة، دجنْتُها ورَبيتُها، وعَلَفتُها من طعامي، وكنت ألَمَسُها آناء الليل كما ألمسُ بنتي، ثم نَذَرتُ لله أن أدفِنها في أكرمِ بُقعةٍ تكون، فلم أجد تلك البُقعةَ المُباركة إلا بطنك، فضحك عبد الله بن جعفر وأمر لها بخمسمائة درهم.

ورويَ أنَّ رجلاً أتى برجلٍ إلى علي، فقال: إنَّ هذا يزعم أنه احتلَمَ على أمي، فقال علي: أقمْهُ في الشمس واضرب ظلَّهُ.

والحجاج - على شدته - كان فيه مُطايبةٌ ومِزاحٌ، فقد رُوِيَ عنه أنه

استعملَ بدوياً على عمل، فأصاب منه خيانةً – أي في المال – فعزله، وأحضره أمامه، فلما وقف بين يديه قال له الحجاج: يا عدوَّ الله أكلت مال الله؟ فقال الأعرابي: رحمك الله أيها الأمير، فمالُ من آكل إذا لم آكل مالَ الله؟ والله لقد راودتُ إبليس أن يُعطِيَني فلساً واحداً فما رَضِيَ وما فَعَلَ، فضَحِكَ الحجاج وتركه.

وسُئِلَ الشعبي عن اسم زوجة إبليس؟ فقال: ذاك نكاحٌ ما شهدناه، وسُئِلَ عن لحم الشيطان: هل يضر أو ينفع؟ فقال: أرسلوا لنا قليلاً منه.

من هنا نُدرك أنَّ معنى اللعب: هو شُغلٌ لا يُلهي عن واجب، أمّا اللهو فهو شُغلٌ بشيء يُلهيك عن واجب: ﴿ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ ﴾ [الجمعة ١١]، فاللهو في هذه الآية: ما يُصاحبُ قدومَ التُجار من طَبْل ومِزمار، كما قال العلماء.

قال الشعراوي رحمه الله تعالى: هناك بعضٌ من الألعاب يُمارِسُها الناس، ويجلسون معاً، ثم يؤذن المؤذن، ويأخذهم الحديث، ولا يلتفتون إلى إقامة الصلاة في ميعادها ! وهكذا يأخذهم اللهو عن الضرورة، أما لو التفتوا إلى إقامة الصلاة؛ لصارَ الأمر لا ضررَ منه.

وقوله تعالى على لسان إخوة يوسف: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾، أي من كل مكروه فلا تخف.

قال القرطبي: إنهم حملوه على أكتافهم أمام أبيه يعقوب طالما يراهم، ثم لما غاب عن أعيُنهم طرحوه عن أكتافهم حتى يعدوَ معهم إيذاءً له، ورُبَّ سائل أن يسأل ماذا كان جواب يعقوب؟

والجواب: بيَّنهُ قوله تعالى على لسان يعقوب: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن

﴿ تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣ ﴾ [يوسف]، هنا نُلاحظ في الآية أنَّ يعقوب اعتذر لهم بأمرين:

الأول: الحُزن على فِراق يوسف: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ ﴾، والحُزن: ألم القلب بفوتِ شيء محبوب، ويوسف كان أَحَبَّ أولاد يعقوب إليه ولا يستطيع مُفارقته.

الثاني: ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ ﴾، والخوف: انزعاج النفس من نزول أمرٍ مكروهٍ، فخاف عليه من ذئاب الصحراء، وكانت المنطقة كثيرة الذئاب.

قال الناصر: وكان أشغلَ الأمرين لقلب يعقوب: خوف الذئاب عليه، أما الأمر الأول، وهو مُفارقتُهُ ليوسف بعض الوقت فهو مُحتملٌ يسهل الصبر عنه لمدةٍ يسيرةٍ، ولذلك انشغلَ أولاده بتطمينه، أنهم سيحرُسونه من الذئب.

قال ابن عباس: إنما قال يعقوب: ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ ﴾: لأنه رأى في منامه كأنه على رأس جبل، وكأن يوسف في بطن الوادي، فإذا عشرةٌ من الذئاب قد احْتَوَشَتْهُ تُريد أكله، فَدَرَأ عنه واحدٌ، ثم انشقَّت الأرض فتوارى يوسف فيها ثلاثة أيام، فالعشرة إخوته، والذي دافعَ عنه الكبير منهم، وتواريه في الأرض ثلاثة أيام، هو مقامه في الجُبِّ.

قال صاحب «البحر المحيط»: وكأنَّ يعقوب بقوله: ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ ﴾، قد لَقَّنهم ما يقولون من العُذر إذا عادوا من الرعي وليس معهم يوسف، وفعلاً جعلوا قولَ أبيهم: ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ ﴾، عُدَّتهم للجواب.

قال العلماء: ورد عن بعض الصحابة قولهم: لا ينبغي للرجل أن يُلَقِّنَ الخصمَ الحُجَّةَ؛ لأنَّ إخوة يوسف كانوا لا يعلمون أنَّ الذئب يأكل الناس إلى

أن قال يعقوب ذلك ولَقَّنهم العلَّةَ في كيد يوسف.

والعرب تحتقر الذئب، ولا تخاف منه إلا على طفل صغير، أو شيخ هرم، ولذلك خَصَّهُ «الربيعُ بن ضبع الفزاري» من بين الوحوش في كونه يخشاهُ حين بَلَغَ من السن عِتياً، فقال إنه أصبح لِكِبَرِهِ يخاف من الذئب مع حقارته:

والذئب أخشاهُ إن مَررتُ به وحدي وأخشى الرياحَ والمطرا

إذاً جعلوا قول يعقوب: ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ ﴾ عذرهم، وأخذوا هذا العُذرَ من فم أبيهم، ولذلك جاء في الآثار: «البلاءُ مُوَكَّلٌ بالمنطق».

وقد حُكِيَ عن ابن السّكيت، وهو من أئمة اللغة، أنه جلس مع المُتوكل يوماً، فجاء المُعتزُّ والمؤيَّدُ ولدا المُتوكل، فالتفتَ الخليفة إلى ابن السّكيت وقال له: أيُهما أحبُّ إليك، ابنايَ هذان، أم الحسن والحُسين؟ فقال ابن السكيت: والله إنَّ «قنبر» خادمَ عليٍّ خيرٌ منك ومن ولديك، فقال المتوكل: سُلُّوا لسانه من قفاه، ففعلوا، فمات من تلك الليلة.

قال البروسوي: ومن العجب أنه قبل يومين من هذه الحادثة، كان يُعطي المُعتز والمُؤيد درساً في اللغة، وقد علَّمَهُما في ذلك الدرس قول الشاعر:

يُصابُ الفتى من عَثْرَةٍ بلسانه وليس يُصاب المرءُ من عثرَةِ الرِّجْل

فعثَرَتُهُ في القولِ تُذهِبُ رأسه وعثرتُهُ في الرِّجْلِ تشفى على مهلِ

ثم تأتي مُحاولتهم - أولاد يعقوب - لطمأنة أبيهم؛ كي يأذن في خروج يوسف معهم، فماذا كان جوابهم؟

﴿ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤ ﴾ [يوسف]:

أي كيف نغفل عنه ونحن كثرةٌ، فوالله لئن حصل هذا لكُنا أهلاً للخسارة، وأهلاً لأن يُدعى علينا بالخسارة والدمار، ولئن عجزنا عن حفظ أخينا فنحن عن حفظِ مواشينا أعجزُ، وعندئذ نخسر كرامتنا أمام أنفُسنا وأمام الناس، ونحن لا نقبل على أنفُسِنا هذا الهوان.

اطمئنان يعقوب:

لما سَمِعَ يعقوب كلامهم، وافقَ تحت ضغطهم على إرساله معهم.

قال الثعلبي في تفسيره «الكشف والبيان»: وتقدمَ يوسف بين يدي أبيه وقال: يا أبتِ أرسلني معهم، قال الوالد: أوَ تُحب ذلك يا بني؟ قال يوسف: نعم، قال يعقوب: إذا كان الغد أذنْتُ لك.

قال النيسابوري: فلما أصبح يوسف لَبِسَ ثيابه، وشدَّ مِنْطَقَهُ، وخرج مع إخوته، ثم أخذ يعقوب السَلَّةَ التي حَمَلَ فيها إبراهيم زاد إسحق، فوضع فيها زاد يوسف، وخرج الوالد معهم يودعهم، فقالوا له: يا نبي الله ارجع، فقال يعقوب: يا بَنِيَّ: أوصيكم بتقوى الله، وبحبيبي يوسف، أسألكم بالله إن جاع فأطعموه، وإن عطش فاسقوه، وقوموا عليه ولا تُتْعِبوه، وكونوا مُتواصلين مُتراحمين، ثم قال: يا بَنِيَّ: الله خليفتي عليكم، ثم أقبل على يوسف فضمه إلى صدره وقبله على جبينه ثم قال: استودعتك الله ربَّ العالمين، ثم انصرف راجعاً إلى منزله.

تنفيذ الإلقاء في البئر:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يوسف]، في الكلام إضمار واختصار تقديره: فأرسَلَهُ معهم، وعزموا على: ﴿أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾،

عزماً إجماعياً لا ترددَ فيه، وجوابُ لمّا محذوفٌ دلَّ عليه الكلام والتقدير: نفذوا ذلك بإلقائه في غيابة ذلك الجُبِّ، وعند إلقائه أوحى الله إليه وحياً إلهاميّاً «وهو الإلقاءُ في الروعِ» بأنك ستتخلَّصُ مما أنت فيه، وتُحدثهم بما فعلوا بك، وهم لا يشعرون أنكَ يوسف لِعُلُوِّ شأنك وارتفاع مكانتك، وسيأتي معنا ذلك في قوله تعالى: ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يوسف]، حيث عرفهم وهم لم يعرفوه لعظيم مكانته.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا ﴾، والوحي هنا إلهامٌ ووارِدٌ إلهيٌّ لا يجدُ له مُعارضةً في النفس البشرية، كما جرى لأم موسى عليه السلام في قوله تعالى مُخاطباً موسى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ﴾ [طه].

وهذا الوحيُ آنَسَ وحشَتَهُ في الجُبِّ الذي ابتعد فيه عن بلده، وابتعد فيه عن حنان أبيه وأخيه الصغير، وعن بيئته التي درجَ فيها.

قال صاحب تفسير «المنار»: ولقد هَوَّنَ الله على يوسف مصيبته بهذا الوحي الإلهامي، فعَلِمَ أنها مصيبةٌ في الظاهر، نعمَةٌ في الباطن. وكان هذا الوحي - كما قال العلماء - دليلاً على أنَّ ما حدثَ ليوسف ليس جفوَةً له، وإنما هو إعدادٌ لأمرٍ هام في المستقبل، أهمُّ من الذي كنت فيه، وإنَّ إخوتك الذين كادوكَ سوف يضطرون لدقِّ بابك يطلبون عونكَ وهم لا يعرفونك.

وفتح الله عليه باب الدعاء، لأنَّ الدعاء عند الله أفضل من الشكوى للبشر، فصار يوسف يدعو، وكان مما دعا به: «اللهم يا مؤنِسَ كلِّ غريب، ويا صاحبَ كلّ وحيد، ويا ملجأ كلِّ خائف، ويا كاشفَ كلِّ كُربة، ويا عالم كلِّ نجوى، يا مُنتهى كل شكوى، ويا حاضِرَ كلَّ ملأٍ، يا حيُّ يا قيوم، يا

شاهداً غير غائب، يا قريباً غير بعيد، يا غالباً غير مغلوب، اجعلْ لي من أمري فَرَجاً ومخرجاً، إنك على كل شيء قدير».

وذكر البروسوي: أنه كان من دُعائه: «يا كاشف كل كُربة، ويا مجيب كل دعوة، ويا جابر كل كسيرٍ، ويا مُيسر كل عسير، ويا صاحب كل غريب، ويا مُؤْنِسَ كل وحيد، لا إله إلا أنت سبحانك، أسألك أن تجعل لي فرجاً ومخرجاً، وأن تقذِفَ حُبَّكَ في قلبي حتى لا يكون لي هم ولا ذِكرٌ غيرك، وأن تحفظني وترحمني يا أرحم الراحمين».

قال بعض المفسرين: لما دعا يوسف ربه وذكره بأسمائه الحُسنى حَفَّتْ به الملائكة لذكر الله، وسألوا الله أن يُمهلهُم ساعة ليسمعوا ذِكرَ يوسف لله بصوته الجميل، فقال الله لهم: ألستم قُلتم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة ٣٠].

قال العلماء: وكذلك إذا اجتمع المؤمنون على ذكر الله تعالى، تقول الملائكة: إلهنا أنظرنا نستأنسُ بهم، فيقول الله تعالى: ألستم قُلتم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾، فالآن تتمنَّونَ الاستئناس بهم، فعُلِمَ من ذلك أنَّ الملائكة المُقربين تنزلُ لشَرَفِ ذكر الله تعالى.

كان يوسف يأنسُ بالدعاء الذي أُلقِيَ في روعه، وهو أفضل من الشكوى.

قال القرطبي: ورد عن وهب، أن يوسف لما أُلقِيَ في الجب، وقفَ على صخرة فيه وبكى وناداهم: يا إخوتي: إنَّ لكلِ ميتٍ وصيةً، فاسمعوا وصيتي، قالوا: وما هي؟ قال: إذا اجتمعتم فاذكروا وحشتي، وإذا أكلتم فاذكروا جوعتي، وإذا رأيتم غريباً فاذكروا غُربتي، وإذا رأيتم شاباً فاذكروا شبابي.

فأوحى الله له الاشتغال بالدعاء، فهو أفضل من الشكوى للبشر.

أما كيفية الإلقاء في الجب، فقد قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: ليس عندنا كيفيةُ إلقاء يوسف في البئر، ولكن نستطيع أن نتخيَّلَ أنه قاومهم فضربوه، وأمروه أن يخلع قميصه، ثم ألقوه، ثم أوحى الله له أنك ناجٍ.

وقال صاحب كتاب «حياة يوسف»: طرحوه في البئر، وجلسوا بعد ذلك يأكلون ويلهون إلى المساء، ثم بُشِّرَ يوسف بالنجاة، هذا من جهة يوسف، وجهة إخوته معه والجُبِّ الذي ألقوه فيه، فما حالُ الإخوة مع الأب، يأتي ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦ ﴾[يوسف]، والعِشاءُ: مَحَلُّ الظُلمة، والليل أخفى للوجه الذي تظهر عليه الانفعالات النفسية، ولذلك قالوا في الأمثال: «الليل أخفى للويل»، لقد اختاروا الوقت الذي يُخفي انفعالاتهم المُتناقضة بين كذب اللسان وتَلَجْلُجِهِ، وبين حركاتهم المُصطنعة التي قد يتفَرَّسُ فيها يعقوب كذِبهم، فقالوا: نؤخِّر اللقاء بأبينا إلى العِشاء: ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦ ﴾، أي جاؤوا من غير يوسف، وأيَّ عِشاءٍ كان رجوعهم؟ هل عِشاءُ ذلك اليوم أم اليوم الثاني؟

قولان للعلماء: والأخر أرجح، لأنه لو كان رجوعهم في الأول لفَتَّشَ يعقوب عنه، والليل كثيراً ما يتخذه الناس سِتاراً للمواقف، والتاريخ يروي لنا في موقعة كربُلاء عن الحسين بن علي حين رأى العدو قد أحاط به، ورأى الناسَ الذين بايعوه قد انفضُّوا عنه، ولم يبقَ إلا القليل، وعَزَّ عليه أن يُقتل هؤلاء في معركة غير مُتكافئة، وعزَّت عليه نفسه أن يَفِرَّ فصَمَّمَ على دخول المعركة، فلما أقبل الليل دعا أصحابه وقال لهم: من أحبَّ أن ينصرف إلى أهله في ليلته هذه فقد أذِنتُ له، فإنَّ القوم إنما يُريدونني، هذا الليل قد غَشيكم فاتخذوه حَجَلاً، إذهبوا في بسيطِ الأرض في هذا الليل إلى بلادكم ومدائنكم.

قال الشعراوي: قال لهم: إن كنتم قد استحييتم أن تفرّوا عني نهاراً، فالليل جاء وقد ستركم، فمن شاء فليذهب، ولذلك قيل: لا تطلب الحاجة بالليل فإنَّ الحياء في العينين، ولا تعتذر من ذنبٍ بالنهار فتَتَلجلجُ في الاعتذار.

وقوله: ﴿يَبۡكُونَ﴾: جاء بصيغة المُضارع وهو جملة حاليةٌ، ليُريك صورة ما هم عليه وقت المجيء، وأنهم آخذون في البكاء يُجدِّدونه شيئاً بعد شيء، فهذا البكاء فضيحةٌ أُخرى لهم، فهو تَباكٍ وليس بِبُكاء كما قال الزملكاني في كتابه «البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن»: فالبكاءُ انفعالٌ طبيعي فطري ليس للإنسان فيه مجالُ اختيار، وبعض الناس يفتعله فيتباكى، والكثير يأتي بالأعاجيب في باب تَصَنُّع البكاءِ، وهم أهل الحِيل، وفي الأمثال: «دموع الفاجر بيديه».

قال ابن العربي: فبُكاء المرء لا يدل على صدق مقاله؛ لاحتمال أن يكون البُكاء تَصَنُّعاً، فمن الناس من يقدر على تَصَنُّعِ البُكاء، ومنهم من لا يقدر على ذلك، ولذلك قال أهل الأمثال: «الدمع المصنوع لا يَخْفَى»، وكما قيل:

إذا اشتبكت دموعٌ في خدودٍ ستعرفُ من بكى ممن تَباكى

قال الأعمش: لا يُصَدَّق باكٍ بعد إخوة يوسف.

وأخرج ابن المنذر عن الشعبي قال: جاءت امرأةٌ إلى شُريح القاضي تُخاصم في شيء – وكانت مُبطِلةً – فجعلت تبكي، فقال الشعبي لشُريح: يا أبا أمية: ألا تراها تبكي؟ ما أظن إلا أنها مظلومة فقال شُريحاً: قد جاء إخوة يوسف أباهم عِشاءً يبكون، وهم ظَلَمَةٌ كذَبَةٌ، لا ينبغي للإنسان أن يقضيَ إلا بالحق من السُنَّةِ المرضية، وفي رواية أنَّ شُريحاً أنشد بعد ذلك:

أغَرَّكَ من شيخٍ بُكاءٌ ومَحْلَقَة أم اللحيةُ البيضاءُ للنتفِ مُطلقة

فإنَّ بني يعقوبَ جاؤوا أباهم عِشاءً وهم يبكون زوراً ومخرقة

ولكن ماذا يقولون إذا سألهم أبوهم عن سبب بُكائهم؟

وهذا ما حصل، فقد ذكر الآلوسي والرازي وغيرُهما، أنَّ يعقوب عليه الصلاة والسلام لما سَمِعَ صوت بُكائهم خافَ وقال لهم: ما لكم وأين يوسف؟

جاء جوابهم: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ ﴾ [يوسف].

وفي رواية أُخرى أنَّ يعقوب لما سَمِعَ بُكاءهم قام فزعاً وقال: هل أصابكم في غَنَمِكم شيءٌ؟ قالوا: أعظم من ذلك، قال: أين يوسف؟

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ ﴾ جاء النداء منهم باسم الأب المُضاف إليهم ليرحَمَهُمْ فيترك غَضَبَهُ عليهم، وهذا من تمام مَكرِهم وشِدَّته: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا ﴾، وكلمة ﴿ نَسۡتَبِقُ ﴾: تُفيد المُشاركة مع الآخرين بقصد الغَلَبِ، وقد تكون بالعدْوِ والرَّمْيِ، يُقال: استبقَ الرجُلان، وتسابقا: إذا اشتدّا في الجري لبيان الأسبقِ، سواءٌ أكان ذلك على الأقدام أم على الخيول، أم في الرمي: وهي المُناضلة، وهي نوع من السباق.

قال القاسمي في «تفسيره»: المُسابقة مشروعة لما فيها من رياضة النفس والدواب، وتمرين الأعضاء على التصرف والحركة.

قال ابن العربي: المُسابقة شِرعَةٌ في الشريعة، وخَصْلَةٌ بديعة، وعونٌ على الحرب، وقد فعلها رسول الله ﷺ بنفسه، وبخيله، وسابقَ عائشة على قدميه فسبقها، فلما كَبُرَ ﷺ سابَقها فسبقتْهُ، فقال لها: «هذه بتلكَ»، وفي حديث

عقبة بن عامر الذي أخرجه أبو داوود عنه ﷺ أنه قال: «ليس من اللهو ثلاثة: مُلاعبةُ الرجل أهله، وتأديبهُ فرسه، ورميُهُ بقوسه».

وفي صحيح مسلم: سابقَ سَلَمَةُ بن الأكوع رجلاً من الأنصار بين يدي رسول الله ﷺ لما رجعوا من ذي قَرَد إلى المدينة، فسبَقَهُ سَلَمَةُ.

وذي قَرَد: موضع قريب من المدينة.

وفي الحديث قوله ﷺ: «فلا يعجز أحدكم أن يلهوَ بسهمه».

وقال في «الروض المربع»: ويصح السباقُ على الأقدام، وسائر الحيوانات، والسُفن، والمزاريق - رماحٌ قصيرة - وكذا المناجيق أي: المنجنيقات، وهي كلمة فارسية مُعَرَّبةٌ، ومعناها ما أجودني، وكذلك رمي الأحجار بالمقاليع أو باليد لمعرفة الأشد، وكل ذلك بشروط مشروعة في كتب الفقه.

وقوله: ﴿ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا ﴾: أي عند أزوادنا وثيابنا حارساً لها، وقولهم هذا: أوَّلُ مخالفةٍ منهم للاتفاق مع والدهم، وأولُ إخلالٍ بشرط التعاقد كما قال بعض العلماء؛ ذلك لأنهم قالوا لأبيهم: ﴿ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢ ﴾، فهل أخذتموه معكم ليحفظَ أمتعتكم وأنتم تستبقون، أم أخذتموه معكم ليرتعَ ويلعبَ؟

وقولهم: ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ ﴾، وذلك لأننا أوغلنا في البُعد عند حال المُسابقةِ فلم نسمع صُراخه ولا استغاثاته، ولمّا عُدنا من السباق فوجئنا بأكل الذئب له لكونِ مكانِ الأمتعة آمَنَ من غيره كما تعلم وكما هي العادة.

قال ابن حِبّان وغيره: إنه لما قالوا له: ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ ﴾، أُغميَ عليه فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك، نادوه فلم يُجب، فقال يهوذا - كما ذكر وهب- ويْلنا من ديّان يوم الدين، ضَيَّعنا أخانا وقتلنا أبانا، فلما أفاق يعقوب، وكان

رأسُهُ في حِجْر روبيل، قال له: يا روبيل: ألم أئتمنك على ولدي، ألم أعهد إليك عهداً؟ فقال روبيل: يا أبت: كُفَّ بُكاءك أُخبرْك: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾.

وقولهم: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾: أي نحن نعلم أنك لن تَّصدقنا في هذه القصة ولو كنا صادقين عندك أو في نفس الأمر؛ وذلك لشدةِ محبتك ليوسف.

قال القاسمي: هذا تلطُّفٌ عظيم في تقرير ما يُحاولونه.

قال في «نظم الدُرر»: ولما علموا أن يعقوب لن يُصدقهم فيما قالوه، لما له عليه الصلاة والسلام من صدق الفراسةِ، ونور القلب، وقوة الحدس **أولاً**.

وثانياً: لأنَّ الكذبَ في نفسه كثيراً ما يحمل دليلَ بُطلانه.

وثالثاً: لأنَّ المُرتابَ يكاد يُعربُ عن نفسه، عمدوا إلى الحيلة ليؤكّدوا قولهم وما ادَّعَوه.

قال تعالى حاكياً عن فعلتهم: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾.

إنتبه يا – عبد الله – إلى هذه الجملة الفذَّةِ في بلاغتها، كما يقول صاحب «المنار»، إذ المُرادُ أنهم جاؤوا بقميصه مُلطَّخاً ظاهره بدمٍ غير دم يوسف، حيث أخذوا قميصه المُوَشّى، وغمسوه في دم مَعِزٍ كانوا ذَبحوه، يدَّعون أنه دمه ليشهدَ لهم بصدقهم، فكان دليلاً على كذبهم، فَنكَّرَ كلمة الدم، ووصفهُ بالكذب مُبالغةً في ظهور كذبهم في دعوى أنه دمُهُ، حتى كأنه هو الكذبُ بعينه، والعرب إذا أرادت المُبالغة في شيء فإنها تضع المصدر موضع الصفة، مثلما تقول: فلان عادل، ويُمكنك أن تقول في إنسان آخر: فلان عَدْلٌ، أي كأنَّ العدلَ تجسَّد فيه فقط، أو تقول: فلان ذو شرّ، ويأتي آخر فيقول لك: بل

هو الشرُّ بعينه، وهذا للمُبالغة كما ذكر الشعراوي رحمه الله تعالى.

فقولهم: ﴿ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾، مُبالغةٌ في الحدثِ فكأنَّ الدمَ هو الذي كذبَ، ولكن هل يمكن أن يوصف الدم بأنه صادق؟

والجواب كما قال العلماء: نعم، وذلك لو أنَّ الذئب قد أكل يوسف بالفعل، وتلوثَ قميصُ يوسف وتمزَّقَ، لكان الدمُ صادقاً عندها. ولذلك لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامةً على صدقهم، قَرَنَ الله بهذه العلامة علامةً تُعارضُها وهي: سلامةُ القميص من التمزيق، إذ لا يمكن افتراسُ الذئب ليوسف مع بقاء القميص سالماً؛ ولذلك وردَ عن ابن عباس أن يعقوب لما تأمَّل القميص استدلَّ بسلامته على كذبهم، فقال لهم: متى كان هذا الذئب حكيماً يأكلُ يوسفَ ولا يُمزّق القميص.

وروى سفيان عن سَماك عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نظر إليهم يعقوب قال: كذَبتم لو كان الذئب أكَلَهُ لخرَّقَ القميصَ.

قال القاضي: ولعلَّ السببَ في أخذهم القميصَ عند إلقائِهِ في الجُبِّ كي يُلطخوهُ بالدم توكيداً لصدقهم، وإلا فما طمعُهُم في قميص؟!!

ثم قال القاضي: ولا بُدَّ للمعصية أن يقترن بها الخُذلان، فلو خرقوا القميص مع تلطيخه بالدم، لكان الإيهامُ أقوى، فلما شاهد يعقوب القميص صحيحاً عَلِمَ كذبهم، ثم أكَّدَ هنا الكذب ظهور علائم الريبةِ عليهم، مع ما يعلمهُ من حسدهم له فقال: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾.

إنتبه - يا عبد الله - إلى دقة التعبير في قوله: ﴿ بَلْ ﴾ الذي هو حَرْفُ إضراب، ويعقوبُ عليه الصلاة والسلام أضرَبَ عن تكذيبٍ صريحٍ، فصار تقديرُ الكلام لا إنَّ الذئب لم يأكله ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾.

والتسويلُ: تصوير القبيح بصورةِ الحسنِ، فهو التزيينُ والتسهيلُ: أي زينت لكم أنفُسكم الأمَّارةُ بالسوء أمراً إمْراً، وكيداً نُكْراً ففعلتموه، هذا أمرُكم وشأْنُكم، أما شأني معكم ومع ربي: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾، أي سأصبر صبراً جميلاً، لا يُشَوّه جمالَه جزعُ اليائسين من رُوْحِ الله، ولا القنوط من رحمة الله تعالى.

ولكن ما هو الصبر؟ و ما هو الصبر الجميل؟

أما **الصبر** فهو: حبسُ النفس عن الجزع والتَسخُّطِ، وحبسُ اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش.

أما **الصبر الجميل**: فهو الصبر الذي لا شكوى فيه إلى الخَلْق، وإنما الشكوى فيه إلى الله وحده، ولا جزعَ فيه، وإنما رضى بقضاء الله، بل وقد يُحبُّ صاحبه الابتلاء من الله ولكن لا يطلبه، ولا يدعو على نفسه به، ونلمس هذا الصبرَ في قول يعقوب عندما حصل ليوسف من إخوته ما حصل، قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾، وقد شكا يعقوب ما به إلى الله وحده، وإلى هذا أشارت الآية حاكيةً عن يعقوب: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يوسف].

قال الشيخ الكمال الخجندي ناقلاً عن شيخه: اعلم أنَّ الصبر إذا لم يكن فيه شكوى إلى الخلق فهو جميل، وإذا كان الصبر فيه شكوى إلى الله فهو أجمل، لماذا؟

لأنَّ فيه رعاية حقِّ العبودية ظاهراً وباطناً:

أما ظاهراً: فقد أمسك عن الشكوى إلى الخلق.

وأما باطناً: فقد قَصَرَ الشكوى مما أصابه على الخالقِ وحده، ثم قال:

والتفويضُ جميل، ولكن الشكوى إلى الله عز وجل أجمل، ومن جميل قول العلماء: يَحْسُنُ إظهارُ الصبر والتَجَلُّد أمام المُعادي للدعوة والدعاة كما فعل رسول الله ﷺ، وأظهرَ التجلد والصبر في غزواته ومناسكه، وظهر ذلك في الرَّمَلِ في الطواف في الأشواط الثلاثة الأولى، ويوم أُحُدٍ.

وورد عن معاوية أنه قال حين ضَعُفَ وحضرتهُ الوفاةُ قوله:

وتجلُّدي للشامتينَ أُريهُمُ أني لريبِ الدهر لا أتَضعضَعُ

أما التجلد والصبر عند الأحبةِ فلا يحسُنُ، بل هو قبيح كما أشار إليه ابن الفارض غفر الله زَلَّاتهِ، في قصيدةٍ جميلة، يقول فيها:

ويحسُنُ إظهارُ التَجَلُّدِ للقوي ويَقْبُحُ غيرُ العجزِ عند الأحبةِ

ولذلك ورد عن «سُمنون» أحد أئمة الصوفية أنه قال في بعض مُناجاته لله تعالى غافلاً عن هذه الحقيقة - حقيقة إظهار العجز عند الأحبة -:

وليس لي في سِواكَ حظٌ فكيفما شئت فاختبرني

قال العلماء: فأدَّبَهُ الله تعالى بتسليطِ عُسر البول عليه، فاعترفَ بعجزه، وصار يطوف في طرق بغداد ويستأجر الأولاد ويأمُرهم أن يقولوا: هذا الشيخ كذاب.

وقال بعضهم: الصبر الجميل: هو تَلَقِّي البلاء بقلبٍ رحيب، ووجهٍ مُستبشر، وهو الصبر الذي يُعطي المؤمن أملاً في المُستقبل، نقرأ هذا في قوله تعالى حاكياً عن يعقوب: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يوسف].

والمُتَخَلِّقُ بهذا الصبر الجميل هو المؤمن الذي امتلأ قلبه بحقيقة التوحيد، فيطوي بساط الأسباب والوسائط، ويرى أنَّ التأثير لا يكون إلا من الله تعالى

في كل باب، ولذلك يكون صاحب هذا الصبر قابلاً لعُذْر من اعتذرَ إليه، ويَتغابى ويتغافل وهو ليس بغبيٍّ؛ ولذلك قالوا: قبول العذر من ديدنِ الأخيار، والتغابي والتغافل من أخلاق الكِرام، وأنشدوا:

اقبلْ معاذيرَ من يأتيكَ مُعتذراً ... إنْ بَرَّ عندك فيما قال أو فجرا

وقالوا:

ليس الغبيُّ بسيدٍ في قومه ... لكن سيدَ قومه المُتغابي

فكأنَّ يعقوب عندما قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، عنى أنني لا أُعايِشُكم على كآبة الوجه، بل أكون لكم كما كنت أولاً، لأنَّ التغافُلَ من أخلاق الكِرام، ثم قال عليه صلوات الله وسلامه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾: أي أطلب من الله العونَ المُستمر على إظهار كذبكم فيما ذكرتم من موت يوسف، وأرجو من الله أن يُظهِرَ عكس ذلك، وهو سلامة ولدي.

قال الآلوسي: عَلِمَ يعقوب أن يوسف حي، وإنما كان حُزنه لخوفه عليه من الشدائد والمصاعب غير الموت، كما حَزِنَ على فراقه؛ لأنَّ مُفارقة الإنسان لمن يُحِبُّ أمرٌ لا يُطاق، ولذلك قيل:

لولا مُفارقة الأحباب ما وجدت ... لها المنايا إلى أرواحنا سُبُلُ

قال الرازي في قوله تعالى حاكياً عن يعقوب: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾: قال: دواعي النفسِ تدعو يعقوب إلى إظهار الجزع والحُزن وهي قوية، ودواعي الإيمان تدعوه إلى الصبر والرضا، فكأنما في تصارُع وتجالُدٍ، فما لم تحصل الإعانة من الله تعالى لا تتحقَّقُ الغلبةُ للصبر والرضا، فقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، يجري مجرى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: أي لا نعبد غيرك، فأَعِنّي على ما قدَّرتهُ وقضيتَهُ عليَّ من فِراقِ يوسف.

سؤال وبحث:

قال الرازي في تفسيره لهذه الآية ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يوسف].

الصبر على قضاء الله واجب، أما الصبر على ظُلم الظالمين، ومكر الماكرين فغيرُ واجب، بل الواجب إزالةُ هذا الظلم، وبخاصة وقد ظهر كذب إخوة يوسف ومكرهم، فَلِمَ صبرَ يعقوب على ذلك؟ ولِمَ لم يُفتش لتخليصِ يوسف إن كان حياً وهو الراجح عنده، أو إقامة القصاص منهم إن كان مَيْتا؟ وهل يكون صبر يعقوب على ما فعله أولاده مذموماً؟

والجواب: إنَّ يعقوب امتنع عن البحث والتفتيش عن يوسف؛ لأنه عَلِمَ بقرائن الأحوال أنَّ أولاده لو رأوا منه المُبالغة في البحث والتفتيش، فربما يُقدمون على قتل يوسف عندئذ، كما أنه عَلِمَ أنَّ يوسف سيصونه الله تعالى وسيكون أمرهُ عظيماً في المستقبل لما مَرَّ معه من رؤيا يوسف، ثم إن يعقوب لم يُرِدْ هتكَ سترِ أولاده حتى لا تتناولهم ألسِنةُ الناس.

إذ كيف يُصَدَّقُ الكذب، وكيف يُمكن أو يواجه أبناءه بما حدث منهم؟ وهم أيضاً أبناؤه؛ لكنه كان غير قادر على أن يكشِفَ لهم كَذِبهم.

وقد جاء في قصص العرب أنه قيل لرجل: إن ابنك قد قتل أخاك، فقال:

أقول للنفسِ تأساءً وتعزيةً   إحدى يديَّ أصابتني ولم تُرِدِ
كلاهما خَلَفٌ عن فقدِ صاحبهِ   هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

فكأن حال يعقوب مع أبنائه كحال الذي قال:

قومي هُمُ قتلوا أُمَيْمَ أخي فإذا رميتُ أصابني سهمي
ولئن عفوتُ لأعفونْ جللاً ولئن سطوتُ لموهِنٌ عظمي

إنها مسألةٌ صعبة تصعب على البشر، فلا بُدَّ أن يلتجِئ الإنسان فيها إلى الله؛ ولذلك كان نبينا ﷺ علَّمنا أنه إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلى كما في مسند أحمد من رواية حذيفة، وأخرجه أبو داوود في سُننه.

وهذا يعني أنه إذا حدث أمرٌ فوق طاقة الإنسان وأسبابه، يلجأُ إلى المُسبِّبِ الأعلى؛ ولذلك قال يعقوب: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾.

ولفظ «الوصْفِ» لم يأتِ بالقرآن إلا لمعنى الكذب والتزيين، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾[النحل]، وكقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠﴾[الصافات].

قال صاحب كتاب «حياة يوسف» جعل الألم يلوي يعقوب، ويخرقُ فؤاده فلا يزيد على قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾.

هذا هو المشهد الأول من قصة يوسف.

حال يوسف وكيف تداركته رحمة الله عز وجل :

المحنة الأولى: يوسف في الجُبِّ:

قال صاحب كتابُ «قصص القرآن»: يوسف الآن في الجُبِّ، يحتويه ظلامه، ويشتَمِلُهُ سُكونه ! محنةٌ يُمتَحَنُ بها هذا الفتى الكريم، والله يمتحن المُخلصين من عباده بأنواع المصائب، ويختبرهم بضروب الآلام، ليكونوا أقدرَ احتمالاً على ما يُلقى عليهم من مُهماتِ الأمورِ وعظيماتها.

ويزيد من شدة المِحنة كون يوسف فتىً غريراً لا يريشُ ولا يبري – أي

أنه صغير لا يستطيع عمل شيء، ولم يَخْبُرْ أساليب الحياة -، ثم يقول: ربما تكون المحنةُ مُحتلمة لو أن يوسف قد اقترفَ خطيئةً، أو ارتكب إثماً، ولكنه كان مُبرّأً من العيب، بعيداً عن كل تهمة، ثم هو في زكاء الطفولة، ثم لو كانت الرميةُ جاءت من غير إخوته لاحتملها قلبه، ولم يشتَدَّ أسفه، ولكنه سهمٌ وجَّهَهُ إليه إخوته، وبلاءٌ صبَّهُ عليه بنو أبيه، وجميل قول القائل:

لو بغير الماء حلقي شَرِقٌ كنتُ كالغَصّانِ بالماء اعتصاري[1]

ثم يقول جاد المولى في كتاب «قصص القرآن»، أنقُلُها بشيء من التصرف: هو الآن في الجب، يجول فيه بعينيه، ويتلفَّتُ أمامه فلا يرى إلا ماءً راكداً يرى فيه خياله الكاسِفَ - السيئ الحال - وظله الحزين، ويتلفَّتُ فوقه فلا يلمحُ إلا ظلاماً مُتكاثِفاً لا يُميِّزُ فيه شيئاً.

أما نفسه، ووساوسه، فلا أحدٌ يدري إلا الله ما هي خطراتُها؟

لعله تذكرَ أباه وحبَّهُ له، وما حالُ ذلك الوالد بعده.

لعله فَزِعَ من الظلام، وأوحَشَهُ المكان، فحنَّ لطلعةِ الشمسِ، وتألُّقِ البدر، ثم هو قد جاع، أو سيجوع، فمن أين يسُدُّ جوعته؟ أفكار لا يحتمِلُها ذلك القلب الصغير، ولا تلك النفسُ الهشَّةُ، وجميلٌ قول الشاعر:

إنَّ البلاءَ يُطاقُ غيرَ مُضاعَفٍ فإذا تضاعَفَ صار غيرَ مُطاقِ

لكن رحمة الله قريب من المُحسنين، فهو الذي امتحنه، وهو الذي سيُفرج عنه، ويربِطُ على قلبه، ها هو يسمعُ من بعيد أصواتاً مختلفةً، وصدى حركاتٍ مُبهمَةٍ، وها هي الأصواتُ تقتربُ شيئاً فشيئاً، أصواتٌ أسفرتْ عن وقع أقدامٍ، وخفقِ نِعالٍ، ونِباح كلابٍ، إنها قافلةٌ، فابتسم له الأمل، وساعةٌ

---

(١) الاعتصار: إزالة الغُصَّةِ بالماء قليلًا قليلًا.

الخلاص قد دنا أوانُها.

ووقفت السيارةُ بجانب الجُبِّ، وهَتَفَ رئيس القافلةِ بصوتٍ سمعهُ يوسف: ألقِ دلوك يا فلان في الجُبِّ وامتَح – أي أخرج الماء – ووقع الصوتُ على يوسف وقوع الماء البارد على ذي الغُلَّةِ الصادي إذ تأمَّلَ النجاة من هذا الوافد العجيب، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[يوسف].

قال ابن كثير: جلس يوسف في البئر ينتظر فرج الله ولُطفه به، فجاءت سيارةٌ – والسيارة هي القافلة الكبيرة التي تسيرُ مسافات طويلة حتى سُمِّيت سيارة – كأنهم قومٌ يحترفون السيرَ والتجارة لجلب البضائع، وقد ذكر بعض أهل الكتاب، أنهم تُجار من بلاد الشام، من مَدْيَنَ كانوا قاصدين مصر، وكانت بضاعتهم الفُستقَ والبُطمَ والصنوبر، وكان الجُبُّ في طريق سيرهم المُعتاد كما ذكر الآلوسي.

وتَقَدَّمَ وارِدُ القافلة، وهو الذي يتولى السِقايةَ، واسمه «مالك بن ذُعر الخزاعي» وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ ﴾، أي أرسلها في البئر ليملأها، والدلو: معروفٌ: وعاء يُستقى به، والعرب تصف الرجل الكريم بالدلوِ، قال الشاعر:

أنت كالدلوِ لا عدمتُكَ دلواً ... كثيرُ العطاءِ قليلُ الذنوبِ
وكالكلب في حِفاظِكَ الوُدَّ ... وكالتيس في قِراعِ الخطوبِ

قال المفسرون: لما أرسلَ الوارِدُ دلوه في البئر، وكان يوسف في ناحيةٍ من قعر البئر، تعلَّقَ بالحبل، فأحَسَّ الواردُ بثِقل ما حمله الرشاءُ – أي الحبل – ونظر إلى أسفل فوجد غُلاماً يتعلقُ بالدلوِ، فنادى: ﴿ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ﴾.

قال الرازي: واعلم أنَّ سبب البِشارة، هو أنهم وجدوا غُلاماً في غايةِ الحُسنِ، كأنَّ وجهه فِلقَةُ قمرٍ، فقالوا: نبيعُهُ بثمنٍ عظيمٍ، ويكون ذلك سبباً للغنى.

قال القاسمي: وهذه الكلمة ﴿يَٰبُشۡرَىٰ﴾ تُستعمل للبشير من غير قصدِ النداء، والقصد منها تنبيه المُخاطب، وتوكيدُ الأمر، فإن قُلتَ: واعجباه: يعني اعَجبوا، وإن قُلت: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ﴾: أي أبشِروا بهذا الغُلام الجميل الذي سيكون سبَب غِنانا إذا بِعناهُ.

ويوسف أُوتيَ شطر الحُسن كما في حديث الإسراء، قال ﷺ: «فإذا أنا بيوسف، إذا هو قد أُعْطِيَ شطرَ الحُسنِ» رواه مسلم، ومن الذي أُوتِيَ الحُسنَ كله؟

والجواب: آدم، ونبيُنا ﷺ، وجميلٌ قول القائل:

وأجمل منكَ لم تَرَ قَطُّ عيني ... وأجمَلُ منك لم تلدِ النساء
خُلقْتَ مُبَرَّأً من كل عيبٍ ... كأنك قد خُلِقتَ كما تشاء

قال صاحب تفسير «البحر المحيط»: وتَعَلُّقُ يوسف بالحبل يدل على صِغره، ولفظة «غلام» تُرَجِّحُ ذلك، وأنه كان دون البلوغ وذلك قوله: ﴿هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ﴾ أي: أخفى الوارِدُ ومَنْ معه أمرَ يوسف، ولكن عمّن أخفَوا أمره؟

والجواب: قولان:

الأول: قال مجاهد: وهو أنَّ الوارِدَ ومن معه أخفى عن القافلة أنهم وجدوه في البئر؛ لأنَّهم إن قالوا للسَيارةِ التقطناهُ من البئر شاركوهم فيه، وإن

قالوا لهم إننا اشتريناه، سألوهم الشَرِكَةَ في شِرائِه، فالأصوبُ أن نقول لهم: إنَّ أهل الماء جعلوه بضاعةً عندنا مؤتمنين عليها لنبيعهُ لهم بمصر.

والتحقيق: أنَّ قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾: أي أخفوا يوسف عن أهل الماء الساكنين حوله؛ لأجل أن لا يدَّعيه أحدٌ من أهل ذلك المكان؛ ولأجل أن يكون بِضاعةً لهم من جُملَةِ تجارتهم.

والبِضاعةُ: القطعةُ من المال، الذي أُعِدَّ للتجارة، فأخفوه ولم يَدَعوه يمشي معهم، ثم يُذيِّلُ الحقُّ عز وجل الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾، أي لا يخفى ما فعلهُ الوارِدُ ومن معه بيوسف من جعله بضاعةً لهم، ولا يخفى عليه كذلك ما فعلهُ إخوةُ يوسف، ومع ذلك لم يُغَيِّر الله ما حصل؛ لأن في ذلك حِكمةً عظيمةً، كما أنَّ في ذلك رحمةً لأهل مصر لما سيُجري الله عز وجل على يدي هذا الغُلام الذي سيدخُلُها في صورة رقيقٍ أسير، ثم يملِكُ أزِمَّةَ الأمور فيها، وينفع أهلها في دُنياهم وأُخراهم بما لا يوصف من الخير، فكان العمل الذي عَمِلَهُ أعداؤه - إخوته والسيارةُ - سبباً إلى وصوله إلى مُلك مصر، ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾.

قال العلماء: ونظرُهم إلى يوسف، وجعلُهم له كَعَرَضٍ تجاري يدل على نفسيةٍ مادية لا رحمةَ فيها ولا شفقة، ولذلك قال صاحب كتاب «قصص الأنبياء» الأستاذ «جاد المولى»: ولو كان أهل القافلة يحملون قلوباً رحيمةً لتعرفوا على حاله، وردوه إلى أهله، ولكنهم بعض الأنامِ يمشون على طبائع البشر كما قيل:

وإنما أنفُسُ الأنيسِ سِباعٌ   يَتَفارَسْنَ جهرةً واغتيالا

هنا قد يعرض سؤال: لماذا لم يتكلم يوسف، ولم يُطلع أحداً على حاله؟

والجواب كما قال الغرناطي: وقد ألهمهُ الله أن لا يُطلِعَ أباهُ ولا غيره من

الناس على حاله، لِحِكمَةٍ أراد الله إتمامها، ظهرت هذه الحِكمَةُ فيما بعد، من حاجة إخوته إليه، ومُلكهِ لخزائن الأرض - أرض مصر - ورفعِ أبويه على العرش، وما جرى له مما كان مكنوناً في القدر.

المحنة الثانية: الاسترقاق:

قال صاحب كتاب «نبأ المرسلين»: والسيارَةُ - القافلة - الذين التقط وارِدُهم يوسف كانوا من العرب الإسماعيليين، أو من مَدْيَنَ، سائرين بقافلتهم إلى مصر، وباعوه كرقيق في سوق عاصمة مصر السُفلى التي كان يحكُمُها قسم من الكنعانيين يُعرفون «بالعمالقة» الهكسوس، وذلك في زمن الملك «أبو فيس، أو أبيبي»، وكان ذلك في حدود سنة ١٩٢٧ ق.م.

قال جاد المولى في «قصص القرآن»: استأنفت القافلة السيرَ حتى ألقت عصاها بمصر، وعُرِضَ الحُرُّ الأبيُّ في سوق الرقيق، وباعوه بيعَ السَماح - التساهل - بثمن قليل خشية أن يُفتَضحَ أمرُهم، أو أن يُهتَكَ سترُهم، وإلى هذا أشار الكتاب العزيز: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف].

قوله: ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾: شرى: من ألفاظ الأضداد، تأتي بمعنى باع، مثل قول «يزيد بن زياد بن ربيعة»، المُلقب «بمُفرغ الحِميري» توفي سنة ٦٩ هـ:

وشريتُ بُرداً ليتني ... من بعدِ بُرْدٍ[١] كنتُ هامة

ومنه قول الشَماخ يصف رجلاً باع قوسه ثم ندم:

فلما شراها فاضت العينُ عبرةً ... وفي الصدر حزازٌ من اللوم حامِزُ[٢]

---

(١) بُرْدٍ: اسم غُلام له.

(٢) حامز: محُرِق.

وتأتي شرى: بمعنى اشترى، ومنه قول الشاعر:

ولو أنَّ هذا الموتَ يقبَلُ فديَةً   شريتُ أبا زيدٍ بما ملكت يدي

وقوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾.

قال الرازي: أعلم أنَّ الله وصفَ الثمن الذي بيعَ فيه يوسف بصفات ثلاث: كونه بخساً، وكونهُ دراهم معدودة، وكونهم كانوا زاهدين فيه.

الأولى: كونه بخساً قوله: ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾:

ومعنى البخْسِ: أي المبخوس، وهو القليل: كما قال عكرمة الشعبي، وقال مقاتل: زَيْفٌ ناقص العيار.

وقال قتادة: البَخْسُ: الظلم؛ لأنهم ظلموه في بيعه.

وقال ابن عباس: البَخْسُ: الحرام؛ لأنَّ ثَمَنَ الحُر حرام، والحرامُ مَمْحُوقُ البركة.

وقال ابن عطاء: إنما جعله بخساً؛ لأنه كان عِوضاً عن نفسٍ شريفة لا تُقَدَّرُ بِعِوض.

ثانياً: قوله: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾: دراهم بَدَلٌ من كلمة «ثمن» وهو المسكوكُ، وهي كلمة فارسية مُعربة، أي دراهم تُعَدُّ عداً لقِلّتها، ولكونها ما دون الأربعين؛ لأنهم كانوا لا يَزِنون إلا ما زاد عن الأوقية، وهو الأربعون فما فوقها، أما ما كان دون الأوقية فيعُدّونها عدّاً، فقيل للقليل معدود.

ثالثاً: وقوله: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ٢٠﴾، ولماذا زهدوا فيه؟

لكونهم لم يتكلفوا فيه قليلاً ولا كثيراً، كما قال صاحب كتاب «سورة يوسف» على حدِّ قول الشاعر:

ومن أخذَ البلادَ بغيرِ حربٍ   يَهونُ عليه تسليمُ البِلادِ

ولأنهم خافوا أن يظهرَ له مُستَحِقٌّ فيأخُذه من أيديهم، أو ظنوا أنه عبدٌ آبق فسيعود لسيده، قال الدكتور الشلبي: كانوا يودون التخلُّصَ منه بأي ثمن !!

وذكر البروسوي عند تفسيره لهذه الآية: ﴿ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠ ﴾، قصةً ما وجدتُها عند غيره من المُفسرين على حَدّ ما عَلِمْتُ، وقد نقلها عن كتاب «روضة الأخبار»، وهي: أنَّ الصبيان رأوا النبي ﷺ في طريق المسجد، وقالوا: يا رسول الله كُنْ لنا جملاً كما تكون للحسن والحُسين، فقال ﷺ لبلال وكان معه: «اذهب إلى البيت وائت بما وجدته لأشتَرِيَ نفسي منهم»، فأتى بلال بثماني جوزات، فاشترى نفسهُ بها، وقال ﷺ: «أخي يوسف باعوه بثمنٍ بخس دراهم معدودة، وباعوني بثمان جوزات».

ورُوِيَ عن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما: أنه قضى بحُرِّيَّة اللقيط، وقرأ هذه الآية: ﴿ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠ ﴾.

قال البروسوي: وفي الآية إشارة إلى أنَّ الجمال الظاهر لا قيمة له عند الله تعالى، وإنما العِبرةُ للجمال الباطن، وفي الحديث: «إن الله لا ينظر إلى صُوَركم وأموالكم، بل إلى قلوبكم وأعمالكم»، يعني: إذا كانت لكم قلوب صالحة، وأعمال صالحة تكونون مقبولين مُطلقاً عند الله تعالى، سواءً كانت لكم صورٌ حسنة، وأموال فاخرة، أم لا، وإلا فلا.

قال البروسوي: وليس بيع يوسف بثمن بخس بأعجب من بيعِكَ نفسك بأدنى شهوة، فلا بُدَّ من الإمساك والاحتماء والقناعة، والمُجاهدة.

يوسف في مصر عند سيده:

اشتراه عزيز مصر كما يقول المؤرخون، والقرآن الكريم لم يُبَين اسم الذي اشتراه من السيارة في مصر، ولا منصبه، ولا اسم امرأته، لأنَّ القرآن ليس كتابَ تاريخ وحوادث، إنما قصصُهُ حِكَمٌ ومواعظ وعِبَرُ وتهذيب، ولكن النسوة وصفوه بعد ذلك بالعزيز، واسمه عند المؤرخين «قطفير، أو قوطيفار، أو فوطيفار»، وكان رئيس شُرطة الملك، وكان قُدماء المصريين يُطلقون الصفات على الوزراء كالأسماء، فهذا العادل، وهذا العزيز، وهذا القوي، ولكن الدكتور أحمد بهجت في كتابه «أنبياء الله» قال: والراجح أنَّ العزيز كان رئيس الوزراء، ومدينة مصر في ذلك الوقت هي: «منفيس»، ويُقال: «منف»، وهي قاعدةُ مصر السُفلى، وكان حُكامُها من الكنعانيين، عُرفوا عند القِبْطِ باسم «الهكسوس» أي الرُعاة، وكانوا قبائل.

أما مصر العليا: فهي المعروفة بالصعيد وكانت تحت حُكم فراعنةِ القِبْطِ، وكانت مدينتُهم «ثِيْبَةُ أو طيبةُ» وهي موضع الأُقصر الآن: جمع قصر؛ لأنَّ بها أطلال القصور القديمة، أي الهياكل، وكانت حُكومة مصر العليا حينها مُستضعفةً لِغَلَبَةِ الكنعانيين على مُعظم القُطْرِ وأجوده، وقد أشار القرآن إلى أنَّ المُشتري كان من مصر بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ [يوسف ٢١]، كان الزوجان عاقرين، فَفَرِحا بيوسف، وتَوَسَم العزيز فيه معدناً كريماً، فقال لزوجته: يُخيل إليَّ أنَّ هذا الولد نبيل الفطرة، سريُّ الأخلاق، كريم المنبتِ، فأكرمي مثواه، وحاشاكِ أن تزجُريه زجرَ الخدم، أو تضربيه ضرب العبيد، فذلك قوله:﴿ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾، وهذه العبارة، قال الشهاب فيها: إنها كناية عن إكرامه على أبلغ وجه وأتَمِّه؛ لأنه مَنْ أَكْرَمَ المَحَلَّ بإحسان الأسرة، واتخاذ الفرش ونحوه، فقد أكرمَ ضيفه

بسائر ما يُكرم به.

وقال الشوكاني: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾، بالطعام الطيب، واللباس الحسن، وهذا القول قاله العزيز عندما نظر إلى يوسف وتَفَرَّسَ فيه مَخايلَ الرُّشدِ والذكاء، ولذلك قال ابن مسعود فيما أخرجه سعيد بن منصور والحاكم وصححه: أفرَسُ الناسِ ثلاثةٌ:

- العزيز حين تَفرَّسَ في يوسف فقال لامراته: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾.
- وابنة شُعيب حين رأت موسى فقالت لأبيها: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾ [القصص].
- وأبو بكر حين استخلف عمر، ولكن المُحققين قالوا: ليست قضية استخلاف عمر من باب الفَراسَةِ وحده، وإنما أُضيفَ إليها التجربة والمشاهده.

ثم علل العزيز سبب طلبه من زوجته إكرام يوسف بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾، عسى أن ينفعنا ببعض أعمالنا الخاصة، أو شؤون الدولة العامة لما يلوحُ عليه من ملامح الذكاء والنباهة، أو نتخذَهُ ولداً، فيكونَ قُرَّةَ عينٍ لنا، ووارِثاً لمجدنا ومالِنا إذا تَمَّ رُشده، وصدقت فراستي في نجابَتِهِ، وفُهِمَ من كلامه أنه لا ولدَ له، وأنَّ زوجته عقيم.

قال ابن عباس: كان حصوراً لا يولد له، قد يقول قائل: كيف قال: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾، وهو مُلْكُهُ، والولديةُ مع العبودية تتناقض؟

والجواب: قيل له: يُعتقه، ثم يتخذه ولداً بالتبني، وكان التبني معلوماً في الأمم، وكذلك كان هذا الأمر في أول الإسلام كما ذكر القرطبي في تفسيره.

وبهذه الوصية من العزيز، قَوِيَ مركزُ يوسف في القصر، وفي مصر، وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ

مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[يوسف].

قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾: أي في أرض مصر، حيث انتقل إلى مرحلة جديدة، ومجتمع جديد، وتربية كذلك جديدةٍ. لَقِيَ في هذه الأرض تكريماً تلمَسُهُ في أمر العزيز لزوجه: ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ ﴾، دون سائر الحواشي والخدم، ولَقِيَ مكانةً في القلوب يأمُر وينهى، وليس فوق أمره إلا أمر السيد وزوجه.

قال العلماء: هذا التكريم الجديد يختلف عن تكريمِهِ في بيت أبيه، حيث كان هذا التكريمُ من السيد يطلب ما يُقابله، فهنا يُعطي السيد ليأخذ ويأمُلُ مُقابِلَ ذلك بدلاً، نلمَسُ ذلك في قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ ﴾، أما التكريم الأول عند والده، فهو تكريمُ أُبُوَةٍ تبذُلُ وتُعطي ولا تنتظر بدلاً، هذه عاطفة الأبوة، أما عاطفة السيد، فعاطفة من يزرع ليحصد.

اشتراه سيدٌ ذو سلطان، فهو صاحب أمر ونهي، وهذا تدريب ليوسف لُمباشرة المسؤولية في الحُكم، ومُهمات الأمور.

ومن هذا التمكين في أرض مصر، تَعَلُّقُ العزيز وزوجه به عليه الصلاة والسلام، لأنهما عقيمان، وتَعَلُّقُ العقيم بالولد يكون شديداً، وهكذا عوَّضَ الله يوسف بحب أبيه حُبَّ العزيز، قطعهُ هناك ليصِلَهُ هنا، سبحانه هو البَرُّ الرحيم، وكان نفس الشعور عند امرأة العزيز، أحبت يوسف وهو صغير بغريزة الأمومة المحرومة من الطفل، فرأت فيه الصغير الذي تتمنى وهكذا؛ قَطَعَهُ هناك، ووصلَهُ هنا إنه هو الرؤوف الرحيم سبحانه؛ لأنه مَنْ حَرَّكَ قلبَ العزيز وجعله يقول لزوجه: ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ ﴾؟ الله، ومن الذي حَرَّكَ قلب زوجِ العزيز حتى تُعامِلَهُ كولدها أولاً؟ الله.

قال المفسرون: وهذا يشبه تماماً ما حصل لموسى، ألم يقل الله عز وجل لموسى: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه ٣٩]، فهي محبةٌ خارقةٌ للعادة، لعدم وجود معرفة أو إلفةٍ أو انتفاع قبلها، ألا ترى إلى قول امرأة فرعون: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ [يوسف ٢١]، مع قولها: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ [القصص ٩]، فكان قرة عينٍ لها قبل أن ينفعها، وقبل اتخاذه ولداً، كما قال ابن عاشور، فهذه المحبة هي التي دفعت امرأة فرعون أن تقول:

﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾، وهكذا كما صُنِعَ بموسى صُنِعَ بيوسف، موسى يُدفع لامرأة عاقر، ويوسف يُدفع لامرأة عاقر، ناموسٌ واحد، يدُلُّكَ على أنَّ الصانع كان واحداً وهو الله.

وهكذا كان تمكينٌ باطن للإثنين، أدى إلى تمكينٍ ظاهرٍ للإثنين، ثم يقول الله تعالى: ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف ٢١]، أي كان هذا الإنجاءُ والتمكين ليوسف لنُعلمه تعبيرَ الرؤيا، وأحاديث الأنبياء.

هنا سؤال يُقال فيه: ما علاقة التمكين في أرض مصر بتأويل الأحاديث؟

والجواب: العلاقة قوية وعميقة، فنُشوءُ يوسف في بيت العزيز الذي هو رئيس الوزراء، أتاحَ له التعرف على شخصيات الحُكم، فتمَكَّنَ عندهم، فلما رأى الملك الرؤيا، اختار رجالُ الحُكم يوسف لتفسيرها، فازداد مكانةً على مكانةٍ، ولا أقول شُهرةً على شُهرةٍ، لأنَّ الشُهرةَ تُطلق على ظهور أمر شنيع، والشُهرةُ كما يقول الطنطاوي، ليست مقياس العظمةِ، ولا ميزان الرجال، ومن السهل الوصول إليها.

أما قرأتم عن رجل أحبَّ أن يُعرفَ، وتتحدثُ عنه المجالس، وهو لا يملكُ لسناً بليغاً، ولا عقلاً مُفكراً، فذهب إلى بئر زمزم في موسم الحج، والناسُ يستقون منها، فبال فيها فاشتهرَ.

ثم يقول رحمه الله تعالى: تَفَرَّدَ بالشُهرَةِ البَطالون، والمُغنون، والراقصون، ثم يوصي الشباب المسلم بألا يُبالغوا في الحرص عليها، والزيادة في تقديرها.

قال صاحب «نظم الدُرر»: ولما كان من أعجب العجب أن يقعَ التمكين في أرض مصر لفتى غريب حصل له ما حصلَ من رِقٍّ وعذاب، لا أهل له فيها ولا عشيرةً، ثم يصل إلى مرتبة عالية، قال تعالى نافياً هذا العجب: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف]، أي فعَّالٌ لما يشاء، أراد إخوتُهُ السوء وأرادَ الله له الخير، فلا يُنازَعُ عز وجل فيما يُريد، وفي الأثر: «عبدي، ابنَ آدم، أنت تُريد، وأنا أُريد، ولا يكون إلا ما أُريد، فإن سلَّمْتَ لي فيما أُريدُ، أعطيتُكَ ما تريد، وإن نازعتني فيما أُريد، أتعبتُكَ فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أُريد».

وقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾: أي لا يعلمون خفايا فضله، ولطائف صُنعه، أو لا يعلمون أنَّ إرادةَ الله هي الغالبة، فيتصرفون مُتجاهلين هذه الحقيقةَ، وهي أنَّ الأمر كلَّهُ بيده عز وجل.

قال البقاعي: وبعد أن أخبر الله تعالى عما يُريده ليوسف، كما أخبَرَ عن عظيم قُدرته، أتبعَ ذلك بذكرِ أنه عز وجل أوجَدَ ذلك فعلاً للدلالة على تمام القُدرة، وشُمول العلم، فقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف].

قال القاسمي: الأشُدُّ زمانُ اشتداد جسمه وقوته، وهو هنا بمعنى الكاملِ، والمُجتمعِ القوةِ من الرجالِ، ولذلك قالوا:

ليس الفتى بِمُنعمِ الشُبّانِ ... إنَّ الفتى حمَّالُ كُلِّ مُلِمَّةٍ

وقوله تعالى: ﴿ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ ﴾: أي الفقه، والفصل بين الناس

فيما يقع من الأحكام في سلطان مَلِكِ مصر، وآتيناه العلم المؤيدَ بالعمل لأنَّ العمل بخلاف العلم سَفَهٌ.

قال صاحب «تفسير المنار»: آتيناهُ حُكماً إلهامياً وعقليّاً لحل ما يعرض له من المُشكلات والنَوازل مقروناً بالحق والصواب، وعلماً لَدُنِّياً وفكرياً بحقائق ما يعنيه من الأمور.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾: أي وكذلك تكون سُنَّتُنا في جزاء من تَحَلَّى بِصفة الإحسان، وثَبَتَ عليه بالأعمالِ الذين لم يُدَنِّسوا فطرتهم، ولم يُدَنِّسوا أنفسهم بالإساءة في أعمالهم، فيكونُ لكل مُحسنٍ نصيبٌ من الحُكم الصحيح، والعِلم النافعُ بقدرِ إحسانه، وبما يكون له من حُسن التأثير في صفاءِ عقلِه، وجودَةِ فقهه وفهمه، إضافةً إلى ما يستفيده بالكَسْبِ من غيره، ومثل هذا لا يُؤتى مَثَلَهُ المُسيئون.

قال صاحب «المنار»: إنَّ هذه السُنَّةَ في جزاء المُحسنين عامَّةٌ، ولكل مُحسنٍ منها بقدر إحسانه، عندها يكون حظُّ محمد ﷺ أعظمَ من حَظِّ سائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

قال الطبري: وهذا الحُكم – جزاء المُحسنين – وإن كان يشمل كلَّ مُحسنٍ فالمُرادُ به خطاب محمد ﷺ، يقول له عز وجل: كما فعلتُ بيوسف من الإحسان، من بعد ما لَقِيَ من إخوته ما لَقِيَ، فكذلك أفعَلُ بك، فأُنجيك من مشركي قومك الذين قصدوا إيذاءك، وأُمَكِّنُ لك في الأرض.

قال صاحب «الكشاف»: وفي الآية إشارةٌ إلى أنَّ يوسف كان مُحسناً في عمله، مُتَقِياً في عُنفوانِ أمرِهِ، وأنَّ الله آتاه العلمَ والحِكمةَ جزاءً على إحسانه.

قال الحسن: مَنْ أحسنَ عبادةَ ربه صغيراً، آتاه الله الحِكمةَ كهلاً.

قال العلماء: هذا قانون وسُنَّةٌ لا تتبدل: «ومن أحسنَ وأخلصَ آتاهُ الله الحِكمَةَ والعلمَ».

قال العلماء: القلبُ هو جهاز الاستقبال للموجات الربانية من الحِكمَةِ والعلمِ، ومفتاحُ ذلك الجهازِ: الإحسانُ والإخلاصُ.

ثم تأتي الموجاتُ فيها: «الخيرُ، الرضا، العلم، الحِكمةُ، الأُنس، الحِفظ»، فصدق الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

المحنَةُ الثالثة: في بيت العزيز ومع امرأته:

قال العلماء: لم يكد يوسف يخلَصُ من محنة الجُبِّ ويستريح إلى حياةٍ هادئةٍ في بيت العزيز، حتى جاءتهُ محنةٌ أُخرى كانت أشَدَّ من الأولى، لكنها محنَةٌ قوَّتْ عزمه، وتَقَرَّبت بها إلى الله نفسه.

هذه المحنة جاءت من جهةِ حُسنه وجماله، فَشَقِيَ بها زَمَناً، وجرَّتْ عليه بلاءً طويلاً، فكان حاله كما قال الشاعر:

وزهرةُ الروض لولا حُسنُ رونقِها

لما استطالت عليها كفُّ جانيها

ابتدأ يوسف عمله في بيت العزيز، وظهرت لهم أمانَتُهُ ونزاهَتُهُ، فازدادت به ثقتُهُ، وبارك الله للعزيز في ماله ومحصولاته.

كانت امرأة العزيز تنظر إليه في أول الأمر نظرتها إلى طفلٍ، ولكن عندما بَلَغَ أَشُدَّهُ، وخلعَ قميصَ الحَداثَةِ، ولَبِسَ بُرْدَ الشباب اختلف الأمر، صارت تُراقبُ يوسف في غُدُوّه ورواحه، وطعامه وشرابه، وتُلاحظه في القيام والقعود، وبدتْ لها منه محاسِنُ خفيةٌ فوق محاسِنِهِ الظاهرةِ، ثم شعرتْ أنَّ حُبه ينبتُ في قلبها، ويجري مع أنفاسها، وتمنَّتْهُ، ولكن كيف السبيلُ إليه وهي

امرأة العزيز؟!!

كيف تفعل؟ الأفضل أن تنسى حُبه، وتسحَقَ هواها.

قال المؤرخون: ولكن المُشكلة أنها تراهُ كل يوم، وكل ما رأتهُ وخَبُرَتْ معدِنَهُ ازداد ميلُ القلبِ إليه، وصدق عليها قول الشاعر:

وأشَدُّ ما لقيتُ من ألمِ الجوى   قُربُ الحبيب وما إليه وُصولُ

كالعيسِ في البيداءِ يقتُلُها الظما   والماءُ فوق ظهورِها محمولُ

ولما ضاق صدرُها، ودَنِفَ جسمُها، قررتْ أن تُجيبَ داعيَ الهوى، ولكن بشرط ألا تُذِلَّ نفسها، فهو عبدٌ، وهي سيدتُهُ، ولكن كيف السبيل؟

نصبت له دواعِيَ الفتنة، وأرتْهُ من نفسها ما عساهُ أن يُحرك داعِيَةَ الهوى فيه.

قال صاحب كتاب «قصص القرآن»: لكن يوسف وهو الكريمُ ابن الكريمِ ابن الكريمِ، أعرَضَ عن تلميحِها وتلويحِها، وغَضَّ بصره عن ملامحِها ومحاسِنِها، ولكن الإعراض عنها ضاعَفَ ميلها إليه، فرأت أنه لا بُدَّ من التصريح بدلَ التلميح، وأن تكون أجرأ على ما تطلب.

وأجمعت الرأيَ، وهيأت نفسها لما تُريد، وتركت أُبهة المُلك، ولبست شِعارَ العاشقة المُتصابية، ودعتْهُ لمخدعِها، وهو عليه الصلاة والسلام لا يعلم ما تُبيِّتُ له، فأسرع على عادته ليرى ماذا تريد، وإذا بها تسدلُ الستائر، وتُغلق الأبواب، وتقول له بكل صراحة هئتُ لك، أو هيتَ لك، وإلى هذا أشار تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف].

قال العلماء: وهذه هي المحنة الثالثة في حياة يوسف بعد الجب والاسترقاق.

وقوله: ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ﴾، المُراودَةُ: الطلب برفق ولين وبالكلام المعسول كما يفعل المُخادع.

قال الراغب: المُراودةُ: أن تُنازع غيرك في إرادةِ أمرٍ، فتُريد غير ما يريد.

وقوله: ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا ﴾: نُلاحظ أنه لم يُصرح باسمها للمُحافظة على السَّتر.

وقوله: ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ ﴾: دليل على أنَّ الأبواب كانت كثيرةً؛ لأنَّ غَلَّقَ تُستعمل للعدد الكثير؛ لأن قصور العُظماء فيها أكثر من باب، وعندما تدخل على عظيم، فإنك لا تجده في استقبالك بعد أول باب، بل لا بُدَّ من اجتياز عدة أبواب، كما ذكر الشعراوي في تفسيره.

قال الرازي: والسبب في تغليق الأبواب؛ أنَّ هذا الفعل لا يُفعل إلا في مكانٍ مستور، ولا سيّما إذا كان حراماً، ولتُحقق خُلوةً تامة بيوسف، كما ذكر الدكتور الشلبي.

وروى البروسوي في تفسيره: أنَّ يوسف كان يأوي إلى بُستانٍ في قصر «زليخا»، وقد قَسَّمَ يومه إلى ثلاثة أقسام: بين عمل، وبين ذكر وعبادة، وبين بُكاءٍ، فلما بَلَغَ تعلَّقت به، فكان يهرب إلى البُستان حتى تغيَّرَ شكلُها،

وقَصَّتْ ما تُعانيه على دايَةٍ لها، فأشارتْ عليها ببناء بيتٍ أو قصر تُسمّيه بيت السرور، وتفرِشه، ثم تتزيَّن، وتنثُر ذوائبها على صدرها، ثم تَقْدُمُ على يوسف.

وقد ذكر صاحب كتاب «أنبياء الله»: أنها ذكرت له أولاً محاسِنَ نفسه.

فقالت: يا يوسف ما أحسَنَ شعرك؟!! فقال: هو أول شيء يتناثر من جسدي.

قالت: يا يوسف ما أحسَنَ صورة وجهك؟!! قال: في الرحم صوَّرني ربي، وهو للتُراب.

قالت: يا يوسف ما أجمل عينيك؟!! قال: بهما أنظر إلى ربي وهما أول ما يسيلُ في الأرض من جسدي.

وكان صلوات الله وسلامه عليه لا يرفع بصره من الأرض، فقالت: يا يوسف: ارفع بصرك وانظر في وجهي، قال: إني أخاف العمى في آخرتي، وكان عليه السلام إذا اقتربت منه تباعَدَ عنها، فقالت: يا يوسف: أدنو منك وتتباعدُ عني؟!! قال: أريد القُربَ من ربي.

قالت: ضع يدك على صدري؟!! قال: سيّدي صاحبُ الحق في ذلك.

قالت: ادخل تحت السَّتْر أستُرك؟!! قال: لا شيء يستُرني من ربي إن عصيتُه.

قالت: فراشُ الحرير فرشتُهُ لك؟!! قال: إذاً يذهبُ نصيبي من الجنَّة.

ثم قالت: ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾؟!! قال: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾.

وقد ورد في الأثر عن علي بن الحسن بن علي، أنها قامت إلى صنم فسترته، وطلبت ما طلبت من يوسف، فقال لها: أتستحين من جماد لا يسمع ولا يُبصر، ولا يفقه، أنا أحق أن أستَحِيَ ممن خلقني فأحسنَ خلقي.

قال العلماء: ما زالت النساء تميل إلى يوسف ميلَ الشهوةِ حتى نبَّأَهُ الله، فألقى عليه هيبةَ النبوة، فَشَغَلتْ هيبَتُهُ كلَّ مَنْ رآهُ عن حُسنِهِ.

وقولها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾: أي أقبل وتعال.

قال الزجّاج: أجود القِراءات: ﴿هَيْتَ﴾ بفتح الهاء والتاء عند العرب، ومعناها عند علماء اللغة كافة: هَلُمَّ.

قال طرفة:

ليس قومي بالأبعدين إذا ما　　قال داعٍ من العشيرة هَيْتَ

قال الغرناطي: أمرتْهُ بالإسراع إليها، إشارةً إلى معنى ﴿هَيْتَ﴾.

قال الشاعر يُخاطب علي بن أبي طالب، وهو يومئذ أمير للمؤمنين:

أبلغ أمير المؤمنين أخـــــا العراق إذا أتيتا
إنَّ الــــعــــراق وأهـــلــــهُ سَلْمٌ إليكَ فهيتَ هيتا

قال مجاهد: ﴿هَيْتَ﴾: كلمة عربية، هي كلمةُ حَثٍّ وإقبالٍ على الشيء، وهي بالسريانية نفس اللفظ، ومعناها: تدعوه إلى نفسها، وهي في اللغة القبطية كذلك، ومعناها: هَلُمَّ.

قال ابن الأنباري: هناك كلماتٌ كثيرة يتفق فيها العرب مع غيرهم:

فالعرب والروم اتفقوا في كلمة «قسطاس».

والعرب والفرس اتفقوا في كلمة «سجّيل».

والعرب والترك اتفقوا في كلمة «الغَسَّاق».

والعرب والحبشَةُ اتفقوا في كلمة «ناشِئةِ الليل».

قال النحاس في كلمة ﴿هَيْتَ﴾ سبعُ قِراءات: أَصَحُّها إسناداً وأجَلُّها ما رواه الأعمش عن أبي وائل قال: سمعتُ عبد الله بن مسعود يقرأ ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، قال: فقلتُ له: إنَّ قوماً يقرؤونها ﴿هِيْتَ لَكَ﴾، فقال ابن مسعود:

إنما أقرأ كما عُلِّمْتُ، وهذا الكلام من ابن مسعود له حكمُ الرَّفع إلى النبي ﷺ.

وبعدما قالت ما قالت، وفعلتْ ما فعلت، قد يقول قائل: فماذا كان ردُّهُ؟

ويأتي الجواب في قول الله إشارةً إلى ما قال يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾، أي أستجيرُ بالله، وألتجئُ إليه مما دوعتِني إليه من الخيانة والعصيان.

قال الآلوسي: قوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾: أي أعوذ بالله معاذاً مما تُريدين مني، ثم قال الآلوسي: وهذا اجتِنابٌ منه عليه السلام على أتمِّ الوجوه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الذي دعتْهُ له مُنكرٌ هائِلٌ يجب الاستعاذةُ بالله منه.

قال العلماء: ولكنَّ يوسفَ، وإن كان في ريعان الشباب، وحُسْنِ الحالِ، فقد ارتَضَعَ الحِكمَةَ، وتَرعرَعَ في كنفِ الرسالة، وأعَدَّهُ الله لشرف النبوة - ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام ١٢٤] - فقلْبُهُ مشغول بربه عز وجل، ليس فيه موضعٌ تستهويه نوازعُ الهوى، ولذلك كان جوابه: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف]، معاذ الله أن أُجيبَكِ لما تُريدين بعد أن أوضحتْ له ما تُريد، هذا الأمر الأول.

والأمر الثاني: طلبَ المعونة من الله، فهو الذي أنجاه من إخوته، ثم من الجُبِّ، ثم هيّأ له مكانَ الإقامة الجميل في مصر، ومنحَهُ العلمَ والحِكمَةَ عند بلوغِهِ الأشُدَّ، ثم يستقبل كل هذا الكرم من الله تعالى بالمعصية له؟ لا، ثم هو يَذْكرُ بقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾، امرأة العزيز بمعنىً آخرَ تحتَمِلُهُ الآية: وهو أنَّ لك زوجاً أمرَكِ بإكرامي: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾، فأكرَمَ وِفادَتي، فكيف أُنكر النِعمَةَ، وأجحَدُ الجميلَ؟

وقوله: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾، تعليلٌ وراء تعليل، فإن كُنْتِ قد غَلَّقْتِ الأبواب، وأسدَلْتِ الحُجُبَ، فإنَّ الله يعلم خائنةَ الأعين وما تُخفي

الصدور، وما شأني أن يستجيبَ قلبي لما فيه غضَبُ الله، ونُكرانُ الجميل فأكونَ بذلك ظالماً: ﴿ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾: أي لا يظفرُ الظالمون بمطالبهم الأُخروية، فالفلاحُ المقصود هنا هو الفلاحُ الأُخرَوي.
والفلاحُ: هو الظَفَر، والفوزُ، وإدراكُ المُراد، وهو نوعان:

- دُنيوي: وهي الأمور التي تطيبُ بها الحياة الدنيا من عمرٍ مديد، وغنى وعز وجاه.
- وأُخروي: وهو أربعة أشياء: بقاءٌ بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلمٌ بلا جهل، ولذلك ورد في الآثار: لا عيش إلا عيشُ الآخرة.

و﴿ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾: كلُّ من ظَلَمَ نفسه بمعصيةٍ، وما طلبتْهُ منه عليه السلام فاحشةٌ، وفيه ظلمٌ للنفسِ وللغير، والخائنون ظَلَمَةٌ، وكل من قابل الإحسان بالإساءة فهو ظالم.

ثم انتبه - يا عبد الله - إلى الآية السابقة التي كانت جواب يوسف لها عما طلبتْهُ منه، فإنك تجد الجواب مُرتَّباً أحسنَ ترتيب: فبدأ جوابه بقوله: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾، ثم ثنى بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ ﴾، وثلَّثَ بقوله: ﴿ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

فأهمُّ الأشياء الانقيادُ لأمر الله تعالى؛ لأنه الخالق والمُنعم فبدأ بقوله: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾.

ثم إنَّ حقوق الخلق والغير واجبَةُ الرعاية، فلما كان العزيزُ قد أنعَمَ عليه فمن القبيح أنْ أُقابلهُ بالإساءة، ولذلك قال: ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ ﴾.

ثم إنَّ صَوْنَ النفس عن الضرر واجبٌ، ولذَّةُ الحرام قليلةٌ يتبَعُها: الخزي في الدنيا، والعذابُ في الآخرة، فالعقل مع الشرع يأمُرُكَ بالاحتراز منها،

فإن لم تحفظْ نفسك فقد ظلمتَ نفسك وغيرك، ولذلك قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾.

قال المفسرون: وهكذا جاءتهُ المرأة بكل فتنتِها، فجاءها بكُلِّ امتناعه، وجاءتهُ بكل ظُلُماتِها، فجاءها بكل أنواره: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾.

ولذلك قال القُشيري في كتاب «اللطائف»: لمّا غَلَّقت امرأة العزيز عليه أبواب المسكن، فتحَ الله عليه باب العصمةِ، فلم يضُرَّهُ ما أُغلق بعد أنْ أكرمَهُ الله بما فتح، ولذلك جاء بعد ذلك للتوضيح في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف] اعتصمَ بالله، ثم ذكر إحسانَهُ عز وجل له، ثم استحضرَ عاقبة الظلم، فَسَلِمَ.

قوله: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾، كان هَمُّها بمخالطته جازماً، قصدتْ ذلك، وعزمتْ عليه، لا يصرِفُها عن ذلك صارفٌ، بدليل أنها غلَّقت الأبواب، وفعلتْ المُقدمات من المُراودَةِ وغير ذلك من اللين في الكلام والحركاتِ، ودعوَته للإسراع إليها، أو لما تُريده منه بقولها: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾، مما اضطره إلى الهربِ نحو الَباب كما سيأتي معنا.

وقوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾: أي لولا رؤيةُ البُرهان من ربّه لهَمَّ بها كما هَمّت به، لتَوَفُّر الأسباب الداعيةِ إلى الهَمِّ، ولكن رأى من تأييد الله له بالبُرهان ما صَرَفَ عنه السوءَ والفحشاءَ.

قال أبو حيان في «البحر المحيط»: لم يقع منه الهَمُّ البَتَّةَ، بل هو – أي الهَمُّ – منفيٌ لرؤية البُرهان، ونظيرُهُ في اللغة العربية كثير:

يُقال لفلانٍ من الناس قارفتَ الإثم لولا أنَّ الله عصَمَكَ.

وكقولهم: أنت ظالم إن فعلتَ كذا - أي إن فعلتَ فأنت ظالم -.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص].

قال القاسمي: فالآية ناطقةٌ حينئذ بأنه لم يَهُمَّ أصلاً، ولو حصلَ الهَمُّ من يوسف بمُخالطتها كما كان الهَمُّ منها لكانَ القرآن أشار إلى هذا، وعندئذ يُقال: ولقد هَمّا بالمُخالطة، أو هَمَّ كل منهما بالآخر، والدليل على ذلك أنَّ هَمَّها صُدِّرَ بالتوكيد القسمي: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن .. ﴾، وصُدِّرَ هَمُّهُ بما يمحوه، ويُزيلُ أثره، وذلك قوله: ﴿ لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾، ثم يأتي الدليل القاطع على سلامة يوسف، ونقاءِ فطرته، بقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾، فما هو هذا البرهان؟

والجواب: هو العلمُ بأنَّ الله حرَّمَ الزِنا، والعلمُ بما ينتظر الزاني من العقاب: "حُفَّت النار بالشهوات".

والبرهان كذلك: هو طهارةُ نفوس الأنبياء من الأخلاق الذميمة، والله تعالى برحمته مَنَّ على المُتصلين بالأنبياء ومَنْ على طريقتهم بهذه الطهارة للنفوس، وانتبه إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحزاب].

فالبُرهان: هو وجودُ تلك الأخلاقِ الفاضلةِ التي تردَعُهُم عن المُنكرات، وحقيقة ذلك: أنَّ الأنبياءَ مُنزَّهون؛ لأنهم - وهم المبعوثون لتزكية الناس - لو فعلوا ذلك لكانوا حُجَّةً للسُفهاء على امتهانِ الشرائعِ.

وقال الشوكاني: قيل في البُرهان، إنه عندما هَمَّت المرأة بيوسف قامت

إلى صنم لها في زاوية البيت فستَرَتهُ بثوبٍ، فقال يوسف: ما تصنعين؟ قالت: أستحي من إلهي أن يراني !! فقال يوسف: أنا أولى أن أستحيَ من الله.

وقد أخرج أبو نُعيم في «الحلية»، أنها قامت إلى صنم لها مُكلَّلٍ بالدُّرِ والياقوت، فسترتهُ بثوبٍ أبيض بينها وبينه، فقال يوسف: ما تصنعين؟ قالت: أستحي من إلهي أن يراني على سوء؟!! قال يوسف: تستحين من صنم لا يأكل ولا يشرب ولا يسمع، ولا أستحي من إلهي الذي هو قائمٌ على كل نفس بما كسبت؟ ثم قال: لا تناليها مني أبداً.

قال الشوكاني: وهو البُرهان المقصود بقوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾.

قال القرطبي: وهذا القولُ هو أحسنُ ما قيل في معنى البُرهان.

قال أبو السعود في تفسيره: وقد ألصقَ بعض المفسرين المولَعين بسرد الروايات المأخوذة عن أهل الكتاب أقاصيصَ في الهَمِّ من يوسف أُنَزِّهُ كتابي عن نقلها، وكُلُّها خُرافات وأباطيل تَرُدُّها العقول، وتَمُجُّها الآذان، ويلٌ لمن لاكَها ولَفَّقها، أو سمِعها وصدَّقها، ثم قال: وقوله تعالى: ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾، آية بيِّنَةٌ، وحُجةٌ قاطعة، على أنه عليه الصلاة والسلام، لم يقع منه هَمٌّ بالمعصية، ولا توجَّه إليها قط، ولو توجَّه إليها لقيل: «لنصرفه عن السوء والفحشاء»، فلما قال تعالى: ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾، دلَّ على أنَّ ذلك شيءٌ توجه إليه من خارج فصَرَفه الله تعالى عنه بما فيه من موجباتِ العفةِ والعصمة.

قال صاحب «القنية»: فمن نسبَ إلى الأنبياء الفواحش، مثل العزم على الزنا كما يقوله بعض الجهلة في يوسف، كان شاتِماً لهم، وشتم الأنبياء كفر، ثم لو كان يوسف هّمَّ بالمعصية لكان ذنباً يجب أن يستغفر منه، لذلك قال الحسن:

«وعدم ذكر توبة ليوسف دليل على عدم معصيته، لأن الله تعالى لما ذكر أخبار بعض الأنبياء وما صدر منهم من هفوات ذكر استغفارهم بعدها»، كما في قصة نوح عندما طلب من ربه أن يُنجِيَ ولده الكافر: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود]، فجاء الجواب من الله: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود]، فلما صدرت منه هذه الهفوةُ - من نوح - تدارك نفسه بالاستغفار فقال بعدها: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود].

قال علماء الصوفية: إن فائدة قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف]، تُظهر العصمةَ لأنَّ الله أعطاه العلمَ والحِكمةَ إبّانَ بلوغه الأشُدَّ، وغلبَةِ الشهوةِ لتكون - الحِكمة - سبباً للعصمة.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ﴾: أي كذلك تصَرَّفنا في أمره، وثبّتناه ذلك التثبيتَ لنصرف عنه السوء: وهو مُقدماتُ الفاحشة، من نظرٍ بشهوةٍ أو لمس، أو تقبيل، ولنصرف عنه الفحشاء أيضاً، وما السبب في صرف السوء والفحشاء عنه عليه الصلاة والسلام؟

يأتي الجواب في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، و ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلِصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ قراءتان بفتح اللام وكسرها، والقراءتان مُتفقتان مُتلازمتان، فهم مُخلِصون لله في إيمانهم به عز وجل، وحُبِّهم وعِبادتهم له، ومُخْلَصون عنده عز وجل بالحِفظ والنبوةِ والوقايةِ من كل ما يُبعِدهم عن مولاهم عز وجل، فيوسف في عِداد الذين هم خيرٌ صِرْفٌ، لا يُخالطهم

غش، وجَمَعَ عليه السلام بين الصفتين: فهو مُخلِصٌ ومُخلَصٌ.

وقد ذكر الرازي في تفسيره لطيفةً من لطائف تفسيره فقال: إن الذين لهم تعلُّق بقصة يوسف هم:

يوسف، والمرأة، وزوجها، والنسوةُ، والشهود، وربُّ العالمين.

أما بيان براءة يوسف، فتجِدُهُ في قوله تعالى على لسان يوسف: ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾، وفي قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾.

أما بيان المرأة في براءة يوسف، فنجدُهُ في قولها: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾، وفي وقولها: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾.

أما بيان الزوج في براءة يوسف، فنجده في قوله: ﴿ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ ﴾، وفي قوله: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ﴾.

وأما بيان الشهود في براءته فنجده في قول الشاهد: ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

وأما النسوة فنجدُ براءته في قولِهنَّ: ﴿ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ ﴾.

وأما شهادة الله فنراه في قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

وأما بيان إقرار إبليس بطهارته، فنجده في قوله: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص].

فالمخلصون لا يستطيعُ إبليس إغواءهم، ولا إيقاعَهم في المعصية، والله شَهِدَ ليوسف أنه مُخلَص، فقال: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾، فكان

هذا اعترافاً من إبليس بأنه ما أغواه وما أضلَّه عن طرق الهدى.

ثم قال الرازي: وهنا نقول لهؤلاء الذين نسبوا إلى يوسف الهَمَّ بمعناهُ عند المرأة:

- إن كنتم من أتباع دين الله، فاقبلوا شهادة الله على براءته وطهارته.
- وإن كنتم من أتباع إبليس، فاقبلوا شهادة إبليس على طهارته كما مرَّ معنا.

يقول صاحب كتاب «نظم الدرر» مُعلّقاً على قول الرازي: ولعلهم يقولون، إن قُلنا لهم ذلك: كنا تلامذة إبليس، ثم زِدنا عليه، كما قيل في الشِعر عند الحريري:

وكنتُ فتىً من جُند إبليس فارتقى ... بيَ الأمرُ حتى صار إبليسُ من جندي

فلو مات قبلي كنتُ أحسنُ بعده ... طرايقَ فِسْقٍ ليس يُحسِنُها بعدي

درس بليغ علينا أن نَعِيَهُ:

قال العلماء: إنَّ أعظم فتنةٍ تمر بالإنسان فتنةُ الجمال، فيوسف استقبلَ الإلقاء في الجُبِّ بصبر، واستقبلَ العبوديةَ بصبر، واستقبل السجن بصبرٍ، ولكنه اشتكى من الابتلاء بالجمال فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف].

وهذا مصداق قول النبي ﷺ: «ما تركتُ فتنةً بعدي أضَرَّ من فتنةِ النساء على الرجال».

واعلم – يا عبد الله – أنَّ من شأن المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة، حتى إن حُماةَ الأنوفِ من كُبراء الرجال – كما يقول العلماء – ليُطأطئون رؤوسهم للفقيرات الحِسان، ربّاتِ الجمال، بل إنَّ المُلوك ليُذلون أنفسهم لمملوكاتهم

وزوجاتهم، ولا يأبَوْنَ أن يُسَمُّوا أنفسهم عبيداً لهُنَّ، كما رُوِيَ عن بعض ملوك الأندلس قوله:

نحن قومٌ تُذيبُنا الأعيُنُ النُّجْـ ـلُ على أننا نُذيبُ الحديدا
فترانا لدى الكريهَةِ أمرا راً وفي السِلْمِ للمِلاحِ عبيدا

فالموقفُ مع الجمال يتطلب الحزمَ والعزمَ حتى لا يقع العبد في المُخالفة، وهكذا قابل يوسف الموقف.

كيف واجه يوسف المُجتمع المُتراخي:

لا بُدَّ من موقفٍ حازم جازم يُواجه به المُؤمن المجتمع المُتراخي المُنحلّ في قضايا الأخلاق، وقد رأينا موقف يوسف، فقد التجأ إلى الله أولاً قائلاً: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾، ثم اعتصم بالقِيم والوفاء لله ولربِّ البيت الذي هو العزيز: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ﴾، ثم بصَوْنِ النفسِ عن الدنايا وعن الظُلم لها ولغيرها: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾.

والوفاء للقيم مطلوب من المؤمن، بل ومِنَ الإنسان لأنه يتميز عن الحيوان، حتى إنَّ بعض الإباحيين والإباحيات - كما يقول صاحب «تفسير المنار» - ممن لا يؤمنون بالله مَنْ يملكُ نفسه وشهوته لا خوفاً من الله ولا حياءً منه، ولكن وفاءً لزوجٍ أو عشيق عاهدهُ على أن يكون له وحده.

يقول صاحب «تفسير المنار»: حدثنا مُصور سوري مُقيم في أمريكا وصفه الشيخ رشيد رضا بالفسوق، إذ كان يعمل مُصَوِراً، فكتب إعلاناً في بعض الجرائد أنه يطلبُ امرأة جميلة لأجل أن يُصَوِرها كما يشاء بأجر مُعين من المال، قال: وهذا أمر معهود عند الأفرنج، فجاءه عدّةٌ من النساء، اختار إحداهُنَّ وخلا بها في حُجرته الخاصة، وأوصَدَ بابها، وأمرها بالتجرد

من الثياب، فاستجابت، فبدأ يُصَوِرُها على أوضاع مختلفة، إنحناءً ووقوفاً، وإقبالاً وإدباراً، وميلاً والتواءً، وهو لا يفكر إلا في إتقان صنعته، فعرض لها أثناء التصوير دُوارٌ في رأسها، فجلست على أريكة للاستراحة، فجلس بجانبها، عند ذلك تنبَّهَ في نفسه من الشعور ما كان غافلاً أو نائماً، فراودها عن نفسها فامتنعت أشَدَّ الامتناع، فعرض عليها المال فأعرضت، فقال لها عندئذ: أنت حرة في نفسك، ولكني أرجو أن تُجيبيني عن سؤالٍ علمي: هو أن تُبَيِّني لي سبب هذا الامتناع؟

قالت: سبَبُهُ أنني عاهدتُ رجلاً أحبه ويُحبني، وتعاهدنا أن يكون كلٌ منا للآخر لا يُشاركه فيه أحدٌ، ولا يبتغي به بدلاً، فقال لها: إنني أُهنِئُكِ وأحترمُ وفاءكِ هذا، ثم أَتَمَّ صِناعته، ونقدها الأجر المُعين فأخذتهُ وانصرفت.

ثم يقول الشيخ رشيد رضا: والراجح عندي،أنَّ هذه المرأة لم تشتهِ مُوافقة هذا الرجل، ولكنها وطَّنت نفسها على الامتناع، وأنَّ الذي منعها من اشتهائه توطينُ نفسها على الوفاء لمن عاهدته، وتوجيهُ النفس إلى الشيء، أو إلى تركه هو صاحب السلطان الأعلى على الإرادة، وتربيةُ الإرادة هي أصلُ التخلُّق بالفضائل، والبُعد عن الرذائل باتفاق الحُكماء والمُربّين، وقالوا: إن أعظم مزايا البشر والرجولة في قوة الإرادة، إذ لولاها لكان الإنسان كالحيوان الأعجم عبداً للغريزة.

ثم يقول رحمه الله تعالى: «فإن كانت هذه المرأةُ الإباحية قد ملكت إرادتها، ولم تلن لمُراوِدِها ولم يُغْرِها المال الذي هو المعبود الأكبر لأمثالِها في بلادها، وَوَفَتْ بعدها لمن سيتزوجها، أو لمن يُحبها، رغمَ الخُلوَةِ والتجرد، فهل يُستغرب أو يُستكثر على يوسف إباؤُهُ، وامتناعُه، وهو وريث مقام النبوة، والذي تربى في حِجْر رسولٍ كريم، مع ما خَصَّهُ الله به من اصطفاءٍ

وإحسانٍ، ومع ما صرفَ عنه من دواعي السوءِ والفحشاءِ، وما قَصَّ علينا بعد ذلك من شهادة المرأة على نفسها بقولها: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾، أيُستغرَبُ منه أو يُستكثَرُ عليه أن يكون أمْلَكَ لنفسه من تلك المرأة الإباحية؟». أيستكثرون عليه أن يكون بِمنجاةٍ من الهَمِّ بها الذي صَوَّرهُ لهم المُضِلّون من الزنادقة واليهود ليَلبِسوا عليهم دينهم، ويُشوِّهوا به تفسيرَ كلام ربهم.

ومن المواقف التي يجب أن تُتخَذَ لمواجهة المُجتمع المُتراخي، الفِرارُ من مواطنِ الفتنة بحزم وعزم، وهذا ما فعله يوسف وذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يوسف].

قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾، هذه العبارة تُظهر مُبالغةَ يوسف في الامتناع، وذلك بالجِدِّ في الهرب، وهذا دليل على إخلاصه، وأنه لم يحصل منه الهَمُّ أصلاً، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ .. ﴾.

قال الرازي: والاستباق طَلَبُ السَّبْقِ إلى الشيء، والمعنى هنا: اجتهادُ كلِّ واحدٍ منهُما، أي يوسف وامرأة العزيز، أن يسبِقَ أحدُهما الآخَرَ، فإن سبق يوسف، فتح الباب وخرجَ، وإن سبقتهُ المرأة أمسكتْ الباب لئلا يخرجَ.

قال الثعلبي: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ ﴾، يوسف فِراراً من الفاحشةِ، والمرأة طالبةٌ ليوسف.

ونُلاحظ هنا أن القرآن الكريم ذكر باباً واحداً فقط، وعند التغليقِ ذكر أبواباً كثيرة: ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ ﴾، وهذا دليل على أنها عند الاستباق لحقتْ بيوسف عند الباب الأخير، وأنَّ يوسف سبقها إلى الباب وأراد الخروج، والمرأة تعدو خلفه فلم تصل إلا إلى دُبُرِ القميص فقدَّتْهُ، وذلك

قوله تعالى: ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾.

والقَدُّ: القطع طويلاً، والقَطُّ: القطع عرضاً، ولذلك رُوِيَ في وصف علي رضي الله تعالى عنه: أنه إذا علا قَدَّ، وإذا اعترَضَ - أي توسط - قَطَّ، يعني إذا التقى قِرْنَهُ في الحرب وعلاهُ بالسيف قَدَّهُ نصفين، وإذا قَطَّهُ عرضاً قطعَهُ نصفين وأبانَه.

قال ابن كثير: أمسكت بقميصه من ورائه فقَدَّته قَدّاً فظيعاً.

قال ابن عباس: شقَّتْهُ حتى بلغت عَضَلَةَ الساق.

وقال الشوكاني: كان للشقِّ صوتٌ سمِعَهُ الزوج والشاهد.

قال الشعراوي: وهذا دليل على أن يوسف سَبَقها إلى الباب، فشدَّتهُ من قميصه من الخلف، وتمزَّقَ القميصُ في يدها، وفي تلك اللحظة، وبعد قَدِّ القميص وفتح الباب يظهر الزوج أمامَهُما فجأة، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ ﴾، حيث جاء مُبكِراً في غير وقت مجيئه فرأى تلك الحالة الغريبة، والسيد هنا: الزوج، عزيز مصر، وكان القِبطُ يُسَمّون الزوج سيداً.

قال صاحب «المنار»: كان النساء في مصر يُلَقِبنَ الزوج بالسيد، واستمرَ هذا إلى زماننا، ولماذا لم يقل القرآن: «ألفيا سيدهُما؟»

والجواب: لأن استرقاق يوسف غير شرعي، فالعزيز على الحقيقة ليس سيداً ليوسف.

لم تكن العاشقة ترى زوجها يبرُزُ عند الباب، وعلى مسرح الحادثة حتى تصرَّفت بسرعةٍ وبدهاء، وبمهارة تُشبه مهارة إبليس.

كان واضحاً أن هناك صراعاً، يوسف يرتعش حياءً، وينعَقد العرقُ على جبينه، وهي مُضطربةٌ محلولةُ الشعر، مُحمَرَةُ الوجه.

كان موقفاً يبعثُ على الريبةِ والشكِ، وأدركت هي أنَّ زوجها سيسأل عن الخبر، ولذلك أسرعت قبل أن يفتح فَاهُ بالسؤال فألقت الاتهام على يوسف عليه السلام، على شكل سؤال تبريري لتتهرب من المسؤولية: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾، ثم لم تكتفِ بإلقاء التُهمة، وإلصاق البُهتان بيوسف، بل قررت العقوبة وحدَّدتها: ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾، موجِعٌ يحمِلُهُ على الأدب، ويُلزِمُهُ الطاعة.

قال الرازي: خافت التُهمةَ، فأسرعت فَرَمَتْ يوسفَ بالفِعلِ القبيح.

قال ابن عباس: وكلامُها هذا كالمثل القائل: «خُذِ اللصَّ قبل أنْ يأخذكَ»، ويُشبه كذلك المثل العامي: «ضَرَبني وبَكى وسَبَقني واشْتكى».

قال صاحب «المنار»: كان قولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾، مَكْراً وخداعاً لزوجها من ثلاثة وجوه:

الأول: إيهامُ زوجها أنَّ يوسف قد اعتدى عليها بما يَسُوءُه ويَسوءُهَا.

الثاني: أنها لم تُصرح بذنب يوسف كما ادعت، لئلا يشتدَّ غضبه فيُعاقبه بغير ما تُريده، كبيعه مثلاً.

الثالث: تهديدُ يوسف وانذاره أنَّ أمره بيدها ليخضع لها، ويُطيعها فيما تُريد، ولذلك قال الآلوسي: في هذه الحالة التي يُدهش لها الفَطِنُ، وحين شاهدها زوجها، جاءت بحيلةٍ جمعت فيها غرضين وهما: تبرئتُها لنفسها، ومُحاولة إفهام يوسف أنه إنْ لم يفعل ما تأمُرُهُ به اختياراً سيتعرض لسجن أو إيلام، وهذا سيظهر لنا فيما بعد عندما قالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

هنا سؤال: ماذا نلمس في هذا الموقف، وفي هذه الصورة؟

والجواب: نلمِسُ أزماتٍ مُتداخلة، لكل أشخاص القصة الثلاثة:

أزمةُ الزوج: حين يُفاجأ بزوجته مع شاب في وضع مُريب ولا يدري ما القصة، وهو على ما هو عليه من المكانة والسُلطة، وحين يرى ذلك الفتى الذي أحسَنَ إليه وقال: ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾، تتهِمُهُ امرأتُه.

أزمة المرأة: حين فوجئت بزوجها يضبطُها في موقف مُريب، ولذلك أسرعت باتهام يوسف للتخلص من هذه الأزمة.

وأزمة يوسف: حين يجد نفسه أمام العزيز الذي أحسَنَ إليه وهو في موقف مُريب، ولذلك أسرع لدفع التُهمةِ عن نفسه لا هاتِكاً لسترها، فقال ما قَصَّهُ علينا القرآن: ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾[يوسف].

قال البُقاعي: وما قال ذلك إلا حين اضطرتهُ إليه بنسبته إلى الخيانة، ثم يقول البُقاعي: وصِدْقُه لعمري لا يحتاج إلى بيانٍ أكثر من الحال الذي كانا فيه، وهو أنهما عند الباب؛ لأنه لو كان هو الطالب لما كانا إلا في صدر البيت وأشرف موضع فيه.

قال الرازي: أعلمُ، أنها لما لَطَّخت هذه المرأةُ يوسف واتهمتْهُ، احتاج إلى دفعِ التُهمة عن نفسه فقال: ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾.

قال نوف الشامي: ما أراد يوسف هتكَ سترها، ولكنه لما خاف على سُمعته وشرفه أظهرَ الأمرَ، ونُلاحظ أنه أتى بضمير الغائب: ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي ﴾، أدباً وحياءً أن يُواجِهَها بضمير خطاب أو إشارة.

قال الأستاذ أحمد بهجت في كتابه «أنبياء الله»: قالت: إنه حاول اغتصابها، فنظر إليها يوسف ببراءةٍ وحلم، كان ينوي أن يكتُمَ سِرها، ويستُرَ عليها، فلما ألقت بالتُهمة عليه اضطُرَ للدفاع عن نفسه، فقال: ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن

نَفۡسِيۚ ﴾، ثم قال: ونحسَبُ أنَّ العزيز قال عند ذلك: اخفِضا صوتيكما.

وفي هذه الآية لطائف نذكُرها:

الأولى: تلمسُ من الآية حُبها الشديد ليوسف؛ لأنها قدَّمتْ السجن وأخَّرت العذاب بقولها: ﴿ إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾، لأن المُحِبَّ لا يسعى في إيلامِ محبوبه، واقتران السجن بالعذاب الأليم، دليلٌ على شدةِ موقع السجن من ذوي الأقدار، كما نُلاحظ أنها لم تذكر يوسف بالاسم للسجن أو للعذاب، بل جعلت الكلام عاماً: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا ﴾، صوناً للمحبوب عن الذِكر بالسوء والألم.

الثانية: نجِدُها في قولها: ﴿ إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ ﴾، أرادت به السجن يوماً أو بعض يوم على سبيل التخفيف، ولم تُردْ له السجن الطويل؛ لأنها لو أرادت ذلك له لقالت: «يجب أن يُجعل من المسجونين»، ألا ترى إلى عدو الله فرعون لما هدَّدَ نبي الله موسى، ماذا قال له؟: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ٢٩ ﴾ [الشعراء].

الثالثة: لما رأت يوسف امتنَعَ عن الاستجابة لها، اعتقدت يقيناً طهارته، فاستحيت أن تقول: «إن يوسف قَصَدني بسوء»، بل اكتفت بالتعريض والعموم: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا ﴾.

قال العلماء: ثم إنَّ هناك علاماتٍ أُخرى على صِدْقِ يوسف وكذبها.

منها: أنَّ يوسف كان في ظاهر الأمر عبداً، والعبدُ لا يجرؤ على التسلُّط على حُرمة سيده إلى هذا الحد.

ومنها: أنَّ المرأة كانت قد زيَّنتْ نفسها على أتم الوجوه، أما يوسف فلم يُشاهد عليه أثرُ التزيُّنِ، فالريبةُ منها واضحةٌ.

ومنها: أنَّ أهل القصر شاهدوا يوسف، وعاشوا معه سنين، فما رأوا منه إلا خيراً، وهذا مما يُقَوّي براءته، ويُرَجِّحُ تُهمتها.

ومنها: رؤيتهم ليوسف وهو راكض باتجاه الباب ليخرج، والرجل الذي يطلب المرأة لا يخرج من الدار على هذا الوجه.

أمام هذه الدلائل الكثيرة التي تدفع الزوجة، وقفَ العزيز صامتاً لتيَقُّنِهِ من صدق يوسف وكذب زوجته، ثم يأتي الدليل القاطعُ الدالُّ على براءة يوسف وصدقه، وأنها هي المُذنبة، وذلك بشهادة الشاهد الذي هو قريبُها، قال تعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾، هذا الشاهد كان من خواصِّ الملك يُشاوره في مهام الأمور كما ذكر الطبري، وكان رجلاً حكيماً ذا لحية، وهو ابن عمها، أو ابن خالها على قولين.

وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم عن الحسن قال: هو رجل له فهمٌ و عِلمٌ.

قال أبو جعفر: والأشبه أن يكون رجلاً عاقلاً حكيماً يُشاوره الملك، وكونه من أهل المرأة، أوجَبُ للحُجَّةِ عليها، وأوثقُ لبراءة يوسف، وأنفى للتُهمة عنه.

كان العزيز رجلاً عاقلاً، فجلس وفتح تحقيقاً، فسأل يوسف، وسأل زوجه، ثم التفت إلى الشاهد قريبِها واستنارَ برأيه، فماذا كان رأيه؟

قال: إنَّ دليل القضية يكمن في القميص الذي يلبَسُه يوسف، إن كان مُمَزقاً من الأمام، كان هذا دليلاً على أنَّ يوسف أرادها بسوء، فحاولت الدِفاع عن نفسها، فمزقت قميصه.

قال الزوج: فإن كان قميصُه مُمَزقاً من الخلف؟!!

قال الشاهد: تكون هي التي راودتهُ عن نفسه، وينتقل القميصُ إلى أيديهم، ونظر الزوج رئيس الوزراء فوجد القميص مُمَزقاً من الخلف، ونظر قريبُها الشاهد إلى القميص كذلك فرأى ما رآه العزيز، كان الشقُّ من الخلف، لقد ثبتت التُهمَةُ على الزوجة: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يوسف]، ونُلاحظ هنا أنَّ الشاهد قد قال هذا القول قبل أن يرى القميصَ، وبهذا يكون قد وضع الأساس الذي سيَبْني عليه الحُكم.

قال الرازي: كان قريبُها في تلك اللحظة مع زوجها يُريدان دخول البيت.

فقال: الأساس في التحقيق القميص، ويُحْضَر القميص فإذا بالقَدِّ من الخلف، فقال الزوج أو الشاهد عندها: ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

قال الزوج: إن هذا الأمر من حِيَلِكُنَّ وكيدِكُنَّ، وعَظَّمَ كيدَهُنَّ؛ لأنه أعلقُ بالقلوب وألطفُ من مكر الرجال، والراجح أنَّ هذا من قول الزوج جواباً لها على قولها: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾.

قال العلماء: ولا تَظنّ - يا عبد الله - أنك تسوءُ المرأةَ عندما تقول لها: ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾، وإنما تشعر عندها بأنها كاملةُ الأنوثة، وأنها مُستوفية القُدرة على الكيد.

ولما سمع الزوج خُلاصة التحقيق التفتَ إلى يوسف وقال له: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾، أي عن ذِكْرِ الكيدِ الذي حصل لك ولا تتحدث به، ثم التفتَ إليها وقال لها: ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ﴾: أي اطلُبي الغُفران لذنبك حتى لا تنالَكِ عقوبةٌ مني أو من الله، ثم استأنَفَ كلامه بقوله: ﴿ إِنَّكِ

كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾، أي العريقين في الخطأ، ونُلاحظ أنه جاء بلفظ الخاطئين وهي مُذكر، ولم يقل من الخاطئات؛ لأنه قصد الإخبار عن المُذكر والمؤنث فَغَلَّبَ المُذكر.

والمعنى: إنك كنت من الناس الخاطئين، وهذا مثل قوله تعالى عندما تكلم عن بلقيس قال: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل].

وقوله: ﴿مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾، يُقال في العربية: خَطِئَ، يَخْطَأُ: إذا تعمد الذنب، وأخطأَ يُخطِئُ: إذا لم يتعمد الذنب.

وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى﴾: يُقرر العزيز بأنَّ ذنباً قد وقع، وهذا يدل على أنه عرفَ منهجاً سماوياً، ولذلك قال لها: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى﴾، كما يدلنا على أنَّ المعصية عموماً، وفاحشة الزنا خصوصاً تُسَوِّد الوجه في الدنيا والآخرة، ولذلك مأمورون بالعفاف الكامل، فقد ورد عن ابن عباس مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: «عِفّوا تَعِفَّ نساؤكم» أخرجه ابن عدي، وفي الحديث: «مَنْ يستعففْ يُعِفُّه الله».

وروى ابن ماجة في سننه بإسناد حسن عن ابن عباس أنه ﷺ قال: «مَنْ سترَ عورةَ أخيه، ستر الله عورته يوم القيامة، ومن كشف عورة أخيه، كشف الله عورته حتى يفضحه بها».

وجميل قول القائل:

يا هاتكاً حُرَمَ الرجال وتابعاً ... طُرُقَ الفساد فأنت غيرُ مُكَرَّمِ
من يَزْنِ في قومٍ بألفي درهم ... في أهله يُزنى بربعِ الدرهم
إنَّ الزنا دَيْنٌ إذا استقرضتَهُ ... كان الوفاءُ من أهل بيتك فاعلمِ

قال العلماء: كان مشهد التحقيق والمُحاكمة رُباعياً، فيه يوسف والمرأة

والعزيز والشاهد الذي فحص القضية وحكم بها، وإذا بالحق تبارك وتعالى ينقُلنا إلى دائرةٍ أوسع، وهي دائرةُ المجتمع بأكمله، ليدُلَّنا النص القرآني الآتي على أنَّ قصور السلاطين لا أسرارَ لها، بل عليهم عُيونٌ، وعندهم ألسنةٌ تتكلم بما ترى، حتى لا يظُنَّ ظانٌّ أنه يستطيع أن يحمِيَ نفسه من الجريمة.

لقد تلَصص البعض من خدم القصر على ما جرى حتى وصلت الحكاية إلى نسوة المجتمع، ويحكي القرآن عن ذلك: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يوسف].

قال الصاوي: اشتهرَ الخبر، وكان هذا الاشتهار أوَّل الأمر منها، لأنها أخبرت بعض النسوة بذلك، وأمرتهُنَّ بالكتمان فلم يكتُمْنَ.

وقال جاد المولى في كتابه «قصص القرآن»: وشاع الخبر في مصر العاصمة، وعلى ألسنة النسوة - وهُنَّ جمعُ قِلَّةٍ - وبين جنبات القصور، أنَّ امرأة العزيز عاشقةٌ لفتاها، وقد دعتهُ لنفسها فامتنع، فهي مسلوبةُ الفؤاد.

قال أحمد بهجت: لم يطلبِ الزوج أكثر من إغلاق الحديث في الموضوع، ولكن هذا الحديث - حديث الغرام - في الطبقات المُترفة المُترهلة لا يمكن أن يُغلق، ففي القصور عبيد، وفي القصور خَدَمٌ وحَشَم، فرُبَّ خادمٍ تحكي لأُخرى، أو وصيفةٍ تقُصُّ على زوجها.

والمهم أنَّ الخبر خرج من القصر إلى القصور الحاكمة الراقية، ووجدت نساء القصور في هذا الخبر مادةً شهيةً للحديث؛ لخُلوِّ حياة هذه الطبقات من المعاني، وانصرافها إلى اللهو، كل ذلك يُلقي أهميةً قُصوى على الفضائح المُرتبطة بشخصياتٍ كبيرة، وإلى عصرنا هذا نلمس ذلك، وقد أشارت الآية السابقة إلى فُشوّ الخبر: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا

عَن نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾، سجل القرآن أكثر التُهم التي قالها النسوةُ فيها، لا كُلَّها، وهي:

امرأةٌ تُراود فتاها عن نفسه، وقد شغفها حباً، وإنا لنراها في ضلال مبين.

قال الصاوي: صار حُبُّها له مُحيطاً بقلبها إحاطةَ الشَّغاف بالقلب – الشغافُ: حجابُ القلب – حتى لم تعد تنظر إلى غيره، إنها امرأةٌ.

قال النسوة: لم تَرْعَ حُرمةَ قصرها، ولا حُرمة زوجها، ولا حُرمةَ مكانتها، وخطؤها واضح لأنها تركت السَّتْرَ والعِفَّةَ، وأحبت غير زوجها، ومالت إلى – عبدٍ – ليس من طبقتها.

ولكن كيف وصل الخبر إلى النسوة؟

لا شك أنَّ الذين نقلوا الخبر إلى خارج القصر لهم علاقتان، كما قال المفسرون: علاقةٌ بالقصر فسمعوا ورأوا، وأدركوا، ونقلوا ذلك إلى ذويهم خارج القصر.

ونحن نُلاحظ أنَّ قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾، ولم يقل نساء؛ لأنَّ نسوةٌ جمعُ قِلَّةٍ، مما يدل على أنَّ عدد المُتكلِّمات محدود.

وقد فتَّشَ العلماء عن هؤلاء النسوة اللاتي ثَرْثرنَ بالأمر فقالوا: هُنَّ خمس: امرأة الساقي، وامرأة الخباز، وامرأة الحاجب، وامرأة السائس – المسؤول عن الخيل والدواب – وامرأة السجّان، وهؤلاء النسوة يعشنَ داخل بيوتهِنَّ، فمن الذي نقل إليهنَّ أسرار القصر؟

والجواب: لا بُدَّ أنَّ أحداً من أزواجِهنَّ، أو أكثر من واحد أراد أن يُسَلِّيَ زوجته في حديث المنازل، فنقل خبر امرأة العزيز مع يوسف إليها، ثم هي نقلت الخبر إلى غيرها من النسوة ممن تعرفُهنَّ، ولمن لأزواجِهنَّ علاقة بالقصر

كما قال العلماء.

وقول النسوة: ﴿ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾، كلمةُ حق، لكن لم يَقُلها النسوةُ غضَبَةً لحقٍّ أو تَعَصُّباً لفضيلةٍ، كما قال الشعراوي رحمه الله تعالى، لكنه الرغبةُ في النكاية بامرأة العزيز، كما أردنَ أن يُنزِّلنَ امرأة العزيز عن كبريائها، وينشُرْنَ فضيحتها، ويُظهِرْنَ الضلال الذي أقامت عليه امرأة العزيز ولعل قولَهُنَّ يدفعُها إلى السماحِ لهُنَّ برؤيته، فكان قولُهُنَّ كلمة حق أُريدَ بها باطل.

ولذلك فضح الله مكرهُنَّ وهدفَهُنَّ وسمّاه مكراً لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ [يوسف ٣١].

والمكر هنا: غِيبَتُهُنَّ لها؛ لأن الغِيبةَ تكون سراً كالمكر، أو لكونها أخبرت بعضَهُنَّ بحُبها ليوسف وأمرتْهُنَّ بالكِتمان، فأظهرنَ الخبر، عندها قررت اتخاذ موقف.

ما هو موقِفُها أمام انتشار الخبر في قصور الطبقة الراقية؟

قال أحمد بهجت في كتابه «أنبياء الله»:

قيلَ لها: إنَّ قصور المدينة تتحدث عن قصة غرامك.

قالت: بمن؟

قيل لها: بيوسف، ويتحدث نساء الوزراء عن تهالُكِكِ عليه، ويقُلْنَ: إنك في ضلال مبين، فبدأت ثورتها قائلةً: حَدِّثوني بأسماء المُثرثراتِ، هل رأين يوسف؟ هل يُدركنَ سحره؟ ثم دخلت غُرفتها الخاصة، واعتكفت فيها قليلاً تُفكر، ثم وصلت إلى قرار، فما هو هذا القرار؟

قال ابن عباس: إن امرأة العزيز قالت لزوجها: إني أُريد أن أتخِذَ طعاماً، فأدعو إليه هؤلاء النسوة، نسوة الخواصِّ.

فقال لها: افعلي، فاتخذت طعاماً، ثم زَيَّنت لهُنَّ البيوت.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: أصدرت أمرها بإحضار الطُهاة، فوصلوا إلى القصر، وأمرتهم بإعداد ألوانٍ من الطعام والشراب والفاكهة، وأن تُوضع السكاكين الحادة بجانب التُفاح والأُترج على الخصوص، وأمرت بوضع الوسائد والحشايا على عادة الشرق في ذلك الزمان، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ [يوسف ٣١].

وقوله: ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ قال ابن كثير: جَمَعَتْهُنَّ في منزلها، وهيأت لهُنَّ ضيافةَ مثْلِهِنَّ، وأحضرت من جُملة ذلك شيئاً مما يُقطع بالسكاكين كالأُترج ونحوه، وكانت قد شحذت السكاكين: ﴿ وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾، وليس ذِكْرُ السكين هنا، معناه لا يوجد سواه، وإنما توجد الملاعق والشوكات، وإنما ذكرت السكاكين على الخصوص لأنها تريد شيئاً مخصوصاً من وجودها، وهدفاً مُعيناً أضمَرتْهُ في نفسها.

قال البروسوي: اتخذت لهُنَّ وليمةً عظيمة من ألوان الطعام والشراب لا توصف.

وقوله: ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا ﴾، والمُتكأ: أي ما يُتكأُ عليه من الوسائد، والاتكاء: الميلُ على أحد الجانبين.

وورد عن ابن عباس قال: إن المُتكأَ يُطلق أيضاً على مجلس الطعام؛ لأن المُترفين المُتكبرين كانوا يَتَّكِئُونَ للطعام عادةً؛ ولذلك نهى النبي ﷺ عن

ذلك، فقد أخرج ابن أبي شيبة عن جابر أن النبي ﷺ: «نهى أن يأكل الرجل بشماله، وأن يأكُلَ مُتكِئاً»، وقال ﷺ: «أما أنا فلا آكُلُ مُتكِئاً»، وتهيئةُ المُتكأِ تدل على أن الجلسة قد تطول، فلا يدخل المللُ على الحاضرات إذا اتكأنَ، حيث كُنَّ بالعشرات.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: واقتصرت الدعوة على النساء، فأخذن حُريتَهُنَّ في الكلام، وجلسنَ مُتكِئاتٍ على الوسائد، يأكلن ويشربنَ، وطالت المأدبةُ ودارت الثرثرةُ مع الحذر من التكلم في موضوع غرامِها بيوسف، كل واحدةٍ منهُنَّ تعلم القصة، ولكنها تُمسك لسانها، هكذا تقضي الأصول في الطبقات المُترفة.

وفجأةً - وبدون مُقدمات لذكر يوسف - تفتح هي الموضوع قائلةً: سمعتُ من يُردد أني عاشقة للفتى العِبراني يوسف؟!!

وسقط الصمتُ فجأةً على المائدة كلها، وتوقفت الأيدي، ثم أمرت بتوزيع التفاح والأُترج على الحاضرات، ثم قالت: لا أُنكر أني أحبه منذ زمن، كان اعترافُها بذلك سبباً في إزاحة الحرج عن نفوسِهِنَّ، فعادت النفوس إلى الارتياح، وبدأ تقشيرُ الأُترج والتفاح.

قال صاحب «المنار»: كان يوسف في حجرة أو مخدع في داخل حجرة الطعام التي كُنَّ فيها محجوباً عنهُنَّ، ولو كان في مكانٍ خارج عنها لقالت: ادخل عليهِنَّ، فعُلِمَ من هذا أنها تعمدت أنْ يفجأهُنَّ وهُنَّ مشغولات بما يقطعْنَهُ، ويأكُلنَهُ، عالمةً بما يكون لهذه المُفاجئةِ من تأثير في دهشتِهِنَّ.

قال الآلوسي: ألبست يوسف البياض؛ لأنَّ البياض يزيد في جمال الجميل، رفعت امرأة العزيز يدها مُشيرةً إلى الخدم بإخراج يوسف من المَخْدَع والدخول عليهِنَّ، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾.

قال ابن كثير: فخرج وهو أحسنُ من البدر.

وقال الشلبي: خرج يوسف مَلِكاً غير مُتوَّج، أو مَلَكاً في صورة بشر، الجمالُ والجلال، فكانت المُفاجأةُ: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف].

قال ابن مسعود: كان وجه يوسف مثل البرق، وكان إذا أَتَتْهُ امرأة لحاجة غطّى وجهه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾: أي أعظمنَهُ وأجللنَهُ، وبُهِتْنَ به؛ لأنهُنَّ رأَيْنَ نورَ النبوة، ودلائل الحِشمة التي هي عدم الاهتمام بالمآكل والمشارب، والنساء كما قال الراوي رحمه الله تعالى.

قال صاحب «اللطائف» القُشيري: أرادت امرأة العزيز أن تنفيَ عنها الملامة التي تعرَّضت لها من قِبَلِ النسوة، وأن توقِعهُنَّ في الملامَةِ ففعلت بهِنَّ ما عملتْ، فلما رأينهُ تغيَّرْنَ، وتحيَّرْنَ، ونَطقْنَ بخلاف التمييز، فقُلنَ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾، وقد كان بشراً، وقلن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، ولم يكن ملكاً.

وقد ذكر صاحب «محاسن التأويل» القاسمي: أنَّ النسوة نَفَيْنَ عنه البشريةَ لغرابةِ جماله، وأثبتْنَ له الملَكيةَ على عادة ما رُكِّزَ في طِباع البشر، أنه لا أحسن من المَلَكِ، ولا أقبح من الشيطان، ولذلك يُشَبِّه الناسُ كلَّ مُتناهٍ بالحُسنِ بالمَلَكِ، وكل مُتناهٍ في القُبحِ بالشيطان.

وقوله: ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾: أي وجدنه عند المُشاهدة أعظمَ وأجلَّ مما وُصِفَ لهُنَّ، فقد يُحدّثك إنسانٌ عن شخص آخر بخبر وأنت لم تَرَهُ، ولكنك حين تراه على الحقيقة تجده أفضل مما سمعتَ عنه كما ذكر العلماء، وفي هذا يقول

الشاعر:

كانـت مُسـاءلةُ الرُكبـانِ تُخبِرُني ... عن جعفرِ ابنِ حبيبٍ أصدقِ القِيَمِ
حتى التقينا فلا واللهِ ما سـمعتْ ... أُذني بأطيَـبَ مما قـد رأى بصري

وبالمُقابل لهذه الصورة، صورة إنسانٍ له صيتٌ وذكر، وإذا رأيته ازدَرَيْتَ مَرآتَهُ، ومن ذلك قولهم كما ذكر الشعراوي: سماعُكَ بالمُعِيديِّ خيرٌ من أن تراه، أي: يا ليتكَ قد ظللتَ تسمع عنه دون أن تراه؛ لأن رؤيتَكَ له ستُنقِصُ من قَدْرِ ما سمعت، والنسوة عندما آذين امرأة العزيز بالكلام عنها وعن مُراودتها ليوسف، تخيَّلْنَ له صورةً ما من الحُسن، لكنَّهُنَّ حين رأينه فاقت حقيقتهُ المرئية كلَّ صورة تَخَيَّلْنَها عنه، فحدث لهُنَّ انبهارٌ، وأول مراحل الانبهار الذهولُ كما قال الشعراوي، فكان من جراء ذلك جَرْحُ الأيدي، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾.

قال القاسمي في قوله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾: أي جَرَحْنَها، كما تقول: كنتُ أقطع اللحم فقطعتُ يدي، تعني جرحتها.

قال النحاس: ليس قطعاً تَبِينُ منه اليد، وإنما هو خَدْشٌ وحَزٌّ.

قال القرطبي: جرحنَ أنامِلَهُنَّ ولم يجدنَ ألماً؛ لانشغالِهِنَّ بما رأينَ، ولدهشتِهِنَّ.

قال صاحب «المنار»: وأحسن كلمة رُويت في تفسير الآية عن السلف، ما قاله «ابن زيد بن أسلم المدني»، قال: أعطتهُنَّ أترُنجاً وعسلاً، فكُنَّ يحزُزْنَ الأُترنجَ بالسكين، ويأكلنه بالعسل، فلما قيل له: ﴿ وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾، خرج، فلما رأينه تهيَّمْنَ به حتى جعلْنَ يحززنَ أيديَهُنَّ بالسكين وفيها الأُترُنج ولا يعقلْنَ، قد ذهبت عقولهُنَّ مما رأينَ وقُلْنَ عندها: ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا

﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١ ﴾.

قال أحمد بهجت في كتابه «أنبياء الله»: كان ظهور يوسف وبُروزه في المكان مُؤَثراً إلى الحدِّ الذي أذهَلَهُنَّ عن ألمِ جرح اليد بالسكين، عندها قالت إحدى الحاضرات بصوتٍ خفيض: سبحان الله، وقالت أُخرى: ما هذا بشراً، وتمتمت ثالثة وهي تدفع شيئاً من شعرها عن وجهها: ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴾.

وقولهن: ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾: تنزيهٌ لله تعالى عن العجز، أي ما أعظم قُدرةَ الله الخالق لمثل هذا الجمال والجلال، وتعجُّباً من بديعِ صُنع الله عز وجل.

وقولُهن: ﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴾، الغرض منه وصفه بأعلى مراتب الحُسن؛ لأننا قلنا أنه قد رُكِّزَ في طباع البشر تشبيهُ الصورة الحسنة بالمَلَكِ، ويُشبهون القبيح بالشيطان، ومن هنا جاء قول الشاعر:

قومٌ إذا قوبِلوا كانوا ملائكةً

حُسْناً، وإن قوتِلوا كانوا عفاريتا

قد يقول قائل: ماذا كان كلامُها، وماذا قالت لهُنَّ، وقد غلبَ مكرُها مكرَهُنَّ، وصار حالُهُنَّ وحالُها سواء، كما قال الشاعر:

أَبـــصَرُهُ عـــاذلي عليه ... ولم يَـــكُـــنْ قبلَـها رآه

فـقـال لي لـو عَـشِـقْـتَ هذا ... مـا لامَـكَ الـنـاسُ في هـواه

فنظلَّ من حيث ليس يدري ... يـأمُـرُ بـالـعِـشـقِ مَـــنْ نهـاهُ

قالت لهن: إذا كان الأمر ما رأيتُنَّ بأعيُنِكُنَّ، وما أكبرتُنَّ في أنفسكُنَّ، وما فعلتُنَّ بأيديكُنَّ، وما قلتُنَّ بألْسِنَتِكُنَّ، فذلك هو الأمر الذي لُمْتُنَّني فيه، وأسرفتُنَّ في عَذْلي عليه، إذ قُلتُنَّ مِنْ قبل ما قُلتُنَّ، وذلك يظهر في قوله تعالى:

﴿ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ ﴾.

قال صاحب «المنار»: لقد انكشف القناع، أرادت إظهار سُلطانها فعجزت، فلا أمرٌ لمن لا يُطاع، وعندها قالت بصراحة وجُراْةٍ من تأثير يوسف عليهِنَّ عندما رأينه: ﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ ﴾، قالت هذه العبارة للنسوة المَدْعُوات بعد أن فعلْنَ بأنفُسِهِنَّ ما فعلْنَ من جرح الأيدي.

قال صاحب كتاب "سورة يوسف": قالت ذلك، وهي مُفعمَةٌ بالانتصار الذي حققتهُ عليهنَّ، ولسان حالها يقول:

لِيَقل مَنْ شاءَ ما شاءَ فإني لا أُبالي

لماذا؟

لأنهُنَّ صرْنَ جميعاً في التأثر بحُسنه سواءً.

قال العلماء: أظهرت عُذرها في حبه، كشفت الحقيقة، وبَرَّأَتْ يوسف، وذلك قولها: ﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ ﴾.

انظر إلى وقاحتها - يا عبد الله - تُعلن ذلك بدون خجل، كأنها طلبت منه معروفاً: ﴿ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ ﴾.

وكلمة ﴿ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ ﴾: تعني الامتناع الشديد، والتحفُظَ البليغَ، كأنه في عصمة.

قال ابن عطية في قوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ ﴾: أي طلبَ العصمةَ من الله، وتمسَّكَ بها، وعصاني.

قال القاسمي في «محاسن التأويل»: وهذا بُرهان لا مزيدَ عليه على براءة يوسف.

قال صاحب «المنار» في هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾: والله ما عَجَبي من يوسف أنْ راودتهُ مولاته فاستعصمَ، وأن قالت: ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾، قال: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾، فقد قال ذلك الكثيرون من السلف ممن ليسوا في مقام يوسف ومعرفته بالله عز وجل، ومُراقبته لله، فقد ورد أنَّ أعرابياً راودَ أعرابيةً في ليلةٍ ليلاء، وقال: إنه لا يرانا إلا الكواكب، فكان جوابُها: وأين مُكَوْكِبُهَا؟

وإنما عجبي، بل إعجابي بيوسف عليه السلام، أنَّ نظره إلى الله أو نظرَ الله إليه، لم يَدَعْ في قلبه البشري مكاناً خالياً لنظرات هذه العاشقة التي شغفَها حباً، ثم بلغتْ بها الوقاحة، أن هددته أمام النسوة، وأمام الخدم، ودعتهُ من جديد إلى تلبيةِ طلبها، وأكدت ذلك بالأيْمان، مما يدلك على أنها ماضية في نيتها السيئةِ ومكرها الخبيث.

قال القرطبي: ثم عادت للمُراودة من جديد بمحضرٍ من النسوة، وخلعت جلباب الحياء، وهدَّدت يوسف بالسجن إن لم يستجبْ لها، ولم تخشَ لوماً، ولا مقالاً، ولا زوجاً، بخلاف أولِ أمرها، إذ كان أمرُها سراً بينها وبينه، وهذا ما قرره قول الله تعالى على لسانها: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يوسف].

قال الشعراوي: قالت ذلك وكأنها هي التي تُصدر الأحكام، وفي هذا التهديد دليل على أنَّ سُلطانها على زوجها كبير كما هو شأن المُترفين الكبار، وبخاصة منهم من حُرِمَ من نِعمةِ الولد.

توعَّدت يوسف بالسجن مع الإذلال، وذلك قولها: ﴿ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

قال الرازي: والتوعُد بالصغارِ والإذلال له تأثيرٌ عظيم على من كان رفيعَ النفس كيوسف.

وقال الآلوسي: ولا يخفى عليك شدةُ ما هدَّدت به، وبخاصة وأنَّ للذُلِّ تأثيراً عظيماً في نفوس الأحرار، وقد يُقَدِّمون الموت على الذل.

قال البروسوي: أتت بهذا الوعيد المُنطوي على فنون التأكيد أمام النسوة، ليعلم يوسف أنها ليست خائفة ولا مُتخفيةً من أحد، وحتى تدفع النسوة على أن ينصحنَ يوسف بالاستجابة لها.

ولكن ماذا كان رد يوسف على هذا التهديد؟

كان رده وجوابه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف].

نُلاحظ هنا - كما قال العلماء - أن يوسف أتى بصيغة الجمع، فأسندَ الدعوة إليهنَّ جميعاً، مع أنَّ امرأة العزيز هي التي قالت: ﴿ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾، فلماذا؟

قال البروسوي: وإسناد الدعوة إليهنَّ جميعاً؛ لأنهُنَّ تنصَّحْنَ له بقولهن: إنه لا مصلحةَ لكَ في مُخالفتها؛ لأن ذلك يوصلك إلى السجن والصَّغار، أو لأنهُنَّ جميعاً دَعَوْنَهُ إلى أنفُسِهِنَّ.

وقد ذكر القرطبي وغيره: أن بعض النسوة كُنَّ يُحاولنَ الانفراد به بحُجة النُصح له، والتخويف من عاقبةِ امرأة العزيز، ثم تقول كل واحدة منهُنَّ كلاماً تدعوه إلى نفسها تلميحاً أو تصريحاً، ولا شك أنَّ يوسف لاحظ منهُنَّ بعض الإشارات أو الغمزات التي توحي بطلبهِنَّ منه أن يستجيب لما تُريده امرأة العزيز حتى يخرج من هذا الموقف، وهذه الورطة كما قال الشعراوي،

ولا تستغرب – يا عبد الله – في مثل هذه المواقف، إذا كانت بعض الإشارات من العيون والحركات، والانفعالات تُعبّرُ عما في القلب، وتكشفُ ما يضمُرُه الفردُ، كما ذكر الشعراوي رحمه الله تعالى، ثم قال: فقد ذكر الأُدباء أن أبا دُلامة الشاعر المشهور، كان في مجلس الخليفة يوماً، وأبو دُلامة مشهور بشدَّةِ الهجاء – وهو الشتم بالشعر – وأراد الخليفة أن يُداعبه فقال له: يا أبا دُلامة، عزمتُ عليك إلا هجوتَ واحداً منا.

قالوا: ودارت العيون في المجلس، وأشار له كلُّ مَنْ حضر المجلس خُفيةً بأنه سيجزل له العطاء إن ابتعدَ أبو دُلامة عن هجائه؛ ولأنَّ أبا دُلامة معروفٌ بالطمع، وخَشِيَ أن تضيع عليه هذه العطايا، فقام وهجا نفسه وقال:

ألا أَبلغْ لديك أبا دُلامة ... فليس من الكِرام ولا الكرامة
إذا لبِسَ العِمامةَ كان قِرداً ... وخنزيراً إذا خلع العمامة

وهكذا خرج من قَسَم الخليفة، وأحرز العطايا التي وعده بها الحضور.

إذاً لاحظ يوسف تلك الأجواء، وخاف من تلك المؤثرات، والطاقة البشرية لا تقدر على احتمال ذلك إذا لم يأتها مددٌ من الله، وعونٌ منه، ولذلك التجأ إلى الله: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ ﴾.

قال البروسوي: لجأ إلى الله، وناجاه في تضرعٍ وخشوع، ولم يدخل في جدلٍ معها، كقوله: أنا مظلوم، ولِمَ السجن؟... إلخ

فاضَلَ يوسف بين السجن والصبوَةِ، فَفَضَلَ لديه السجنُ على ما فيه من مشقةٍ، لأن مشقةَ السجن موقوتَةٌ، أما نَدَمُ المعصية فعذابٌ يدوم في نفسه ما بقيَ فيه نَفَسٌ، والمعصيةُ تأتي بعدها آلامٌ عظيمة في الدنيا، بالذم والاحتقار، وفي الآخرة: بالعار والنار.

والسجنُ يأتي بعده سعاداتٌ عظيمة: المدح في الدنيا، والجنة في الآخرة، وهو في السجن مظلوم، وفي المعصية يكون ظالماً.

والسجنُ مجالٌ لتذكرِ الله، وهو فيه سيّدُ نفسه، وخارج السجن يُدعى ليكون عبداً لشهواته، كما قال صاحب كتاب «سورة يوسف».

وقول يوسف: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ ﴾، فأحبُّ هنا ليست من باب التفضيل؛ لأنه عليه السلام لم يُحبَّ ما يدعونه إليه من الفاحشة قط، وإنما المعنى: هما شران، فآثرَ أحدَ الشرين على الآخر وإن كان فيه مشقةٌ، وفي الآخر لذةٌ، لما يترتب على تلك اللذة من معصيةٍ لله تعالى الموصل إلى سوء العاقبة، وفَضلَ تحمُّلَ المشقة في سبيل الله، والصبرَ على النوائب، وانتظار الفرج لأنه عبادة، ثم ناطَ العصمة بالله، واستسلمَ لله كعادةِ الأنبياء والصالحين، وأنه لا يصرف السوء إلا الله فقال: ﴿ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣ ﴾.

قال العلماء: جاءت الفتنة من كل باب، ففر منها يوسف من كل باب، وتَذَلَّلْنَ له بكل وسيلة، ففرَّ منهُنَّ بكل وسيلة، فلما رأى الفتنة تُريد أن تسعى إليه، صاح صيحته الكُبرى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ ﴾، ثم تلألأ وتلألأ فأعلن: ﴿ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣ ﴾.

وقوله: ﴿ أَصۡبُ ﴾، الصُبُوُّ: المَيلُ إلى الشيء المحبوب، ومنه قولهم: نسيمُ الصَّبا، سُميت بذلك لأن النفوس تصبو إليها وتميل لطيب نسيمها ورَوْحِها، حتى كان الشُعراء يتغزلون بها، وبخاصة العاشقون منهم، كقول أحدهم:

خُذا من صبا نجدٍ أماناً لقلبه ... فقد كاد رَيَّاها يطيرُ بِلُبِّهِ

وإياكما ذاك النسيمَ فإنه إذا هَبَّ كان الوجدُ أيسرَ خَطْبِهِ

ومنه قول «يزيد بن ضبّة الثقفي»:

إلى هندٍ صبا قلبي وهِندٌ مِثلُها يُصْبي

قال يوسف: يا رب: أنا بشر ضعيف، يتضعضع أمام الفتنة، فلا تترُكني وحدي، فأميل إليها بغريزتي، وعندها أكون إنساناً استعبدتهُ شهوته، وهذا شرُّ أنواع الجهل، ولذلك قال: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

والجاهلون: هم الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأن من لم يعملْ بما عَلِمَ هو والجاهل سواء.

ويُطلق الجهل كذلك على السَّفهِ، المُقابل للحِلْم، تقول: فلان سفيه: أي لا حِكمةَ عنده، فالسفيه: هو المُرتكب للمعاصي والقبائح والحماقات، وهذا هو الراجح هنا، ومن ذلك قول الشاعر عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلنَّ أحدٌ علينا فنجهَل فوقَ جهلِ الجاهلينا

هل قال يوسف عندما أقبلت عليه الفتنة، كما يقول الجاهلون، أو كما يقول شباب اليوم: استمتعْ بشبابك؟ أم كان له موقف آخر؟

لقد ارتفع يوسف فوق الأحداث، وفوق هوى النفس المُحرم، وفوق الدنيا، والتجأ إلى الله قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

ونُلاحظ أنَّ يوسف قال: ﴿رَبِّ﴾، ولم يقل: يا إلهي، لماذا دعا ربه باسم الرُبوبية؟!! لماذا؟

قال العلماء: دعاه باسم الربوبية اعترافاً من يوسف بفضله سبحانه،

قائلاً: يا ربّ أنتَ رَبَّيتني وتعَهدتني، وأنا أدعوك يا رب الآن أنْ لا تتخلى عني، ولا تَكِلْني إلى نفسي حتى لا أكون من الغارقين في الجهل بارتكاب مثل أفعال الجُهلاء.

قال الشعراوي: ولما لجأ إلى المُربي الأول، وفضَّلَ السجن على معصية الله، ولأنه عز وجل كريم يستجيب دُعاء من دعاهُ تلويحاً أو تصريحاً، أتت الاستجابة العاجلة من الله ليوسف وذلك قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يوسف].

والعطف بفاء التعقيب ﴿ فَٱسْتَجَابَ ﴾، إشارةٌ إلى أن الله عَجَّلَ إجابة دُعائه التلميحي: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾، أي: اصرف يا رب عني كيدهنَّ، و﴿ ٱسْتَجَابَ ﴾ مُبالغةً في أجاب.

استجاب له ربه، وثبَّتهُ على العِفةِ حتى قرَّرَ تحمُّلَ محنة السجن على اللذة الحرام.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: صرف الله عن يوسف كيد النساء، وأوقع الله في قلوب النسوة يأساً كاملاً منه، ومن حُبِّه.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾، أي أجاب الله دُعاءه سريعاً بدون مهلة، والسمعُ هنا: مستعمل بمعنى إجابة المطلوب، وذلك مثلُ قول المُصلي: سمع الله لمن حمده، أي يستجيب له، فهو عز وجل يستجيب لدُعاء المُتضرعين المُلتجئين إليه، وهو تبارك وتعالى العليمُ بأحوالهم، وما انطوت عليه نياتُهم، وبما يُصلحهم، فإن الله تعالى لا يُخيِّبُ عبداً التجأ إليه وخافه.

يروي الشيخ الدقاق: مكثتُ سنوات في مكة وأنا أشتهي اللبن، فخرجتُ مرة إلى «عُسفان» وهي موقع قريب من مكة، ونزلتُ ضيفاً عند حي من

أحياء العرب، فوقعت عيني على جارية حسناء وأخذتْ بقلبي، فقالت لي: يا شيخ، لو كنت صادقاً لذهبت عنك شهوةُ اللبن، فقال الشيخ: فرجعتُ إلى مكة، وطُفْتُ في البيت، ثم نمت، فرأيتُ في منامي يوسف عليه السلام، فقلت له: أقرَّ الله عينك بسلامتك من فتنة امرأة العزيز زليخا؟!! فقال: يا مبارك: بل أنت أَقَرَّ الله عينك بسلامتك من المرأة العُسفانية، ثم تلا يوسف قول الله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن].

قال ابن كثير: إنَّ اختيارَ يوسف للسجن ليَسْلَمَ من الفتنة هو أعلى مقامات الكمال؛ لأنَّ يوسف مع شبابه، وكماله، وجماله، تدعوه سيدتُه وهي في غاية الجمال والمال والرياسة، ثم يمتنعُ ويختار السجن، فإنه ممن ينطبق عليهم قوله ﷺ الثابت في الصحيحين: «سَبعةٌ يُظلّهم الله في ظله يوم لا ظِلَّ إلا ظله، وعدَّ منها: ورجل دعته امرأةٌ ذات منصب وجمال، فقال: إني أخافُ الله رب العالمين».

وهكذا انتهت المحنة الثالثة ليوسف مع امرأة العزيز، وهي أشدُّ المِحن؛ لأنها الفتنةُ بالنساء، ومبدؤها من النظر، فإنْ أطلق العبدُ نظرهُ أتعبَ نفسه، قال الشاعر:

وأنت إذا أرسلتَ طَرْفكَ رائداً لِقلبكَ يوماً أتعبتكَ المناظِرُ
رأيت الذي لا كلَّهُ أنت قادرٌ عـ ـليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

قال المفسرون: ظهرت العلامات الدالة على براءة يوسف أمام العزيز وأهل مشورته، وانكشف لهم انحرافُ المرأة، وإصرارُها على المعصية دون خجل، وانتقل الحديث من قصور الخاصة إلى عوامّ الشعب، وأصبحت هيبةُ العزيز في الميزان، وتحركت أجهزة الحكم كلُّها، لماذا؟ لسجنِ يوسف ليكون في ذلك الفصلُ بينها وبينه، حتى تهدأ الضجةُ، وليظهر للناس أنَّ يوسف هو

المسؤول عن كل هذا السوء الذي ظهر في بيت العزيز.

المحنة الرابعة: السجن

قال أحمد بهجت في كتابه «أنبياء الله»: أُدخِلَ يوسف السجن؛ إسكاتاً للألسنة، ومحاولةً للقضاء على القصة وتلبيساً للتُهمةِ له أمام الناس، وهكذا أتتهُ المِحنةُ الرابعة، فأُدخل السجن وهو بريء، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥ ﴾ [يوسف].

وقوله: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم ﴾: أي للعزيز ومن حوله رأيٌ جديد في مُعالجة القضية، وتسكين الإشاعة، وهو السجن، وهو رأي عجيب بعد أن تحققوا من براءته.

قال القرطبي: ظهرت الدلائل التي بلغت حدَّ القطع واليقين على براءته، ولكن القوم سكتوا عن هذه الدلائل سعياً في إخفاء الفضيحة وكتماناً للقصة ألا تشيع أكثر من ذلك.

وقوله: ﴿ مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥ ﴾، ما هي هذه الآيات، وهذه العلامات الدالة على براءة يوسف؟

أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: سألت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن هذه الآيات فقال: ما سألني عنها أحدٌ قبلك، ثم قال ابن عباس: من الآيات: قَدُّ القميص، وقول العزيز: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ ﴾، والشاهد، وأثر السكاكين، عند ظهور دلائل البراءة، بدا لهم رأيٌ بِسجنِهِ.

قال ابن عباس: حُمِلَ يوسف على حمار، وضُرِبَ بالطبل، ونوديَ عليه في أسواق مصر: أنَّ يوسف العبرانيَ أرادَ سيدته، فجزاؤه أن يُسجن، وعند القرطبي: هذا جزاء من يعصي سيدته.

قال أبو صالح: ما ذكر ابنُ عباس هذا الحديث إلا بكى.

وكان يوسف يردُّ على قولهم ويقول: هذا أيسرُ من مقطعاتِ النيران، وسرابيل القطرانِ، وشراب الحميم، وأكلِ الزقوم.

وانتبه - يا عبد الله - إلى قوله عليه السلام: هذا أيسر من مقطعات النيران، فهذا القول قريبٌ من قوله تعالى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ ﴾ [الحج]، كأنَّ النار تفصيلٌ على قدرِ جُسومِهم إحكاماً للعذاب، فهي ليست فضفاضةً عليهم.

قال الشيخ عبد الوهاب النجار: كانت العلاماتُ دالةً على صدق يوسف وكذِبِها، وكان من واجب العزيز أن يُوقِعَ العقاب عليها، وأن يُكرم يوسف الذي أحسَنَ و حفِظَ حقَّ العزيز في غيبته، ولكن العزيز لم يفعل شيئاً للمذنبة التي عرضت عفافها في سوق الفسوق، بل قدَّمَ يوسف البريء فديةً لسُمعتها، فكانت هذه المرأة مثل الدنيا يُحبها الناس مع كثرة أذاها، ويتعلَّقُ بها الناسُ رغمَ إساءتها، على حدِّ قول الشاعر:

يُسيءُ امرؤٌ منا فيبغَضُ دائماً ... ودُنياكَ ما زالت تُسيءُ وتومَقُ

وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥ ﴾: قال ابن عباس: إلى وقتٍ ينقطع فيه المقالُ، أي إلى مدةٍ غير معلومة، كما يُقال الآن: إلى إشعار آخر.

دخول يوسف السجن:

قال البروسوي: وكان للعزيز ثلاثة سجون: سجن العذاب، وسجن القتل، وسجن العافية:

فالأول: سجن العذاب: كان عميقاً تحت الأرض، مُظلم لا يَعرف داخله

الليل من النهار، قد عشعَشت فيه بعضُ الهوام من العقارب والأفاعي وغير ذلك.

والثاني: سجن القتل: أعمق من الأول، يصل إلى عُمْقِ أربعين ذراعاً تحت الأرض، وكان الملكُ إذا سخِط على إنسان وأراد قتله ألقِيَ من أعلى، فلا يصل إلى قعره إلا وقد هلك.

أما الثالث: وهو سجن العافية، كان على سطح الأرض قريباً من القصر، فإذا غضِبَ الملكُ على أحدٍ مِنَ الحاشية حبَسَهُ في ذلك السجن، فلما قرروا سجن يوسف، أرسلوا إلى سجّانِ سجن العافية، وأمروه أن يجعل له مكاناً فيه مُنفرداً، ثم دنت امرأة العزيز من يوسف وقالت له: لقد أعييتَني، وانقطعتْ فيك حيلتي، فلأُسلِمَنَّكَ للمُعذبين يعذبونك كما عذَّبتني، ولأُلبسنَّكَ بعد الحلي والحُلَلِ جُبَّةَ صوفٍ تأكلُ جلدك، ولأُقِيدَنَّكَ بقيدٍ من حديد يأكلُ رجليك، ثم نزعت ما عليه من ثياب وحُليٍ، وألبستهُ جُبَّةَ صوف وقيَّدتهُ بقيد من حديد كما ذكر «المولى الجامي».

فلما دنا من باب السجن عندما حملوه إليه نكَّسَ رأسَه، فلما دخل قال: بسم الله وجلَس، فأحاط به أهْلُ السجن فدعا لهم، وكان من دُعائه: «اللهم أعطف عليهم الأخيارَ، ولا تُخفِ عنهم الأخبار»، ولذلك يُقال: إن أهل السجن أعلم الناس بكل خبر.

قال ابن كثير: وكان دخول السجن مما قدَّره الله عليه، وهو من جُملة ما عصَمَهُ به؛ فإنه أبعَدُ عن مُخالطتهم ومُعاشرتهم، ولهذا ورد عن الشافعي قوله: إنَّ من العِصمةِ ألا تجدَ.

قال جاد المولى في «قصص القرآن»: دخل يوسف السجن، لا كما يدخل مجرمٌ قتل نفساً، أو لص سرق متاعاً، بل دخول مظلوم لم تُنصِفهُ كلمة القضاء،

فأسلَمَ نفسه يرجو عدلَ السماء.

دخل السجن مُرتاح الضمير، رَضِيَّ النفس، وما قيمةُ السجن والأغلال بجانب المؤامرة التي دُبِّرتْ له، والفتنة التي أُثيرت حوله، ثم ألم يكن السجن نجاةً له من فتنةٍ قُصِدَ منها ثلْمُ دينه، وجرح عفافِهِ، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: دخل يوسف السجن ثابتَ القلب، هادئ الأعصاب؛ لأنه نجا من فتنةِ امرأة العزيز فسَلِمَ له دينُه، ونجا من أسئلة الوزراء، ومن ثرثرةِ الخدم، وتَطَفُّلاتِ الكُهان، وها هو هنا أكثر اتصالاً بربه، بعد أن شوَّشت عليه تلك المِحن والمشاكل اتصاله بالله.

قال صاحب كتاب «حياة يوسف»: ها هو يوسف يدخل السجن، وكان الصواب أن تدخل السجن امرأة العزيز.

إذاً لماذا يُسلط اللهُ الجبابرة والطُغاة على أولياء الله ليسجنوهم؟

والجواب: إنَّ السجن وحياة السجن، عالمٌ آخر غير العالم الذي يعيش فيه الناس، عالمٌ تُمحى فيه المعاني الكريمة، وتبقى المعاني الأليمة، ما ظنُّكَ بحياةٍ يُلقى فيها السجين كالبهيمة، في إذلالٍ وتعذيب وتسخير.

ما ظنُّك بحياةٍ لا طعامَ فيها كما تريد، وإنما طعامٌ تعافه النفس غالباً.

ما ظنك بالمئات يُكَدَّسُون كعُلب السردين، لماذا كلُّ هذا للأولياء والصالحين؟

والجواب: إن النفس طالما بقيت في بحبوحة العيش والترف، فلن تُدركَ حقيقةَ الحياة وما يجري فيها، ولن تُدركَ نِعَمَ الله عليها؛ لأنك إذا أَلِفْتَ الشيءَ واعتدته فقدتَ قيمته.

ويوسف أدرك في السجن: أنَّ الحُرية أغلى شيء، وأكبر نعمة، وأدركَ أنَّ في الحياة آلاماً وأهوالاً ما كان ليُدركها لو بقي في القصور، وأدركَ أنَّ هؤلاء الأخلاطَ من المجرمين، إلى الأبرياء المظلومين، يُجْبَرون أن يتزاحموا، وأن يتخالطوا، وأضيقُ الضيق أن تُعاشِرَ إنساناً لا تُحبه، أو إنساناً لا يتَّفق معك في الميول.

أُدخل يوسف السجن، وكتب الله له ذلك وهو البريء، ليكشِفَ الله له الغطاء عن الكثير الذي يجهله في الحياة، وليرفَعَ عن قلبه الحِجاب، وليشعُرَ يوسف بمرارة الاتهام بالباطل، حتى إذا حَكَمَ تجنَّبَ الظلم، وليشعُرَ بآلام المسجونين، فيعمل إذا وصل إلى مُلْكِ مصر أن يُصلح أوضاعها، وليشعُرَ حين تعود إليه حُريته بعد أن يخرج بقيمة الحُرية، فيعمل على احترام حُرية الآخرين.

وجد يوسف نفسه في مكانٍ مُظلم، فأدرك أن الشمس التي ما كان الإنسانُ يفطنُ لها هي من نِعَمِ الله الكبرى، وأدركَ أنَّ الهواء الحُرَّ الذي كان يستنشقه ولا يشعر بقيمته هو من أجَلِّ نِعَمِ الله عليه.

نُزِعَ يوسف من حياة الترف والأُبهةِ والقصور، إلى مكانٍ ليس فيه من متاع الحياة إلا أقلُّ القليل.

وهكذا اجتمع على يوسف في السجن غُربتان:

فهو غريب لا أهل له في مصر، وغُربةٌ في السجن إذ عُزِلَ عن الطبقة الراقية، وهذه ضريبةٌ لا بد منها في حياة الأنبياء، وتجارُبهم، وما يُعانون.

أما امرأة العزيز: فقد صار قصرُها سجناً بعد سجن يوسف.

قال البروسوي في تفسيره: فكانت تهُمُّ بشرب السُمِّ أحياناً، أو إلقاء

نفسها من شاهق، ولكنَّ وصيفةً لها كانت تُصبِّرُها وتُسليها، وكثيراً ما كانت تنظر من روزنةٍ في القصر إلى ساحة السجن المُجاور لعلها أن ترى يوسف.

قال الرازي في «اللوامع»: وعلى الجُملة، فكل أحوال يوسف عليه الصلاة والسلام: لُطف في عُنف، ونِعْمَةٌ في طي بَليَّةٍ، ويُسْرٌ في عُسر، ورجاء في يأس، وخلاص بعدَ لاتَ مَناص.

حال يوسف في السجن ومُشاهداته:

قال المفسرون: لما دخل السجن، وجد فيه قوماً قد انقطع رجاؤهم، واشتدَّ بلاؤهم، فجعل يُخاطبهم بقوله: اصبروا، وأبشِروا، تؤجروا.

فقالوا ليوسف: يا هذا ما أحسنَ حديثك !! لقد بُورِكَ لنا في جِوارك، من أنت يا فتى؟

قال يوسف: أنا يوسف بن صفي الله يعقوب، ابن إسحق، ابن خليل الله إبراهيم، والظاهر أنهم كانوا معروفين في مصر كما سيأتي معنا.

قال ابن عباس: لما دخل يوسف السجن، كان يُعَزِّي فيه الحزينَ، ويعودُ فيه المريض، ويُداوي فيه الجريح، ويُصلي الليل كله، ويُكثر البُكاء، فكان الرجل إذا خرج من السجن، وانتهت مُدَّة حبسه، رجع إلى السجن حتى يجلس إلى يوسف.

وقد أحبه قيّمُ السجن المسؤول، فَوَسَّعَ عليه فيه، وقال له مرة: لو استطعتُ خَلَّيتُ سبيلك، ولكني أُحسِنُ جِوارك، فكن في أي بيوت السجن شئت، أي ترك له حُرية التنقل والحركة، ولما سجنوه دخل معه السجن بتقدير الله الخفي فتيان مملوكان مُستعبدان، تبيَّنَ ليوسف فيما بعد أنهما من مماليك مَلِكِ مصر في ذلك الوقت وهو «الوليد بن الريان»، وإلى هذا أشارت

الآية الكريمة: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ ﴾ [يوسف ٣٦].

كانا فَتَيين ذاقا آلامَ الاستعباد، رُغمَ مكانتهِما عند الملك، إذ كان أحد الغُلامين رئيسَ سُقاة الملك الذي كان يتناول منه الملكُ كؤوس الخمر ليشربها، وكان الثاني رئيس طعامه وخُبزه كما ورد ذلك عن ابن عباس فيما أخرجه ابن أبي حاتم في قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ ﴾.

قال: أحدُهما خازن الملك على طعامه، والآخر ساقيه على شرابه، وكان سبب سجنِهما - كما ذكر المؤرخون -: أنَّ الملكَ عُمّرَ وهَرِمَ، فملَّهُ الناس، وبخاصة الكُبراء، فأرادوا قتله، فاتصلوا برئيس الطعام، وبرئيس السُقاةِ، وهما هذان الغُلامان، وعرضوا عليهما رشوة ضخمةً على أن يَسُمّا الملك في طعامه وشرابه، فأجابا، ثم إنَّ الساقي ندم فرجع ولم يَسُمَّ الشراب وكتم الأمر، وقَبِلَ المسؤول عن الطعام الرشوة وسَمَّ الطعام.

فلما حضر الطعام والشراب بين يدي الملكِ، أسرع إليه الساقي وقال: يا سيدي: لا تأكل فإن الطعام مسموم !!

وقال صاحب الطعام: لا تشرب يا سيدي فإن الشراب مسموم، فالتفت الملكُ إلى الساقي وقال له: اشرب من هذا الشراب، فشرب، وقال لصاحب الطعام: كُلْ من الطعام، فرفض ولم يأكل، عندها أمر الملك بإحضار دابةٍ، وأمر أن تُطعَمَ من الطعام، فأكلت منه فهلكت، عند ذلك أمر الملكُ بسجنِهما، وقدَّرَ الله دخول يوسف السجن في وقت سجنِهما، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ ﴾.

ولنقف قليلاً عند قوله: ﴿ وَدَخَلَ ﴾، هذه الكلمة تدُلُنا على أنَّ دُخولهُما السجن كان باختيارهما، والحقيقة أنهما أُدْخِلا السجن لتآمُرِهما على الملك،

فكيف نقول: دخل وهي تدل على الاختيار، لا على الإجبار؟

والجواب عن الآلوسي رحمه الله تعالى حيث قال: لما رأى الفَتَيان يوسف، هانَ عليهما أمرُ السجن، لِما وقع في قلب كلٍ منهما من محبتِهِ، «وهوى كل نفسٍ حيث حلَّ حبيبُها»، كما يقول أهل الأمثال، ولذلك أخرج غير واحد عن ابن إسحق، أنَّ المملوكين لما رأيا يوسف قالا له: يا فتى، لقد والله أحببناك حين رأيناك !! فقال لهما: أَنشُدُكما الله تعالى ألا تُحباني، فوالله ما أحبني أحدٌ قط إلا دخل عليَّ من حُبه بلاء:

- أحبتني عمتي فدخل عليَّ من حُبِّها بلاء.
- ثم أحبني أبي فدخل عليَّ من حُبِّه بلاء.
- ثم أحبتني امرأة العزيز فدخل عليَّ من حُبِّها بلاء.

فلا تُحِباني بارك الله فيكما، قال: ولكن أَبيا غير ذلك، أي أَبيا إلا أن يُحباه.

قال النيسابوري: أَبيا إلا حُبَّه، وأَلِفاهُ حيث كان، وجعل يُعجِبُهما ما يُشاهدان من فهمه وعقله وعلمه.

قال البروسوي وغيره: وهكذا ابتُلِيَ يوسف بالسجن والعبودية؛ ليرحَمَ المماليكَ المسجونين إذا صار حاكماً في الأرض.

وابتُلِيَ بجفاء الأقارب والحُسّاد ليعتاد الاحتمال من القريب والبعيد، وابتُلِيَ بالغُربة ليرحَمَ الغُرباء، إذا صارت له المسؤولية، وقد جاء في بعض الآثار: يُجاءُ بالعبد يوم القيامة - المملوك المُقصر في عبادة ربه - فيُقال له: ما منعكَ أن تكون عبدتني؟

فيقول: يا رب ابتليتني بالعبودية فشغلني أربابي عن عبادتك، فؤتى بيوسف عليه السلام في عبوديته، فيُقال لذلك العبد: أنت أشدُّ أم هذا؟

فيقول: بل هذا، فيُقال: لِمَ لمْ يمنعهُ ذلك – الرِّقُّ – أنْ عَبدَنِي؟!!

ويُجاءُ بالغني فيُقال: ما منعك أن تكون عبدتني؟

فيقول: يا رب: كثَّرتَ لي من المال، فيذكر ما ابتُلِيَ به، فيُجاءُ بسليمان عليه السلام، فيُقال لهذا الغني: أنت أغنى أم هذا؟

فيقول: بل هذا، فيقول: لم يمنعهُ ذلك – غِناهُ – أنْ عبدني؟

ويُجاءُ بالمريض، فيُقال له: ما منعك أن تعبُدني؟

فيقول: يا رب: ابتليتني، فيُجاءُ بأيوب عليه السلام، فيُقال: أَأنتَ أشَدُّ ضُراً أم هذا؟

فيقول: بل هذا، فيُقال: لِمَ لمْ يمنعهُ ذلك – الابتلاء – أن عبدني؟

فيوسف حُجَّةٌ على من ابتُلِيَ بالرِّق، ثم قصَّرَ في حق الله تعالى، وسُليمان حُجَّةٌ على الملوك والأغنياء إذا قصروا في حقه تعالى، وأيوب حُجَّةٌ على أهل البلاء، وفرعون على أهل البأس.

قال الرازي في كتابه «اللوامع»: وعلى الجُملةِ فكلُّ أحوالِ يوسف عليه الصلاة والسلام، لُطفٌ في عُنفٍ، ونِعْمَةٌ في طيٍّ بليةٍ، ويُسر في عُسر، ورجاءٌ في يأس، وخلاصٌ بعد لاتَ مناص، فالسجن الذي هو سببٌ ظاهر للإهانة، جعله الله في حق يوسف سبباً للكرامة، وذلك أنَّ وحيَ الرسالة جاءه بعد دخول السجن، فحَقَّقَ قوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾، كما أنَّ وحيَ الإلهام جاءه عند إلقائه في الجُبِّ على ما مرَّ معنا، وهكذا جعل الله له في كل مِحْنةٍ ظاهرةٍ، مِنْحَةً وكرامةً باطنةً، وفي كل بداية مُحرِقَةٍ نهاية مُشرقة، كما قال صاحب «المنار» عليه رحمة الله تعالى.

قال صاحب كتاب «قصص القرآن»: أكرم الله يوسف بالرسالة وهو

في السجن، وأمره أن يضطلعَ بما اضطلعَ به أبوه «يعقوب» من الدعوة إلى التوحيد، وإشعال قبسِ الإيمان، فاستجاب.

وبينما كان يوسف يتهيأُ ليبدأ الدعوة في السجن، إذ جاء الفتيان اللذين دخلا معه السجن برؤياهُما، فرأى فيهما فُرصةً طيبة لبدء دعوته إلى التوحيد.

قال ابن عباس: كان الفتيان مع يوسف في مكان واحد، فرأيا رؤياهُما، فأصبحا مكروبين، فقال لهما يوسف: ما لي أراكُما مكروبين؟ قالا: يا سيدنا: إننا رأينا ما كرهنا؟!! قال يوسف: فَقُصّا عليَّ، فَقَصّا عليه، ثم قالا: نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: وكان تعبير الرؤيا من فنون عُلمائهم، ولذلك أَيَّدَ الله به يوسف بينهم، كما أَنَّ عِلْمَ التعبير كان من العلوم التي يشتغل بها كهنَةُ المصريين كما دل على ذلك قوله تعالى حكاية عن ملكِ مصر: ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾، ومن عادة المساجين حكاية المرائي التي يرونها؛ لأنهم كانوا يتفاءلون بها عسى أن يُبَشِّرهم بالخلاص في المستقبل.

رأى الفتيان الرؤيا في ليلة واحدة، كما قال ابن كثير، وطلبا إلى يوسف تعبيرها، فما هي هذه الرؤيا التي رأياها؟

قال يوسف: فما رأيتُما؟

قال الساقي: أو المُسمى رئيس السُقاةِ ما ذكره الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف].

وقول الساقي: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾، قال المفسرون: أي أعصرُ عِنباً، سماه بما يَؤُولُ إليه، مثل قولهم: فلان يطبخ دِبْساً، وهو يطبخ العصير ليصل إلى الدِّبس.

قال الأصمعي: أخبرني «المُعتمر بن سليمان»، أنه لَقِيَ أعرابياً ومعه عنب في وعاء، فقال له: ما معك؟ قال الأعرابي: خمر.

وقال أبو صالح والضحاك: الخمر هو العنب بلغة عُمان، فإنَّ ابن مسعود قرأ: «إني أراني أعصر عنباً»، وهذا من باب التفسير؛ لأنَّ القراءة المُتواترة عنه «خمراً»، ويؤكد أنَّ المقصود في الآية العنب.

قول الساقي: رأيتُ نفسي كأنني في بُستانٍ، فإذا أنا بأصلِ حَبَلَةٍ - وهي الكرمةُ من العنب - حسنةٍ، فيها ثلاثةُ أغصانٍ عليها ثلاثةُ عناقيدَ من عنب أبيض، فجنيتُها، ثم عصرتُها في ثلاثِ أوانٍ، ثم صَفَّيتُهُ وصَبَبْتُهُ في كأس الملك، وسقيتُهُ على عادتي فيما مضى، فذلك قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾.

وقال الفتى الثاني المسؤول عن طعام الملك: رأيت كأني خارج من مطبخَةِ الملك وقد اختبزتُ في ثلاثة تنانير، وجعلتُهُ في ثلاث سِلالٍ، فيها خبز حُوّاريٌ وألوانُ الأطعمة، ورأيت كأنَّ سِباع الطير تأكل من السلة العُليا، وفي مصحف ابن مسعود: «ثريداً»، وهو تفسير، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾.

وقوله: ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾: أي أخبرنا بتفسير ما رأينا، وعلى ماذا يدل أمر هذه الرؤيا؟ ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، أي العالمين بتعبير الرؤى، لأنه عليه الصلاة والسلام قال عن نفسه: إني أجيدُ تعبير الرؤى، فكان بعض أهل السجن يسألونه عن ذلك، أو من المُحسنين لأهل السجن، قال الضحاك: كان إذا مَرِضَ الرجل من أهل السجن قام به، وإذا ضاق وسَّعَ له،

وإذا احتاج جمع له.

قال الشوكاني: أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن قتادة: كان إحسانه - فيما ذكر - يُعزي الحزين، ويُداوي المريض، ورأوا منه عبادةً واجتهاداً فأحبوه.

وقال الآلوسي: ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: أي العلماء؛ لأنهم قالوا: أنت مُباركٌ لما تُخبِرُنا به من الأمر والطهارة والكفَّارة، وما قالا هذا القولَ إلا بعد أن رأيا من سَعَةِ علمه، وحُسنِ سيرته مع أهل السجن ما وجَّهَ إليه وجوهَهُما، وعُلِّقَ به أمَلُهُما.

والآية تدل على أنَّ للرؤى والأحلام في السجون قيمةٌ كُبرى، ولا عجب في ذلك؛ لأنَّ السجين عنده كبتٌ شديد، فقد ألغِيت حياته حين أُلغيت حُريته، ولهذا يتحول هذا الكابتُ إلى أحلام ورؤىً في منامه، والمُلاحظ لحياة السجناء، سيجد شلالاً دائماً من الرؤى لا ينقطع، ويكون هؤلاء السُجناء في أشد الشوق لإنسان يُعَبِّرُها لهم، لأن هذه الرؤى هي الخيط الوحيد الباقي لهم في الحياة، إنها مُبَشِّرات.

قال العلماء: وهكذا كان دخول يوسف السجن، رحمةً لهؤلاء السجناء جميعاً، ورحمةً له حيث انكشفت له حقائق الحياة.

ورحمةً مستقبلةً لأهل مصر حين يحكمهم، فيشعر بآلامهم وآمالهم، فيسوسُهم سياسة اللين والشفقة، والحُرية والعدل.

قال الآلوسي: أراد يوسف قبل أن يُجيبَ الفتيين على سؤالِهما أن يُقدِّمَ لهما مُقدمةً يعرضُ فيها عليهما التوحيدَ، ويُزينه لهما، ويُقبِّح لهما الشرك، ثم إنه أدرك من الرؤيا أنَّ أحدهُما سيُصلب قريباً، فلم يُردْ أن يُفاجئه بالخبر، بل

رأى أن يدُلَّهُ على التوحيد حتى لا يموت على الكفر الذي يعتقده، فيكون مُخلَّداً في العذاب.

كما أراد يوسف بهذه المُقدمة إظهار ما مَنَّ الله به عليه من تعليمه ما شاء من أمور الغيب، وأقربُ هذه الأمور الغيبية إلى إقناعهم ما يختص بمعيشتهم وهو الطعام، وذلك قوله تعالى حكاية عن يوسف: ﴿ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ ﴾ [يوسف].

قال أبو السعود في قوله: ﴿ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ﴾، وإنما خصَّ الطعام بالذكر لأنه أقرب شيء إلى المسجون.

قال الدكتور الشلبي: والإخبارُ بالطعام قبل وصوله إلى المساجين، وقبل توزيعه شيءٌ مهمٌّ في حياتهم؛ لأنه ممنوع عليهم أن يأكلوا إلا الوجبة المُقدمة لهم، فإذا وُجِدَ بينهم شخصٌ يُخبرهم بنوع الطعام، فإنهم يفرحون وخصوصاً إذا بُشِّرَ أحدهم بوجبةٍ فيها شيء يشتهيه ويُحبه، ثم إنَّ في ذكر الطعام حُسْنُ انتقالٍ من يوسف إلى تعبير الرؤيا المُتعلقة بالطعام والشراب.

ثم بيَّن لهم يوسف أنَّ ذلك الذي أُنبِئْكما به بعضُ ما علَّمني ربي بوحيٍ منه إليَّ، وما هو بعَرافَةٍ ولا كهانَةٍ ولا تنجيم، ولا من تعليم بشرٍ يلتبسُ فيه الحق بالباطل، والخطأ بالصواب، فهو آية ومُعجزةٌ له عليه الصلاة والسلام، وذلك قوله تعالى على لسان يوسف: ﴿ ذَٰلِكُمَا ﴾ - أي تأويل الرؤى والإخبار بالمُغيّباتِ - ﴿ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ ﴾، بالوحي والإلهام.

قال البروسوي: لما أخبرَهما بالطعام، قالا: هذا من فعل العرّافين والكُهان، وأنتَ لست منهم، فمن أين لك هذا العلم؟ عندئذ قال: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ ﴾، وهذا يُشبه قول عيسى عليه الصلاة والسلام لبني إسرائيل من بعد

يوسف: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾[آل عمران ٤٩].

ثم بيَّنَ يوسف أنَّ الله إنما خصَّه بهذه العلوم الغيبية لأنه من بيت نبوةٍ، ترك ملَّةَ قوم أشركوا بالله، ولم يؤمنوا وذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

وقوله: ﴿تَرَكْتُ﴾: أي تركتُ الدخول فيها، لأنهم كفروا بخالق السموات والأرض وما بينهما، وتركتُ اتباع أهلها ممّن عبدوا الأوثان وغير الأوثان من المخلوقات.

ولا شك أن يوسف أراد بقوله: ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾: أراد بذلك الكنعانيين سُكان أرض الميعاد التي نشأ فيها، كما أراد المصريين الذي هو فيهم وبينهم، فإنهم اتخذوا من دون الله آلهةً معروفة في التاريخ، أعظمُها الشمس، واسمها عندهم «رُع» ومنها فراعِنتهم، والنيل، وعجلهم «أبيس»، وإنما كان التوحيد خاصاً بحُكمائهم كما قال صاحب «المنار».

وقوله: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾: أي يكفرون بالمعنى الصحيح للآخرة لأن المصريين في حينها - وإن كانوا يؤمنون بالحساب والجزاء والآخرة الذي دعا إليه الأنبياء -؛ إلا أنهم فشا فيهم تصوير هذا الإيمان بصورةٍ مُبتَدَعةٍ، كاعتقادهم بعودة الفراعنة إلى الحياة الأُخرى بأجسادهم المُحنَّطة، حيث يعود لهم السُلطان والحُكم؛ لهذا كانوا يدفنون معهم جواهِرهم وغيرها، ويبنون الأهرام لحفظ جُثثِهم وما معها، فإيمانُهم بالآخرة كان على غير الوجه الصحيح الذي جاءت به الرُسل.

قال الغرناطي: ولمّا ذكر أنه تَرَكَ مِلَّةَ الكفر ولم يدخل بها، ذكر أنه اتبعَ مِلَّةَ آبائه ليُرِيَهما أنه من بيت النبوة، بعد أن ذكر لهما أنه نبيٌّ يُخبِرُهما بالمُغيبات؛ وذلك

لتقوى رغبتُهما في الاستماع إليه، واتباع قوله ونُصحه، فقال: ﴿ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨ ﴾ [يوسف].

وقوله: ﴿ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ ﴾: أي أنبياء الله الذين دعوا إلى التوحيد الخالص، وبيَّنَ أسماءهم من الأب الأعلى إلى الأدنى بقوله: ﴿إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ ﴾، فلفظ الآباء يشمل الجُدودَ وإن عَلَوْا، وبيَّن أساسَ مِلَّتهم التي اتبعها وراثةً وتلقيناً - كما قال صاحب المنار -، فكانت - المِلَّةُ - يقيناً لهم ووجداناً، فقال: ﴿ مَا كَانَ لَنَآ ﴾: أي ما كان من شأننا معشر الأنبياء ﴿أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ﴾ أي ما كُنا لنتخِذَ رباً مُدبِّراً، أو إلهاً معبوداً مع الله تعالى، لا من الملائكة ولا من البشر - كالفراعنة - فضلاً عما دونهما من البقر كالعجل - أبيس - أو من الشمس والقمر، أو ما يُتخذ لهذه الآلهة من التماثيل والصور.

وقوله: ﴿ مِن شَيۡءٖۚ ﴾: هو ردٌّ على كل من يعبد غير الله، من أصنامٍ، أو كواكب، أو النفس، أو الطبيعة، أو الجن، وهو إرشادٌ إلى الدين الحقِّ، وهو أنه لا موجِدَ إلا الله، ولا رازِقَ إلا الله، ولا معبودَ بحق إلا الله عز وجل.

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾: أي وهذا التوحيد والإقرار بلا إله إلا الله، هو من فضل الله ونعمته أوحاهُ إلينا وأمرنا به، ثم هو مِنْ نِعَمِ الله على الناس كذلك؛ إذ جعلنا دُعاةً لهم - للناس - إلى الخير والهُدى، ولذلك قال البروسوي: إنَّ وجود القائد للأعمى رحمةٌ، وأيُّ رحمةٍ؟!! لأنَّ الأنبياء يقودون الضُلّال إلى الهِداية، ثم قال: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾.

قال العلماء: لَـمَّـا تسمعُ كلمةَ ﴿ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾، فاعلمْ أنَّ هناك نعمةً

تستحق الشكر، ولو فَطِنَ الناسُ لعلموا أنَّ أهمَّ نعمةٍ هي الإيمان الموصل إلى رضوان الله والجنة، ولَشَكروا الأنبياء الذين بلّغوهم منهج الله الذي فيه سعادتهم في الدارين، ولكن أكثر الناس لا يشكرون، فيبقون كافرين غيرَ شاكرين اتباعاً للأهواء.

قال المفسرون: قد يخطر سؤالٌ على ذهن القارئ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ﴾، وهو: من أين ليوسف أن يعرفَ أنَّ آباءه كانوا إبراهيم وإسحق ويعقوب، وأنهم كانوا على التوحيد، وقد بيعَ صغيراً لا يُدركُ؟!!

والجواب: تقرأُه في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾، أي بالوحي والنبوة، فهو يقرأُ من الغيب بتعليم الله له، وبإذنه عز وجل، كما أنَّ ذِكْرَهُ لآبائه وأجداده عند ذكرهِ للمُغيباتِ، - وكانت هذه الأسماء معروفة عند أهل مصر-، ذِكْرُهُ لهم يجعلُ الناسَ أكثر انقياداً له لمّا ادّعى النبوة، وأشدَّ تأثيراً في قلوبهم، ثم إنَّ الإنسان لو ادعى حِرفةَ أبيه وجدّه، لم يُستبعد ذلك منه، وكذلك النبوة.

قال المفسرون: ثم صرَّحَ يوسف بِبُطلان ما هما عليه من الشرك، وأنَّ فكرةَ تعدد الآلهة فكرةٌ باطلة، وجاء باستدلال لطيف على ذلك، ثم دعاهما إلى التوحيد الخالص فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٤٠﴾ [يوسف].

قوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾: أي يا ساكني السجن، أو يا صاحبيَّ في السجن، وصفهما بالصُحبةِ التي تقتضي بذلَ النصيحة، وحُسْنَ المودة.

وأراد بقوله: ﴿ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾: إبطال دينِهما الذي هما عليه، وجعل هذا الإبطال على شكل استفهامٍ تقريري، حتى لا تنفِرَ طِباعُهما من المُفاجأة بالدليل من غير استفهام، والمعنى: هو اعتقادُ وجودِ أربابٍ مُتفرقين أرجَحُ - خير - أم اعتقادُ أنه لا يوجد إلا إله واحدٌ.

قال ابن عاشور: وكانت آلهة القبطِ نحواً من ثلاثين ربّاً، أكبَرُها عندهم «أمون رع»، ومن أعظم آلهتهم ثلاثة وهي: أوزوريس، وأزيس، وهوروس، ولله ما أعظمَ بلاغة القرآن حين عبَّرَ عن تعدد آلهتهم بالتفرُّق فقال: ﴿ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ ﴾.

وقوله: ﴿ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾، الواحد في ذاته، وصفاته وأفعاله، المُنفرد بالخلق، والتقدير والتسخير، لا يُنازَعُ ولا يُعارَضُ، القهّارُ بقُدرته التامة، وعِزَّتِهِ الغالبة، ويدل الكلامُ كذلك على أنَّ الأصنام مقهورةٌ، لا قاهرةٌ، ومعمولةٌ لا عاملةٌ، إذ يستطيع الإنسان كسرها.

قال القرطبي: خاطب يوسف الاثنين، كما خاطب أهل السجن بهذا الكلام؛ لأنه كان بين أيديهم أصنامٌ يعبدونها من دون الله تعالى، فقال ذلك لإلزامهم بالحُجة، إذ الجوابُ الذي لا يختلفُ فيه عاقلان، أنَّ الخيرَ في عبادة الواحد الأحد القهّار الذي لا ربَّ غيره، ولا إله سِواه، ولذلك عقَّبَ على ذلك بقوله: ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم ﴾، وفي هذا تَشديدٌ للهجوم عليهم حيث يقول: إنكم تعبدون أسماءً فارغة لا مُسميات تحتها، أي ليس لها في الوجود إلا أسماؤها: ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ ﴾: أي ما أنزل تَسميتَها أرباباً على أحدٍ من رُسُلِهِ، ولا حُجةَ ولا دليلَ يدلُّ على صِحتها من المعقول، فهي تسميةٌ لا دليلَ عليها من النقل السماوي، فتكون في أُصول الإيمان، ولا دليلَ عليها من العقل فتكون

من نتائج البُرهان، كما قال «صاحب المنار».

ثم بيَّنَ يوسف أن الحُكم الحق في الرُبوبية والعقائد والعبادات لله وحده يوحيه إلى مَنْ اصطفاهُ من رُسله، ولا يمكن لبشر أن يحكُم فيه برأيه وهواه، ولا بعقله واستدلاله، ولا باجتهاده واستحسانه، فهذه القاعدة هي أساس دين الله على ألسِنَةِ جميع الرُسل، فقال في ذلك: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، ثم بيَّنَ ما حَكَمَ به، فقال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾: أي إيَّاهُ وحده فادعوا واعبدوا، وله وحده فاركعوا واسجدوا، وإليه وحده فتوجَّهوا، حُنفاءَ لله غير مشركين به مَلَكاً من الملائكة، ولا سُلطاناً من السلاطين، ولا شمساً ولا قمراً، ولا نهراً مُقدَّساً كالكنج والنيل، ولا حيواناً كالعجل «أبيس»، كما قال صاحب المنار.

ثم قال يوسف: وهذا الذي أقوله لكم مِنْ إخلاصِ العبادة لله وحده، هو الحقُّ المُستقيم الثابت، وإلى هذا أشار قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي ليس عندهم علمٌ لأنهم لا ينتفعون بعقولهم، ولا يعلمون أنَّ الرُسُلَ قد بلَّغتهم بالمنهج، ولكنهم لم يُوَظِّفُوا هذا العلم في أعمالهم، كما قال الشعراوي.

تفسير رؤيا الفتيان:

وبعد أن أدّى يوسف رسالة ربه عبَّرَ لصاحبيه رؤياهما فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف].

جاء دور التعبير، فالتفت يوسف إلى الساقي وقال له: أما أنت فما أحسَنَ ما رأيتَ: أما حُسنُ الحَبَلَةِ – شجرة العنب – فهو حُسْنُ حالك، وأما الأغصان الثلاثة، فثلاثة أيام تمرُّ عليك، يُوجّه الملكُ بعدها أمراً بردّك إلى

عملك، فتصيرُ أحسنَ مما كنت، وذلك قوله: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ ﴾، أي سيده ومَلِكه، وهو «الوليد بن الريان» كما مرَّ معنا.

ثم التفت يوسف إلى الخباز، وقال له: أما أنت فبئس ما رأيتَ، أما خروجك من مطبخ الملكِ، فخروجك من عملك، وأما السِلالُ الثلاث، فثلاثة أيام تمرُّ، ثم يُرسلُ الملِك إليك من يأخُذك فتُصْلبُ، وتأكل الطير من رأسك، وذلك قوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ ﴾.

ثم أخبرهم بخبرٍ زائد عن التعبير للرؤيا، وهو قوله: ﴿ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴾، وورد هذا الخبر مورِدَ الجواب عن أسئلةٍ كانت تجولُ ببالهِما، هل هذا التعبير قَطعيٌّ أو ظني؟ وهل يقع غيره؟ ومتى يكون؟ فيوسف يقول: إن الأمر الذي يهمُّكما وتستفتياني فيه قد قُضِيَ وبُتَّ فيه.

قال البروسوي: وكان الأمر كما عبَّرَ يوسف، حيث أخرج الملكُ الساقي ورَدَّهُ إلى مكانه وكافأهُ وأحسنَ إليه لما عرف من أمانته، وأخرج الخباز، ونزع ثيابه، وجَلَدهُ بالسياط حتى مات، ثم صَلَبَهُ على قارعة الطريق، فأقبلت طيورٌ سود فأكلت من رأسه، وكان ملكُ مصر أول من استعملَ الصلب، ثم استعمله فرعون موسى عندما قال للسحرة الذين آمنوا بموسى: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ ﴾ [طه ٧١].

وقد ذكر البروسوي، وبعض كتب السيرة كالدحلاني الشافعي: أنَّ النبي ﷺ لما رجع من غزوة بدر إلى المدينة المنورة مرَّ «بعرق الظبية» وهي شجرة يُستظلُّ بها، فأمر بقتل «عقبة بن أبي مُعيط»، فقتله «عاصم بن ثابت»، ثم أمر به النبي ﷺ فَصُلِبَ على شجرة، وقد روى الشعبي أنه لما أمرَ النبي ﷺ بقتله قال: أتقتُلُني يا محمد من بين قريش؟ فقال ﷺ: «نعم، بكفركَ وفجوركَ، وعُتوِّكَ على الله ورسوله».

وقول يوسف: ﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾، كان بعد أن بُشِّرَ الأول بالنجاة والخروج، بينما كان تفسيره للثاني كالصاعقة على رأسه، فلماذا كان يوسف صريحاً جداً في تأويله لرؤياه؟

والجواب: إنَّ الآية تدل على أنَّ يوسف يُخاطبُ رجلاً حُكِمَ عليه بالموت - والرجل على الكفر - ولا أملَ له في الحياة، ينتظر نهايتهُ باللحظات، هذا الأمر هو الذي دفع يوسف ليواجهه بالحقيقة، والهدف من هذه الصراحة: إنقاذُهُ من الكُفر والضلال في آخر لحظةٍ من حياته، إنه رجل اجتمعت عليه ظُلُماتٌ ثلاث: ظُلمَةُ الكفر، وظُلمَةُ الجناية والجريمة، وظُلمَةُ اليأس، فلا بُدَّ من إيقاظه وتنبيهه، وهزِّهِ هزّاً عنيفاً ليستيقظ، وهذا ما فعله يوسف، لقد قذفها في وجهه: ﴿ وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾.

وهكذا امتدت يد يوسف إلى ذلك الرجل بعد أن انهار، فاستسلَمَ لتلك اليد التي أنقذتهُ من الكُفر إلى النور والإيمان، ومثل هؤلاء الذين يكونون في انتظار الموت، هم أقرب الناس إلى الاستجابة للحق إذا دُعُوا إليه، إذ تُصيبُهم حالةٌ من الروحانية العالية في تلك اللحظات؛ لأنهم أصبحوا على حافة الآخرة.

لقد تقرر الحُكم، الافراجُ عن الأول، والموتُ والصَّلْبُ للثاني، وهاهو في الطريق إلى التنفيذ، وعِلْمُ ذلك لا يكونُ إلا بوحيٍ يُوحَى، ولذلك كان يوسف يقول: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾.

ويوسف لما كان مُتيقناً من وقوع تأويله، قال للساقي وقد تيقَنَ نجاته: إذا عُدْتَ إلى الملك فاذكرْ له ظُلمي، وذلك قوله: ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ [يوسف ٤٢].

قال الآلوسي في تفسيره: رُوِيَ أنه لما حان وقت إطلاق الساقي، قال ليوسف: أوْصِني بحاجتك، فقال يوسف: حاجتي أنْ تذكرني عند ربك، أي أن تَصِفني بالصفاتِ التي رأيتني عليها من كوني مظلوماً في القضية التي سُجنتُ من أجلها، وكل ذنبي أني رفضتُ طلبَ امرأة العزيز، لعلَّهُ يُنصفُني.

قال البروسوي: قال يوسف للساقي: قلْ لسيدك إنَّ في السجن فتى محبوساً ظلماً طال حبسُه لعلَّه يُنصفُني.

والربُّ في قوله: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾: هو السيدُ، والمالكُ، وهذا التعبير شائعٌ في لغة العرب، تقول: ربُّ الدار، وربُّ الثوب، ومنه للأعشى:

ربي كريمٌ لا يُكَدِّرُ نعمَةً ... وإذا تُنوشِدَ في المهارقِ أنشدا

أي سيدي ومَلكي كريمٌ، فإذا سألتهُ شيئاً أعطاك ولا يَمُنُّ.

المهارق: الصُحف.

قال العلماء: والعرب تقول لكل من قام على إصلاح أمرٍ قد رَبَّهُ.

وقالوا: والأولى أن لا تُستعمل هذه اللفظة «ربّ» لما ورد في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: «لا يقل أحدُكم: اسقِ ربَّكَ، أطعم رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، ولا يقل أحدُكم ربي، وليَقل: سيدي ومولاي، ولا يقُلْ أحدكم: عبدي، أمتي، وليَقل: فتايَ، فتاتي، وغُلامي»، وهذا من باب الإرشاد إلى الأفضل، لا أنه مُحرمٌ، فقد قال ﷺ: «..أن تلدَ الأَمَةُ ربَّتها..».

إذاً قال يوسف للساقي عندما ودَّعه: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، فماذا كانت النتيجة؟

كانت كما ذكر الله تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ ﴾: للعُلماء فيه قولان نستعرضهما، ثم نُبيِّنُ الصواب إن شاء الله تعالى:

التفسير الأول: أنَّ الشيطان أنسى صاحب شرابِ الملكِ أنْ يَذْكُرَ للملكِ قصة يوسف، وأنه مظلوم.

قال العلماء: لما عاد الساقي إلى خدمة الملك، انشغل بما ينشغلُ به الناس، وألهاهُ الشيطان بما أفاضَ الملكُ عليه من العطاء ورفعِ المنزلة، فغابت عن ذهنه وصية يوسف: ﴿ ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ حتى طال الأمر، ومكث يوسف في السجن بِضْعَ سنين.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: ويخرج الناجي من السجن، وعاد إلى سقاية الملك مرةً أُخرى، وكان المفروضُ أن يذكر يوسف الذي تنبَّأ له بالنجاة، غير أنَّ الواقعَ كان غير ذلك، فقد نسيَ الساقي يوسفَ، ونَسِيَ دعوتَهُ إلى الإيمان بالله الواحد، ونَسِيَ تأويلَ الرؤيا، شغلهُ ترفُ القصر، وخدمتُهُ لسيده الملك، وأسدلَ الشيطانُ ستاراً على ذهنه، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ ﴾.

والتفسير الثاني: أنَّ الشيطان أنسى يوسفَ ذِكْرَ ربّه - وهو الله تعالى - فعاقبه الله بالمُكثِ في السجن بضعَ سنين، وقال أهل هذا الرأي: إنَّ ذنبه الذي استحق عليه هذا العقاب أنه توسَّلَ إلى الملك لإخراجه، ولم يتوكل على الله، وجاؤوا بروايات قال عنها المحققون: إنها واهيةٌ، من ذلك ما ذكره القرطبي: أن يوسف قال لساقي الملك: ﴿ ٱذۡكُرۡنِي ﴾، ونَسِيَ يوسفُ في ذلك الوقت أن يشكوَ أمره إلى الله وأن يستغيث به، فكان أمرُهُ أنْ عوقِبَ باللبْثِ في السجن.

قال عبد العزيز بن عُمير الكندي: نزل جبريل على يوسف في السجن،

وقال له: «يا ابن الطاهرين، يُقرئك السلامَ ربُّ العالمين، ويقول: أما استحييتَ مني إذ استغثتَ بالآدميين، وعزتي وجلالي لألُبِثَنَّكَ في السجن بِضْعَ سنين».

فقال يوسف: «يا جبريل: أهو راضٍ عني؟ قال: نعم، قال يوسف: لا أبالي الساعة».

واستدلوا بحديث رواه ابن جرير عن ابن عباس مرفوعاً: «لو لم يقل يوسف الكلمة - ﴿ ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ - ما لَبِثَ في السجن ما لبثَ».

واستدلوا بحديث مُرسل للحسن البصري، قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا كلمة يوسف - ﴿ ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ - ما لَبِثَ في السجن ما لبث».

ثم يبكي الحسنُ ويقول: نحن ينزِلُ بنا الأمر فنشكو إلى الناس.

قال المحققون: والراجحُ التفسير الأول، وهو أنَّ الذي نَسِيَ هو الفتى الساقي لا يوسف، بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

فقوله: ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ ﴾: دليل على أنه كان ناسياً فادَّكَرَ، ثم مما يؤكد أن الساقيَ هو الناسي أنه مُطابق لقوله: ﴿ ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾، حيث جاء بعدها: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ ﴾، والضمير يعود إلى القريب، ثم إنَّ قول يوسف للساقي: ﴿ ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾، لا يُناقض التوكلَ، بل قال يوسف: ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ ﴾، كما أنَّ قول يعقوب الذي سيأتي لأولاده: ﴿ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ ﴾، لم يُناقض التوكل على الله؛ بل قال بعدها: ﴿ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ

﴿ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يوسف].

ثم إنَّ يوسف قد شَهِدَ الله له أنه من عباده المُخلَصين، والمُخلَصُ لا يكون مُخلصاً مع توكله على غير الله، فإنَّ ذلك شِرْكٌ، ويوسف لم يكن مُشركاً لا في عبادته، ولا في توكله.

ثم إنَّ قوله للساقي: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، ليس ناقضاً للتوكل، وليس فيه إلا مُجردُ إخبارِ الملك به ليعلمَ حالتَهُ، وليتبيَّنَ الحقَّ، ولهذا بعد أن طُلِبَ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ﴾، قال يوسف: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [يوسف].

ثم ليس في قول يوسف: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، تركُ واجب، ولا فِعْلُ مُحرم، حتى يُعاقبه الله على ذلك بلبثِهِ في السجن بِضْعَ سنين، علماً بأنَّ القوم قد عزموا على حبسه من قبل ظُلماً مع علمِهم ببراءته: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾، كما قال ابن تيمية رحمه الله تعالى.

ثم قال رحمه الله: ولَبْثُ يوسفَ في السجن كان كرامةً من الله في حقه ليتمَّ بذلك صبرهُ وتقواه، فإنه بالصبر والتقوى نال ما نال، ولهذا قال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف]، فلو لم يصبر، ويتَّقِ، بل أطاعهم في ما طلبوا منه خوفاً من السجن لم تحصل له هذه الدرجة، ولفاتَهُ الأفضل باتفاق الناس، كما قال ابن تيمية في «فتاواه».

ثم إن يوسف لم يرتكب ذنباً بهذه الكلمة: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، ولم يذكر الله في كتابه عنه أنه فعل ذنباً، والله سبحانه لـمَّا يذكرُ عن أحدٍ من

الأنبياء ذنباً، فإنه يذكرُ استغفاره بعده، ولم يذكر سبحانه عن يوسف استغفاراً من هذه الكلمة: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، كما لم يذكر عنه استغفاراً من مُقدمات الفاحشة التي دعتهُ لها، فدلَّ على أنَّ يوسف لم يفعل ذنباً هنا، ولا ذنباً هناك.

ثم تصدى المُحققون لتمحيص النصوص التي استدل بها القائلون على أن يوسف هو الذي نَسِيَ ذكرَ الله، واعتمد على العبد، ولم يتوكل على الله فقالوا: أما ما زعمتموه أنه حديث مرفوع عن ابن عباس، أنه ﷺ قال: «لو لم يقل يوسف الكلمة - ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ - ما لَبِثَ في السجن ما لَبِثَ، ينتظر الفرج من عند غير الله»، فقد قال ابن كثير فيه: إنه حديث ضعيفٌ جداً، قال صاحب المنار: هذا حديث باطل، وما قاله ابن كثير هو أقل ما قاله النقَّادُ فيه، وقد قال بعضُ النقَّاد: إنَّ مِنْ رواة الحديث: سفيان بن وكيع، وإبراهيم بن يزيد، وهما يكذبان، فالحديث يطعن في نبيٍّ مُرسل، وأجابوا عن مُرسل الحسن أنه ﷺ قال: «لو لا كلمة يوسف - ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ - ما لَبِثَ في السجن ما لَبِثَ»، بأنه لا يقبل بالمُرسَلِ في الاحتجاج به.

وقالوا فيما رواه الكلبي وغيره، من أنَّ جبريل نزل فعاتب يوسف على قوله: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، فهو مروي عن «وهب بن مُنبه»، وكعب الأحبار.

قال صاحب «المنار» في هذا القول: هو من موضوعات الراوي، والمروي عنهما - أي من الكلبي ومن وهب بن مُنبه وكعب الأحبار - ثم يقول: جزاهم الله ما يستحقون، ثم يقول صاحب «تفسير المنار»: فتبيَّنَ بهذا أن ما قالوه في الآية من المأثور باطلٌ روايةً، ودرايةً، وعقيدةً ولغةً وأدباً عليه رحمة الله.

أما قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾: فهو بيانٌ لمدة بقاء يوسف في السجن، والبِضْعُ - البَضْعُ - بفتح الباء وكسرها: هو المُدة من الزمن.

قال الهروي: والعرب تستعمل البِضْعَ فيما بين الثلاث إلى التسع، يؤيد هذا قوله ﷺ للمسلمين يوم تراهن أبو بكر الصديق مع المشركين على أنَّ الروم ستغلبُ فارس في بِضْعِ سنين، قال ﷺ: «ما بِضْعُ سنين عندكم؟»، قالوا: دون العشر، وفي رواية عكرمة، قال ﷺ: «إنما البِضْعُ بين الثلاثة والتسع»، وذلك في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤﴾ [الروم].

قال وهب: أقام أيوب في البلاء سبع سنين.

وأقام يوسف في السجن سبع سنين.

وعُذِّبَ بُختُنصر سبعاً، وهو أعدل الأقوال.

اقتراب الفرج:

قال القرطبي: لما دنا الفرجُ، نزل جبريل على يوسف، وبشَّره بالفرج القريب، وسلَّمَ عليه وقال له: إن الله مُخرجُكَ من سجنك، ومُمكِّنٌ لك في الأرض، تخضعُ لك مُلوكُها، ويُطيعُكَ جبابرتُها، ومُعطيكَ الكلمةَ العُليا على إخوتك، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك، وهي كيتَ وكيتَ، وتأويلُها كذا وكذا.

قال ابن الجوزي: دخل جبريل على يوسف في السجن وبشَّره بثلاثة أمور: بالخروجِ، وبمُلكِ مصر، وبلقاء أبيه يعقوب.

قال الرازي: اعلم أنَّ الله تعالى إذا أراد شيئاً هيَّأ له أسباباً، فلما دنا خروج يوسف من السجن، رأى مَلِكُ مصر رؤيا، كانت من أسباب خروجه.

رؤيا الملك:

قال القرطبي: وهكذا جعل الله الرؤيا أولاً بلاءً ليوسف، وشدةً، ثم جعلها آخراً بُشرى ورحمةً، فما هي هذه الرؤيا؟ وما تأويلُها؟

ذكر الحق تبارك وتعالى رؤيا الملك في كتابه العزيز بنظم موجز بديع وَفَّى بالغرض، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ٤٣﴾ [يوسف].

قال ابن الجوزي: لما كانت الليلة التي بَشَّرَ جبريل يوسف بالبِشارات الثلاث، رأى الملكُ رؤيا أخافتهُ، وهالتهُ.

قال النيسابوري: كانت رؤيا عجيبة، قال البروسوي: كان من عادة الوليد بن الريان – ملك مصر في حينها – أن يتخذ في كل سنة يوماً كان عيداً لهم، يجمعُ الناس فيه على شاطئ النيل، فيُطعِمُهم أطايبَ الطعام، ويسقيهم ألذَّ الشراب، وهو جالس على سريره ينظر إلى الناس.

رأى الملكُ نفسه يقف على شاطئ النيل، وكان ماءُ النيل يهبِطُ أمام عينيه، حتى تحول النهر إلى خيط من الطين الخالي من الماء، ثم خرج من النهر سبعُ بقراتٍ سِمانٍ، ثم خرجت من ورائهن سبعُ بقرات أُخرى هزيلةٍ في غاية الهُزال والضعف، فأخذن بأذنابهنَّ، فأكلنهُنَّ إلى القرنين، ولم يُزَدْ في حجم العِجاف شيء.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: رأى الملك نفسه واقفاً يشهد بالرُّعب

صرخات الأبقار السمينة، وهي تغيبُ في جوف الأبقار الهزيلة، ثم استيقظ من منامه، ثم عاد إلى رُقاده، فرأى سبعَ سُنبُلاتٍ خُضرٍ حَسَنَةٍ، وسبعاً أُخر يابساتٍ دقيقةً نَبَتَتْ وراءها، والتفَّتْ على الخُضر المُمْتلئةِ حتى غَلَبْنَ عليها، ونُلاحظ أنَّ الآية لم تذكر غَلَبَةَ السنابل اليابسات وإعدامها للخُضر، اكتفاءً بما ذُكِرَ من حال البقرات السمينات؛ لأنها نظيرَتُها، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ﴾.

هنا سؤال: لماذا عبَّرَ الملك عن الرؤيا بالأفعال المُضارعة؟ «أرى، يأكُلُهُنَّ»، مع أنه يقُصُّ حكاية ليلة ماضية، وكان الأصل أن يقول: رأيتُ، أكلتهُنَّ.

والجواب: إنه عبَّر بالفعل المُضارع لاستحضار الصورة تعجُباً من الرؤيا التي رآها، وكانت هذه الرؤيا ليلة الجمعة، فما تأويلُها؟

قال العلماء: البقر في الرؤيا، معيشة، أو امرأة، أو داءٌ، أو سنة، أو فائدة، أو خدمة.

وقد ورد عن علي بن أبي طالب أنَّ البقر إذا دخلت بلداً وكانت سمينة، دلَّ ذلك على سنيِّ رخاءٍ، وإن كانت عِجافاً، كانت سنواتٍ شِداد، فإن كانت المدينة التي دخلها البقر ساحلية ولها ميناء، فهو قدوم سفن تجارية على عدد الأبقار كثرةً أو قِلَّةً، وإن كانت المدينة لا بحرَ فيها، فرؤية البقر فِتنٌ يتلو بعضُها بعضاً وهي مُتشابهةٌ كتشابُهِ وجوه البقر، فإن كانت الأبقارُ صُفراً، فإن التعبير يدل على أمراض تدخل على الناس، وإن كانت الأبقار مُختلفة الألوان شنيعة القرون فيكون ذلك غارةً من عدو، وعلى العموم، تأويل البقر يكون: زوجاً، أو خادماً، أو ولداً، أو غلةً، أو سنةً، لما يكون في السنة عادة من ولد، أو غلةٍ، أونبات.

قال أهل التفسير: استيقظ الملك من نومه وهو يُحسُّ انقباضاً في صدره، واضطراباً، وسببُ ذلك مُشاهدتُهُ للناقص الضعيف - سبع بقرات هزيلة - يستولي على الكامل القوي - البقرات السِمان -، فأحسَّتْ فطرتُهُ أن هذا ليس أمراً جيداً، ولا محموداً، وقدَّرَ أنَّ هذه الرؤيا تدل على صورةِ شرٍ عظيمٍ يقع في مملكته، ولكن ما هو هذا الشر؟ لا أحد يدري.

قال العلماء: والشيءُ، أو الأمر إذا صار معلوماً من وجهٍ، وبَقِيَ مجهولاً من وجهٍ آخر، فإنَّ الإنسان يتشوق إلى تكميل المعرفة، وتكونُ الرغبةُ قويةً في إتمام الوجه الناقص، وبخاصةٍ إذا كان الإنسان حاكماً، أو مسؤولاً، أو ملكاً، والرؤيا التي رآها الملكُ دلت على شرٍّ من وجه، ولكن ما هو؟ ولهذا السبب قَوّى الله شوقَ الملكِ إلى مُعَبِّرٍ يُفسّرُ له الرؤيا، حتى تتضح له الصورة من كافةِ وجوهِها، ولذلك جمعَ أعيانَ المملكةِ وحُكماءها، والسحرةَ والكُهانَ، والعلماء والمُنجمين، وأشرافَ القوم، كما ذكر صاحب «روح البيان»، وقال لهم بلهجة المُكرم لهم لما عندهم من العلوم والمعارف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

قال صاحب كتاب «حياة يوسف»: من شدة اهتمام الملك بالرؤيا دعا أهل المشورة عنده وطلب منهم تأويلها قائلاً: بيِّنُوا لي حُكمَ هذه الرؤيا، وكلمة «تعبرون»: مأخوذةٌ من العبور، وهو المُجاوزة، تقول: عبرتُ النهر، إذا بلغتَ شاطئهُ الآخر وقطعته، والذي يُعبِّرُ الرؤيا ويُفسرها إنما ينتقل بها من جانب الخيال إلى جانب الواقع، فهو عبورٌ، وعَبَرَ الرؤيا وعَبَّرها بمعنى واحد، ومنه قول الشاعر:

رأيتُ رؤيا فعَبَّرتُها   وكنت للأحلام عَبَّارا

قال العلماء: الرؤيا تطلب التعبير؛ لأن المعاني تظهر في الصور الحسية

مُنَزَّلةً على المرتبة الخيالية، والرؤيا يؤخذ منها الاستئناس والتبشير أو التحذير، لكن لا يؤخذ منها حكم في الوجوب أو الاستحباب، أو الإقدام على الفعل بمجرد الرؤيا، أما رؤيا الأنبياء فهي وحي.

ورؤيا الناس للنبي ﷺ رؤيا حق، وما حدَّثك به حق، فقد نقل بعض المفسرين عن «بقيِّ بن مُخلدِ» صاحب «المسند في الحديث»، أنه رأى النبي ﷺ في المنام وقد سقاه لبناً، فلما استيقظ استقاء وقاء لبناً، كأنَّ الغاية أن يعلمَ حقيقة قوله ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني في اليقظة، فإن الشيطان لا يتمثل على صورتي».

وحكى الشيخ «إسماعيل حقي» صاحب كتاب «تفسير روح البيان» المتوفى سنة ١١٣٧ هـ، أنَّ رجلاً من الصالحين رأى في المنام أنه لطَمَ النبي ﷺ، فانتبه من نومه فزعاً، وأزعجه ما رأى مع جلالة النبي وقدره عند الله، فأتى بعض الشيوخ الذين يُحسنون التعبير، فعرض عليه رؤياه، فقال له الشيخ المُعَبِّرُ: اعلم أنَّ النبي ﷺ أكبر من أن تمتد عليه يدٌ لك أو لغيرك، والذي رأيته يُؤَوَّلُ بشرع النبي ﷺ، وأنك أخللت بحكم شرعي من أحكام الشريعة، وكونُ اللطم في الوجه يدل على أن الأمر المحرم الذي تَلَبَّسْتَ به هو من الكبائر.

ثم إن الرجل الصالح انفرد بنفسه، وأخذ يُحاسِبُها، فلم يذكر أنه أقدمَ على أمرٍ مُحرم من الكبائر، وكان الرجل مشهوداً له بالصلاح، ثم إنَّ الشيخ المُعبر للرؤيا خبير وغير مُتهم في دينه، فازداد هَمُّهُ، ثم رجع إلى بيته حزيناً فسألتهُ زوجه عن سبب حُزنه، فأخبرها برؤياه، وتعبير الشيخ، فتعجبت المرأة، وأظهرت التوبة، وقالت: والله لأصدُقَنكَ، قال: وما الخبر؟ قالت: كنت حلفت أني إنْ دخلتُ دارَ فُلانٍ – أحد معارفك – فإني طالق، فمرَرتُ

يوماً على بابهم، فحلفوا عليَّ أن أدخل، فاستحييتُ من إلحاحهم، فدخلتُ إليهم، وخفت أن أذكر لك ما جرى، فكتمتُ الأمرَ.

قال البروسوي: فاستغفر الرجل ربه، وتاب إليه، ودعا الله أن يعفوَ عنه وعنها، ثم اعتدَّتْ المرأةُ، وأحدثَ لها عقداً جديداً، والخُلاصة: أن الرؤيا تطلبُ التعبير، ولذلك قال الملك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ۝٤٣﴾، أحسَّ الكُهان والسحرة والحاشية أنَّ الرؤيا تُشير إلى أمرٍ مُزعجٍ سيء، لم يُريدوا أن يواجهوا الملكَ به، على عادة رجال الحاشية في إظهارِ كلِّ ما يُفرحُ ويَسُرُّ الحاكم، وإخفاء كل ما يُزعج ويُسيء، أو أنهم شعروا بعجزهم عن تعبيرها وتفسيرها، ولذلك كان جوابهم ما ذكره القرآن الكريم: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ۝٤٤﴾.

وقول الحاشية: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾ أي أنها تَخاليطُ من أحاديث النفس، ومن وساوس الشيطان، فهي لا تُشير إلى شيء.

والأحلام: مُفردها: حُلُم، أو حُلْم، وهو مُرادف للرؤيا في المعنى، إلا أنَّ كلمة «رؤيا» غلبت في الخير، والشيء الحسن، وغَلَبَ الحُلمُ في الشر، والشيء السيئ، وقد ورد في الحديث الذي أخرجه البخاري في كتاب «التعبير» قوله ﷺ: «الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان».

قال التوربشتي: الحلم عند العرب يُستعمل استعمال الرؤيا، والتفريق بينهما اصطلاحٌ سنَّهُ الشارعُ الحكيم للفصل بين الحق والباطل، فجعل الرؤيا للقسم الصالح، والحُلم عما كان من الشيطان. وكلمة «أضغاث»: مُفردها «ضِغْثٌ»، وهو أقل من حُزمةٍ، وأكثر من قُبضةٍ من أخلاط النبات الرطب واليابس.

وقد ذكر صاحب كتاب «أنبياء الله» أن الملكَ لما ذكر للحاشية رؤياه، قال

أحد العارفين: يا سيدي، هذه أشياءُ مختلطة كيف تأكُل أبقارٌ هزيلةٌ، أبقاراً سمينةً، هذه رؤيا لا تأويل لها.

وقال أحد الكُهان: لعلَّ مولاي الملك، أثقل في عشائه قليلاً، فحدَّثته نفسه بالسنابل الخُضر واليابسة، وكان كبير الوزراء إلى جانبه، فقال: يا مولاي، يقول النساء: إن الإنسان إذا نام، وقَذَفَ غِطاءه بقدميه، فظهر شيء من جسمه عارياً، فإنه يرى تخاليطَ أحلام.

وقال مُهرج الملك: يا مولاي، يقولون: إن كِبَرَ السن يجعل الأحلام تختلط، وهكذا اتفقت آراء الخُبراء على أنَّ حُلم الملك أضغاث أحلام، وأنه مجموعة تخاليط لا معنى لها ولا تفسير لها، فقالوا: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾، والضِغْثُ يُطلق أحياناً عند العرب على الحُزمة الصغيرة من جنس واحد، كقول القائل:

خَوْدٌ[1]، كأنَّ فِراشها وَضَعَتْ به أضغاثَ ريحانٍ غداةَ شمال

قال البروسوي في هذه الآية: تأمل حُسنَ موضع كلمة ﴿أَضْغَٰثُ﴾ مع السنابل، ما أشدَّ توافُقها؟!! ثم يقول: فلله دَرُّ التنزيل.

والظاهر أن الملك كان شاكاً في معرفتهم للتأويل، ولذلك جاء بعبارة تدل على هذا الشك، فقال: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾، عند ذلك خافوا من الملك، وأكدوا شَكَّهُ فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾، والظاهر من السياق أنهم كانوا لا يعلمون، بدليل قول الساقي بعد ذلك حين سَمِعَ بالخبر والرؤيا قال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾، والحقيقة أنهم سواء علموا تأويل الرؤيا، أم لم يعلموا، فإن الله أعمى أبصارهم، وأعجزهم عن الجواب،

(١) خَوْدٌ: الشابَّةُ الناعمة، الحسنةُ الخَلقِ.

ليصير ذلك سبباً في خلاص يوسف من الحبس، وظهور علمه وكمالاته وبراءته.

قال صاحب تفسير «البحر المحيط»: لما شكَّ الملكُ في علمهم لتعبير الرؤيا، وأعضَلَ على الملأ تأويلُها، تذكر الناجي من القتل - وهو ساقي الملك - تذكر يوسف وتذكر تأويلَ رؤياه ورؤيا صاحبه، وتذكر طلبَ يوسف أن يذكره عند الملك، فقال للملك: يا مولاي: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ [يوسف].

والأُمَّةُ: الفترة من الزمن: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود ٨].

قال الشعراوي: كان الذي نجا من السجينين يسمع مقالةَ الملك، وردَّ الملأ، فاسترجع بذاكرته ما مرَّ عليه في السجن، وكيف رأى الرؤيا، وكيف قام يوسف بتأويلها، فقال للملك وللملأ: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾، وأراد أن يستأذن من الملك، وأن يُبيِّنَ للجميع أنَّ التأويل ليس من عنده وهو يعرف من يستطيعُ تأويلَ الرؤى ولذلك قال: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾.

قال الرازي: لما سأل الملكُ الملأ عن الرؤيا، واعترف الجميع بالعجز عن تعبيرها، قال الساقي للملك: يا مولاي: إنَّ في السجن رجلاً صادقاً كثيرَ العلم، كثيرَ الطاعة، قصصتُ عليه أنا والخبازُ منامين، فذكر تأويلهما فصدَقَ في الكل، وما أخطأ في حرف، فإن أذنتَ لي يا مولاي ذهبتُ إليه وأتيتُكَ بالجواب، فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾.

وذكر الآلوسي أنَّ الساقي جثا على ركبتيه أمام الملك عندما سمعَهُ يطلب

تأويلَ الرؤيا وقال: يا مولاي: إن في السجن رجلاً عالماً بتعبير الرؤى، فابعثوني إليه، فبعثوه، وكان السجن على موضعٍ من النيل يبعد عن مدينة الفُسطاط ثمانية أميال، ونُلاحظ أنَّ الساقي لم يذكر اسم يوسف أول الأمر، لماذا؟

والجواب: إنه لم يُصرح باسمه حتى يكون هو المُرسَل، لأنه لو ذكره لهم من أول الأمر، لكان من الممكن أن يبعثوا غيره، وهو يريد لقاء يوسف ولذلك قال: ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴾، فأرسلوه إلى يوسف فكان لقاءٌ، وكان اعتذارٌ، ولم يكن عتابٌ من يوسف، ورآه كما عَهِدَهُ صابراً مُحتسباً، قانتاً، لم يعتب عليه لنسيانه، وخاطبه بلغة القريب تَحبُّباً إليه ﴿ يُوسُفُ ﴾، وزاد في التَّحبُّبِ فقال: ﴿ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٤٦ ﴾.

والصدِّيقُ: هو الذي يَصدُقُ في قوله، بأن يُطابق كلامه الواقع، وصادقٌ في فعله بألا يقول ما لا يفعل، ولذلك قال تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف]، ونحن نعلم أن الساقِيَ كانت له مع يوسف تجرُبتان – كما قال الشعراوي – :

الأولى: تجربةُ مُعايَشَتِهِ له في السجن مع زميله الخباز، وقولُهما له: ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، عندما طلبا إليه تأويل الرُّؤْيَين.

الثانية: هو مجيءُ واقع حركة الحياة بعد ذلك مُطابقاً لتأويله، ولذلك قال له: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾، أيها الصادقُ في كل شيء، أيها المُبتلى من أجل صدقك، لو كنتَ من المُخادعين الكذابين لما سُجنتَ، كان تأثر الساقي شديداً؛ لأنه رأى خير الناس، وأحكم الناس وأنزه الناس، لا زال في السجن؛ ولذلك قال: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ

عِجَافٌ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [يوسف].

وقول الساقي: ﴿أَفۡتِنَا﴾ مع أن المستفتيَ واحد، وهو الساقي يدلُّك على أنَّ الرؤيا ليست له بل لغيره، وأنه سفيرٌ فقط، عساه يعود بتفسيرها للملكِ والملأ كي يُدركوا تفسيرها، فيعملوا بمقتضى ذلك التفسير، أو المعنى كي يعلموا فضلَكَ وعِلمَكَ فيطلبوك ويُنصفوك، وذلك قوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

ونُلاحظ في الآية أن الساقيَ قصَّ على يوسف رؤيا الملك بنفس الألفاظ التي ذكرها الملكُ؛ وذلك ليكون التفسير دقيقاً؛ لأن الرؤيا يكون تأويلُها على مقتضى الألفاظ، ثم لننظر الآن ماذا كان ردُّ يوسف عليه الصلاة والسلام؟

كان ردُّهُ بريئاً، كان رَدَّ نبيٍ، لم يُساوم، ولم يشترط خروجه من السجن مُقابل تفسير الرؤيا، ولم يتكلم إلا بتفسير الرؤيا، وهذه الطريقة تُبيِّن أخلاق الأنبياء، ومن سار على نهجهم، يُغيثون الناس حين يلجؤون إليهم، ولو كانوا سجانيهم وجلاديهم، ولذلك أجاب يوسف دون مُقدمات، ودون شروط، حيث قال للساقي: قل للملك: هذه سبعُ سنين مُخصباتٍ، ومن بعدهنَّ سبعُ سنين شِدادٍ إلا أن يُحتالَ لهُنَّ؟!!

فانطلق الساقي وأخبر الملك بما قال يوسف، فقال الملك: ارجع إليه، فقل له: كيف يصنع؟ قال: ﴿تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يوسف]، هذه بداية تفسير الرؤيا حيث قال: تزرعون سبع سنين على عادتكم بنشاط واجتهاد، وسوف تكون هذه السنين خصبةً عليكم، فاستكثروا من الزراعة فيها ما استطعتم، وهكذا أوَّلَ البقراتِ السِمانِ، والسنابِلَ الخُضر بسنين خصبةٍ، ثم دلَّهم ضمن الكلام على

شيء ينفعُهم فقال: ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ ﴾، أي اتركوه في السنابل دون دِراسةٍ، ودون تذريةٍ، فإن الحَبَّ إذا بقيَ في سُنبله فإنه لا يُسَوِّسُ – أي لا يأكله السوس – ولا تؤثر عليه عوامل الجو.

قال الدكتور طبارة في كتابه «مع الأنبياء»: وهذه معجزة قرآنية، لأن ترك الحَبِّ في سُنبله عند تخزينه يكون وقايةً له من التلف بالآفات والعوامل الجوية، مع احتفاظه بمُحتوياته الغذائية كاملةً – قمح، بقول، شعير – وقول يوسف: ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾، يقول يوسف: أما المُخصص للاستهلاك السنوي فادرسوه، وذَرُّوه، وكُلوه.

ثم انتبه – يا عبد الله – إلى كلمة: ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾، فيها إرشادٌ من يوسف أنَّ عليهم أنْ يُقَلِّلوا الكميةَ المُخصصة للأكل والاستهلاك، وأن يجعلوا أكثر الناتج للزارعة حيث السنواتُ الأولى مُخصبةٌ، لأنه سيأتيهم بعدها سنواتٌ تأكُل كل ما ادخروه، وذلك قوله: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

أعلمَهم يوسف أنه سيأتي بعد السنين السبع الخصيبة، سبعٌ صِعاب على الناس لشدة القحط فيها بحيث تقضي على كل ما خزنتموه في سُنبله من الغلال، وانظر إلى جميل المُطابقة في تفسيره عليه الصلاة والسلام حين فسَّرَ السنين بالبقر، ونسَبَ الأكل إلى السنين: ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾، لأنَّ في الرؤيا كان البقر هو الذي يأكل، فقال: ﴿ يَأْكُلْنَ ﴾ عن السنين ليحصل التطابقُ بين المنام والواقع.

ثم نبَّهَهم إلى أمر مهم جداً في قوله: ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾، أي مما تُحرزون، وتَحفظون للبَذر، فكأنه في حصنٍ منيعٍ، وهذا يُسمى في العلم الحديث: «إعادة الاستثمار».

إلى هنا انتهى تعبيرُ الرؤيا، ولكن يوسف زاد في الرؤيا وفي تفسيرها، فتكلم عن عام لم يحلم به الملكُ، عامٌ من الرخاء، عامٌ يُغاثُ به الناس بالماء والزروع أتَمَّ الإغاثة وأوسعَها، فيكثر الزيتون والسمسم والنخيل والعنب والقصب، فيعصرون منها ما يشاؤون، وكانت هذه بشارةً يحمِلُها الساقي إلى الملك من تفسير يوسف، وهذا التفصيل من يوسف لا يعرفه إلا بوحي من الله، ولا وجودَ له في رؤيا الملك، وذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

قال صاحب كتاب «زاد المسير»: يعصرون العنب، والزيتون...إلخ، ويحلبون الألبان، والعرب يستعملون كلمة «العصر» للحلبِ، ومنه قولهم:

فما عصمةُ الأعراب إنْ لم يكن لهم

طعامٌ ولا درٌّ من المال يُعصَرُ[1]

قال العلماء: وفي الآيات دليل على صحة رؤيا الكفار، وعلى جواز تسمية الكافر ملكاً، وفيها دليل على جواز الزيادة في تعبير الرؤيا، وفي الفتوى، ألا ترى إلى النبي ﷺ لما سُئِلَ عن ماء البحر، أيُتوضأ به؟ قال ﷺ: «هو الطَّهورُ ماؤه، الحِلُّ ميتته».

قال العلماء: عاد الساقي بما قال يوسف إلى الملك الذي لم يكن يريد إلا تفسير الرؤيا، فلما سَمِعَ مقالةَ يوسف، دُهِشَ دهشةً شديدةً، وبخاصة عندما سمع من الساقي عن سنين القحط، وعن الوسيلة التي يمكن بها مُعالجة هذا القحط، وعن العام الخصيب بعد ذلك، وأدرك الملكُ أنَّ هذا التفسير لا يمكن أنْ يكون من إنسان عادي، فأصدر أمراً بإخراج يوسف على الفور

---

(١) أي يحُلب.

وإحضاره إليه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ﴾، لأسمعَ كلامه بأُذني، وأختبرُ تفصيلَ رأيه، ودرجة عقله بنفسي.

ذهب رسول الملك إلى السجن، ولم يكن الساقي في هذه المرة، وإنما يُتَصَوَّر أن يكون الرسول إلى يوسف شخصيةً رفيعةً، طلبت من يوسف الخروج على عجل لمُقابلة الملك، فماذا كان موقف يوسف؟

كان الموقف ما ذكرته الآية: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ ﴾- أي إلى الملك فاسأله قبل شخوصي إليه، ووقوفي بين يديه - ﴿ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف ٥٠]، أي ما حقيقة أمرهنَّ معي، والبالُ: هو الأمر الذي يُهتَمُّ به، ويُبحث عنه، فيوسف يقول: سل الملكَ عن حالِهنَّ ليبحثَ عنه، ويعرف حقيقته، فلا أُحبُّ أنْ آتيه وأنا مُتهمٌ بقضية عوقبتُ عليها بسجن طويل، وأنا غير مذنب حتى أقبلَ العفو: ﴿ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾، فقد صرف عني السوءَ الذي صدر منهُنَّ، ثم قال: وربُّكَ لا يعلمُ ما عَلِمَ ربي منه، أي من السوء الذي أَرَدْنَهُ بي.

هنا نُلاحظ أموراً مهمة، من ذلك أن يوسف كان سؤاله مُجمَلاً: ﴿ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾، لأن السؤال المُجملَ يدفع المسؤول للكشف والبحث ومعرفة التفاصيل، وبذلك تُعرَفُ براءةُ يوسف، كما أنَّ الإنسان يأنفُ من الجهل، وعدم العلم، وبخاصةٍ إذا كان مسؤولاً، ولذلك يدفعه السؤال المُجمل إلى معرفة الدقائق والتفاصيل حتى لا يُقال عنه إنه يجهل القضية.

وتَدُلُّكَ الآية على صبر يوسف وأَنَاتِهِ وبُعْدِ نظره.

قال الزمخشري: وإنما تأنَّى يوسف في إجابة الملك، وطلب سؤال النسوة، ليُظهِرَ براءته مما اتُهِمَ به، حتى لا يتسلَّقَ الحاسدون سُلَّمَ التُهمةِ، ليُحطُّوا من

منزلته، ولئلا يقولوا: ما مَكَثَ في السجن هذه المدة إلا لجُرمٍ كبير، أو أمرٍ عظيم، حُقَّ به أن يُسجنَ ويُعذب.

قال ابن الجوزي: إنما رفض يوسف الخروج؛ لأنه أراد أن تكون مُقابلتُهُ للملك بعد البراءة، حتى لا ينظُرَ إليه الملكُ بعين الشك، وحتى يكون خروجه على وجه التكريم والحُظوَةِ، لا على وجه المَنِّ.

قال الشعراوي: وبراءة ساحة أي إنسانٍ هو أمرٌ مهم؛ كي تزول أيُّ ريبةٍ من الإنسان قبل أن يُسنَدَ إليه عمل، ويوسف طلب إبراء ساحته حتى لا يقولنَّ قائل في وشاية، أو إشاعة، همزاً أو لمزاً: أليس هذا يوسف صاحب الحكاية مع امرأة العزيز، ولقد بيَّنَ لنا رسول الله ﷺ مكانة يوسف من الصبر وعزَّةِ النفس والنزاهة فقال: "إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم قال: لو لبثتُ في السجن ما لبثَ – يوسف –، ثم جاءني الرسول أجبتُ: ثم قرأ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ ﴾.

قد يقول قائل: كيف مدح النبي ﷺ يوسف بالصبر والأناةِ، ثم قال ﷺ عن نفسه: «ثم جاءني الرسول لأجبتُ» أي بالخروج؟

والجواب: إن الرسول ﷺ سَلَكَ مسلك المُشرع الذي يُقتدى به، فقد أراد ﷺ أن يُبيِّنَ حالةَ الحزم، وهي: الخروج أولاً، ثم بيانُ العُذر والبراءة، إذ ليس كل الناس يستطيع أن يصبر صبر يوسف وجَلَدَهُ، فإذا أوجبنا على الناس أن يعملوا مثل يوسف، فربما نتج لهم عن ذلك البقاء الطويل الشاق في السجن، فحالةُ النبي ﷺ حالةُ حزم، وحالةُ يوسف حالةُ صبرٍ وجلد، وعزيمة، ونُلاحظ أيضاً أن يوسف ذكر النسوة بلفظ العموم: ﴿ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ﴾، ولم يذكر امرأة العزيز مع أنها سبب البلاء؟

والجواب: إنَّ هذا حُسنُ أدبٍ من يوسف، وفاءً لزوجها الذي أحسَنَ إليه، ورحمةً منه بها لأنَّ أمرَ حُبِّها له كان أمراً قاهراً غالباً، وكان اتهامُهُ لها في أول الأمر دِفاعاً عن نفسه، فهو أمرٌ لا بُدَّ منه، ولذلك قال هناك: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾، كما نُلاحظ أن يوسف كان نزيهاً، فلم يُصرح بشيء من الطعن على النسوة، وترك أمرَ التحقيق للملك يسألُهُنَّ ما بالُهُنَّ قطَّعنَ أيديَهُنَّ، وينظر ما يُجِبْنَ به.

ونُلاحظ أن يوسف طلب التحقيق في الأمر وهو غائب، وقام الملك بالتحقيق ويوسف غير موجود، كل ذلك لأنَّ يوسف كان واثقاً من براءته، كما أنه آثر عدم الحضور حتى لا يتدخل في المُناقشات.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: وفعلاً، لما سمع الملكُ من الرسول ما قال يوسف، من أنه لن يخرج حتى يُحقِّقَ الملكُ في قضيته، وقف مُهتاجاً، وأحسَّ بأن يوسف قد تعرض لمحنةٍ لا يدريها الملكُ على وجه الدقة، ربما يكون قد سمعَ كلماتٍ أو شائعاتٍ تتردَّدُ عن حُبِّ بعضِ نساء وزرائه لفتى عندها، ولكنَّ الملكَ لم يُعِرْ ما سَمِعَ اهتماماً؛ لأنَّ أمثالَ هذه الأمور، وهذه القصص شيء مُعتاد في دنيا القصور وأهل الترف، ثم قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: ويأمر الملك أحد خاصَّتِهِ باستدعاء زوجات الوزراء والكُبراء، كما أمر بإحضار امرأة العزيز، فجمعَهُنَّ على عَجَل، ثم وجَّه إليهِنَّ السؤال الذي قصَّهُ القرآن علينا في الآية: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف ٥١].

و الخطبُ: هو الحادثُ الجلل، فهو حدثٌ غير عادي يتكلم به الناس ويقع به التخاطب لغرابته، أو إنكاره، إذ يكون شأنهُ عظيماً، ومنه قول إبراهيم لجماعة من الملائكة: ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣١ قَالُوٓا۟ إِنَّآ

أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الذاريات]، ومنه قول موسى للسامري في شأن العجل: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ ﴾ [طه]، وقوله للمرأتين اللتين كانتا تذودان ماشيتهما عن موردِ السُّقيا: ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾؟ [القصص ٢٣].

التحقيق مع النسوة وظهور براءة يوسف:

قال المفسرون: أحضر الملك النسوة، وبينَهُنَّ امرأة العزيز، واستجوبَهُنَّ، واستقصى الأمر، وعَلِمَ الحقَّ، ولذلك واجهَهُنَّ بالاتهام الخطير: ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾، أي ما شأنُكُنَّ، وما قصتُكُنَّ إذ راودتُنَّ يوسف يوم الضيافة؟ هل وجدتُنَّ منه ميلاً إليكُنَّ؟ هل وجدتُنَّ منه غزلاً فيكُنَّ؟ هل تبسَّمَ في وجوهِكُنَّ حتى تجرأتُنَّ، فطلبتُنَّ منه ما لا ينبغي؟

من هذا التحقيق تُدرك – يا عبد الله – ما دار في قصر العزيز يوم الضيافة، وما قالت النسوة ليوسف، وبماذا أشرنَ عليه من مطاوعة امرأة العزيز، أو ربما دعتهُ كل واحدةٍ منهُنَّ إلى نفسها، ولهذا قال علماؤنا: حيث كان الترف، كان التحلُّلُ والفجور الناعم الذي يرتدي ثوب الأرستقراطية.

بعد هذا التحقيق ماذا كان جواب النسوة؟ ﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾.

وعبارة: ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾: تركيبٌ عربي يُراد به براءة شيء من شيء، ومعناه: حاشا لأجله، أي لخوفه أن نكذب، ما علمنا عليه من سوء، وما خبرنا فيه إلا فتى عفيفاً كريماً، غير مُتهم في عفة، والتعبير يدل على التبرؤ ضمناً مما نُسِبَ إليهن.

كانت امرأة العزيز حاضرةً في المجلس، ورأت إقرار النسوة ببراءة يوسف، كما لا حظت أنَّ كل العيون تتجه إليها، وخَشِيت أن تُصرح النسوةُ

بقولها التي قالته لهُنَّ يوم الضيافة: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾، فرأت من الحِكمة والتعقل أن تعترف بما جرى خوفاً من شهادة النسوة عليها، والراجحُ، أنَّ ضميرها قد استيقظ فرغبت في قول الحقيقة، وعلى كلا الحالين، فإنَّ ذلك كان لُطفاً من الله تعالى بيوسف كما قال القرطبي، وألقت بكلمتها صريحةً مُدوية: ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [يوسف].

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: اعترفت بشجاعةِ العاشقة، أنها كانت كاذبة وهو صادق، لقد كان مني قريباً، وشخصُه أمام عيني ماثلاً، فعَلِقهُ قلبي، دعوتُهُ فأبى، وطلبتُهُ فامتنعَ، وكان لربه حافظاً، ولزوجي وفياً، أنا قذفته في السجن بريئاً، وأنا ألقيتُهُ في هذا العذاب، ذلك الذي أعترف به أمام الملك وحاشيته، وأعترف أن يوسف هو الصادق، بل والعريق في الصدق عندما قال: ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾، ثم قالت: وهذا الحق الذي أقررتُ به، والشهادة بالصدق التي قُلتُها عنه، كل ذلك حتى يعلم يوسف – وهو الآن في سجنه – أني لم أخُنْهُ بالغيب، وذلك قوله تعالى حاكياً عنها: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [يوسف].

وقولها: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾: أي ليعلم يوسف أني لم أطعن في أمانته ولا في عِفَتِهِ منذ سُجنَ إلى الآن، وتحتمل الآية معنىً آخر، فهي تقول: أقررتُ بالحق والصدق ليعلمَ زوجي أني لم أخنهُ بالفعل، وإنَّ كلَّ ما وقع هو مراودتي ليوسف الذي وضعه هو في بيتي، وخلّى بيني وبينه، فاستعصمَ يوسف وامتنع، فبقيَ عِرضُ الزوج مُصاناً، وشرفه محفوظاً، كما أقول: إن الله لا يُتمم للخائن كيده، بل يزهق باطله: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾، ولئن برأتُ يوسف من الإثم، فما أُبرئُ منه نفسي، فإن النفس لأمارةٌ بالسوء إلا

ما رحم ربي، وذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾، تابعتْ امرأةُ العزيز كلامها قائلة: وأنا لا أُزكي نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى، فهناك أنفسٌ أمّارةٌ بالسوء، ونفسي منهم لأني راودتُ، واستعنتُ على إغوائه بالنسوة، وسجنته وهذا من أعظم ما يكون من الأمر بالسوء، وهناك أنفُسٌ مرحومةٌ رحمها الله بالعصمة كنفسِ يوسف عليه السلام، ثم انظر إلى ختام الآية الجميل: ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

قال العلماء: فالحق تبارك وتعالى غفور، فهو يشفيك من الداء، بمعنى أنك إن وقعت في الذنب، وتُبْتَ غفرَ الذنبَ ومحاهُ، وهو عز وجل رحيم: بمعنى أنه عَزَّ وجلَّ يمنَحُ الإنسان مناعةً فلا يُصبه الداءُ، فلا يقع في زلة أُخرى، كما قال الشعراوي رحمه الله تعالى.

قال العلماء: وإذا اعترف الخصم بأنَّ الطرف الثاني على الحق، وهو على باطلٍ لم يبقَ لأحدٍ مقالٌ، والفضلُ ما شهدت به الأعداء، وهكذا اجتمع ليوسف في براءته شهادة النسوة، وإقرارُ الخصم.

ولما كان يوسف بريئاً، كانت عاقبتُهُ كريمةً، ولو كان خائناً لما أحسنَ الله عاقبةَ أمره؛ لأن الله: ﴿ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴾.

يقول البروسوي صاحب «روح البيان»: وفي الآيات إشارة إلى أنَّ الله تعالى يوصل الصادقين من عباده إلى السرور بعد الغم، ويُخرجهم من الظُلمات إلى النور، وروى قصتين في هذا الصدد فقال: روى بعضهم، قال: كنت أقرأ الحديث على الشيخ أبي حفص، وكان بِقُربِ المكان الذي نقرأ فيه حانوت عطارٍ يبيعُ العطر، فجاء رجل فأخذ منه عطراً بعشرة دراهم، فلم يكد يمشي خطوات حتى سقطت قارورة العطر من يده، فانكسرت، ففزِعَ

الرجل، فقلنا له: تفزعُ على يسير من الدنيا؟ قال: لا والله، ولو فزعتُ على يسير من الدنيا لفزِعتُ حين سقط مني ثلاثة آلاف دينار في صُرَّةٍ، ومعها جوهرة تعدل ثلاثة آلاف دينار، ولكن الليلة ولد لي، فكُلِّفتُ بلوازمِهِ، ولم يكن لي غير هذه العشرة وقد ضاعت، فلم يبقَ أمامي إلا الفرارُ، ففزعتُ لفراق الأهل والولد، قال: وكان إلى جانبنا جندي يسمعُ كلامه، فأخرج كيس الدنانير والجوهرة بالعلامة التي ذكرها الرجل، ولم يأخذ منه شيئاً، ثم قال البروسوي: فسبحان من ابتلى عبده بالشدائد ثم أنجاه، ولله درُّ الشاعر حين قال:

وراءَ مضيقِ الخوفِ مُتَّسَعُ الأمنِ وأولُ مفروحٍ به آخرُ الحُزن
فلا تيأسَنْ، فالله ملَّكَ يوسفاً خزائِنه بعد الخَلاصِ من السجن

وقالوا: أنَّ شاباً كانت رائحتُهُ طيبةً دائماً، فقال له بعض من حوله: لا شك أنَّ لك مصرفاً عظيماً في تلك الرائحةِ؟! فقال: هذا عطاءٌ من الله، وذلك أنَّ امرأة أدخلتني مرة بحيلةٍ إلى بيتها، وراودتني عن نفسي، فأظهرتُ الجنون، وأسرعتُ إلى الحمام، ولطختُ ثيابي بالنجاسة، فتركتني بظنِّ الجنون، فأكرمني الله بعد ذلك بهذه الرائحة، ورأى الرجل يوسف في المنام، فقال ليوسف: طوبى لك فقد صرف الله عنك كيد امرأة العزيز، فقال يوسف له: وطوبى لك حيث خلَّصك الله من كيد تلك المرأة.

قال العلماء في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ ﴾ [يوسف ٥٣]، نلمسُ قانوناً واضحاً، وهو أنَّ النفس تُحاول أن تجرَّكَ إلى السوء، لماذا؟ لأنها مُجهزةٌ بالغرائز، والشهوات الدافعة لحبِّ العاجلةِ، والزُهد في الآجلةِ.

الغرائز: تُريد أن تنحطَّ بك إلى الأرض، والوحي: يريد أن يرفعك إلى

الأعلى، والتجاذب قائمٌ بين نوازع النفس، ونوازع الروح.

ثم يأتي قانون آخر وهو: ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾، فبرحمة الله يُنار الطريق، وتُدرك يا - عبد الله - أنَّ الباقي خير من الفاني، وأن التعالي أفضلُ من الانحدار، وأن الله يغفر النقائص إذا تاب منها العبد، وهو رحيم، وَسِعَتْ رحمته كل شي.

قال الدكتور «أحمد بهجت»: إنَّ تأمُلَ الآيات يدلك على أن امرأة العزيز قد تحولت إلى دين التوحيد، دين يوسف؛ لأن سجن يوسف كان نقلةً هائلة في حياتها، آمنت بربه، واعتنقت ديانته، وهي لا زالت تُحبه على البُعد، يتعلق قلبُها بكلمة تسمَعُها عنه، أو خاطرةٍ ترتاحُ لها، دون لقاء، أو أمل باللقاء.

كان إعلانُ براءة يوسف، مُقدمةً لدخول امتحانٍ كبير، وتجربة جديدة، نلمَسُ ذلك في قول الملك: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ ﴾، أي أجعله خالصاً لي دون غيري، لأنه كان قبل معرفةِ الملكِ به خادماً للعزيز «قطفير».

وقول الملكِ: ﴿ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ ﴾، هو جريٌ على عادة الملوك فإنهم يُحبون أن ينفردوا بكل نفيس، ويستأثروا بكل عزيز نادر، وقصد الملكُ بهذه العبارة أن يجعل يوسف مُستشاراً له، وأن يستعين به في مهام المملكةِ، من هنا تُلاحظ الفرق بين قول الملكِ في المرة الأولى في الآية الخمسين: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦ ﴾، وبين قوله في المرة الثانية: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ ﴾، في المرة الأولى طلبَهُ لمجرد الانتفاع بعلمه في التأويل للرؤى، أما في الثانية فطلبه: ﴿ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ ﴾.

خروج يوسف من السجن:

قال المفسرون: أتى رسول الملك إلى السجن، وقال: يا يوسف: أجب الملكَ بلا عودةٍ، وهذا بعد تحقيق الملك، فخرج يوسف من السجن وودَّع أهله، ودعا لهم، وكتب على باب السجن: هذه منازلُ البلوى، وقبور الأحياء، وشماتَةُ الأعداء، وتجربةُ الأصدقاء، ثم اغتسل وتنظف من درن السجن، ولبسَ جديداً، وأتى الملك، فلما وصل إلى باب القصر قال: حسبي ربي من دُنياي، وحسبي ربي من خلقه، عزَّ جارك، وجلَّ ثناؤك، ولا إله غيرك.

فلما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بعزتك وقُدرتك من شره، ثم سلَّمَ عليه بالعربية، فقال الملكُ: ما هذا اللسان؟ قال: لسان عمي إسماعيل، ثم دعا له بالعبرانية، فقال له: وما هذا اللسان؟ قال: هذا لسان آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب.

قال الدكتور «أحمد بهجت»: كان الملكُ يُجيد عِدَّةَ لغاتٍ، وكان يوسف كذلك، فأُعجب الملك بثقافته، واطلاعه، ودارَ بينهما كلامٌ، وجاء ذكر الرؤيا، فقال الملكُ ليوسف: أُحب أن أسمعَ تعبيرَ الرؤيا منك، كما ذكر الشوكاني في «تفسيره»، ذلك بعد أن أجلسَ الملكُ يوسف على السرير إلى جانبه، فقال يوسف: نعم، رأيت سبعَ بقرات سمانٍ، فوصفهُنَّ يوسف بألوانهنَّ وأحوالِهِنَّ، وكيف كان خُروجُهُنَّ من النيل، ثم وصف السنابل وهيأتها لا يخرِمُ حرفاً، فقال الملكُ عندها: أعجبُ من تأويلكَ لها، معرفتُكَ بها، ثم التفت إليه وقال: إنك لدينا اليوم مكينٌ أمين، وذلك قوله تعالى، حاكياً قول الملك: ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يوسف].

قال الغرناطي: لما رأى الملكُ حُسنَ منطق يوسف، وصَدَّقَ الخبرُ المَخْبَرَ، والمرءُ مخبوءٌ تحت لسانه، قال الملك له: ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾. ومعنى

﴿ مَكِينٌ ﴾: أي ذو مكانة لا ينال منها واشٍ، ولا مُتآمرٌ، ولذلك نجد الحق تبارك وتعالى حينما تكلم عن جبريل وصفه بقوله عز وجل: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ ﴾ [التكوير]، والمقصود بتلك المكانة، أنَّ يوسف يتمكن من التصرف في البلاد كيف يشاء، فقد أصبحَ موضع ثقةِ الملك، وهو أمينٌ على كل شيء عنده.

قال القاسمي في «تفسيره محاسن التأويل»: لما تحدَّث يوسف مع الملك بما تحدث به، ابتهج الملكُ هو وخاصته، ثم التفتَ إلى الحاشية وقال لهم: هل نجد مثله رجلاً مَهْبِطاً للإمداد الرباني؟ ثم قال ليوسف: بعد أن عَرَّفك الله هذا، فلا يكون حكيمٌ مثلك، وأنت على بيتي، وإلى كلمتك تنقادُ رعيتي، ولا أكونُ أعظَمَ منك إلا بعرشي، وقد أقمتُكَ على جميع أهل مصر، عندها قال يوسف ما قصه الله علينا في الآية: ﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥ ﴾.

قال الغرناطي: وهاتان الصفتان - الأمانة والكفاءة - هما مطلبُ الملوك لكل من يُولّونه عملاً، والحاكم العاقل هو الذي يختار مَنْ يُوَليهم ممن يتمتعون بهاتين الصفتين معاً، أمانةٌ على المحكوم، وثقةٌ عند الحاكم، وبهذا تستقيم الحياة على منهج الله، ويكون الاستقرار.

والخللُ في مجتمعاتنا المُعاصرة - كما يقول الشعراوي - إنما يحدث عندما يُرجِّح الحاكم أهل الثقة عنده على أهل الخبرة والأمانة على المحكومين، وعندها تختل موازين العدل، ويوسف جمع بين الأمانة، فقد تلألأت هذه الصفة فيه أثناء ابتلائه وصبره، وبين العلم، فهو نبيٌّ، وليس بعد علوم النبي علمٌ.

يوسف الآمر الناهي بمصر:

قال القاسمي: ثم نزع الملك خاتمه من يده، ووضعه في أصبع يوسف، وألبسَهُ ثياب بزٍّ، وردّاهُ بسيفه، وجعل في عنقه طوقاً من ذهب، وأركبه مركبَتَهُ، وأمر أن يُنادى في شوارع المُدن بالخضوع ليوسف.

ثم قال الملك: لا يُمضى أمر، ولا يُنفذ شأن في مصر إلا برأيك، ومشورتك، وسمّاهُ مُخلِّصَ العالم، وزوَّجه بنت أحد عُظماء المملكة، ويوسف في الثلاثين من عمره عندها.

وقد ورد عن ابن عباس أنَّ الملك وضع له التاج على رأسه، فقال يوسف عندها: أما الخاتم فأدبِّرُ به أمرك، وأما التاجُ فليس من لبسي ولا لبسِ آبائي، فقال الملك: قد وضعتُهُ إجلالاً لك، وإقراراً بفضلك، فجلس يوسف على السرير، ودانت له الحاشيةُ، وقال له الملك، كما ذكر أهل الكتاب، ونقل عنهم ابن كثير في كتابه «قصص الأنبياء»، قال: لستُ أعظمَ منك إلا بالكرسي.

وقول يوسف: ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾: أي خزائن الدولة الاقتصادية وغيرها، والمقصود أرضُ مصر التي هي لكثرة خيراتها كأنها الأرضُ كلها، وقد ورد عن سعيد بن منصور - كما نقل القرطبي - قال: قال مالك بن أنس: مصر خِزانة الأرض، أما سمعتَ إلى قوله تعالى: ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾، قال ابن زيد: كان لملكِ مصر خزائنُ كثيرة غير الطعام، فسلَّمَ سُلطانه كلَّه ليوسف، وعَزَلَ «القطفير»، الذي مات بعد ذلك، وهكذا صار بَدلَ العزيز.

قال الغرناطي: وكان الملكُ لا يخرج عن رأي يوسف، ولا يعترض عليه في كل ما رأى، وكان في حُكم التابع.

قال الدكتور الشلبي صاحب كتاب «حياة يوسف»: ألقى إليه الملكُ بكل شي، وألقى إليه أمر البلاد والعباد، وكانت تجربةً جيدةً ليوسف، ظهرت فيها خبرتُه الواسعة، وتلألأت أنواره.

قد يُقال: لِمَ طلب يوسف الإمارة؟ وكيف يطلُبها من كافر؟

ثم كيفَ مدحَ نفسه؟

والجواب: إنَّ هذا التصرف كان واجباً عليه، لأمورٍ ذكرها الرازي في كتابه «التفسير الكبير»، فقال رحمه الله: إن هذا التصرف كان واجباً على يوسف؛ لأنه ﷺ كان رسولاً حقاً من الله تعالى إلى الخلق، والرسول عليه مُراعاةُ حقوق الأمة قَدر الإمكان وهذا أولاً، وثانياً: ليتوصلَ إلى إقامة العدل بتوليه هذا المنصبَ المهم، وثالثاً: لأنَّ يوسف يعلم أنْ لا أحداً غيره يستطيع أن يقوم مقامه في ذلك، فطلبَ التولية ابتغاء مرضاة الله، لا لحب المُلك والدنيا.

فإن قيل: كيف تولى العمل من كافر، وكان تحت إمرته، وتَبَعاً له؟

والجواب من وجهين:

الأول: أن الملكَ أسلَمَ تحت تأثير يوسف كما قال مجاهد، فلا مُشكلة عندئذ؛ لأنه يكون قد تولى المُلكَ مؤمن، وإن لم يكن قد آمن، فقد رأينا أنه كان يصدر عن رأي يوسف ولا يُخالفه.

قال القرطبي: في الآية: ﴿ **قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ** ٥٥ ﴾، دليلٌ على جواز أن يعملَ الرجلُ الفاضل للرجلِ الفاجر، أو السلطان الكافر، بشرط أن يُفوِّضَ السلطانُ إليه الأمور، ولا يُعارضه، أما إذا كان العمل بحسب اختيار الفاجر وشهواته، فلا يجوز ذلك.

قال القاسمي: قال قتادة: وفي الآية دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من حاكم جائر، وقد كان السلفُ يتولون القضاء من جهة البُغاة، ويروْنه، وقال أيضاً: والآية دليل على جواز طلب الولاية، أو نحوها كالقضاء، إذا كان الرجل أهلاً لذلك.

فإن قيل: ما تعملون بقول النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: «يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أُعطيتها عن مسألةٍ وُكلتَ إليها، وإن أُعطيتها عن غير مسألةٍ أُعنتَ عليها»، وكذلك ما ورد عن أبي هريرة قال: قال أبو موسى: أقبلتُ على رسول الله ﷺ ومعي رجلان من الأشعريين، وأحدُهما عن يميني والآخر عن يساري، فكلاهما سألَ العمل، والنبي ﷺ يستاكُ، فقال ﷺ: «ما تقول يا أبا موسى؟ - أو - يا عبد الله بن قيس؟»، قال: قلتُ: والذي بعثكَ بالحق ما أطلعاني على ما في أنفُسهما، وما شعرتُ أنهما يطلبان العمل، قال أبو موسى: وكأني أنظر إلى سِواكه ﷺ تحت شفته، وقد قَلَصَتْ، فقال: «لا نستعملُ على عَمَلِنا مَنْ أراده».

والجواب عن ذلك نقول: إن يوسف تصوَّرَ ما سيجري على الناس في سِنِيِّ القحط، فخاف غدرَ الحاشية بالضُعفاء كما غُدِرَ به، وكما عُذِّبَ، فأحب أن يتولى شؤونهم الآتية بنفسه، وأن يكون هو القائم بخدمتهم ليمنع عنهم الظلم.

قال البروسوي: أراد يوسف أن تكون يداه على الخزائن ليُعينهم وقت الشدة شفقَةً عليهم، وهذه أخلاق الأنبياء.

وجميل ما قاله صاحب «الظلال» عليه رحمة الله تعالى: قال: إن يوسف كان يعتقد أنه بعمله هذا - التولي على الخزائن - سيصونُ أرواحاً من الموت، وبلاداً من الخراب، ومُجتمعاً من الفتنة، أي من فتنة الجوع، ولم يكن يوسف

يطلب لنفسه، وإنما طلبَ حِملاً ثقيلاً لإطعام شعبٍ كاملٍ في مصر، وإطعام شعوبٍ تُجاوره طِوالَ سبعِ سنين، لا زرعَ، ولا ضرع، فليس هذا العملُ غُنْماً يطلبه يوسف لنفسه، فإنَّ إطعامَ شعوبٍ جائعة سبع سنوات مُتوالية، لا يقول أحد إنها غنيمة، إنما هي تَبِعَةٌ ومسؤولية يهرب منها الرجال، لأنها قد تُكلفهم رؤوسهم، وقد تُمزِقُ الشعوبُ أجسادهم إذا جاعت؛ لأن الجوع كما يُقال كافر ومجنون، فتعيَّنَ على يوسف تولي ذلك.

قال القرطبي: وكذلك الحُكم اليوم، فلو عَلِمَ إنسان من نفسه أنه يقوم بالحقِّ، والقضاء، والحِسْبَةِ، ولم يكن هناك من يُصلح، ولا يقوم مقامَهُ لتعيَّن ذلك عليه، ووجب عليه أن يسألها، وأن يتولاها، وأن يُخبرَ بصفاته التي تؤهلُه لاستلامها من العلم والكفاءة، كما قال يوسف، وأما إن كان هناك من يقوم بها، ويصلُحُ لها، وهو يعلم بذلك، فالأولى ألا يطلُبها، وعلى هذا يُحمل قوله ﷺ لعبد الرحمن بن سُمرة: «فإنك إن أُعطيتها عن مسألةٍ وُكلتَ إليها».

ثم انظر إلى يوسف، فإنه لم يقل حين طلب الولاية: إني حسيب كريم، وهو عليه الصلاة والسلام الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، ولم يقل إني جميلٌ مليح، إنما قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، فسألَها بحفظه وعلمه، لا بنسبه وجماله. قد يقول قائل: كيف مدح يوسف نفسه؟ والله تعالى يقول في [سورة النجم]: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾.

والجواب: إن هذا جائز عند تعريف النفس عند من لا يعرفه، ثم إنَّ المدحَ الممنوعَ، ما كان على سبيل التفاخر والتوَصُّل إلى ما لا يحلُّ.

قال القاسمي: منذ تولى يوسف النظر في خزائن مصر وغلّاتها تجوَّلَ في أقطارها، وطاف قُراها، والأمرُ أمرُه، والإشارة إشارته.

وقال القرطبي: لما دخلت السنون المُخصبةُ، طاف يوسف على الناس،

فأمر بإصلاح المزارع، وأمرهم بالتوسع في الزراعة، فزرعوا حتى زرعوا بطونَ الأودية، ورؤوس الجبال، وكان يأخذ منهم الخُمسَ ويجعله في المخازن، إضافةً إلى زروع الملك وغلّاته، حتى ضاقت المخازن الضِخام بغلاتها، وبقيَ على ذلك سبعَ سنين، فأحبه الناس، وأصبحت أرض مصر تحت تصرفه، كما يتصرف في بيته، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ ﴾ [يوسف ٥٦].

قال الغرناطي: أي كما مكَّنا ليوسف في قلب الملكِ، مكنا ليوسف في أرض مصر، ودخلت كلها تحت سُلطانه.

وتدل الآية على أنه عليه الصلاة والسلام، كان يُخالط الناس، وينزلُ لحلِّ مشاكلهم، ولا يترفع عنهم، ولو كان مُستبداً لما تجرأ أن ينزِلَ حيث يشاء من الأرض، كما تدل الآية على أنَّ التمكين الحقيقي للحاكم في الأرض هو التمكينُ في القلوب، وهكذا كان محبوباً عند الملكِ، وعند الخاصة، وعند العامةِ.

كان هذا التمكينُ في الأرض، وفي القلوب، رحمةً من الله ومُكافأةً ليوسف على صبره في الجُبِّ، وعلى الرِّق، وعلى السجن، وصبره عن محارم الله، حيث دعته امرأة العزيز، وهكذا يكون شأن كل مؤمن صابر مستقيم، وما أجمل قول القائل:

أما في رسول الله يوسف أُسْوَةٌ ... لمثلِكَ محبوساً على الظلمِ والإفكِ
أقام جميلَ الصبرِ في الحبسِ بُرهةً ... فآلَ به الصبرُ الجميلُ إلى المُلكِ

وهكذا كان هذا التمكين رحمةً ليوسف من الله، وإلى هذا أشارت بقية الآية: ﴿ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ ﴾ [يوسف].

قال الغرناطي: أي لا نُضيع في الدنيا أجر من أحسنَ، بل نُنْعِمُ عليه بمُلكٍ أو غنى، أو غير ذلك، ولكن الأجر الحقيقي هو الأجر الأُخروي، ولذلك قال في الآية التي تليها: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

رُوِيَ أنَّ «سفيان بن عُيينة» كان يقول: المؤمن يُثابُ على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجر يُعجَّل له الخير في الدنيا، وما له في الآخرة من خلاق، وتلا هذه الآية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [يوسف]، والمُحسن: هو من يصنع شيئا أكثر مما طُلِبَ منه، وهكذا كان يوسف فقد أحسنَ إلى كل الأمكنةِ التي نزل بها، وذلك بارتفاع مستوى الاعتناء بها، والخدمات التي فيها كما ذكر الشعراوي، ولما كان الأجر الحقيقي هو أجر الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يوسف]: أي جزاءَ الآخرةِ أكثر خيراً من جزاء الدنيا، لأنه خير يدوم أبداً، ولهذا كان لمن يَتَّصِفُ بصفتي الإيمان والتقوى، حيث اتقى المؤمنون الكفر والفواحش، والآية تدل على أنَّ أجر الآخرة - وهو الجنة - لا بد له من تقوى وعمل، وهذا لا يكون إلا ببذلٍ وتضحية حتى تنال - يا عبد الله - مرتبةَ الإحسان، وهي أن تعبُدَ الله كأنك تراه.

رُوِيَ عن الشيخ «إبراهيم بن أدهم»، أنه أراد أن يُعلّم تلامذته درساً فأخذهم إلى الحمام العام، فقال الحَمّامي: أُجرةُ الدخول كذا وكذا، فبكى إبراهيم وقال: إذا لم يُؤذن لي أن أدخل في بيت الشيطان - الحمام الحار كانوا يُسمونه بيت الشيطان - إلا بأُجرة، فكيف لي بدخول بيت النبيين والصديقين - الجنة -؟

قال البروسوي: فلا بد للإنسان من صدق العمل، وصدق القلب.

وقال البروسوي: لما استقر المُلكُ والنعمةُ بيوسف، أتاه جبريل وقال له: هَنّاكَ الله بما أعطاك، فهذا ما وعدَ ربك وأنت في الجُبِّ.

فقال يوسف: الحمد لله الذي أنعمَ عليَّ، وأحسنَ إليَّ، وهو أرحم الراحمين، ثم قال: اللهم أن أسألُكَ أن تُتِمَّ نعمتكَ عليَّ، وتُريني وجه يعقوب، وتُقِرَّ عينه بالنظر إليَّ، وتُسهّل لإخوتي طريقاً إلى الاجتماع بي، فإنك سميع الدعاء، وأنت على كل شيء قدير، وهكذا تلاشت المِحَنُ، وجاء الفرج، وذلك عندما يبلغ البلاء قِمتَه، وقديماً قال الشاعر:

إذا الحادثاتُ بلغنَ النُّهى ... وكادت تذوبُ لهُنَّ المُهج
وحلَّ البلاءُ وقَلَّ العزاء ... فعند التناهي يكونُ الفرج

قال المفسرون: بعد ذلك تأتي المرحلةُ التي سيلتقي فيها يوسف بإخوته وأهله، وهي البشارة الثالثة التي بشَّرَهُ بها جبريل لما كان في السجن.

دخول سنوات القحط والشِّدة:

قال المؤرخون والمفسرون، كما ورد عن ابن عباس كذلك، قال: لما جاءت سنوات القحط والشِّدةِ، أصاب الناسَ بأرض كنعان القحطُ والجدب، ونزل القحط بأرض الجزيرة العربية كذلك، عندها بعث يعقوب عليه السلام أولاده للمِيرةِ في مصر، بعثهم ما عدا «بنيامين»، ولم تكن البلاد المُجاورة لمصر مستعدة لهذه المجاعة كما استعدت لها مصر، كما أنَّ سيرةَ عزيز مصر «يوسف» في رحمته ولينه وحُسنِ سيرته كانت قد انتشرت في الآفاق.

قال ابن عباس وغيره: وكان يوسف عليه السلام حين نزلت الشِّدَّةُ بالناس يجلس إليهم عند البيع بنفسه، فيُعطيهم من الطعام على عدد الرؤوس، لكل نفس وَسْقاً من طعام، وفي قول: كان يُعطي لكل نفر حِمْلَ بعير، والوَسْقُ:

ستون صاعاً، والصاعُ: أربعةُ أمداد، يُعادل «١٢٧ كيلو جرام».

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: وجاءت سنوات المجاعة، وبدأ يوسف يوزع الطعام بنظام يُشبه نظام البطاقات، لكل رأس من الناس كذا، وكان قصد يوسف أن يُوازن بين حاجات المُحتاجين وبين الزمن الطويل الآتي.

قال سيد قطب في «الظلال»: يتبيَّنُ لنا اتساعُ رُقعة المجاعة من مجيء البدو من أرض كنعان إلى مصر، كما يتبين لنا كيف قامت مصر بتدبير يوسف في تلافي تلك الضائقة والمجاعة، وكيف صارت مصر في حينها محطَّ أنظار جيرانها، ومخزن الطعام في المنطقة كلها، وهناك مثلٌ عند العوام يُفسر هذه الحقيقة وهو: لو شبعت مصر، وجاع العالم فإن مصر تُطعمه، ولو جاعت مصر لم يُشبعها العالم.

قال القاسمي: أخصبت الأرض سبعَ سنين، وأخرجت من بركاتها ما لا يعلمه إلا الله، فجمع يوسف الغِلال، وجعل المُدن مركزاً لجمعِ هذه الغلال لما حولها من الحقول.

ثم دخلت السنون المُجدبةُ، فَعَمَّ القحطَ مصر والشام ونواحيهما، فأخذ الناس يقصدون مصر، لمّا علموا وجودَ القوتِ فيها، ولم تكن تلك البلاد مُستعدةً لهذه المجاعة.

ومما يؤكد انتشار هذه المجاعة وشِدَّتها، وأنها شملت مصر وما حولها، ما ذكره صاحب كتاب: «التاريخ الجغرافي»، ناقلاً عن كتاب «من نبأ المرسلين» قال: لقد عمَّت المجاعة البلاد المُجاورة، حتى لقد أرسلت ملكة اليمن في طلب القمح من مصر، وقد تأكد هذا الطلب من النقوش الأثرية التي اكتشفها الباحثون المسلمون في اليمن، في القرن الأول للهجرة، وتدل هذه النقوش على المجاعة، كما تدل على العلاقة الطيبة القائمة بين عرب اليمن،

وبين حُكام مصر من الهكسوس، ذوي الأصول الآسيوية.

وقد ذكر ابن هشام، أنه وجد في اليمن مقبرةٌ مفتوحةٌ، أُخرجت منها رُفاة امرأةٍ قد لُفَّ حول عُنُقها أشرطةٌ من اللؤلؤ، وخواتم مُرصعة بالأحجار الكريمة في أصابعها، كما وُجِدت لوحة عليها نقوش ترجمها «جون فوستر» الخبير في الآثار، وقد ذكر ذلك صاحب كتاب «التاريخ الجغرافي» في الصفحتين التاسعة عشرة والعشرين، وكانت الترجمة كما يلي: «بسم الله، إله حِمير، أنا تاجة ابنةُ «ذو شفار» أرسلتُ وكيلي إلى «يوسف»، ولما تأخر في العودة، أرسلتُ إليه وصيفتي، ومعها مكيالٌ من الفضة، ليرُدَّه إليَّ مكيالاً من دقيق، ولما عجزتْ من الحصول عليه، أرسلتها بمكيالٍ من ذهب، ولما عجزت عن الحصول عليه، أرسلتها بمكيالٍ من لؤلؤ، ولما عجزت عن الحصول عليه، أصدرت أمراً بطحنها، ولما لم أجد أيَّ فائدةٍ منها، كان مصيري الدفنُ هنا، فإلى كل من يسمع عني، هلّا رَثَى لمصيري، وإلى كل امرأة تُفكر في التحلّي بحليةٍ من زينتي، أن تلقى نفس الميتَةِ التي لقيتُها».

قال صاحب كتاب «من نبأ المرسلين»: وهذه النقوش تعود إلى زمن يوسف عليه السلام، وهي تؤيد تماماً ما جاء، خاصّاً بهذا القحط الذي أهلك عدد من الأمم في تلك العصور، وبيَّنَ مدى فداحة هذه المجاعة، وكيف كان أهمية دور يوسف باجتيازها، وتجنُّبِ ويلاتها بتخطيط مُحكم دقيق، وفقه واسع، بحيث لما بدأت السنون المُجدبةُ، أرسل يوسف – كما ذكر القرطبي – المُنادي في الناس يقول لهم: معاشِرَ الناس، لا يزرع أحدٌ زرعاً، فيضيعَ البذرُ، ولا يخرج شيء.

قال الحكماء: للقحط علامتان:

الأولى: أن النفس تميلُ إلى الطعام أكثر من العادة.

الثانية: أن الطعام يُفقد لأن الناس يحتكرونه.

قال القرطبي والبروسوي: لما دخلت أيام القحط، أكل الناس مما ادَّخَروه، حتى فَنِيَ ما عندهم، فجاؤوا إلى يوسف مجتمعين وقالوا: يا يوسف قد انتهى ما ادخرناه نحن في بيوتنا، فبعنا من عندك، قال: ففتح المخازن، وباع الطعام بالثمن من ذهب أو فضة، ومن لا يملكُ ذهباً ولا فضة كان يُحضر الحلي والجواهر والأحجار الكريمة، أو يأتيَ بدوابٍ ليأخذ مُقابلها طعاماً، أو يدفع ثمن الطعام عبيداً أو إماءً، أو عقاراً وضياعاً، ومن لا يملكُ شيئاً من هذه الأمور، كان يأتي ببعض أبنائه للاسترقاق، يقول ربُّ الأسرة الفقيرُ: خذ هذا الولد ليكون عبداً لقاء أن آخذ طعاماً لبقية أفراد الأسرة، وما دام لكل شيء ثمن يجب أن يُدفع، فكل إنسان سيأخذ على قدَرِ ما معه.

قال المفسرون: وخطَّطَ يوسف لإدارة الأمر في سنوات الجدب ليشُدَّ كل إنسان الحزام على البطن، ليأكل واحد بِمِعى واحد لا في سبعة أمعاء، وكان يوسف لا يشبعُ من طعام في تلك السنين، فقيل له: أتجوع وفي يديك خزائن الأرض؟ قال: إني أخشى إن شبعتُ أن أنسى الجائع.

وكان من عادة الملوك قديماً في حينها، يُطبخ لهم عند الصباح، فأمر يوسف طباخ الملكِ أن يكون الطبخ والغذاء نصف النهار، حتى يذوق الملكُ طعم الجوع فلا ينسى الجائعين، قال: ثم صارت عادة الملوك بعدها أن يتغدوا نصف النهار.

ثم سأل يوسف ملكَ مصر، ما رأيك فيما خوَّلني ربي؟ ها هو كل شيء في مصر أصبح مُلكاً لك فما ترى؟

فقال الملكُ: افعل ما شئت، فإنما نحن لك تَبَعٌ، عندها قال يوسف: إني لم أعتقهم من الجوع ليكونوا عبيداً، ولم أُنقذهم من البلاء لأكون عليهم بلاءً،

وإني أُشهدُ الله ثم أُشهدك، أني أعتقتهم ورددتُ إليهم أموالهم وأملاكهم وما أخذناه منهم ثمن الطعام، فعليك أن تستَنَّ بسُنتي.

وحين سُئِلَ يوسف: ولماذا أخذت منهم ما دُمتَ قد قررت أن ترُدَّ لهم ما أخذتَ؟

قال: كي يأخُذَ كل إنسان أقلَّ حدٍّ يلزمه في أيام الجدب - كما قال الشعراوي - ثم قال: ومثل هذا يحدث في بعض البلدان، فعندما تدعمُ الدولة الخبز وتدفع من خزانتها بعض ثمنه فيصبح رخيصاً نجد كثيراً من الناس يشتري هذا الخبزَ لإطعام الماشية، وحين يرتفع ثمن الخبز نجد كل إنسان يشتري في حدود طاقته، ويحرص على ألا يُضيّعَ شيئاً من هذا الخبز، وكان سرور الناس بما فعله يوسف عظيماً، فقالوا: والله ما رأينا ملكاً مثل هذا، ولا أجَلَّ منه. ولكن ظروف هذه المجاعة وضعت يوسف أمام اختبار نفسي شديد حين وجد نفسه دون سابق إنذار أمام من سَعَوْا جاهدين لإزاحته من الوجود، أما الذين غيَّبوه في ظُلمات العدم، أمام إخوته، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ ﴾ [يوسف].

قال الغرناطي: وأصاب بلاد الشام، وأرض كنعان ما أصاب مصر وما حولها من الجدب والقحط، وتسامَعَ الناس أنَّ في مصر فائضاً من الغلات منذ السبع الخصبة التي جاءت قبل القحط، كما تسامع الناس بعدلِ القائم على شؤون مصر، وهو يوسف، فأسرع الناس من سائر البُلدان في المسير إلى مصر ليمتاروا منها لأنفسهم ولعيالهم، وكان من جُملة من سار لشراء الطعام منها، إخوةُ يوسف بأمر أبيهم يعقوب.

اللقاء الأول بين يوسف وإخوته:

قال الآلوسي: دعا يعقوب أولاده ما عدا «بنيامين»، فقال لهم: يا بنيَّ

بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً يبيع الطعام، فتجهزوا إليه، واقصدوه تشتروا منه ما تحتاجون إليه.

وقد ذكر المؤرخون كما ورد في «روح البيان» للبروسوي: أنه لما سَمِعَ أولاد يعقوب هذا الكلام من أبيهم قالوا: يا نبي الله، كيف يطيبُ قلبك أن تُرسِلنا إلى جبابرة الأرض، وأنت تعلمُ عداوتنا لهم، وعداوتهم لنا، ولا نأمنُ أن ينالنا منهم شرٌّ !!

قال المؤرخون: وكانت أرض مصر تُسمى أرض الجبابرة لزيادة الجور والظلم فيها، فقال لهم يعقوب: يا بنيَّ، إنه وَلِيَ على مصر ملكٌ عادل، فاذهبوا إليه، وأقرئوه مني السلام، فإنه يقضي حاجتكم، ثم جهزَ أولاده العشرة، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾، أي مُمْتارين يطلبون الميرة، وكانوا عشرةً؛ لأن يعقوب أبقى بنيامين عنده، وكانت هذه الواقعة بتقدير الله سبباً في اجتماع يوسف بإخوته، وتحقيق وعد الله له عندما كان في الجُبِّ: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

قال الرازي: كان يوسف يترصد ذلك الأمر وينتظره – اللقاء بإخوته – لأن الله ألهمه ذلك، وللرؤيا التي رآها أولاً، كما أنَّ يوسف كان كلما وصل أحدٌ من البلاد البعيدة يتفحَّصُهُ ويُدقِّقُ فيه.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: وقف إخوة يوسف مع الجماهير الطويلة صاحبة الحاجات، فرصدتهم العيون؛ لأنهم عشرةٌ وبزيٍّ واحد، ولا شك أن هذا شيءٌ يلفتُ النظر، وأدرك يوسف أنَّ من الممكن أن يكون هؤلاء إخوته، وذلك لقوة فهمه وفراسته، ولعدم تغيُّرِ أحوالهم تغيُّراً كثيراً عما فارقهم عليه لكونهم كباراً؛ ولأن الكبير تكون قد تحدَّدت ملامحُهُ فلا يكونُ تغيُّر شكلهِ كبيراً، مثل تغيُّرِ ملامح الطفل حين يكبر ويصل إلى النُضج، ثم هناك سبب

آخرُ جعل يوسف يغلب على ظنه أنَّ هؤلاء إخوته، وهو تشابه هيآتهم وزِيِّهِم الحاليِّ مع الماضي، ثم من حديثهم مع بعضهم، ثم تأكد أنهم إخوته عندما دخلوا عليه، وانتسبوا له.

قال الآلوسي: لما أرادوا الدخول عليه، استأذنوا، ثم انتَسَبُوا، فعرفهم وأمر بإنزالهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ ﴾، أما هم فلم يعرفوه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾، لم يعرفوه لأسباب كثيرة، منها: اعتقادهم أنه هلكَ ومات، ولانقطاع خبره، ولبُعد الزمن الذي مرَّ عليهم وعليه، ولأنه كان طفلاً حَدَثاً، وما خطر ببالهم أبداً أن يكون هذا الشخص الماثِلُ أمامهم هو يوسف، وأنه حاكم مصر الآن، وأنه تحول من طفل ضائع إلى حاكم، ثم إنَّ يوسف أوقفهم في مكانٍ بعيد عنه حيث يقف طُلابُ الحاجات، وكان يُكلمهم بالواسطة، ثم لتغير اسمه كما قال الدكتور «طبارة»: فكان يُسمى في مصر بـ «صفنات فعينع» ومعنى هاتين الكلمتين باللغة المصرية في حينها: «مُخلص العالم» أو «قوت الأحياء»، وهذا إشارة إلى أنه خلَّصَ الناس من الهلاك بتدبيره، ثم تغيُّرِ زِيِّه وهيأته.

قال البروسوي: دخلوا عليه في مجلس حكومته على زينةٍ واحتشام، التاجُ على رأسه، والسلسلةُ الذهبية في عنقه، وعليه لباس الحرير، فما خطر ببالهم أنه يوسف، ولم يرفعوا أبصارهم إليه هيبةً، ثم إنَّ لبسَ الملوكِ وحياتهم تُغيِّرهم، وتُبدِّلُ أحوالهم، وبخاصة وأن يوسف قد صارت له لحية جميلة طويلة ضخمة، وكان حين ألقوه في الجُبِّ طفلاً، ثم إنَّ التذكُّرَ والعِرفانَ بخلق الله تعالى، فلعلَّ الله ما خلق التذكيرَ في نفوسهم تحقيقاً لوعده عز وجل ليوسف إلهاماً: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾، وهكذا تحقق هذا الوعد بقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ

﴿وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾.

وقد ذكر القاسمي في «محاسن التأويل»: أنهم لما دخلوا عليه سجدوا سجود تحية له، فشَرَعَ يُخاطبهم مُتنكِّراً لهم: أي بلهجة فيها شدةٌ.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: كان يوسف يُخاطبهم بلهجةٍ شديدة عن طريق ترجمان حتى لا يتكلم بلغتهم.

قال ابن عباس: قال يوسف للترجمان: قل لهم لغتكم تُخالفُ لُغتنا، وزِيُّكُم يُخالف زِيَّنا، ولعلكم جواسيس، فمن أين قدمتم؟ قالوا: من أرض كنعان لنبتاعَ طعاماً، وقد أصابنا الجَهْدُ، ونحن رُعاةٌ، فقال يوسف: أخشى أن تكونوا عيوناً لملكِ تلك البلاد لتعرفوا ثغور الأرض؟!!

قالوا: معاذ الله، ما جاء عبيدُكَ إلا للمِيرةِ، لأن الجَهْدَ أصابنا، ونحن إخوةٌ بنو أب واحد، هو يعقوب نبي الله، وهو شيخٌ صِدّيق.

قال: كم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر، هلكَ منا واحد.

قال: فكم أنتم ههنا؟ قالوا: عشرة، قال: فأين الحادي عشر؟

قالوا: عند أبيه يتسلَّى به عن الهالك، قال يوسف: من يشهَدُ لكم أنكم لستم عُيوناً؟ قالوا: نحن في بلد لا نعرفُ فيها أحداً، ولا يعرفُنا فيها أحد، قال: لا بُدَّ من أن نتحقق من صدقكم؟ قالوا: كيف تريد حتى نُثبِتَ لك صدقنا، وقد عرَّفناكَ أنسابنا، فبأيِّ شيءٍ تسكُنُ نفسُكَ حتى نفعله؟ قال: فليبقَ واحدٌ منكم عندي رهينةً، وليذهب الباقون، وليأخذوا طعاماً لأهليكم، ثم أحضروا أخاكم الصغير في العام التالي حتى أتحقق صدقكم، كما قال ابن كثير.

وقال السدّي: كان مع إخوة يوسف أحد عشر بعيراً، وهم عشرة، فقالوا

ليوسف إن لنا أخاً تخلَّف وبعيره معنا، فسألهم: لِمَ تخلَّفَ؟ قالوا: لحُبِّ أبيه إياه، فقال لهم: أردت أن أرى أخاكم هذا الذي تخلَّف؛ لأعلمَ صدقكم، ولأعلَمَ وجه محبةِ أبيكم إياه.

قال القاسمي: فأعطوه «شمعون»، وكان ذلك بالاقتراع كما ذكر البعض، وكان أحسنهم رأياً بيوسف، فاحتبَسَهُ عنده، وأذِنَ للبقية، وأمر بأن يُعطوا مع الميرة التي أعطاهم إياها لأهليهم زاداً للطريق، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [يوسف].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾: أي أوقَرَ وحمَّلَ ركائِبهم بالطعام والميرة.

والجَهازُ: اسم لأمتعة العروس، ولأمتعة الميت، ولحوائج المسافر، أي أعطاهم من الأمتعة ما يحتاجون إليه في سفرهم، ولذلك قال:﴿ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

وقوله: ﴿ أُوفِى ٱلْكَيْلَ ﴾: أي أُتمُّهُ، والظاهر أنهم طلبوا منه زيادة في الميرة بدعوى أنَّ لهم أخاً تركوه مع أبيهم الشيخ العجوز، فطلب منهم يوسف أن يُحضروا أخاهم كي يزيد لهم كيلاً إضافياً؛ لأنه لا يحب أن يُعطيَ أحداً دون دليل واضح التزاماً منه بالعدل، يؤيد هذا قولهم بعد ذلك حين طلبوا من أبيهم إرسال أخيهم معهم: ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ﴾.

وقوله: ﴿ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾: ليس معنى ذلك أنه يمُنُّ عليهم بالضيافة، وإنما تحريضٌ لهم وتشجيعٌ على الإتيان بأخيهم، فيوسف يقول: إن أتيتم بأخيكم فسيلْقى الإكرام المعهود، وسأوفيكم الكيلَ، وأزيدكم حِمْلَ بعير من أجله، لأنه بإتيانكم به يكونُ قد تبيَّنَ صدقكم.

قال الغرناطي في «البحر المحيط»: أراد بقوله: ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾، أن يُشجعهم على المجيء بأخيهم، كما أراد أن يؤنِسهم بهذا الكلام، وهذا ترغيب منه عليه الصلاة والسلام، ثم قرَنَ الترغيب بالترهيب، وهذا شأن العُقلاء، فقال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ ﴾ [يوسف].

قال الرازي: استعملَ يوسف الترغيب والترهيب؛ لأنه يعلم أنهم في أشد الحاجة إلى الطعام وتحصيله، ولا يمكن تحصيلُهُ إلا من عنده.

قال الشلبي: كانوا ينوون الامتيارَ مرةً بعد مرة، وكان ذلك معلوماً ليوسف عليه السلام، فهدَّدهم بشطبِ أسمائهم من التموين، وبِعَدَمِ السماح لهم بدخول بلاده في المستقبل إن لم يأتوا به.

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: إن كلمة يوسف لإخوته: ﴿ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾، حين نُقِلَت إلى يعقوب عليه الصلاة والسلام، أوقعتْهُ في استغراب، وجعلتْهُ يظن أن لهذا الرجل المُتولي شؤون خزائن مصر لغزاً ومغزًى في هذا الطلب، فكأن طلب يوسف كان رمزاً «أو شيفرة» لا يستطيع حلَّها إلا يعقوب، وقد فهمها يعقوب، وأدرك أن يوسف في مصر، ودليل ذلك أنه قال لأولاده عند ذهابهم في المرة الثالثة: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾.

كان جوابهم ليوسف على طلبه هذا: بأننا سنجتهد، وسنستميلُ الوالد برِفق؛ لأنَّ المطلَبَ صعب، والمنالَ عزيزٌ، حيث أباهم ضنينٌ به، ولكننا نستطيع ذلك، وهذا ما أشارت إليه الآية: ﴿ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾، وهذه ترقيةٌ في الوعد من المُراودة إلى التحصيل كما قال أبو السعود.

أما يوسف، فقد أمرَ مُساعديه وخُدّامه الكيالين أنْ يَدُسّوا البضاعة التي

أتى بها إخوته - وهي ثمن الميرة - وكانت من الورق أتوا بها ثمنَ القمح والعلف، في رحالهم دون أن يشعروا، فإذا وصلوا إلى أهليهم، وعرفوا أن الثمن الذي دفعوه لعزيز مصر قد رُدَّ لهم أدركوا فضلهُ عليهم بإعطاء البَدَلين.

قال القاسمي: وإعطاءُ البدلين سيكون من أقوى الدوافع لرجوعهم.

قال القرطبي: استقبحَ يوسف أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام، فردَّهُ سِراً إليهم، كما خاف يوسف ألا يكون من الفضة والدراهم ما يرجعون به مرة أُخرى، كما قال ابن عباس، وقد يكون الدافعُ لإعادة الثمن إليهم سِرَاً، أن يعرف يعقوب أنَّ العزيز أكرمهم، وأنه لا خوف من إرسال الأخ إليه.

كما أراد أن يجعل الثمن معونةً لهم على شِدَّةِ السنوات، وقد يكون من مراداتِ يوسف، أن يُقابل مُبالغتهم في الإساءة إليه بمُبالغته في الإحسان إليهم، ثم إنهم إذا رأوا الثمن قد دُسَّ في رحالهم عند وصولهم إلى أهليهم، لم يستحلُّوا أخذه، بل لا بُدَّ من أن يَردُّوه، ويكون ذلك سبباً لرجوعهم إليه، وقد أشارتِ الآية الثانية والستون إلى أنَّ الغِلمان وضعوا الثمن سِراً، وأعادوه إلى رِحالِ إخوة يوسف، قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يوسف].

هنا قد يردُ سؤال: وهو كيف جاز ليوسف أن يُصِرَّ على الطلب من إخوته أن يأتوا بأخيهم، وهدَّدهم بقطع الميرة إن لم يأتوا به، مع علمه أنَّ هذا يُدخِلُ الغَمَّ والهم على قلب الوالد يعقوب؟

والجواب: قال قومٌ: أراد يوسف أن يُنبه أباهُ على حاله.

وقال قومٌ: ليُضاعِفَ سرور أبيه برجوع ولديه إليه، وليُعجلَ سرور أخيه.

والتحقيق والصواب: أن ذلك كان بوحيٍ رباني لرفعِ المنزلة، وزيادة

أجرِ الآخرة، يدل على ذلك في أثرٍ رواه وهب قال: لما جمع الله بين يوسف وأبيه يعقوب، قال له يعقوب: يا يوسف بيني وبينك هذه المسافة القريبة، ولا تكتب إليَّ تُعرِّفُني؟ فقال يوسف: يا أبتِ، إن جبريل أمرني ألا أُعرِّفَكَ، فَسَلْ جبريل، قال: فسأل جبريل، فقال: إن الله أمرني بذلك.

قال صاحب كتاب «مع الأنبياء»: عاد إخوة يوسف بما معهم من مؤنٍ وطعام إلى أبيهم، ولما التقوا به كان أولَ خبرٍ قالوه له قبل أن يفُكوا رِحالهم، أنهم ممنوعون من الميرة مُستقبلاً إن لم يُرسل معهم أخاهم بنيامين، وقولهم هذا إشارة إلى قول يوسف: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي ﴾، وأخبروه بأنَّ أخاهم شمعون رهينةٌ عند العزيز، وأخبروه بأنَّ العزيز أنزلهم وأكرمهم إكراماً شديداً، وأنَّ هذا العزيز لو كان رجلاً من أولاد يعقوب لما أكرمنا كرامتَهُ، ثم قالوا: فإن وافقتنا على إرسال بنيامين معنا فلسوف نكتالُ، ونحن بنفس الوقت سنُحافظ عليه، وذلك قولهم كما ذكر القرآن: ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣ ﴾ [يوسف].

وقولهم: ﴿ نَكۡتَلۡ ﴾: أي يُرفع عنا المنعُ من الكيل، وفي قراءةٍ: «يكتل»: أي يكتل أخونا لنفسه معنا، وهم بقولهم هذا يريدون أن يُبعدوا ريبةَ الأب عما حدث ليوسف من قبل، كما قال الشعراوي، عند ذلك جاء جواب الوالد – يعقوب – قائلاً: هل أقدر أن آخُذَ عليكم من العهد والميثاق، أكثر مما أخذتُ عليكم يومَ يوسف؟ وقد قُلتم حينها كما تقولون اليوم: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾، ثم خُنتم بضَمانكم؟

فأخاف أن تفعلوا مثل ذلك الفِعلَ، وأنا لا أثق بكم ولا بِحفظكم، وإنما أفوِّضُ هذا الأمر إلى الله، وهو قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ

﴿ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤ ﴾ [يوسف].

وقوله: ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ﴾: أي منكم، ومِنْ كل أحدٍ.

وقوله: ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾: أي أرحمُ من إخوته، ومن أبويه، فأرجو أن يرحمني بحفظه.

قال الآلوسي: جاء في الآثار أنَّ يعقوب لما قال: ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾، قال الرب عز وجل: «وعزتي وجلالي لأرُدُّهما عليك إذا توكلت عليَّ».

قال البروسوي: وهكذا يجب التوكل على الله، والاعتماد عليه وعلى حفظه دون حفظ ما سِواه، فإنَّ حفظَ ما سِواه مُحتاج إلى الأسباب، والله تعالى غنيٌّ مُستغنٍ عن الوسائط في كل الأمور، وجميع الحالات، وكذلك حفظ يوسف في الجُبِّ، وحفظ دانيال من بختنصر حين طرحه في مغارة، وأدخل عليه أسدين، فلم يضُرَّاهُ، وجعل يتبصبصان إليه، فأتاهُ مَلَكٌ، «رسول على هيئة بشر» فقال: يا دانيال، قال دانيال: من أنت؟ قال المَلَكُ: أنا رسول ربك إليك، أرسلني إليك بطعام، فقال دانيال: الحمد لله الذي لا ينسى مَنْ ذكره.

قال المفسرون: وقول يعقوب: ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾، فيه ميلٌ إلى الإذن في إرساله معهم، ولِما رأى فيه من المصلحة كما قال القاسمي، كما تلمِسُ فيه التوكل الشديد على الله، وهذا ظاهر.

قد يقول قائل: كيف مالَ إلى إرساله معهم، وقد شاهَدَ منهم من قبل ما شاهد؟

والجواب:

أولاً: أنهم كبروا ومالوا إلى الصلاح.

ثانياً: لم يَرَ يعقوب منهم حسداً لبنيامين كما كان هذا الحسد ليوسف.

ثالثاً: ثم إنَّ ضرورة القحط والمجاعة أحوجتْهُ إلى ذلك.

رابعاً: إنه أُعلِمَ وحياً أنه محفوظ.

قال صاحب «الظلال»: كان هذا الحوار قبل فتح الأمتعة، فلما استراحوا من السفر، واستقروا، فتحوا أمتعتهم ليُخرجوا الغِلال، فإذا بهم يجدون البضاعة – الثمن في داخلها –.

وقد ورد أنهم عندما أرادوا فتح البضاعة، قال لهم يعقوب: يا بنيَّ قدِّموا أحمالكم لأدعوَ لكم فيها بالبركة، فقدَّموا أحمالهم، ولما فتحوها وجدوا الثمن من الفضة في رؤوس أحمالهم، عندها قالوا مُخاطبين والدهم بما ذكره الله في الآية: ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يوسف].

قال صاحب «الظلال»: اتخذوا من وجود البضاعة وهو الثمن الذي وضعه يوسف في رحالهم سِرّاً وردَّهُ إليهم دليلاً على أنَّ طلبهم بإرسال أخيهم بنيامين معهم طلبُ حق، ولذلك قالوا: ﴿ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ ﴾: أي ماذا نريد أكثر من ذلك نحن وإياك من هذا العزيز، فقد أكرمنا، وأحسنَ مثوانا، وردَّ الثمن علينا، كل ذلك الكلام منهم يُريدون به أن يستجيب لطلبهم، أو معنى: ﴿ مَا نَبْغِى ۖ ﴾: أي لم نكذب فيما حكينا لك من إحسان العزيز الداعي إلى امتثالِ أمره، وهناك قراءةٌ ثانية وهي: ﴿ يَـآأَبَانَا مَا تبْغِى ۖ ﴾: أي ماذا تَطلبُ دليلاً أوضحَ من ذلك على صدقِنا، فقد ردَّ إلينا الثمن، ﴿ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ ﴾، وسنستعين به حينما نرجعُ إلى مصر لشراء الطعام، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾، أي نأتيهم بالميرة، أي بطعام.

يُقال: مارَ أهله، يُميرُهم، ميراً، وميرةً: إذا جاء بأقواتهم من بلد إلى بلد ومنه:

بعثتُكَ مائراً فمكثتَ حولاً   متى يأتي غِياثُكَ من تُغيثُ

وقولهم: ﴿ وَنَحۡفَظُ أَخَانَا ﴾: أي نحفظه من الجوع والعطش وسائر المكاره. ﴿ وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ﴾: باستصحابه معنا.

﴿ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴾: أي سهل على هذا الحاكم العادل أن يُعطينا ذلك، لأنه سخيٌ كريم، أو المعنى: أن المُدة التي نكتالُ بها يسيرة، لن نتأخر عنك طويلاً.

قال المفسرون: انتهى هذا الحوار بين الوالد يعقوب، وبين أولاده إلى الاستجابة لطلبهم بشرط واحد، وذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ ﴾ [يوسف ٦٦].

والموثقُ: هو العهد المؤكد الذي يلزَمُ الوفاء به، وقد أذِنَ الله عز وجل بالحلف به؛ لأنه بالحلفِ تُؤكَّدُ العهودُ وتُشدَّدُ.

قال السدّي: حلفوا له بالله ليرُدُّنَّهُ إليه ولا يُسلمونه، إلا إذا هلكوا جميعاً، أو غُلبوا جميعاً، وذلك قوله: ﴿ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ ﴾.

يُقال: أحاط بهم العدو: إذا سَدَّ عليهم مسالِكَ النجاة، ودنا هلاكُهم.

قال الشوكاني: حلف الأولاد لأبيهم كما أراد، عندها خوَّفهم من نقض العهد بعقوبة الله، ولذلك قال: ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴾.

قال الناصر: صدق في هذه القصة المثل المشهور، وهو قولهم: «إن البلاء مُوكَّل بالمنطق»، فإن يعقوب عليه السلام، قال أولاً في حق يوسف: ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ ﴾، فابتُلِيَ من ناحية هذا القول، وقال ههنا ثانياً: ﴿ إِلَّآ أَن

﴿ يُحَاطَ بِكُمۡۖ ﴾، أي إلا أن تُغلبوا عليه، فابتُلِيَ أيضاً بذلك، وأُحيط بهم، وغُلِبوا عليه.

قال ابن كثير: كان يعقوب أضنَّ شيءٍ بولده بنيامين؛ لأنه كان يشُمُّ منه رائحة يوسف، ويتسلى به عنه.

وقال: أكَّدَ يعقوب المواثيق، وقرر العهود، واحتاط لنفسه في ولده – ولن يُغني حَذَرٌ من قَدَر – ولولا حاجته، وحاجةُ قومه إلى الميرة والطعام، لما بعثَ الولد العزيز، ولكن الأقدار لها أحكامٌ، والرب يُقدِّر ما يُريد، ويحكمُ ما يشاء، وهو العليم الحكيم.

قال البروسوي: وفي الآية إشارة إلى أن التوكل بعد التوكيد، كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [آل عمران ١٥٩].

وقال صاحب الكواشي: وفي الآية دليل على أنَّ الأخذ بالأسباب الظاهرة مطلوبٌ، ولا يُنافي التوكل، بل يكون التوكل معها صحيحاً.

قال العلماء: بل الأخذ بالأسباب من التوكل؛ لأنَّ خالق الأسباب هو الله تعالى، بعد هذا الميثاق والسماح لهم باصطحاب بنيامين، وحين أزف السفر، أوصاهم بوصية ذكرها القرآن الكريم: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ ﴾ [يوسف ٦٧].

قال صاحب «الظلال»: الجوُّ يوحي إليك أنَّ يعقوب كان يخاف عليهم من شيء، ويرى أن دخولهم من أبواب متفرقة يكون لهم حماية من هذا الشيء الذي كان يخافه عليهم، فما هو هذا الشيء الذي خافه؟

والجواب: أنه خشِيَ عليهم من مكيدةٍ، وكل إنسان تراه ذا شأن، فترقّبْ أن يُعادي، لذلك خاف يعقوب عليهم من جند الملك، أن يؤذوهم بحبس

أو اغتيال.

وقال ابن عباس، وقتادة، والضحاك: إنما أمرهم يعقوب بالدخول من أبواب متفرقة؛ لأنه خاف عليهم من العين والحسد؛ لكونهم أحدَ عشرَ رجلاً لأب واحد، وكانوا أهل جمال وكمالٍ وبسطةٍ، فحين يدخلون فُرادى، فلن ينتبه أحدٌ أنهم جماعةٌ، ثم إن العزيز كان قد أكرمهم في المرة الأولى، فكان في دخولهم مجتمعين مرة أُخرى مظنةُ أن يُصابوا بعينٍ أو حسد.

قال ابن كثير ناقلاً عن أهل الكتاب: إنَّ يعقوب زَوَّدهُم بهدية إلى العزيز تحتوي على العسل والبُطم، والفستق واللوز، والصنوبر.

الحسد والعين:

هنا لا بد من وقفةٍ نتكلم فيها عن الحسد والعين؛ لأن الراجح أن يعقوب خاف من هذا الداء، وهو الحسد.

قال القرطبي: والعينُ حق، وفي الآية السابقة: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ ﴾، دليل على التحرُّز من العين، وقد ذكر الله تعالى أن المشركين كانوا يُنْفِذون النبي ﷺ بأبصارهم، والعرب تقول: «نظر إليَّ نظراً يكادُ يصرعُني»، وتقول: «صرعَني بطَرْفهِ، وقتلني بعينه»، وقد ذكر المفسرون أنه كان رجل من العرب، يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل شيئاً، ثم إذا مرَّت به الإبل أو الغنم، يرفعُ جانب الخِباء، فيقول: لم أَرَ كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسنَ من هذه، فما تذهب قليلاً حتى يسقط منها البعض هالكةً.

فسأل المشركون هذا الرجل أن يُصيب لهم النبيَّ ﷺ بالعين فأجابهم، فلما مرَّ النبي ﷺ أنشدَ هذا الرجل:

قد كان قومُكَ يحسبونَكَ سيداً   وأخالُ أنكَ سيدٌ مَعْيُونُ

فحفظ الله نبيَّه، وأنزل الله عز وجل قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [القلم].

قال الزمخشري: يعني أنهم – يا محمد – من شدة تحديقهم، ونظرهم إليك شَزَراً بعيون العداوة والبغضاء، يكادون يُزِلّون قدمك، أو يُهلكونك، ومنه قول الشاعر:

يتقارضونَ، إذا التقوا في موطنٍ ... نظراً يُزِلُّ مواطئَ الأقدامِ

وأنشد ابن عباس، وقد مرَّ بقومٍ حدَّدوا النظر إليه:

نظروا إليَّ بأعيُنٍ محُمَرَّةٍ ... نظرَ التُّيوسِ إلى شِفارِ الجازِرِ

وكان هذا النظر منهم إلى رسول الله ﷺ يشتد حال قراءته ﷺ القرآن وهو قوله تعالى: ﴿ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [القلم]، أي مجنون يهذي بهذا القرآن، وذلك لعدم تمالُكِ أنفسهم من الحسد منه، كما قال القاسمي رحمه الله تعالى.

وفي صحيح مسلم من حديث ابن عباس أنَّ النبي ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيءٌ سابقُ القَدَرسبقت العين – أي ما قدَّرَهُ الله تعالى هو الكائن – وإذا استُغْسِلْتم فاغسلوا».

وفي حديث أسماء عند الترمذي والنسائي، وابن ماجة، وغيرهم، أن أسماء قالت: يا رسول الله: إنّ بَني جعفر تُصيبُهم العين، أفأسترقي لهم؟ قال ﷺ: «نعم، فلو كان شيء يسبقُ القدرَ لسبقتهُ العين».

وعند أحمد من حديث أبي هريرة، أنه ﷺ قال: «لا هامَ، والعينُ حقٌّ».

وعند أبي داوود من حديث أنس أنه ﷺ قال: «لا رُقيةَ إلا من عين، أو حُمَةٍ، أو دم لا يُرقأ»، والحُمَةُ: اللدغ من الهوام.

ومن حديث محمد بن أبي أمامة «أسعد بن سهل بن حنيف»، أنه سمعَ أباه سهلاً حدَّثه أنَّ رسول الله ﷺ خرج، وساروا معه نحو مكة، حتى إذا كانوا بِشِعْب «الخرّار»، وهو ماءٌ قُربَ المدينة، اغتسل سهلُ بن حنيف، وكان رجلاً أبيض البشرة، فمرَّ عامر بن ربيعة بسهل وهو يغتسل، فقال: لم أَرَ كاليوم ولا جلدَ مخبأةٍ فوُعِكَ سهلٌ مكانه واشتدَّ وعكه، وأتوا رسول الله ﷺ وأخبروه بأن سهلاً قد وُعِكَ، وأنه غيرُ رائح معك يا رسول الله، فأتاه رسول الله ﷺ، فأخبره سهل بما كان من عامر، فقال رسول الله ﷺ بعد أن دعا عامراً، فتغيَّظَ عليه وقال: «علامَ يقتُلُ أحدكم أخاه، هلّا إذا رأيت ما يُعجبك برَّكتَ»، ثم قال ﷺ: «إن العين حقٌّ فتوضأ له»، فتوضأ عامر، وصَبَّ عليه هذا الماء، فراح مع رسول الله ﷺ وليس به بأس، أخرجه مالك في كتاب «العين» باب الوضوء من العين.

وركب سعد بن أبي وقاص يوماً، فنظرتْ إليه امرأةٌ فقالت: إن أميركم هذا ليعلَمُ أنه أهضمُ الكشحَين؛ فرجع إلى منزله فسقط، فبلغهُ ما قالت المرأة، فأرسل إليها، فغسلت له.

قال الأصمعي: رأيت رجلاً عَيُوناً سمعَ بقرة تُحلَب، فأعجبه شخَبُها، فقال: أيتُهُنَّ هذه؟ قالوا: البقرة الفُلانية، وذكروا بقرة أُخرى يُوَرُّون عنها، فهلكَتا جميعاً.

قال الأصمعي: وسمعتُهُ يقول: إذا رأيتُ الشيء يُعجبُني، وجدتُ حرارة تخرجُ من عيني.

قال البروسوي: لا يُستبعد أن ينبعِثَ من عين بعض الناس جواهر لطيفة غير مرئيةٍ، فتتصِلَ بالمَعين فيتضرر، وقال: ولا تختص العينُ بالإنس، بل تكون في الجن أيضاً، ولذلك قيل فيهم: عيونهم أنفذ من أسِنَّةِ الرماح، فقد ورد عن

أم سلمةَ رضي الله تعالى عنها، أن النبي ﷺ رأى في بيتها جارية تشتكي، وفي وجهها صُفرةٌ، فقال: «استرْقُوا لها؛ فإن فيها النظرةَ».

قال العلماء: أراد بالنظرة: أنها مُصابة بالعين من الجن، والنظْرةُ: سوء الحال والهيئة من طائف الجن.

قال الشعراوي: وقد علَّمنا سبحانه أن نستعيذ به من الحسد؛ لعلمه عز وجل أزلاً أنَّ الحسد أمرٌ فوق طاقة دفع البشر له، ولهذا قال سبحانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥﴾ [الفلق]، لأنه في أمر الحسد لا تستطيعُ أن تستعيذ بواحدٍ مُساوٍ لك؛ لأنَّ الحسد يأتي من مجهول غير مُدرَكٍ، فالشُعاع الخارج من العين قد يتأجَّج بالحقد على كل ذي نعمة، وإذا كان عصرُنا، وهو عصر الارتقاء المادي قد توصَّلَ إلى تفتيت الحصى وغيره باستخدام الإشعاع، فمن المُمكن أن يكون الحسد مثل تلك الإشعاعات التي قد يجعلُها الله في عيون بعض خلقه، وتكون النظرة مثل السهم النافذ، أو الرصاصة الفتاكة، والحق عز وجل يقول في [سورة المدثر ٣١]: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

والحقدُ: هو الذي يُولد الشرارة المُؤذية في النفس، فأنت يُمكنك أن تنظر إلى ما يُستحسن دون حسد إن قلت: «ما شاء الله، ولا قوة إلا بالله، اللهم بارك»، كما سيأتي معنا في علاج العين، فعندها لا تتحقق الإثارة اللازمة لإشعال الشرارة المؤذية الناتجة عن الحقد، ويُمكنك أن تستعيذ بالله خالق البشر، وخالق الأسرار، وتقرأ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥﴾ [الفلق].

قال البروسوي: ولما كان الحسد والعين والحقد لا تكون إلا من أهل الأنفس الخبيثة، فقد جعل الله لكل داء دواءً، ولكل شيءٍ ضِداً، فجعل الدعوات والالتجاء إلى الله، والأنفاسَ الطيبة تُقابل الأثر الحاصل من أهل الأنفس الخبيثة فتُزيله.

روى عبادة بن الصامت قال: دخلت على رسول الله ﷺ في أول النهار، فرأيتُهُ شديد الوجع، ثم عُدتُ إليه آخر النهار فرأيتُهُ معافى، فقال ﷺ: «إن جبريل أتاني فرقاني، وقال: بسم الله أَرقيكَ، من كل شيء يُؤذيكَ، ومن كل عين وحاسد اللهُ يشفيك»، قال ﷺ: «فأفقتُ».

وقد ذكر ابن عساكر، أن سعيداً الساحي، قيل له: احفظ ناقتك من فُلان العائن، فقال: لا سبيل له إليها، فعانها العائنُ، فسقطت تضطرب، فأخبرَ سعيد الساحي بذلك، فوقفَ على الناقة وهي تضطربُ فقال: حَبَسَ حابس، وشِهابٌ قابس، رددتُ عينَ العائن عليه، وعلى أحبِّ الناس إليه، وعلى كبده وكليتيه، ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣﴾ [الملك]، قال: فأُصيبت حدقتا العائن، وسلمت الناقة.

ويرى بعض العلماء: أنَّ التأثير قد يكون نفسياً بدون رؤية العين، كما ذكر العلماء، أنَّ بعض العُميان يوصف له الشيء فتؤثر نفسُهُ فيه بالوصف من غير رؤية ولا مُشاهدة.

قال القزويني: وتختصُّ بعض النفوس فطرةً بأمور غريبة لا توجد لغيرها، فقد ذكر المؤرخون أنه كان في الهند قوم، إذا اهتموا بشيء، اعتزلوا عن الناس فترةً، وحَرَفُوا هِمَّتهم وتوجُّهاتهم إلى ذلك الشيء، فيقع على وَفْقِ اهتمامهم، وذكروا عن السلطان محمود أنه غزا بلاد الهند، وكان فيها مدينة كلما قصدها، أصابَ مرضٌ بعض جنده، أو هو يمرض، فسأل عن ذلك، فقيل

له: إن عندهم جمعاً من الهنود، إذا صرفوا هِمَّتَهم إلى شيء من هذا المرض، يقع المرضُ على وَفْقِ ما اهتموا، فأشار عليه مُستشاروه بدقِّ طبول حرب قوية عند اجتماع هؤلاء الهنود بحيث يُشوش عليهم هِمَتهم وتوَجُّهاتهم، ففعل، وسَلِمَ الجند والسلطان، وفتحوا المدينة.

ويرى بعض علماء النفس، أن للمحبة تأثيراً، وذكروا قصة لا نُكذبُها ولا نُصدقُها، أنَّ بعض الناس كان يهوى شاباً يُلقب ببدر الدين، وقدَّرَ الله أن تكون وفاة هذا المحبوب ليلة كون القمر بدراً، فلما أقبلَ الليل، وتكمَّلَ البدرُ لم يتمالك ذلك المُحب رؤية القمر بدراً من شدةِ الحُزن؛ لأنه تذكر من يُحب، فأنشد:

شقيقُكَ غُيِّبَ في لحدهِ وتطلُعُ يا بدرُ من بعدهِ
فهلا خُسِفتَ وكان الخسوفُ لباسَ الحِداد على فقدِهِ

قال العلماء: فخسف القمر من ساعته، حيث كان بتقدير الله أن يكون الخسوف في تلك اللحظة التي أنشدَ فيها الشاعر المُحبُّ شعره، وكان بعض الأمم السابقة يرونَ أن العين تقع وتُصيب حتى من بعض الحيوانات.

يقول الجاحظ: علماء الفرس والهند، وأطباء اليونان، ودُهاةُ العرب، كانوا يكرهون الأكل بين يدي السباع، يخافون عيونها؛ لما فيها من النَهَمِ والشَرَهِ، كما كانوا يكرهون قيام الخدم بالمذابِّ والمشارب على رؤوسهم مخافة العين، وقد ذكر البروسوي، ناقلاً عن علماء الحيوان، قال: إنَّ أعجب ما في الدنيا ثلاثة:

الأول: البوم: قالوا: لا تظهر في النهار أبداً، قال صاحب «حياة الحيوان»: لا تخرج البوم إلا ليلاً؛ لأنها تتصور نفسها أنها أحسن الحيوان فتخافُ أن

تُصاب بالعين.

والثاني: الكراكي: وهو حيوان لا يطأ الأرض بقدميه، بل بقدم واحدة، فإذا وضع الثانية لا يعتمد عليها بشدَّةٍ؛ لاعتقاده أنَّ الأرض تُخسف إذا وضع الثانية.

والثالثة: مالك الحزين: الذي يقف في الأنهار والمُستنقعات، وهو يُشبه الكراكيَّ، هذا الحيوان إذا شرب لا يشبع من الماء لظنه أن الماء يفنى إذا شرب حتى يشبع، وبذلك يموت عطشاً.

قال المؤرخون: وفي بلاد «طبرستان» دودٌ - دابة ليلية - يطير في النهار، وله أجنحة خضراء، وزنه بين المِثقال والثلاثة، وفي الليل يُضيءُ نوراً مُشاهداً ضعيفاً، غذاؤه القليل من التراب، ولكنه لا يشبع منه - كمالك الحزين لا يشبع من الماء -؛ لاعتقاده أنه إذا شَبِعَ فَنِيَ التُّراب، فيموتُ جوعاً.

والخُلاصة أن العين حق، وتحقيق ذلك، أن الشيء لا يُعانُ - أي لا يُصاب بالعين إلا بعد كماله - وكل كاملٍ، فلا بُدَّ أن يعقبهُ النقص، وفقَ قول القائل:

إذا تم شيءٌ بدا نقصُهُ ... تَرقَّبْ زوالاً إذا قيل تم

وهذا النقص بعد الكمال إنما يكون بقضاء الله، ولما كان ظهور القضاء بعد العين أُضيفَ التأثيرُ إلى العين، وهو في الحق - هذا التأثير - هو بفعل الله وخلقه، فالتأثير الحاصل عَقِبَهُ هو فعل الله على إجراء عادته، إذ لا تأثير للعين حقيقةً إلا بمشيئة الله، هذا مذهب أهل السنة.

قال الشلبي: أمرهم يعقوب بالأخذ بالأسباب، بألا يدخلوا من باب واحد، ثم أعلمَهم أنَّ هذه الأسباب لا تأثير لها إلا بمشيئة الله؛ ولذلك قال: ﴿ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ﴾، أي لستُ أُغني عنكم بحذَري هذا من

قَدر الله، فهو مُجردُ حِرْصٍ، أما النفعُ من ذلك الحِرص والتدبير، فهو من أمر الله، ولذلك قال: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾، لقد قرر يعقوب في هذه الآية نواميسَ وقواعد، منها: أنَّ الأخذ بالأسباب غيرُ مُخِلٍّ بالتوكل، ثم ما أراده الله هو الكائن: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ ﴾، ثم مع أخذكَ بالأسباب ليكن الأصلُ اعتمادك على الله: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ ﴾، وأنَّ على كل مؤمن ألا تغيبَ عنه هذه الحقيقة في وسط الأسباب، وإنما يُرتب الأسباب ويعتقد أن المؤثر هو الله الذي أعطاها هذا التأثير: ﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾.

اللقاء الثاني بين يوسف وإخوته وبنيامين:

قال صاحب كتاب «قصص القرآن»: ساروا يخفِضُهم وهدٌ، ويرفَعُهم نَجْدٌ، حتى ألقوا عصاهم بساحة يوسف - أي حتى وصلوا - ودخلوا مُتفرقين من عدة أبواب كما أمرهم أبوهم، رغمَ أنَّ هذا التفرق لا يدفع قضاء الله إن أرادَ إيقاعه، ولكن ذلك كان شفقةً من يعقوب، وحِرصاً على سلامتهم، ولذلك خطرَ له هذا الخاطر، وهو يعلم أنَّ ذلك لا يُغني عنهم من الله شيئاً؛ لأن يعقوب نبيٌّ مُرسل، وعَلِمَ ذلك وحياً، فهو حافظٌ لوصية ربه، مُتيقنٌ لوعْدِنا، عارفٌ لموقع المُسبِّب، ولموقع الأسباب، وأنها لا تُنافي التوكل، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يوسف].

قوله تعالى: ﴿ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾: أي علمناه بالوحي علماً جليلاً يعرف به موقع المُسبِّبِ، وموقع الأسباب، ولكن أكثر الناس يظنون أنَّ للأسباب وحدها التأثير، وهذا ما يجعل الدنيا تُتْعِبُ الناس.

ثم ينتقل القرآن إلى مشهد اللقاء لبنيامين، ومشهد يوسف يحتضنه، ومعلوم أن هذا لم يحصل فجأة، ولكن القرآن ينقُلك إلى أهم خواطر يوسف، وإلى أكبر شيء يُشغلُ ذهنهُ وهو رؤية أخيه، وضمُّه إليه؛ لذلك لم يذكر القرآن الضيافة، ولا الشيء الذي حصل بين يوسف وإخوته، وإنما ذكر أهم شيء يُريده يوسف: ألا وهو أن يَضُمَّ إليه أخاه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾، ولكن كيف كان الأمر، وماذا حصل عند اللقاء؟

تعالوا نستعرض ما كتبه المؤرخون والمفسرون.

قال الشلبي: لما دخلوا على يوسف، قالوا: أيها العزيز هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيَكَ به، قد جئناك به، فقال لهم: أحسنتم وأصبتم، وستجدون ذلك عندي، ثم بلَّغوه رسالة أبيهم؛ لأن يعقوب عندما ودَّعَ أولاده قال لهم: بلِّغوا عزيز مصر سلامي، إنَّ أبانا يُصلي عليك، ويشكر صنيعكَ معنا.

قال أبو منصور المهراني: أرسل يعقوب مع أولاده رسالة مكتوبة إلى يوسف، يشكره على صنيعه، فلما وصلت إلى يوسف وقرأها على انفراد من إخوته بكى ولم يتمالك نفسه.

قال الآلوسي: أكرمهم يوسف، وأحسنَ نُزُلَهم.

قال القاسمي: لما رآهم يوسف، ورأى معهم أخاه بنيامين، أمرَ بإنزالهم في بيته، وأن يكون غذاؤهم معه، ثم دخل عليهم بعد أن نزلوا واستراحوا، فقاموا عند دخوله عليهم فسجدوا له، ثم سألهم عن أبيهم، ورفعَ طرْفَهُ إلى أخيه بنيامين وآنَسَهُ.

ويروي أهل الكتاب أنه لما أدخلهم يوسف بيته خافوا، فكلموا أحد

الغلمان فطمأنهم إلى عدل يوسف ورحمته، وهدَّأ روْعَهم، ثم دعا يوسف شمعون الذي كان محتجزاً عنده، وضمَّهُ إليهم، ولما حان وقت الغداء، أجلس كلَّ اثنين على خِوان، وبَقِيَ بنيامين مُنفرداً، فقال بنيامين كلمة أثرت في يوسف تأثيراً شديداً، كاد بها ينكشِفُ الأمر، ولكن يوسف ثبَّتَ نفسه.

قال بنيامين: لو كان أخي يوسف حياً لأجلسني معه، ثم التفت يوسف إلى إخوته، وقال: بَقِيَ أخوكم وحيداً؟ فقالوا: كان له أخٌ فهلك، فقال يوسف: أنا أُجلِسُهُ معيَ، فأجلسهُ إلى خِوانه، وجعل يؤاكلُهُ.

قال الرازي والشلبي: فلما كان الليل، أمر يوسف أن يوضع في كل غرفة سريران لاثنين، ثم قال: وهذا أخوكم لا ثانيَ له، فاتركوه معيَ، فآواه إليه، وخلا معه في بيت واحد.

قال البروسوي: ثم سأل يوسف أخاه: هل تزوجت؟ قال: نعم، قال: وهل عندك أولاد؟ قال: نعم، كذا وكذا، قال يوسف: وما أسماؤهم، قال بنيامين: كذا وكذا، ويوسفَ، قال: لِمَ سميتَ يوسفَ؟ قال: كان لي أخ بهذا الاسم فهلَكَ، فأنا أتذكره إذا ناديتُ ولدي، عندئذ لم يتمالك يوسف نفسه، فخرج وبكى، ودعا فقال: إلهي وسيدي، إذا كان حُزنُ أخي عليَّ بهذا الشكل، فكيف حالُ والدي الشيخ، اللهم اجمع بيني وبينه.

ثم دخل على أخيه بنيامين وقال له: أتُحب أن أكونَ أخاً لك بدلَ الأخ الهالك؟ قال بنيامين: ومَنْ يجدُ أخاً مثلك، ولكن لم يلده يعقوب، ولا راحيل، عندها لم يتمالك يوسف نفسه فبكى وضم أخاه إليه، وقال له بكل صراحةٍ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩﴾ [يوسف].

وقوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾: فيه دلالة على أنَّ بنيامين شعرَ بشيء من الجفاء من إخوته، ولذلك قال له يوسف ذلك حتى يُزيلُ عنه الكدرَ الذي سبَّبَهُ له مُعاملة إخوته له.

قال الشلبي: وكان ذلك القول: ﴿إِنِّيٓ أَنَاْ أَخُوكَ﴾، مُفاجأةً لبنيامين، أيُعقل هذا؟ هل هذا الرجل العظيم الذي يحكم إمبراطورية مصر هو يوسف؟

ولكَ - يا عبدَ الله - أن تُقَدِّرَ مدى الانفعالات عند الاثنين، وقد تصوَّرَ الدكتور الشلبي كيف بدأت الانفعالات فيقول: تبدأ هذه الانفعالاتِ، بتلفُّتِ بنيامين يميناً وشِمالاً يبحثُ عمّن يأكل معه، فيتذكر أخاه الصغير يوسف، فلو كان هنا لجلسَ إليَّ، وكان معيَ، وفجأةً يأتي عزيز مصر في عظمته، وسُلطانه، ويجلس معه، ثم يُمازِحُهُ ويُلاطفه، ثم تكون المُفاجأةُ الكبرى حين يستدعيه إلى غرفة نومه لينام عنده، وفي هذا اللقاء الخَلوي الذي كان بمعزلٍ عن بقية الإخوة، يقول له يوسف: ﴿إِنِّيٓ أَنَاْ أَخُوكَ﴾، أي حقيقةً، ويُذهل بنيامين، ولا يكادُ يُصدق، هذه هي الانفعالاتُ الكبرى التي تَفْجَّرتْ عندهما، وهكذا كان اللقاء الذي لم ينم فيه الإثنان إلى الصباح كما قال بعض أهل التفسير، وقد نُقِلَ ذلك عن الآلوسي في تفسيره حيث قال: بَقِيَ يوسف يشم أخاه ويضمه إلى الصباح.

أما قول يوسف لأخيه بنيامين: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، فقد أراد يوسف من بنيامين أن يُصفي قلبه على إخوته، قائلاً له لا تحزن لما كنت تلقاه منهم من الأذى، فقد أصبحت الآن آمناً منهم، ولا تتضايق بما فعلوا بالسابق من محاولة صرفِ وجه أبينا عنا.

قال البروسوي: قال يوسف لإخوته، أتحبون سُرعة الرجوع إلى أبيكم؟ قالوا: نعم، فأمر بإعطائهم الميرة، ثم زوَّدهم بالطعام، وبما يلزم المُسافر، ثم

أمرهم بالمسير، ولكنه كان قد رتَّبَ أمراً ليُبقي أخاه بنيامين عنده، وهذا ما أشارت إليه الآية: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يوسف].

قال أحمد بهجت، صاحب كتاب «أنبياء الله»: ها هو يوسف يُدبّر أمراً لإخوته، ليحتفظ بأخيه الصغير عنده، وهو يعلم أنَّ الاحتفاظ بأخيه سيُحرك أحزان أبيه، وليس هناك من سبب قاهر يدفعه للاحتفاظ به، فلماذا يفعل؟

والجواب: أن يوسف يتصرف بوحي من الله، فكأنه عز وجل أراد أن يَصِلَ البلاء بيعقوب إلى نهايته، حتى إذا تبيَّنَ صبره، ردَّ عليه الاثنين معاً، ثم ردَّ عليه بصره، فما هو هذا التدبير، وهذا الترتيب الذي رتبه يوسف؟

قال المفسرون: إن يوسف لما تعرَّفَ على بنيامين أخيه: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾، قال له بنيامين: لا ترُدَّني إليهم، أريد عَدَمَ مُفارقتك، فقال يوسف: قد علمتَ اغتمامَ أبي بي، وحُزنه عليَّ، فإذا احتبستُكَ ازداد غَمُّهُ، فأبى بنيامين، فقال يوسف: لا سبيل إلى ذلك إلا بأن أنسُبَكَ - أنسِبَكَ - إلى ما لا يجمُل بك؟!! قال بنيامين: ما أُبالي، افعلْ ما شئتَ، عندها، دسَّ يوسف الصاع في رحلِ أخيه، ثم لما انفصلوا عن المدينة قليلاً لحِقهم الطلبُ، ونادى المُنادي: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾: أي يا أصحاب القافلة، لأن المقصود بِمُناداةِ العير أصحابُها، كقوله: يا خيل الله اركبي، أي: يا أصحاب خيل الله اركبي.

هنا سؤالان:

الأول: كيف رضيَ بنيامين بالقعود طوعاً؛ وفي ذلك زيادة حُزن لأبيه يعقوب؟ وكيف وافقه يوسف على ذلك؟

الثاني: كيف نسبَ يوسف السرقة إلى إخوته وهم بُرآء؟

والجواب عن الأول: أنَّ الحُزن قد غلبَ على يعقوب بحيث لا مزيد عليه، وبحيث لا يؤثر عليه فقد بنيامين أو غيره أكثر من ذلك، ولهذا تراه عندما فقدَ بنيامين قال: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾، ولم يذكر بنيامين، أما موافقة يوسف له فبوَحيٍ من الله.

وجواب السؤال الثاني: فنقول فيه ما قاله العلماء: وهو أنَّ المُناديَ نادى: ﴿ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴾، فالآية لم تُحدد ماذا سرقوا بالضبط، وهم في نظر يوسف قد سرقوه من أبيه، وألقَوه في الجُبِّ، ثم إنَّ المُناديَ لم يعلم بتدبير يوسف من وضع الصُّواعِ في رحل أخيه، فكان غير كاذب في قوله: ﴿ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴾، وهذا كما يقولَ العلماء، من باب التورية، وهي مسموحٌ بها للتخلص من موقف فيه حرجٌ، كما في حديثه ﷺ للأعرابي في بدر: «نحنُ من ماء»، ومنه:

جُودُوا لنسجعَ بالمديحِ على عُلاكم سَرْمدا

فالطير أحسَنُ ما تُغرِّدُ حينما يقعُ الندى[1]

لما سَمِعَ إخوة يوسف هذا النداء، ارْتَاعُوا، واتجهوا إلى المُنادي، ومَنْ معه من الجند، وسألوه: ماذا فُقِدَ لكم؟ وذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ٧١ ﴾، أي قال إخوة يوسف للجنود، حالَ كونهم مُقبلين عليهم: ﴿ مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴾؟

وجاء الجواب: ﴿ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ٧٢ ﴾: أي لقد ضاعت سِقايةُ الملك؛ ويُقال لها «الصُّواع»، ولمن يدُلُّنا عليها، له مُكافأة حِمْلُ بعير من الغِلال، وأكَّدَ رئيس المُنادين أنه الضامن أن تُدفعَ هذه الجائزة لمن يأتي بالصُّواع قبل التفتيش.

---

(١) الندى: البلل وهو غير مُراد.

قال صاحب كتاب «حياة يوسف»: هنا بلاءٌ شديد، وأزمةٌ خطيرة، يتعرض لها أولاد يعقوب، اتهامٌ بالسرقة، والمسروق قطعةٌ نفيسة، إنه صُواعُ الملك، والجند يُطارِدونهم ويتهمونهم بسرقته، والسبب الذي جعل التُهمةَ تتوجه إلى أولاد يعقوب؛ أنهم كِيْلَ لهم وحدهم، فغلب على ظن الجند والمُنادي، أنهم هم الذين سرقوه، ولم يعلموا أنَّ يوسف أخفاهُ في رحلِ أخيه.

انزعج إخوة يوسف لهذا النداء، ولهذه التُهمة: ﴿ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾، وهم الذين لا يُنزِلون بأحدٍ ظُلماً، ولا يَرْعَوْنَ زرعَ أحدٍ، بل كانوا قد وضعوا على أفواه إبلهم أكِمَّةً لئلا تعبَثَ في زروع الناس، ولذلك كان ردُّهم حاسِماً لتيقُّنهم من البراءة: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [يوسف].

قال ابن الجوزي: ﴿ تَٱللَّهِ ﴾: بمعنى: والله، وعادةً ما تدخل التاء على لفظ الجلالة عند القَسَم المقصود به التعجب، فصار المعنى: ما أعجبَ حالكم، أنتم تعلمون علماً جليّاً أمانتنا، فكيف تقولون: ﴿ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾؟ ونحن قد كَمَّمنا أفواه إبلِنا، وأنتم تعلمون ذلك، وتعلمون أننا لما وجدنا ثمن الطعام في رِحالِنا حاولنا رَدَّهُ، والسارق لا يفعل ذلك، ولا يرُدُّ، كما لاحظَ الناس مُواظبتهم على الطاعات، ومن تحلى بهذه الصفات فلا يُفسد، والسرقة من أعظم أنواع الفساد.

وقد علَّقَ مُدقق تفسير «الآلوسي» على ذكرهم تكميمَ أفواه الإبل فقال: «ليتهم كمموا فمَ ذئبهم عن أكل يوسف عليه السلام».

وقولهم: ﴿ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾: المقصود أرض مصر كما قال الشوكاني، أي ما جئنا لنرتكب الجرائم، وما كنا لصوصاً في يوم من الأيام حتى نفعلها الآن.

قال ضُباط يوسف، وكان يوسف قد علَّمهم ما يقولون: أيَّ جزاء تُحبون أن يُعاقب به السارق إذا ظهرَ كذِبُكم؟

أجاب إخوة يوسف: في شريعتنا نعتبر من سرقَ عبداً لمن سُرِقَ منه، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾ [يوسف].

قال ابن عباس: كان من دين يعقوب وحُكمه، وشريعتهم آنذاك أنهم كانوا يستعبدون السارق سنة، وكان حُكم السارق في مصر، أن يُغَرَّمَ ضعفَ الثمن، وكان حُكم الاسترقاق عندهم يجري مجرى القطعِ لليد في شريعتنا، وشريعتُنا نسخت كل ما كان قبلها.

قال القاسمي: إخوة يوسف هم الذين اقترحوا استرقاق السارق، وهذا يدلك على ثقتهم بأنفسهم، وأنهم أبرياء، غافلون عن تدبير يوسف، ونطقوا بالحكم على أنفسهم: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي من سرق يُسْتَرَقُّ، وبهذا القول أعانوا هُمْ يوسفَ على تحقيقِ مأربه بإبقاء شقيقه معه.

قال الضابط المسؤول لإخوة يوسف: سنُطبّق عليكم شريعتكم، ولن نُطبِقَ قانوننا الذي يقضي بالغرامة والضرب، أو الغرامة والسجن على السارق، هيا نُفَتشْكم أمام العزيز.

قال الرازي: فأُتِيَ بهم إلى يوسف، وبدأ التفتيش وهو بعيد في صدر المجلس يرقُبُهم باهتمام، وهو على عرشه، كما ذكر الدكتور أحمد بهجت، حيث قال: أصدرَ يوسف أمراً للجنود أن يُفَتشوا إخوته أولاً، ففتشوا العشرة، فلما لم يجد الجنود شيئاً معهم، اطمأنَّ إخوة يوسف، وتنفَّسُوا الصُعداء، وقالوا: لم يبقَ إلا شقيقُنا الصغير، فقال يوسف من بعيد، وهي المرة الأولى التي تدخل بها: لا داعي لتفتيشه؛ فإنه لا يظهر عليه أنه سارق.

فقال إخوة يوسف: والله لا تتركه حتى تنظر في رَحْلِه؛ فإنه أطيبُ لنفسك ولأنفُسنا، فلما فتحوا متاعه استخرجوه منه وذلك قوله تعالى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ ﴾ [يوسف ٧٦].

قال القرطبي: لما رأى إخوته ذلك نكَّسوا رؤوسهم، وظنوا الظنون كلها، وأقبلوا على بنيامين يوبِّخونه: وَيْلَكَ يا بنيامين، ما رأينا كاليوم قطُّ، ولدت أمك راحيل ولدين سارقين، وكاد بنيامين أن يكشف السرَّ، ولكنه تذكر وصية يوسف فسكت.

قال الرازي والشلبي: إنَّ قول إخوة يوسف، أنَّ جزاء من سرق الصُواعَ الاسترقاق - هذه العبارة أجراها الله على ألسنتهم - فتمسَّكَ بها يوسف، وأبقى أخاه عنده، فكانت تدبيراً ربانياً لتحقيق ما يريده يوسف، وذلك قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ ﴾: أي دبَّرنا له، وألهمناه ما فعل ليصِلَ إلى إبقاء بنيامين عنده؛ لأن قانون الملك في مصر لا يسمح باسترقاق السارق كما في دين يعقوب وأولاده، فجاء الأمر الذي يُريده يوسف على ألسنتهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾. قال الكواشي: لولا شريعة أبيه، ما تمكن من أخذ أخيه.

وقوله: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾: أي ذلك الأمر كان بمشيئة الله وتدبيره، لأنه تبارك وتعالى هو الذي ألهَمَ يوسف وإخوته ما قالوا، حتى جرى الأمر وَفْقَ ما أراد يوسف، رحمةً منه عز وجل وفضلاً.

قال القاسمي: وفي الآية إعلامٌ بأن يوسف ما كان يتجاوز القانون، وإلا لاستبدَّ بما شاء، وهذا من كمال حكمته، وقوة فطنته، كما يُستدل على جواز تسمية قوانين مِلَلِ الكفر «ديناً» لهذه المِلَلِ، وبذلك نُدرك أنَّ مدلول الدين

لا يقتصر على الاعتقاد والشعائر، وإنما مدلول الدين الدينونَةُ والخضوع لله وحده بالتزام شرعه، ورفضِ شرع غيره.

ثم بيَّنَ الله تعالى أنَّ مِنْ سُنَنِه الإلهيةِ المستمرة أن يرفعَ مَنْ يشاء من أهل الإيمان والعلم، كما رفعنا يوسف على إخوته، ولذلك قال: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾، وهذا يُشبه قوله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة ١١].

وكان ختام الآية قوله تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾: أي وفوقَ علمِ كل ذي علمٍ من هو أعلمُ منه، حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى.

قال قتادة: العلمُ من الله تعالى بدأ، وتعلَّمت العُلماء، وإليه يعود.

وعن محمد بن كعب أنَّ رجلاً سأل علياً رضي الله تعالى عنه عن مسألة، فقال فيها قولاً، فقال الرجل: ليس هو كذا، ولكنه كذا وكذا، فقال عليٌّ: أصبتَ وأخطأتُ: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾.

قال الشلبي: قال الله عز وجل في حق الخلق: ﴿ ذِى عِلْمٍ ﴾، وقال في حقه عز وجل: ﴿ عَلِيمٌ ﴾، وهذا معناه: أن عِلمَ الخلائق، مؤقت، مُستعار، موهوبٌ لهم، لذلك قال: ﴿ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾: أي صاحب علم، أما عِلمهُ تعالى، فلا يزول ولا ينتهي ولا يتناهى.

قال ابن الجوزي في قوله تعالى: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾، قال: أشار الله عز وجل إلى أن العلمَ لا يُحاطُ به، وأنَّ على العالمِ أن يتواضع فلا يُعجَبْ بنفسه.

قال صاحب «روح البيان»: لما خرج الصُّواعُ من رحلِ بنيامين، نكَّسوا رؤوسهم حياءً، وأرادوا تبرئة أنفسهم فقالوا ليوسف: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن

﴿ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾، تنصَّلوا من التُهمة قائلين: لا تعجب أيها العزيز، فهذه خصلةٌ موجودة عند أولاد راحيل، وهم لا يعلمون أنهم أمام يوسف بن راحيل.

قال الرازي: وكلامُهم هذا يدل على أنهم حتى تلك اللحظة لم تطب نفوسهم على يوسف، مما يدل على أنَّ الحاسدَ لا ينفَكُّ قلبه أبداً عن الغِلِّ والحسد، ولكن ما هي تهمةُ السرقة التي لُفِّقت ليوسف؟

قال الحسن: لم يسرق يوسف شيئا وإنما لفَّقوا له ذلك تلفيقاً، وقال أكثر المفسرين، كما روى ابن مردويه عن ابن عباس قال: سرق يوسف صنماً لجده وحطَّمه، أو ألقاه في القاذورات بناءً على رأي أمّه، ولعل الجد يتعظُ فيترك عبادة الأوثان، والجد هنا: أبو الأم في حرَّان، وهذا القول رجَّحه صاحب «مسند الفردوس»، وقيل غير ذلك من جهة عمته، فهي لفرطِ حُبِّها له حين أراد يعقوب أخذه منها ألبستهُ منطقةً وادعت سرقتها، فاحتفظت به.

قال المفسرون: وكان يوسف باستطاعته أن يَرُدَّ عليهم، ويُبَيِّنَ لهم وجه الحق في هذه التهمة، ولكنه أراد أن يظلَّ مجهولاً لهم، لتأخذ الأمور مجراها، ولكن يوسف كتم الغيظ الذي أصابه من قولهم، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا ﴾، لا قولاً ولا فعلاً، صفحاً عنهم، وحلماً، وستراً لإتمام الخُطة.

قد يقول قائل: ماذا كان جوابه لهم في نفسه سِراً؟

والجواب: ﴿ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾.

وقوله في نفسه: ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾: أي أنتم شرٌ منزلةً في السرقة؛ لأنكم سرقتم أخاكم من أبيكم وهو طفل، ثم طَفِقْتُم تفترون على البريء.

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾: أي أنه تعالى يعلم كَذِبَكم، أو المعنى: أن الله يعلمُ أنَّ سرقةَ يوسف للصنم كانت رضىً لله، لا توجبُ ذمّاً كفعلِكم بأخيكم.

قال الرازي: ثم أحبوا أن يميلوا إلى طريق الشفاعة مع العزيز؛ لأن العفوَ عنهم واردٌ بعد أن تعيَّنَ عليهم أن يُبقوا بنيامين عنده بمقتضى فتواهم، فقالوا: أيها العزيز قد أحسنتَ إلينا أولاً، فأحسنْ لنا في هذه الواقعة، بأن تأخذ أحدنا بدلاً عنه؛ لأن أباه يتسلَّى به عن الهالك، وذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ ﴾ [يوسف].

قال المفسرون: سألوا يوسف أن يُتمم إحسانه عليهم، فقد أحسنَ استقبالهم، وأنزلهم منزلاً كريماً، وأعطاهم المِيرة، وأعاد لهم الثمن، ومن فعل مثل هذه الأمور لا يبخل علينا بأن يأخذ واحداً منهم بدلاً عن أخيهم الصغير.

قال القاسمي: وتدلك هذه الآية، على أن للكبير حقاً يُتوَسَّلُ به، كما تَوَسلوا بكِبَرِ يعقوب، يؤيد هذا القول ما ورد أنه في الاستسقاء يُستحب إخراجُ الشيوخ، كما تدل الآية على شدة تَمَسُّكهم بميثاق أبيهم السابق: ﴿ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ ﴾، مُحافظةً على رضاه وبِرِّه.

ثم قال القاسمي: وهكذا فليتمسك الولد البارُّ بمرضاة أبويه.

قال العلماء: كل هذه الترقيقات لقلب يوسف لم تؤثر؛ لأن القاعدة هي ألا يؤخذ بالذنب إلا صاحبه، وهذا أمر لم يَفُتْ على يوسف، ولذلك جاء الردُّ حازماً بيَّنه الله تعالى بقوله: ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا

مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾ [يوسف].

هنا عَلِمَ أولاد يعقوب أن المسألة ليست سهلة، لأنها تتعلق بأمرٍ خطير، وهو الظُلم، ولذلك قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾: أي أعوذ بالله معاذاً، أي ألجأ إلى الله ليعصمني من الظُلم؛ لأن الظُلمَ عنده في أقصى مراتب الكراهَةِ، وكراهيةُ يوسف الشديدة للظُلم تدل على محبة الله له.

قال سهل: إذا أحبَّ الله عبداً، جعل ذنبه عظيماً في نفسه، وفتح له باباً من التوبة إلى رياضِ أُنسه، وإذا غَضِبَ على عبدٍ، جعل ذنبه صغيراً في عينه، فكلما أدَّبه لا يتعظُ.

قال العلماء: والظُلم أنواع: فالحُكم بغير ما حكمَ الله ظلم، وطلبُ الظُلم ظُلمٌ، والصُحبَةُ بغيرِ المُجانسِ ظلمٌ، ومن ابتُلِيَ بالظلم وسائر الأوزار، فعليه التدارك بالتوبة والاستغفار، كما قال البروسوي.

قال أهل التاريخ: لما حصلت ثورة «عبد الرحمن بن الأشعث» ضد الحجاج، اشتركَ رجل في هذه الثورة ثم هرب، وكان لهذا الرجل أخ، فأمر الحجاج بمُصادرة بيته، وقطع عطائه، فجاء الرجل إلى الحجاج وقال: كيف تفعل ذلك؟ فقال الحجاج: إن أخاك كان مع ابن الأشعث ضدنا !! قال الرجل: وما ذنبي أنا؟ قال الحجاج: أما سمعتَ قول الشاعر:

جانيكَ مَنْ يجني عليكَ وقد تعدي الصِحاحَ مَبارِكُ الجُربِ
ولـرُبَّ مأخوذٍ بذنبِ قرينهِ ونجا المُقارِفُ صاحبُ الذنبِ

فقال الرجل: يا حجاج، ولكن الله تعالى يقول غير هذا وكلام الله أصدق من هذا، قال الحجاج: وماذا يقول؟ قال: يقول في إخوة يوسف: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ

مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يوسف].

فقال الحجاج لحاجبه: يا غلام، رُدَّ عليه بيته، وأعد له عطاءه، وأخرج مُنادياً وليُنادِ: صدق الله وكذب الشاعر.

قال أبو السعود في تفسيره المُسمى «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»: ما معناه، لما سَمِعَ إخوة يوسف منه قوله: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾، انقطع أَمَلُهم في أخذِ بنيامين منه، ويئسوا، بل اسْتيأسوا، وهو أعلى درجات اليأس، وانفردوا عن الناس، وأخذوا يتشاورون سِراً فيما بينهم، كيف نُدبِّر الأمر، إن لم يعودوا جميعاً إلى يعقوب، ظنَّ أنهم هلكوا، وإن رجعوا بدون بنيامين ظنَّ أبوهم فيهم الخيانة، وماذا يقولون للوالد الذي ينتظرهم، ثم إنَّ أهلهم مُحتاجون للطعام الذي جلبوه من مصر وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ﴾.

ذكر القاضي عياض في كتاب «الشفا»: أنَّ أعرابياً سَمِعَ قارئاً يقرأ: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ﴾، فقال الأعرابي: أشهد أنَّ مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام.

وقال الثعالبي في كتاب «الإيجاز والإعجاز»: من أراد أن يعرفَ جوامِعَ الكَلِمِ ويتنبه لفضل الاختصار، ويُحيطَ ببلاغة الإيحاء، ويفطنَ لكفاية الإيجاز، فليتدبر القرآن، وليتأمل علوَّه على سائر الكلام، ومن ذلك قوله تعالى في إخوة يوسف: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ﴾، وهذه صفة اعتزالهم جميع الناس، وتقليبهم جميعَ الآراء ظهراً لبطن، وتهيئَةَ ما يَلْقَوْنَ به أباهم عند عودِهم إليه، وما يورِدون عليه من ذكر الحادث، فتضمَّنت تلك الكلمات القصيرة هذه المعاني، والقصة الطويلة: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ

خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾.

قال المفسرون: وبعد التداول فيما بينهم، قَبِلَ الجميع فكرة العودة إلى أبيهم من دون بنيامين، إلا أكبرهم الذي قال مُغضَباً من قرارهم: عليكم ألا تنسوا العهد الذي أعطيناه للوالد، وقد فرَّطنا في يوسف من قبل، أنُفرِّطُ بالثاني الآن؟ ولذلك سأبقى في مصر حتى يفهَمَ أبي الوضع، فإن سمح لي بالرجوع رجعتُ، أو يحكمَ اللهُ بأمرٍ فيه خلاص بنيامين، فأعودَ معه، فإن الله يحكم بالحق والعدل، ثم طلب منهم أن يُخبروا أباهم بالواقع تماماً، وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ٨١﴾ [يوسف].

قال جاد المولى في «قصص القرآن»: ذهب التسعةُ إلى أبيهم، وخلَّفوا كبيرَهم في مصر، وبنيامين عند العزيز.

قال البروسوي: رجع الأخ الكبير إلى يوسف، فلما دخل عليه، قال له يوسف: لِمَ رجعت؟ قال: إنك اتخذت أخي رهينة، فخذني معه، فجعله عند أخيه، وأحسنَ إليهما غاية الإحسان، وقال صاحب «قصص القرآن»: ولما وصل الإخوة إلى أبيهم، تفقَّدَ الأب بنيامين فلم يجده فيهم، فكأنَّ طائراً طارَ من قلبه، أو قطعةً انفصلت من كبده، فقال لهم: ما فعلتم بأخيكم، فأجابوا بما أوصاهم به أخوهم الكبير: ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ - وفي قراءة ابن عباس: سُرِّقَ - ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يوسف ٨١].

قال صاحب كتاب «أنبياء الله»: لما سَمِعَ يعقوب هذه العبارة: ﴿إِنَّ

ﭐبْنَكَ سَرَقَ ﴾، تساءل مُندهِشاً، كأنه يُكذّب سمعه، فقال: ما تقولون؟، فذكروا له القصة، ثم قالوا: ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾، حين أخرجوا الصُّواعَ من رحلِهِ، ونحن لا نجزم ولكن هذا هو الظاهر، ثم إننا عندما أعطيناك المَوثق ما كنا نعلم بأنه سيسرق، وهو قولهم: ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾، فهذا من الغيب.

قال البروسوي: ثم أرادوا المُبالغة في نفي التُهمة عن أنفسهم، وحتى لا يشُكَّ الوالد فيهم، قالوا: يا أبانا، إن كنت تشُكُّ في أقوالنا؛ يُمكنك أن تطلب أدلة أُخرى من المكان الذي كنا فيه "من مصر"؛ لأن القضية اشتهرت وكان معنا قافلة من أرض كنعان - وهم جيران لقوم أبيهم - ثم عَزَّزوا كلامهم بقولهم: وإنا لصادقون بكل ما حدثناك به، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يوسف].

وعبارة: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾: قد يكون لها معنى آخر لطيف، إذ يكون كناية عن ظهور الشيء وانتشاره، فتقول: سَلِ السماء والأرض وجميعَ الأشياء عن هذا الأمر، ومن ذلك قول الشاعر:

واسأل نجومَ الليلِ هل زارَ الكرى

جَفْني، وكيف يزورُ من لم يعرفِ

قال القرطبي: في هذه الآية دليل على أنَّ من كان على حقٍ، وعَلِمَ أنه قد يُظن به السوء، أن يُصرّح بالحق، وأن يدفع الريبة والتُهمةَ عن نفسه، حتى لا يبقى لأحد مجالٌ للكلام، وقد فعل ذلك رسول الله ﷺ عندما قال للرجلين اللذين مرّا به عند خروجه من المسجد ومعه زوجه «صفية»، قال: «على رسلِكُما، إنما هي صفيةُ زوجي»، فقالا: سبحان الله وكَبُرَ عليهما ذلك، فقال ﷺ: «إن الشيطان يبلُغُ من الإنسان مبلَغَ الدم، وإني خشيتُ أن يقذِفَ

في قلوبكما شيئاً».

استمع يعقوب إليهم بحزنٍ عميق، وعينٍ دامعة، ثم لما انتهوا، أجابهم بما بيَّنه القرآن الكريم: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف].

قال الرازي: لما رجع إخوة يوسف إلى أبيهم، وأخبروه بالواقعة، بكى ولم يُصدقهم فيما ذكروا، ولكنه لم يتهمهم بالكذب والاحتيال هذه المرة كما كان الحال في يوسف حيث قال لهم حينها: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف]: أي من الكذب، أما هنا مع بنيامين فقال: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف].

ثم هناك مجال آخرُ لتُهمتهم من قِبَلِ الأب، وهم أنهم جعلوا وجود الصواع في رحلِ أخيهم دليلاً على السرقة، وفي شرع يعقوب، لا تثبت السرقة بمُجرد وجود المسروق في رحلِ الُمتهم، كما ظنَّ يعقوب أن أولاده هم الذين أفتوا باسترقاقِ السارق من قِبَلِ العزيز بعد ظهور المسروق ليبقى أخوهم في مصر، واتهام يعقوب لهم لا حرجَ فيه عليه؛ لأن لهم سابقةً مع يوسف، ونُلاحظ أن يعقوب قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾، فما الذي جعل يعقوب يحكم بأن الله سيأتي له بهم جميعاً؟

والجواب: أنه قال ذلك من باب حُسن الظن بالله، وأن البلاء لّما يشتدُّ، والمِحنَةُ لّما تتعاظم، يأتي اللهُ بعد ذلك بالفرج القريب والمخرج الوشيك، ويؤكد الآلوسي أن الله قد أطلَعَهُ على أنَّ يوسف حي، فقد ذكر الآلوسي: أنه لما عزم إخوة يوسف الرجوع إلى أبيهم، قال يوسف لهم: إذا أتيتم أباكم، فاقرؤوا عليه السلام، وقولوا له: إن عزيز مصر يدعو له أن لا تموتَ حتى

ترى ولدك يوسف، ليعلَمَ - أبوكم - أن في أرض مصر صِدِّيقين مثله: أي تُستجابُ دعوتهم، قال: فساروا إليه، وأخبروه بكل ما كان يقول العزيز، فبكى وقال: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾[يوسف].

وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾: قصد به يوسف وبنيامين، والكبير الذي تخلَّفَ في مصر إلى أن يأذن أبوه له بذلك، وهو شمعون، وقيل «روبيل».

قال القرطبي: كان يعقوب يعتقد أنَّ يوسف لم يمت، ولكن غاب عنه خبره، وكان يوسف يحاول أن يُعلمَ أباه بذلك عن طريق رسول، ولكنه خاف أن يعرف إخوته ذلك، فلا يتركوا الرسول يصل إلى ما يريد.

أما قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، فقد مرَّ معنا، أنه الصبر الذي لا يبوحُ صاحبه بالشكوى إلى الخَلْق، بل يُفَوِّضُ أمره إلى الله ويسترجع.

ثم قال القرطبي: والواجب على كل مسلم إذا أُصيب بمكروه في نفسه، أو ماله، أو ولده، أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل، والرضى والتسليم لمُجْريه، ويقتديَ بنبي الله يعقوب، وسائر النبيين، وقد نقل سعيد بن أبي عروبَةَ، عن قتادة عن الحسن، قال: ما من جُرْعتين يتجرعهُما العبدُ أحبَّ إلى الله من جُرعةِ مُصيبةٍ يتجرعُها العبد بحُسنِ صبرٍ، وحُسنِ عزاءٍ، وجُرعةِ غيظٍ يتجرعُها العبد بحلمٍ وعفو.

قال ابن جريج عن مجاهد في قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: أي لا أشكو ذلك إلى أحد، وقد ورد عن عطاء، عن أبي هريرة أنه ﷺ قال: «مَنْ بَثَّ لم يصبرْ»، والثواب الكبير، إنما يكون لمن ذكر مُصيبتَهُ فاسترجع، أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال جُوَيبر، عن الضحاك، عن ابن عباس: إنَّ يعقوب أُعطِيَ على يوسف أجرَ مائة شهيد، ثم قال: وكذلك من احتسبَ من هذه الأمة في مصيبته فله مثل ذلك، وكان مسكُ الخِتام في الآية قوله: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾.

قال العلماء: وإنما تَرَجَّى يعقوب عودتهم جميعاً، للرؤيا التي رآها يوسف، فكان ينتظرُها ويُحسن الظنَّ بالله؛ لاسيما بعد أنْ: بلغ الشِّظاظُ الوِركين وجاوزَ الحِزامُ الطُّبيين.

وقوله: ﴿ ٱلۡعَلِيمُ ﴾: أي بحالي وحالهم، أي الأولادِ الثلاثةِ، و ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾: فيما يُجريه علينا من تصرفاتٍ، فهو عز وجل يُشدّدُ الأمر، لينظر مقدار الصبر، فيُعطيَ بقدرِهِ الأجرَ، ومن الأجر المُعجل، تعجيلُ الفرج، فهو الذي يبتلي ويرفع البلاء، حسْبَ الحكمةِ البالغة.

قال الرازي: ولما سَمِعَ يعقوب كلام أولاده، ضاق قلبه جداً، ثم فارقهم أياماً، ثم طلبهم؛ وكان إعراضُهُ عنهم كراهيةً لخبرهم الذي أخبروه به، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ ﴾ [يوسف].

قال الرازي: لما ضاق صدر يعقوب من خبر أولاده، عَظُمَ أسفُه على يوسف، والأسَفُ: أشد الحُزن، والحسرة على شيء قد فات.

ولكن لماذا تأسَّفَ على يوسف دون أخويه؟

والجواب: أنَّ الرُّزْءَ في يوسف كان قاعدةَ مُصيباته التي ترتبت عليها الرَزايا في أولاده، ثم إنَّ الحُزنَ الجديد يُحرك الحُزنَ القديم ويُقويه، وبخاصةٍ إذا كان الحُزنُ القديم لم يُنسَ!!

فهذا «مُتَممُ بن نُويرة» يرى قبراً، فحرَّكَ هذا القبر حُزنه القديمَ على أخيه «مالك بن نُويرة»، فلامهُ الناس على ذلك، فأنشدَ:

لقد لامني عند القبور على البُكا رفيقي لِتَذْرافِ الدموعِ السوافكِ
فقال: أتبكي كل قبرٍ رأيته لقبرٍ ثوى بين اللِّوى فالدَّكادكِ
فقلتُ له: إن الأسى يبعثُ الأسى فَدَعْني فهذا كله قبرُ مالكِ

ومن ذلك قول هشام أخي غيلان «ذو الرِّمة» يرثي شخصاً فيقول فيه:

ولم تُنسني «أوفى» المُصيبات بعده
ولكنَّ ذكأَ الجُرحِ بالجُرحِ أوجَعُ

ومن أمثالهم القديمة: «كل جديد يُذكّر بالقديم»، ثم إن يعقوب يعلم حياة هؤلاء، أما يوسف، فما يدري على وجه التأكيد أحيٌ أم ميت، ثم إنَّ يوسف وبنيامين كانا من أم واحدة، وكانت المُشابهةُ بينهم قائمة في الصورة والصِفة أكملُ، فكان يعقوب يتسلى برؤيته عن يوسف، فلما وقع ما وقع، ذهب ما كان يسلو به عن يوسف، فازداد الألم فقال: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾.

قال العلماء: وعندما نسمع نداءً لشيءٍ مُحزنٍ مثل: واحُزناه، واأسفاهُ: فهذا يعني أنَّ النفس نزل بها حدثٌ كبير تضيقُ به، كأنَّ القائل يقول: يا حزنيَ الشديدَ، ويا أسفي الكبير تعال، فهذا وقتُك وأوانُك.

قال صاحب كتاب «قصص القرآن»: لم يعُدْ يعقوب يَجدُ مُتَنَفَّساً لهمه إلا في ساعتين: ساعةٍ يفزع فيها إلى الصلاة والتهجد والعبادة، وساعةٍ يستنجدُ بدمعه وفاءً لولديه، فيستروِحُ بالبكاء، فمن الصلاة يَستلهمُ الصبرَ، ومن سَخين الدمعِ كانَ يَلْقَى راحةً واطمئناناً، وصدق من قال:

لم يُخلق الدمعُ لامرئٍ عَبَثاً   الله أدرى بلوعةِ الحُزُنِ

وقد ورد في بعض الآثار أن النبيَّ ﷺ سأل جبريل عليه السلام: «ما بلغ مِنْ وَجْد يعقوب عليه السلام على ولده يوسف؟ قال: وَجْدُ سبعين ثكلى، قال: فما كان له من الأجر؟ قال جبريل: أجرُ مائة شهيد، وما ساءَ ظنهُ بالله ساعةً قط».

وهكذا كان يعقوب كما ذكرنا بين صلاة وبين بكاء، حتى ذهب أكثرُ بصره، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾ .

قال الزمخشري: إذا كَثُرَ الاستعبارُ – البكاء – مَحَقَتِ العَبْرةُ سوادَ العين، وقلَبَتهُ إلى بياضٍ كدِرٍ.

ثم إنَّ يعقوب مع امتلائه بالحزن والهم، ومع كثرةِ بكائه، فإنه لم يكن يُظهر حاله لأحدٍ حتى لأولاده.

قال الزمخشري: ومع امتلائه من الغيظِ، فلم يُظهْر لهم ما يسوؤهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾، أي مكظوم، قال ابن عباس: أي مكروبٌ كَمِدٌ، والكَمَدُ: الحزن المكتوم، ومنه قول الشاعر:

فحضَضْتُ قومي، واحتسبتُ قِتالهم

والقومُ من خوف المنايا كُظَّمِ

قال المفسرون: لكن أبناء يعقوب وأصدقاءه لاحظوا أنَّ يعقوب قد خفَّ بصره، فرجّحوا أنه كان يبكي على يوسف سِرّاً، وورد أنه دخل عليه بعض الناس، فقالوا له: تالله انهَشَمْتَ يا يعقوب ولم تبلغ سنَّ أبيك إسحق؟ فقال: هشّمني يوسف، فشعر كأنما كانت هذه الكلمة شكايةً إلى الخلق، فاستغفر ربه، فكان بعدها إذا سُئِلَ قال: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ .

لمّا لاحظ أهله وأصدقاؤه ضعفَ بصره قالوا له على سبيل الشفقةِ والرفقِ بأنك إنْ بقيتَ تفعلُ ذلك أهلكتَ نفسك، وذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[يوسف]، وكلمة ﴿ حَرَضًا ﴾: أي دَنَفاً من المرض وهو ما دون الموت، ومنه قول الشاعر:

سرى همّي فأمرضني وقِدْماً زادني مرضا

كذاك الحبُّ قبل اليوم مما يورِّثُ الحَرَضا

وقولهم لأبيهم: ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾: أي «لا تفتأ» أي لا تزالُ، وهذا الفعل ماضيه: فَتِئ، مُثلَّث التاء، وهو يُستعمل مع النفي ملفوظاً أو مَنْوياً، مثله «أبرَحُ» التي بمعنى: تفتأ، كما قال الشاعر:

فقلتُ يمين الله أبرَحُ قاعداً وإن قطعوا رأسي لديك وأوصالي

أي لا أبرحُ، فكان جوابُ يعقوب عليه الصلاة والسلام ما ذكره الله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى اللَّهِ ﴾، والبَثُّ: أعظم الحُزن كما مرَّ معنا، وهو الذي لا يمكن إخفاؤه، ومنه قول "ذي الرِمَّةِ":

وقفتُ على رَبعٍ لِمَيَّةَ ناقتي فما زلتُ أبكي عندهُ وأُخاطبُه

وأسقيه حتى كاد مما أُبثُّهُ تُكلّمُني أحجاره وملاعبُه

قال المفسرون: إذا قَدِرَ الإنسان على كتم ما نزل به من المصائب كان ذلك حُزناً، وإن لم يقدر على كتمه، كان ذلك بَثّاً، وشِكايةُ الأمرِ إلى الله لونٌ من العبادة، ولا يتنافى الصبر مع الشكوى إلى الله، ألا ترى إلى أيوب عليه السلام لما نزل به البلاء قال: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنبياء]، فقد شكا إلى الله، ومع هذه الشكوى، قال الله

تعالى عنه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ٤٤﴾ [ص].

قال الرازي: والإنسان إذا بَثَّ شكواه إلى الله تعالى كان في زُمرةِ المُتحققين، كما قال ﷺ: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»، وفي الخبر عن ابن عمر قال: قال ﷺ: «من كنوز البر: إخفاء الصدقة، وكتمانُ المصائب والأمراض، ومَنْ بَثَّ – للبشر – لم يصبر».

لذلك على الإنسان أن يصبر ويشكو إلى الله لا إلى الناس ولا يجزع، فالجزعُ لا يُفيد، وقد ذكر البروسوي قصة في هذا الباب، قال: يروي أبو الحسن قال: خرجتُ حاجّاً، فبينا أنا أطوف وإذا بامرأةٍ نضِرَةِ الوجه، فقال: – كأنه يُعرض بها لتستر الوجه – والله ما رأيتُ إلى اليوم وجهاً كهذا، وما ذاك إلا لقلّةِ الهم والحزن، قال: فسمعت ذلك القول مني، فقالت: كيف قلت يا هذا الرجل؟ والله إني لوثيقةٌ بالأحزان، مكلومَةُ الفؤاد بالهموم والأشجان، ما يَشركني فيها أحدٌ، فقلتُ: وكيف ذلك؟ قالت: ذَبحَ زوجي شاة ضَحَّينا بها، ولي ولدان صغيران يلعبان، وعلى يديَّ طفل يرضع، فقمتُ لأصنع لهم طعاماً، إذ قال ابني الكبير للصغير: ألا أُريك كيف صنع أبي بالشاة؟ قال: بلى، فأضجعه وذبحه، وخرج هارباً نحو الجبل، فأكله ذئبٌ، فخرج أبوه في أثره، وغاص في أعماق الجبل، فأدركه العطش فمات، ثم وضعتُ الطفل عن يدي، ووقفتُ عند الباب أنظر ما فعل أبوهم، فحبا الطفل إلى البُرمةِ وهي على النار، فألقى يده فيها وصبَّها على نفسه وهي تغلي، فانتشرَ لحمه عن عظمه، ووصل الخبر إلى ابنة لنا متزوجة، فرمت بنفسها على الأرض، فكان في ذلك أجلُها، وأصبحتُ فريدةً من بينهم، فقال الشيخ أبو الحسن: كيف صبرُكِ؟ قالت: ما من أحدٍ ميَّزَ الصبر والجزعَ إلا وجدَ بينهما منهاجاً مُتفاوتاً، فأما

الصبرُ بحُسنِ العلانيةِ فمحمودُ العاقبة، وأما الجزعُ، فصاحبه غير مُعَوَّضٍ، أي: لا يردُّ هالكاً، ولا يؤجر عليه في الآخرة، ثم أعرضت وهي تُنشد:

صبرتُ، وكان الصبرُ خيرَ مُعوّلٍ ... وهل جَزَعٌ يُجدي عليَّ فأجزَعُ
صبرتُ على ما لو تـحمَّلَ بعضَهُ ... جِبالُ غرورٍ أصبحتْ تَتَصدَّعُ
ملكتُ دموعَ العينِ حتى رددْتُها ... إلى ناظري فالعينُ في القلب تدمَعُ

وقد تساءل بعض أهل التفسير، لماذا لم يقل يعقوب ما علَّمنا إياه رسولنا ﷺ في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ ﴾ [البقرة]؟

والجواب: إنَّ هذا القولَ: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ مِنَ النِعم التي اختصَّ الله تعالى بها هذه الأمة المُحمدية، وحين دخل بعضهم على علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وكان يُعاني من وعكة، وكان يتأوه، فقالوا له: يا أبا الحسن: أتتوجع؟ قال: أنا لا أشجعُ على الله.

ثم يأتي ختام الآية: ﴿ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾، قال القرطبي: أعلم من رحمته، وإحسانه إليَّ، ما يوجب حُسنَ ظني به، فهو تعالى يأتي بالفرج من حيث لا أحتسبُ.

ولكن الآلوسي قال عند تفسيره لهذه العبارة: ﴿ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾، قال: إنَّ يعقوب رأى في المنام ملك الموت، وأخبره أنَّ يوسف حي، ولكن هذه الرواية لا سند لها، مع أنه قد ذكرها الأكثرون.

ولكن روى ابن أبي حاتم عن النضر أنه قال: وبلغني أن يعقوب مكثَ أربعةً وعشرين عاماً لا يدري أيوسف حي أم ميت، حتى تمثل له ملكُ الموت عليه السلام، فقال له: من أنت؟ قال: أنا ملكُ الموت، فقال يعقوب:

أسألُكَ بإلهِ يعقوب هل قبضتَ روح يوسف؟ قال: لا، فعندها قال يعقوب لأولاده: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧ ﴾ [يوسف].

وفي رواية ذكرها الفخر الرازي، تُشبه هذه الرواية، ولكن فيها زيادة: أن ملكَ الموتِ أشار عندها إلى جهة مصر وقال: اطلبهُ ههنا، عندئذ قال يعقوب: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧ ﴾.

قال القرطبي: وهذا أظهرُ الأدلة وأقواها.

قال المفسرون: والذي شجعَ يعقوب كذلك على القول لأولاده ﴿ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾، أنَّ أولاده لمّا أخبروه بعدل العزيز في أقواله وأفعاله، مِنْ حُسنِ إكرامه لهم، وردِّ الثمن، طَمِعَ أن يكون هذا العزيز هو يوسف، وقال في نفسه: يُستبعَدُ أن يظهر في الكُفار مثله، ثم إنَّ هذا العزيز لمّا أخرج الصُواعَ من رحلِ بنيامين لم يُؤْذِهِ ولم يضربه، حتى ولم يُوَبِّخهُ، كل ذلك جعله يظن أنَّ هذا العزيز هو ولده، مع اعتقاده أنَّ الرؤيا التي قصَّها عليه يوسف ستُحقق، وأنه لن يموت حتى يخِرّوا له سُجداً.

وقوله: ﴿ فَتَحَسَّسُواْ ﴾: أي أعمِلوا كل طاقةِ حواسِّكم كي تصلوا إلى الحقيقة، تعرفوا على هذا الذي طلبَ منكم أخاكم، واحتالَ في أخذه، فاسألوا عنه وعن مذهبه، وعن كل ما يُحيطُ به، عندها قال الأولاد لأبيهم: يا أبانا: أما بنيامين فلن نترُكَ الجهدَ في شأنه، وأما يوسف، فإنه ميت، ونحن لا نطلب الأموات، فقد أكله الذئب، عندئذ قال يعقوب: ﴿ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾.

قال المفسرون: الذي ييأسُ هم الملاحِدَةُ، أما المؤمن فلا يفعل ذلك لأنه يعلم أنَّ له ربّاً يُساعده، وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب، فالله عز وجل سيهَبُهُ مما فوق الأسباب: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣ ﴾ [الطلاق].

فالمُلحد هو الذي ييأس؛ لأنه لا يؤمن بإله.

قال ابن عباس: إن المؤمن من الله تعالى على خير يرجوه في البلاء، ويحمَده في الرخاء، ولذلك إنما يُصيبُ اليأسُ الكافرَ؛ لأنه لا يعلم بقدرة الله، وعظيمِ صنعه؛ ولذلك لا يحصلُ اليأسُ إلا إذا اعتقد الإنسان أنَّ الله غير قادر، فعلى العاقل ألا ييأس من رحمة الله؛ فإنه تعالى يكشف الشدائد في الدنيا و الآخرة.

يروي البروسوي في تفسير «روح البيان»: أنَّ رجلاً انقطع في جزيرة بلا زاد، فقال وقد أصابه اليأس:

إذا شابَ الغُرابُ أتيتُ أهلي وصار القارُ كاللَّبن الحليب

ثم نام فرأى في منامه قائلاً يقول له:

عسى الكربُ الذي أمسيتَ فيه يكونُ وراءه فرجٌ قريب

قال: فلما أصبح لاحت له سفينة، فأشار إليها فحملتهُ إلى أرض مسكونة مأهولة، ومنها وصل إلى أهله.

وكلمة: ﴿ رَّوۡحِ ٱللَّهِ ﴾، فيها قراءتان:

فالأولى: معناها: الرائحة التي تهُبُّ على الإنسان فيستروح بها، كأنْ يكونَ في يومٍ قائظ فيجلس الإنسان في بستان، فتهُبُّ نسمةُ هواء مُعطرةٌ بما في البُستان من زهور، كما يقول الشعراوي رحمه الله تعالى: فيكون المعنى.

والثانية بضم الراء: ﴿مِن رُّوحِ ٱللَّهِ﴾: هي الروح التي ينفُخها الله سبحانه في الشيء لإيجاد الحياة فيه، كما قال ابن عطية: يكون المعنى بهذه القراءة: لا تيأسوا من حيٍّ معه رُوْح الله الذي وَهَبَهُ؛ فإنَّ كل من بقيتْ روحه يُرجى، ومن ذلك قول القائل:

وكل ذي غيبةٍ يَؤُوبُ وغائبُ الموتِ لا يؤوبُ

اللقاء الثالث بين يوسف وإخوته:

العودة إلى مصر:

هاهم يعودون للمرة الثالثة إلى مصر كما أمرهم أبوهم، وهم بين الخيبة والرجاء، وكان يعقوب قد زوَّدهم برسالة إلى العزيز يقول فيها - كما ذكر صاحب «روح البيان» - : «إنا أهلَ بيتٍ مُوَكَّلٌ بنا البلاءُ، وقد ابتُليتُ بفقد ولدي يوسف حتى نَحل جسمي، وذهب بصري، وقد كنت أتسلى بهذا الغُلام الذي أمسكْته عندك، وزعمتَ أنه سارق، وإنا أهلَ بيتٍ لا نسرق ولا نلدُ سارقاً، فإن رددته عليَّ، وإلا دعوتُ عليكَ دعوةً تُدرك السابع من ولدك، والسلام».

قال صاحب كتاب «قصص القرآن»، وقالوا: أيها الملكُ القادر المُتمَنِّع ها قد عُدنا إليكَ إذ الحالُ رقيق، والعيش نكد، وقد أصابنا وأهلنا الجوع والحاجة، ونُقودُنا قليلة لا تكفي ثمناً لما نطلب، أو لأنَّ دراهِمهم رديئةٌ، نسبة المعدن فيها كبيرة فلا تُقبل إلا بوضيعةٍ من قيمتها، أو لأنَّ بضاعتهم التي سيدفعونها ثمناً للطعام بضاعة أعراب، من سمن وصوف، وبُطْم، فنرجو منك أن تُتِمَّ لنا الكيلَ بما معنا من هذه البضاعة المُتواضعة، كما تُتِمُّها لو كانت الدراهم جيدة، كما نُريد منك أن تزيد بإحسانك فتتصدق علينا بردِّ أخينا،

وباعتبار ما سامحتنا به بهذه الدارهم الزيوف صدقةً منك علينا، فإن الله لا يُضيع ثواب من تصدق، كل ذلك نقرأه في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يوسف].

قال القاسمي: في هذه الآية إرشاد إلى أدب جليل، وهو تقديم الوسائل أمام الحاجات والمآرب، لينجح المُراد، فإخوة يوسف قدَّموا ما ذكروه من رقّةِ الحال، وتصغير العِوَضِ والتَمَسْكنِ، وتحريك سلسلة الرحمة والعطف عنده، وذكرِ مكانته، ولذلك لم يتمالك يوسف نفسه عندما سمعَ منهم ذلك فعرَّفهم على نفسه، ويُستدل بالآية على جواز شكوى الحاجة لمن يُرجى منه إزالتُها، ويُستدل بعبارة: ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ ﴾، على أن أجرة الكيال على البائع.

أما قولهم: ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ﴾، فيدلنا على أنَّ عدمَ جواز الصدقة إنما هو أمر اختصَّ الحق سبحانه آلَ محمد به؛ لذلك قال ﷺ: «إن الصدقة لا تنبغي لآل محمدٍ، إنما هي أوساخ الناس»، أما غيره ﷺ من الأنبياء، فتجوز الصدقة لهم، ثم قالوا: نُحيلُ أمركَ بهذه الصدقة على الله، الذي يُثيبُك بأعلى مما عندنا، وبما فوق قُدرتِنا.

قال صاحب كتاب «حياة يوسف»: نجد في هذه اللوحة التي عرضها إخوة يوسف حينما دخلوا على يوسف وكلَّموه ثلاثة صور: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾، فما هي هذه الصور الثلاث؟

الأولى: بلوغُ شِدَّةِ يعقوب أقصاها.

الثانية: بلوغ الذِّلّةِ في إخوة يوسف أقصاها، فهم يستعطفونه: ﴿ وَتَصَدَّقْ

عَلَيۡنَآ ﴾.

الثالثة: بلوغ عِزَّةِ يوسف أقصاها كذلك.

ولكن، ما معنى ذلك؟

المعنى: أنَّ شِدَّة يعقوب وما يُعاني قد آذنت بانفراج، وهذا ما حصل فإنَّ يوسف لم يتمالك نفسه عندما رأى من ضعفِ حالهم، وشدَّةِ حاجتهم، وما يُعاني الوالد، أن اغرورقت عيناه بالدموع، ثم قال لهم على جهةِ استعظام عمَلِهم وشناعته: ﴿ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾؟

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن رَوْقٍ قال: لما قالوا له ما قالوا، وشكوا له حالهم، وناولوه كتابَ يعقوب، فلما قرأه لم يتمالك نفسه فبكى وقال: ﴿ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾؟

وقال القرطبي: لما قرأ يوسف كتاب أبيه اقشعرَّ جلده، وارتعدت فرائصه، وأرخى عينيه بالبكاء، ثم باح بالسر: ﴿ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾؟

قال الشعراوي: ومجيء هذا القول في صيغة السؤال يدفعُهم إلى التحقيق والتأمل والتدقيق لمعرفة شخصية المُتحدث.

قال ابن عباس: إن إخوة يوسف لم يعرفوه على اليقين، حتى رفعَ التاج عن رأسه، وكان في أعلى جبهته شامةٌ، كان ليعقوب مثلُها.

قال العلماء: كان موقِفاً رائعاً خالداً، رجالٌ تسعة يتذلَّلون ويسألون، ويوسف في أعلى مقامات السُلطان، ينادونه: يا صاحب الفخامة، أيها العزيز، وهم بأشد الحاجة للقليل من القمح والحَبِّ، ثم تكون المفاجأة لهم جميعاً حين خاطبهم بلغتهم: ﴿ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾؟

هل تذكرون حين أخذتم طفلاً صغيراً ألقيتموه في الجُبِّ، هل تذكرون كم آذيتم أخي بالاضطهاد والسُخرية والذل؟

وهكذا أخبرهم، كما أوحى الله إليه، وألهَمَهُ وهو في البئر أنه سيُخبرهم بأمرهم هذا، وذلك قوله تعالى في أول السورة: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [يوسف]، وها هو يوسف يُنبِئُهم كما ذكر الله تعالى بما فعلوه، ومتى كان هذا الإخبار؟ كان في وقت لم يخطر على بالهم أن يكون يوسف هو هذا الحاكم العظيم الذي أمامهم وهم يستعطفونه، عندئذ قالوا تعجُّباً واستغراباً، بصيغة الاستفهام التقريري: ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ ﴾؟ هل هذا معقول؟

ويأتي الجواب منه ﷺ: ﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف].

قال الرازي: أنا يوسف الذي ظلمتموني من أعظم الوجوه، أوصلَني الله إلى أعظم المناصب، أنا يوسف الضعيف الصغير الذي قصدتم قتله، ثم ألقيتموه في البئر، قد صرتُ إلى ما ترون.

قال القاسمي في بيان معنى قوله تعالى: ﴿ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ ﴾، بالخلاص مما ابتُلينا به، والاجتماع بعد الفُرقة، والعزةِ بعد الذلة، والأُنس بعد الوحشةِ، ثم ذكر يوسف عليه الصلاة والسلام علَّةَ الوصول لهذه النِعم بقوله: ﴿ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، أي أنَّ مَنْ ﴿ يَتَّقِ ﴾ معاصيَ الله تعالى، ﴿ وَيَصْبِرْ ﴾ على المِحن والشدائد كمُفارقة الأوطان والأهل العشيرة، وعلى السجن ونحوه، ومن يصبر على مشقةِ الطاعات، ويصبر عن المعاصي التي تستلذُّها النفس: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، وهذا إشارة إلى أنَّ المُحسنَ من جمعَ بين الصبر

والتقوى، ولا بُدَّ أن نُشير هنا إلى قول يوسف في الآية: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾، إلى ختامها وهي قوله: ﴿ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾، كأنه عليه الصلاة والسلام يلتَمِسُ لهم العُذر بالجهل، والجهلُ هنا هو قلةُ الالتزام بالدين والعلم، وكلامه هذا كان شفقة عليهم، وتَنَصُّحاً لهم في الدين وتحريضاً لهم على التوبة، لا مُعاتبةً وتثريباً، إيثاراً لحق الله على حق نفسه.

قال صاحب كتاب «مع الأنبياء»: وما كاد يوسف يُتم كلامه، عند قوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، حتى انتقلَ الإخوة من موقع الشك بأنه يوسف إلى موقع اليقين، فنكّسوا رؤوسهم خجلاً، واصفرَّت وجوههم، وأرادوا أن يجدوا عُذراً يعتذرون به، فلم يجدوا إلا الاعتراف الصحيحَ، عندها قالوا: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يوسف]، والخاطئ: هو الذي يأتي بالخطيئة عمداً، ويُقال لمن اجتهدَ فأخطأ: مُخطئ، قالوا: نعم، لقد فضَّلك الله علينا، فكنتَ صابراً، وكنتَ تقياً، وكنا مُخطئين - أي مُتعمِّدينَ الذنب - فلم نَتَقِّ ولم نصبر ففعلنا بك ما فعلنا، وبذلك فُضِّلتَ علينا، ومنه:

وهَبْنا أَسَأْنا نحوَ شخصِكَ عامداً

فعفواً جميلاً كي يكونَ لك الفضلُ

وكلامهم هذا يدل على ندمهم، والندم توبة، ولذلك قال يوسف عندئذ: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾، لقد اعترفوا بخطيئتهم أمامه، فما هو موقفه من إخوته بعد اعترافهم؟

قال العلماء: إنَّ يوسف لم يوبخ، ولم يَلُمْ، ولم يُعاقب، بل قال لهم: لكم عندي العفو والصفح، ولا أُفسد ما بيني وبينكم من حُرمةِ الأُخوةِ،

وقَطَعَ اعترافُكم بالذنب عنكم كلَّ توبيخ، ثم دعا الله لهم، أن يصرف عنهم عقابَ الآخرة، كل ذلك دلّتْ عليه الآية التي يَرُدُّ بها يوسف على إخوته عندما قالوا: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ ﴾، عندها: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

وقوله: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾: أي لا لومَ عليكم ولا عَتبَ، ولا تَعييرَ، والتثريبُ: هو اللوم العنيف، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «إذا زنت أَمَةُ أحدكم فليجلدها الحدَّ، ولا يُثرِّب»: أي لا يُعيّرها، ومنه قول الشاعر بِشْرٍ:

فعفوتُ عنهم عفوَ غير مُثرِّبِ وتركتهم لعقابِ يومٍ سرمدِ

وقد ورد عن ابن عباس أن النبي ﷺ أخذَ بعِضادتي باب الكعبة يوم الفتح - فتح مكة - ثم قال لقريش، ولقد لاذَ الناسُ بالبيتِ: «الحمد لله الذي صدق وعده، ونصرَ عبده، وهزم الأحزاب وحده»، ثم قال لهم: «ما تظنون أني فاعلٌ بكم يا معشَرَ قريش؟»، قالوا: خيراً، أخٌ كريم، وابن أخ كريم، وقد قَدَرْتَ، فقال ﷺ: «وأنا أقولُ لكم، كما قال أخي يوسف: لا تثريبَ عليكم اليوم».

فقال عمر: فَفِضْتُ عرقاً من الحياء، من قول رسول الله ﷺ هذا، ذلك أني قد قُلتُ لهم حين دخلنا مكة: اليوم نَنتقمُ منكم، ونفعلُ كذا وكذا، فلما قال رسول الله ﷺ مقالتهُ، استحييتُ من قولي.

وقد ذكر الرازي أنَّ أبا سفيان لما جاء ليُسلم، وكان برفقة العباس عم النبي ﷺ، قال له العباس: إذا أتيتَ رسول الله ﷺ، فاتلُ عليه قوله تعالى: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾، ففعل أبو سفيان ما قاله العباس، فقال النبي ﷺ: "غفرَ الله لك ولِمَنْ علَّمكَ".

وقد ذكر أبو السعود في «تفسيره»، كما ذكر غيره، أنه بلغ من كرم يوسف عليه السلام، أنَّ إخوته أرسلوا إليه، أنك تدعونا إلى طعامك بُكرةً وعشيةً، ونحن نستحي منك لما فعلناه بك سابقاً، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن أهل مصر، وإنْ مُلِّكتُ فيهم، فإنهم ينظرون إليَّ بالعين الأولى ويقولون: سبحان من بلَّغَ عبداً ثمنه كذا وكذا ما بلغ وقد شَرُفتُ بكم الآن، وعَظُمتُ في العيون أكثر، وقد عَلِمَ الناس أنكم إخوتي».

وقد ذكرت التوراة التي في أيدي اليهود، أنه لما رأى خجلَ إخوته منه، أدناهم وأكرمهم، وقال لهم: لا يشُقُّ عليكم ما فعلتم فيَّ، فإن الله تعالى قد علم ما يقع من القحط والجدب، فأوصلني إلى هذا المكان ليُزيل عنكم ما نزل بكم، ويكونَ ذلك سبباً لبقائكم وانتشاركم في الأرض.

قال البروسوي: وبعد أن عرَّفهم يوسف على نفسه، كان أول شيء فعله سؤاله عن أبيه، حيث قال: ما فعل أبي بعدي؟ قالوا: ذهب بصره، عندها أعطاهم قميصه وقال: اذهبوا بقميصي هذا يا إخوتي، فألقوهُ على وجه أبي يرجع إليه بصره كما كان، وذلك قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يوسف].

قال الشعراوي: كان يوسف يعلم أنَّ أباه كان يربط عينيه من الحُزن، وكاد أن يفقِدَ بصره، فأمر إخوته أن يذهبوا بقميصه إليه، وقد ذكرت كتبُ السِّيَرِ، أنَّ الأخ الأكبر الذي رفض مُغادرة مصر حتى يرجع ببنيامين، والذي قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾، هو الذي قال ليوسف: يا أيها العزيز إنني أنا الذي حملتُ القميص بدمٍ كذب إلى أبي، فَدَعْني أحمل هذا القميص له، كي تمحُوَ هذه تلك.

وفي رواية السدّي أن يهوذا هو الذي حمل القميص، وقال ليوسف: أنا

الذي حملتُ إليه قميصكَ بدمٍ كذب فأحزنتُهُ، وأنا الذي أحملُهُ الآن لأُسِرَّهُ، وليعود إليه بصره، فحمله.

قال القاسمي: أراد يوسف تبشيرَ أبيه بحياته، وإدخال السرور عليه، فأرسلَ حُلَّةً من حُلَلِهِ التي كان يلبسها؛ لتكون في مُقابلة القميص الأول جالبِ الحُزن، وغِشاوةِ العين.

قال المحققون: إنما عرفَ يوسف أنَّ إلقاء القميص على وجهه يوجبُ قوةَ البصر، بوحيٍ من الله تعالى، إضافةً إلى أنَّ الفرحَ يشرحُ الصدر، ويُقوي الروح، ومعنى الإلقاء ﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ ﴾: أي بالِغوا في تقريبه إلى وجهه، وقوله: ﴿ يَأْتِ بَصِيرًا ﴾: أي يصيرُ بصيراً.

قال الحسن: لولا أنَّ الله أعلمَ يوسف بذلك، لما عَلِمَ أنه يرجع إليه بصره.

وقوله: ﴿ وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، قال الشعراوي: هذا تعبير قُرآني دقيق، والمعنى: أن يُحضِروا معهم كل من يرتبط بهم بِصِلَةِ قرابة لهم، أو يعملُ معهم، وقد ذكر مسروق أنهم كانوا ثلاثةً وتسعين، ما بين رجل وامرأة، ونُلاحظ أن يوسف لم يذكرْ والده في أمره لإخوته بأن يأتوا بأهلهم أجمعين، لماذا؟

قال المفسرون: لأن في مثل هذا الأمر من عزيز مصر، إجباراً للأب على المجيء، وهو يُجِلُّ أباه عن ذلك، وهذا مُنتهى الأدب من يوسف عليه السلام.

وقد ذكر القاسمي أن يوسف قال لإخوته: أَعْلِموا أبي أنَّ الله جعلني أباً لُملكِ مصر، وسيداً لأهله، فَهَلُمَّ إليَّ، ثم عَلِمَ الملكُ بأن إخوة يوسف عنده قد وصلوا إلى مصر، فسُرَّ بذلك، وطلب من يوسف أن يؤكد عليهم أن يعودوا بأهليهم إلى مصر، ووعدهم أن يُعطيهم خيرَ أرضٍ في مصر تكون لهم لئلا

يأسفوا على ما تركوه هناك في أرض كنعان.

قال القاسمي: زوَّدهم بأحسن زاد، وأعطاهم من الحُلَلِ والثياب والدراهم الشيء الكثيرَ، وبعثَ لأبيه بمال خاص على انفراد، وأهداهم عجلاتٍ لحمل الأطفال والنساء، وأوصاهم يوسف ألا يتخاصموا في الطريق.

قال الرازي: لمّا خرجت العيرُ من مصر لتدخل في أرض كنعان قاصدةً مكان يعقوب، وكان بِقرب القدس، وكان يعقوب في بيته مع أهله وقرابته وأحفاده، فقال لهم من عظيم اشتياقه: إني أشم رائحةَ يوسف، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يوسف].

ويروي صاحب كتاب «أنبياء الله» مشهداً رائعاً في بيت يعقوب حين قال: ارتدى يعقوب ثياباً جديدةً صباح يوم، وخرج من عُزلته إلى فناء الدار، ورفع رأسه إلى السماء ثم تَشَمَّمَ الهواء بقوة، بما ملأ صدره من الرياح المقبلة من جهة مصر، ثم رجع إلى غرفته، وكانت زوجة الابن الأكبر تُراقبه وتتساءل لِمَ فعل ذلك؟ ثم ظهرت على وجهه ابتسامةٌ، فأسرعت إلى الزوجاتِ الأُخريات - زوجات أولاده - وقَصَّت عليهم ما رأته من يعقوب، من تغيير ثيابه، وتبَسُّمه، ومن شمِّ الريح المُقبلة من مصر، ثم رجوعه إلى غرفته، فأسرعنَ إليه وقُلنَ له: بمَ تشعر اليوم أيها الجليل؟ أجاب الشيخ: إني لأجد ريح يوسف !! فأَشَحْنَ بوجوهِهنَّ، ثم قال: لولا أن تُفنِّدون، وذلك ما قصَّهُ الله علينا بقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾: أي لولا أن تنسبوني إلى الخَرَفِ لصدَّقتموني فيما أقول، لأنَّ التفنيدَ هو الخَرَفُ.

وقوله: ﴿ رِيحَ يُوسُفَۖ ﴾: أي أتنسَّمُ رائحةً مُقبلةً عليَّ من يوسف، وإضافةُ الريح إلى الولدِ معروفة في كلام العرب، وفي الحديث الذي عند الطبراني أنه ﷺ قال: «ريحُ الولد من ريحِ الجنة»، ومن شعرهم:

يا حَبَّذَا ريحُ الولد ريحُ الخُزامى بالبلد

قال ابن عباس: هاجت ريحٌ فحملت ريحَ قميصِ يوسفَ إليه.

وقال مالك بن أنس: إنما أوصَلَ ريح يوسف إلى يعقوب، من أوصَلَ عرشَ بلقيس إلى سليمان قبل أن يرتدَّ طرْفُ سليمان.

قال الشعراوي: ومن العجيب أننا في أيامنا نجد العِلمَ وقد أثبتَ أن صُوَرَ المرئيات والأصوات توجد لها آثارٌ في الجو، رغمَ ظن الإنسان أنها تلاشت، والرائحة أيضاً لا تضيع بدليل أنَّ الكلب يشُمُّ على مسافات بعيدة، وبعض الكلاب يُستعان بها في كشف المخدرات من روائحها، وإذا كان الحيوان المخلوق بقدرة الله قادراً على التقاط الرائحة وتمييزها من بين آلاف الروائح، وإذا كان العلم الموهوب من الله للبشر يبحث في كيفية استحضار الصور، واسترداد الأصوات من الفضاء المحيط بالإنسان، فلا غرابة أنَّ العيرَ عندما خرجت من أسوار العريش في مصر، وأخذت طريقها إلى موقع يعقوب، استطاع يعقوب بقدرة الله أن يشُمَّ رائحة يوسف التي يحمِلُها القميص القادم مع القافلة.

قال القُشيري: إنما انفردَ يعقوبُ بوجدان ريح يوسف لانفراده بالأسف عند فقدان يوسف، وإنما يجد ريحَ يوسف من وَجَدَ على فراقِ يوسف، فلا يعرفُ ريحَ الأحباب إلا الأحباب، وقديماً قالوا:

خليليَّ من نجدٍ قِفا بي على الرُّبا فقد هبَّ من تلك الديار نسيمُ

وقالوا:

وإني لأستشفي بكلِ غمامةٍ تهُبُّ بها من نحوِ أرضك ريحُ

وقد كان لعمر بن الخطاب أخ اسمه زيد، قُتل في معركة اليمامة، فكان عمر يقول: ما هبت الريحُ إلا وجدتُ فيها رائحة زيد، ولهذا قال أبو العلاء:

والقلبُ يفري[1] بما تهَدي الرياحُ له

كحملها الريح من زيد إلى عمرا

قال الرازي: لما قال لهم يعقوب ذلك، قال له الحاضرون، وهم الأهل والأحفاد، وكأنهم قد ملّوا حديثه عن يوسف، وأعرضوا عنه قائلين ما ذكرته الآية: ﴿قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف]، وهم هنا لا يعنون بالضلال، الخروج عن المنهج، أو عن الدين، أبداً، وإنما يعنون الأمور التي لا علاقة لها بالتدين، كما قال العلماء، مثل محبته الشديدة ليوسف، والتعلُّق، والتمني لعودته وهم الذين يعتقدون أنَّ يوسف قد مات، فلا معنى للحديث عنه.

ولكن أيُّما كان الأمر، فقد كان جوابهم ليعقوب خَشِناً، مما دفع قتادة أن يقول: لقد قالوا كلمة غليظةً، ما كان ينبغي أن يقولها مثلهم لمثله عليه الصلاة والسلام.

وقال الحسن: وقولهم هذا من العقوق، ولكن القرطبي اعتذر عنهم وقال: كانوا صغاراً لا يُدركون معناها، أو لأنهم لم يُعانوا فَقْدَ الولد، مما دفع البروسوي أن يقول: لا بُدَّ للمُحب من لائمٍ، وقديماً قالوا:

يا عاذلَ العاشقين دع فئةً أضلها الله كيف تُرشدها

---

(١) يفري: يولع، الريح: الرائحة.

فإن هذا الذي يُعانيه يعقوب في نفسه يلومه عليه ويُفَنِّده أحفاده؛ لأنهم لا يجدون ما يجد، ولا يُعانون ما يُعاني:

لا يعرفُ الوجدَ[1] إلا من يُكابِدُهُ ... ولا الصبابةَ إلا من يُعانيها

قال المفسرون: ويصل الركبُ، ويتقدم البشير - يهوذا أو روبيل - الذي قال: أنا حملتُ له قميص التَّرْحَةِ، فاسمحوا لي أن أُقدم له قميص الفرحة، والبشيرُ: هو المُخبر بما يَسُرُّ من أمر يوسف، تقدَّمَ وألقى القميص على وجه يعقوب، أو أخذه يعقوب فألقاه على وجهه، فعاد إلى حالته الأولى من سلامة البصر، كما ذكر الغرناطي، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [يوسف]، قال ذلك عندما ارتدَّ بصره، أي أعلمُ من حياة يوسف، وقُرب الفرج ويجمعنا الله معه.

وورد عن يحيى بن يمان عن سفيان قال: لمّا جاء البشير إلى يعقوب سأله: كيف يوسف؟ قال البشير: ملكُ مصر !! قال يعقوب: ما أصنعُ بالمُلك، وإنما أسألك على أي دين تركته؟ قال: على الإسلام، فقال يعقوب: الآن تمت النعمةُ.

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال: لمّا جاء البشير إلى يعقوب عليه السلام، لم يجد عنده شيئاً يُكافئه به، فقال له: والله ما أصبتُ شيئاً عندنا، وما خَبزْنا منذ سبعَ ليال، ولكن أسأل الله تعالى أن يُهَوِّنَ عليك سكرات الموت، قال القرطبي: وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجوائز، وأفضلُ العطايا والذخائر، وهذا يدل على جواز البذل والعطاء عند البشائر، كما يجوز إظهار الفرح بالنِعَمِ الحاصلة بعد الهمِّ والغَمِّ، ومن هذا الباب جوازُ إكرام

(١) الوجدُ: الشوق.

الصبيان على حذاقتهم ومهارتهم في العلوم، أو حفظ القرآن، وإطعام الطعام فيها، وقد نحرَ عمر جزوراً بعد حفظه سورة البقرة كما ذكر القرطبي، وكان يعقوب أعظمَ الحاضرين فرحاً، كما قال الشاعر:

وردَّ البشيرُ بما أقَرَّ الأعيُنا وشفى النفوسَ فنِلْنَ غاياتِ المُنى
وتقاسَمَ الناسُ المَسرَّةَ بينهم قَسْماً فكان أجلَّهم حظاً أنا

قال صاحب كتاب «مع الأنبياء»: إنَّ أولاد يعقوب أقبلوا عليه حينئذ مُعتذرين حين رجعوا من مصر وذلك قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧﴾ [يوسف]: في حقك وحقِّ أخويْنا، يوسف وبنيامين.

قال القشيري في «لطائف الإشارات»: وقعَ يوسف ويعقوب في السرور والاستبشار، وأخذ إخوة يوسف في الاعتذار وطلب الاستغفار، قال صاحب «نظم الدرر»: وعلَّلوا طلبهم الاستغفار، بالاعتراف بالذنب: ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧﴾، لأن الاعتراف بالذنب شرط التوبة، كما قال ﷺ: «إن العبدَ إذا اعترفَ بذنبه، ثم تاب، تاب الله عليه»، وهؤلاء اعترفوا وطلبوا الصفح، فمن حقهم أن يُصفَحَ عنهم، ويُدعى لهم بالمغفرة، ولذلك وعدهم يعقوب بذلك فقال: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨﴾ [يوسف].

قال القاسمي: وتخصيص الأوقات الفاضلة بالدعاء والاستغفار معروفٌ في السنة، كالسَّحَرِ، وعَقِبَ الصلوات، وفي السجود، وعند الأذان، وعند الإفطار، وبين الأذان والإقامة.

وأورد ابن جرير الطبري عن مُحارب بن دِثار عن عمر قال: كنت آتي

المسجد في السَّحَرِ، فأمُرُّ بدار ابن مسعود، فأسمعه يقول: اللهم إنك أمرتني فأطعتُ، ودعوتني فأجبتُ، وهذا سَحَرٌ فاغفرْ لي.

قال عمر: فلقيتُ ابن مسعود، فقلت له: دعاءٌ سمعتُكَ تقوله في السَّحَرِ؟!! فقال: إن يعقوب أَخَّرَ الاستغفار لبنيه إلى السَّحَرِ حيث قال: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾، وورد عن ابن عباس مرفوعاً كذلك.

وكان من دعاء يعقوب كما نقل الرازي: اللهم اغفر لي جَزَعي على يوسف، وقلَّةَ صبري عليه، واغفر لأولادي ما فعلوه، فأوحى الله إليه: «قد غفرتُ لك ولهم أجمعين».

اللقاء المثير، وتحقق رؤيا يوسف:

قال القاسمي: تجهَّزَ يعقوب وأولاده وأهلوهم للسفر إلى مصر، فأركبوا النساء والأطفال في العجلات التي أهداها الملكُ لإخوة يوسف لإحضار أهلهم، وحملوا كل شيء لهم، وترحَّلوا عن أرض كنعان.

قال البروسوي: لمّا قَرُبوا من مصر، أُخبِرَ يوسف بذلك، فخرج يوسف والملكُ الريانُ في أربعة آلاف من أعيان مصر، وكان الملكُ الريانُ ويوسف، والكُبراءُ في مراكبهم، وقد اتخَذَ الجُند تروسَ الفضة، وزُيِّنت الرايات بالذهب.

ويروي بعض المفسرين: أنه لما صعد يعقوب على التل المُشرف على الصحراء، حيث كان مكان اللقاء، ومعه أهله، تعجَّبَ مما رأى، فقال له جبريل: انظر إلى ما فوقك، فإن الملائكة قد حضرت سروراً بحالكم، كما كانوا محزونين لأجلك، ثم قال من بعيد وهو ينظر إلى الجمعِ: أيهم ولدي؟ قالوا: ذلك الذي على رأسه ظُلَّةٌ، فلم يتمالك أن رمى نفسه من فوق البعير،

ثم جعل يمشي مُتوكِئاً على يهوذا والمسافة بينه وبين يوسف لا زالت بعيدة، فأوحى الله إلى يوسف عن طريق جبريل: «إن أباك قد نزل فانزلْ له»، فنزل يوسف من مركبته وجعل كلٌّ منهما يعدو إلى الآخر حتى وصل، فأراد يوسف أن يبدأ والده بالسلام، فقال جبريل: لا، حتى يبدأ هو، فبدأ يعقوب بالسلام: السلام عليكم يا من ذهبَ بلقائه حُزني، فتعانقا، وبكيا ما شاء الله لهما، وهاجت الفُرسان، وسبحت الملائكة، وقُرِعت الطبول، وكان يوماً مشهوداً.

قال المؤرخون: ثم قال يوسف لأبيه: يا أبتِ بكيتَ عليَّ حتى ذهب بصَرُكَ، ألا تعلمُ أنَّ القيامة تجمعُنا؟ فقال يعقوب: بلى يا بني، ولكن خشيت أن يُسلَبَ دينك فلا نلتقي أبداً، وإلى هذا اللقاء أشارت الآية: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾ [يوسف]، ففي الآية دخولان:

الدخول الأول: الاستقبال خارج البلد.

الدخول الثاني إلى البلد وهو قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، يؤكد هذا ما ذكره ابن كثير: أنَّ يوسف كان قد نصبَ خياماً في مكان اللقاء خارج البلد، وأنزلهم بها أولاً، وهناك خلا بأبويه في الخيام دون إخوته، ثم قال للجميع: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾: أي من القحط والجوع والمكاره، ولا خوف من ملوك مصر الآن كما كنتم تخافون منهم في الماضي.

قال المؤرخون: ثم أجلَسَ يوسف أباه وأمه على سريره، ثم سجد له الأبوان والإخوة الأحدَ عشر، وكان السجود علامة التكريم في شريعتهم، ثم حُرِّمَ في شرع نبيِّنا ﷺ، وقد قصَّ القرآن علينا ذلك بقوله عز وجل: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا

رَبِّي حَقًّاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف].

والعرشُ: هو سرير المُلك الذي يُدير منه الحاكم أمور الرعية والحُكم.

وقوله: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾:

قال الحسن البصري: لم يكن سجوداً بالمعنى المعروف، ولكنه سُنَّةٌ كانت فيهم، يُومِئونَ برؤوسهم إيماءً، كذلك كانت تحيتهم.

وقال الضحاك والثوري: كان سجوداً كالسجود المعهود عندنا، وهو كان تحيتهم.

قال القرطبي: أجمع المفسرون أنَّ ذلك السجود على أي وجه كان فإنما كان تحيةً لا عبادةً.

وقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾: أي صدقاً مُطابقاً للواقع الحسّيّ.

وفي قوله: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾: إشارةٌ إلى نِعمةِ الحرية، وخلاصه من السجن؛ لأن السجن كما قال عبد الملك بن عبد العزيز عندما كان في حبس هارون الرشيد:

وَمحلةٍ شَمِلَ المكارِهَ أهلُها وتقلّدوا مشنوءَةَ الأسماء
دارٌ يُهابُ بها اللِّئامُ وتُتقى وتَقِلُّ فيها هيبَةُ الكُرماءِ
ويقولُ علجٌ ما أرادَ ولا ترى حُرَّاً يقولُ برِقَّةٍ وحياءِ

وقوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾: لإظهار تمام النعمةِ؛ لأن الانتقال إلى

المدنية ارتقاءٌ في الحضارة، كما قال صاحب كتاب «قصة يوسف».

قال المفسرون: ونُلاحظ أنه لم يذكر واقعة الجُبِّ، لماذا؟ لأنه لم يُرِد أن يُعكر صفوَ اللقاء والوِداد؛ لأن ذكر الجفا في وقت الصفا جفا.

وقوله: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ ﴾: بالحسد، أسندهُ إلى الشيطان؛ لأن ذلك كان بوَسوَستِهِ وإغرائه، كما قصد بذلك أن يبتعد عن لَوْمِهم، وإنما ذكرهُ لأنَّ النِعمةَ بعد البلاء أحسنُ موقعاً.

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ ﴾: أي لطيفُ التدبير للمؤمن رفيقٌ به، إذا أراد أمراً هيّأ أسبابه وسهَّلها بلُطف صُنعِهِ.

قال ابن كثير: لمّا رأى يوسف نعمةَ الله قد تمت عليه، عرف أنَّ الدنيا لا قرار لها، وليس بعد التمام إلا النُقصان، عندها أثنى على الله بما هو أهله، واعترف له بعظيم إحسانه، وسأله أن يتوفاه على الإسلام حين حلول أجله، وذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١ ﴾ [يوسف].

وقوله: ﴿ ۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ ﴾أي بعضه، وهو مُلك مصر، وعلمتني تعبيرالرؤيا.

وقوله: ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾أي مالك أموري في الدارين.

وقوله: ﴿ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ليس فيها تمني الموت، وإنما يدعو الله أن يتوفاه على الإسلام حين حضور الأجل.

وفاة يعقوب عليه السلام:

قال القاسمي: عاش يعقوب في أرض مصر سبعةَ عشر عاماً، فلما حان أجله طلب من يوسف أن يدفنه في أرض كنعان في «حبرون»، وهي مدينة الخليل اليوم، في المغارة المعروفة، ثم دعا يعقوب ليوسف ولأولاده وأحفاده جميعاً، ثم وصَّاهم بوصية ذكرها الله لنا في كتابه: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة].

ولما فرغَ يعقوب من وصيته لأولاده فاضت روحه، فضمَّ يوسف وجه أبيه، وبكى عليه، وحنَّطه، وبعد انتهاء أيام التعزية حُمِلَ إلى أرض كنعان وسار يوسف معه، ودفنه في أرض كنعان في المغارة، ثم عاد إلى مصر.

وفاة يوسف عليه السلام:

قال المؤرخون: وبعد ثلاث وعشرين سنة، حضرت الوفاة يوسف، فأوصى إخوته بأن يدفنوه في أرض كنعان عند عودتهم إليها، ولكن أهل مصر لم يسمحوا بذلك، فجعلوه في تابوت من المرمر، ودفنوه في أعلى النيل، حتى أخرجه موسى بعد «٤٠٠» سنة، فدفنه عند آبائه، وكان عمره ﷺ حين وفاته مائة وعشر سنين.

أيوب

عليه الصلاة والسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

أيوب عليه الصلاة والسلام

الحمد لله الذي ابتَعَثَ بلُطْفه السَّحاب، فروّى الأودية والهضاب، وأنبتَ الحدائق، وأخرج الأعناب، سبحانه وتعالى، سلَّم يوسف، فكانت سلامتُهُ عبرةً لأولي الألباب، وشدَّد البلاءَ على أيوب حتى كَلَّ منه الظِّفْر والنّاب، فنادى مستغيثاً بالمولى، فجاء الجواب: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ص].

نحمده سبحانه حَمْدَ مَنْ أخلصَ وأناب، وصلى الله وسلم على محمدٍ عبده ورسوله الذي أنزل عليه أفضل كتاب، وعلى آله وجميع الأصحاب، وسلّمَ تسليماً كثيراً، أما بعد:

ذكر الله تعالى في كتابه الكريم، أيوب في جملةِ الرُّسُل الذين يجب الإيمان بهم تفصيلاً، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ [النساء].

قوله: ﴿ مِن قَبْلُ ﴾: أي في القرآن الكريم وهم: هود، وصالح، وشعيب، ويحيى، وإلياس، واليسع، ولوط.

قال الآلوسي: هذه الآيات نزلت على النبي ﷺ ردّاً على اليهود الذين غضبوا عندما ذكر القرآن عيوبهم وذنوبهم في آيات مرَّت في [سورة النساء]: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ

مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾ ﴾.

فلما غضبوا قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء بعد موسى، فأنزل الله هذه الآيات وذكر عِدَّةً من الرسل أُوْحيَ إليهم، وفيهم ذكر "أيوب"، وأنه نبيٌّ مرسلٌ.

هنا نريد أن نبيّن أمراً أوضحهُ العلماء رحمهم الله تعالى عند قوله: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾ [النساء].

قالوا: الحقُّ سبحانه عندما يتكلم يأتي بضمير المتكلِّم، وضمير التكلم له ثلاثة أوجه كما ذكر العلماء:

فمرةً يقول: ﴿إِنَّآ﴾ كما في الآيات التي بين أيدينا.

ومرةً يقول: ﴿ إِنَّنِيٓ ﴾ كما ورد في [سورة طه]: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴾.

وفي موضع ثالث يقول: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر].

فلماذا؟

قال أهل العلم: إنَّ الأسلوب القرآنيَّ حين يأتي بكلمة «إني» يُشير إلى وحدةِ الذاتِ، وحين يأتي الأسلوب بـ «إنَّا» و «نحن» لتدُلَّ على عظمته عز وجل، وكيف؟

والجواب: إنَّ هذا الكون العظيم البديع يحتاجُ إلى علمٍ عن المخلوقات،

وإلى حكمةٍ لوضع كل شيء في موضعه، ولقدرةٍ تُبْرِزُهُ، وإلى غنىً يُفيضُه على الكون، وإلى إرادةٍ، وإلى إعزازٍ وإذلالٍ، وقهرٍ ورحمانيةٍ، لذلك لا بُدَّ هنا من ضمير التعظيم الذي يقول فيه النحويون، إنَّ «نحن» و «إنَّا» للمُعظِّمِ نفسهُ وقد عظَّمَ الحقُّ نفسهُ؛ لأنَّ أمرَ خلقِ الكونِ وما فيه، يحتاج إلى حشدِ صفاتٍ متعددةٍ يتطلَّبُها إيجادُ هذا الكون، والقيامُ على أمره.

لذلك نجد العلماء الربانيين الذين لَمحوا عَظَمَةَ الله في ذاته، وفي جمال صفاته قالوا:

فسبحانَ ربٍّ فوق كُلِّ مَظَنَّةٍ ... تعالى جلالاً أنْ يُحاط بذاتِهِ

إذ قال «إني» ذاكَ وَحْدَةُ قُدْسه ... وإنْ قال «إنا» ذاك حشدُ صفاتِهِ

والآن نعود للآية فنرى فيها ذكر أيوب، وأنه نبيٌّ مرسلٌ، وكان في القرن الحادي والعشرين قبل الهجرة النبوية، وكان بعدَ إبراهيم عليه السلام، الذي وُلِدَ في بلدِ «أور» من بلاد الكلدان، سنة «٢٨٩٣ ق. هـ»، ومات في «حبرون»، وهو مدفنه المعروف ببلدِ الخليل سنة «٢٧١٨ ق. هـ».

نسبه:

هو أيوبَ بن عيصو بن إسحق بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

واسم أمه: ليّا بنت مَنْسا بن يعقوب - وهو المشهور -.

مكان أيوب:

قال ابن عساكر وغيره من المؤرخين: كان أيوب يسكن بلاد الشام في منطقة يُقال لها: «البَثَنَةُ» أو «البَثَنَّةُ» من أرض حوران، قرية بين الشام وحوران كما قال «صاحب المعجم».

قال ابن عساكر: وكانت له - لأيوب - «البثنةُ» كلها، سهلها وجبلها.

ونقل المؤرخ المسعودي: أنَّ دَيْرَ أيوب، والعين التي اغتسل بها يقعان على مقربةٍ من مدينة «نوى»، في إقليم حوران.

وقال صاحب «معجم البلدان»: وما يزال يوجد في ذلك المكان إلى الآن.

ونقلت دائرةُ المعارف الإسلامية ج ٣ ص ٢١٨، وهناك: «حمّام أيوب»، ومقامٌ يُسمى: «مقام الشيخ سعد»، وكان يُسمى قبل ذلك «مقام أيوب».

قال ابن كثير: كان أيوب غنياً كثير المال من سائر صنوفه في تلك المنطقة، كانت له الأنعام، والمواشي والعبيد والأراضي المُتسعةُ في حوران.

قال القاسمي: وأكثر المحققين قالوا: إنَّ أيوب كان غنياً من أصحاب العقار والماشية، وكان أميراً في قومه، وكانت أملاكُهُ في أرضٍ خصبةٍ، رائعةِ التربة، كثيرةِ المياه في الجنوب الشرقي من البحر الميت، «حوران وشرقي الأردن».

قال وهب: وكان أيوب أعبدَ أهل زمانه وأكثرهم مالاً.

وقال القرطبي والرازي والمؤرخون: كان أيوب بَرّاً تقياً رحيماً بالمساكين، يكفلُ الأيتامَ والأرامل، ويُكرمُ الضيف، ويُبلِّغُ ابن السبيل، شاكراً لأنعم الله.

وقال ابن عساكر في «تاريخه»: كان أيوب لا يشبعُ حتى يَشْبَعَ الجائع، ولا يكتسي بجديد حتى يكسُوَ عارياً، وكان إذا طلب أحدٌ من قومه حاجةً مِنَ الله خرَّ ساجداً ثم طلبَ له الحاجة.

وقال صاحب كتاب «أنبياء الله»: وقد أثنى الله على أيوب ومَدَحَهُ بالصبر والشكر والذِّكر، تلمِسُ هذا في قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ

أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص].

فقد كان كلما أصابتهُ مصيبةٌ قال: «اللهم أنتَ أخذتَ وأنت أعطيتَ»، ويحمدُ الله على كلِّ حال.

وروى الآلوسي: أنَّ أيوب قال في مناجاته: «إلهي قد علمتَ أنه لم يُخالف لساني قلبي ولم يَتْبَعْ قلبي بصري، ولم يُلْهِني ما ملكتْ يميني ولم آكلْ إلا ومعيَ يتيم، ولم أَبِتْ شبعانَ ولا كاسياً إلا ومعيَ جائع أو عريانُ»، فكشف الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾، والأوّابُ: الكثير الرجوع إلى الله تعالى، أي إلى أمره ونهيه، فالثناءُ عليه: ﴿ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ ﴾ لماذا؟ لكونه أَوَّاباً، وهذا الثناء من الله على أيوب يُشبه الثناء منه عز وجل على سليمان بقوله تعالى عن سليمان: ﴿ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ص]، حيث كان سليمان أواباً لله مِنْ فتنة الغنى والنعيم.

وأيوب أواباً لله من فتنةِ الضُرِّ والاحتياج، وكان الثناءُ عليهما مُتماثلاً لاستوائهما في الأوبةِ إلى الله، وإنْ اختلفت الدّواعي، - ابن عاشور. ولذلك لما سُئل «سفيان الثوري» عن عبدين: ابتُلي أحدهما فصبر، وأُنعم على الآخر فشكر، فهل أجرهما سواء؟

فقال: كلاهما سواء؛ لأنَّ الله تعالى أثنى على عبدين في كتابه الكريم أحدهما صابرٌ والآخر شاكرٌ، أثنى عليهما ثناءً واحداً فقال تعالى في نبي الله أيوبَ: ﴿ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص ٤٤]، وقال في وصف نبي الله سليمان: ﴿ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص ٣٠] في النعمةِ بالشكر، وفي المحنة بالصبر.

واحذر- يا عبد الله - أن تفهم من كونه أوّاباً أنه مذنب، لا لأنَّ ابتلاءَ

أيوب كان امتحاناً، والعيش في البلاء مع الله عيشُ الخواص، وعيشُ العافية مع الله عيش العوام، لماذا؟ لأنَّ الخواصَّ يُشاهدون المُبْلي في البلاء وتطيبُ عيشتهم، بخلاف العوام، فإنهم بمعزل عن الشُّهود، فلا يَرَوْنَ إلا البلاء، ولذلك لا صبر لهم.

ثم اعلم – يا عبد الله – أنَّ لكل بلاءٍ خَلَفاً، إما في الدنيا، وإما في الآخرة، وإما في كليهما كما قال البروسوي – روح البيان.

ثم انتبه – يا عبد الله – إلى قوله: ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾: لتعلمَ كما قال الرازي: أنَّ تشريفَ: ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾ إنما حصلَ لكونه أواباً.

وقد جاء في أثر نقله الرازي قال: لما نزل قول الله تعالى: ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾ في حق سليمان تارةً، وفي حق أيوب تارةً أخرى، وقع الغمُّ في قلوب أمة محمد ﷺ وقالوا: إنَّ قوله تعالى: ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾ في حق سليمان تشريفٌ عظيمٌ، فإذا أردنا الحصول على هذا التشريف احتجنا أنْ نملكَ مثل مملكةِ سليمان، وهذا لا نقدر عليه، أو إذا أردنا هذا التشريف احتجنا إلى تحمل بلاءٍ مثل بلاء أيوبَ ولا نقدر عليه، فكيف السبيل إلى تحصيل هذا التشريف؟

قال: فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الأنفال ٤٠].

والمراد: أنك – يا عبد الله – إن لم تكن نِعْمَ العبد فأنا نِعْمَ المولى.

فإن كان منك الفضول، فمني الفَضْلُ.

وإن كان منك التقصير، فمني الرحمة والتيسير.

قال البروسوي: ومن جميل قول الجنيدي: من شَهِدَ البلاءَ بالبلاءِ ضَجَّ من البلاءِ.

ومَنْ شهدَ البلاءَ مِنَ المُبلي – وهو الله – حنَّ إلى البلاء.

قال ابن عطاء: ليُخفِّفَ الله ألمَ البلاءِ عنك علَّمكَ بأنَّ الله هو المُبْلي.

قصة ابتلائه وصبره:

ذكر الله قصته في [سورة ص] قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص].

﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء].

ونُحب أن نُنبِّهَ هنا إلى أنَّ كثيراً من المفسرين لهم في قصة أيوب مرويات وقَصَصٌ إسرائيلية في ابتلائه عليه السلام، ولا وُثوقَ من ذلك كله إلا على الإجمال، وما هو هذا الإجمالُ؟

والجواب: هو ما أشار إليه التنزيل الكريم؛ لأنه المُتيقَّنُ، وهو أنه عليه الصلاة والسلام أصابتْهُ بلوى عظيمة في نفسه وماله وأهله، وأنه عليه السلام صَبَرَ على ذلك صبراً صارَ يُضرب به المثل لثباته، وسَعَةِ صبره وشجاعته، وأنه جُوْزِيَ بصبره أضعافاً مُضاعفةً.

قال أحمد بهجت، صاحب كتاب «أنبياء الله»: صار أيوب مثالاً على الصبر في كل لغة، وفي كل دين، وفي كل ثقافةٍ، حيث يُقال للإنسان إذا عَظُمَ صبره إنه «كصبر أيوب».

قال البروسوي: إنَّ الله تعالى صَبَّرَهُ، لِمَا عَلِمَ مِنْ صدقه وإخلاصه في عبوديته، ولذلك قال الله فيه: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ ﴾: أي الكاملَ في التحقُّقِ

بالعبودية لله سبحانه، وقد جاء في بعض الآثار المرويَّةِ أنَّ الله تعالى أوحى إليه: «لا تعجب من صبرك يا أيوب، أأنت صبرت أم نحن صبَّرْناك يا أيوب: أثنيتُ عليكَ بالصبر قبل البلاء وبعده، ولولا أنْ وضعتُ تحتَ كلِّ شعرةٍ منك جبلاً من الصبر، لم تصبر»، ولذلك قال الله تعالى لمحمد ﷺ حاثّاً له على الصبر: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل ١٢٧].

ويروي ابن عساكر في «تاريخه»، أنَّ الله تعالى أوحى إلى أيوب مُثَبِّتاً حين اشتد به البلاءُ: «يا أيوب: لو أصبحتَ في يد عبدٍ من عبيدي لأصبحتَ في بلاءٍ أشدَّ مِنَ البلاءِ الذي أنت فيه، ولكنك أسيرٌ في يدي وأنا أرحم الراحمين».

وقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ ﴾: والخطابُ لنبينا محمد ﷺ بعد أنْ ذكرَ قصة داوود وسليمان، أتْبَعَها بقصة أيوب.

قال الرازي: كأنَّ الله تعالى يقول لنبيّه محمد ﷺ: «يا محمد، اصبر على سفاهةِ قومك، وتأمَّلْ بلاءَ أيوب ومحنَتَهُ، ونِعَمَ داوود وسليمان لتعرفَ أنَّ الدنيا لا تستقر على حال، فعليكَ بالصبر».

والصبر أحسن ثوبٍ كما في شعر «عمر بن محمد بن بجير»، ورواه عنه «سعيد بن رميح» قال: سمعت عمر بن بجير يقول: خرجتُ في جنازة «أحمد بن صالح» بمصر، فرأيتُ قبراً مكتوباً عليه:

قبرٌ عزيزٌ علينا ... لو أنَّ مَنْ فيه يُفدى
أسكنتُ قرّةَ عيني ... ومُنيةَ النفس لحدا
ما جارَ خلقٌ علينا ... ولا القضاءُ تعدّى
والصبرُ أحسنُ ثوبٍ ... به الفتى يتردّى

قال الفخر الرازي: اعلمْ أنه قد حصل لأيوب نوعان من المكروه:

الأول: نفسيٌّ: وهو الغم الشديدُ بسبب زوال الخيرات مِنَ الأموال والأولاد.

الثاني: حسّيٌ في الجسم، من آلام وأوجاع، ولذلك ذكر الله النوعين فقال حاكياً عن أيوبَ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [ص ٤١].

وقال: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾[الأنبياء].

قال أحمد بهجت صاحب كتاب «أنبياء الله»: نفهم من هذه الآية أنَّ الله أراد امتحانه في ماله، وجسمه، وأهله:

- ذهب ماله فأصبح فقيراً بعد أن كان أغنى الناس.
- وفقد أهله فَعَرَفَ معنى الوحدة وألمَهَا.
- ومرضَ جسمُهُ فكان يُؤْلِمُهُ، وهو مع ذلك كلّه صابرٌ محتسبٌ.

قال العلماء: كان صبر أيوب أكبر من بلائه.

وقال سفيان الثوري: ما أصاب إبليس من أيوب شيئاً إلا الأنين.

قال الشنقيطي ما معناه: أرادَ الشيطانُ بوسوسته لأيوب أن يجعلهُ يجزع، وأن يُعظِمَ إليه البلاءَ الذي وقعَ فيه، ويُغريه على الكراهة، ولكنه لم يجزع، والتجأ إلى الله طالباً منه سبحانه العونَ والصبرَ، ثم دعا ربه أن يكشفَ عنه البلاء فكشفه.

والنداء منك لِمثلِكَ: هو طلبُ إقبالٍ إليكَ.

أما بالنسبة إلى الله، فهو بمعنى الدعاء: ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾: أي دعاهُ بمطلوبٍ.

هنا سؤال: كيف يُنادي أيوب ربه ويتوجعُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، أليس في علمِ الله أنَّ أيوب مسَّهُ الضرُّ؟

وهل يليقُ بالنبي أن يتوجَّعَ مِنْ ابتلاء الله له؟

والجواب: نعم، يجوز له التوجعُ، لأنَّ العبدَ لا يشجَعُ على ربه، ولذلك لما دخلَ صديقٌ على علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه يعوده في مرضٍ، رآه يتوجع ويتألم، فقال له الرجل: أتتوجع وأنت أبو الحسن؟ فقال علي: «أنا لا أشجعُ على الله».

وقول أيوب: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وصفَ ربَّه بالأرحمية، وجعل هذا الوصف تعريضاً بطلبِ كشفِ الضُرِّ عنه دون أنْ يسألَ، كما قال «أُمية بن أبي الصلت»:

إذا أثنى عليكَ المرءُ يوماً كفاهُ عَنْ تَعَرُّضِهِ الثناءُ

وكونه سبحانه ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾؛ لأنَّ رحمتهُ أكملُ الرحمات، لأنَّ رحمةَ غيره قد يرجو فاعلُها طلباً دنيوياً من ثناءٍ أو غيره، أو أُخرويّاً، أو دفعاً للرقةِ في النفس البشرية التي تُحبُّ نُصرةَ الحقِّ.

وأما رحمتُهُ تعالى عبادَهُ، فهي خاليةٌ عن استجلابِ فائدةٍ لذاته العليةِ.

وقوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، والمَسُّ: هو الالتقاءُ الهيّنُ الخفيفُ الذي هو دون اللَّمسِ، وهذا أدبٌ من أيوب حين دعا ربه، إذ جعل ما حلَّ به من الضُرِّ كالمسِّ الخفيف.

قال العلماء: مَرِضَ أيوب مرضاً شديداً أثَّرَ في إهابِهِ، فكان الشيطان يحوم حوله بخواطر السوء يقول له: كيف يفعل الله بك وأنت رسولٌ، كيف يتركُكَ هكذا دون أن يشفِيَكَ.

قال أهل العلم: لما اجتمع على أيوب المرض ووسوسة الشيطان ضَعُفَ فتوجَّه إلى الله يدعوه أن يقطعَ عن نفسه وسوسة الشيطان، لأنها تحتاجُ إلى مدافعةٍ ومقاومةٍ، والمُدافعةُ تحتاج إلى قوة، والقوةُ عنده موهونةٌ بالمرض، فدعا ربه حتى لا يزداد ضعفه بالوسوسة.

وقد ورد عن أنس مرفوعاً: أن أيوبَ وَثَبَ ليُصلي فلم يقدر على النهوض، فقال عندها: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، قال ذلك: إخباراً عن حاله، لا شكوى لبلائه، ثم إنَّ الإقرار بالعجز لا يُنافي الصبر، ثم إنَّ الله عز وجل أجرى ذلك على لسان أيوب: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، ليكون حُجةً لأهل البلاء بعده في الإفصاح بما ينزلُ بهم، وكان أشدَّ الضُر عليه بعد الوسوسة شماتَةُ الأعداء، ولذلك لما قيل له: ما كان أشدَّ عليك في بلائك؟ قال: شماتَةُ الأعداء.

قال ابن العربي في «أحكامه»: وهذا ممكنٌ فإنَّ الكليمَ موسى قد سأله هارونُ ألا يُشمِتَ به الأعداء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ [الأعراف ١٥٠].

وقول أيوب: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص ٤١].

قال صاحب «أيسر التفاسير»: نَسَبَ النُّصْبَ والعذاب إلى الشيطان، لأنهما كانا بسبب وسوسته حيث كان يُغري أيوب بكراهةِ ما أصابه، ويُحسِّنَ له الجزع، فالتجأ إلى الله ويحاولُ يُقْنِطَه مِنْ ربه، فدعاهُ.

وقد راعى أيوبُ الأدبَ مع الله تعالى حيث لم ينسبْ ما أصابَهُ من الألم إلى الله في دعائه، مع أنَّ الله هو الخالقُ للألم وهو فاعله ولا يقدر عليه غيره، والباء في قول أيوبَ: ﴿مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾: هي باء السبَبِيةِ: أي كان النُصْبُ والعذابُ ناتجيْن عن وَسْوَسَتِهِ.

قال العلماء: وحِفظ ُالأدب مع الله ومع الخلق هو حال الأنبياء جميعاً والصالحين، فهذا إبراهيم يقول عن الله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء]، ولم يقل: إذا أمرَضَني حِفْظاً للأدب مع الله سبحانه.

ومن ذلك قول يوسف لأبيه وإخوته في [سورة يوسف ١٠٠]: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾، ولم يقل من الجُبِّ حفظاً للأدب مع إخوته، وقال: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾، ولم يقل: رفعَ عنكم جُهدَ الحاجة، ثم أضاف يوسف ما جرى بينه وبين إخوته إلى الشيطان؛ لأنه السبب في الوسوسة.

ومن أدبِ قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن].

قال القرطبي: أدّبنا ربُّنا أدباً ألا نَنْسِبَ الشرَّ إليه ذكراً، إن كان موجوداً منه خلْقاً، وكان مِنْ ذكر النبي ﷺ: «والخير في يديك والشرُّ ليس إليكَ»، ومن ذلك قول الفتى لموسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف ٦٣].

ومن ذلك قول موسى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝٢٤﴾ [القصص]، ولم يقل: أطعمني مراعاةً للأدب مع الله سبحانه وتعالى.

أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير، من حديث أنس أنَّ النبي ﷺ قال: «إنَّ نبيَّ الله أيوب لَبِثَ في بلائه ثماني عشرةَ سنة».

وقلنا: إنه لم يصحَّ عن أيوب مما ذكرهُ المؤرخون والمفسرون إلا ما حدَّثنا

به ربُّنا في كتابه في آيتين اثنتين وهما: ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ ﴾ [الأنبياء].

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ٤١ ﴾ [ص].

شماتَةُ الأعداء وأثرها:

وقد ذكر الآلوسي عند قول أيوب: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ ﴾ [الأنبياء].

قال: رويَ عن أنس مرفوعاً، أنَّ أيوب نهض مرةً ليُصليَ فلم يقدرْ على النهوض، فقال عندها: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ ﴾.

وقال القرطبي في قوله: ﴿ مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ ﴾، قال: أي شماتَةُ الأعداء، ولذلك لما شُفِيَ سُئِلَ: أي شيء كان أشدَّ عليك؟ قال: شماتَةُ الأعداء.

والشماتَةُ مُحرَّمةٌ وهِي مَنْهِيٌّ عنها؛ لأنَّ الشماتَةَ هي السرور بما يُصيبُ أخاكَ المسلمَ من المصائب في دينه أو دنياه إذا ما عاداك.

وفي الحديث: «لا تُظهر الشماتَةَ بأخيكَ، فيُعافيهُ الله ويبتَليك».

وفي صحيح البخاري أنَّ النبي ﷺ كان يَتعوَّذُ من الشماتَةِ ويقول: «اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء، ودَرْكِ الشقاءِ، وشماتَةِ الأعداء».

ونبيُّ الله هارونُ خافَ مِنْ شماتَةِ أعدائه، فقال لأخيه موسى حينما عاتبه على تقصيره في منع بني إسرائيل مِنْ عبادةِ العجل: ﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠ ﴾ [الأعراف ١٥٠].

قال في «تاج المصادر»: وشماتَةُ العدو أشدُّ مِنْ كلِّ بَليةٍ، فلذلك قيل:

أَشْمَتَّ بي الأعداءَ حين هجرتني والموتُ دون شماتَةِ الأعداء

لأنَّ الشماتَةَ ثقيلةٌ على النفس وبخاصة إنْ كانت من عدو، ولذلك كان العرب يمدحون التجلُّدَ والصبر حتى لا يشمَتَ العدو، وكان معاوية عند مرضه يتجلَّدُ، ويتمثَّلُ بقول القائل:

وَتَجَلُّدي للشامتين أُريهِمُ أني لرَيبِ الدَهرِ لا أتضعْضَعُ

وكان من دعاء أيوب كما قال أبو عبد الله الجدْلي: «اللهم إني أعوذ بك من جارٍ عينهُ تراني، وقلبُهُ يراني، إن رأى حسنَةً أطفأها، وإن رأى سيئةً أذاعها».

قال العلماء: والشامِتُ لا بُدَّ أن يُبتلى، فاحذر يا عبد الله أن تشمتَ بأحد.

وما أجمل قول الشاعر:

إذا ما الدهرُ جرَّ على أُناسٍ كلاكِلَهُ أناخَ بآخرينا

فقل للشامتينَ بنا أفيقوا سيلقى الشامتونَ كما لقينا

كشف البلاء:

قال ابن كثير: كان أيوب يخرج لقضاءِ حاجته، فإذا قضاها أمسكت امرأتُهُ بيده حتى يرجع، فلما كان اليوم الذي أرادَ الله به أنْ يكشفَ عنه البلاءَ تأخرت عليه، فأوحى الله إليه: يا أيوب: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [ص]، ففعل، وجلس كأحسنِ ما يكون حالاً وجمالاً وقد زالَ عنه البلاءُ، فلما رأتْهُ قالت: أي عبد الله، بارك الله فيك، هل رأيتَ نبيَّ الله هذا المُبتلى؟

فوالله القدير ما رأيتُ رجلاً أشبهَ به منك إذ كان صحيحاً؟

فقال أيوبُ: أنا هو، فقالت: أتسخرُ مني يا عبد الله؟

قال: ويحَكِ، أنا أيوب، فقد ردَّ الله عليَّ جسدي.

قال الآلوسي في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء]، قال: لما عادَ لأيوب صحتُهُ وشبابُهُ جلس على مكانٍ مشرفٍ، ولم تعلم امرأتُهُ، فلما أتت قالت في نفسها: سأرجعُ إليه، بعد طردها لبيعِها ضفيرتها، فلما رجعت رأت رجُلاً في هذا المكان المُشرف، فصارت تطوفُ في المكان وتبكي، فقال أيوب: ما بك يا أمةَ الله، فبكت وقالت: أُريد ذاك المُبتلى الذي كان هنا؟ فقال أيوب: وما قرابتُهُ منك؟ قالت: زوجي أو بعلي، قال أيوب: أتعرفينَهُ إذا رأيتِهِ؟ قالت: وهل يخفى على المرآة زوجها؟!! فتَبَسَّمَ أيوب، فقال: أنا هو، فعرفتْهُ بضحكته وابتسامتِهِ فاعتنقتْهُ.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾، الإيتاءُ: الإعطاءُ، والمقصود هنا: إرجاعُ ما سُلِبَ منه من أهلٍ - يعني بموتِ أولاده وبناته - وضاعَفَ له ما أخذَهُ منه الابتلاءُ بعد الصبر.

أمّا المالُ، فقد روى البخاري والإمام أحمد، من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «بينما أيوب يغتسلُ خرَّ عليه جرادٌ من ذهب، فجعل أيوبُ يحثي في ثوبه، فناداه سبحانه: يا أيوب: «ألم أَكُنْ أغنيتُكَ عما ترى؟» قال: بلى وعِزَّتِكَ وجلالِكَ، ولكن لا غنى لي عن بركتِكَ.

قال ابن عباس: ردَّ الله عليه المال كذلك فقد أخرج ابن أبي حاتم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لما عافى الله أيوب أمطرَ عليه جراداً من ذهب، فجعل يأخذ منه بيديه، ويجعلُ في ثوبه، فقيل له: أما تشبَعُ؟ فقال عليه السلام: يا رب ومَنْ يشبَعُ من رحمتك؟».

قال القرطبي: ومطر الجراد الذهبي كان على قَدْرِ قواعِدِ بيته، ثم سُئِلَ: «ألم أُخلف عليك يا أيوب؟»، قال: بلى يا رب.

قال البروسوي: وفي ذلك دلالة على إباحةِ تكثير المال الحلال.

قال مجاهد وعكرمةُ: قيل لأيوب: قد آتيناك أهلك في الجنة، فإن شئتَ تركناهم فيها، وإن شئتَ آتيناكهم في الدنيا؟

قال مجاهد: تركهم في الجنة ثم أعطاه مثلهم في الدنيا.

قال النحاسُ: وهذا الإسنادُ عنهما صحيح.

الصبر وأثره وعاقبته:

قال القاسمي: لما امتُحِنَ أيوب فصبر وشكر، رَحِمَهُ مولاهُ عز وجل، فعادتْ له صحتُهُ، وأُوتيَ أضعافَ ما افتقده، ورُزِقَ الأولادَ والأحفادَ، وعُمِّرَ طويلاً حتى رأى أولادَهُ إلى الجيل الرابع.

لذلك خُتمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾، بعد قوله: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ وقولُهُ ﴿مِّنۡ عِندِنَا﴾ تنويهاً بشأنها، وأنها رحمةٌ خاصةٌ.

وقوله: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾، أي عبرةً لغيره من الصابرين ليعلموا أنَّ الله لا يترُكُ عنايَتَهُ بهم.

قال الجُنيد: عَرَّفَهُ فاقةَ السؤال – الحاجة إلى الله – لِيَمُنَّ عليه بِكَرَمِ النوالِ.

قال القاسمي، دلّت الآياتُ على أنَّ من أسباب الفرج: الدعاءُ والتضرع إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وإنَّ البلاءَ لا يدلُّ على الهوانِ والشقاءِ.

ولذلك قال صاحب كتاب «لطائف الإشارات»: وليس كلُّ أحدٍ أهلاً للبلاءِ، لأنَّ البلاءَ من صفةِ أرباب الولاءِ، وأما غيرهم، فيتجاوز عنهم

ويُخلِّي سبيلهم، لا لِكرامتهم، ولكن لحقارةِ قدْرِهم، فهذا يوسف، كان بريء الساحة، وظهرتْ للكُلِّ براءتُهُ، وابتُلِيَ بالسجن.

وامرأة العزيز في سوءِ فِعلِها حيث قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾ [يوسف ٢٨].

وقال لها: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾ [يوسف ٢٩]، ثم لم تنزلْ بها شَظِيَّةٌ من البلاء.

قال العلماء: مِنْ هنا نُدركُ منزلة الصبر في الإسلام، ولذلك ذُكِرَ الصبرُ في القرآن في نحوِ تسعين موضعاً، كما قال الإمام أحمد، وهو واجبٌ إجماعاً.

أوجه الصبر في القرآن على ستة عَشَرَ وجهاً، نكتفي بذكر عشرةٍ منها:

الأول: الأمر به: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة ١٥٣].

الثاني: النهي عن ضِدِّه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال]، وتوليةُ الأدبارِ تركٌ للصبر والمُصابرةِ.

الثالث: الثناء على الصابرين: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة].

الرابع: أوجَبَ الله محبتَهم فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران].

الخامس: مَعِيَّتُهُ الخاصةُ لهم: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال].

السادس: الصبر خير لأصحابه: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل].

السابع: يُعطى لهم جزاؤهم بغير حِساب: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر].

الثامن: إطلاقُ البشرى لأهل الصبر: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة].

التاسع: ضمانُ المدد والنصر: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران].

العاشر: الإخبار بأنَّ الفوزَ بالمطلوب، والنجاةَ من المكروه المرهوب إنما يُنالُ بالصبر: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد].

قال العلماء: هذه المعاني أدركها السلف الصالح وعاشوا مع الصبر ورضوا بكل ما يُصيبهم؛ لأنهم يَرَوْنَ المُبْلِي، ولا ينظرون إلى البلاء.

قال قتيبة بن سعيد: دخلتُ على بعض أحياء العرب، فإذا أنا بفناءٍ مملوءٍ من الإبل الميتةِ بحيثُ لا تُحصى، ورأيتُ شخصاً على تلٍّ يغزلُ صوفاً، فسألتُهُ، فقال: كانت الإبل باسمي ثم ارتجعها مَنْ أعطاها، ثم قال:

لا والذي أنا عبدٌ من خلائقهِ ... والمرءُ في الدهرِ نِصْبَ الرزءِ والمِحَنِ
ما سرّني أنَّ إبلي في مبارِكها ... وما جرى مِنْ قضاءِ الله لم يكنِ

كان صبرهم عجيباً، فقد رُوِيَ عن يحيى بن زيد العلوي: أنه حُمِلَ إلى بُخارى مُقيداً، ونُعِيَ إليه والده، فدخل بعض الشعراء فأنشدهُ قصيدةً، فقال يحيى للشاعر: دع ما تقولُ، واسمع مني ما أقول:

إن يكنْ نالَكَ الزمانُ ببلوى عَظُمَتْ شِدَّةً عليكَ وجلَّتْ
وتلتْها قَوارعٌ داهياتٌ سئِمتْ دونها النفوسُ ومَلَّتْ
فاصطبرْ وانتظرْ بُلوغَ مداها فالرزايا إذا توالَتْ توَلَّتْ

فالبلاءُ لا بُدَّ له من الانجلاء، قال «عبد الملك الذَّماري»: أثاروا قبراً قديماً في «ذمار» من بلاد اليمن، فوجدوا حجراً مكتوباً عليه:

اصبرْ لدهرٍ نالَ منك فهكذا مضت الدهورُ
فرحٌ وحزنٌ مرةً لا الحزنُ دامَ ولا السرورُ

وقال «علي البيكندي» في هذا المعنى:

خليلَيَّ لا والله ما مِنْ مُلِمَةٍ تدومُ على حُرٍّ وإن هي جَلَّتِ
وكم مِنْ كريمٍ ثَرْثَرتْهُ بِنابِها فصابَرَها حتى مضتْ واضمَحَلَّتِ

فكنْ - يا عبد الله - مع الله في الرخاءِ بالشكر، وفي البلاء بالصبر.

ومِنْ شعر «محمد الكاتب»:

لا بُدَّ للإنسانِ في دُنياهُ مِنْ فرجٍ وهَمْ
ومِنَ التَقلُّبِ دائماً في راحةٍ أو في أَلَمْ
فإذا فرحْتَ براحةٍ فاشكر لوهاب النِعَمْ
وافزعْ إلى الصبرِ الجميلِ إذا أذى أَلَمٍ أَلَمّْ

واجعل الصبر زادك للآخرة - يا عبد الله -:

قال «إبراهيم بن المولَّد»: دخلتُ على «إبراهيم المُقرئ» أعودُهُ، وقد رَفَسَتْهُ بغلةٌ فكسرت رجلَه، فقال لنا: لولا مصائبُ الدنيا قدِمْنا على الله مفاليسَ.

وكان ذو النون المصري يقول: مَنْ صَبَرَ على ما يكره رأى ما يُحب.

ومِنْ شعر عليّ رضي الله تعالى عنه:

اصبرعلى مَضَضِ الإدلاجِ بالسَّحَر وبالرواحِ على الحاجاتِ بالبُكَر
إني رأيتُ وفي الأيامِ تجربةٌ للصبرِ عاقبةٌ محمودةُ الأثرِ
فَقَلَّ مَنْ جَدَّ في أمرٍ يُطالِبُهُ فاستصحَبَ الصبرَ إلا فازَ بالظَفَرِ

وهذا الأمر سُنَّةٌ كونيةٌ، فالصبر في كل مجالات الحياة، في العلوم والمعارف إنْ واظبَ الإنسانُ عليه وصَبَرَ نالَ ثمرةَ صبره، وقديماً قالوا:

ومَنْ يَصطبر للعلمِ يظفرْ بنَيلِهِ

ومَنْ يخطبِ الحسناءَ يصْبر على البذلِ

وذكر القُشيري: قال: سُئِلَ «السريُّ السَقَطيُّ» عن الصبر، فأخذ يتكلم فيه، فدبَّتْ على رجله عقربٌ ضربتهُ بإبرتها ضرباتٍ وهو ساكنٌ لا يتحرك، فقيل له: لماذا لم تُبعد العقرب عن رجلك؟ قال: استحييتُ من الله تعالى أن أتكلمَ في الصبر ولم أصبر.

وورد في بعض الآثار: يقول الله عز وجل: «بعيني ما يتحمل المُتَحَملون مِنْ أجلي».

قال بعض السلف: كنتُ بمكةَ، فرأيتُ رجلاً فقيراً طافَ بالبيتِ، وأخرج من جيبه رقعةً ونظر فيها، ثم مرَّ وتابعَ طوافَهُ، فلما كان الغدُ فَعَلَ مثل ذلك، فراقبتُهُ أياماً وهو يُكرر في كل يومٍ العملَ نفسه.

وطافَ ذات يومٍ ونظرَ في الرقعةِ وتباعَدَ قليلاً ثم سقطَ ميتاً، فأخرجتُ الرقعةَ من جيبه، فإذا فيها قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾

[الطور ٤٨].

أي ليكن صبرك لِحُكْمِهِ، لا لأذى الكافرين؛ لأنَّ في الصبرِ لِحُكْمِهِ حلاوةً ليستْ في الصبرِ للأذى، وعندها تُجزى ثوابَ الصابرين بغير حساب، ويُعينك على الصبر، ولذلك قال: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾.

قال العلماء: والجزعُ لا يُقَرِّبُ فرجاً، إنما يُقَربُ الفرجَ الصبرُ.

حُكِيَ أنَّ طيراً في عهد سليمان، كان له صورةٌ حسنةٌ، وصوتٌ حَسَنٌ اشتراهُ رجلٌ بألف درهم، ومرةً جاء طيرٌ آخر من جنسه، فَوَقَفَ على القفصِ فصاحَ صيحةً فوق القفصِ وطار، فسكتَ الطيرُ المُصَوِّتُ بعدها ولم يَعُدْ للتغريد.

قَصَّ الرجل على سليمان ذلك، فقال لصاحبه: أحضِروه، فلما أحضَروه كلَّمَ سليمانُ الطائرَ فقال له: إنَّ لصاحبكَ عليك حقاً، فقد اشتراكَ بثمنٍ غالٍ لسماعِ صوتك، فلماذا سَكَتَّ؟ قال: يا نبيَّ الله: قُل له أنْ يرفَعَ تعلُّقَهُ بي، فإني لن أصيحَ ما دُمْتُ في القفص.

قال سليمان: ولِمَ؟ قال الطائر: لأنَّ صياحي كان مِنَ الجزع والحنين إلى الأهل والوطن، وقد قال لي الطير الذي وقَفَ عَلَيَّ: ويحك، إنما حبسك صاحبك لأجل صوتك فاسكت حتى تنجوَ.

فقال سليمان للرجل ما قاله الطير، فقال الرجل: أرسلهُ يا نبيَّ الله، فإني كنتُ أُحبه لصوته.

فأعطاهُ سليمان ألف درهم، ثم أرسلَ الطير، فطار وصاح:

سبحان من صوَّرني، وفي الهوا طيَّرني، وفي القفص صبَّرني.

قال سليمان: إنَّ الطير ما دامَ في الجزعِ لم يُفرَّجْ عنه، فلما صَبَرَ فُرِّجَ عنه،

وبسببه خلصَ الرجل مِنَ التعلق به.

قال ابن كثير: ولصبر أيوب وصبر زوجته معه، جُعِلَ لهما رخصةً في يمين حلفها أيوب، حتى لا يحنثَ، بل يكون قد وفّى بيمينه، وذلك ما قصَّهُ الله علينا في [سورة ص]: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

قوله: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾: تقدير الكلام، وقُلنا خذ بيدكَ ضِغْثاً، وهذا إفتاءٌ بِرُخصةٍ كما قال العلماء، حيث سَبَقَ منه يمينٌ أنْ يضربها عدداً من الضربات ولم يَرِدْ في سبب يمينه أثرٌ صحيحٌ، ولكن الآثار تدل على أنها حاولت الاستعانة ببعض الناس لمواساته وتطبيبه مِنْ دون عِلمه، وقيل: لبيع ذُؤابةٍ لها لما احتاجت للمال، وقيل: أرسلها في أمر فتأخرت، ثم نَدِمَ على يمينه لأنه كان يُحبها لإخلاصها الكبير أيامَ مرضه حيث كانت تلوذُ به ولا تتركه.

ولما سُرِّيَ عنه وذهبَ مرضه، أشفَقَ على امرأته من ذلك، ولم يكن في دينهم كفارةُ اليمين، فأوحى الله إليه أن يضربها بحُزمةٍ فيها عددٌ من الأعوادِ بعدَدِ الضربات التي أقسَمَ عليها؛ رفقاً بزوجته لأجله، وبراً بيمينه إذ لا يليقُ الحنثُ بمقام النبوة.

والقصة مع زوجه لا علاقة لها بكون أيوب أُسوةً بالصبر وإنما جيء بها وذُكرتْ هنا تكملةً لمظهرِ لُطف الله بأيوبَ جزاءً على صبره، لذلك قال تعالى في ختامها: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص].

قال الرازي: لما كانت زوجته وفيةً حَسَنَةَ الخدمةِ، حَلَّلَ الله يمينهُ بأهونِ شيءٍ عليه وعليها، لأنَّ الضربَ - كما قال العلماء - مُرٌّ، الضربُ علاجٌ مُرٌّ، قد يستغني عنه الحر، ولكنه لا يزول مِنَ البيوت بكل حال، أو يَعُمَّ التهذيب النساء والرجال.

هنا سؤال: هل هذا الحُكم في الرخصة عامٌّ؟ أم خاصٌّ بأيوب؟

للعلماء في هذه القضية قولان:

قال عطاء ومجاهد: هو حُكم عامٌّ وباقٍ، فقد ورد عن عطاء كما روى سعيد بن منصور: أنَّ رجلاً قال له: إني حلفتُ ألا أكسُوَ امرأتي ثوباً حتى تَقِفَ في عرفة، فقال عطاء: احملها على حمار، ثم اذهب بها فَقِفْ بها في عرفةَ، فقال الرجل: إنما قصدتُ يومَ عرفةَ، قال عطاءُ: هل أيوبُ حين حلفَ ليجلدنَّ امرأته مائة جلدةٍ، أنَوَى أن يضربها بالضِغثِ؟ إنما أمَرَهُ أنْ يأخذ ضِغثاً فيضربها، ثم قال عطاء: إنما القرآن عِبَرٌ، إنما القرآن عِبَرٌ.

وقال أبو حنيفة ومالك وأحمد: لم يَبَرَّ بيمينه، بل هو خاص بأيوب.

وعند أحمد: يَبَرُّ بيمينه إذا كان الذي يُقام عليه الحدُّ مريضاً أو هزيلاً، وأمّا إذا كان الشفاءُ مؤملاً فيُؤَخَّرُ حتى يشفى هذا المريضُ ثم يُقامُ عليه الحدُّ، هذا في الحدود، أمّا في كفارات الأَيْمان، فقد شرعَ الله لنا الكفارة فلا تكلُّفَ في القِصَّةِ.

ورحم الله الآلوسي حين قال: وكل حيلةٍ توصلكِ لإبطال حكم شرعي لا تُقبل، كحيلةِ إسقاط الزكاة، أو حيلةِ سقوطِ الاستبراء.

قال الطبري: عاشَ أيوب ثلاثاً وتسعين سنةً وأوصى بعده عند موته إلى ولده «حَوْمَل»، ثم «حومل» أوصى إلى أخيه «بِشر» بالحِفاظ على التوحيد.

قال ابن الجوزي: ما ضرَّ أيوب ما جرى، فقد مرَّ البلاءُ كأنه سِنَةُ الكرى، ثم شاعت محاسِنُهُ بين الورى، وإنما يصبر من فَهِمَ العواقبَ ودرى.

ورحم الله الشبلي حين قال: لا تغترْ بدارٍلا بُدَّ من الرحيل عنها، ولا تخربْ داراً لا بُدَّ مِنَ الخلود فيها.

قال العلماء: وعاقبةُ الصبرِ محمودةٌ، حيثُ يُقال لهم في العقبى لمّا يأخذون ثوابَ صبرهم في الدنيا على الطاعةِ، وصبرهم عن المعصيةِ، وصبرهم على الأقدارِ، وعلى أذى الكفار، قال تعالى يقُصُّ علينا نَدَمَ الكفار يومَ القيامة، وطلبهم مِنَ الله أنْ يُخرجهم من النار: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [المؤمنون].

وانتبه إلى هذا:

لمّا صَبَرَ أهل الإيمان على الاستهزاء والسُخريةِ عوَّضهم الله نعيماً وتكريماً، وهذه مسألةٌ يَجِبُ ألا يغفلَ عنها المؤمنون حين يسخرُ منهم أعداؤهم، وعليهم أنْ يتذكروا في هذه الحالة عطاءَ ربهم لهم وجزاء صبرهم، وإنْ كان الساخِرُ منك عبداً له قُدرتُهُ المحدودةُ، فالمُكرم لك ربُّ العزةِ بقدرته التي لا حدود لها - كما قال العلماء -، ثم قالوا: ولَكَ بعد ذلك أنْ تُقارن بين مشقةِ الصبر على أذاهم، ولذةِ النعيم الذي تجده بعد ذلك جزاءً على صبرك.

قال مجاهد في قوله تعالى عن أيوب: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ : يُجاءُ بالمريض يوم القيامةِ فيُقالُ: ما منعك أنْ تعبُدني؟ فيقول: يا رب ابتليتني، فيُجاءُ بأيوبَ في ضُرِّه فيقول: أنت كنتَ أشدَّ ضُرّاً أم هذا؟

فيقول العبد: بل هذا.

فيقول: هذا لم يمنعهُ ذلك أنْ عبدني.

يقول ابن الجوزي: ما ضرَّ أيوبَ ما جرى، كأنه سِنَةُ كرى، ثم شاعت محاسِنُهُ بين الورى، وإنما يصبر مَنْ فهِمَ العواقب ودرى.

روى الرواةُ عن الأوزاعي قال: حدَّثني حكيمٌ من الحكماءِ قال: مررتُ بعريشِ مصر وأنا أُريدُ الرِّباطَ، فإذا برجل في مظلةٍ قد فَقَدَ بصرهُ ويديه ورجليه، وبه أنواعُ البلاءِ، وهو يقول: الحمد لله حمداً يُوافي نِعَمَكَ - شكرك - بما أنعمتَ عليَّ وفضَّلتني على كثيرٍ مِنْ خلقك تفضيلاً، فقلتُ: - الحكيم قال في نفسه -: لأنظُرنَّ أشيءٌ عُلِّمَهُ أو أُلهِمَهُ إلهاماً؟ فقلتُ له: على أي نِعْمَةٍ تحمده؟ فوالله ما أرى شيئاً من البلاءِ إلا وهو بك؟!! فقال: انظر ما صَنَعَ بي؟ فوالله لو أرسلَ السماءَ عليَّ ناراً فأحرقتْني، وأمرَ الجبالَ فدكَّتْني، وأمرَ البحارَ فأغرقتْني، ما ازددْتُ له إلا حمداً وشُكراً، ولكن لي إليكَ حاجة، بُنيَّةٌ - «وفي سير أعلام النبلاء»: بُنَيٌّ لي يتعاهدُني في وضوئي وطعامي وشرابي، فقدتُهُ منذُ ثلاث -، لي كانت تخدمُني وتتعاهدُني عند إفطاري، فانظر هل تُحسُّ بها؟ فقلتُ: والله إني لأرجو أنْ يكون لي في قضاءِ حاجةِ هذا العبدِ الصالح قربةٌ إلى الله عز وجل، فخرجتُ أطلبُها بين تلك الرمال، فإذا السَّبُعُ قد أكلها، فقلتُ: إنا لله وإنا إليه راجعون، كيف لي أنْ آتيَ هذا العبدَ الصالحَ فأُخبرَهُ بموتِ ابنته، فأتيتُهُ، فقلتُ له: أأنتَ أعظمُ منزلةً عند الله أم أيوب؟ ابتلاهُ الله في ماله وأهله وجسمه؟ فقال: بل أيوب، فقلتُ: إن ابنتك التي أمرتني أنْ أُفتشَ عنها قد افترستها الوحوش، فقال: الحمد لله الذي لم يُخرجني مِنَ الدنيا وفي قلبي شيءٌ - وفي «سير أعلام النبلاء» أنه قال: الحمد لله الذي لم يخلق مِنْ ذريتي خَلْقاً يعصيه -، قال: ثم استرجع، ثم شهقَ شهقةً لم يعش بعدها طويلاً، ثم مات.

قال الحكيمُ الذي روى القصةَ للأوزاعي: فقمتُ عليه أنا وجماعةٌ معي،

ثم دفنتهُ، ثم بِتُّ ليلتي حتى إذا مضى من الليل قدرَ ثُلُثه، رأيتُهُ - في المنام - وإذا به في روضةٍ خضراء، وعليه حُلَّتان خضراوان وهو قائمٌ يتلو القرآن، فقلتُ: ألستَ صاحبي بالأمسِ؟ فقال: بلى، فقلتُ: ما صيَّركَ إلى ما أرى؟ فقد زِدْتَ على العبادِ درجةً لم ينالوها، قال: بالصبر عند البلاءِ، والشكر عند الرخاء.

وروى بعض أصحاب «بشر بن الحارث»، قال: جئتُ إلى بابه، فإذا هو في الدهليز وبين يديه بطيخةٌ، وهو يقول لنفسه: أكلتيها، فكان ماذا؟

قال: فطرقتُ البابَ تلكَ اللحظةَ التي يقول فيها العبارة التي سمعتُها منه وهو يُوَبِّخُ نفسه، ودخلتُ، وقلت له: أيَّ شيءٍ تُعاتب نفسك فيه؟ فقال:

صبرتُ على الأيام حتى تولَّت … وألزمتُ نفسي صبرها فاستمرت
وما النفسُ إلا حيثُ يجعلُها الفتى … فإن أُطْمِعَتْ تاقت وإلا تَسَلَّتْ

ثم رمى البطيخة إليَّ وقال:

وإنَّ كَدِّي لِشَبْعِ بطني … ببيعِ ديني بلا محالِ
مَنْ نالَ دنيا بغير دينٍ … نالَ وبالاً على وبالِ

وقال «محمد بن إسحق السراج»، قال: سمعتُ «أحمد بن الفتح» يقول: رأيتُ «بشراً الحافي» في المنام وهو قاعد في بستانٍ، وبين يديه مائدةٌ، وهو يأكل منها فقلتُ له: يا أبا نصر، ما فعل الله بك؟ قال: رحمني وغفر لي وأباحني الجنة، وقال لي: «كُلْ من جميعِ ثمارها، واشربْ مِنْ أنهارها، وتمَتَّعْ بجميعِ ما فيها كما كنتَ تصبرُ على شهوات الدنيا».

مواعظ:

قال العلماء: ومِنْ مواعظ الحسن البصري: قوله: إنَّ لله تعالى عباداً كمن رأى أهلَ الجنة في الجنة مُخلَّدين، وكمن رأى أهل النار في النار مُعَذَّبين، قلوبُهم محزونةٌ، وشرورُهم مأمونةٌ، وأنفسُهم عفيفةٌ، وحوائجهم خفيفةٌ، صبروا أياماً قِصاراً، تُعْقِبُ راحةً طويلةً، أما الليلُ فصَافةٌ أقدامهم تَسيلُ دموعهم على خدودهم، يجأرون إلى ربهم، ربَّنا، ربَّنا، وأما النهار فعُلماءُ حُلماءُ بررَةٌ أتقياءُ، يَنظرُ إليهم الناظرُ فيحسَبُهم مرضى، وما بهم مرضٌ.

واسمع معي – يا عبد الله – إلى مقطوعة من وعظِ سَلَفِنا حيث يقول:

يا قليل الصبر عن اللهو العبثْ
يا مَنْ كلما عاهَدَ غَدَرَ ونكثْ
يا مُغتراً بساحِرِ الهوى كلّما نفثْ
وتالله لقد بُعِثَ إليه النذير ولا
يدري مِنَ العَبَثِ مَنْ بَعثْ
سيندمُ مَنْ للقبيحِ حرث
سيبكي زمانَ الهوى حين الظمأِ عندَ اللَّهَثْ
سيعرف خبرهُ العاصي إذا حلَّ الحدثْ
عجباً لجاهلٍ باعَ تعذيبَ النفوسِ براحاتِ الجثث

ومِنْ كلام ابن الجوزي: لمّا عَلِمَ الصالحون أنَّ الدنيا دار رِحْلَةٍ، دافعوا زمانَ البلاءِ، وأدلجوا في ليل الصَّبر عِلْماً منهم بِقرب فَجْرِ الأَجْرِ، فما كانت إلا رقدةً حتى صَبَّحوا منزلَ السَّلامةِ، أخمَصُوا عن الحرام البطونَ، وغضوا عن الآثامِ الجفونَ.

وسكبوا في ظلام الليل الدموعَ، وتململوا تَمَلْمُلَ الملسوعِ إذا عمَّهم الغم فبالذكرِ يتروَّحون، رفضوا حرامَ الدنيا فسلِموا، وطلبوا الآخرة فما ندِموا، يا بُشراهم إذا قدموا وغَنِموا.

يا قليلَ الصبر إنما هي مراحل.

فصابرْ لُجَّةَ البلاءِ فالموتُ ساحل.

تأمَّلْ تحتَ سَجْفِ ليلِ الصبر صُبْحَ الأجر.

واحبسْ لسانكَ عن الشكوى في سجن الصبر.

واقطعْ نهارَ اللأواء بحديث الفكر.

وأوقدْ في دياجي الظلامِ مصباحَ الشكر.

وقلّبْ قلبكَ بين ذكر الثواب وتمحيصِ الوزْر.

وتعلَّمْ أنَّ البلاءَ يُمزق رُكامَ الذنوب تمزيقَ الشباك.

ويرفعُ درجاتِ الفضائل إلى كاهل السِّماك.

-يا عبد الله –

مَنْ تفكَّرَ في سِرِّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال ٤٦] أَنِسَ بِجليسهِ.

ومَنْ تذكر: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر ١٠] فَرِحَ بامتلاء كيسِهِ.

إذا أنت لم ترحل بزادٍ مِنَ التُّقى ... ولاقيتَ بعدَ الموتِ مَنْ قد تزوّدا
ندمتَ على أن لا تكونَ كمثلهِ ... وأنك لم تُرْصِد كما كان أرصدا

– يا عبد الله –:

لله أقوامٌ امتثلوا ما أُمِروا.

وزُجِروا عن الزَّلَلِ فانزجروا.

فإذا لاحت الدُنيا غابوا، وإذا بانت الأُخرى حضروا.

فلو رأيتهم في القيامةِ إذا حُشروا: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾ [المؤمنون ١١١]، جنَّ عليهم الليل فسهروا.

وطالعوا صُحف الذنوب فانكسروا.

وطرقوا بابَ المحبوبِ واعتذروا.

فانظر بماذا وُعِدوا في الذكرِ وذُكِروا: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾.

ربحوا والله ما خسروا، وعاهدوا على الزُهد والصبرِ فما غدروا، وتَفَقَّدوا أنعُمَ المولى فاعترفوا وشكروا: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾.

استوحشوا مِنْ كلِّ جليسٍ، شُغُلاً بمعاني كلِّ نفيس.

وحرَّكوا مطايا الجِدِّ والاجتهادِ فسارتْ العيس.

وبادروا الفرصةَ ففاتوا إبليسَ لا وقَفوا ولا فتَروا: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾.

قلوبٌ في الخدمةِ حضرتْ، أسرارٌ بالصدقِ عُمرتْ، بالصبرِ شهواتِهم انكسرت، أخبارُهم تُحيي القلوبَ إذا نُشرت، ويُقالُ عن القومِ إذا نشروا: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ ﴾.

جَدُّوا فليسَ فيهم مَنْ يلعب.

وأذابوا قلوبهم بِقِلَّةِ المطعم والمشرب، فغداً يُقالُ لهم: كلْ يا مَنْ لم تأكلْ، واشرب يا مَنْ لم يشرب.

ذِكْرُهُم في الحياة وإنْ قُبِروا: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

طوبى لهم والأملاكُ تتلقاهم.

كُشِفَ الحِجاب عن عيونهم فأراهم.

أقصى آمالهم وقد ظَفِروا: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

قال العلماء: إنَّ الله سبحانه جعل الصبرَ جواداً لا يَكْبُو، وصارماً لا يَنْبُو، وجُنداً لا يُهزم، وحِصناً لا يُهدم.

فهو والنصر أخوان شقيقان.

وهو أنصَرُ لصاحبه مِنَ الرجال بلا عُدَّةٍ ولا عدد.

ومحلُّه من الظَفَرِ محلُّ الرأسِ مِنَ الجسد.

فاصبر – يا عبد الله – صبرَ الكرام، فالكريمُ يصبرُ في طاعةِ الرحمن، واللئيمُ يصبرُ في طاعةِ الشيطان.

فاصبر – يا عبد الله – صبرَ الكِرام، وإلا سَلَوْتَ سُلُوَّ البهائم.

اللهم بَلِّغْنا ذلك المبلغْ.

وأَسْمَعَنا زجرَ الناصح فقد أبلغْ.

وسَتَرَنا مِنَ العقابِ، فإنه سبحانه إذا عفا أَسْبَغ.

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٥
نوح عليه الصلاة والسلام	٩
نسبه:	١١
واختار إبراهَيم بخمسة أشياء	١٣
تصحيح لخطأ تاريخي	١٣
أولاده	١٤
بعثة نوح عليه الصلاة والسلام	٢٥
قيام نوح عليه الصلاة والسلام بالدعوة	٢٨
نوح في مجلس الملك	٣٩
اشتداد البلاء على نوح	٥٦
أمرُ الله لنوحٍ بصنع السفينة	٦٦
وصف السفينة	٧٠
سخريَة قوم نوح عليه السلام من صنعه للسفين	٧١
بعض الطرائف والغرائب في قصة نوح	٧٣
فوائد	٧٣
علامةُ مبدأ الطوفان	٧٦
ما جرى لنوح مع ولده «يام»	٩٦
نهاية الطوفان	٩٧

أين كان الهبوط؟	١٠٧
ملاحظة	١٠٩
هل كان الطوفان عامًّاً؟	١٠٩
قصة الطوفان عند الأمم	١١٠
الطوفان عند الكلدانيين	١١٠
الطوفان عند اليونان	١١١
الطوفان عند الفرس	١١١
الطوفان عند الوثنيين الهنود	١١٢
بعض أخبار نوح عليه السلام	١١٤
ذكر صوم نوح عليه السلام	١١٦
ذكر حج نوح عليه السلام	١١٦
ذكر وصية نوح عليه السلام لولده	١١٦
ذكر وفاة نوح عليه السلام	١١٨
أين دُفن نوح عليه السلام	١١٨
هود عليه الصلاة والسلام	١٢١
إلى من بُعِثَ هود عليه السلام؟	١٢٣
نسبه	١٢٤
الظرف الزماني لهود وقومه	١٢٦
أرضهم وموطنهم	١٢٧

بعثةُ نبي الله هود عليه السلام إلى عاد	١٣٢
ملاحظة يجب أن ننتبه إليها وهي	١٣٤
الانهيارُ، وسببُ هذا الانهيارِ	١٤٥
نُذُرُ الهلاك	١٤٦
معلومات عن الريح المُهلِكَةِ	١٦٩
ماذا كانت عاقبة هود ومن آمن معه؟	١٧١
صالح عليه الصلاة والسلام	١٧٥
من هو نبي الله صالح؟	١٧٨
مساكن ثمود	١٧٩
البدء بدعوتهم إلى الإيمان بالله، وترك الأوثان:	١٨٧
ما هو ردُّ ثمود على نبيّ الله صالح بعد أن دعاهم إلى الله	١٩١
طلبهم للمعجزة الدالة على صدقه في دعواه	١٩٣
تفجُّرُ العداوة	١٩٧
عقر الناقة	١٩٩
ماذا كانت نتيجة هؤلاء المتآمرين التسعة؟	٢٠٥
نزول العذاب	٢٠٦
الموعظةُ: بماذا أُخذوا؟ ما سبب هلاكهم؟	٢١٤
إبراهيم عليه الصلاة والسلام	٢٢١
مولد إبراهيم	٢٢٥
لقب إبراهيم	٢٢٧

ذكر شيء عن مولده	٢٣١
بيئة إبراهيم	٢٣٧
تحطيم الأصنام، ومناقشة القوم	٢٤٥
اختيار الوقت لهذا العمل	٢٤٦
المناظرة بين النمرود، وبين إبراهيم عليه الصلاة والسلام	٢٦٥
قصة هذه المناظرة وسببها	٢٦٦
الهجرة من العراق إلى بلاد الشام، ثم إلى مصر، ثم العودة إلى الأرض المقدسة	٢٦٩
المحاجَّة والتخويف	٢٧٩
متابعة الهجرة إلى الشام، ثم الذهاب إلى مصر:	٢٨٢
بلاء الجَمال	٢٨٣
ابتلاء جديد	٢٩١
ولادة إسماعيل	٢٩١
هجرة إبراهيم بولده إسماعيل، وأمه هاجر إلى مكة	٢٩٥
نزول جرهمَ في الحرم	٢٩٨
ماء زمزم	٣٠٢
أسماء زمزم	٣٠٣
قصة الذبيح	٣٠٤
الرؤيا	٣٠٧
لماذا كان الأمر بالذبح؟	٣١٠

مكافأة إبراهيم على صبره على هذا البلاء العظيم	٣١٨
عودة إلى إسماعيل	٣٢٣
إبراهيم وزوجة إسماعيل	٣٢٤
مقام إبراهيم	٣٣٠
ما المراد بالمقام؟	٣٣١
طلب إبراهيم من ربه أن يرى كيفية إحياء الموتى	٣٣٤
ثناء الله تعالى، وثناء رسوله محمد ﷺ على إبراهيم الخليل	٣٣٧
قصر إبراهيم في الجنة	٣٤٠
صفة إبراهيم عليه السلام	٣٤٠
وفاته عليه الصلاة والسلام	٣٤١
أولاده وزوجاته	٣٤٢
يوسف عليه الصلاة والسلام	٣٤٥
وصول يعقوب إلى حرَّان وزواجه:	٣٤٨
قصة يوسف في القرآن الكريم	٣٥١
نزول سورة يوسف	٣٥١
التمهيد لنبوة يوسف بالرؤيا الصادقة	٣٥٧
كيف عَلِمَ إخوة يوسف بالرؤيا	٣٦٣
الحسد والمؤامرة	٣٦٤
الاتفاق على رميه في البئر	٣٦٨
التنفيذ، وكيف بدأ	٣٦٩

اطمئنان يعقوب	٣٧٥
تنفيذ الإلقاء في البئر	٣٧٥
ما هو الصبر؟ و ما هو الصبر الجميل؟	٣٨٤
سؤال وبحث	٣٨٧
حال يوسف وكيف تداركته رحمة الله عز وجل	٣٨٨
المحنة الأولى: يوسف في الجُبِّ	٣٨٨
المحنة الثانية: الاسترقاق	٣٩٣
يوسف في مصر عند سيده	٣٩٦
المحنَةُ الثالثة: في بيت العزيز ومع امرأته	٤٠٢
درس بليغ علينا أن نَعِيَهُ	٤١٤
كيف واجه يوسف المُجتمع المُتراخي	٤١٥
المحنة الرابعة: السجن	٤٤١
دخول يوسف السجن	٤٤٢
حال يوسف في السجن ومُشاهداته	٤٤٦
تفسير رؤيا الفتيان	٤٥٨
اقتراب الفرج	٤٦٦
رؤيا الملك	٤٦٧
التحقيق مع النسوة وظهور براءة يوسف	٤٨١
خروج يوسف من السجن	٤٨٦
يوسف الآمر الناهي بمصر	٤٨٨

دخول سنوات القحط والشِّدة	٤٩٤
اللقاء الأول بين يوسف وإخوته	٤٩٨
الحسد والعين	٥١٠
اللقاء الثاني بين يوسف وإخوته وبنيامين	٥١٧
اللقاء الثالث بين يوسف وإخوته	٥٤٣
اللقاء المثير، وتحقق رؤيا يوسف	٥٥٦
وفاة يعقوب عليه السلام	٥٦٠
وفاة يوسف عليه السلام	٥٦٠
أيوب عليه الصلاة والسلام	٥٦١
نسبه	٥٦٥
مكان أيوب	٥٦٥
قصة ابتلائه وصبره	٥٦٩
شماتَةُ الأعداء وأثرها	٥٧٥
كشف البلاء	٥٧٦
الصبر وأثره وعاقبته	٥٧٨
أوجه الصبر في القرآن على ستة عَشَرَ وجهاً، نكتفي بذكر عشرةٍ منها	٥٧٩
مواعظ	٥٨٩
الفهرس	٥٩٣

تم بحمد الله